فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف
محمد بن علي بن محمد الشوكاني
(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

الجزء الثاني

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت

فتح القدير

بسم الله الرحمن الرحیم

فتح القدير: الجامع بين فنى الروايه والدرايه من علم التفسير

كاتب:

محمدبن على بن محمد الشوكانى

نشرت فى الطباعة:

بى جا

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

فتح القدير: الجامع بين فنی الروايه والدرايه من علم التفسير المجلد ۲

اشارة

سرشناسه : شوکانی، محمدبن علی، ق۱۲۵۰ - ۱۱۷۳
عنوان و نام پدیدآور : فتح القدیر: الجامع بین فنی الروایه والدرایه من علم التفسیر/ تالیف محمدبن علی بن محمد الشوکانی؛ راجعه و علق علیه هشام النجاری خضر عکاری
مشخصات نشر : بیروت : المکتبه المصریه: [بی‌جا]: مکتبه العبیکان ، ۱۴۱۸ق. = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.
مشخصات ظاهری : ج ۵
وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی
یادداشت : چاپ قبلی: مصطفی البابی الحلبی، ۱۳۵۱
یادداشت : کتابنامه
موضوع : تفاسیر
موضوع : تفاسیر اهل سنت
موضوع : تفاسیر شیعه
شناسه افزوده : نجاری، هشام ، محقق
شناسه افزوده : عکاری، خضر، محقق
رده بندی کنگره : BP۹۱/ش۹ف۲
شماره کتابشناسی ملی : م۸۰-۳۴۶۰۹

تنبيه:

جرى المفسّر- رحمه اللّه- فى ضبط ألفاظ القرآن الكريم فى تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرّضه للقراءات السّبع، و أثبتنا القرآن الكريم طبق رسم المصحف العثمانى.
فتح القدير، ج۲، ص: ۵

سورة المائدة

اشارة

قال القرطبى: هى مدنيّة بالإجماع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: المائدة مدنيّة. و أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن جبير بن نفير، قال:
حججت فدخلت على عائشة، فقالت لى: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، و ما وجدتم من حرام فحرّموه. و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن عبد اللّه بن عمرو قال: آخر سورة نزلت سورة المائدة و الفتح. و أخرج أحمد عنه قال: أنزلت على رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سورة المائدة و هو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها. قال ابن كثير: تفرّد به أحمد. قلت: و في إسناده ابن لهيعة.

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و محمد بن نصر في كتاب الصلاة، و الطبراني و أبو نعيم في الدلائل، و البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه. و أخرج ابن أبي شيبة في مسنده، و البغوي في معجمه، و ابن مردويه، و البيهقي في دلائل النبوّة عن أم عمرو بنت عيسى عن عمّها نحوه أيضا. و أخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظي نحوه. و زاد أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة و المدينة. و هكذا أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة، و أخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب و عطية بن قيس قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «المائدة من آخر القرآن تنزيلا، فأحلّوا حلالها و حرّموا حرامها». و أخرج أبو داود و النحاس كلاهما في الناسخ عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: لم ينسخ من المائدة شيء. و كذا أخرجه سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه. و كذا أخرجه عبد بن حميد و أبو داود في ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبي.

و كذا أخرجه عبد بن حميد و أبو داود في ناسخه و ابن المنذر عن الحسن البصري. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود في ناسخه و ابن جرير و ابن المنذر عن الشعبي قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ «١». و أخرج أبو داود في ناسخه، و ابن أبي حاتم، و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: نسخ من هذه السورة آيتان، آية القلائد. و قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ «٢». و أخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عباس أن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ في خطبته سورة المائدة و التوبة، و ذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: «لما رجع صلّى اللّه عليه و سلّم من الحديبية قال:

«يا علي أشعرت أنها نزلت عليّ سورة المائدة؟ و نعمت الفائدة»، قال ابن العربي: هذا حديث موضوع لا يحلّ لمسلم اعتقاده، و قال ابن عطية: هذا عندي لا يشبه كلام النبي صلّى اللّه عليه و سلّم.

---

(١). المائدة: ٢.

(٢). المائدة: ٤٢.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المائدة (٥): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لا الْهَدْيَ وَ لا الْقَلائِدَ وَ لا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢)

هذه الآية التي افتتح اللّه بها هذه السورة إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية، مع شمولها لأحكام عدّة: منها الوفاء بالعقود، و منها تحليل بهيمة الأنعام، و منها استثناء ما سيتلى مما لا يحلّ، و منها تحريم الصيد

على المحرم، و منها إباحة الصّيد لمن ليس بمحرم. و قد حكى النقاش أنّ أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: و اللّه ما أقدر و لا يطيق هذا أحد، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء و نهى عن النكث، و حلّل تحليلا عاما، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته و حكمته فى سطرين، و لا يقدر أحد أن يأتى بهذا. قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، يقال:

أوفى و وفى لغتان، و قد جمع بينهما الشاعر فقال:

أمّا ابن طوق فقد أوفى بذمّته كما وفى بقلاص النّجم حاديها

و العقود: العهود، و أصل العقود الربوط، واحدها عقد، يقال: عقدت الحبل و العهد، فهو يستعمل فى الأجسام و المعانى، و إذا استعمل فى المعانى كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام، قوىّ التوثيق؛ قيل: المراد بالعقود هى التى عقدها اللّه على عباده، و ألزمهم بها من الأحكام؛ و قيل: هى العقود التى يعقدونها بينهم من عقود المعاملات، و الأولى شمول الآية للأمرين جميعا، و لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض. قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد اللّه عليكم و بعقدكم بعضكم على بعض، انتهى. و العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب اللّه و سنة رسول اللّه، فإن خالفهما فهو ردّ لا يجب الوفاء به و لا يحلّ. قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ الخطاب للذين آمنوا. و البهيمة: اسم لكل ذى أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها و فهمها و عقلها، و منه باب مبهم: أى مغلق، و ليل بهيم، و بهمة للشجاع الذى لا يدرى من أين يؤتى، و حلقة مبهمة:

لا يدرى أين طرفاها. و الأنعام: اسم للإبل و البقر و الغنم، سمّيت بذلك لما فى مشيها من اللين؛ و قيل:

بهيمة الأنعام: وحشيها كالظباء و بقر الوحش و الحمر الوحشية و غير ذلك، حكاه ابن جرير الطبرى عن قوم، و حكاه غيره عن السدّى و الربيع و قتادة و الضحاك. قال ابن عطية: و هذا قول حسن، و ذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج، و ما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له: أنعام مجموعة معها، و كأن المفترس كالأسد،

فتح القدير، ج‏2، ص: 7

و كلّ ذى ناب خارج عن حدّ الأنعام، فبهيمة الأنعام هى الراعى من ذوات الأربع؛ و قيل: بهيمة الأنعام:

ما لم تكن صيدا؛ لأنّ الصّيد يسمّى وحشا لا بهيمة؛ و قيل بهيمة الأنعام: الأجنّة التى تخرج عند الذبح من بطون الأنعام فهى تؤكل من دون ذكاة. و على القول الأوّل أعنى تخصيص الأنعام بالإبل و البقر و الغنم تكون الإضافة بيانية، و يلحق بها ما يحلّ مما هو خارج عنها بالقياس، بل و بالنصوص التى فى الكتاب و السنة كقوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً «1» الآية، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم:

«يحرم كلّ ذى ناب من السّبع و مخلب من الطير» فإنه يدل بمفهومه على أن ما عداه حلال، و كذلك سائر النصوص الخاصة بنوع كما فى كتب السنة المطهرة. قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ استثناء من قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ أى إلا مدلول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال. و المتلوّ: هو ما نصّ اللّه على تحريمه، نحو قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ «2» الآية، و يلحق به ما صرّحت السّنّة بتحريمه، و هذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن، و يحتمل أن يكون المراد به فى مستقبل الزمان، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، و يحتمل الأمرين جميعا. قوله: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ذهب البصريون إلى أن قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ استثناء من بهيمة الأنعام و قوله: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ استثناء آخر منه أيضا، فالاستثناءان جميعا من بهيمة الأنعام، و التقدير: أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد و أنتم محرمون؛ و قيل: الاستثناء الأوّل من بهيمة الأنعام، و الاستثناء الثانى هو من الاستثناء الأوّل، و ردّ بأن هذا يستلزم إباحة الصيد فى حال الإحرام، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحا، و أجاز الفراء أن يكون إِلَّا ما يُتْلى فى موضع رفع على البدل، و لا يجيزه البصريون. إلا فى النكرة و ما قاربها من الأجناس.

قال: و انتصاب غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ على الحال من قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و كذا قال الأخفش، و قال غيرهما: حال من الكاف و الميم فى لَكُمْ و التقدير: أحلّت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد: أى الاصطياد فى البرّ و أكل صيده. و معنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملا و اعتقادا، و هم حرم:

أى محرمون، و جملة وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ فى محل نصب على الحال من الضمير فى مُحِلِّي و معنى هذا التقييد ظاهر عند من يخصّ بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التى يحلّ أكلها؛ كأنه قال: أحلّ لكم صيد البرّ إلا فى حال الإحرام؛ و أما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى: أحلّت لكم بهيمة هى الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم فى الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرّم عليهم فى تلك الحال. و المراد بالحرم من هو محرم بالحجّ أو العمرة أو بهما، و سمّى محرما لكونه يحرم عليه الصيد و الطّيب و النّساء، و هكذا وجه تسمية الحرم حرما، و الإحرام إحراما. و قرأ الحسن و النخعى و يحيى بن وثّاب «حرم» بسكون الراء، و هى لغة تميمية، يقولون فى رسل: رسل، و فى كتب كتب، و نحو ذلك. قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكلّ يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا معقّب لحكمه. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ الشعائر: جمع شعيرة على وزن فعيلة. قال ابن فارس: و يقال للواحدة شعارة؛ و هو أحسن، و منه الإشعار

---

(١). الأنعام: ١٤٥.

(٢). المائدة: ٣.

للهدى. و المشاعر: المعالم، واحدها مشعر، و هى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات؛ قيل: المراد بها هنا جميع مناسك الحج: و قيل: الصفا و المروة، و الهدى و البدن. و المعنى على هذين القولين: لا تحلّوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشى‏ء منها أو بأن تحولوا بينها و بين من أراد فعلها. ذكر سبحانه النهى عن أن يحلّوا شعائر اللّه عقب ذكره تحريم صيد المحرم؛ و قيل: المراد بالشعائر هنا فرائض اللّه، و منه وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ و قيل: هى حرمات اللّه، و لا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و لا بما يدلّ عليه السياق. قوله: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ المراد به الجنس، فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم و هى أربعة: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرّم، و رجب؛ أى لا تحلّوها بالقتال فيها؛ و قيل: المراد به هنا شهر الحج فقط. قوله: وَ لَا الْهَدْيَ هو ما يهدى إلى بيت اللّه من ناقة أو بقرة أو شاة، الواحدة هدية. نهاهم سبحانه عن أن يحلّوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه، أو يحولوا بينه و بين المكان الذى يهدى إليه، و عطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته و التشديد فى شأنه.

قوله: وَ لَا الْقَلائِدَ جمع قلادة، و هى ما يقلد به الهدى من نعل أو نحوه. و إحلالها بأن تؤخذ غصبا، و فى النهى عن إحلال القلائد تأكيد للنهى عن إحلال الهدى؛ و قيل: المراد بالقلائد المقلدات بها، و يكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى، و الأوّل أولى؛ و قيل: المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلّدونه أمنة لهم، فهو على حذف مضاف: أى و لا أصحاب القلائد. قوله: وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ أى قاصديه؛ من قولهم أممت كذا: أى قصدته. و قرأ الأعمش: «و لا امّى البيت الحرام» بالإضافة. و المعنى: لا تمنعوا من قصد البيت الحرام لحجّ أو عمرة أو ليسكن فيه؛ و قيل: إنّ سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجّون و يعتمرون و يهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ إلى آخر الآية، فيكون ذلك منسوخا بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١»، و قوله: فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا «٢»، و قوله صلّى اللّه

عليه و سلّم: «لا يحجنّ بعد العام مشرك». و قال قوم: الآية محكمة و هى فى المسلمين. قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً جملة حالية من الضمير المستتر فى (آمين).

قال جمهور المفسرين: معناه يبتغون الفضل و الأرباح فى التجارة، و يبتغون مع ذلك رضوان اللّه؛ و قيل:

كان منهم من يطلب التجارة، و منهم من يبتغى بالحج رضوان اللّه، و يكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم و فى ظنهم عند من جعل الآية فى المشركين؛ و قيل: المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح فى التجارة.

قوله: وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا هذا تصريح بما أفاده مفهوم وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذى حرّم لأجله، و هو الإحرام. قوله: وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ قال ابن فارس:

جرم و أجرم و لا جرم بمعنى قولك لا بدّ و لا محالة، و أصلها من جرم أى كسب، و قيل المعنى: لا يحملنكم، قاله الكسائى و ثعلب، و هو يتعدّى إلى مفعولين، يقال: جرمنى كذا على بغضك: أى حملنى عليه، و منه قول الشاعر:

و لقد طعنت أبا عيينة طعنةجرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

---

(١). التوبة: ٥

(٢). التوبة: ٢٨.

أى حملتهم على الغضب. و قال أبو عبيدة و الفراء: معنى لا يَجْرِمَنَّكُمْ لا يكسبنّكم بغض قوم أن تعتدوا الحقّ إلى الباطل، و العدل إلى الجور و الجريمة. و الجارم بمعنى الكاسب، و منه قول الشاعر:

جريمة ناهض فى رأس نيق‌ترى لعظام ما جمعت صليبا

معناه كاسب قوت. و الصليب: الودك، و منه قول الآخر:

أيا أيّها المشتكى عكلا و ما جرمت‌إلى القبائل من قتل و إبآس

أى كسبت، و المعنى فى الآية: لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم، أو لا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل، و يقال: جرم يجرم جرما: إذا قطع. قال علىّ بن عيسى الرمانى: و هو الأصل، فجرم بمعنى حمل على الشى‌ء لقطعه من غيره، و جرم بمعنى كسب لانقطاعه إلى الكسب، و لا جرم بمعنى حقّ لأنّ الحق يقطع عليه، قال الخليل: معنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ «١» لقد حقّ أن لهم النار. و قال الكسائى: جرم و أجرم لغتان بمعنى واحد: أى اكتسب. و قرأ ابن مسعود: «لا يجرمنكم» بضم الياء، و المعنى: لا يكسبنكم و لا يعرف البصريون أجرم، و إنما يقولون: جرم لا غير. و الشنآن: البغض. و قرئ بفتح النون و إسكانها، يقال: شنئت أشنؤه شنأ و شنأة و شنآنا كل ذلك: إذا أبغضته. و شنآن هنا مضاف إلى المفعول: أى بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم. قوله: أَنْ صَدُّوكُمْ بفتح الهمزة مفعول لأجله. أى لأن صدّوكم. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بكسر الهمزة على الشرطية، و هو اختيار أبى عبيد، و قرأ الأعمش: «إن يصدوكم» و المعنى على قراءة الشرطية: لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصدّ لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم.

قال النحاس: و أما إن صدّوكم بكسر إن، فالعلماء الجلة بالنحو و الحديث و النظر يمنعون القراءة بها لأشياء:

منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، و كان المشركون صدّوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست، فالصد كان قبل الآية؛ و إذا قرئ بالكسر لم يجز أن يكون إلّا بعده كما تقول: لا تعط فلانا شيئا إن قاتلك، فهذا لا يكون إلّا للمستقبل و إن فتحت كان للماضى، و ما أحسن هذا الكلام. و قد أنكر أبو حاتم و أبو عبيدة شنآن بسكون النون. لأنّ المصادر إنّما تأتى فى مثل هذا

متحركة و خالفهما غيرهما فقال: ليس هذا مصدرا، و لكنه اسم فاعل على وزن كسلان و غضبان. و لما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البرّ و التقوى: أى ليعن بعضكم بعضا على ذلك، و هو يشمل كلّ أمر يصدق عليه أنه من البرّ و التقوى كائنا ما كان؛ قيل: إن البرّ و التقوى لفظان لمعنى واحد، و كرر للتأكيد. و قال ابن عطية: إن البرّ يتناول الواجب و المندوب، و التقوى تختصّ بالواجب، و قال الماوردى: إن فى البرّ رضا الناس و فى التقوى رضا اللّه، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم و العدوان، فالإثم: كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، و العدوان: التعدّى على الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم و لا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جملتهم النفس إلا و هو داخل تحت هذا النهى لصدق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناهما، ثم أمر عباده بالتقوى و توعّد من خالف ما أمر به فتركه أو خالف ما نهى عنه ففعله بقوله: إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

---

(۱). النحل: ۶۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ قال: ما أحل اللّه و ما حرّم و ما فرض و ما حدّ فى القرآن كله لا تغدروا و لا تنكثوا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: هى عقود الجاهلية الحلف. و روى عنه ابن جرير أنه قال: ذكر لنا أن نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «و أوفوا بعقد الجاهلية، و لا تحدثوا عقدا فى الإسلام». و أخرج عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: الإبل و البقر و الغنم. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: الإبل و البقر و الغنم. و أخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ قال: ما فى بطونها، قلت:

إن خرج ميتا آكله؟ قال: نعم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ قال: الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير اللّه به إلى آخر الآية، فهذا ما حرّم اللّه من بهيمة الأنعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ قال: كان المشركون يحجّون البيت الحرام، و يهدون الهدايا، و يعظّمون حرمة المشاعر، و ينحرون فى حجّهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فقال اللّه لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ و فى قوله: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ يعنى: لا تستحلوا قتالا فيه وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يعنى من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون و المشركون يحجون جميعا، فنهى اللّه المؤمنين أن يمنعوا أحدا حجّ البيت، أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل اللّه بعد هذه الآية: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا «۱» و فى قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلًا يعنى أنهم يرضون اللّه بحجّهم وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ يقول: لا يحملنكم شَنَآنُ قَوْمٍ يقول عداوة قوم وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى قال: البرّ ما أمرت به، و التقوى ما نهيت عنه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: شعائر اللّه ما نهى اللّه عنه أن تصيبه و أنت محرم، و الهدى: ما لم يقلد و القلائد مقلّدات الهدى وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يقول: من توجّه حاجا. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ قال: مناسك الحج. و أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالحديبية و أصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت، و قد اشتدّ ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابنا، فأنزل اللّه وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ الآية. و أخرج أحمد و عبد ابن حميد و البخارى فى تاريخه عن وابصة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال له: «البرّ ما اطمأنّ إليه القلب و اطمأنت إليه النفس، و الإثم ما حاك فى القلب و تردّد فى الصدر؛ و إن أفتاك الناس

و أفتوك». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و البخارى فى «الأدب» و مسلم و الترمذى و الحاكم و البيهقى أنّ النّواس بن سمعان قال: سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن البرّ و الإثم، قال: «البرّ حسن الخلق، و الإثم ما حاك فى نفسك و كرهت أن يطّلع عليه الناس».

و أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن حبان و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى عن أبى أمامة أن رجلا سأل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم عن الإثم، فقال: «ما حاك فى نفسك فدعه. قال: فما الإيمان؟ قال: من ساءته سيّئته و سرّته حسنته فهو مؤمن».

---

(١). التوبة: ٢٨.

فتح القدير، ج٢، ص: ١١

[سورة المائدة (۵): آية ٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

هذا شروع فى المحرّمات التى أشار إليها سبحانه بقوله: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ و الميتة قد تقدّم ذكرها فى البقرة، و كذلك الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ به لغير اللّه، و ما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحا كما تقدم حملا للمطلق على المقيد، و قد ورد فى السّنّة تخصيص الميتة بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «أحلّ لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان فالحوت و الجراد، و أما الدمان فالكبد و الطّحال» أخرجه الشافعى و أحمد و ابن ماجة و الدارقطنى و البيهقى، و فى إسناده مقال، و يقوّيه حديث: «هو الطهور ماؤه، الحلّ ميتته» و هو عند أحمد و أهل السنن و غيرهم، و صححه جماعة منهم ابن خزيمة و ابن حبان، و قد أطلنا الكلام عليه فى شرحنا للمنتقى. و الإهلال:

رفع الصوت لغير اللّه كأن يقول: باسم اللات و العزى و نحو ذلك، و لا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره. وَ الْمُنْخَنِقَةُ هى التى تموت بالخنق: و هو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها فى حبل أو بين عودين، أو بفعل آدمىّ أو غيره، و قد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها. وَ الْمَوْقُوذَةُ هى التى تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية، يقال: وقذه يقذه وقذا فهو و قيذ، و الوقذ شدّة الضرب، و فلان و قيذ: أى مثخن ضربا، و قد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها، و منه قول الفرزدق:

شغّارة تقذ الفصيل برجلهافطّارة لقوادم الأبكار «١»

قال ابن عبد البرّ: و اختلف العلماء قديما و حديثا فى الصيد بالبندق و الحجر و المعراض، و يعنى بالبندق قوس البندقة، و بالمعراض السهم الذى لا ريش له أو العصا التى رأسها محدّد، قال: فمن ذهب إلى أنه و قيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر، و هو قول مالك و أبى حنيفة و أصحابه و الثورى و الشافعى و خالفهم الشاميون فى ذلك. قال الأوزاعى فى المعراض: كله خزق أو لم يخزق، فقد كان أبو الدرداء و فضالة بن عبيد و عبد اللّه بن عمر و مكحول لا يرون به بأسا. قال ابن عبد البرّ: هكذا ذكر الأوزاعى عن عبد اللّه بن عمر، و المعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع، قال: و الأصل فى هذا الباب و الذى عليه العمل و فيه الحجّة حديث عدىّ بن حاتم، و فيه «ما أصاب بعرضه فلا تأكل فإنه و قيذ» انتهى.

قلت: و الحديث فى الصحيحين و غيرهما عن عدىّ قال: «قلت: يا رسول اللّه إنى أرمى بالمعراض الصيد

---

(١). فى المطبوع: الأظفار، و المثبت من تفسير القرطبى (۶/ ۴۸). «الشغارة»: الناقة ترفع قوائمها لتضرب. «الفطر»: الحلب بالسبابة و الوسطى مع الاستعانة بطرف الإبهام.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۲

فأصيب، فقال: إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، و إن أصاب بعرضه فإنما هو و قيذ فلا تأكله» فقد اعتبر صلّى اللّه عليه و سلّم الخزق و عدمه، فالحق أنه لا يحلّ إلا ما خزق لا ما صدم، فلا بدّ من التذكية قبل الموت و إلا كان وقيذا. و أما البنادق المعروفة الآن: و هى بنادق الحديد التى يجعل فيها البارود و الرصاص و يرمى بها، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا فى المائة العاشرة من الهجرة، و قد سألنى جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات و لم يتمكّن الصائد من تذكيته حيا. و الذى يظهر لى أنه حلال لأنها تخزق و تدخل فى الغالب من جانب منه و تخرج من الجانب الآخر، و قد قال صلّى اللّه عليه و سلّم فى الحديث الصحيح السابق: «إذا رميت بالمعراض فخزق فكله» فاعتبر الخزق فى تحليل الصيد. قوله: وَ الْمُتَرَدِّيَةُ هى التى تتردّى من علو إلى أسفل فتموت من غير فرق بين أن تتردّى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، و التردّى مأخوذ من الردى و هو الهلاك و سواء تردّت بنفسها أو ردّاها غيرها. قوله: وَ النَّطِيحَةُ هى فعيلة بمعنى مفعولة، و هى التى تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية.

و قال قوم أيضا: فعيلة بمعنى فاعلة، لأنّ الدابتين تتناطحان فتموتان، و قال: نطيحة و لم يقل نطيح مع أنه قياس فعيل، لأن لزوم الحذف مختصّ بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية. و قرأ أبو ميسرة: و المنطوحة. قوله: وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ أى ما افترسه ذو ناب كالأسد و النمر و الذئب و الضبع و نحوها، و المراد هنا ما أكل منه السبع، لأن ما أكله السبع كله قد فنى، و من العرب من يخصّ اسم السبع بالأسد، و كانت العرب إذا أكل السبع شاة، ثم خلصوها منه أكلوها، و إن ماتت لم يذكوها. و قرأ الحسن و أبو حيوة: السَّبْعُ بسكون الباء، و هى لغة لأهل نجد، و منه قول حسان فى عتبة بن أبى لهب:

من يرجع العام إلى أهلهفما أكيل السّبع بالرّاجع

و قرأ ابن مسعود: «و أكيلة السبع». و قرأ ابن عباس «و أكيل السبع». قوله: إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ فى محل نصب على الاستثناء المتصل عند الجمهور، و هو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا، و فيه حياة، و قال المدنيون: و هو المشهور من مذهب مالك، و هو أحد قولى الشافعى أنه إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل. و حكاه فى الموطأ عن زيد بن ثابت، و إليه ذهب إسماعيل القاضى، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعا؛ أى حرمت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكّيتم فهو الذى يحلّ و لا يحرم، و الأوّل أولى. و الذكاة فى كلام العرب الذبح، قاله قطرب و غيره. و أصل الذّكاة فى اللغة: التمام؛ أى تمام استكمال القوّة، و الذكاء حدة القلب، و الذكاء سرعة الفطنة، و الذّكوة ما تذكى منه النار، و منه أذكيت الحرب و النار: أوقدتهما، و ذكاء اسم الشمس، و المراد هنا: إلا ما أدركتم ذكاته على التمام، و التذكية فى الشرع: عبارة عن انهار الدم، و فرى الأوداج فى المذبوح و النحر فى المنحور و العقر فى غير المقدور مقرونا بالقصد للّه، و ذكر اسمه عليه. و أما الآلة التى تقع بها الذكاة، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم، و فرى الأوداج، فهو آلة للذكاة ما خلا السن و العظم، و بهذا جاءت الأحاديث الصحيحة. قوله: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد و يصبّ عليه دماء الذبائح، و النصائب حجارة تنصب حوالى شفير البئر فتجعل عضائد. و قيل النصب: جمع واحده نصاب، كحمار و حمر. و قرأ طلحة بضم النون و

سكون الصاد. و روى عن أبى عمرو بفتح النون و سكون الصاد. و قرأ الجحدرى

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۳

بفتح النون و الصاد، جعله اسما موحدا كالجبل و الجمل، و الجمع أنصاب كالأجبال و الإجمال، قال مجاهد: هى حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها. قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة و تنضح بالدم ما أقبل من البيت و يشرّحون اللحم و يضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: نحن أحقّ أن نعظّم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل اللّه وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ و المعنى: و النية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز، و لهذا قيل إن عَلَى بمعنى اللام: أى لأجلها. قاله قطرب، و هو على هذا داخل فيما أهلّ به لغير اللّه، و خصّ بالذكر لتأكيد تحريمه و لدفع ما كانوا يظنونه من أن ذلك لتشريف البيت و تعظيمه. قوله: وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ معطوف على ما قبله: أى و حرّم عليكم الاستقسام بالأزلام. و الأزلام: قداح الميسر واحدها زلم، قال الشاعر:

بات يقاسيها غلام كالزّلم ليس براعى إبل و لا غنم و لا بجزّار على لحم و ضم و قال آخر:

فلئن جذيمة قتّلت ساداتهافنساؤها يضربن بالأزلام

و الأزلام للعرب ثلاثة أنواع: أحدها مكتوب فيه افعل، و الآخر مكتوب فيه لا تفعل، و الثالث مهمل لا شىء عليه فيجعلها فى خريطة معه، فإذا أراد فعل شىء أدخل يده و هى متشابهة فأخرج واحدا منها، فإن خرج الأوّل فعل ما عزم عليه، و إن خرج الثانى تركه، و إن خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأوّلين. و إنما قيل لهذا الفعل استقسام لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق و ما يريدون فعله كما يقال استسقى:

أى استدعى السّقى. فالاستقسام: طلب القسم و النصيب. و جملة قداح الميسر عشرة، و قد قدّمنا بيانها، و كانوا يضربون بها فى المقامرة، و قيل: إن الأزلام كعاب فارس و الروم التى يتقامرون بها، و قيل: هى الشطرنج، و إنما حرّم اللّه الاستقسام بالأزلام لأنه تعرّض لدعوى علم الغيب و ضرب من الكهانة. قوله:

ذلِكُمْ فِسْقٌ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا. و الفسق: الخروج عن الحدّ، و قد تقدّم بيان معناه، و فى هذا وعيد شديد، لأنّ الفسق هو أشدّ الكفر لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان و الكفر. قوله: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ المراد اليوم الذى نزلت فيه الآية، و هو يوم فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع و قيل: سنة ثمان؛ و قيل المراد باليوم الزمان الحاضر و ما يتصل به، و لم يرد يوما معينا. و يئس فيه لغتان ييئس بياءين يأسا، و أيس يأيس إياسا و إياسة.

قاله النضر بن شميل. أى حصل لهم اليأس من إبطال دينكم و أن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون فَلا تَخْشَوْهُمْ أى لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم وَ اخْشَوْنِ فأنا القادر على كل شىء إن نصرتكم فلا غالب لكم، و إن خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم. قوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ جعلته

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۴

كاملا غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها و غلبته لها و لكمال أحكامه التى يحتاج المسلمون إليها من الحلال و الحرام و المشتبه، و وفى ما تضمنه الكتاب و السنة من ذلك، و لا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله:

لَكُمْ قال الجمهور: المراد بالإكمال هنا: نزول معظم الفرائض و التحليل و التحريم. قالوا: و قد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا و آية الكلالة و نحوهما. و المراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة، و كان يوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر، هكذا ثبت فى الصحيح من حديث عمر بن الخطاب؛ و قيل:

إنها نزلت فى يوم الحجّ الأكبر. قوله: وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بإكمال الـدين المشـتمل على الأحكام و بفتح مكة و قهر الكفار و إياسهم عن الظهور عليكم كما وعدتكم بقولى: وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ «١». قوله:

وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً أى أخبرتكم برضاى به لكم فإنه سبحانه لم يزل راضيا لأمة نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بالإسلام فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره، و يحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذى أنتم عليه اليوم دينا باقيا إلى انقضاء أيام الدنيا. و دينا منتصب على التمييز، و يجوز أن يكون مفعولا ثانيا. قوله: فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ هذا متصل بذكر المحرمات و ما بينهما اعتراض: أى من دعته الضرورة فِي مَخْمَصَةٍ أى مجاعة إلى أكل الميتة و ما بعدها من المحرّمات. و الخمص: ضمور البطن، و رجل خميص و خمصان، و امرأة خميصة و خمصانة، و منه أخمص القدم، و يستعمل كثيرا فى الجوع، قال الأعشى:

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكمو جاراتكم غرثى «٢» يبتن خمائصا

قوله: غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ الجنف: الميل، و الإثم: الحرام؛ أى حال كون المضطرّ فى مخمصة غير مائل لإثم، و هو بمعنى غير باغ و لا عاد، و كل مائل فهو متجانف و جنف. و قرأ النخعي و يحيى بن وثّاب و السلمى «متجنف»، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ به لا يؤاخذه بما ألجأته إليه الضرورة فى الجوع مع عدم ميله بأكل ما حرّم عليه إلى الإثم؛ بأن يكون باغيا على غيره أو متعدّيا لما دعت إليه الضرورة حسبما تقدّم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و الحاكم و صحّحه، عن أبى أمامة قال: بعثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى قومى أدعوهم إلى اللّه و رسوله و أعرض عليهم شعائر الإسلام، فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة دم و اجتمعوا عليها يأكلونها، قالوا: هلمّ يا صدى فكل قلت: و يحكم إنما أتيتكم من عند من يحرّم هذا عليكم لما أنزل اللّه عليه، قالوا: و ما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذا الآية حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ قال:

و ما أهلّ للطواغيت به وَ الْمُنْخَنِقَةُ قال: التى تخنق فتموت وَ الْمَوْقُوذَةُ قال: التى تضرب بالخشبة فتموت وَ الْمُتَرَدِّيَةُ قال: التى تتردّى من الجبل فتموت وَ النَّطِيحَةُ قال: الشاة التى تنطح الشاة

---

(١). البقرة: ١٥٠.

(٢). غرثى: جوعى.

وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ يقول: ما أخذ السبع إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ يقول: ذبحتم من ذلك و به روح فكلوه وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال: النصب أنصاب كانوا يذبحون و يهلون عليها وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ قال:

هى القداح كانوا يستقسمون بها فى الأمور. ذلِكُمْ فِسْقٌ يعنى من أكل ذلك كله فهو فسق. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: الرداة التى تتردّى فى البئر، و المتردية التى تتردى من الجبل. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ قال: حصى بيض كانوا يضربون بها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن الحسن فى الآية قال: كانوا إذا أرادوا أمرا أو سفرا يعمدون إلى قداح ثلاثة يكتبون على واحد منها: أمرنى، و على الآخر: نهانى، و يتركون الثالث مخللا بينهما ليس عليه شي‏ء ثم يجيلونها، فإن خرج الذى عليه أمرنى، مضوا لأمرهم، و إن خرج الذى عليه نهانى، كفوا، و إن خرج الذى ليس عليه شي‏ء، أعادوها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ قال: يئسوا أن يرجعوا إلى

دينهم أبدا. و أخرج البيهقى عنه فى الآية قال: يقول يئس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبدا فَلا تَخْشَوْهُمْ فى اتباع محمد وَ اخْشَوْنِ فى عبادة الأوثان و تكذيب محمد، فلما كان واقفا بعرفات نزل عليه جبريل و هو رافع يديه و المسلمون يدعون اللّه الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ يقول: حلالكم و حرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال و لا حرام وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي قال: منتى، فلم يحجّ معكم مشرك وَ رَضِيتُ يقول: اخترت لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فمكث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه الآية أحدا و ثمانين يوما، ثم قبضه اللّه إليه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال:

أخبر اللّه نبيّه و المؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، و قد أتمّه فلا ينقص أبدا، و قد رضيه فلا يسخطه أبدا. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: و أىّ آية؟ قالوا: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ قال عمر: و اللّه إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عشيّة عرفة فى يوم جمعة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَمَنِ اضْطُرَّ يعنى إلى ما حرّم مما سمى فى صدر هذه السورة فِي مَخْمَصَةٍ يعنى فى مجاعة غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ يقول: غير متعمّد لإثم.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۴ الى ۵]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (۵)

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۶

هذا شروع فى بيان ما أحله اللّه لهم بعد بيان ما حرمه اللّه عليهم، و سيأتى ذكر سبب نزول الآية. قوله:

ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ أى شى‏ء أحلّ لهم؟ أو ما الذى أحلّ لهم من المطاعم إجمالا و من الصيد و من طعام أهل الكتاب و من نسائهم؟ قوله: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ هى ما يستلذّه آكله و يستطيبه مما أحله اللّه لعباده؛ و قيل: هى الحلال، و قد سبق الكلام فى هذا؛ و قيل: الطّيبات: الذبائح لأنها طابت بالتّذكية، و هو تخصيص للعام بغير مخصص، و السبب و السّياق لا يصلحان لذلك. قوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ هو معطوف على الطيبات بتقدير مضاف لتصحيح المعنى: أى أحلّ لكم الطيبات و أحلّ لكم صيد ما علمتم من الجوارح.

و قرأ ابن عباس و محمد بن الحنفية عَلِّمْتُمْ بضم العين و كسر اللام: أى علمتم من أمر الجوارح و الصيد بها. قال القرطبى: و قد ذكر بعض من صنف فى أحكام القرآن أن الآية تدلّ على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح، و هو يتضمّن الكلب و سائر جوارح الطير، و ذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع، فدلّ على جواز بيع الكلب و الجوارح و الانتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصّه الدليل: و هو الأكل من الجوارح.

أى الكواسب من الكلاب و سباع الطير. قال: أجمعت الأمة على أنّ الكلب إذا لم يكن أسود، و علمه مسلم و لم يأكل من صيده الذى صاده، و أثر فيه بجرح أو تنييب، و صاد به مسلم و ذكر اسم اللّه عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف. فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف، فإن كان الذى يصاد به غير كلب كالفهد و ما أشبه، و كالبازى و الصّقر و نحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جارح كاسب، يقال: جرح فلان و اجترح: إذا اكتسب، و منه الجارحة

لأنه يكتسب بها، و منه اجتراح السيئات، و منه قوله تعالى: وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ «١». و قوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ «٢». قوله: مُكَلِّبِينَ حال، و المكلّب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، و الأخصّ معلم الكلاب و إن كان معلم سائر الجوارح مثله، لأنّ الاصطياد بالكلاب هو الغالب، و لم يكتف بقوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مع أنّ التكليب هو التعليم، لقصد التأكيد لما لا بدّ منه من التعليم؛ و قيل: إن السبع يسمى كلبا فيدخل كل سبع يصاد به؛ و قيل: إن هذه الآية خاصة بالكلاب. و قد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال: ما يصاد بالبزاة و غيرها من الطّير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال، و إلا فلا تطعمه. قال ابن المنذر: و سئل أبو جعفر عن البازى هل يحلّ صيده؟ قال: لا، إلا أن تدرك ذكاته. و قال الضحاك و السدىّ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ هى الكلاب خاصة، فإن كان الكلب الأسود بهيما فكره صيده الحسن و قتادة و النخعى. و قال أحمد: ما أعرف أحدا يرخص فيه إذا كان بهيما، و به قال ابن راهويه. فأما عامة أهل العلم بالمدينة و الكوفة فيرون جواز صيد كلّ كلب معلم، و احتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «الكلب الأسود شيطان». أخرجه مسلم و غيره، و الحق أنه يحلّ صيد كلّ ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب و غيره و بين الأسود من الكلاب و غيره و بين الطير و غيره، و يؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدىّ بن حاتم عن صيد البازى كما سيأتى. قوله: تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ الجملة فى محل نصب على الحال: أى مما علّمكم اللّه مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذى تهتدون به

---

(١). الأنعام: ٦٠.

(٢). الجاثية: ٢١.

إلى تعليمها و تدريبها حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها. قوله: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ الفاء للتفريع، و الجملة متفرّعة على ما تقدّم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، و من فى قوله: مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ للتبعيض، لأنّ بعض الصيد لا يؤكل كالجلد و العظم و ما أكله الكلب و نحوه، و فيه دليل على أنه لا بد أن يمسكه على صاحبه فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه، كما فى الحديث الثابت فى الصحيح. و قد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحلّ أكل الصيد الذى يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال. و قال عطاء ابن أبى رباح و الأوزاعى: و هو مروىّ عن سلمان الفارسى و سعد بن أبى وقاص و أبى هريرة و عبد اللّه بن عمر، و روى عن علىّ و ابن عباس و الحسن البصرى و الزهرى و ربيعة و مالك و الشافعى فى القديم أنه يؤكل صيده، و يردّ عليهم قوله تعالى: مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم لعدى بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم و ذكرت اسم اللّه عليه فكل ما أمسك عليك» و هو فى الصحيحين و غيرهما، و فى لفظ لهما: «فإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». و أما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبى ثعلبة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا أرسلت كلبك المعلم و ذكرت اسم اللّه فكل و إن أكل منه». و قد أخرجه أيضا بإسناد جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه. و أخرجه أيضا النسائى، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدىّ بن حاتم، و إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار و جاع فأكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك و لا يحرم به الصيد، و حملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى، و حديث عمرو بن شعيب، و هذا جمع حسن. و قال آخرون: إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدىّ، و إن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين؛ و قيل: يحمل حديث أبى ثعلبة على ما إذا أمسكه و خلاه، ثم عاد فأكل منه.

و قد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح و لم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا: و حديث عدىّ بن حاتم أرجح

لكونه فى الصحيحين. و قد قررت هذا المسلك فى شرحى للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة. قوله: وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ الضمير فى عَلَيْهِ يعود إلى ما عَلَّمْتُمْ أى سمّوا عليه عند إرساله، أو مما أمسكن عليكم. أى سمّوا عليه إذا أردتم ذكاته. و قد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح، و استدلّوا بهذه الآية، و يؤيده حديث عدى بن حاتم الثابت فى الصحيحين و غيرهما بلفظ:

«إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم اللّه و إذا رميت بسهمك فاذكر اسم اللّه». و قال بعض أهل العلم: إن المراد التسمية عند الأكل. قال القرطبى: و هو الأظهر، و استدلّوا بالأحاديث التى فيها الإرشاد إلى التّسمية و هذا خطأ، فإن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد وقت التسمية بإرسال الكلب و إرسال السهم، و مشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر، و مسألة غير هذه المسألة فلا وجه لحمل ما ورد فى الكتاب و السنة هنا على ما ورد فى التسمية عند الأكل، و لا ملجئ إلى ذلك، و فى لفظ فى الصحيحين من حديث عدىّ: «إن أرسلت كلبك و سمّيت فأخذ فكل». و قد ذهب جماعة إلى أنّ التسمية شرط و ذهب آخرون إلى أنها سنّة فقط، و ذهب جماعة إلى أنها شرط على الذاكر لا الناسى، و هذا أقوى الأقوال و أرجحها. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

فتح القدير، ج‏2، ص: 18

أى حسابه سبحانه سريع إتيانه و كل آت قريب. قوله: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى، و هى قوله: أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ و قد تقدّم بيان الطيبات. قوله: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ الطعام: اسم لما يؤكل، و منه الذبائح، و ذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح.

و فى هذه الآية دليل على أنّ جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم و غيره حلال للمسلمين و إن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم اللّه، و تكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ و ظاهر هذا أنّ ذبائح أهل الكتاب حلال، و إن ذكر اليهودىّ على ذبيحته اسم عزير، و ذكر النصرانىّ على ذبيحته اسم المسيح. و إليه ذهب أبو الدرداء و عبادة بن الصامت و ابن عباس و الزهرى و ربيعة و الشعبى و مكحول. و قال علىّ و عائشة و ابن عمر: إذا سمعت الكتابىّ يسمى غير اللّه فلا تأكل، و هو قول طاوس و الحسن و تمسكوا بقوله تعالى: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ «1» و يدلّ عليه أيضا قوله:

وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ و قال مالك: إنه يكره و لا يحرم. فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير اللّه، و أما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبرى «2» و ابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، و لما ورد فى السّنّة من أكله صلّى اللّه عليه و سلّم من الشاة المصلية التى أهدتها إليه اليهودية، و هو فى الصحيح، و كذلك الجراب الشّحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر و علم بذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى الصحيح أيضا و غير ذلك.

و المراد بأهل الكتاب هنا اليهود و النصارى. و أما المجوس، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم و لا تنكح نساؤهم لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، و خالف فى ذلك أبو ثور، و أنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد بن حنبل: أبو ثور كاسمه، يعنى فى هذه المسألة، و كأنه تمسك بما يروى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرسلا أنه قال فى المجوس: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب» و لم يثبت بهذا اللفظ، و على فرض أن له أصلا ففيه زيادة تدفع ما قاله، و هى قوله: «غير آكلى ذبائحهم و لا ناكحى نسائهم». و قد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفنّ الحديث من المفسرين و الفقهاء، و لم يثبت الأصل و لا الزيادة، بل الذى ثبت فى الصحيح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخذ الجزية من مجوس هجر، و أما بنو تغلب فكان علىّ بن أبى طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، و كان يقول: إنهم لم يتمسّكوا بشى‏ء من النصرانية إلا بشرب الخمر، و هكذا سائر العرب المتنصّرة كتنوخ و جذام و لخم و عاملة و من أشبههم. قال ابن كثير: و هو قول غير واحد من السلف و

الخلف.

و روى عن سعيد بن المسيب و الحسن البصرى أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب. و قال القرطبى: و قال جمهور الأمّة إنّ ذبيحة كلّ نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو من غيرهم، و كذلك اليهود. قال: و لا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج إلى ذكاة كالطعام يجوز أكله. قوله: وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ أى و طعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، و فيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم، و هذا من باب المكافأة و المجازاة و إخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال

---

(١). الأنعام: ١٢١.

(٢). هو على بن محمد بن على، أبو الحسن الطبرى، المعروف بالكيا الهرّاسى، فقيه، مفسّر (ت ٥٠٤ ه)

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩

لهم بطريق الدلالة الالتزامية. قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ اختلف فى تفسير المحصنات هنا، فقيل:

العفائف، و قيل: الحرائر. و قرأ الشّعبى بكسر الصاد، و به قرأ الكسائى. و قد تقدّم الكلام فى هذا مستوفى فى البقرة و النساء. و المحصنات مبتدأ، و من المؤمنات وصف له و الخبر محذوف أى حلّ لكم، و ذكرهنّ هنا توطئة و تمهيدا لقوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ و المراد بهنّ الحرائر دون الإماء، هكذا قال الجمهور، و حكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعمّ كل كتابية حرّة أو أمة؛ و قيل:

المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات، و به قال الشافعى، و هو تخصيص بغير مخصص. و قال عبد اللّه بن عمر:

لا تحلّ النصرانية، قال: و لا أعلم شركا أكبر من أن تقول: ربّها عيسى، و قد قال اللّه: وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ الآية، و يجاب عنه بأنّ هذه الآية مخصّصة للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص. و قد استدلّ من حرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، و بقوله تعالى:

فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ و قد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم و خالفهم من قال:

إن الآية تعمّ أو تخصّ العفائف كما تقدّم. و الحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرّة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال إلا على قول ابن عمر فى النصرانية، و يدخل تحتها الحرّة التى ليست بعفيفة و الأمة العفيفة، على قول من يقول: إنه يجوز استعمال المشترك فى كلا معنييه، و أما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا بدليل آخر، و يقول: بجواز نكاح الحرّة العفيفة كانت أو غير عفيفة، و إن حمل المحصنات هنا على العفائف قال: بجواز نكاح الحرّة العفيفة و الأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما. قوله: إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ أى مهورهنّ، و جواب إذا محذوف: أى فهنّ حلال، أو هى ظرف لخبر المحصنات المقدر: أى حلّ لكم. قوله: مُحْصِنِينَ منصوب على الحال: أى حال كونكم أعفاء بالنكاح، و كذا قوله: غَيْرَ مُسافِحِينَ منصوب على الحال من الضمير فى محصنين أو صفة لمحصنين، و المعنى: غير مجاهرين بالزنا. قوله: وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ معطوف على غَيْرَ مُسافِحِينَ أو على مُسافِحِينَ وَ لا مزيدة للتأكيد، و الخدن يقع على الذكر و الأنثى. أى لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط اللّه فى الرجال العفّة و عدم المجاهرة بالزنا و عدم اتخاذ أخدان، كما شرط فى النساء أن يكنّ محصنات.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ أى بشرائع الإسلام فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ أى بطل وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ و قرأ ابن السّميقع فقد حبط بفتح الباء اه.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صححه و البيهقى فى سننه عن أبى رافع، أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمره بقتل الكلاب فى الناس، فقالوا: يا رسول اللّه ما ذا يحلّ لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها؟ فسكت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه. و أخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير أن عدىّ ابن حاتم و زيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالا: يا رسول اللّه إنّا قوم نصيد بالكلاب و البزاة، فنزلت. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن الشعبى: أن عدىّ بن حاتم الطائىّ أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله،

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۰

فذكر نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ قال: هى الكلاب المعلّمة، و البازى و الجوارح يعنى الكلاب و الفهود و الصّقور و أشباهها. و أخرج ابن جرير عنه قال: آية المعلّم أن يمسك صيده فلا يأكل منه حتى يأتى صاحبه.

و أخرج عنه أيضا قال: إذا أكل الكلب فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه. و أخرج عبد بن حميد عنه نحوه، و زاد: و إذا أكل الصقر فكل؛ لأنّ الكلب تستطيع أن تضربه و الصقر لا تستطيع. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عنه فى قوله: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: ذبائحهم، و فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال: حلّ لكم إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ يعنى مهورهنّ مُحْصِنِينَ يعنى تنكحونهنّ بالمهر و البينة غَيْرَ مُسافِحِينَ غير معالنين بالزنا وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ يعنى يسرّون بالزنا. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: أحلّ اللّه لنا محصنتين محصنة مؤمنة و محصنة من أهل الكتاب، نساؤنا عليهم حرام و نساؤهم لنا حلال. و أخرج ابن جرير عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«نتزوج نساء أهل الكتاب و لا يتزوّجون نساءنا». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال: المسلم يتزوّج النصرانية و لا يتزوج النصرانىّ المسلمة. و أخرج الطبرانى و الحاكم و صحّحه عن ابن عباس قال: إنما أحلّت ذبائح اليهود و النصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة و الإنجيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد فى قوله: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ قال: الحرائر. و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: العفائف.

[سورة المائدة (۵): آية ۶]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶)

قوله: إِذا قُمْتُمْ إذا أردتم القيام، تعبيرا بالمسبب عن السبب، كما فى قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ «۱».

و قد اختلف أهل العلم فى هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة، فقالت طائفة: هو عامّ فى كلّ قيام إليها، سواء كان القائم متطهرا أو محدثا، فإنه ينبغى له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، و هو مروىّ عن علىّ و عكرمة. و قال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة. و قالت طائفة أخرى: إن هذه الأمر خاصّ بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو ضعيف، فإنّ الخطاب للمؤمنين و الأمر لهم. و قالت طائفة: الأمر للندب طلبا للفضل.

و قال آخرون: إنّ الوضوء لكلّ صلاة كان فرضا عليهم بهذه الآية، ثم نسخ فى فتح مكة. و قال جماعة:

---

(۱). النحل: ۹۸.

هذا الأمر خاصّ بمن كان محدثا. و قال آخرون: المراد إذا قمتم من النوم إلى- الصلاة، فيعمّ الخطاب كل قائم من نوم. و قد أخرج مسلم و أحمد و أهل السنن عن بريدة قال: كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يتوضّأ عند كلّ صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ، و مسح على خفّيه، و صلّى الصّلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول اللّه إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله، فقال: «عمدا فعلته يا عمر». و هو مروىّ من طرق كثيرة بألفاظ متفقة فى المعنى. و أخرج البخارى و أحمد و أهل السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول: كان النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم يتوضّأ عند كلّ صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنّا نصلّى الصّلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. فتقرر بما ذكر أنّ الوضوء لا يجب إلا على المحدث، و به قال جمهور أهل العلم و هو الحق. قوله: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ الوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة، و هو عضو مشتمل على أعضاء، و له طول و عرض، فحدّه فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللحيين، و فى العرض من الأذن إلى الأذن، و قد ورد الدليل بتخليل اللحية. و اختلف العلماء فى غسل ما استرسل، و الكلام فى ذلك مبسوط فى مواطنه. و قد اختلف أهل العلم أيضا: هل يعتبر فى الغسل الدلك باليد أم يكفى إمرار الماء؟

و الخلاف فى ذلك معروف، و المرجع اللغة العربية؛ فإن ثبت فيها أن الدّلك داخل فى مسمّى الغسل كان معتبرا و إلا فلا. قال فى شمس العلوم: غسل الشىء غسلا إذا أجرى عليه الماء و دلكه، انتهى. و أما المضمضة و الاستنشاق، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم و الأنف فقد ثبت غسلهما بالسّنة الصحيحة، و الخلاف فى الوجوب و عدمه معروف. و قد أوضحنا ما هو الحق فى مؤلفاتنا. قوله: وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ إلى الغاية، و أما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحلّ خلاف. و قد ذهب سيبويه و جماعة إلى أنّ ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها دخل و إلا- فلا؛ و قيل: إنها هنا بمعنى مع. و ذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقا، و أما الدخول و عدمه فأمر يدور مع الدّليل. و قد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل؛ و استدلوا بما أخرجه الدارقطنى و البيهقى من طريق القاسم بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عقيل عن جدّه عن جابر بن عبد اللّه قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا توضّأ أدار الماء على مرفقيه». و لكن القاسم هذا متروك، و جدّه ضعيف. قوله:

وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ قيل: الباء زائدة، و المعنى: امسحوا رؤوسكم، و ذلك يقتضى تعميم المسح لجميع الرأس، و قيل: هى للتبعيض، و ذلك يقتضى أنه يجزئ مسح بعضه. و استدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى فى التيمم: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ و لا يجزئ مسح بعض الوجه اتّفاقا؛ و قيل: إنها للإلصاق؛ أى ألصقوا أيديكم برءوسكم، و على كلّ حال فقد ورد فى السّنة المطهرة ما يفيد أنه يكفى مسح بعض الرأس كما أوضحناه فى مؤلفاتنا، فكان هذا دليلا على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة، و لا شك أنّ من أمر غيره بأن يمسح رأسه كان ممتثلا بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح، و ليس فى لغة العرب ما يقتضى أنه لا بدّ فى مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، و هكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيدا أو اطعنه أو ارجمه، فإنه يوجد المعنى العربى بوقوع الضرب أو الطعن أو الرجم على عضو من أعضائه، و لا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضاربا إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، و كذلك

الطعن و الرجم و سائر الأفعال، فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال فى مسح الرأس. فإن قلت: يلزم مثل هذا

فى غسل الوجه و اليدين و الرجلين. قلت: ملتزم لو لا البيان من السّنة فى الوجه و التحديد بالغاية فى اليدين و الرجلين بخلاف الرأس، فإنه ورد فى السّنة مسح الكل و مسح البعض. قوله: وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ قرأ نافع بنصب الأرجل، و هى قراءة الحسن البصرى و الأعمش، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حمزة بالجرّ. و قراءة النصب تدلّ على أنه يجب غسل الرجلين، لأنها معطوفة على الوجه، و إلى هذا ذهب جمهور العلماء. و قراءة الجرّ تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس و إليه ذهب ابن جرير الطبرى و هو مروىّ عن ابن عباس. قال ابن العربى: اتفقت الأمة على وجوب غسلهما، و ما علمت من ردّ ذلك إلا الطبرى من فقهاء المسلمين و الرافضة من غيرهم، و تعلق الطبرى بقراءة الجرّ، قال القرطبى:

قد روى عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان و مسحتان، قال: و كان عكرمة يمسح رجليه؛ و قال:

ليس فى الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح. و قال عامر الشعبى: نزل جبريل بالمسح. قال: و قال قتادة:

افترض اللّه مسحتين و غسلتين. قال: و ذهب ابن جرير الطبرى إلى أنّ فرضهما التخيير بين الغسل و المسح، و جعل القراءتين كالروايتين، و قوّاه النحاس، و لكنه قد ثبت فى السّنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله صلّى اللّه عليه و سلّم و قوله غسل الرجلين فقط، و ثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار» و هو فى الصحيحين و غيرهما فأفاد وجوب غسل الرجلين، و أنه لا يجزئ مسحهما، لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب و يخطئ ما أخطأ، فلو كان مجزئا لما قال: «ويل للأعقاب من النار» و قد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ و غسل رجليه:

«هذا وضوء لا يقبل اللّه الصلاة إلا به». و قد ثبت فى صحيح مسلم و غيره أن رجلا توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له: «ارجع فأحسن وضوءك». و أما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة. و قوله: إِلَى الْكَعْبَيْنِ الكلام فيه كالكلام فى قوله: إِلَى الْمَرافِقِ و قد قيل فى وجه جمع المرافق و تثنية الكعاب: إنه لما كان فى كلّ رجل كعبان و لم يكن فى كلّ يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب؛ تنبيها على أن لكلّ رجل كعبين، بخلاف المرافق فإنها جمعت لأنه لما كان فى كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، ذكر معنى هذا ابن عطية. و قال الكواشى: ثنى الكعبين و جمع المرافق لنفى توهم أن فى كلّ واحدة من الرجلين كعبين، و إنما فى كل واحدة كعب واحد له طرفان من جانبى الرجل، بخلاف المرفق فهى أبعد عن الوهم، انتهى.

و بقى من فرائض الوضوء النية و التسمية و لم يذكرا فى هذه الآية، بل وردت بهما السّنّة؛ و قيل: إن فى هذه الآية ما يدلّ على النية، لأنه لما قال: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ كان تقدير الكلام:

فاغسلوا وجوهكم لها، و ذلك هو النية المعتبرة. قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا أى فاغتسلوا بالماء.

و قد ذهب عمر بن الخطاب و ابن مسعود إلى أنّ الجنب لا يتيمّم البتة، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالا بهذه الآية، و ذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء، و هذه الآية هى للواجد، على أن التطهر هو أعمّ من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه، و هو التراب. و قد صحّ عن عمر و ابن مسعود الرجوع

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۳

إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة فى تيمّم الجنب مع عدم الماء. و قد تقدّم تفسير الجنب فى النساء. قوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ «۱» قد تقدّم تفسير هذا فى سورة النساء مستوفى، و كذلك تقدّم الكلام على ملامسة النساء و على التيمم و على الصعيد، و من فى قوله:

مِنْهُ لابتداء الغاية، و قيل: للتبعيض. قيل: و وجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام فى أنواع الطهارة.

ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ أى ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم فى الدين، و منه قوله تعالى: وَ

ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «٢» ثم قال: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ من الذنوب، و قيل: من الحدث الأصغر و الأكبر وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أى بالترخيص لكم فى التيمم عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع التى عرّضكم بها للثواب لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

و قد أخرج مالك و الشافعى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن زيد بن أسلم فى قوله: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ قال: قمتم من المضاجع، يعنى النوم. و أخرج ابن جرير عن السدىّ مثله. و أخرج ابن جرير أيضا عنه يقول: إذا قمتم و أنتم على غير طهر. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى قوله: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ قال: ذلك الغسل الدّلك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير عن أنس أنه قيل له: إنّ الحجاج خطبنا فقال: اغسلوا وجوهكم و أيديكم، و امسحوا برءوسكم و أرجلكم، و أنه ليس شىء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه، فاغسلوا بطونهما و ظهورهما و عراقيبهما. قال أنس:

صدق اللّه و كذب الحجاج، قال اللّه: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ و كان أنس إذا مسح قدميه بلّهما. و أخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على غسل القدمين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: مِنْ حَرَجٍ قال: من ضيق. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ قال: تمام النّعمة دخول الجنة، لم يتمّ نعمته على عبد لم يدخل الجنّة.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧ الى ١١]

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

---

(١). النساء: ٤٣.

(٢). الحج: ٧٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٤

نِعْمَةَ اللَّهِ قيل: هى الإسلام. و الميثاق: العهد؛ قيل: المراد به هنا: ما أخذه على بنى آدم كما قال: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ «١» الآية. قال مجاهد و غيره: نحن و إن لم نذكره فقد أخبرنا اللّه به؛ و قيل: هو خطاب لليهود، و العهد: ما أخذه عليهم فى التّوراة. و ذهب جمهور المفسرين من السلف و من بعدهم إلى أنه العهد الذى أخذه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة عليهم، و هو السّمع و الطّاعة فى المنشط و المكره، و أضافه تعالى إلى نفسه لأنه عن أمره و إذنه كما قال: إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ «٢»، و بيعة العقبة مذكورة فى كتب السير، و هذا متصل بقوله: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «٣». قوله: إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا أى وقت قولكم هذا القول، و هذا متعلّق ب واثَقَكُمْ أو بمحذوف وقع حالا: أى كائنا هذا الوقت، و بِذاتِ الصُّدُورِ: ما تخفيه الصّدور لكونها مختصّة بها لا يعلمها أحد، و لهذا أطلق عليها ذات التى بمعنى الصاحب، و إذا كان سبحانه عالما بها فكيف بما كان ظاهرا جليا. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ قد تقدّم تفسيرها فى النساء، و صيغة المبالغة فى قَوَّامِينَ تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتمّ قيام لِلَّهِ أى لأجله تعظيما لأمره و طمعا فى ثوابه. و القسط: العدل. و قد تقدّم الكلام على قوله: يَجْرِمَنَّكُمْ مستوفى؛ أى لا يحملنكم بغض قوم

على ترك العدل و كتم الشهادة اعْدِلُوا هُوَ أى العدل المدلول عليه بقوله اعدلوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى التى أمرتم بها غير مرة؛ أى أقرب لأن تتقوا اللّه، أو لأن تتقوا النار. قوله:

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ هذه الجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى لقوله: وَعَدَ على معنى وعدهم أن لهم مغفرة، أو وعدهم مغفرة فوقعت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه، و مثله قول الشاعر «۴»:

وجدنا الصّالحين لهم جزاءو جنّات و عينا سلسبيلا

قوله: أَصْحابُ الْجَحِيمِ أى ملابسوها. قوله: إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ظرف لقوله: اذْكُرُوا أو للنعمة أو لمحذوف وقع حالا منها أَنْ يَبْسُطُوا أى بأن يبسطوا. و قوله: فَكَفَّ معطوف على قوله: هَمَ و سيأتى بيان سبب نزول هذه الآية، و به يتّضح المعنى.

و قد أخرج ابن جرير و الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس فى قوله: إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا يعنى حين بعث اللّه النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنزل عليه الكتاب قالوا: آمنا بالنبىّ و الكتاب و أقررنا بما فى التوراة، فذكّرهم اللّه ميثاقه الذى أقرّوا به على أنفسهم، و أمرهم بالوفاء به. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: النّعم الآلاء، و ميثاقه الذى واثقهم به قال: الذى واثق به بنى آدم فى ظهر آدم عليه السلام.

و أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن كثير فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ الآية.

قال: نزلت فى يهود خيبر، ذهب إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستفتيهم فى دية فهمّوا أن يقتلوه، فذلك قوله:

وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا الآية. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد اللّه أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نزل منزلا فتفرّق الناس فى العضاه يستظلّون

---

(۱). الأعراف: ۱۷۲.

(۲). الفتح: ۱۰.

(۳). المائدة: ۱.

(۴). هو عبد العزيز الكلابى.

تحتها، فعلّق النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: من يمنعك منى؟ قال: اللّه، قال الأعرابى مرتين أو ثلاثا: من يمنعك منى؟ و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: اللّه، فشام الأعرابىّ السيف، فدعا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابى و هو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. قال معمر: و كان قتادة يذكر نحو هذا. و يذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأرسلوا هذا الأعرابى، و يتأوّل: اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ الآية.

و أخرج الحاكم و صحّحه عنه بنحوه، و ذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث، و أنه لما قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«اللّه» سقط السيف من يده، فأخذه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: «من يمنعك منى؟» قال: كن خير آخذ، قال:

فشهد أن لا إله إلا اللّه. و أخرجه أيضا ابن إسحاق و أبو نعيم فى الدلائل عنه. و أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس: أنّ بنى النضير همّوا أن يطرحوا حجرا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه، فجاء جبريل فأخبره بما همّوا، فقام و من معه، فنزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ الآية، و روى نحو هذا من طرق عن غيره، و قصة الأعرابى و هو غورث المذكور ثابتة فى الصحيح.

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳) وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴)

قوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ كلام مستأنف يتضمّن ذكر بعض ما صدر من بنى إسرائيل من الخيانة.

و قد تقدّم بيان الميثاق الذى أخذه اللّه عليهم. و اختلف المفسرون فى كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذى ينقب عنها و عن مصالحهم فيها. و النقاب: الرجل العظيم الذى هو فى الناس على هذه الطريقة، و يقال نقيب القوم لشاهدهم و ضمينهم. و النقيب: الطريق فى الجبل هذا أصله، و سمّى به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم. و النقيب أعلى مكانا من العريف، فقيل: المراد يبعث هؤلاء النقباء أنهم بعثوا أمناء على الاطلاع على الجبارين و النظر فى قوّتهم و منعتهم فساروا ليختبروا حال من بها و يخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوّة عظيمة و ظنوا أنهم لا قبل لهم بها، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى إسرائيل و أن يعلموا به موسى، فلما انصرفوا إلى بنى إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قراباتهم،

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۶

ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو و قالوا: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا «۱» و قيل: إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا و يتقوا اللّه، و هذا معنى بعثهم، و سيأتى ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف فى ذلك. قوله: وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ أى قال ذلك لبنى إسرائيل، و قيل للنقباء؛ و المعنى: إنى معكم بالنصر و العون، و اللام فى قوله: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ هى الموطئة للقسم المحذوف، و جوابه لَأُكَفِّرَنَ و هو سادّ مسدّ جواب الشرط. و التعزير: التعظيم و التوقير، و أنشد أبو عبيدة:

و كم من ماجد لهم كريمو من ليث يعزّر فى النّدىّ

أى يعظّم و يوقّر. و يطلق التعزير على الضرب و الردّ، يقال: عزّرت فلانا: إذا أدّبته و رددته عن القبيح، فقوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ أى عظمتموهم على المعنى الأوّل، أو رددتم عنهم أعداءهم و منعتموهم على الثانى.

قوله: وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً أى أنفقتم فى وجوه الخير، و قَرْضاً مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى: وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً أو مفعول ثان لأقرضتم. و الحسن: قيل هو ما طابت به النفس؛ و قيل:

ما ابتغى به وجه اللّه؛ و قيل: الحلال. قوله: فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ أى بعد الميثاق أو بعد الشرط المذكور فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أى أخطأ وسط الطريق. قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ الباء سببية و ما زائدة، أى فبسبب نقضهم ميثاقهم لَعَنَّاهُمْ أى طردناهم و أبعدناهم وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً أى صلبة لا تعى خيرا و لا تعقله. و قرأ حمزة و الكسائى «قسيّة» بتشديد الياء من غير ألف، و هى قراءة ابن مسعود و النخعى و يحيى بن وثّاب؛ يقال: درهم قسىّ مخفف السين مشدّد الياء: أى زائف، ذكر ذلك أبو عبيد. و قال الأصمعى و أبو عبيدة: درهم قسىّ كأنه معرب قاس. و قرأ الأعمش «قسية» بتخفيف الياء. و قرأ الباقون:

قاسِيَةً. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ الجملة مستأنفة لبيان حالهم، أو حالية: أى يبدّلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله. و قرأ

السلمى و النخعى الكلام. قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ أى لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم، و الخائنة: الخيانة؛ و قيل: هو نعت لمحذوف، و التقدير فرقة خائنة، و قد تقع للمبالغة نحو علامة و نسابة إذا أردت المبالغة فى وصفه بالخيانة؛ و قيل: خائنة، معصية.

قوله: إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ استثناء من الضمير فى منهم فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ قيل: هذا منسوخ بآية السيف؛ و قيل: خاص بالمعاهدين. قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ الجار و المجرور متعلق بقوله: أَخَذْنا و التقديم للاهتمام، و التقدير: و أخذنا من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم: أى فى التوحيد و الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و بما جاء به. قال الأخفش: هو كقولك أخذت من زيد ثوبه و درهمه، فرتبة الذين بعد أخذنا. و قال الكوفيون بخلافه؛ و قيل: إن الضمير فى قوله: مِيثاقَهُمْ راجع إلى بنى إسرائيل:

أى أخذنا. و قال الكوفيون بخلافه؛ و قيل: إن الضمير فى قوله: مِيثاقَهُمْ راجع إلى بنى إسرائيل:

أى أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بنى إسرائيل، و قال: مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى و لم يقل و من النصارى للإيذان بأنهم كاذبون فى دعوى النصرانية و أنهم أنصار اللّه. قوله: فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أى نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيبا وافرا عقب أخذه عليهم فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ أى ألصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغراء: و هو ما يلصق الشىء بالشىء كالصمغ و شبهه يقال:

---

(١). المائدة: ٢۴.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٧

غرى بالشىء يغرى غريا بفتح الغين مقصورا، و غراء بكسرها ممدودا، أى أولع به حتى كأنه صار ملتصقا به، و مثل الإغراء التحرش، و أغريت الكلب: أى أولعته بالصيد، و المراد بقوله: بَيْنَهُمُ اليهود و النصارى لتقدم ذكرهم جميعا؛ و قيل: بين النصارى خاصة، لأنهم أقرب مذكور، و ذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية و النسطورية و الملكانية، و كفر بعضهم بعضا، و تظاهروا بالعداوة فى ذات بينهم. قال النحاس:

و ما أحسن ما قيل فى معنى فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إن اللّه عز و جل أمر بعداوة الكفار و إبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها و إبغاضها. قوله: وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ تهديد لهم:

أى سيلقون جزاء نقض الميثاق.

و قد أخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ قال: أخذ مواثيقهم أن يخلصوا له و لا يعبدوا غيره وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً أى كفيلا كفلوا عليهم بالوفاء للّه بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به و فيما نهاهم عنه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً قال: من كلّ سبط من بنى إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين فوجدوهم يدخل فى كمّ أحدهم اثنان منهم، و لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة أنفس منهم فى خشبة، و يدخل فى شطر الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم إلا يوشع ابن نون و كالب بن يافنة، فإنهما أمرا الأسباط بقتال الجبارين و مجاهدتهم فعصوهما و أطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم اللّه عليهما، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا و يمسون حيث أصبحوا فى تيههم ذلك، فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجرا لهم يحملونه معهم، فقال لهم موسى:

اشربوا يا حمير، فنهاه اللّه عن سبهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً قال: هم من بنى

إسرائيل بعثهم موسى لينظروا إلى المدينة فجاؤوا بحبة من فاكهتهم وقر رحل، فقال: اقدروا قوّة القوم و بأسهم و هذه فاكهتهم، فعند ذلك فتنوا فقالوا لا نستطيع القتال فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا و قد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط، و أسماؤهم مذكورة فى السفر الرابع من التوراة، و فيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ قال: أعنتموهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ قال: نصرتموهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ قال: هو ميثاق أخذه اللّه على أهل التوراة فنقضوه. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ يعنى حدود اللّه، يقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، و إن خالفكم فاحذروا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ قال: نسوا الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ قال: هم يهود مثل الذى همّوا به من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يوم دخل عليهم حائطهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ قال: كذب و فجور، و فى قوله: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ قال: لم يؤمر

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۸

يومئذ بقتالهم، فأمره اللّه أن يعفو عنهم و يصفح ثم نسخ ذلك فى براءة فقال: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ «۱» الآية. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر عن إبراهيم النخعى فى قوله: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ قال: أغرى بعضهم ببعض بالخصومات و الجدال فى الدين.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶)

الألف و اللام فى الكتاب للجنس و الخطاب لليهود و النصارى قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا أى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حال كونه يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ المنزل عليكم، و هو التوراة و الإنجيل؛ كآية الرجم و قصة أصحاب السبت الممسوخين قردة وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإنّ ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرّد افتضاحكم؛ و قيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوزه و لا يخبركم به؛ و قيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم، و الجملة فى محل نصب عطفا على الجملة الحالية: أعنى قوله: يُبَيِّنُ لَكُمْ قوله: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان.

قال الزجاج: النور محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: الإسلام. و الكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين، و الضمير فى قوله: يَهْدِي بِهِ راجع إلى الكتاب أو إليه و إلى النور لكونهما كالشيء الواحد مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ أى ما رضيه اللّه، و سُبُلَ السَّلامِ طرق السلامة من العذاب، الموصلة إلى دار السلام، المنزهة عن كل آفة؛ و قيل: المراد بالسلام: الإسلام وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ الكفرية إِلَى النُّورِ الإسلامى وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق لا عوج فيها و لا مخافة.

و قد أخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله: رَسُولُنا قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير أيضا عن عكرمة قال: إن نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى و الذى رفع الطور و ناشده بالمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أفكل «۲»، فقال: إنه لما كثر فينا جلدنا مائة جلدة

و حلقنا الرؤوس. فحكم عليهم بالرّجم، فنزلت هـذه الآيـة. و أخرج ابن المنـذر عن ابن جريـج نحوه. و أخرج عبـد بن حميد عن قتادة فى قوله: وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ يقول عن كثير من الـذنوب. و أخرج ابن جرير عن السـدى قال: سُبُلَ السَّلامِ هى سبيل اللّه الذى شرعه لعباده و دعاهم إليه و ابتعث به رسله؛ و هو الإسلام.

---

(١). التوبة: ٢٩.

(٢). الأفكل: الرّعدة.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٩

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٧ الى ١٨]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

ضمير الفصل فى قوله: هُوَ الْمَسِيحُ يفيـد الحصـر؛ قيل: و قـد قال بـذلك بعض طوائف النصارى؛ و قيل: لم يقل به أحد منهم، و لكن استلزم قولهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ لا غيره، و قد تقدّم فى آخر سورة النساء ما يكفى و يغنى عن التكرار. قوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً الاستفهام للتوبيخ و التقريع.

و الملـك؛ و الملك: الضـبط و الحفظ و القـدرة، من قولهم: ملكت على فلان أمره: أى قـدرت عليه: أى فمن يقـدر أن يمنع إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً و إذا لم يقـدر أحـد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا اللّه، و لا ربّ غيره، و لا معبود بحق سواه، و لو كان المسيح إلها كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شـىء، و لقـدر على أن يدفع عن نفسه أقلّ حال و لم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها، و تخصيصـها بالذكر مع دخولها فى عموم من فى الأرض لكون الـدفع منه عنهـا أولى و أحق من غيرهـا، فهو إذا لم يقـدر على الـدّفع عنهـا أعجز عن أن يـدفع عن غيرها، و ذكر من فى الأرض للدلالـة على شـمول قـدرته، و أنه إذا أراد شـيئا كـان لا ـ معـارض له فى أمره و لا ـ مشارك له فى قضائه وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما أى مـا بين النوعين من المخلوقات. قوله: يَخْلُقُ ما يَشاءُ جملـة مسـتأنفة مسوقـة لبيان أنه سـبحانه خالق الخلق بحسب مشـيئته، و أنه يقدر على كل شـىء لا يستصعب عليه شىء. قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ أثبتت اليهود لأنفسـها ما أثبتته لعزيز حيث قالوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ و أثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «١» و قيل: هو على حذف مضاف:

أى نحن أتباع أبناء اللّه، و هكذا أثبتوا لأنفسـهم أنهم أحباء اللّه بمجرد الدعوى الباطلة و الأمانى العاطلة، فأمر اللّه سـبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سـلّم أن يردّ عليهم، فقال: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ أى إن كنتم كما تزعمون، فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الـذنوب بالقتل و المسـخ و بالنار فى يوم القيامـة كما تعترفون بـذلك لقولكم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً «٢» فإن الابن من جنس أبيه لا يصـدر عنه ما يسـتحيل على الأب و أنتم تـذنبون، و الحبيب لا يعـذب حبيبه و أنتم تعـذبون، فهـذا يـدلّ على أنكم كاذبون فى هذه الدعوى. و هذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف. قوله: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ عطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام: أى فلسـتم حينئذ كذلك بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ أى من جنس من خلقه اللّه تعالى يحاسبهم على الخير و الشرّ،

و يجازى كل عامل بعمله يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما من الموجودات وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ أى تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

---

(١). التوبة: ٣٠.

(٢). البقرة: ٨٠.

فتح القدير، ج۲، ص: ٣٠

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال:

أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نعمان بن أضاء و بحرىّ بن عمرو و شأس بن عدىّ فكلّموه و كلّمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و دعاهم إلى اللّه و حذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوّفنا يا محمد نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ كقول النصارى فأنزل اللّه فيهم وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى إلى آخر الآية. و أخرج أحمد فى مسنده عن أنس قال: «مرّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى نفر من أصحابه، و صبىّ فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى و تقول: ابنى ابنى، فسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول اللّه ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار! فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا، و اللّه لا يلقى حبيبه فى النار». و إسناده فى المسند هكذا: حدّثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس فذكره. و معنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث، و لهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يردّ عليه، فتلا الصوفىّ هذه الآية. و أخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا و اللّه لا يعذب اللّه حبيبه، و لكن قد يبتليه فى الدنيا».

و أخرج ابن جرير عن السدىّ فى قوله: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ يقول: يهدى منكم من يشاء فى الدنيا فيغفر له، و يميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه.

[سورة المائدة (٥): آية ١٩]

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى. و الرسول هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و يُبَيِّنُ لَكُمْ حال. و المبين هو ما شرعه اللّه لعباده و حذف للعلم به، لأنّ بعثة الرسل إنما هى بذلك. و الفترة أصلها السكون، يقال فتر الشىء:

سكن؛ و قيل: هى الانقطاع. قاله أبو على الفارسى و غيره؛ و منه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة؛ و فتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجدّ فيه، و امرأة فاترة الطرف: أى منقطعة عن حدة النظر. و المعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه صلّى اللّه عليه و سلّم مدّة من الزمان. و اختلف فى قدر مدّة تلك الفترة و سيأتى بيان ذلك. قوله: أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَ لا نَذِيرٍ تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حين فترة: أى كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم، و مِنَ فى قوله: مِنْ بَشِيرٍ زائدة للمبالغة فى نفى المجىء، و الفاء فى قوله: فَقَدْ جاءَكُمْ هى الفصيحة مثل قول الشاعر:

فقد جئنا خراسانا أى لا تعتذروا فقد جاءكم بشير و نذير، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و من جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال:

دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يهود إلى الإسلام، فرغّبهم فيه و حذّرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل و سعد

ابن عبادة و عقبة بن وهب: يا معشر يهود اتقوا اللّه فو اللّه إنكم لتعلمون أنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه و تصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة و وهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا و ما أنزل اللّه من كتاب من بعد موسى و لا أرسل بشيرا و لا نذيرا بعده، فأنزل اللّه يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى‏ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم جاء بالحق الذى فرّق اللّه به بين الحق و الباطل، فيه بيان و موعظة و نور و هدى و عصمة لمن أخذ به. قال: و كانت الفترة بين عيسى و محمد ستّمائة سنة و ما شاء اللّه من ذلك. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عنه قال: كانت خمسمائة سنة و ستين سنة. و قال الكلبى: خمسمائة سنة و أربعين سنة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانت خمسمائة سنة. و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: كانت أربعمائة سنة و بضعا و ثلاثين سنة. و أخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال:

كان بين موسى و عيسى ألف سنة و تسعمائة سنة و لم يكن بينهما فترة، فإنه أرسل بينهما ألف نبىّ من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، و كان بين ميلاد عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم خمسمائة سنة و تسع و ستون سنة، بعث فى أوّلها ثلاثة أنبياء كما قال اللّه تعالى: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ «1» و الذى عزّز به شمعون و كان من الحواريين، و كانت الفترة التى لم يبعث اللّه فيها رسولا أربعمائة سنة و أربعة و ثلاثين سنة.

و قد قيل غير ما ذكرناه.

[سورة المائدة (5): الآيات 20 الى 26]

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (20) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى‏ أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (21) قالُوا يا مُوسى‏ إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (22) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قالُوا يا مُوسى‏ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (24)

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (25) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (26)

هذه الآيات متضمنة للبيان من اللّه سبحانه بأنّ أسلاف اليهود الموجودين فى عصر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم تمرّدوا على موسى و عصوه كما تمرّد هؤلاء على نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم و عصوه، و فى ذلك تسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم، و روى عن عبد اللّه بن كثير أنه قرأ يا قَوْمِ اذْكُرُوا بضم الميم و كذا قرأ فيما أشبهه، و تقديره: يا أيها القوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء: أى وقت هذا الجعل، و إيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، لأنّ الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى، و امتنّ عليهم سبحانه بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً أى: و جعل

---

(1). يس: 14.

منكم ملوكا، و إنما حذف حرف الجرّ لظهور أنّ معنى الكلام على تقديره، و يمكن أن يقال: إن منصب النبوّة لما كان لعظم قدره و جلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال فيه: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ و لما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به كما تقول قرابة الملك نحن الملوك، قال فيه: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً و قيل المراد بالملك: أنهم ملوكا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون، فهم جميعا ملوك بهذا المعنى؛ و قيل معناه: أنه جعلهم ذوى منازل لا يدخل عليهم غيرهم إلا بإذن؛ و قيل: غير ذلك. و الظاهر أنّ المراد من الآية الملك الحقيقى، و لو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى. فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكا كما جعلهم. قلت: قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان. قوله: وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ أى من المنّ و السلوى و الحجر و الغمام و كثرة الأنبياء و كثرة الملوك و غير ذلك. و المراد عالمى زمانهم. و قيل: إن الخطاب هاهنا لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو عدول عن الظاهر لغير موجب، و الصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه، و خاطبهم بهذا الخطاب توطئة و تمهيدا لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدّسة.

و قد اختلف فى تعيينها؛ فقال قتادة: هى الشام، و قال مجاهد: الطور و ما حوله، و قال ابن عباس و السدّى و غيرهما: أريحاء، و قال الزجاج: دمشق و فلسطين و بعض الأردن. و قول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده. و المقدسة: المطهرة، و قيل: المباركة الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ أى قسّمها و قدّرها لهم فى سابق علمه و جعلها مسكنا لكم وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ أى لا ترجعوا عن أمرى و تتركوا طاعتى و ما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبنا و فشلا فَتَنْقَلِبُوا بسبب ذلك خاسِرِينَ لخير الدنيا و الآخرة قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ قال الزجاج: الجبار من الآدميين العاتى، و هو الذى يجبر الناس على ما يريد، و أصله على هذا من الإجبار و هو الإكراه، فإنه يجبر غيره على ما يريده، يقال أجبره: إذا أكرهه؛ و قيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل فى كلّ من جرّ إلى نفسه نفعا بحق أو باطل؛ و قيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه. قال الفراء: لم أسمع فعّالا من أفعل إلا فى حرفين، جبّار من أجبر، و درّاك من أدرك. و المراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاظمون؛ قيل: هم قوم من بقية قوم عاد؛ و قيل: هم من ولد عيص بن إسحاق؛ و قيل: هم من الروم؛ و يقال: إن منهم عوج ابن عنق المشهور بالطوال المفرط، و عنق هى بنت آدم، قيل: كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاثمائة و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و ثلث ذراع. قال ابن كثير: و هذا شىء يستحيا من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه خلق آدم و طوله ستّون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص». ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرا، و أنه كان ولد زنية، و أنه امتنع من ركوب السفينة و أن الطوفان لم يصل إلى ركبته، و هذا كذب و افتراء، فإن اللّه ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١»، و قال تعالى: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ- ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ «٢» و قال تعالى: لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ «٣». و إذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف

---

(١). نوح: ٢۶.

(٢). الشعراء: ١١٩- ١٢٠.

(٣). هود: ۴٣.

يبقى عوج بن عنق و هو كافر ولد زنية؟ هذا لا يسوغ فى عقل و لا شرع، ثم فى وجود رجل يقال له عوج ابن عنق نظر و اللّه

أعلم، انتهى كلامه.

قلت: لم يأت فى أمر هـذا الرجل ما يقتضـى تطويل الكلام فى شأنه، و ما هـذا بأوّل كذبـة اشـتهرت فى الناس، و لسـنا بملزومين بدفع الأكاذيب التى وضعها القصاص و نفقت عند من لا يميز بين الصحيح و السقيم، فكم فى بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب و بلايا و أقاصـيص كلها حـديث خرافة، و ما أحقّ من لا تمييز عنده لفنّ الرواية و لا معرفة به أن يدع التعرّض لتفسـير كتاب اللّه، و يضع هذه الحماقات و الأضحوكات فى المواضع المناسبة لها من كتب القصاص. قوله: فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التى قبل هذه الجملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السـبب. قوله: قالَ رَجُلانِ هما يوشع و كـالب بن يوفنـا أو ابن فانيـا، و كانـا من الاثنى عشـر نقيبا كما مرّ بيان ذلك. و قوله: مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أى يخافون من اللّه عزّ و جلّ؛ و قيل من الجبارين أى هـذان الرجلان من جملـة القوم الـذين يخافون من الجبارين؛ و قيل: من الـذين يخافون ضـعف بنى إسـرائيل و جبنهم و قيـل: إن الواو فى يَخافُونَ لبنى إسـرائيل: أى من الـذين يخافهم بنو إسـرائيل. و قرأ مجاهـد و سـعيد بن جبير يَخافُونَ بضم الياء: أى يخافهم غيرهم. قوله: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا فى محل رفع على أنه صـفة ثانية لرجلان، بالإيمان و اليقين بحصول مـا و عـدوا به من النصـر و الظفر ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبـابَ أى بـاب بلـد الجبـارين فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ قالا: هـذه المقالـة لبنى إسرائيل. و الظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى، أو قالاه ثقة بوعد اللّه، أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفا و رعبا قالُوا أى بنو إسـرائيل لموسـى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها و كان هذا القول منهم فشلا و جبنا أو عنادا و جرأة على اللّه و على رسوله فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا قالوا: هذا جهلا باللّه عزّ و جلّ و بصـفاته و كفرا بما يجب له، أو استهانة باللّه و رسوله؛ و قيل:

أرادوا بالذهاب الإرادة و القصد؛ و قيل: أرادوا بالربّ هارون، و كان أكبر من موسـى، و كان موسـى يطيعه إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ أى لا نبرح هاهنا، لا نتقدّم معك و لا نتأخر عن هذا الموضع؛ و قيل: أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر قالَ موسـى رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي يحتمل أن يعطف و أخى على نفسى، و أن يعطف على الضمير فى إِنِّي أى إنى لا أملك إلا نفسى و إن أخى لا يملك إلا نفسه، قال هذا تحسـرا و تحزنا و اسـتجلابا للنصـر من اللّه عزّ و جلّ فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أى افصل بيننا: يعنى نفسه و أخاه و بين القوم الفاسقين، و ميزنا عن جملتهم، و لا تحلقنا بهم فى العقوبة؛ و قيل المعنى:

فـاقض بيننـا و بينهم، و قيـل: إنما أراد فى الآخرة. و قرأ عبيـد بن عمير فَافْرُقْ بكسـر الراء. قالَ فَإِنَّها أى الأرض المقدّسـة. مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء العصـاة بسـبب امتنـاعهم من قتـال الجبـارين أَرْبَعِينَ سَنَةً ظرف للتحريم: أى أنه محرّم عليهم دخولها هـذه المدّة لا زيادة عليها، فلا يخالف هذا التحريم ما تقدّم من قوله: الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ فإنها مكتوبة لمن بقى منهم بعد هذه المدّة؛ و قيل: إنه لم يدخلها أحد من قال: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها فيكون توقيت التحريم بهذه المدّة باعتبار ذراريهم؛ و قيل: إن أَرْبَعِينَ سَنَةً

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۴

ظرف لقوله: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ أى يتيهون هـذا المقـدار فيكون التحريم مطلقـا. و الموقت: هو التيه، و هو فى اللغـة الحيرة، يقال منه: تـاه يتيه تيهـا أو توهـا إذا تحيّر، فـالمعنى: يتحيّرون فى الأرض؛ قيل: إن هـذه الأرض التى تاهوا فيها كانت صـغيرة نحو سـتة فراسخ، كانوا يمسون حيث أصبحوا و يصبحون حيث أمسوا، و كانوا سيّارة مستمرّين على ذلك لا قرار لهم.

و اختلف أهل العلم هل كان معهم موسى و هارون أم لا؟ فقيل: لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة؛ و قيل:

كانا معهم لكن سـهل اللّه عليهما ذلك كما جعل النار بردا و سـلاما على إبراهيم. و قـد قيل: كيف يقع هـذا الجماعة من العقلاء فى مثل هذه الأرض اليسـيرة فى هذه المدّة الطويلة؟ قال أبو على: يكون ذلك بأن يحوّل اللّه الأرض التى هم عليها إذا ناموا إلى المكان الذى ابتدءوا منه، و قد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة.

و قـد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فی قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً قال: ملّكهم الخدم، و كانوا أوّل من ملك الخدم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فی الآیة قال: كان الرجل من بنی إسرائيل إذا كانت له الزوجة و الخادم و الـدار سـمّی ملكا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد ابن جرير عنه فی الآیة قال: الزوجة و الخادم و البيت. و أخرج الفريابی و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه و البيهقی فی شعب الإيمان عنه أيضا فی قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً قال: المرأة و الخدم وَ آتـاكُمْ مـا لَمْ يُؤْتِ أَحَـداً مِنَ الْعـالَمِينَ قال: الـذين هم بين ظهرانيهم يومئـذ. و أخرج ابن أبی حاتم عن أبی سـعيد الخـدری عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابة و امرأة كتب ملكا».

و أخرج ابن جرير و الزبير بن بكار فی الموفقيات عن زيد بن أسـلم قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «من كان له بيت و خادم فهو ملك». و أخرج أبو داود فی مراسيله عن زيد بن أسلم فی الآیة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم:

«زوجة و مسـكن و خادم». و أخرج سـعيد بن منصور و ابن جرير عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه سأله رجل: ألسـنا من فقراء المهاجرين؟ قال: ألك امرأة تأوی إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟

قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: إن لی خادما، قال: فأنت من الملوك. و أخرج عبـد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهـد فی قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكـاً قـال: جعـل لهم أزواجـا و خـدما و بيوتـا وَ آتـاكُمْ مـا لَمْ يُؤْتِ أَحَـداً مِنَ الْعالَمِينَ قال: المنّ و السـلوی و الحجر و الغمام. و أخرج ابن جرير من طريق مجاهـد عن ابن عباس فی الآیة قال: المنّ و السـلوی و الحجر و الغمام، و قـد ثبت فی الحـديث الصـحيح «من أصـبح منكم معـافی فی جسـده، آمنـا فی سربه، عنـده قـوت يومه، فكأنمـا حيزت له الـدّنيا بحذافيرها». و أخرج ابن جرير عنه فی قوله: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ قال: الطور و ما حوله. و أخرج عنه أيضا قال:

هی أريحاء. و أخرج ابن عساكر عن معاذ بن جبل قال: هی ما بين العريش إلی الفرات. و أخرج عبـد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة قال: هی الشام. و أخرج ابن جرير عن السدیّ فی قوله: الَّتِی كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

فتح القدير، ج‏2، ص: 35

قـال: التی أمركم اللّه بهـا. و أخرج عبـد بن حميـد عن قتـادة فی الآیـة قـال: أمر القوم بهـا كما أمرنا بالصـلاة و الزكاة و الحـجّ و العمرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس: أمر موسی أن يدخل مدينة الجبارين، فسار بمن معه حتی نزل قريبا من المدينة و هی أريحاء، فبعث إليهم اثنی عشر عينا، من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخبر القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمرا عظيما من هيئتهم و جسـمهم و عظمهم، فدخلوا حائطا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجتنی الثمار من حائطه، فجعل يجتنی الثمار فنظر إلی آثارهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحـدا منهم أخـذه فجعله فی كمّه مع الفاكهـة حتی التقط الاثنی عشـر كلهم فجعلهم فی كمّه مع الفاكهـة، و ذهب إلی ملكهم فنثرهم بين يـديه فقـال الملـك: قـد رأيتم شأننـا و أمرنـا اذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلی موسـی فـأخبروه بمـا عـاينوا من أمرهم، فقـال: اكتموا عنا، فجعل الرجل يخبر أباه و صـديقه و يقول: اكتم عنی، فأشـيع ذلك فی عسكرهم و لم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون و كالب بن يوفنا، و هما اللذان أنزل اللّه فيهما:

قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ و قـد روی نحو هـذا مما يتضـمن المبالغـة فی وصف هؤلاء و عظم أجسامهم، و لا فائدة فی بسـط ذلـك فغـالبه من أكـاذيب القصاص كما قـدّمنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حـاتم عن ابن عباس فی قوله: فَافْرُقْ يقول: اقض. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حـاتم عنه يقول: افصـل بيننـا و بينهم. و أخرج ابن جرير عن قتـادة فی قوله: فَإِنَّهـا مُحَرَّمَـةٌ عَلَيْهِمْ قـال: أبدا، و فی قوله: يَتِيهُونَ فِی الْأَرْضِ قال:

أربعين سـنة. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة، فهلك موسی و هارون فی التيه، و كل من جاوز الأربعين سـنة، فلما مضت الأربعون سـنة ناهضـهم يوشع بن نون، و هو الذی قام بالأمر بعد موسی، و هو الذی افتتحها و هو

الذی قیل له: الیوم یوم جمعة! فهموا بافتتاحها فدنت الشمس للغروب، فخشی إن دخلت لیلة السبت أن یسبتوا، فنادی الشمس: إنی مأمور و أنت مأمورة فوقفت حتی افتتحها، فوجد فیها من الأموال ما لم یر مثله قط، فقرّبوه إلی النار فلم تأت، فقال: فیکم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط و هم اثنا عشر رجلا فبایعهم و التصقت ید رجل منهم بیده، فقال: الغلول عندک فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عینان من یاقوت و أسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان فأتت النار فأکلتها.

و أخرج ابن جریر عن ابن عباس قال: خلق لهم فی التیه ثیاب لا تخلق و لا تدرن.

[سورة المائدة (۵): الآیات ۲۷ الی ۳۱]

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قالَ إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی ما أَنَا بِباسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِکَ جَزاءُ الظَّالِمِینَ (۲۹) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ (۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ قالَ یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَةَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِینَ (۳۱)

فتح القدیر، ج۲، ص: ۳۶

وجه اتصال هذا بما قبله التنبیه من اللّه علی أن ظلم الیهود و نقضهم المواثیق و العهود هو کظلم ابن آدم لأخیه، فالداء قدیم، و الشرّ أصیل.

و قد اختلف أهل العلم فی ابنی آدم المذکورین هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلی الأوّل. و ذهب الحسن و الضّحاک إلی الثانی، و قالا: إنهما کانا من بنی إسرائیل فضرب بهما المثل فی إبانة حسد الیهود، و کانت بینهما خصومة فتقرّبا بقربانین و لم تکن القرابین إلا فی بنی إسرائیل. قال ابن عطیة: و هذا و هم کیف یجهل صورة الدفن أحد من بنی إسرائیل حتی یقتدی بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: و اسمهما قابیل و هابیل، و کان قربان قابیل حزمة من سنبل، لأنه کان صاحب زرع و اختارها من أردأ زرعه، حتی إنه وجد فیها سنبلة طیبة ففرکها و أکلها، و کان قربان هابیل کبشا لأنه کان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه، فتقبل قربان هابیل فرفع إلی الجنة، فلم یزل یرعی فیها إلی أن فدی به الذّبیح علیه السلام، کذا قال جماعة من السلف، و لم یتقبل قربان قابیل، فحسده و قال: لأقتلنک. و قیل: سبب هذا القربان أن حواء کانت تلد فی کل بطن ذکرا و أنثی، إلا شیئا علیه السلام فإنها ولدته منفردا، و کان آدم علیه السلام یزوّج الذکر من هذا البطن بالأنثی من البطن الآخر، و لا تحلّ له أخته التی ولدت معه، فولدت مع قابیل أخت جمیلة و اسمها إقلیما، و مع هابیل أخت لیست کذلک و اسمها لیوذا فلما أراد آدم تزویجهما قال قابیل: أنا أحق بأختی، فأمره آدم فلم یأتمر و زجره فلم ینزجر، فاتّفقوا علی القربان و أنه یتزوّجها من تقبل قربانه. قوله: بِالْحَقِ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر وَ اتْلُ أی تلاوة متلبسة بالحق، أو صفة لنبأ: أی نبأ متلبسا بالحق، و المراد بأحدهما هابیل و بالآخر قابیل، و قالَ: لَأَقْتُلَنَّکَ استئناف بیانی کأنه فماذا قال الذی لم یتقبل قربانه؟ و قوله: قالَ إِنَّما یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ استئناف کالأوّل کأنه قیل: فماذا قال الذی تقبّل قربانه؟

و إنما للحصر: أی إنما یتقبل اللّه القربان من المتقین لا من غیرهم، و کأنه یقول لأخیه: إنما أتیت من قبل نفسک لا من قبلی، فإن عدم تقبل قربانک بسبب عدم تقواک. قوله: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی أی لأن قصدت قتلی، و اللام هی الموطئة، و ما أَنَا بِباسِطٍ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط، و هذا استسلام للقتل من هابیل، کما ورد فی الحدیث: «إذا کانت الفتنة فکن کخیر ابنی آدم» و تلا النبی صلّی اللّه علیه و سلّم هذه الآیة. قال مجاهد: کان الفرض علیهم حینئذ أن لا یسلّ أحد سیفا و أن لا

یمتنع ممن یرید قتله، قال القرطبی: قال علماؤنا: و ذلک مما یجوز ورود التعبد به، إلا أن فی شرعنا یجوز دفعه إجماعا، و فی وجوب ذلک علیه خلاف. و الأصح وجوب ذلک لما فیه من النهی عن المنکر. و فی الحشویة قوم لا یجوّزون للمصول علیه الدفع، و احتجوا بحدیث أبی ذرّ، و حمله العلماء علی ترک القتال فی الفتنة و کفّ الید عند الشبهة علی ما بیناه فی کتاب التذکرة، انتهی کلام القرطبی. و حدیث أبی ذرّ المشار إلیه هو عند مسلم و أهل السنن إلا النسائی، و فیه «أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال له: یا أبا ذرّ أ رأیت إن قتل الناس بعضهم بعضا کیف تصنع؟ قلت:

اللّه و رسوله أعلم، قال: اقعد فی بیتک و أغلق علیک بابک، قال: فإن لم أترک، قال: فأت من أنت منهم فکن فیهم، قال: فآخذ سلاحی؟ قال: إذن تشارکهم فیما هم فیه، و لکن إن خشیت أن یردعک

شعاع السیف فألق طرف ردائک علی وجهک کی یبوء بإثمه و إثمک». و فی معناه أحادیث عن جماعة من الصحابة سعد بن أبی وقاص و أبی هریرة و خباب بن الأرتّ و أبی بکر و ابن مسعود و أبی واقد و أبی موسی.

قوله: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ هذا تعلیل لامتناعه من المقاتلة بعد التعلیل الأوّل و هو إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ

اختلف المفسرون فی المعنی فقیل: أراد هابیل إنّی أرید أن تبوء بالإثم الذی کان یلحقنی لو کنت حریصا علی قتلک، و بإثمک الذی تحملته بسبب قتلی؛ و قیل: المراد بإثمی الذی یختصّ بی بسبب سیأتی فیطرح علیک بسبب ظلمک لی و تبوء بإثمک فی قتلی. و هذا یوافق معناه معنی ما ثبت فی صحیح مسلم من قوله صلّی اللّه علیه و سلّم:

«یؤتی یوم القیامة بالظّالم و المظلوم، فیؤخذ من حسنات الظالم فتزاد فی حسنات المظلوم حتی ینتصف، فإن لم یکن له حسنات أخذ من سیئات المظلوم فتطرح علیه»، و مثله قوله تعالی: وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «۱» و قیل المعنی: إنی أرید أن لا تبوء بإثمی و إثمک، کما فی قوله تعالی: وَ أَلْقی فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ* «۲» أی أن لا تمید بکم. و قوله: یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ أَنْ تَضِلُّوا «۳» أی أن لا تضلوا. و قال أکثر العلماء: إن المعنی إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی أی بإثم قتلک لی وَ إِثْمِکَ الذی قد صار علیک بذنوبک من قبل قتلی. قال الثعلبی: هذا قول عامة المفسرین و قیل: هو علی وجه الإنکار: أی أو إنی أرید، علی وجه الإنکار کقوله تعالی: وَ تِلْکَ نِعْمَةٌ «۴» أی أو تلک نعمة. قاله القشیری، و وجهه بأن إرادة القتل معصیة. و سئل أبو الحسن بن کیسان: کیف یرید المؤمن أن یأثم أخوه و أن یدخل النار؟ فقال: وقعت الإرادة بعد ما بسط یده إلیه بالقتل، و هذا بعید جدّا، و کذلک الذی قبله. و أصل باء: رجع إلی المباءة، و هی المنزل وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ* «۵» أی رجعوا. قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ أی سهلت نفسه علیه الأمر و شجعته و صوّرت له أن قتل أخیه طوع یده سهل علیه، یقال: تطوّع الشیء: أی سهل و انقاد و طوعه فلان له: أی سهله. قال الهروی: طوّعت و طاوعت واحد، یقال: طاع له کذا: إذا أتاه طوعا، و فی ذکر تطویع نفسه له بعد ما تقدّم من قول قابیل لَأَقْتُلَنَّکَ و قول هابیل لِتَقْتُلَنِی دلیل علی أنّ التطویع لم یکن قد حصل له عند تلک المقاولة. قوله: فَقَتَلَهُ قال ابن جریر و مجاهد و غیرهما:

روی أنه جهل کیف یقتل أخاه فجاءه إبلیس بطائر أو حیوان غیره، فجعل یشدخ رأسه بین حجرین لیقتدی به قابیل ففعل؛ و قیل: غیر ذلک مما یحتاج إلی تصحیح الروایة. قوله: فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ قیل: إنه لما قتل أخاه لم یدر کیف یواریه؛ لکونه أوّل میت مات من بنی آدم، فبعث اللّه غرابین أخوین فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه فحفر له، ثم حثا علیه، فلما رآه قابیل قالَ یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَةَ أَخِی فواراه، و الضمیر المستکن فی لِیُرِیَهُ للغراب؛ و قیل للّه سبحانه، و کَیْفَ فی محل نصب علی الحال من ضمیر یُوارِی و الجملة ثانی مفعولی یریه. و المراد بالسوءة هنا

ذاته كلها لكونها ميتة، و قالَ استئناف جواب سؤال مقدّر من سوق الكلام، كأنه قيل: فماذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك؟ و يا وَيْلَتى كلمة تحسّر و تحزّن،

---

(۱). العنكبوت: ۱۳.

(۲). النحل: ۱۵.

(۳). النساء: ۱۷۶.

(۴). الشعراء: ۲۲.

(۵). آل عمران: ۱۱۲.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۸

و الألف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت، و الويلة: الهلكة، و الكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك فَأُوارِيَ بالنصب على أنه جواب الاستفهام، و قرئ بالسكون على تقدير فأنا أوارى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ على قتله؛ و قيل: لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده، لا على قتله، و قيل: غير ذلك.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن عساكر عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، و أن ينكحها غيره من إخوتها، و كان يولد له فى كل بطن رجل و امرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة و ولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحنى أختك و أنكحك أختى، فقال: لا، أنا أحقّ بأختى، فقرّبا قربانا، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، و صاحب الحرث بصبرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش، و لم يتقبل من صاحب الزرع. قال ابن كثير فى تفسيره: إسناده جيد، و كذا قال السيوطى فى الدر المنثور. و أخرج ابن جرير عنه قال: كان من شأن بنى آدم أنه لم يكن مسكين يتصدّق عليه، و إنما كان القربان يقرّبه الرجل، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قربانا ثم ذكرا ما قرباه. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ قال:

كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلا تركه و لا يمتنع منه. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ يقول: إنّى أريد أن تكون عليك خطيئتك و دمى فتبوء بهما جميعا. و أخرج ابن جرير عنه بِإِثْمِي قال: بقتلك إياى وَ إِثْمِكَ قال: بما كان منك قبل ذلك. و أخرج عن قتادة و الضحاك مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ قال: شجّعته على قتل أخيه.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: زيّنت له نفسه. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رؤوس الجبال، فأتاه يوما من الأيام و هو يرعى غنما له و هو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء و لا يعلم كيف يدفن، فبعث اللّه غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه، فلما رآه قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها؛ لأنه أوّل من سنّ القتل». و قد روى فى صفة قتله لأخيه روايات اللّه أعلم بصحتها.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِی إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِی الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِی الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩

قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أی من أجل ذلك القاتل و جريرته و بسبب معصيته، و قال الزجاج: أی من جنايته، قال: يقال أجل الرجل على أهله شرا يأجل أجلا إذا جنى؛ مثل أخذ يأخذ أخذا. و قرأ أبو جعفر «من أجل» بكسر النون و حذف الهمزة، و هی لغة. قال فی شرح الدرة: قرأ أبو جعفر منفردا «من إجل ذلك» بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها؛ و قيل: يجوز أن يكون قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ متعلّقا بقوله: مِنَ النَّادِمِينَ فيكون الوقف على قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ و الأولى ما قدّمنا، و المعنى:

أن نبأ ابنی آدم هو الذی تسبب عنه الكتب المذكور على بنی إسرائيل، و على هذا جمهور المفسرين. و خصّ بنی إسرائيل بالذكر لأن السياق فی تعداد جناياتهم، و لأنهم أوّل أمة نزل الوعيد عليهم فی قتل الأنفس، و وقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء و قتلهم للأنبياء، و تقديم الجار و المجرور على الفعل الذی هو متعلق به أعنی كتبنا: يفيد القصر؛ أی من أجل ذلك لا من غيره، و من لابتداء الغاية أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً واحدة من هذه النفوس بِغَيْرِ نَفْسٍ أی بغير نفس توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفسا بنفس قصاصا.

قوله: أَوْ فَسادٍ فِی الْأَرْضِ قرأ الجمهور بالجرّ عطفا على نفس. و قرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدلّ عليه أوّل الكلام تقديره: أو أحدث فسادا فی الأرض، و فی هذا ضعف. و معنى قراءة الجمهور:

أنّ من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد فی الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. و قد تقرر أنّ كلّ حكم مشروط بتحقّق أحد شيئين فنقيضه مشروط بانتفائهما معا، و كل حكم مشروط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شیء مشروط بنقيض شرطه.

و قد اختلف فی هذا الفساد المذكور فی هذه الآية ما ذا هو؟ فقيل: هو الشرك، و قيل: قطع الطريق.

و ظاهر النظم القرآنی أنه ما يصدق عليه أنه فساد فی الأرض، فالشرك فساد فی الأرض، و قطع الطريق فساد فی الأرض، و سفك الدماء و هتك الحرم و نهب الأموال فساد فی الأرض، و البغی على عباد اللّه بغير حق فساد فی الأرض، و هدم البنيان و قطع الأشجار و تغوير الأنهار فساد فی الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فی الأرض، و هكذا الفساد الذی سيأتی فی قوله: وَ يَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَساداً يصدق على هذه الأنواع، و سيأتی تمام الكلام على معنى الفساد قريبا. قوله: فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً اختلف المفسرون فی تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعا أشدّ من عقاب من قتل واحدا منهم.

فروی عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياه بأن شدّ عضده و نصره فكأنما أحيا الناس جميعا. أخرج هذا عنه ابن جرير. و روی عن مجاهد أنه قال: المعنى أن الذی يقتل النفس المؤمنة متعمّدا جعل اللّه جزاءه جهنم، و غضب عليه، و لعنه، و أعدّ له عذابا عظيما، فلو قتل الناس جميعا لم يزد على هذا قال: و من سلّم من قتل فلم يقتل أحدا فكأنما أحيا الناس جميعا.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٠

و قد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر، و روى عن ابن عباس أيضا أنه قال فى تفسير هذه الآية: من أوبق نفسه كما لو قتل النّاس جميعا، أخرجه عنه ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم. و روى عن الحسن أنه قال: فكأنما قتل الناس جميعا فى الوزر، و كأنما أحيا الناس جميعا فى الأجر. و قال ابن زيد:

المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القود و القصاص ما يلزم من قتل الناس جميعا وَ مَنْ أَحْياها أى من عفا عمّن وجب قتله، حكاه عنه القرطبى. و حكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة: يعنى أحياها. و روى عن مجاهد أنّ إحياءها: إنجاؤها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة، حكاه عنه ابن جرير و ابن المنذر؛ و قيل المعنى: أن من قتل نفسا فالمؤمنون كلهم خصماؤه، لأنه قد وتر الجميع وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً أى وجب على الكلّ شكره؛ و قيل المعنى: أنه من استحلّ واحدا فقد استحلّ الجميع لأنه أنكر الشرع.

و على كل حال فالإحياء هنا عبارة عن الترك و الإنقاذ من هلكة فهو مجاز، إذ المعنى الحقيقى مختصّ باللّه عزّ و جلّ. و المراد بهذا التشبيه فى جانب القتل تهويل أمر القتل و تعظيم أمره فى النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرأة و الجسارة، و فى جانب الإحياء الترغيب إلى العفو عن الجناة و استنقاذ المتورطين فى الهلكات. قوله: وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة و السلام قد جاءوا العباد بما شرعه اللّه لهم من الأحكام التى من جملتها أمر القتل، و ثم فى قوله: ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ للتراخى الرتبى و الاستبعاد العقلى، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر مما كتبه اللّه على بنى إسرائيل؛ أى إن كثيرا منهم بعد ذلك الكتب فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ فى قوله: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قد اختلف الناس فى سبب نزول هذه الآية؛ فذهب الجمهور إلى أنها نزلت فى العرنيين. و قال مالك و الشافعى و أبو ثور و أصحاب الرأى: إنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق و يسعى فى الأرض بالفساد. قال ابن المنذر: قول مالك صحيح. قال أبو ثور محتجا لهذا القول:

إن قوله فى هذه الآية: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ يدلّ على أنها نزلت فى غير أهل الشرك، لأنهم قد أجمعوا على أنّ أهل الشرك إذا وقعوا فى أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم، فدلّ ذلك على أن الآية نزلت فى أهل الإسلام، انتهى. و هكذا يدلّ على هذا قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ «١»، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «الإسلام يهدم ما قبله» أخرجه مسلم و غيره، و حكى ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية: أعنى آية المحاربة نسخت فعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى العرنيين، و وقف الأمر على هذه الحدود.

و روى عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن تنزل الحدود: يعنى فعله صلّى اللّه عليه و سلّم بالعرنيين و بهذا قال جماعة من أهل العلم. و ذهب جماعة آخرون إلى أن فعله صلّى اللّه عليه و سلّم بالعرنيين منسوخ بنهى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن المثلة، و القائل بهذا مطالب ببيان تأخر الناسخ، و سيأتى سياق الروايات الواردة فى سبب النزول. و الحقّ أن هذه الآية تعمّ المشرك و غيره لمن ارتكب ما تضمنته، و لا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ. قال القرطبى فى تفسيره: و لا خلاف بين أهل العلم فى أنّ حكم هذه الآية مترتب فى المحاربين من أهل الإسلام و إن كانت نزلت فى المرتدين أو اليهود، انتهى. و معنى قوله مترتب: أى ثابت؛ قيل: المراد بمحاربة اللّه المذكورة فى

---

(١). الأنفال: ٣٨.

الآية، هى محاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و محاربة المسلمين فى عصره و من بعد عصره بطريق العبارة دون الدلالة و

دون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر؛ و قيل: إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة للّه و لرسوله إكبارا لحربهم و تعظيما لأذيتهم، لأن اللّه سبحانه لا يحارب و لا يغالب. و الأولى أن تفسّر محاربة اللّه سبحانه بمعاصيه و مخالفة شرائعه، و محاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقى، و حكم أمته حكمه، و هم أسوته. و السعى فى الأرض فسادا يطلق على أنواع من الشرّ كما قدمنا قريبا. قال ابن كثير فى تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد ابن المسيب: إن قرض الدراهم و الدنانير من الإفساد فى الأرض، و قد قال تعالى: وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ انتهى.

إذا تقرّر لك ما قررناه من عموم الآية و من معنى المحاربة و السعى فى الأرض فسادا، فاعلم أن ذلك يصدق على كلّ من وقع منه ذلك، سواء كان مسلما أو كافرا، فى مصر و غير مصر، فى كل قليل و كثير، و جليل و حقير، و أن حكم اللّه فى ذلك هو ما ورد فى هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدى و الأرجل من خلاف، أو النفى من الأرض، و لكن لا يكون هذا حكم من فعل أىّ ذنب من الذنوب، بل من كان ذنبه هو التعدّى على دماء العباد و أموالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم فى كتاب اللّه أو سنة رسوله كالسرقة و ما يجب فيه القصاص، لأنا نعلم أنه قد كان فى زمنه صلّى اللّه عليه و سلّم من تقع منه ذنوب و معاص غير ذلك، و لا يجرى عليه صلّى اللّه عليه و سلّم هذا الحكم المذكور فى هذه الآية، و بهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد فى تفسير المحاربة المذكورة فى هذه الآية: أنها الزنا و السرقة، و وجه ذلك أن هذين الذنبين قد ورد فى كتاب اللّه و فى سنة رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم لهما حكم غير هذا الحكم.

و إذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التى أمرنا بأن نفسّر كتاب اللّه و سنة رسوله بها، فإياك أن تغترّ بشىء من التفاصيل المروية، و المذاهب المحكية، إلا أن يأتيك الدليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب فأنت و ذاك اعمل به وضعه فى موضعه، و أما ما عداه:

فدع عنك نهبا صيح فى حجراتهو هات حديثا ما حديث الرّواحل

على أنا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه: اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحقّ اسم المحاربة؛ فقال ابن عباس و سعيد بن المسيب و مجاهد و عطاء و الحسن البصرى و إبراهيم النخعى و الضحاك و أبو ثور: إن من شهر السلاح فى قبة الإسلام و أخاف السبيل ثم ظفر به و قدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع يده و رجله. و بهذا قال مالك و صرّح بأن المحارب عنده من حمل على الناس فى مصر أو فى بريّة أو كابرهم على أنفسهم و أموالهم دون نائرة «۱» و لا ذحل و لا عداوة. قال ابن المنذر:

---

(۱). «نائرة»: فتنة حادثة و عداوة. و يقال: نار الحرب و نائرتها: شرّها و هيجها. و «الذّحل»: الثأر (النهاية ۵/ ۱۲۷)

اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرّة و نفى ذلك مرة. و روى عن ابن عباس غير ما تقدّم فقال فى قطاع الطريق: إذا قتلوا و أخذوا المال قتلوا و صلبوا، و إذا قتلوا و لم يأخذوا المال قتلوا و لم يصلبوا، و إذا أخذوا المال و لم يقتلوا قطعت أيديهم و أرجلهم من خلاف، و إذا أخافوا السبيل و لم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. و روى عن ابن مجلز و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعى و الحسن و قتادة و السدىّ و عطاء على اختلاف فى الرواية عن بعضهم، و حكاه ابن كثير عن الجمهور. و قال أيضا: و هكذا عن غير واحد من السلف و الأئمة. و قال أبو حنيفة: إذا قتل قتل و إذا أخذ المال و لم يقتل قطعت يده و رجله من خلاف، و إذا أخذ المال و قتل فالسلطان مخيّر فيه: إن شاء قطع يديه و رجليه، و إن شاء لم يقطع و قتله و صلبه. و قال أبو

يوسف:

القتل يأتى على كلّ شىء، و نحوه قول الأوزاعى. و قال الشافعى: إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى و حسمت، ثم قطعت رجله اليسرى و حسمت و خلى، لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة؛ و إذا قتل قتل و إذا أخذ المال و قتل قتل و صلب. و روى عنه أنه قال: يصلب ثلاثة أيام. و قال أحمد: إن قتل قتل، و إن أخذ المال قطعت يده و رجله كقول الشافعى، و لا أعلم لهذه التفاصيل دليلا لا من كتاب اللّه و لا من سنة رسوله إلا ما رواه ابن جرير فى تفسيره و تفرّد بروايته فقال: حدثنا علىّ بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين و هم من بجيلة، قال أنس: «فارتدّوا عن الإسلام، و قتلوا الراعى، و استاقوا الإبل، و أخافوا السبيل، و أصابوا الفرج الحرام؛ قال أنس: فسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق و أخاف الطريق فاقطع يده لسرقته و رجله بإخافته، و من قتل فاقتله؛ و من قتل و أخاف السبيل و استحلّ الفرج الحرام فاصلبه». و هذا مع ما فيه من النكارة الشديدة لا يدرى كيف صحته؟ قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لشىء من هذه التفاصيل التى ذكرناها ما لفظه: و يشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره إن صحّ سنده ثم ذكره.

قوله: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً هو إما منتصب على المصدرية، أو على أنه مفعول له، أو على الحال بالتأويل: أى مفسدين.

قوله: أَوْ يُصَلَّبُوا ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا، لأنه أحد الأنواع التى خير اللّه بينها. و قال قوم: الصلب إنما يكون بعد القتل، و لا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه و بين الصلاة و الأكل و الشرب. و يجاب بأن هذه عقوبة شرعها اللّه سبحانه فى كتابه لعباده. قوله: أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ظاهرة قطع إحدى اليدين و إحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هى اليمنى أو اليسرى، و كذلك الرجلان و لا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف إما يمنى اليدين مع يسرى الرجلين أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين؛ و قيل: المراد بهذا قطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى فقط.

قوله: أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ اختلف المفسرون فى معناه، فقال السدىّ: هو أن يطلب بالخيل و الرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحدّ أو يخرج من دار الإسلام هربا. و هو محكّى عن ابن عباس و أنس و مالك و الحسن البصرى و السدى و الضحاك و قتادة و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس و الزهرى، حكاه الرمانى فى كتابه عنهم.

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴٣

و حكى عن الشافعى أنهم يخرجون من بلد إلى بلد و يطلبون لتقام عليهم الحدود، و به قال الليث بن سعد.

و روى عن مالك أنه ينفى من البلد الذى أحدث فيه إلى غيره و يحبس فيه كالزانى، و رجحه ابن جرير و القرطبى.

و قال الكوفيون: نفيهم سجنهم، فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها. و الظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التى وقع منه فيها ما وقع من غير سجن و لا غيره. و النفى قد يقع بمعنى الإهلاك و ليس هو مرادا هنا. قوله:

ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام، و الخزى: الذلّ و الفضيحة. قوله:

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ استثنى اللّه سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، و الظاهر عدم الفرق بين الدماء و الأموال و بين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشىء من ذلك، و عليه عمل الصحابة. و ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص و سائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة، و الحق الأوّل. و أما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة فى الآية، كما يدل عليه ذكر قيد قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ قال القرطبى: و أجمع أهل العلم على أن السلطان ولىّ من حارب فإن قتل محارب أخا امرئ و أتاه فى حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شىء، و لا يجوز عفو ولىّ الدم.

و قد أخرج ابن جرير عن الضحاك فى قوله: مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ يقول: من أجل ابن آدم الذى قتل أخاه ظلما. و أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له فى هذه الآية يعنى قوله: فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل؟ فقال: إى و الذى لا إله غيره. و أخرج أبو داود و النسائى عن ابن عباس فى قوله: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال: نزلت فى المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، و ليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحدّ إن قتل أو أفسد فى الأرض أو حارب اللّه و رسوله. و أخرج ابن جرير و الطبرانى فى الكبير عنه فى هذه الآية قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد و ميثاق، فنقضوا العهد و أفسدوا فى الأرض، فخيّر اللّه نبيه فيهم: إن شاء قتل، و إن شاء صلب، و إن شاء أن يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و أما النفى فهو الضرب فى الأرض، فإن جاء تائبا فدخل فى الإسلام قبل منه، و لم يؤخذ بما سلف. و أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص أن هذه الآية نزلت فى الحرورية. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس أن نفرا من عكل قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأسلموا و اجتووا «١» المدينة، فأمرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها و ألبانها، فقتلوا راعيها و استاقوها، فبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى طلبهم قافة «٢»، فأتى بهم فقطع أيديهم و أرجلهم، و سمل أعينهم، و لم يحسمهم، و تركهم حتى ماتوا، فأنزل اللّه إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ الآية. و فى مسلم عن أنس أنه قال: إنّما سمل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين

---

(١). اجتووا: أى أصابهم الجوى؛ و هو المرض و داء الجوف إذا تطاول.

(٢). القافة: جمع قائف، الذى يتتبع الأثر.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ۴۴

الرعاة. و أخرج الشافعى فى الأم و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: إذا خرج المحارب فأخذ المال و لم يقتل قطع من خلاف، و إذا خرج فقتل و لم يأخذ المال قتل، و إذا خرج و أخذ المال و قتل قتل و صلب و إذا خرج فأخاف السبيل و لم يأخذ المال و لم يقتل نفى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: من شهر السلاح فى قبة الإسلام و أفسد السبيل فظهر عليه و قدر، فإمام المسلمين مخيّر فيه: إن شاء قتله، و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع يده و رجله، قال: أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ يهربوا و يخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب. و أخرج ابن جرير عنه قال: نفيه أن يطلب. و أخرج أيضا عن أنس نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان حارثة بن بدر التيمى من أهل البصرة قد أفسد فى الأرض و حارب، فكلّم رجالا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبوا فأتى سعيد بن قيس الهمدانى، فأتى عليا فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون اللّه و رسوله و يسعون فى الأرض فسادا؟

قال: أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ثم قال: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فقال سعيد: و إن كان حارثة بن بدر، قال: و إن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر، قد جاء تائبا فهو آمن، قال: نعم، فجاء به إليه فبايعه، و قبل ذلك منه و كتب له أمانا.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي

الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٣۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

ابْتَغُوا اطلبوا إِلَيْهِ لا إلى غيره، و الْوَسِيلَةَ فعيلة من توسلت إليه: إذا تقربت إليه.

قال عنترة:

إنّ الرّجال لهم إليك وسيلةأن يأخذوك تكحّلى و تخضّبى

و قال آخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلناو عاد التّصابى «١» بيننا و الوسائل

فالوسيلة: القربة التى ينبغى أن تطلب، و به قال أبو وائل و الحسن و مجاهد و قتادة و السدى و ابن زيد.

و روى عن ابن عباس و عطاء و عبد اللّه بن كثير. قال ابن كثير فى تفسيره: و هذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا

---

(١). فى تفسير القرطبى (۶/ ١۵٩): التّصافى.

خلاف بين المفسرين فيه. و الوسيلة أيضا درجة فى الجنة مختصّة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة و الصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة و الفضيلة و ابعثه مقاما محمودا الذى وعدته، إلا حلّت له الشّفاعة يوم القيامة». و فى صحيح مسلم من حديث عبد اللّه بن عمرو أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا علىّ، فإنه من صلّى علىّ صلاة صلى اللّه عليه عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه، و أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشّفاعة» و فى الباب أحاديث، و عطف وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ على يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ يفيد أن الوسيلة غير التقوى؛ و قيل: هى التقوى، لأنها ملاك الأمر و كلّ الخير، فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى. و الظاهر أنّ الوسيلة التى هى القربة تصدق على التقوى و على غيرها من خصال الخير التى يتقرب العباد بها إلى ربهم وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ من لم يقبل دينه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قوله:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كلام مبتدأ مسوق لزجر الكفار و ترغيب المسلمين فى امتثال أوامر اللّه سبحانه لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ من أموالها و منافعها؛ و قيل: المراد لكلّ واحد منهم ليكون أشدّ تهويلا، و إن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك، و جَمِيعاً تأكيد. و قوله: وَ مِثْلَهُ عطف على ما فى الأرض، و مَعَهُ فى محل نصب على الحال لِيَفْتَدُوا بِهِ يجعلوه فدية لأنفسهم، و أفرد الضمير إما لكونه راجعا إلى المذكور أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة: أى ليفتدوا بذلك، و مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ متعلق بالفعل المذكور ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ذلك، و هذا هو جواب لو. قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ هذا استئناف بيانى، كأنه قيل: كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم؟ فقيل: يريدون أن يخرجوا من النار. و قرئ: أَنْ يَخْرُجُوا من أخرج، و يضعف هذه القراءة وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها و محل هذه الجملة أعنى قوله: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها النصب على الحال؛ و قيل: إنّها جملة اعتراضية.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ قال: الوسيلة: القربة. و أخرج الحاكم و صحّحه عن حذيفة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ قال: تقرّبوا إلى اللّه بطاعته و العمل بما يرضيه.

و أخرج مسلم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يخرج

من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: يريد الفقير، فقلت لجابر يقول اللّه: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها قال: اتل أوّل الآية إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ ألا إنهم الذين كفروا. و أخرج ابن جرير عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس:

تزعم أنّ قوما يخرجون من النار و قد قال اللّه تعالى: وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه للكفار. قال الزمخشري في الكشاف بعد ذكره لهذا: إنه مما لفّقته المجبرة، و يا للّه العجب من رجل لا يفرق بين أصحّ الصحيح و بين أكذب الكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، يتعرّض للكلام على ما لا

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۶

يعرفه و لا يدري ما هو؟ و قد تواترت الأحاديث تواترا لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة، اللهم غفرا.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا و هو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية و هو السارق، و ذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال في تشريع الأحكام. و قد اختلف أئمة النحو في خبر السارق و السارقة هل هو مقدر أم هو فاقطعوا؟ فذهب إلى الأول سيبويه، و قال تقديره:

فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق و السارقة: أي حكمهما. و ذهب المبرد و الزجاج إلى الثاني، و دخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، إذ المعنى: الذي سرق و التي سرقت، و قرئ وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ بالنصب على تقدير اقطعوا، و رجح هذه القراءة سيبويه، قال: الوجه في كلام العرب النصب كما تقول زيدا اضربه، و لكن العامة أبت إلا الرفع، يعني عامة القراء، و السرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق و المصدر من سرق يسرق سرقا قاله الجوهري: و هو أخذ الشيء في خفية من الأعين، و منه استرق السمع، و سارقه النظر. قوله: فَاقْطَعُوا القطع معناه الإبانة و الإزالة، و جمع الأيدي لكراهة الجمع بين تثنيتين، و قد بينت السّنّة المطهرة أن موضع القطع الرسغ. و قال قوم: يقطع من المرفق. و قال الخوارج: من المنكب.

و السرقة لا بدّ أن تكون ربع دينار فصاعدا، و لا بد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصّحيحة.

و قد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور. و ذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم. و ذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز. و قال الحسن البصري: إذا جمع الثياب في البيت قطع. و قد أطال الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه و شرّاح الحديث بما لا يأتي التطويل به هاهنا بكثير فائدة. قوله: جَزاءً بِما كَسَبا مفعول له: أي فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعل محذوف: أي: فجاوزهما جزاء، و الباء سببية، و ما مصدرية: أي بسبب كسبهما، أو موصولة: أي جزاء بالذي كسباه من السرقة. و قوله: نَكالًا بدل من جزاء؛ و قيل:

هو علة للجزاء، و الجزاء علة للقطع، يقال: نكلت به: إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل.

قوله: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة؛ أي فمن تاب من بعد سرقته و أصلح أمره فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ و لكن اللفظ عام فيشمل السارق و غيره من المذنبين، و الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و قد استدلّ بهذا

عطاء و جماعة على أن القطع يسقط بالتوبة، و ليس هذا الاستدلال بصحيح، لأنّ هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة، و إن اللّه يتوب على من تاب، و ليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب. و قد كان فى زمن النبوّة يأتى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من وجب عليه حدّ

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۷

تائبا عن الذنب الذى ارتكبه طالبا لتطهيره بالحدّ فيحدّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال للسارق بعد قطعه: «تب إلى اللّه، ثم قال: تاب اللّه عليك». أخرجه الدار قطنى من حديث أبى هريرة.

و أخرج أحمد و غيره، أن هذه الآية نزلت فى المرأة التى كانت تسرق المتاع، لما قالت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد قطعها: هل لى من توبة؟ و قد ورد فى السّنّة ما يدلّ على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت و امتنع إسقاطها.

قوله: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم و هو كالعنوان لقوله: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أى من كان له ملك السموات و الأرض، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة و المغفرة الموكولة إليها.

و قد أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ قال: لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر اللّه الذى أمر به. قال: و ذكر لنا أنّ عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدّوا على الفساق و اجعلوهم يدا يدا و رجلا رجلا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ يقول: الحدّ كفارته. و الأحاديث فى قدر نصاب السرقة و فى سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحدّ مذكورة فى كتب الحديث فلا نطيل بذلك.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۴۱) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۴۲) وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (۴۴)

قوله: لا يَحْزُنْكَ قرأ نافع بضم الياء و كسر الزاى و الباقون بفتح الياء و ضم الزاى، و الحزن و الحزن خلاف السرور، و حزن الرجل بالكسر فهو حزن و حزين؛ و أحزنه غيره و حزنه. قال اليزيدى: حزنه لغة قريش و أحزنه لغة تميم، و قد قرئ بهما. و فى الآية النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن التأثر لمسارعة الكفرة فى كفرهم تأثرا بليغا، لأن اللّه سبحانه قد وعده فى غير موطن بالنصر عليهم، و المسارعة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۸

و المراد هنا وقوعهم فى الكفر بسرعة عند وجود فرصة، و آثر لفظ فِي على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، و من فى قوله: مِنَ الَّذِينَ قالُوا بيانية، و الجملة مبينة للمسارعين فى الكفر، و الباء فى بِأَفْواهِهِمْ متعلّقة بقالوا: لا بآمنا، و هؤلاء الذين قالوا: آمنا

بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم هم المنافقون.
وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا يعنى اليهود، و هو معطوف على مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا و هو تمام الكلام.
و المعنى: أن المسارعين فى الكفر طائفة المنافقين و طائفة اليهود. و قوله: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ خبر مبتدأ محذوف: أى هم سماعون للكذب، فهو راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين، و اللام فى قوله: لِلْكَذِبِ للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول؛ و قيل: إن قوله: سَمَّاعُونَ مبتدأ خبره مِنَ الَّذِينَ هادُوا أى و من الذين هادوا قوم سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أى قابلون لكذب رؤسائهم المحرّفين للتوراة. قوله:
سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ خبر ثان، و اللام فيه كاللام فى لِلْكَذِبِ و قيل: اللام للتعليل فى الموضعين أى سماعون لكلام رسول اللّه لأجل الكذب عليه، و سماعون لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا لهم لأجل أن يبلغوهم ما سمعوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: لَمْ يَأْتُوكَ صفة لقوم: أى لم يحضروا مجلسك و هم طائفة من اليهود كانوا لا يحضرون مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تكبرا و تمرّدا؛ و قيل: هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الفراء: و يجوز سماعين كما قال: مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا «۱». قوله: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ من جملة صفات القوم المذكورين: أى يميلونه عن مواضعه التى وضعه اللّه فيها و يتأوّلونه على غير تأويله. و المحرّفون هم اليهود؛ و قيل: إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: فى محل نصب على الحال من لَمْ يَأْتُوكَ و قيل: مستأنفة لا محل لها من الإعراب لقصد تعداد معايبهم و مثالبهم.
و معنى: مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ من بعد كونه موضوعا فى مواضعه، أو من بعد وضعه فى مواضعه التى وضعه اللّه فيها من حيث لفظه، أو من حيث معناه. قوله: يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ جملة حالية من ضمير يحرفون، أو مستأنفة، أو صفة لقوم، أو خبر مبتدأ محذوف، و الإشارة بقوله: هذا إلى الكلام المحرّف: أى إن أوتيتم من جهة محمد هذا الكلام الذى حرّفناه فخذوه و اعلموا به و إن لم تؤتوه بل جاءكم بغيره فاحذروا من قبوله و العمل به. قوله: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ أى ضلالته فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أى فلا تستطيع دفع ذلك عنه و لا تقدر على نفعه و هدايته، و هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، و ظاهرها العموم و يدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أوّليا، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا: آمنا بأفواههم و من الذين هادوا، و هو مبتدأ و خبره الذين لم يرد اللّه أن يطهر قلوبهم؛ أى لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر و النفاق كما طهر قلوب المؤمنين لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ بظهور نفاق المنافقين و بضرب الجزية على الكافرين و ظهور تحريفهم و كتمهم لما أنزل اللّه فى التوراة. قوله:
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ كرّره تأكيدا لقبحه، و ليكون كالمقدّمة لما بعده، و هو أكالون للسحت، و هما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدّر سابقا. و السحت بضم السين و سكون الحاء: المال الحرام، و أصله الهلاك و الشدّة، من سحته: إذا هلكه، و منه فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ و منه قول الفرزدق:

---

(۱). الأحزاب: ۶۱.

 و عضّ زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو محلّق «۱»
و يقال للحالق أسحت: أى استأصل؛ و سمّى الحرام سحتا لأنه يسحت الطاعات: أى يذهبها و يستأصلها، و قال الفراء: أصله كلب الجوع؛ و قيل هو الرشوة، و الأوّل أولى، و الرشوة تدخل فى الحرام دخولا أوّليا. و قد فسّره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص كالهدية لمن يقضى له حاجة، و حلوان الكاهن، و التعميم أولى بالصواب. قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ فيه

تخيير لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين الحكم بينهم و الإعراض عنهم.
و قد استدلّ به على أنّ حكام المسلمين مخيّرون بين الأمرين. و قد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم و الذمى إذا ترافعا إليهم. و اختلفوا فى أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم؛ فذهب قوم إلى التخيير، و ذهب آخرون إلى الوجوب، و قالوا: إن هذه الآية منسوخة بقوله: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ «٢» و به قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و الزهرى و عمر بن عبد العزيز و السدىّ، و هو الصحيح من قولى الشافعى، و حكاه القرطبى عن أكثر العلماء. قوله: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً أى إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لهم عليك، لأن اللّه حافظك و ناصرك عليهم، و إن اخترت الحكم بينهم فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى بالعدل الذى أمرك اللّه به و أنزله عليك. قوله: وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ فيه تعجيب له صلّى اللّه عليه و سلّم من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به و لا بما جاء به، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة كالرجم و نحوه، و إنما يأتون إليه صلّى اللّه عليه و سلّم و يحكمونه طمعا منهم فى أن يوافق تحريفهم و ما صنعوه بالتوراة من التغيير. قوله: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ عطف على يحكمونك مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أى من بعد تحكيمهم لك، و جملة قوله: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ لتقرير مضمون ما قبلها. و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ استئناف يتضمّن تعظيم التوراة و تفخيم شأنها و أن فيها الهدى و النور، و هو بيان الشرائع و التبشير بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و إيجاب اتباعه. قوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ هم أنبياء بنى إسرائيل، و الجملة إما مستأنفة أو حالية، و الَّذِينَ أَسْلَمُوا صفة مادحة للنبيين، و فيه إرغام لليهود المعاصرين له صلّى اللّه عليه و سلّم بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذى دان به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل:
المراد بالنبيين محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و عبر عنه بلفظ الجمع تعظيما. قوله: لِلَّذِينَ هادُوا متعلّق بيحكم. و المعنى:
أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا و عليهم. و الربانيون: العلماء الحكماء، و قد سبق تفسيره، و الأحبار:
العلماء، مأخوذ من التحبير و هو التحسين فهم يحبرون العلم؛ أى يحسّنونه. قال الجوهرى: الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح و بالكسر و الكسر أفصح، و قال الفراء: هو بالكسر. و قال أبو عبيدة: هو بالفتح. قوله:
بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ الباء للسببية، و استحفظوا أمروا بالحفظ؛ أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة

---

(١). فى لسان العرب مادة «سحت»: مجلّف. الذى بقيت منه بقية.

(٢). المائدة: ۴۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰

عن التغيير و التّبديل، و الجار و المجرور متعلق بيحكم: أى يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ. قوله:
وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ أى على كتاب اللّه، و الشهداء: الرقباء، فهم يحمونه عن التغيير و التبديل بهذه المراقبة، و الخطاب بقوله: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ لرؤساء اليهود، و كذا فى قوله: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا و الاشتراء الاستبدال، و قد تقدّم تحقيقه. قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ لفظ مِنْ من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختصّ بطائفة معينة بل بكل من ولى الحكم؛ و قيل: إنها مختصّة بأهل الكتاب؛ و قيل: بالكفار مطلقا لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة؛ و قيل: هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل اللّه وقع استخفافا، أو استحلالا، و الإشارة بقوله: فَأُولِئَكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناها، و كذلك ضمير الجماعة فى قوله: هُمُ الْكافِرُونَ

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ قال: هم اليهود مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ قال: هم المنافقون. و أخرج أحمد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال: إن اللّه أنزل وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ الظَّالِمُونَ الْفاسِقُونَ أنزلها اللّه فى طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى فى الجاهلية، حتى اصطلحوا على أن كلّ قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا، و كل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة، فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يومئذ لم يظهر عليهم، فقتلت الذليلة من العزيزة، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: و هل كان هذا فى حيين قط دينهما واحد و نسبهما واحد و بلدهما واحد و دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا و فرقا منكم، فأما إذ قدم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بينهما، ففكّرت العزيزة فقالت: و اللّه ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما نعطيهم منكم، و لقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيما و قهرا لهم، فدسّوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من يخبر لكم رأيه، فإن أعطاكم ما تريدون حكّمتوه، و إن لم يعطكم حذرتموه و لم تحكّموه؛ فدسّوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ناسا من المنافقين يختبرون لهم رأيه، فلما جاءوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أخبر اللّه رسوله بأمرهم كله و ما أرادوا، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ إلى قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ثم قال فيهم: «و اللّه فيهم أنزلت و إياهم عنى». و أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: «أوّل مرجوم رجمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من اليهود، زنى رجل منهم و امرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبىّ، فإنه نبىّ بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها و احتججنا بها عند اللّه و قلنا: فتيا نبىّ من أنبيائك، قال: فأتوا النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو جالس فى المسجد و أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى فى رجل و امرأة منّا زنيا، فلم يكلّمهم حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم باللّه الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة

على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمّم «١» و يجبّه و يجلد، و التجبية: أن يحمل الزانيان على حمار و تقابل أقفيتهما و يطاف بهما، و سكت شاب منهم فلما رآه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم سكت ألظّ به النشدة فقال: اللهم إذ نشدتنا نجب فإنا نجد فى التوراة الرجم، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: فما أوّل ما ارتخصتم أمر اللّه؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخّر عنه الرجم، ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه، و قالوا: و اللّه لا ترجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «فإنى أحكم بما فى التوراة، فأمر بهما فرجما» قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا فكان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. و أخرجه ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه من طريق أخرى عن أبى هريرة، و ذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد اللّه بن صوريا. و أخرج نحو حديث أبى هريرة أحمد و مسلم و أبو داود و النسائى من حديث البراء ابن عازب. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث عبد اللّه بن عمر: أن اليهود جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكروا له أنّ رجلا منهم و امرأة زنيا، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما تجدون فى التوراة؟ قالوا:

نفضحهم و يجلدون، قال عبد اللّه بن سلام: كذبتم، إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها و ما بعدها، فقال عبد اللّه بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، قالوا: صدق، فأمر بهما رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم فرجما. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن جابر بن عبد اللّه فى قوله: وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ قال: يهود المدينة سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ قال: يهود فدك يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ قال: يهود فدك يقولون ليهود المدينة إِنْ أُوتِيتُمْ هذا الجلد فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا الرجم. و أخرج أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عنه قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا، و ذكر القصة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: أَكّالُونَ لِلسُّحْتِ قال:

أخذوا الرشوة فى الحكم، و قضوا بالكذب. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: السّحت: الرّشوة فى الدين. قال سفيان: يعنى فى الحكم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود أيضا قال:

من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة أو يردّ عليه حقا فأهدى له هدية فقبلها فذلك السّحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعدّ السحت الرشوة فى الحكم، فقال ذلك الكفر وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و قد روى نحو هذا عنه من طرق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: رشوة الحكّام حرام. و هى السّحت الذى ذكر اللّه فى كتابه. و أخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال: السّحت الرشوة.

و أخرج عبد بن حميد عن علىّ بن أبى طالب أنه سئل عن السحت، فقال: الرشا، فقيل له: فى الحكم؟

---

(١). يحمّم: يسوّد وجهه.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٢

قال: ذاك الكفر. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عمر قال: بابان من السحت يأكلهما الناس:

الرشاء فى الحكم، و مهر الزانية. و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تحريم الرشوة ما هو معروف. و أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: آيتان نسختا من سورة المائدة: آية القلائد، و قوله: فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مخيّرا: إن شاء حكم بينهم، و إن شاء أعرض عنهم، فردّهم إلى أحكامهم، فنزلت وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ «١» قال: فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يحكم بينهم بما فى كتابنا.

و أخرج نحوه فى الآية الآخرة عنه أبو عبيدة و ابن المنذر و ابن مردويه. و أخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه.

و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس أنّ الآيات من المائدة التى قال فيها: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إلى قوله: الْمُقْسِطِينَ إنما نزلت فى الدية من بنى النضير و قريظة، و ذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف يودون الدية كاملة، و أن بنى قريظة كانوا يودون نصف الدية، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه ذلك فيهم، فحملهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على الحقّ فى ذلك، فجعل الدية سواء. و أخرج نحوه عنه ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللّهِ يعنى حدود اللّه، فأخبره اللّه بحكمه فى التوراة، قال: وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها إلى قوله: وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ «٢». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا يعنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لِلَّذِينَ هادُوا يعنى اليهود. و أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: الذين أسلموا: النبى و من قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحقّ. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: الربانيون و الأحبار:

الفقهاء و العلماء. و أخرج عن مجاهد قال:

الربـانيون: العلماء الفقهاء، و هم فوق الأحبار. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: الربانيون: العبّاد، و الأحبار: العلماء. و أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عباس قال: الربانيون: الفقهاء العلماء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قال: الربانيون هم المؤمنون، و الأحبـار هم القراء. و أخرج ابن جرير عن السـدى فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ فتكتموا ما أنزلت وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِى ثَمَناً قَلِيلًا على أن تكتموا ما أنزلت.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِى ثَمَناً قَلِيلًا قال: لا تأكلوا السّحت على كتابى.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ يقول: من جحد الحكم بما أنزل اللّه فقد كفر، و من أقرّ به و لم يحكم به فهو ظـالم فاسق. و أخرج الفريابى و سـعيد بن منصور و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ قال: إنه ليس بالكفر الذى يذهبون إليه، و إنه ليس كفر ينقل من الملة، بل دون كفره. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عطاء ابن أبى رباح فى قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ هُمُ الْفاسِقُونَ قال: كفر دون كفر، و ظلم دون ظلم،

---

(۱). المائدة: ۴۹.

(۲). المائدة: ۴۵.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۵۳

و فسق دون فسق. و أخرج سـعيد بن منصور و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنّما أنزل اللّه وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و- الظَّالِمُونَ و- الْفاسِقُونَ فى اليهود خاصة. و قد روى نحو هذا عن جماعة من السـلف. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حـاتم و الحاكم و صـححه عن حذيفـة، أن هـذه الآيات ذكرت عنـده وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ و- الظَّالِمُونَ و- الْفاسِقُونَ فقال رجل: إنّ هذا فى بنى إسرائيل، فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة و لهم كل مرّة، كلا؛ و اللّه لتسلكنّ طريقهم قدّ الشراك. و أخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵) وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶) وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (۴۹)

أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

قوله: وَ كَتَبْنا معطوف على أنزلنا التوراة، و معناها فرضـنا، بيّن اللّه سـبحانه فى هذه الآية ما فرضه على بنى إسـرائيل؛ من القصاص

فى النفس، و العين، و الأنف، و الأذن، و السنّ، و الجروح. و قد استدلّ أبو حنيفة و جماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا: إنه يقتل المسلم بالذمىّ لأنه نفس. و قال الشافعى و جماعة من أهل العلم: إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا و ليس بشرع لنا. و قد قدّمنا فى البقرة فى شرح قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى «١» ما فيه كفاية.

و قد اختلف أهل العلم فى شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ و هو الحق. و قد ذكر ابن الصباغ فى الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه. قال ابن كثير فى تفسيره: و قد احتجّ الأئمة كلّهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة، انتهى.

و قد أوضحنا ما هو الحقّ فى هذا فى شرحنا على «المنتقى»، و فى هذه الآية توبيخ لليهود و تقريع لكونهم

---

(١). البقرة: ١٧٨.

يخالفون ما كتبه اللّه عليهم فى التوراة كما حكاه هنا، و يفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه، و قد كانوا يقيدون بنى النضير من بنى قريظة و لا يقيدون بنى قريظة من بنى النضير. قوله: وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ قرأ نافع و عاصم و الأعمش و حمزة بالنصب فى جميعها على العطف. و قرأ ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو و أبو جعفر بالنصب أيضا فى الكل إلا فى الجروح فبالرفع. و قرأ الكسائى و أبو عبيد بالرفع فى الجميع عطفا على المحل، لأنّ النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. و قال الزجاج: يكون عطفا على المضمر فى النفس، لأن التقدير: إنّ النفس هى مأخوذة بالنفس، فالأسماء معطوفة على هى. قال ابن المنذر: و من قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمّن بيان الحكم للمسلمين. و الظاهر من النظم القرآنى أنّ العين إذا فقئت حتى لم يبق مجال للإدراك أنها تفقأ عين الجانى بها، و الأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدع أنف الجانى بها، و الأذن إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أذن الجانى بها، و كذلك السنّ؛ فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن، أو ببعض السنّ، فليس فى هذه الآية ما يدلّ على ثبوت القصاص.

و قد اختلف أهل العلم فى ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، و كلامهم مدوّن فى كتب الفروع. و الظاهر من قوله: وَ السِّنَّ بِالسِّنِ أنه لا فرق بين الثنايا و الأنياب و الأضراس و الرباعيات، و أنه يؤخذ بعضها ببعض، و لا فضل لبعضها على بعض. و إليه ذهب أكثر أهل العلم، كما قال ابن المنذر، و خالف فى ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه و من تبعه، و كلامهم مدوّن فى مواطنه، و لكنه ينبغى أن يكون المأخوذ فى القصاص من الجانى هو المماثل للسنّ المأخوذة من المجنىّ عليه، فإن كانت ذاهبة فما يليها.

قوله: وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ أى ذوات قصاص. و قد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص فى الجروح التى يخاف منها التلف، و لا فيما كان لا يعرف مقداره عمقا أو طولا أو عرضا. و قد قدّر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقادير معلومة، و ليس هذا موضع بيان كلامهم، و لا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقدّر. قوله:

فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ أى من تصدّق من المستحقين للقصاص بالقصاص، بأن عفا عن الجانى فهو كفارة للمتصدّق يكفر اللّه عنه بها ذنوبه. و قيل: إن المعنى: فهو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته فى الآخرة لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه. و الأوّل أرجح، لأنّ الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور. قوله: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ضمير الفصل مع اسم الإشارة و تعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية. قوله: وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هذا شروع فى بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة؛ أى جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم؛ أى

آثار النبيين الـذين أسـلموا من بنى إسـرائيل، يقال قفيته مثل عقبته: إذا أتبعته؛ ثم يقال: قفيته بفلان و عقبته به فيتعـدى إلى الثانى بالبـاء، و المفعول الأـول محـذوف اسـتغناء عنه بالظرف، و هو على آثارهم لأنه إذا قفى به على أثره فقـد قفى به إياه، و انتصاب مُصَـدِّقاً على الحال من عيسـى وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ عطف على قفينا، و محل الجملـة أعنى فِيهِ هُدىً النصب على الحال من الإنجيل وَ نُورٌ عطف على هدى. و قوله: وَ مُصَدِّقاً معطوف على محل فِيهِ هُدىً أى أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵

مشـتملا على الهدى و النور مصدقا لما بين يديه من التوراة؛ و قيل: إن مصدّقا معطوف على مصدّقا الأوّل فيكون حالا من عيسـى مؤكـدا للحال الأوّل و مقرّر له. و الأوّل أولى لأن التأسـيس خير من التأكيـد. قوله: وَ هُـدىً وَ مَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ عطف على مصدّقا داخل تحت حكمه منضما إليه: أى مصدقا و هاديا و واعظا للمتقين.

قوله: وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هـذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل اللّه فيه، فإنه قبل البعثـة المحمديـة حقّ، و أما بعـدها فقـد أمروا فى غير موضع بأن يعملوا بما أنزل اللّه على محمـد صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى القرآن الناسـخ لكل الكتب المنزلـة. و قرأ الأـعمش و حمزة بنصب الفعـل من لْيَحْكُمْ على أنّ اللاـم لاـم كى، و قرأ الباقون بالجزم على أنّ اللام للأمر. فعلى القراءة الأـولى تكون اللاـم متعلقـة بقوله: و آتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل اللّه فيه، و على القراءة الثانيـة هو كلام مسـتأنف. قال مكى: و الاختيار الجزم، لأنّ الجماعـة عليه، و لأن ما بعـده من الوعيـد و التهديـد يدلّ على أنه إلزام من اللّه لأهل الإنجيل. و قال النحاس: و الصواب عندى أنهما قراءتان حسـنتان لأن اللّه سبحانه لم ينزل كتابا إلا ليعمل بما فيه. قوله: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ خطاب محمد صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و الكتاب: القرآن، و التعريف للعهد، و بِالْحَقِ متعلق بمحذوف وقع حالا: أى متلبسا بالحق؛ و قيل: هو حال من فاعل أنزلنا؛ و قيل: من ضـمير النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم و مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ حال من الكتاب، و التعريف فى الكتاب أعنى قوله: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ للجنس؛ أى أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبسا بالحق، و حال كونه مصدّقا لما بين يديه من كتب اللّه المنزلة؛ لكونه مشـتملا على الدعوة إلى اللّه و الأمر بالخير و النهى عن الشـرّ، كما اشتمل عليه قوله: وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ عطف على مصـدّقا، و الضـمير فى عليه عائـد إلى الكتاب الـذى صـدقه القرآن و هيمن عليه، و المهيمن الرقيب؛ و قيـل: الغالب المرتفع؛ و قيل: الشاهـد، و قيل: الحافظ؛ و قيل: المؤتمن. قال المبرد: أصـله مؤيمن أبـدل من الهمزة هاء، كمـا قيـل فى أرقت المـاء هرقت، و به قـال الزجـاج و أبو علىّ الفارسـى. و قال الجوهرى: هو من أمن غيره من الخوف، و أصـله أأمن فهو مؤامن بهمزتين قلبت الثانيـة ياء كراهـة لاجتماعهما فصار مؤيمن ثم صـيرت الأولى هاء، كما قالوا: هراق الماء و أراقه، يقال: هيمن على الشىء يهيمن: إذا كان له حافظا، فهو له مهيمن كذا عن أبى عبيد. و قرأ مجاهد و ابن محيصن مُهَيْمِناً عَلَيْهِ بفتح الميم، أى هيمن عليه اللّه سبحانه. و المعنى على قراءة الجمهور: أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة و مقرّرا لما فيها مما لم ينسخ، و ناسـخا لما خالفه منها، و رقيبا عليها و حافظا لما فيها من أصول الشـرائع، و غالبا لها لكونه المرجع فى المحكم منها و المنسوخ، و مؤتمنـا عليها لكونه مشـتملا على ما هو معمول به منها و ما هو متروك. قوله: فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ أى بما أنزله إليـك فى القرآن لاشـتماله على جميع ما شـرعه اللّه لعباده فى جميع الكتب السابقـة عليه وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ أى أهواء أهل الملل السابقـة. و قـوله: عَمَّا جـاءَكَ مِنَ الْحَقِ متعلّق بلاـ تتبع على تضـمينه معنى لاـ تعـدل أو لاـ تنحرف عَمَّا جـاءَكَ مِنَ الْحَقِ متبعا لأهوائهم؛ و قيل متعلّق بمحذوف: أى لا تتبع أهواءهم عادلا أو منحرفا عن الحق. و فيه النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم عن أن يتبع أهويـة أهـل الكتـاب و يعـدل عن الحق الـذى أنزله اللّه عليه، فـإن كـل ملـة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه و ما أدركوا

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶

عليه سلفهم و إن كان باطلا منسوخا أو محرّفا عن الحكم الذى أنزله اللّه على الأنبياء، كما وقع فى الرجم و نحوه مما حرّفوه من كتب اللّه. قوله: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً الشرعة و الشريعة فى الأصل: الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملت فيما شرعه اللّه لعباده من الدين. و المنهاج: الطريقة الواضحة البينة. و قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الشريعة: ابتداء الطريق، و المنهاج الطريق المستمر. و معنى الآية:

أنه جعل التوراة لأهلها، و الإنجيل لأهله، و القرآن لأهله و هذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن و أما بعده فلا شرعة و لا منهاج إلا ما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً بشريعة واحدة و كتاب واحد و رسول واحد وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ أى و لكن لم يشأ ذلك الاتحاد، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع، فيكون لِيَبْلُوَكُمْ متعلقا بمحذوف دلّ عليه سياق الكلام و هو ما ذكرنا، و معنى فِي ما آتاكُمْ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات و الرسل، هل تعملون بذلك و تذعنون له، أو تتركونه و تخالفون ما اقتضته مشيئة اللّه و حكمته، و تميلون إلى الهوى و تشترون الضلالة بالهدى. و فيه دليل على أنّ اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعنى الابتلاء و الامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات و الأشخاص. قوله: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أى إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله و ترك ما أمرتم بتركه. و الاستباق: المسارعة. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً لا إلى غيره و هذه الجملة كالعلة لما قبلها. قوله: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عطف على الكتاب:

أى أنزلنا عليك الكتاب و الحكم بما فيه. و قد استدلّ بهذا على نسخ التخيير المتقدّم فى قوله: أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ و قد تقدم تفسير وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ قوله: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ أى يضلّوك عنه و يصرفوك بسبب أهوائهم التى يريدون منك أن تعمل عليها و تؤثرها فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ أى إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل اللّه عليك فذلك لما أراده اللّه من تعذيبهم ببعض ذنوبهم و هو ذنب التولى عنك و الإعراض عما جئت به وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ متمرّدون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف. قوله: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ الاستفهام للإنكار و التوبيخ، و الفاء للعطف على مقدّر كما فى نظائره. و المعنى: أ يعرضون عن حكمك بما أنزل اللّه عليك و يتولون عنه و يبتغون حكم الجاهلية، و الاستفهام فى وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ للإنكار أيضا: أى لا أحسن من حكم اللّه عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل و الأهواء.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها فى التوراة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه، قال: كتب عليهم هذا فى التوراة، و كانوا يقتلون الحر بالعبد فيقولون كتب علينا أن النفس بالنفس.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدّق به.

و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ قال: للمجروح. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «ما من مسلم يصاب بشىء فى جسده

فيتصدّق به إلا رفعه اللّه به درجة، و حطّ عنه به خطيئة». و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ قال: مؤتمنا عليه.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى عنه قال: المهيمن: الأمين، و القرآن أمين على كل كتاب قبله.

و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه فى قوله:

شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً قال: سبيلا و سنّة. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد و عبد اللّه بن صوريا و شاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا أن نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود و أشرافهم و ساداتهم، و إنا إن اتّبعناك اتّبعنا يهود، و إن بيننا و بين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم و نؤمن بك و نصدّقك، فأبى ذلك، و أنزل اللّه فيهم وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ إلى قوله: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ قال: يهود. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: هذا فى قتيل اليهود.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۶]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (۵۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (۵۵)
وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (۵۶)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة؛ و قيل: المراد بهم المنافقون، و وصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه. و قد كانوا يوالون اليهود و النصارى فنهوا عن ذلك.

و الأولى أن يكون خطابا لكل من يتصف بالإيمان أعمّ من أن يكون ظاهرا و باطنا أو ظاهرا فقط، فيدخل المسلم و المنافق، و يؤيد هذا قوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و الاعتبار بعموم اللفظ، و سيأتى فى بيان سبب نزول الآية ما يتضح به المراد. و المراد من النهى عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء فى المصادقة و المعاشرة و المناصرة. و قوله: بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ تعليل للنهى، و المعنى: أنّ بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، و بعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، و ليس المراد بالبعض إحدى طائفتى اليهود و النصارى، و بالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع بأنهم فى غاية من العداوة و الشقاق وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ «۱» و قيل: المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى و تعاضدها و تناصرها على عداوة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عداوة ما جاء به؛ و إن كانوا فى ذات بينهم متعادين متضادّين.

---

(۱). البقرة: ۱۱۳.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸

و وجه تعليل النهى بهذه الجملة أنها تقتضى أن هذه الموالاة هى شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، و لهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أى فإنه من جملتهم و فى عدادهم، و هو وعيد شديد فإنّ المعصية الموجبة للكفر هى التى قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية. و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تعليل للجملة التى قبلها؛ أى أن وقوعهم فى الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر

كمن يوالى الكافرين.

قوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ الفاء للسببية، و الخطاب إما للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أو لكلّ من يصلح له: أى ما ارتكبوه من الموالاة و وقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق.

و قوله: يُسارِعُونَ فى محل نصب إما على أنه المفعول الثانى إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا كانت بصرية، و جعل المسارعة فى موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة فى بيان رغوبهم فى ذلك حتى كأنهم مستقرّون فيهم داخلون فى عدادهم. و قد قرئ فيرى بالتحتية. و اختلف فى فاعله ما هو؟ فقيل: هو اللّه عزّ و جلّ؛ و قيل: هو كل من تصح منه الرؤيا؛ و قيل: هو الموصول. و مفعوله: يُسارِعُونَ فِيهِمْ على حذف أن المصدرية: أى فيرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله:

ألا أيّهذا اللّائمى أحضر الوغى «١» ...

و المرض فى القلوب: هو النفاق و الشك فى الدين. و قوله: يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ جملة مشتملة على تعليل المسارعة فى الموالاة: أى أن هذه الخشية هى الحاملة لهم على المسارعة؛ و قيل: إن الجملة حال من ضمير يسارعون. و الدائرة: ما تدور من مكاره الدهر: أى نخشى أن تظفر الكفار بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم فتكون الدولة لهم و تبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه، و منه قوله الشاعر:

يردّ عنك القدر المقدوراو دائرات الدّهر أن تدورا

أى دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم. و قوله: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ردّ عليهم و دفع لما وقع لهم من الخشية، و عسى فى كلام اللّه وعد صادق لا يتخلّف. و الفتح: ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم على الكافرين، و منه ما وقع من قتل مقاتلة بنى قريظة و سبى ذراريهم، و إجلاء بنى النضير؛ و قيل: هو فتح بلاد المشركين على المسلمين؛ و قيل: فتح مكة. و المراد بالأمر من عنده سبحانه هو كلّ ما تندفع به صولة اليهود و من معهم و تنكسر به شوكتهم؛ و قيل: هو إظهار أمر المنافقين و إخبار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بما أسروا فى أنفسهم و أمره بقتلهم؛ و قيل: هو الجزية التى جعلها اللّه عليهم؛ و قيل: الخصب و السعة للمسلمين، فيصبح المنافقون عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ من النفاق الحامل لهم على الموالاة نادِمِينَ على ذلك لبطلان الأسباب التى تخيلوها و انكشاف خلافها. قوله: يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا قرأ أبو عمرو و ابن أبى إسحاق و أهل الكوفة بإثبات الواو،

---

(١). و تمامه: و أن أشهد اللذات، هل أنت مخلدى؟ و هو من معلقة طرفة بن العبد البكرى.

و قرأ الباقون بحذفها، فعلى القراءة الأولى مع رفع يقول يكون كلاما مبتدأ مسوقا لبيان ما وقع من هذه الطائفة، و على قراءة النصب يكون عطفا على فَيُصْبِحُوا و قيل: على يَأْتِيَ و الأولى أولى، لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لا عند إتيان الفتح؛ و قيل: هو معطوف على الفتح كقول الشاعر:

للبس عباءة و تقرّ عينى «١» ...

و أما على قراءة حذف الواو فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الإشارة بقوله: أَ هؤُلاءِ إلى المنافقين: أى يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ بالمناصرة و المعاضدة فى القتال، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين، و هذه الجملة مفسرة للقول. و جهد الأيمان: أغلظها، و هو منصوب على المصدر أو على الحال: أى أقسموا باللّه جاهدين.

قوله: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أى بطلت و هو من تمام قول المؤمنين أو جملة مستأنفة و القائل اللّه سبحانه.
و الأعمال هى التى عملوها فى الموالاة أو كل عمل يعملونه. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ قرأ أهل المدينة و الشام يرتدد بدالين بفك الإدغام، و هى لغة تميم، و قرأ غيرهم بالإدغام. و هذا شروع فى بيان أحكام المرتدّين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر، و ذلك نوع من أنواع الردّة. و المراد بالقوم الذين وعد اللّه سبحانه بالإتيان بهم هم أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه و جيشه من الصحابة و التابعين الذين قاتل بهم أهل الردّة، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدّين فى جميع الزمن، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف العظيمة المشتملة على غاية المدح و نهاية الثناء من كونهم يحبون اللّه و هو يحبهم، و من كونهم أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ و الأذلّة: جمع ذليل لا ذلول، و الأعزّة: جمع عزيز، أى يظهرون العطف و الحنوّ و التّواضع للمؤمنين و يظهرون الشدّة و الغلظة و الترفع على الكافرين، و يجمعون بين المجاهدة فى سبيل اللّه و عدم خوف الملامة فى الدين، بل هم متصلّبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق و حزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين و قلب محاسنهم مساوئ و مناقبهم مثالب حسدا و بغضا و كراهة للحق و أهله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الصفات التى اختصهم اللّه بها. و الفضل: اللطف و الإحسان. قوله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحلّ موالاته بيّن من هو الولىّ الذى تجب موالاته، و محل الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ الرفع على أنه صفة للذين آمنوا أو بدل منه أو النصب على المدح. و قوله: وَ هُمْ راكِعُونَ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله. و المراد بالركوع: الخشوع و الخضوع، أى يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم خاشعون خاضعون لا يتكبرون؛ و قيل: هو حال من فاعل الزكاة. و المراد بالركوع هو المعنى المذكور: أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء و لا مترفعين عليهم؛ و قيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع

---

(١). و تمام البيت: أحبّ إلىّ من لبس الشفوف. و هو لميسون بنت بحدل، و كانت زوجة لمعاوية بن أبى سفيان.

الصلاة، و يدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال، ثم وعد سبحانه من يتولّى اللّه و رسوله و الذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوّهم، و هو من وضع الظاهر موضع المضمر، و وضع حزب اللّه موضع ضمير الموالين للّه و لرسوله و للمؤمنين. و الحزب: الصنف من الناس، من قولهم حزبه كذا: أى نابه، فكأن المتحزّبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة التى تنوب، و حزب الرجل: أصحابه، و الحزب: الورد. و فى الحديث: «فمن فاته حزبه من الليل» و تحزّبوا: اجتمعوا. و الأحزاب: الطوائف. و قد وقع- و للّه الحمد- ما وعد اللّه به أولياءه و أولياء رسله و أولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوّهم، فإنهم غلبوا اليهود بالسبى و القتل و الإجلاء و ضرب الجزية، حتى صاروا لعنهم اللّه أذلّ الطوائف الكفرية و أقلها شوكة، و ما زالوا تحت كلكل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا، و يمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية.
و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تشبث بأمرهم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول و قام دونهم، و مشى عبادة بن الصّامت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و تبرّأ إلى اللّه و إلى رسوله من حلفهم، و كان أحد بنى عوف بن الخزرج، و له من حلفهم مثل الذى كان لهم من عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، فخلعهم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: أتبرأ إلى اللّه و إلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار و ولايتهم. و فيه و فى عبد اللّه بن أبىّ نزلت الآيات فى المائدة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ إلى قوله: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ و أخرج ابن

مردويه عن ابن عباس قال:

أسلم عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، ثم قال: إنّ بينى و بين قريظة و النضير حلفا و إنّى أخاف الدوائر، فارتدّ كافرا. و قال عبادة بن الصامت: أتبرأ إلى اللّه من حلف قريظة و النضير و أتولى اللّه و رسوله، فنزلت. و أخرج ابن مردويه أيضا من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جدّه نحو ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة فذكر نحو ما تقدّم. و أخرج ابن جرير عن الزهرى قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمنوا قبل أن يصيبكم اللّه بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف: غرّكم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يدان بقتالنا، فقال عبادة و ذكر نحو ما تقدم عنه و عن عبد اللّه بن أبىّ. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قال: إنها فى الذبائح «من دخل فى دين قوم فهو منهم». و أخرج عبد بن حميد عن حذيفة قال: ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا و هو لا يشعر، و تلا وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كعبد اللّه بن أبىّ يُسارِعُونَ فِيهِمْ فى ولايتهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه و ابن عساكر عن قتادة قال: أنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ و قد علم أنه سيرتدّ مرتدّون من الناس، فلما قبض اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم ارتدّ عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد: أهل المدينة، و أهل مكة، و أهل الجؤاثا من عبد القيس؛

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۱

و قال الذين ارتدّوا: نصلى الصلاة و لا نزكى و اللّه لا تغصب أموالنا، فكلّم أبا بكر فى ذلك ليتجاوز عنهم، و قيل له: إنهم لو قد فقهوا أدّوا الزكاة، فقال: و اللّه لا- أفرّق بين شيء جمعه اللّه و لو منعونى عقالا- مما فرض اللّه و رسوله لقاتلتهم عليه، فبعث اللّه عصائب مع أبى بكر فقاتلوا حتى أقروا بالماعون و هو الزكاة.

قال قتادة: فكنا نتحدّث أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر و أصحابه فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ إلى آخر الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى الدلائل عن الحسن نحوه. و أخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد قال: لما أنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الآية، قال عمر: أنا و قومى يا رسول اللّه؟ قال: «لا بل هذا و قومه» يعنى أبا موسى الأشعرى. و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة فى مسنده و عبد بن حميد و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل عن عياض الأشعرى قال: لما نزلت فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هم قوم هذا»، و أشار إلى أبى موسى الأشعرى. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم فى جمعه لحديث شعبة و البيهقى و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال: تليت عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«قومك يا أبا موسى أهل اليمن». و أخرج ابن أبى حاتم فى الكنى و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ و ابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد اللّه قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، فقال: «هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السّكون ثم تحبيب». و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: هم قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون. و أخرج ابن أبى شيبة عنه قال: هم أهل القادسية. و أخرج البخارى فى تاريخه عن القاسم بن مخيمرة قال: أتيت ابن عمر فرحّب بى، ثم تلا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ الآية، ثم ضرب على منكبى و قال: أحلف باللّه إنهم لمنكم أهل اليمن، ثلاثا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عطية بن سعد، قال فى قوله: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إنها نزلت فى عبادة بن الصامت. و أخرج الخطيب فى المتفق و المفترق عن ابن عباس قال: تصدّق علىّ

بخاتم و هو راكع، فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال:
ذاك الراكع، فأنزل اللّه فيه إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت فى علىّ بن أبى طالب. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضا. و أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۵۷ الى ۶۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۵۸) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (۶۰) وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱)
وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۲

قوله: لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً هذا النهى عن موالاة المتخذين الدين هزؤا و لعبا يعمّ كلّ من حصل منه ذلك من المشركين و أهل الكتاب و أهل البدع المنتمين إلى الإسلام، و البيان بقوله: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إلى آخره لا ينافى دخول غيرهم تحت النهى إذا وجدت فيه العلة المذكورة التى هى الباعثة على النهى. قوله: وَ الْكُفَّارَ قرأ أبو عمرو و الكسائى بالجر على تقدير من؛ أى و من الكفار.

قال الكسائى: و فى حرف أبى و من الكفار و قرأ من عداهما بالنصب. قال النحاس: و هو أوضح و أبين.

و قال مكى: لولا اتفاق الجماعة على النصب لاخترت الخفض لقوّته فى الإعراب و فى المعنى، و المراد بالكفار هنا المشركون، و قيل المنافقون وَ اتَّقُوا اللَّهَ بترك ما نهاكم عنه من هذا و غيره إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان يقتضى ذلك. وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ، و النداء: الدعاء برفع الصوت، و ناداه مناداة و نداء:

صاح به، و تنادوا: أى نادى بعضهم بعضا. و تنادوا: أى جلسوا فى النادى، و الضمير فى اتَّخَذُوها للصلاة: أى اتّخذوا صلاتكم هزؤا و لعبا؛ و قيل: الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتم. قيل: و ليس فى كتاب اللّه تعالى ذكر الأذان إلا فى هذا الموضع، و أما قوله تعالى فى الجمعة: إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ «۱» فهو خاصّ بنداء الجمعة. و قد اختلف أهل العلم فى كون الأذان واجبا أو غير واجب، و فى ألفاظه و هو مبسوط فى مواطنه. قوله: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ أى ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون، لأن الهزء و اللعب شأن أهل السفه و الخفة و الطيش. قوله: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا يقال: نقمت على الرجل بالكسر فأنا ناقم: إذا عبت عليه. قال الكسائى: نقمت بالكسر لغة، و نقمت الأمر أيضا و نقمت: إذا كرهته، و انتقم اللّه منه: أى عاقبه، و الاسم منه النقمة، و الجمع نقمات، مثل كلمة و كلمات، و إن شئت سكنت القاف و نقلت حركتها إلى النون، و الجمع نقم مثل نعمة و نعم؛ و قيل: المعنى يسخطون؛ و قيل: ينكرون. قال عبد اللّه بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بنى أميّة إلّاأنهم يحلمون إن غضبوا

و قال اللّه سبحانه: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ و المعنى فى الآية: هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا إلا إيماننا باللّه و بكتبه

المنزلـة، و قـد علمتم بأنا على الحق وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ بترككم للإيمان و الخروج عن امتثال أوامر اللّه. و قوله: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ معطوف على أن آمنا: أى ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا و بين تمرّدكم و خروجكم عن الإيمان. و فيه أن المؤمنين لـم يجمعوا بيـن الأـمرين المـذكورين، فـإنّ الإيمـان من جهتهم، و التمرّد و الخروج من جهـة النـاقمين؛ و قيـل: هـو على تقـدير محذوف: أى و اعتقادنا أن أكثركم

---

(۱). الجمعة: ۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۳

فاسـقون؛ و قيل: إن قوله: أَنْ آمَنَّا هو منصوب على أنه مفعول له و المفعول محذوف، فيكون وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ معطوفا عليه عطف العلـة على العلـة، و التقـدير: و ما تنقمون منا إلا لأن آمنا، و لأن أكثركم فاسـقون، و قيل: معطوف على علّـة محذوفة، أى لقلّـة إنصـافكم، و لأـنّ أكثركم فاسـقون؛ و قيـل: الواو فى قوله: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ هى التى بمعنى مع: أى ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسـقون؛ و قيل: هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون: أى و لا تنقمون أن أكثركم فاسـقون؛ و قيل: هو مرفوع على الابتداء و الخبر محذوف؛ أى و فسقكم معلوم فتكون الجملة حالية، و قرئ بكسر إن من قوله:

وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ فتكون جملة مستأنفة. قوله: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ بيّن اللّه سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، و هو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن اللّه و غضـبه و مسخه؛ و المعنى: هل أنبئكم بشرّ من نقمتكم علينا أو بشرّ مما تريدون لنا من المكروه أو بشـرّ من أهل الكتاب أو بشـرّ من دينهم. و قوله: مَثُوبَةً أى جزاء ثابتا، و هى مختصّة بالخير كما أنّ العقوبة مختصّة بالشـرّ. و وضـعت هنا موضع العقوبة على طريقة فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ* و هى منصوبة على التمييز من بشرّ. و قوله: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ خبر لمبتـدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف: أى هو لعن من لعنه اللّه أو هو دين من لعنه اللّه، و يجوز أن يكون فى محـل جر بـدلا من شـرّ. قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ أى مسـخ بعضـهم قردة و بعضـهم خنازير و هم اليهود، فإن اللّه مسخ أصحاب السبت قردة، و كفار مائدة عيسى منهم خنازير. قوله:

وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ قرأ حمزة بضم الباء من عبد و كسر التاء من الطاغوت أى جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت. و المعنى: و جعـل منهم من يبالغ فى عبادة الطاغوت، لأن فعل من صـيغ المبالغـة، كحـذر و فطن للتبليغ فى الحـذر و الفطنـة. و قرأ الباقون بفتـح الباء من عَبَدَ و فتـح التاء من الطَّاغُوتَ على أنه فعل ماض معطوف على فعل ماض و هو غضب و لعن، كأنه قيل: و من عبـد الطـاغوت، أو معطوف على القردة و الخنـازير: أى جعـل منهم القردة و الخنازير و جعل منهم عبـد الطاغوت حملا على لفظ من. و قرأ أبىّ و ابن مسـعود و عبـدوا الطاغوت حملا على معناها. و قرأ ابن عباس و عبـد بضم العين و الباء كأنه جمع عبد، كما يقال: سـقف و سـقف. و يجوز أن يكون جمع عبيـد كرغيف و رغف، أو جمع عابـد كبازل و بزل. و قرأ أبو واقـد «و عباد» جمع عابد للمبالغة، كعامل و عمال. و قرأ البصريون و عباد جمع عابد أيضا، كقائم و قيام، و يجوز أن يكون جمع عبد. و قرأ أبو جعفر الرقاشـى و عبـد الطـاغوت على البنـاء للمفعول، و التقـدير و عبـد الطـاغوت فيهم. و قرأ عون العقيلى و ابن بريـدة: «و عابد الطاغوت» على التوحيـد. و روى عن ابن مسـعود و أبىّ أنهما قرءا و عبـدة الطاغوت و قرأ عبيـد بن عمير «و أعبـد الطاغوت» مثل كلـب و أكلـب. و قرئ و عبـد الطـاغوت عطفـا على الموصـول بنـاء على تقـدير مضـاف محـذوف، و هى قراءة ضـعيفة جـدا، و الطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدّم مستوفى. قوله:

أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً الإشارة إلى الموصوفين بالصـفات المتقدمة، و جعلت الشـرارة للمكان، و هى لأهله للمبالغة، و يجوز أن يكون الإسناد مجازيا. قوله: وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ معطوف على شرّ، أى

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۶۴

هم أضلّ من غيرهم عن الطريق المستقيم، و التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا أو لكونهم أشرّ و أضل مما يشاركهم فى أصل الشرارة و الضلال. قوله: وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا أى إذا جاءوكم أظهروا الإسلام.

قوله: وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ جملتان حاليتان: أى جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر و خرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، بل خرجوا كما دخلوا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ عندك من الكفر، و فيه وعيد شديد، و هؤلاء هم المنافقون؛ و قيل: هم اليهود الذين قالوا: آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ «۱». قوله: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و الضمير فى مِنْهُمْ عائد إلى المنافقين أو اليهود أو إلى الطائفتين جميعا و يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ فى محل نصب على الحال على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثان لترى على أنها قلبية، و المسارعة: المبادرة، و الإثم: الكذب أو الشرك أو الحرام، و العدوان: الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحدّ فى الذنوب، و السحت: الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة، و الربانيون علماء النصارى، و الأحبار: علماء اليهود؛ و قيل: الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم؛ ثم وبخ علماءهم فى تركهم لنهيهم فقال: لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ و هذا فيه زيادة على قوله: لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لأنّ العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرّب فيه صاحبه، و لهذا تقول العرب: سيف صنيع: إذا جوّد عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة، و هم العلماء التاركون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بما هو أغلظ و أشدّ من توبيخ فاعل المعاصى، فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم و يفرجوا لها عن قلوبهم، فإنها قد جاءت بما فيه البيان الشافى لهم بأن كفّهم عن المعاصى مع ترك إنكارهم على أهلها لا يسمن و لا يغنى من جوع، بل هم أشدّ حالا و أعظم و بالا من العصاة، فرحم اللّه عالما قام بما أوجبه اللّه عليه من فريضة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فهو أعظم ما افترضه اللّه عليه و أوجب ما أوجب عليه النهوض به. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، و أعنّا على ذلك و قوّنا عليه و يسّره لنا، و انصرنا على من تعدّى حدودك و ظلم عبادك، إنه لا ناصر لنا سواك و لا مستعان غيرك، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد و إياك نستعين.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: و كان رفاعة ابن زيد بن التابوت و سويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام و نافقا، و كان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً إلى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ و أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً قال: كان منادى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود و النصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا و سجدوا استهزءوا بهم و ضحكوا منهم. قال: و كان رجل من اليهود تاجرا إذا سمع المنادى ينادى بالأذان قال: أحرق اللّه الكاذب؛ قال: فبينما هو كذلك إذ دخلت جاريته بشعلة من نار، فطارت شرارة منها فى البيت فأحرقته.

---

(۱). آل عمران: ۷۲.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۶۵

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: كان رجل من النصارى فذكر نحو قصّة الرجل اليهودى. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: أتى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم نفر من

اليهود، فسألوه عمّن يؤمن به من الرسل فقال: «أؤمن باللّه و ما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط، و ما أوتى موسى و عيسى، و ما أوتى النبيون من ربّهم، لا نفرق بين أحد منهم و نحن له مسلمون»، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته، و قالوا: لا نؤمن بعيسى و لا نؤمن بمن آمن به، فأنزل اللّه فيهم قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلى قوله: فاسِقُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ قال: مسخت من يهود. و أخرج أبو الشيخ عن أبى مالك أنه قيل له: كانت القردة و الخنازير قبل أن يمسخوا؟ قال: نعم، و كانوا مما خلق من الأمم. و أخرج مسلم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن القردة و الخنازير هما مما مسخ اللّه، فقال: «إن اللّه لم يهلك قوما، أو قال: لم يمسخ قوما فيجعل لهم نسلا و لا عاقبة، و إنّ القردة و الخنازير كانت قبل ذلك». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا الآية، قال أناس من اليهود:

كانوا يدخلون على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذى جاء به، و هم متمسكون بضلالتهم و بالكفر، فكانوا يدخلون بذلك و يخرجون به من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير عن السدى فى الآية قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهودا، يقول: دخلوا كفارا و خرجوا كفارا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ قال: هؤلاء اليهود لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلى قوله: لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ قال: يصنعون و يعملون واحد، قال: لهؤلاء حين لم ينتهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ قال: فهلّا ينهاهم الربانيون و الأحبار؟ و هم الفقهاء و العلماء. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما فى القرآن آية أشدّ توبيخا من هذه الآية لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم نحوه، و قد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لا حاجة لنا فى بسطها هنا.

[سورة المائدة (5): الآيات 64 الى 66]

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (66)

فتح القدير، ج‌2، ص: 66

قوله: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ اليد عند العرب تطلق على الجارحة، و منه قوله تعالى: وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً «1» و على النعمة، يقولون كم يد لى عند فلان؛ و على القدرة. و منه قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ أو على التأييد، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «يد اللّه مع القاضى حين يقضى» و تطلق على معان أخر. و هذه الآية هى على طريق التمثيل كقوله تعالى: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ و العرب تطلق غلّ اليد على البخل و بسطها على الجود مجازا، و لا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل، و مقبوض الكفّ، و منه قول الشاعر:

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بها و كلّ باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت بعده جعدا أنامله كأنّما وجهه بالخلّ منضوح

فمراد اليهود هنا، عليهم لعائن اللّه، أنّ اللّه بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقا لما أرادوه بقوله: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ و يجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالأسر فى الدنيا أو بالعذاب فى الآخرة، و يقوّى المعنى الأوّل أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظلّ للشمس فلا ترى يهوديا، و إن كان ماله فى غاية الكثرة، إلا و هو من أبخل خلق اللّه، و أيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله. قوله: وَ لُعِنُوا بِما قالُوا معطوف على ما قبله و الباء سببية: أى أبعدوا من رحمة اللّه بسبب قولهم: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، ثم ردّ سبحانه بقوله: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أى بل هو فى غاية ما يكون من الجود، و ذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة فى الردّ عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، و هذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدّرة يقتضيها المقام: أى كلا ليس الأمر كذلك بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ و قيل: المراد بقوله:

بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ نعمة الدنيا الظاهرة و نعمتها الباطنة؛ و قيل: نعمة المطر و النبات؛ و قيل: الثواب و العقاب. و حكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ بل يداه بسيطتان: أى منطلقتان كيف يشاء. قوله:

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه: أى إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته، فإن شاء وسع، و إن شاء قتر، فهو الباسط القابض؛ فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى و موادّ جوده لا تتناهى. قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ إلخ، اللام هى لام القسم:

أى ليزيدن كثيرا من اليهود و النصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة طُغْياناً وَ كُفْراً أى طغيانا إلى طغيانهم و كفرا إلى كفرهم. قوله: وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ أى بين اليهود الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ أو بين اليهود و النصارى. قوله: كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ أى كلما جمعوا للحرب جمعا، و أعدوا له عدّة، شتّت اللّه جمعهم، و ذهب بريحهم فلم يظفروا بطائل و لا عادوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، و هكذا لا يزالون يهيجون الحروب و يجمعون عليها، ثم يبطل اللّه ذلك، و الآية مشتملة على استعارة بليغة، و أسلوب بديع وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أى يجتهدون فى فعل ما فيه فساد، و من أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام و كيد أهله؛ و قيل: المراد بالنار هنا الغضب:

---

(۱). ص: ۴۴.

أى كلما أثاروا فى أنفسهم غضبا أطفأه اللّه بما جعله من الرعب فى صدورهم و الذلة و المسكنة المضروبتين عليهم.

قوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ إن كانت اللام للجنس فهم داخلون فى ذلك دخولا أوّليا، و إن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدّة فسادهم و كونهم لا ينفكون عنه. قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا أى لو أن المتمسّكين بالكتاب، و هم اليهود و النصارى، على أنّ التعريف للجنس آمَنُوا الإيمان الذى طلبه اللّه منهم، و من أهمّه الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم كما أمروا بذلك فى كتب اللّه المنزلة عليهم وَ اتَّقَوْا المعاصى التى من أعظمها ما هم عليه من الشرك باللّه و الجحود لما جاء به رسول اللّه لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ التى اقترفوها، و إن كانت كثيرة متنوّعة؛ و قيل المعنى: لوسعنا عليهم فى أرزاقهم وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ أى أقاموا ما فيهما من الأحكام التى من جملتها الإيمان بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

قوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ من سائر كتب اللّه التى من جملتها القرآن فإنها كلها و إن نزلت على غيرهم فهى فى حكم

المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ذكر فوق و تحت للمبالغة فى تيسر أسباب الرزق لهم و كثرتهم و تعدد أنواعها. قوله: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: هل جميعهم متّصفون بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون البعض، و المقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد اللّه بن سلام و من تبعه و طائفة من النصارى وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ و هم المصرّون على الكفر المتمرّدون عن إجابة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيمان بما جاء به.

و قد أخرج ابن إسحاق و الطبرانى فى الكبير و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل اللّه وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ الآية. و أخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت فى فنحاص اليهودى. و أخرج مثله ابن جرير عن عكرمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ أى بخيلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً قال: حملهم حسد محمد و العرب على أن تركوا القرآن و كفروا بمحمد و دينه و هم يجدونه مكتوبا عندهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ قال: حرب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية: كلما أجمعوا أمرهم على شىء فرّقه اللّه، و أطفأ حدّهم و نارهم، و قذف فى قلوبهم الرّعب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا قال: آمنوا بما أنزل على محمد و اتقوا ما حرّم اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ قال: العمل بهما، و أما ما أنزل إليهم فمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما أنزل عليه، و أما لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ فأرسلت عليهم مطرا، و أما مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ يقول: أنبت لهم من الأرض من رزقى ما يغنيهم. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ و هم مسلمة أهل الكتاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ يعنى لأرسل

عليهم السماء مدرارا وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ قال: تخرج الأرض من بركتها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال: الأمة المقتصدة: الذين لا هم فسقوا فى الدين و لا هم غلوا. قال: و الغلوّ:

الرغبة. و الفسق: التقصير عنه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ يقول: مؤمنة. و أخرج ابن مردويه قال: حدّثنا عبد اللّه بن جعفر، حدّثنا أحمد بن يونس الضبى، حدثنا عاصم بن علىّ، حدّثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر حديثا، قال: ثم حدّثهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين و سبعين ملة، واحدة منها فى الجنة و إحدى و سبعون منها فى النار؛ و تفرّقت أمة عيسى على اثنتين و سبعين ملة، واحدة منها فى الجنة و إحدى و سبعون منها فى النار، تعلو أمتى على الفريقين جميعا ملة واحدة فى الجنة و ثنتان و سبعون منها فى النار، قالوا: من هم يا رسول اللّه؟ قال: الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن زيد: كان علىّ بن أبى طالب إذا حدّث بهذا الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تلا فيه قرآنا، قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ إلى قوله: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ و تلا أيضا وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «1» يعنى أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قال ابن كثير فى تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: و حديث افتراق الأمم إلى بضع و سبعين مروىّ من طرق عديدة قد ذكرناها فى موضع آخر، انتهى. قلت: أما زيادة كونها فى النار إلا واحدة، فقد ضعّفها جماعة من المحدثين، بل قال ابن حزم:

إنها موضوعة.

[سورة المائدة (۵): آية ۶۷]

يـا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مـا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَـلْ فَمـا بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۶۷)

العموم الكائن فى ما أُنْزِلَ يفيد أنه يجب عليه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يبلغ جميع ما أنزله اللّه إليه لا يكتم منه شيئا.

و فيه دليل على أنه لم يسرّ إلى أحد مما يتعلق بما أنزله اللّه إليه شيئا، و لهذا ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت: من زعم أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم كتم شيئا من الوحى فقد كذب. و فى صحيح البخارى من حديث أبى جحيفة وهب بن عبد اللّه السوائى قال: قلت لعليّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن؟ فقال: لا و الذى فلق الحبة و برأ النسمة، إلا فهما يعطيه اللّه رجلا فى القرآن و ما فى هذه الصحيفة، قلت: و ما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، و فكاك الأسير، و أن لا يقتل مسلم بكافر. وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ما أمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت و لو بعضا من ذلك فما بلّغت رسالاته. قرأ أبو عمرو و أهل الكوفة إلا شعبة رِسالَتَهُ على التوحيد. و قرأ أهل المدينة و أهل الشام رسالاته على الجمع، قال النحاس: و الجمع أبين لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان ينزل عليه الوحى شيئا فشيئا، ثم يبينه، انتهى.

و فيه نظر، فإنّ نفى التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات، كما ذكره علماء البيان على خلاف فى ذلك، و قد بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأمته ما نزل إليهم، و قال لهم فى غير موطن: هل بلغت؟ فيشهدون له

---

(۱). الأعراف: ۱۸۱.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۶۹

بالبيان، فجزاه اللّه عن أمته خيرا؛ ثم إنّ اللّه سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يظنّ أنه حامل على كتم البيان، و هو خوف لحوق الضّرر من الناس، و قد كان ذلك بحمد اللّه فإنه بيّن لعباد اللّه ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبى من الدخول فى الدين على الدخول فيه طوعا أو كرها و قتل صناديد الشرك و فرّق جموعهم و بدّد شملهم، و كانت كلمة اللّه هى العليا، فأسلم كلّ من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش و أكابرهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم و ابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، و هكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه اللّه من الناس، إن قام ببيان حجج اللّه و إيضاح براهينه، و صرخ بين ظهرانى من ضادّ اللّه و عانده و لم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة، و قد رأينا من هذا فى أنفسنا و سمعنا منه فى غيرنا ما يزيد المؤمن إيمانا و صلابة فى دين اللّه و شدّة شكيمة فى القيام بحجة اللّه، و كل ما يظنه متزلزلو الأقدام و مضطربو القلوب من نزول الضرر بهم و حصول المحن عليهم فهو خيالات مختلفة و توهمات باطلة، فإنّ كلّ محنة فى الظاهر هى منحة فى الحقيقة، لأنها لا تأتى إلا بخير فى الأولى و الأخرى إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ «۱» قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ جملة متضمّنة لتعليل ما سبق من العصمة؛ أى إن اللّه لا يجعل لهم سبيلا إلا الإضرار بك، فلا تخف و بلغ ما أمرت بتبليغه.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟ يجتمع عليّ الناس، فنزلت وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إن اللّه بعثنى برسالته فضقت بها ذرعا، و عرفت أن الناس مكذّبى، فوعدنى لأبلغن أو ليعذّبنى، فأنزلت يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ لَمْ

تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى قال: نزلت هذه الآية يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم غدير خمّ فى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك- إن عليا مولى المؤمنين- و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته و اللّه يعصمك من الناس». و أخرج ابن أبى حاتم عن عنترة قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للناس، فقال: ألم تعلم أنّ اللّه قال: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و اللّه ما ورّثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سوداء فى بيضاء. و أخرج ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سئل: أىّ آية أنزلت من السماء أشدّ عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، فاجتمع مشركو العرب و أفناء الناس فى الموسم، فأنزل علىّ جبريل فقال: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ الآية، قال: فقمت عند العقبة فناديت يا أيها الناس من ينصرنى على أن أبلّغ رسالة ربى و له الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا اللّه و أنا رسول اللّه إليكم،

---

(۱). ق: ۳۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۷۰

تفلحوا و تنجحوا و لكم الجنة، قال: فما بقى رجل و لا امرأة و لا صبىّ إلا يرمون بالتراب و الحجارة و يبزقون فى وجهى و يقولون: كذاب صابئ، فعرض علىّ عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول اللّه فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ اهد قومى فإنهم لا يعلمون»، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم و طردهم عنه. قال الأعمش: فبذلك يفتخر بنو العباس و يقولون: فيهم نزلت: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «۱» هوى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبا طالب، و شاء اللّه عباس بن عبد المطلب. و أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يحرس حتى نزلت وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فأخرج رأسه من القبة فقال: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى اللّه». قال الحاكم فى المستدرك: صحيح الإسناد و لم يخرّجاه. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه من حديث أبى سعيد. و قد روى فى هذا المعنى أحاديث. و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال: «لما غزا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلّى رجليه، فقال الوارث من بنى النجار: لأقتلنّ محمدا، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطنى سيفك فإذا أعطانيه قتلته به؛ فأتاه فقال: يا محمد أعطنى سيفك أشمه «۲»، فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حال اللّه بينك و بين ما تريد، فأنزل اللّه سبحانه يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ الآية. قال ابن كثير: و هذا حديث غريب من هذا الوجه. و أخرج ابن حبان فى صحيحه و ابن مردويه عن أبى هريرة نحو هذه القصة و لم يسمّ الرجل. و أخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظى نحوه، و فى الباب روايات. و قصة غورث بن الحارث ثابتة فى الصحيح، و هى معروفة مشهورة.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۶۸ الى ۷۵]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۶۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ

الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٧٢)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)

---

(١). القصص: ٥٦.

(٢). أشمه: أختبره.

فتح القدير، ج٢، ص: ٧١

قوله: عَلى شَيْءٍ فيه تحقير و تقليل لما هم عليه: أى لستم على شىء يعتدّ به حتى تقيموا التوراة و الإنجيل: أى تعملوا بما فيهما من أوامر اللّه و نواهيه التى من جملتها أمركم باتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و نهيكم عن مخالفته.

قال أبو علىّ الفارسى: و يجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما. قوله: وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ قيل:

هو القرآن، فإن إقامة الكتابين لا تصح بغير إقامته، و يجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين.

قوله: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً أى كفرا إلى كفرهم و طغيانا إلى طغيانهم، و المراد بالكثير منهم من لم يسلم، و استمرّ على المعاندة؛ و قيل: المراد به العلماء منهم، و تصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها، قوله: فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أى دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم و نازل بهم، و فى المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم.

قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إلخ، جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين. و المراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بألسنتهم و هم المنافقون وَ الَّذِينَ هادُوا أى دخلوا فى دين اليهود وَ الصَّابِئُونَ مرتفع على الابتداء و خبره محذوف، و التقدير: و الصابئون و النصارى كذلك. قال الخليل و سيبويه: الرفع محمول على التقديم و التأخير، و التقدير: إن الذين آمنوا و الذين هادوا من آمن باللّه و اليوم الآخر و عمل صالحا فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون و الصابئون و النصارى كذلك، و أنشد سيبويه، قول الشاعر:

و إلّا فاعلموا أنّا و أنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

اى و إلا فاعلموا أنا بغاة و أنتم كذلك، و مثله قول ضابئ البرجمى:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنّى و قيّار «١» بها لغريب

أى فإنى لغريب و قيار كذلك. و قال الكسائى و الأخفش: إن «الصَّابِئُونَ» معطوف على المضمر فى «هادُوا». قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: و قد ذكر له قول الكسائى و الأخفش: هذا خطأ من وجهين:

أحدهما أن المضمر المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد. و ثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه، فيصير المعنى:

إن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية، و هذا محال. و قال الفراء: إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الاسم دون الخبر، فعلى هذا هو عنده معطوف على محل اسم إنّ، أو على مجموع إنّ و اسمها؛ و قيل: إنّ خبر إن مقدر، و الجملة الآتية خبر الصابئون و النصارى، كما فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما* عندك راض و الرأى مختلف

---

(١). «قيّار»: اسم جمل ضابئ.

فتح القدير، ج٢، ص: ٧٢

و قيل: إنّ هنا بمعنى نعم، فالصابئون مرتفع بالابتداء، و مثله قول ابن قيس الرقيات:

بكر العواذل فى الصّباح يلمننى و ألومهنّه

و يقلن شيب قد علاك و قد كبرت فقلت إنّه

قال الأخفش: إنه بمعنى نعم و الهاء للسكت. و قد تقدم الكلام على الصابئين و النصارى فى البقرة، و قرئ الصابيون بياء صريحة تخفيفا للهمزة، و قرئ: الصابون بدون ياء، و هو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى، و قرئ و الصابئين عطفا على اسم إن. قوله: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ مبتدأ خبره فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و المبتدأ و خبره خبر ل إِنَ و دخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و العائد إلى اسم إن محذوف، أى من آمن منهم، و يجوز أن يكون من آمن بدلا من اسم إنّ و ما عطف عليه، و يكون خبر إنّ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و المعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قدّمنا: أن من آمن من هذه الطوائف إيمانا خالصا على الوجه المطلوب و عمل عملا صالحا، فهو الذى لا خوف عليه و لا حزن، و أما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام: المخلص و المنافق، فالمراد بمن آمن من اتّصف بالإيمان الخالص و استمرّ عليه، و من أحدث إيمانا خالصا بعد نفاقه. قوله: لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة. و قد تقدّم فى البقرة بيان معنى الميثاق وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ليعرّفوهم بالشرائع و ينذروهم كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ جملة شرطية وقعت جوابا لسؤال ناس من الأحبار بإرسال الرسل كأنه قيل: ما ذا فعلوا بالرسل؟ و جواب الشرط محذوف، أى عصوه. و قوله: فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ جملة مستأنفة أيضا جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأوّل كأنه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقا منهم كذبوهم و لم يتعرضوا لهم بضرر، و فريقا آخر منهم قتلوهم، و إنما قال وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ لمراعاة رؤوس الآى، فمن كذّبوه عيسى و أمثاله من الأنبياء، و ممن قتلوه زكريا و يحيى. قوله: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أى حسب هؤلاء الذين أخذ اللّه عليهم الميثاق أن لا يقع من اللّه عز و جل ابتلاء و اختبار بالشدائد اعتزازا «١» بقولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ «٢».

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى تكون بالرفع على أنّ أن هى المخففة من الثقيلة، و حسب بمعنى علم، لأن أن معناها التحقيق. و قرأ الباقون بالنصب على أنّ أن ناصبة للفعل، و حسب بمعنى الظن، قال النحاس:

و الرفع عند النحويين فى حسب و أخواتها أجود، و مثله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنّنى كبرت و ألّا يشهد اللّهو أمثالى «٣»

قوله فَعَمُوا وَ صَمُّوا أى عموا عن إبصار الهدى، و صمّوا عن استماع الحق، و هذه إشارة إلى ما

---

(١). فى القرطبى اغترارا.

(٢). المائدة: ١٨.

(٣). البيت لامرئ القيس. «بسباسة»: امرأة من بنى أسد.

فتح القدير، ج٢، ص: ٧٣

وقع من بنى إسرائيل فى الابتداء من مخالفة أحكام التوراة، و قتل شعيا، ثم تاب اللّه عليهم حين تابوا، فكشف عنهم القحط ثُمَّ

عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ و هـذا إشارة إلى ما وقع منهم بعـد التوبـة من قتل يحيى بن زكريا و قصدهم قتل عيسى، و ارتفاع كَثِيرٌ على البدل من الضـمير فى الفعلين. قال الأخفش: كما تقول رأيت قومك ثلاثتهم، و إن شئت كان على إضمار مبتدأ: أى العمى و الصمّ كثير منهم، و يجوز أن يكون كثير مرتفعا على الفاعلية على لغة من قال: أكلونى البراغيث، و منه قوله الشاعر:

و لكن ديافىّ أبوه و أمّه‌بحوران يعصرن السّليط أقاربه «۱»

و قرئ عَمُوا وَ صَمُّوا بالبناء للمفعول: أى أعماهم اللّه و أصمهم. قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ هذا كلام مبتـدأ يتضـمن بيان بعض فضائـح أهل الكتاب، و القائلون بهـذه المقالـة هم فرقة منهم: يقال لهم: اليعقوبية؛ و قيل: هم الملكانية، قـالوا: إن اللّه عز و جـل حلّ فى ذات عيسى، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ أى و الحال أنه قـد قال المسيح هـذه المقالـة، فكيف يدّعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم؟ قوله: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ الضمير للشأن، و هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة؛ و قيل: هو من قول عيسى وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار.

قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ و هذا كلام أيضا مبتدأ لبيان بعض مخازيهم، و المراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، و لهـذا يضـاف إلى ما بعـده، و لا يجوز فيه التنوين كما قال الزجاج و غيره، و إنما ينوّن و ينصب ما بعـده إذا كان ما بعـده دونه بمرتبـة نحو ثـالث اثنين و رابع ثلاثـة، و القائـل بـأنه سبحانه و تعالى ثالث ثلاثـة هم النصارى، و المراد بالثلاثـة: اللّه سبحانه، و عيسـى، و مريم كما يـدل عليه قوله: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ «۲» و هـذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم: إقنيم «۳» الأب، و إقنيم الابن، و إقنيم روح و قد تقدّم فى سورة النساء كلام فى هذا، ثم ردّ اللّه سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال: وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ أى ليس فى الوجود إلا اللّه سبحانه، و هـذه الجملـة حاليـة، و المعنى: قالوا تلك المقالـة، و الحال أنه لا موجـود إلا اللّه، و من فى قوله: مِنْ إِلهٍ لتأكيـد الاسـتغراق المسـتفاد من النفى وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ من الكفر لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ جواب قسم محـذوف سادّ مسدّ جواب الشـرط، و من فى مِنْهُمْ بيانية أو تبعيضـية أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ الفاء للعطف على مقدّر، و الهمزة للإنكار. قوله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أى هو مقصور على الرسالـة، لا يجاوزها كما زعمتم، و جملة قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ صـفة لرسول: أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، و ما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلها، فقد

---

(۱). البيت للفرزدق. «دياف»: قرية بالشام. «السليط»: الزيت.

(۲). المائدة: ۱۱۶.

(۳). فى معاجم اللغة: أقنوم.

كان لمن قبله من الرسل مثلها، فإنّ اللّه أحيا العصا فى يـد موسـى، و خلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسـى للموتى و وجوده من غير أب يوجبان كونه إلها، فإن كان كما تزعمون إلها لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة، و أنتم لا تقولون بذلك. قوله: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ عطف على المسيح:

أى و مـا أمه إلا صدّيقـة: أى صادقـة فيما تقوله أو مصدّقـة لما جاء به ولـدها من الرسالـة، و ذلك لا يسـتلزم الإلهيـة لها، بل هى كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء. قوله: كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ استئناف يتضـمّن التقرير لما أشـير إليه من أنهما كسائر أفراد البشـر: أى من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ، بل و عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربا؟ و أما

قولكم إنه كـان يأكل الطعام بناسوته لا لاهوته، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله و اجتماع الناسوت و اللاهوت، لو جاز اختلاط القـديم الحادث لجاز أن يكون القديم حادثا، و لو صحّ هذا فى حق عيسى لصح فى حق غيره من العباد انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ أى الـدلالات، و فيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية و يغفلون عن كونها موجودة فى من لا يقولون بأنه إله ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف يصرفون عن الحق بعد هذا البيان؟ يقال: أفكه يأفكه إذا صرفه. و كرر الأمر بالنظر للمبالغة فى العجيب، و جاء ب ثُمَ لإظهار ما بين العجبين من التفاوت.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء نافع ابن حارثة و سلام بن مشكم و مالك بن الصيف و رافع بن حرملة فقالوا: يا محمد! أ لست تزعم أنك على ملة إبراهيم و دينه و تؤمن بما عندنا من التوراة و تشهد أنها من اللّه حق؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «بلى، و لكنكم أحدثتم و جحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق و كفرتم منها بما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم» قالوا: فإنا نأخذ بما فى أيدينا و إنا على الهدى و الحق و لا نؤمن بك و لا نتبعك، فأنزل اللّه فيهم: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إلى قوله: الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ قال: بلاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ قال: النصارى يقولون إن اللّه ثالث ثلاثة و كذبوا.

أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: تفرّقت بنو إسرائيل ثلاث فرق فى عيسى، فقالت فرقة هو اللّه، و قالت فرقة هو ابن اللّه، و قالت فرقة هو عبد اللّه و روحه، و هى المقتصدة و هى مسلمة أهل الكتاب.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٦ الى ٨١]

قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (٨٠)
وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٨١)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٧٥

أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم هـذا القول إلزاما لهم و قطعا لشبهتهم؛ أى أ تعبدون من دون اللّه متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرّا و لا نفعا؟ بل هو عبد مأمور، و ما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضر، فهو بإقدار اللّه له و تمكينه منه، و أما هو، فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئا من ذلك فضلا عن أن يملكه لغيره، و من كان لا ينفع و لا يضرّ فكيف تتخذونه إلها و تعبدونه، و أى سبب يقتضى ذلك؟ و المراد هنا المسيح عليه السلام، و قدّم سبحانه الضرّ على النفع لأنّ دفع المفاسد أهمّ من جلب المصالح وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرّا و لا نفعا، و الحال أن اللّه هو السّميع العليم، و من كان كذلك فهو القادر على الضرّ و النفع لإحاطته بكل مسموع و معلوم، و من جملة ذلك مضارّكم و منافعكم.

قوله: تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلّقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلوّ فى دينهم و هو المجاوزة للحد كإثبات

الإلهية لعيسى، كما يقوله النصارى، أو حطّه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلوّ المذموم و سلوك طريقة الإفراط أو التفريط و اختيارهما على طريق الصواب. و غَيْرَ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف: أى غلوّا غير غلوّ الحق، و أما الغلوّ فى الحق بإبلاغ كلية الجهد فى البحث عنه و استخراج حقائقه فليس بمذموم؛ و قيل: إن النصب على الاستثناء المتصل؛ و قيل: على المنقطع وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ و هم أسلاف أهل الكتاب من طائفتى اليهود و النصارى: أى قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة و التسليم وَ أَضَلُّوا كَثِيراً من الناس وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ أى عن قصدهم طريق محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بعد البعثة، و المراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة و أضلوا كثيرا من الناس إذ ذاك، و ضلوا من بعد البعثة، إما بأنفسهم، أو جعل ضلال من أضلّوه ضلالا لهم لكونهم سنوا لهم ذلك و نهجوه لهم؛ و قيل: المراد بالأول كفرهم بما يقتضيه العقل، و بالثانى كفرهم بما يقتضيه الشرع.

قوله: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ أى لعنهم اللّه سبحانه عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أى فى الزبور و الإنجيل على لسان داود و عيسى بما فعلوه من المعاصى كاعتدائهم فى السبت و كفرهم بعيسى.

قوله: ذلِكَ بِما عَصَوْا جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر، و الإشارة بذلك إلى اللعن: أى ذلك اللعن بسبب المعصية و الاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية و الاعتداء بقوله: كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ فأسند الفعل إليهم لكون فاعله من جملتهم و إن لم يفعلوه جميعا. و المعنى: أنهم كانوا لا ينهون العاصى عن معاودة معصية قد فعلها، أو تهيّأ لفعلها، و يحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار، و بيان العصيان و الاعتداء بترك التناهى عن المنكر لأن من أخلّ بواجب

النهى عن المنكر فقد عصى اللّه سبحانه و تعدّى حدوده. و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية و أجلّ الفرائض الشرعية، و لهذا كان تاركه شريكا لفاعل المعصية و مستحقا لغضب اللّه و انتقامه كما وقع لأهل السبت، فإنّ اللّه سبحانه مسخ من لم يشاركهم فى الفعل و لكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعا قردة و خنازير إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ «۱» ثم إنّ اللّه سبحانه قال مقبحا لعدم التناهى عن المنكر: لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ أى من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ أى من اليهود مثل كعب بن الأشرف و أصحابه يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أى المشركين و ليسوا على دينهم لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أى سوّلت و زيّنت، أو ما قدّموه لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة، و المخصوص بالذم هو أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أى موجب سخط اللّه عليهم على حذف مضاف أو هو سخط اللّه عليهم على حذف المبتدأ؛ و قيل هو: أى أنّ سخط اللّه عليهم بدل من ما وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِ أى نبيهم وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ من الكتاب مَا اتَّخَذُوهُمْ أى المشركين أَوْلِياءَ لأن اللّه سبحانه و رسوله المرسل إليهم و كتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ أى خارجون عن ولاية اللّه و عن الإيمان به و برسوله و بكتابه.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ يقول:

لا تبتدعوا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: كانوا مما غلوا فيه أن دعوا للّه صاحبة و ولدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ قال:

يهود. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن أوّل ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا اتّق اللّه ودع ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله و

شريبه و قعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض ثم قال: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ إلى قوله: فاسِقُونَ ثم قال: كلا و اللّه لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذنّ على يد الظالم و لتأطرنّه على الحق أطرا»، و قد روى هذا الحديث من طرق كثيرة، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدّا فلا نطول بذكرها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ يعنى الزبور وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ يعنى فى الإنجيل. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى مالك الغفارى فى الآية قال: لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة، و على لسان عيسى فجعلوا خنازير. و أخرج ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى عبيدة بن الجراح مرفوعا: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا من أوّل النهار، فقام مائة و اثنا عشر رجلا من عبادهم فأمروهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار، فهم الذين ذكر اللّه لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ الآيات». و أخرج ابن أبى

---

(١). ق: ٣٧.

حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ قال: ما أمرتهم. و أخرج ابن أبى حاتم و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق، و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان و ضعّفه عن حذيفة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يا معشر المسلمين إياكم و الزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاث فى الدنيا و ثلاث فى الآخرة؛ فأما التى فى الدنيا: فذهاب البهاء، و دوام الفقر، و قصر العمر؛ و أما الّتى فى الآخرة: فسخط اللّه، و سوء الحساب، و الخلود فى النار؛ ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ قال ابن كثير فى تفسيره: هذا الحديث ضعيف على كل حال. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ قال: المنافقون.

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٢ الى ٨٦]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله: لَتَجِدَنَ إلخ. هذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها من تعداد مساوئ اليهود و هناتهم، و دخول لام القسم عليها يزيدها تأكيدا و تقريرا، و الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكلّ من يصلح له كما فى غير هذا الموضع من الكتاب العزيز. و المعنى فى الآية: أن اليهود و المشركين، لعنهم اللّه، أشدّ جميع الناس عداوة للمؤمنين و أصلبهم فى ذلك، و أنّ النّصارى أقرب الناس مودّة للمؤمنين، و اللام فى لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الموضعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة و مودّة؛ و قيل: هو متعلّق بعداوة و مودة؛ و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى كونهم أقرب مودّة، و الباء فى بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ للسببية: أى ذلك بسبب أن منهم قسّيسين، و هو جمع قسّ و قسيس

قاله قطرب. و القسّيس: العالم، و أصله من قسّ: إذا تتبع الشيء و طلبه.

قال الراجز «۱»:

يصبحن عن قسّ الأذى غوافلا و تقسّست أصواتهم بالليل تسمّعتها. و القسّ: النميمة. و القسّ أيضا: رئيس النصارى فى الدين و العلم، و جمعه قسوس أيضا، و كذلك القسّيس: مثل الشرّ و الشرّير، و يقال فى جمع قسّيس تكسيرا قساوسة بإبدال

(۱). هو رؤبة بن العجاج.

أحد السينين واوا، و الأصل قساسسة، فالمراد بالقسيسين فى الآية: المتبعون للعلماء و العباد، و هو إما عجمىّ خلطته العرب بكلامها، أو عربىّ. و الرهبان: جمع راهب كركبان و راكب، و الفعل رهب اللّه يرهبه: أى خافه. و الرهبانية و الترهّب: التّعبّد فى الصّوامع. قال أبو عبيد: و قد يكون رهبان للواحد و الجمع. قال الفرّاء: و يجمع رهبان إذا كان للمفرد: رهابنة و رهابين كقربان و قرابين. و قد قال جرير فى الجمع:

رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا «۱» .....

و قال الشاعر فى استعمال رهبان مفردا:

لو أبصرت رهبان دير فى الجبللانحدر الرّهبان يسعى و يصل «۲»

ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحقّ، بل هم متواضعون، بخلاف اليهود فإنهم على ضدّ ذلك، و هذه الجملة معطوفة على الجملة التى قبلها وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ معطوف على جملة وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أى تمتلئ فتفيض، لأنّ الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء، جعل الأعين تفيض، و الفائض: إنما هو الدمع قصدا للمبالغة كقولهم دمعت عينه. قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين منّى صبابةعلى النّحر حتّى بلّ دمعى محملى

قوله: مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ من الأولى لابتداء الغاية، و الثانية بيانية: أى كان ابتداء الفيض ناشئا من معرفة الحق، و يجوز أن تكون الثانية تبعيضية، و قرئ: تَرى أَعْيُنَهُمْ على البناء للمجهول. و قوله:

يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا استئناف مسوق لجواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما حالهم عند سماع القرآن؟ فقال:

يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ أى آمنّا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد و بمن أنزلته عليه فاكتبنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد أو مع الشاهدين، بأنه حق، أو مع الشاهدين بصدق محمد و أنه رسولك إلى الناس. قوله: وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ كلام مستأنف، و الاستفهام للاستبعاد وَ لَنا متعلق بمحذوف، و لا نُؤْمِنُ فى محل نصب فى الحال، و التقدير: أىّ شىء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن باللّه و بما جاءنا من الحق؟ و المعنى: أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود المقتضى له، و هو الطمع فى إنعام اللّه، فالاستفهام و النفى متوجّهان إلى القيد و المقيد جميعا كقوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً «۳»، و الواو فى وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ للحال أيضا بتقدير مبتدأ:

أى أىّ شىء حصل لنا؟ غير مؤمنين و نحن نطمع فى الدخول مع الصّالحين، فالحال الأولى و الثانية صاحبهما الضمير فى لَنا و عاملهما الفعل المقدّر: أى حصل، و يجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير فى

(۱). و عجزه: و العصم من شعف العقول الفادر. «الفادر». المسنّ من الوعول.

(٢). فى المطبوع: و نزل. و المثبت من تفسير القرطبى (٦/ ٣٥٨)

(٣). نوح: ١٣.

نُؤْمِنُ و التقدير: و ما لنا نجمع بين ترك الإيمان و بين الطمع فى صحبة الصالحين. قوله: فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا إلخ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه. قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام. و الجحيم: النار الشديدة الإيقاد، و يقال جحم فلان النار: إذا شدّد إيقادها، و يقال أيضا لعين الأسد: جحمة لشدّة اتقادها.

قال الشاعر:

و الحرب لا يبقى لجاحمها التّخيّل و المراح

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً الآية قال: هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر و أصحابه من أرض الحبشة. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما خلا يهوديّ بمسلم إلا همّ بقتله» و فى لفظ «إلا حدّث نفسه بقتله». قال ابن كثير: و هو غريب جدّا. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال: ما ذكر اللّه به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشى و أصحابه. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: هم ناس من الحبشة آمنوا إذا جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم. و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير قال: نزلت هذه الآية فى النجاشى و أصحابه وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و الواحدى من طريق ابن شهاب قال: أخبرنى سعيد بن المسيب و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و عروة بن الزبير قالوا: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عمرو بن أمية الضمرى و كتب معه كتابا إلى النجاشى، فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم دعا جعفر بن أبى طالب و المهاجرين معه، و أرسل النجاشى إلى الرهبان و القسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورة مريم، فآمنوا بالقرآن و فاضت أعينهم من الدّمع، و هم الذين أنزل اللّه فيهم: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً إلى قوله: مَعَ الشَّاهِدِينَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير فى الآية قال: هم رسل النجاشى بإسلامه و إسلام قومه، كانوا سبعين رجلا يختارهم من قومه الخير، فالخير فى الفقه و السنّ. و فى لفظ: بعث من خيار أصحابه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثين رجلا، فلما أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن و عرفوا أنه الحق، فأنزل اللّه فيهم ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً الآية، و نزلت هذه الآية فيهم أيضا الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ «١» إلى قوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا «٢». و أخرج عبد بن حميد و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى قال: بعث النجاشيّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم اثنى عشر رجلا سبعة قسيسين و خمسة رهبانا ينظرون إليه و يسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم مما أنزل اللّه بكوا و آمنوا، فأنزل اللّه فيهم: وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ الآية، و الروايات فى هذا الباب كثيرة، و هذا المقدار يكفى، فليس المراد

---

(١). القصص: ٥٢.

(٢). القصص: ٥٤.

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۰

إلا بيان سبب نزول الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: قِسِّيسِينَ قال: هم علماؤهم.

و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: القسيسون عبّادهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ قال: أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸)

الطّيّبات: هى المستلذّات ممّا أحلّه اللّه لعباده، نهى الذين آمنوا عن أن يحرّموا على أنفسهم شيئا منها، إما لظنّهم أن فى ذلك طاعة للّه و تقرّبا إليه، و أنه من الزّهد فى الدنيا فرفع النفس عن شهواتها، أو لقصد أن يحرّموا على أنفسهم شيئا مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم: حرام عليّ و حرّمته على نفسى و نحو ذلك من الألفاظ التى تدخل تحت هذا النهى القرآنى. قال ابن جرير الطبرى: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحلّ اللّه لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم و الملابس و المناكح، و لذلك ردّ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم التبتل على عثمان بن مظعون.

فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله اللّه لعباده، و أنّ الفضل و البرّ إنما هو فى فعل ما ندب اللّه عباده إليه، و عمل به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و سنه لأمته، و اتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون، إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر و الصوف على لباس القطن و الكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، و آثر أكل الخشن من الطعام و ترك اللحم و غيره حذرا من عارض الحاجة إلى النساء. قال: فإن ظنّ ظانّ أنّ الفضل فى غير الذى قلنا لما فى لباس الخشن و أكله من المشقة على النفس و صرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة، فقد ظنّ خطأ، و ذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه و عونه لها على طاعة ربها، و لا شىء أضرّ للجسم من المطاعم الرديئة، لأنها مفسدة لعقله و مضعفة لأدواته التى جعلها اللّه سببا إلى طاعته. قوله: وَ لا تَعْتَدُوا أى لا تعتدوا على اللّه بتحريم طيبات ما أحلّ اللّه لكم، أو لا تعتدوا فتحلّوا ما حرّم اللّه عليكم: أى تترخّصوا فتحلّلوا حراما؛ كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال. و قد ذهب جمهور العلماء إلى أنّ من حرّم على نفسه شيئا مما أحلّه اللّه له فلا يحرم عليه و لا يلزمه كفارة.

و قال أبو حنيفة و أحمد و من تابعهما: إنّ من حرّم شيئا صار محرّما عليه، و إذا تناوله لزمته الكفارة، و هو خلاف ما فى هذه الآية و خلاف ما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة، و لعله يأتى فى سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء اللّه. و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ تعليل لما قبله، و ظاهره أنه تحريم كلّ اعتداء:

أى مجاوزة لما شرعه اللّه فى كل أمر من الأمور وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حال كونه حَلالًا طَيِّباً أى غير محرّم و لا مستقذر، أو أكلا حلالا طيبا، أو كلوا حلالا طيبا مما رزقكم اللّه، ثم وصاهم اللّه سبحانه بالتقوى فقال: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۱

و قد أخرج الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن عدىّ فى الكامل و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس: أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء و أخذتنى شهوة، و إنى حرّمت عليّ اللحم، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ و قد روى من وجه آخر مرسلا، و روى موقوفا على ابن عباس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى الآية قال: نزلت فى رهط من الصحابة قالوا: نقطع مذاكيرنا و

نترک شهوات الدنیا و نسیح فی الأرض کما یفعل الرهبان، فبلغ ذلک النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فأرسل إلیهم فذکر لهم ذلک، فقالوا: نعم، فقال النبی صلّی اللّه علیه و سلّم:

«لکنی أصوم و أفطر و أصلی و أنام و أنکح النساء، فمن أخذ بسنّتی فهو منی، و من لم یأخذ بسنّتی فلیس منی». و قد ثبت نحو هذا فی الصّحیحین و غیرهما من دون ذکر أن ذلک سبب نزول الآیة. و أخرج عبد ابن حمید و أبو داود فی المراسیل و ابن جریر عن أبی مالک أن هؤلاء الرهط: هم عثمان بن مظعون و أصحابه، و فی الباب روایات کثیرة بهذا المعنی، و کثیر منها مصرّح بأن ذلک سبب نزول الآیة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن زید بن أسلم أن عبد اللّه بن رواحة ضافه ضیف من أهله و هو عند النبی صلّی اللّه علیه و سلّم ثم رجع إلی أهله، فوجدهم لم یطعموا ضیفهم انتظارا له، فقال لامرأته: حبست ضیفی من أجلی، هو حرام علیّ، فقالت امرأته: هو حرام علیّ، فقال الضیف: هو حرام علیّ، فلما رأی ذلک وضع یده و قال: کلوا بسم اللّه، ثم ذهب إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فأخبره، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «قد أصبت»، فأنزل اللّه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَیِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکُمْ و هذا أثر منقطع، و لکن فی صحیح البخاری فی قصة الصدیق مع أضیافه ما هو شبیه بهذا. و أخرج ابن أبی حاتم عن مسروق قال: کنا عند عبد اللّه فجیء بضرع، فتنحّی رجل، فقال له عبد اللّه: ادن، فقال: إنی حرّمت أن آکله، فقال عبد اللّه: ادن فاطعم و کفر عن یمینک، و تلا هذه الآیة. و أخرجه أیضا الحاکم فی مستدرکه، و قال: صحیح علی شرط الشیخین و لم یخرجاه.

[سورة المائدة (۵): آیة ۸۹]

لا یُؤاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمانِکُمْ وَ لکِنْ یُؤاخِذُکُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَیْمانَ فَکَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساکِینَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ أَوْ کِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ یَجِدْ فَصِیامُ ثَلاثَةِ أَیَّامٍ ذلِکَ کَفَّارَةُ أَیْمانِکُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَیْمانَکُمْ کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۸۹)

قد تقدم تفسیر اللغو، و الخلاف فیه، فی سورة البقرة، و فِی أَیْمانِکُمْ صلة یُؤاخِذُکُمُ قیل و فِی بمعنی من، و الأیمان جمع یمین. و فی الآیة دلیل علی أن أیمان اللغو لا یؤاخذ اللّه الحالف بها و لا تجب فیها الکفارة. و قد ذهب الجمهور من الصحابة و من بعدهم إلی أنها قول الرجل: لا و اللّه و بلی و اللّه فی کلامه غیر معتقد للیمین، و به فسّر الصّحابة الآیة و هم أعرف بمعانی القرآن. قال الشافعی: و ذلک عند اللّجاج و الغضب و العجلة بقوله: وَ لکِنْ یُؤاخِذُکُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَیْمانَ قرئ بتشدید عَقَّدْتُمُ و بتخفیفه، و قرئ عاقدتم. و العقد علی ضربین: حسی کعقد الحبل، و حکمی کعقد البیع، و الیمین و العهد.

قال الشاعر «۱».

---

(۱). هو الحطیئة.

فتح القدیر، ج‌۲، ص: ۸۲ قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم شدّوا العناج و شدّوا فوقه الکربا

فالیمین المنعقدة من عقد القلب لیفعلن أو لا یفعلن فی المستقبل؛ أی و لکن یؤاخذکم بأیمانکم المنعقدة الموثقة بالقصد و النیة إذا حنثتم فیها. و أما الیمین الغموس: فهی یمین مکر و خدیعة و کذب قد باء الحالف بإثمها، و لیست بمعقودة و لا کفارة فیها کما ذهب إلیه الجمهور، و قال الشافعی: هی یمین معقودة مکتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم اللّه، و الراجح الأول و جمیع الأحادیث الواردة فی تکفیر الیمین متوجّهة إلی المعقودة، و لا یدلّ شیء منها علی الغموس، بل ما ورد فی الغموس إلا الوعید و الترهیب، و إنها من الکبائر، بل من أکبر الکبائر، و فیها نزل قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَیْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلًا

«۱» الآيـة. قوله: فَكَفَّارَتُهُ الكفارة: هى مأخوذة من التكفير و هو التستير، و كـذلك الكفر هو الستر، و الكافر هو الساتر، لأنها تستر الذنب و تغطيه، و الضمير فى كفارته راجع إلى ما فى قوله: بِما عَقَّدْتُمُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفى الإسراف و التقتير، و ليس المراد به الأعلى كما فى غير هذا الموضع: أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، و لا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، و لا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه، و ظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا.

و قد روى عن على بن أبى طالب أنه قال: لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغدّيهم و يعشّيهم.

قال أبو عمر: هو قول أئمّة الفتوى بالأمصار. و قال الحسن البصرى و ابن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزا و سمنا أو خبزا و لحما. و قال عمر بن الخطاب و عائشة و مجاهد و الشعبى و سعيد ابن جبير و إبراهيم النخعى و ميمون بن مهران و أبو مالك و الضحّاك و الحكم و مكحول و أبو قلابة و مقاتل:

يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من برّ أو تمر. و روى ذلك عن علىّ. و قال أبو حنيفة نصف صاع برّ و صاع مما عداه. و قد أخرج ابن ماجة و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كفّر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بصاع من تمر و كفّر الناس به، و من لم يجد فنصف صاع من برّ، و فى إسناده عمر بن عبد اللّه بن يعلى الثقفى، و هو مجمع على ضعفه. و قال الدارقطنى: متروك. قوله: أَوْ كِسْوَتُهُمْ عطف على إطعام. قرئ بضم الكاف و كسرها و هما لغتان مثل أسوة و إسوة. و قرأ سعيد بن جبير و محمد بن السّميقع اليمانى أو كأسوتهم: يعنى كأسوة أهليكم و الكسوة فى الرجال تصدق على ما يكسو البدن و لو كان ثوبا واحدا، و هكذا فى كسوة النساء؛ و قيل: الكسوة للنساء درع و خمار؛ و قيل: المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة.

قوله: أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أى إعتاق مملوك، و التحرير: الإخراج من الرقّ، و يستعمل التحرير فى فكّ الأسير، و إعفاء المجهود بعمل عن عمله، و ترك إنزال الضرر به، و منه قول الفرزدق:

أبنى غدانة إنّنى حرّرتكمفوهبتكم لعطيّة بن جعال

أى حررتكم من الهجاء الذى كان سيضع منكم و يضرّ بأحسابكم.

و لأهل العلم أبحاث فى الرقبة التى تجزئ فى الكفارة، و ظاهر هذه الآية أنها تجزئ كلّ رقبة على أىّ صفة

---

(۱). آل عمران: ۷۷.

كانت. و ذهب جماعة منهم الشافعى إلى اشتراط الإيمان فيها قياسا على كفارة القتل فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ أى فمن لم يجد شيئا من الأمور المذكورة؛ فكفارته صيام ثلاثة أيام، و قرئ متتابعات حكى ذلك عن ابن مسعود و أبىّ، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم. و به قال أبو حنيفة و الثورى و هو أحد قولى الشافعى. و قال مالك و الشافعى فى قوله الآخر: يجزئ التفريق ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ أى ذلك المذكور كفّارة أيمانكم إذا حلفتم و حنثتم، ثم أمرهم بحفظ الأيمان و عدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، و الإشارة بقوله: كَذلِكَ إلى مصدر الفعل المذكور بعده، أى مثل ذلك البيان يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ و قد تكرّر هذا فى مواضع من الكتاب العزيز لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ما أنعم به عليكم من بيان شرائعه و إيضاح أحكامه.

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فى القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم النساء و اللحم قالوا: يا رسول اللّه! كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها؟ فأنزل اللّه: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير فى اللغو قال: هو الرجل يحلف على الحلال. و أخرج عبد بن حميد عن

مجاهد قال: هما الرجلان يتبايعان، يقول أحدهما: و اللّه لا أبيعك بكذا، و يقول الآخر: و اللّه لا أشتريه بكذا. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن النخعى قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف: و اللّه لتأكلنّ و اللّه لتشربنّ و نحو هذا لا يريد به يمينا و لا يتعمّد حلفا، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة، و قد تقدّم الكلام فى البقرة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ قال: بما تعمدتم. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقيم كفارة اليمين مدّا من حنطة، و فى إسناده النضر بن زرارة بن عبد الكريم الذّهلى الكوفى. قال أبو حاتم: مجهول، و ذكره ابن حبان فى الثقات. و قد تقدّم حديث ابن عباس و تضعيفه. و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت أبى بكر قالت: كنا نعطى فى كفارة اليمين بالمدّ الذى نقتات به. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: إنى أحلف لا أعطى أقواما، ثم يبدو لى فأعطيهم، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو نصف صاع من قمح.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: فى كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين، لكلّ مسكين نصف صاع من حنطة. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. و أخرج عنه عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن زيد بن ثابت مثله. و أخرج هؤلاء أيضا عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب قال: تغدّيهم و تعشّيهم إن شئت خبزا و لحما أو خبزا و زيتا أو خبزا و سمنا أو خبزا و تمرا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۴

عن ابن عباس فى قوله: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ قال: من عسركم و يسركم. و أخرج ابن ماجة عنه قال: الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة و كان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدّة، فنزلت: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه نحو ذلك. و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن عائشة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: أَوْ كِسْوَتُهُمْ قال: «عباءة لكل مسكين»، قال ابن كثير: حديث غريب. و أخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قلت: يا رسول اللّه! أَوْ كِسْوَتُهُمْ ما هو؟ قال: «عباءة عباءة». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: عباءة لكل مسكين أو شملة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال: الكسوة ثوب أو إزار. و أخرج ابن جرير و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: فى كفّارة اليمين هو بالخيار فى هؤلاء الثلاثة الأوّل فالأوّل فإن لم يجد من ذلك شيئا فصيام ثلاثة أيام متتابعات. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۹۲) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۹۳)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خطاب لجميع المؤمنين. و قد تقدّم تفسير الميسر فى سورة البقرة وَ الْأَنْصابُ هى الأصنام المنصوبة للعبادة وَ الْأَزْلامُ قد تقدّم تفسيرها فى أوّل هذه السورة، و الرجس يطلق على العذرة و الأقذار. و هو خبر للخمر، و خبر المعطوف

عليه محذوف. و قوله: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ صفة لرجس: أى كائن من عمل الشيطان، بسبب تحسينه لذلک و تزيينه له و قيل هو الذى كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم و الضمير فى فَاجْتَنِبُوهُ راجع إلى الرجس، أو إلى المذكور و قوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ علة لما قبله. قال فى الكشاف: أكد تحريم الخمر و الميسر وجوها من التأكيد، منها: تصدير الجملة بإنما، و منها: أنه قرنهما بعبادة الأصنام و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «شارب الخمر كعابد الوثن» و منها: أنه جعلهما رجسا، كما قال: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ «١»، و منها: أنه جعلهما من عمل الشيطان و الشيطان لا يأتى منه إلا الشرّ البحت، و منها: أنه أمر بالاجتناب، و منها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح، و إذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خيبة و محقة، و منها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، و هو وقوع التعادى و التباغض بين أصحاب الخمر و القمر، و ما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر اللّه و عن مراعاة أوقات الصلوات، انتهى.

و فى هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمّنه الأمر بالاجتناب من الوجوب و تحريم الصدّ، و لما تقرّر فى الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلا عن جعله شرابا يشرب. قال أهل العلم من المفسرين و غيرهم:

---

(١). الحج: ٣٠.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٨٥

كان تحريم الخمر بتدريج و نوازل كثيرة، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها و حببها الشيطان إلى قلوبهم، فأوّل ما نزل فى أمرها يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ «١» فترک عند ذلک بعض من المسلمين شربها و لم يتركه آخرون، ثم نزل قوله تعالى: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى «٢» فتركها البعض أيضا، و قالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، و شربها البعض فى غير أوقات الصلاة، حتى نزلت هذه الآية إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ فصارت حراما عليهم، حتى كان يقول بعضهم: ما حرّم اللّه شيئا أشدّ من الخمر، و ذلک لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر، و فيما جاءت به الأحاديث الصّحيحة من الوعيد لشاربها، و أنّها من كبائر الذنوب.

و قد أجمع على ذلک المسلمون إجماعا لا شکّ فيه و لا شبهة، و أجمعوا أيضا على تحريم بيعها و الانتفاع بها ما دامت خمرا، و كما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضا على تحريم الميسر و الأنصاب و الأزلام. و قد أشارت هذه الآية إلى ما فى الخمر و الميسر من المفاسد الدنيوية بقوله: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ و من المفاسد الدينية بقوله: وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ. قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فيه زجر بليغ يفيده الاستفهام الدال على التقريع و التوبيخ. و لهذا قال عمر رضى اللّه عنه لما سمع هذا: انتهينا، ثم أكد اللّه سبحانه هذا التحريم بقوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا أى مخالفتهما: أى مخالفة اللّه و رسوله، فإن هذا و إن كان أمرا مطلقا فالمجىء به فى هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد، و هكذا ما أفاده بقوله: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أى إن أعرضتم عن الامتثال، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم و صلاحكم، و لم تضرّوا بالمخالفة إلا أنفسكم، و فى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره و لا يبلغ مداه. قوله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا أى من المطاعم التى يشتهونها، و الطعم و إن كان استعماله فى الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله فى الشرب، و منه قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی «٣» أباح اللّه سبحانه لهم فى هذه الآية جميع ما طعموا كائنا ما كان مقيدا بقوله: إِذا مَا اتَّقَوْا أى اتقوا ما هو محرّم عليهم كالخمر و غيره من الكبائر، و جميع المعاصى وَ آمَنُوا باللّه وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ من الأعمال التى شرعها اللّه لهم: أى استمروا على عملها. قوله: ثُمَّ اتَّقَوْا عطف على اتقوا الأوّل: أى اتقوا ما حرّم عليهم بعد ذلک مع كونه كان مباحا فيما سبق وَ آمَنُوا بتحريمه ثُمَّ اتَّقَوْا ما حرّم عليهم بعد

التحريم المذكور قبله مما كان مباحا من قبل وَ أَحْسَنُوا أى عملوا الأعمال الحسنة، هذا معنى الآية؛ و قيل: التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة؛ و قيل: إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث، المبدأ، و الوسط، و المنتهى؛ و قيل: إنّ التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان، فإنه ينبغى له أن يترك المحرّمات توقيا من العذاب، و الشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام، و بعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة؛ و قيل: إنه لمجرّد التأكيد، كما فى قوله تعالى: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ- ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ «۴»، هذه الوجوه كلّها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية، و إما مع النظر إلى سبب نزولها، و هو أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا و هو يشربها و يأكل

---

(۱). البقرة: ۲۱۹.

(۲). النساء: ۴۳.

(۳). البقرة: ۲۴۹.

(۴). التكاثر: ۳- ۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۸۶

الميسر؟ فنزلت، فقد قيل: إن المعنى اتَّقَوْا الشرك وَ آمَنُوا باللّه و رسوله ثُمَّ اتَّقَوْا الكبائر وَ آمَنُوا أى ازدادوا إيمانا ثُمَّ اتَّقَوْا الصغائر وَ أَحْسَنُوا أى تنفلوا. قال ابن جرير الطبرى:

الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر اللّه بالقبول و التصديق و الدينونة به و العمل، و الاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق، و الثالث الاتقاء بالإحسان و التقرّب بالنوافل، و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال: نزل فى الخمر ثلاث آيات، فأول شىء يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ «۱» الآية، فقيل: حرّمت الخمر، فقيل: يا رسول اللّه! دعنا ننتفع بها كما قال اللّه، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى «۲»، فقيل: حرّمت الخمر، فقالوا: يا رسول اللّه! لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ الآية فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «حرّمت الخمر». و أخرج أحمد عن أبى هريرة قال: حرّمت الخمر ثلاث مرات، و ذكر نحو حديث ابن عمر، فقال الناس: يا رسول اللّه ناس قتلوا فى سبيل اللّه و ماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر و يأكلون الميسر، و قد جعله اللّه رجسا من عمل الشيطان، فأنزل اللّه: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا الآية، و قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو حرّم عليهم لتركوه كما تركتم». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس فى ناسخه و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: فى نزل تحريم الخمر، صنع رجل من الأنصار طعاما فدعا ناسا فأتوه، فأكلوا و شربوا حتى انتشوا من الخمر، و ذلك قبل أن تحرم الخمر فتفاخروا، فقالت الأنصار: الأنصار خير من المهاجرين، و قالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحى جمل فضرب على أنفى، فأتيت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ الآية. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى عن ابن عباس قال: أنزل تحريم الخمر فى قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه و برأسه و لحيته، فيقول: صنع بى هذا أخى فلان و كانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن، و اللّه لو كان بى رؤوفا رحيما ما صنع بى هذا، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم، فأنزل اللّه هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ إلى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ فقال ناس من المتكلفين: هى رجس، و هى فى بطن فلان، قتل يوم بدر، و فلان قتل يوم أحد، فأنزل اللّه هذه الآية لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا الآية. و قد رويت فى سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد

ذكرناه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الميسر هو القمار كله. و أخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال: قلت لجابر: متى حرّمت الخمر؟ قال: بعد أحد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر فى سورة المائدة، بعد غزوة الأحزاب. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كلّ القمار من الميسر حتى لعب الصّبيان بالجوز و الكعاب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن علىّ بن أبى طالب قال: النرد و الشّطرنج من الميسر.

---

(١). البقرة: ٢١٩.

(٢). النساء: ٤٣.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٨٧

و أخرج عبد بن حميد عن علىّ قال: الشطرنج ميسر الأعاجم. و أخرج ابن أبى حاتم عن القاسم بن محمد أنه سئل عن النرد أ هى من الميسر؟ قال: كلّ ما ألهى عن ذكر اللّه و عن الصّلاة فهو ميسر. و أخرج عبد ابن حميد و ابن أبى الدنيا فى ذمّ الملاهى و البيهقى فى الشعب عنه أيضا أنه قيل له: هذه النرد تكرهونها، فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما ألهى عن ذكر اللّه و عن الصلاة فهو من الميسر. و أخرجوا أيضا عن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغنى عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النّردشير، و اللّه يقول فى كتابه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ إلى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ و إنى أحلف باللّه لا أوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته فى شعره و بشره، و أعطيت سلبه من أتانى به. و أخرج ابن أبى الدنيا عن مالك بن أنس قال: الشطرنج من النرد، بلغنا عن ابن عباس أنه ولى مال يتيم فأحرقها. و أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد اللّه بن عمير قال:

سئل ابن عمر عن الشطرنج؟ فقال هى شرّ من النرد. و أخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن عبيد قال:

رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن فى كل يوم اثنتى عشرة مرّة إلا أصحاب الشاة، يعنى أصحاب الشطرنج. و أخرج ابن أبى الدنيا عن أبى جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال: تلك المجوسية فلا تلعبوا بها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من لعب بالنردشير فقد عصى اللّه و رسوله». و أخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى مثل الذى يتوضّأ بالقيح و دم الخنزير ثم يقوم فيصلى». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا عن عبد اللّه بن عمر قال: اللاعب بالنرد قمارا كآكل لحم الخنزير، و اللاعب بها من غير قمار كالمدّهن بودك الخنزير. و أخرج ابن أبى الدنيا عن يحيى بن كثير قال: مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوم يلعبون بالنرد فقال: «قلوب لاهية، و أيدى عليلة، و ألسنة لاغية». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن قتادة قال: الميسر القمار. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طريق ليث عن عطاء و طاوس و مجاهد قالوا: كلّ شىء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز و الكعاب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عن ابن سيرين قال:

القمار من الميسر. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ عنه قال: ما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صياح أو شرّ فهو من الميسر. و أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن شريح أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ثلاث من الميسر:

الصّفير بالحمام، و القمار، و الضرب بالكعاب». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: حجارة كانوا يذبحون لها، و الأزلام قداح كانوا يستقسمون بها الأمور. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال:

كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد فى الأزلام قال: هى كعاب

فارس التى يقتمرون بها، و سهام العرب. و قد وردت أحاديث كثيرة فى ذمّ الخمر و شاربها و الوعيد الشديد عليه و أن كل مسكر حرام و هى مدوّنة فى كتب الحديث فلا نطوّل المقام بذكرها فلسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلّق بالتفسير.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۸۸

[سورة المائدة (۵): الآيات ۹۴ الى ۹۹]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (۹۴) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۹۹)

قوله: لَيَبْلُوَنَّكُمُ أى ليختبرنكم، و اللام جواب قسم محذوف، كان الصيد أحد معايش العرب فابتلاهم اللّه بتحريمه مع الإحرام و فى الحرم، كما ابتلى بنى إسرائيل أن لا يعتدوا فى السبت، و كان نزول الآية فى عام الحديبية، أحرم بعضهم و بعضهم لم يحرم، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم.

و قد اختلف العلماء فى المخاطبين بهذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون؟ فذهب إلى الأوّل مالك و إلى الثانى ابن عباس، و الراجح أن الخطاب للجميع، و لا وجه لقصره على البعض دون البعض، و مِنَ فى مِنَ الصَّيْدِ للتبعيض و هو صيد البر، قاله ابن جرير الطبرى و غيره؛ و قيل: إن مِنَ بيانية: أى شيء حقير من الصيد، و تنكير شيء للتحقير. قوله: تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ قرأ ابن وثاب يناله بالياء التحتية، هذه الجملة تقتضى تعميم الصيد، و أنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد و هو ما لا يطيق الفرار كالصغار و البيض، و بين ما تناله الرماح: و هو ما يطيق الفرار، و خصّ الأيدى بالذكر: لأنها أكثر ما يتصرّف به الصائد فى أخذ الصيد، و خصّ الرماح بالذكر لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب. قوله: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ أى ليتميّز عند اللّه من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروى فإنه غائب عنكم غير حاضر فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ أى بعد هذا البيان الذى امتحنكم اللّه به، لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة للّه سبحانه و تجرئة عليه. قوله: لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ نهاهم عن قتل الصيد فى حال الإحرام، و فى معناه: غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ «۱» و هذا النهى شامل لكل أحد من ذكور المسلمين و إناثهم، لأنه يقال: رجل حرام و امرأة حرام و الجمع حرم، و أحرم الرجل: دخل فى الحرم. قوله: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً المتعمد: هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، و المخطئ: هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا، و الناسى: هو الذى يتعمّد الصيد و لا يذكر إحرامه. و قد استدل ابن عباس و أحمد فى رواية و داود عنه باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره، بل لا تجب إلا عليه وحده. و به قال سعيد بن جبير و طاوس و أبو ثور. و قيل: إنها تلزم الكفارة المخطئ و الناسى كما تلزم المتعمد، و جعلوا قيد التعمد خارجا مخرج الغالب، روى عن عمر و الحسن و النخعى و الزهرى، و به قال مالك و الشافعى و أبو حنيفة و أصحابهم، و روى عن ابن عباس. و قيل: إنه يجب التكفير على العامد الناسى لإحرامه، و به قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكرا لإحرامه

---

(۱). المائدة: ۱.

فقد حلّ و لا حج له لارتكابه محظور إحرامه، فبطل عليه كما لو تكلم فى الصلاة أو أحدث فيها. قوله: فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ أى فعليه جزاء مماثل لما قتله، و من النعم بيان للجزاء المماثل. قيل: المراد المماثلة فى القيمة، و قيل: فى الخلقة. و قد ذهب إلى الأوّل أبو حنيفة، و ذهب إلى الثانى مالك و الشافعى و أحمد و الجمهور، و هو الحق لأن البيان للماثل بالنعم يفيد ذلك، و كذلك يفيده هديا بالغ الكعبة. و روى عن أبى حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة و لو وجد المثل، و أن المحرم مخير. و قرئ: فجزاؤه مثل ما قتل و قرئ:
فَجَزاءُ مِثْلُ على إضافة جزاء إلى مثل، و قرئ بنصبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل، و قرأ الحسن النَّعْم بسكون العين تخفيفا يَحْكُمُ بِهِ أى بالجزاء أو بمثل ما قتل ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أى رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين، فإذا حكما بشىء لزم، و إن اختلفا رجع إلى غيرهما، و لا يجوز أن يكون الجانى أحد الحكمين؛ و قيل: يجوز، و بالأوّل قال أبو حنيفة، و بالثانى قال الشافعى فى أحد قوليه:
و ظاهر الآية يقتضى حكمين غير الجانى. قوله: هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ نصب هديا على الحال أو البدل من مثل، و بالِغَ الْكَعْبَةِ صفة لهديا، لأن الإضافة غير حقيقية، و المعنى أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة و النحر هنالك، و الإشعار و التقليد، و لم يرد الكعبة بعينها فإن الهدى لا يبلغها، و إنما أراد الحرم، و لا خلاف فى هذا. قوله: أَوْ كَفَّارَةٌ معطوف على محل من النعم: و هو الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف، و طَعامُ مَساكِينَ عطف بيان لكفارة أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف أَوْ عَدْلُ ذلِكَ معطوف على طعام؛ و قيل: هو معطوف على جزاء، و فيه ضعف، فالجانى مخير بين هذه الأنواع المذكورة، و عدل الشىء ما عادله من غير جنسه، و صِياماً منصوب على التمييز، و قد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام و الصيام، و قد ذهب إلى أنّ الجانى يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء. و روى عن ابن عباس أنه لا يجزئ المحرم الإطعام و الصوم إلا إذا لم يجد الهدى، و العدل بفتح العين و كسرها لغتان و هما الميل قاله الكسائى. و قال الفراء: عدل الشىء بكسر العين مثله من جنسه، و بفتح العين مثله من غير جنسه، و بمثل قول الكسائى قال البصريون. قوله: لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عليه لإيجاب الجزاء:
أى أوجبنا ذلك عليه ليذوق وبال أمره، و الذوق مستعار لإدراك المشقة، و مثله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «۱» و الوبال: سوء العاقبة، و المرعى الوبيل: الذى يتأذى به بعد أكله، و طعام وبيل: إذا كان ثقيلا.
قوله: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ يعنى فى جاهليتكم من قتلكم للصيد، و قيل: عما سلف قبل نزول الكفارة وَ مَنْ عادَ إلى ما نهيتم عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ خبر مبتدأ محذوف؛ أى فهو ينتقم اللّه منه. قيل المعنى: إن اللّه ينتقم منه فى الآخرة فيعذبه بذنبه، و قيل: ينتقم منه بالكفارة. قال شريح و سعيد بن جبير: يحكم عليه فى أوّل مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له: اذهب ينتقم اللّه منك:
أى ذنبك أعظم من أن يكفر. قوله: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ الخطاب لكلّ مسلم أو للمحرمين خاصة، و صيد البحر ما يصاد فيه؛ و المراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحرىّ و إن كان نهرا أو غديرا. قوله:
وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ الطعام لكلّ ما يطعم، و قد تقدّم. و قد اختلف فى المراد به هنا فقيل:

---

(۱). الدخان: ۴۹.

هو ما قذف به البحر و طفا عليه، و به قال كثير من الصحابة و التابعين؛ و قيل: طعامه ما ملح منه و بقى، و به قال جماعة، و روى عن ابن عباس؛ و قيل: طعامه ملحه الذى ينعقد من مائه و سائر ما فيه من نبات و غيره، و به قال قوم؛ و قيل: المراد به ما يطعم من الصيد: أى ما يحل أكله و هو السمك فقط، و به قالت الحنفية.

و المعنى: أحلّ لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر، و أحلّ لكم المأكول منه و هو السمك، فيكون التخصيص بعد التعميم، و هو تكلف لا وجه له، و نصب مَتاعاً على أنه مصدر: أى متعتم به متاعا؛ و قيل: مفعول له مختص بالطعام: أى أحلّ لكم طعام البحر متاعا، و هو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولا له كان من الجميع: أى أحلّ لكم مصيد البحر و طعامه تمتيعا لكم: أى لمن كان مقيما منكم يأكله طريا وَ لِلسَّيَّارَةِ أى المسافرين منكم يتزوّدونه و يجعلونه قديدا، و قيل السيارة: هم الذين يركبونه خاصة.

قوله: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً أى حرّم عليكم ما يصاد فى البر ما دمتم محرمين، و ظاهره تحريم صيده على المحرم و لو كان الصائد حلالا، و إليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، و هو القول الراجح، و به يجمع بين الأحاديث؛ و قيل: إنه يحلّ له مطلقا، و إليه ذهب جماعة:

و قيل: يحرم عليه مطلقا، و إليه ذهب آخرون، و قد بسطنا هذا فى شرحنا للمنتقى. قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى اتقوا اللّه فيما نهاكم عنه الذى إليه تحشرون لا إلى غيره، و فيه تشديد و مبالغة فى التحذير. و قرئ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ بالبناء للفاعل و قرئ ما دُمْتُمْ بكسر الدال. قوله:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ جعل هنا بمعنى خلق، و سميت الكعبة كعبة لأنها مربعة و التكعيب التربيع و أكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة؛ و قيل: سميت كعبة لنتوئها و بروزها، و كل بارز كعب مستديرا كان أو غير مستدير، و منه كعب القدم، و كعوب القنا، و كعب ثدى المرأة، و الْبَيْتَ الْحَرامَ عطف بيان و قيل: مفعول ثان و لا وجه له، و سمى بيتا لأن له سقوفا و جدرا و هى حقيقة البيت و إن لم يكن به ساكن، و سمى حراما لتحريم اللّه سبحانه إياه. و قوله: قِياماً لِلنَّاسِ كذا قرأ الجمهور، و قرأ ابن عامر قيما و هو منصوب على أنه المفعول الثانى إن كان جعل هو المتعدى إلى مفعولين، و إن كان بمعنى خلق كما تقدّم فهو منتصب على الحال، و معنى كونه قياما: أنه مدار لمعاشهم و دينهم: أى يقومون فيه بما يصلح دينهم و دنياهم: يأمن فيه خائفهم، و ينصر فيه ضعيفهم، و يربح فيه تجارهم، و يتعبد فيه متعبدهم.

قوله: وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ عطف على الكعبة، و هو ذو الحجة، و خصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج، و قيل: هو اسم جنس. و المراد به الأشهر الحرم: ذو القعدة، و ذو الحجة، و محرّم، و رجب، فإنهم كانوا لا يطلبون فيها دما، و لا يقاتلون بها عدوا، و لا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياما للناس وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ أى و جعل اللّه الهدى و القلائد قياما للناس. و المراد بالقلائد: ذوات القلائد من الهدى، و لا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها، و الإشارة بذلك إلى الجعل: أى ذلك الجعل لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ أى لتعلموا أن اللّه يعلم تفاصيل أمر السموات و الأرض و يعلم مصالحكم الدينية و الدنيوية فإنها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم، و دفع لما يضرّكم

فتح القدير، ج‏2، ص: 91

وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هذا تعميم بعد التخصيص، ثم أمرهم بأن يعلموا بأن اللّه لمن انتهك محارمه و لم يتب عن ذلك شديد العقاب، و أنه لمن تاب و أناب غفور رحيم، ثم أخبرهم أن ما على رسوله إلا البلاغ لهم، فإن لم يمتثلوا و يطيعوا فما ضرّوا إلا أنفسهم و ما جنوا إلا عليها، و أما الرسول عليه الصلاة و السلام فقد فعل ما يجب عليه، و قام بما أمره اللّه به.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً قال: إن

قتله متعمدا أو ناسيا أو خطأ حكم عليه، فإن عاد متعمّدا عجلت له العقوبة إلا أن يعفو اللّه عنه، و فى قوله: فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ قال: إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أيلا و نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينا، فإن لم يجد صام عشرين يوما، و إن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا، فإن لم يجد صام ثلاثين يوما، و الطعام مدّ مدّ يشبعهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن الحكم أن عمر كتب أن يحكم عليه فى الخطأ و العمد. و أخرجا نحوه عن عطاء. و قد روى نحو هذا عن جماعات من السلف من غير فرق بين العامد و الخاطئ و الناسى، و روى عن آخرين اختصاص ذلك بالعامد.

و للسلف فى تقدير الجزاء المماثل و تقدير القيمة أقوال مبسوطة فى مواطنها. و أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى بيضة النعام: «صيام يوم أو إطعام مسكين». و أخرج ابن أبى شيبة عن عبد اللّه ابن ذكوان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مثله. و أخرج أيضا عن عائشة عنه صلّى اللّه عليه و سلّم نحوه. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه من طريق أبى المهزّم عن أبى هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «فى بيض النعام ثمنه». و قد استثنى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من حيوانات الحرم الخمس الفواسق كما ورد ذلك فى الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها و لا شىء عليه. و أخرج ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ ما لفظه ميتا فهو طعامه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة موقوفا مثله. و أخرج أبو الشيخ عن أبى بكر الصدّيق نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصدّيق قال فى قوله: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا، و طعامه ما لاثه البحر، و فى لفظ «طعامه كل ما فيه». و فى لفظ «طعامه ميتته». و يؤيد هذا ما فى الصحيحين من حديث العنبر التى ألقاها البحر فأكل الصحابة منها و قرّرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على ذلك، و حديث هو «الطهور ماؤه و الحلّ ميتته». و حديث «أحلّ لكم ميتتان و دمان». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ قال: قياما لدينهم و معالم حججهم.

و أخرج ابن جرير عنه قال: قيامها أن يأمن من توجه إليها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب قال: جعل اللّه الكعبة البيت الحرام و الشهر الحرام قياما للناس يأمنون به فى الجاهلية الأولى، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو فى الحرم أو فى الشهر الحرام. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو

الشيخ عن قتادة فى قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ قال: حواجز أبقاها اللّه بين الناس فى الجاهلية، فكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول و لم يقرب، و كان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام لم يعرض له و لم يقربه، و كان الرجل لو لقى الهدى مقلدا و هو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له و لم يقربه، و كان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فحمته و منعته من الناس، و كان إذا نفر تقلد قلادة من الإذخر أو من السمر، فتمنعه من الناس حتى يأتى أهله، حواجز أبقاها اللّه بين الناس فى الجاهلية. و أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قِياماً لِلنَّاسِ قال: أمنا.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۴]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكَمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكَمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (١٠٢) ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حام وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

قيل: المراد بالخبيث و الطيب: الحرام و الحلال، و قيل: المؤمن و الكافر، و قيل: العاصى و المطيع، و قيل: الردىء و الجيد. و الأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات و غيرها مما يتصف بوصف الخبث و الطيب من الأشخاص و الأعمال و الأقوال، فالخبيث لا يساوى الطيب بحال من الأحوال. قوله:

وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ قيل الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا. و المراد نفى الاستواء فى كل الأحوال، و لو فى حال كون الخبيث معجبا للرائى للكثرة التى فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبيث فى حكم العدم، لأن خبث الشيء يبطل فائدته، و يمحق بركته، و يذهب بمنفعته، و الواو إما للحال أو للعطف على مقدّر: أى لا يستوى الخبيث و الطيب لو لم تعجبك كثرة الخبيث، و لو أعجبك كثرة الخبيث، كقولك: أحسن إلى فلان و إن أساء إليك: أى أحسن إليه إن لم يسىء إليك و إن أساء إليك، و جواب لو محذوف: أى و لو أعجبك كثرة الخبيث فلا يستويان. قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ أى لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها و لا هى مما يعنيكم فى أمر دينكم، فقوله: إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ فى محل جر صفة لأشياء أى لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم: أى ظهرت و كلفتم بها، ساءتكم، نهاهم اللّه عن كثرة مساءلتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن السؤال عما لا يعنى و لا تدعو إليه حاجة قد يكون سببا لإيجابه على السائل و على غيره. قوله: وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ هذه الجملة من جملة صفة أشياء. و المعنى: لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، و ذلك مع وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين أظهركم و نزول الوحى عليه

فتح القدير، ج ٢، ص: ٩٣

تُبْدَ لَكُمْ أى تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو ينزل به الوحى فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة و إيجاب ما لم يكن واجبا و تحريم ما لم يكن محرّما، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحى بموت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإنه لا إيجاب و لا تحريم يتسبب عن السؤال.

و قد ظنّ بعض أهل التفسير أن إن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزول الوحى عليه، فقال: إن الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال، و الثانية أفادت جوازه، فقال: إن المعنى:

و إن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة تبد لكم بجواب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عنها، و جعل الضمير فى عَنْها راجعا إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، و جعل ذلك كقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ «١» و هو آدم، ثم قال: ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً «٢» أى ابن آدم. قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْها أى عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك. و قيل المعنى: إن تلك الأشياء التى سألتم عنها هى مما عفا عنه و لم يوجبه عليكم، فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من اللّه غير لازم؟ و ضمير عَنْها عائد إلى المسألة الأولى، و إلى أشياء على الثانى على أن تكون جملة عَفَا اللَّهُ عَنْها صفة ثالثة لأشياء، و الأوّل أولى، لأن الثانى يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه اللّه ثم عفا عنه، و يمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك: أى تركها اللّه و لم يذكرها بشىء فلا تبحثوا عنها، و هذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة فى كونه غفورا حليما ليدلّ بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته و سعة حلمه.

قوله: قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ الضمير يرجع إلى المسألة المفهومة من لا تَسْئَلُوا لكن ليست هذه المسألة بعينها، بل مثلها فى كونها مما لا حاجة إليه و لا توجبه الضرورة الدينية، ثم لم يعملوا بها، بل أصبحوا بها كافرين: أى ساترين لها تاركين للعمل بها، و ذلك كسؤال قوم صالح الناقة، و أصحاب عيسى المائدة، و لا بد من تقييد النهى فى هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا، لأن الأمر الذى تدعو الحاجة إليه فى أمور الدين و الدنيا قد أذن اللّه بالسؤال عنه فقال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ* «٣» و قال صلّى اللّه عليه و سلّم: «قاتلهم اللّه ألا سألوا، فإنّما شفاء العىّ السّؤال». قوله: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ هذا كلام مبتدأ يتضمن الردّ على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه، و جعل هاهنا بمعنى سمى كما قال:

إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا. و البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة كالنّطيحة و الذّبيحة، و هى مأخوذة من البحر، و هو شقّ الأذن. قال ابن سيده: البحيرة هى التى خليت بلا راع؛ قيل: هى التى يجعل درّها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس، و جعل شق أذنها علامة لذلك. و قال الشافعى: كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرّمت؛ و قيل: إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذكرا بحروا أذنه فأكله الرجال و النساء، و إن كان الخامس أنثى بحروا أذنها و كانت حراما على النساء لحمها و لبنها؛ و قيل: إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أذنها و حرّموا ركوبها و درّها. و السائبة: الناقة تسيب، أو البعير يسيب بنذر يكون على الرجل إن سلمه اللّه من مرض أو بلغه منزلة، فلا يحبس عن رعى و لا ماء، و لا يركبه أحد قاله أبو عبيد. قال الشاعر:

---

(١). المؤمنون: ١٢.

(٢). المؤمنون: ١٣.

(٣). النحل: ٤٣.

و سائبة للّه تنمى تشكّرا إن اللّه عافى عامرا أو مجاشعا

و قيل هى التى تسيّب للّه فلا قيد عليها و لا راعى لها، و منه قول الشاعر:

عقرتم ناقة كانت لربّى مسيّبة فقوموا للعقاب

و قيل: هذه التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذكر، فعند ذلك لا يركب ظهرها، و لا يجزّ و برها و لا يشرب لبنها إلا ضيف؛ و قيل: كانوا يسيبون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد. و الوصيلة:

قيل: هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى؛ و قيل: هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم، و إن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، و إن ولدت ذكرا و أنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم؛ و قيل: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا؛ فإن كان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال و النساء، و إن كانت أنثى تركت فى الغنم، و إن كان ذكرا و أنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها، و كان لحمها حراما على النساء، إلا أن يموت فيأكلها الرجال و النساء. و الحام: الفحل الحامى ظهره عن أن يركب، و كانوا إذا ركب ولد ولد الفحل قالوا: حمى ظهره فلا يركب، قال الشاعر:

حماها أبو قابوس فى عزّ ملكه كما قد حمى أولاد أولاده الفحل

و قيل: هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة، قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلأ و لا ماء، ثم وصفهم اللّه سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على اللّه و كذبا، لا لشرع شرعه اللّه لهم و لا لعقل دلهم عليه، و سبحان اللّه العظيم ما أركّ عقول هؤلاء و أضعفها، يفعلون هذه الأفاعيل التى هى محض الرقاعة و نفس الحمق وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا و هذه أفعال آبائهم و سننهم التى سنوها لهم، و صدق اللّه سبحانه حيث يقول: أَ وَ لَوْ كانَ

آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ أى و لو كانوا جهلة ضالّين، و الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام؛ و قيل: للعطف على جملة مقدّرة: أى أحسبهم ذلك و لو كان آباؤهم. و قد تقدّم الكلام على مثل هذه الآية فى البقرة. و قد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة و عصاهم التى يتوكؤون عليها إن دعاهم داعى الحقّ و صرخ لهم صارخ الكتاب و السنة فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم فى التعبد بشرع اللّه مع مخالفة قوله لكتاب اللّه أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء، و ليس الفرق إلا فى مجرّد العبارة اللفظية، لا فى المعنى الذى عليه تدور الإفادة و الاستفادة، اللهمّ غفرا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية: قال الخبيث: هم المشركون، و الطيب: هم المؤمنون. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أنس قال: خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال رجل: من أبى؟ فقال: فلان، فنزلت هذه الآية لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ. و أخرج البخارى و غيره نحوه من حديث ابن عباس. و قد بين هذا السائل فى روايات أخر أنه عبد اللّه بن حذافة و أنه قال: من أبى؟ قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أبوك حذافة». و أخرج ابن حبّان عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

خطب فقال: «يا أيها الناس إن اللّه قد افترض عليكم الحجّ، فقام رجل، فقال: أكل عام يا رسول اللّه؟

فسكت عنه، فأعادها ثلاث مرات، فقال: لو قلت نعم لوجبت، و لو وجبت ما قمتم بها، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، و إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم» و ذلك أن هذه الآية: أعنى لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ نزلت فى ذلك. و قد أخرج عنه نحو هذا ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أبى أمامة الباهلى نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى مسعود نحوه أيضا. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الدارقطنى و الحاكم و ابن مردويه عن علىّ نحوه، و كل هؤلاء صرحوا فى أحاديثهم أن الآية نزلت فى ذلك. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال: كانوا يسألون عن الشىء و هو لهم حلال، فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم، و إذا حرّم عليهم وقعوا فيه. و أخرج ابن المنذر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرّم فيحرم من أجل مسألته». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن أبى ثعلبة الخشنى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه حدّ حدودا فلا تعتدوها، و فرض لكم فرائض فلا تضيّعوها، و حرّم أشياء فلا تنتهكوها، و ترك أشياء فى غير نسيان و لكن رحمة لكم فاقبلوها و لا تبحثوا عنها». و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله:

لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ قال: البحيرة و السّائبة و الوصيلة و الحاكم. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة: التى يمنع درّها للطواغيت و لا يحلبها أحد من الناس؛ و السائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شىء؛ و الوصيلة: الناقة البكر تبكر فى أوّل نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى.

و كانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر؛ و الحامى فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه و دعوه للطواغيت و أعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء و سموه الحامى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: البحيرة:

الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكرا و نحوه فأكله الرجال دون النساء، و إن كانت أنثى جدعوا آذانها فقالوا: هذه بحيرة؛ و أما السائبة: فكانوا يسيبون من أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهرا، و لا يحلبون لها لبنا، و لا يجزون لها و

براء و لا- يحملون عليها شيئا؛ و أما الوصيلة: فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكرا أو أنثى و هو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، و إن كانت أنثى استحيوها، و إن كان ذكرا أو أنثى فى بطن استحيوهما و قالوا: وصلته أخته فحرّمته علينا.

و أما الحام: فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا: حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا، و لا يجزّون له وبرا، و لا يمنعونه من حمى و لا- من حوض يشرب منه، و إن كان الحوض لغير صاحبه. و أخرج نحوه عنه ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من طريق العوفىّ.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٩٦

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

أى الزموا أنفسكم أو احفظوها، كما تقول: عليك زيدا: أى الزمه، قرئ: لا يَضُرُّكُمْ بالجزم على أنه جواب الأمر الذى يدلّ عليه اسم الفعل. و قرأ نافع و غيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر:

فقال رائدهم أرسوا نزاولها أو على أنّ ضمّ الراء للاتباع، و قرئ: لا يَضُرُّكُمْ بكسر الضاد، و قرئ: «لا يضيركم» و المعنى:

لا يضرّكم ضلال من ضلّ من الناس إذا اهتديتم للحقّ أنتم فى أنفسكم، و ليس فى الآية ما يدلّ على سقوط الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد، و قد قال اللّه سبحانه: إِذَا اهْتَدَيْتُمْ و قد دلّت الآيات القرآنية، و الأحاديث المتكاثرة، على وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر وجوبا مضيقا متحتما، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، أو لا يظنّ التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحلّ به ما يضرّه ضررا يسوغ له معه الترك إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و أبو داود، و الترمذى و صحّحه، و النسائى و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبّان و الدار قطنى و الضياء فى المختارة و غيرهم، عن قيس بن أبى حازم قال: قام أبو بكر فحمد اللّه و أثنى عليه و قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ و إنكم تضعونها على غير مواضعها، و إنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر و لم يغيّروه أوشك أن يعمّهم اللّه بعقاب». و فى لفظ لابن جرير عنه «و اللّه لتأمرنّ بالمعروف و لتنهونّ عن المنكر أو ليعمّنّكم اللّه منه بعقاب». و أخرج الترمذى و صحّحه، و ابن ماجة و ابن جرير، و البغوى فى معجمه، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن أبى أمية الشّعبانى قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ قال: أما و اللّه لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحّا مطاعا، و هوى متّبعا، و دنيا مؤثرة، و إعجاب كلّ ذى رأى برأيه، فعليك بخاصّة نفسك، ودع عنك أمر العوامّ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم» و فى لفظ: «قيل يا رسول اللّه أجر خمسين رجلا- منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم». و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن عامر الأشعرى أنه كان فيهم أعمى، فاحتبس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول اللّه

قرأت هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكَمْ أَنْفُسَكَمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۹۷

فقال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أين ذهبتم؟ إنما هى لا يضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم». و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ عن الحسن: أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال: يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة، و لكنه قد أوشك أن يأتى زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا و كذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد عنه فى الآية قال:

«مروا بالمعروف و انهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط و السيف، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم». و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عمر أنه قال فى هذه الآية: إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن رجل قال: كنت فى خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة فى حلقة فيهم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبىّ بن كعب، فقرأ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال: إنما تأويلها فى آخر الزمان. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن أبى مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فقال أكثرهم: لم يجىء تأويل هذه الآية اليوم. و أخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إنى لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فقلت: أليس اللّه يقول:

عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ فأقبلوا علىّ بلسان واحد فقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها و لا تدرى ما تأويلها؟ حتى تمنيت أنى لم أكن تكلمت، ثم أقبلوا يتحدّثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السّن، و إنك نزعت آية لا تدرى ما هى؟ و عسى أن تدرك ذلك الزمان «إذا رأيت شحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك لا يضرّك من ضلّ إذا اهتديت». و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بنحو حديث أبى ثعلبة الخشنى المتقدّم، و فى آخره «كأجر خمسين رجلا منكم» و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: ذكرت هذه الآية عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «لم يجىء تأويلها، لا يجىء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام» و الروايات فى هذا الباب كثيرة، و فيما ذكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قدّمناه من الجمع بين هذه الآية و بين الآيات و الأحاديث الواردة فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۸]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۱۰۸)

فتح القدير، ج۲، ص: ۹۸

قال مكىّ: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعانى من أشكل ما فى القرآن إعرابا و معنى و حكما. قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له الثلج فى تفسيرها، و ذلك بيّن من كتابه رحمه اللّه: يعنى من كتاب مكى.

قال القرطبی: ما ذکره مکی ذکره أبو جعفر النحاس قبله أیضا. قال السعد فی حاشیته علی الکشاف: و اتفقوا علی أنها أصعب ما فی القرآن إعرابا و نظما و حکما. قوله: شَهادَةُ بَیْنِکُمْ أضاف الشهادة إلی البین توسعا لأنها جاریة بینهم؛ و قیل: أصله شهادة ما بینکم فحذفت ما و أضیفت إلی الظرف کقوله تعالی: بَلْ مَکْرُ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ «۱» و منه قول الشاعر:

تصافح من لاقیت لی ذا عداوةصفاحا و عنّی بین عینیک منزوی

أراد ما بین عینیک، و مثله قول الآخر:

و یوما شهدناه سلیما و عامرا «۲» .....

أی شهدنا فیه، و منه قوله تعالی: هذا فِراقُ بَیْنِی وَ بَیْنِکَ «۳» قیل: و الشهادة هنا بمعنی الوصیة؛ و قیل:

بمعنی الحضور للوصیة. و قال ابن جریر الطبری: هی هنا بمعنی الیمین، فیکون المعنی: یمین ما بینکم أن یحلف اثنان. و استدلّ علی ما قاله بأنه لا یعلم للّه حکما یجب فیه علی الشاهد یمین. و اختار هذا القول القفال، و ضعف ذلک ابن عطیة و اختار أنّ الشهادة هنا هی الشهادة التی تؤدّی من الشهود. قوله: إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ ظرف للشهادة، و المراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا یمکنه الإشهاد، و تقدیم المفعول للاهتمام و لکمال تمکن الفاعل عند النفس. و قوله: حِینَ الْوَصِیَّةِ ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأوّل. و قوله: اثْنانِ خبر شهادة علی تقدیر محذوف: أی شهادة اثنین أو فاعل للشهادة علی أن خبرها محذوف: أی فیما فرض علیکم شهادة بینکم اثنان علی تقدیر أن یشهد اثنان، ذکر الوجهین أبو علیّ الفارسی. قوله: ذَوا عَدْلٍ مِنْکُمْ صفة للاثنان و کذا منکم: أی کائنان منکم: أی من أقاربکم أَوْ آخَرانِ معطوف علی اثْنانِ و مِنْ غَیْرِکُمْ صفة له: أی کائنان من الأجانب؛ و قیل:

إن الضمیر فی مِنْکُمْ للمسلمین، و فی غَیْرِکُمْ للکفار و هو الأنسب لسیاق الآیة، و به قال أبو موسی الأشعری و عبد اللّه بن عباس و غیرهما، فیکون فی الآیة دلیل علی جواز شهادة أهل الذمة علی المسلمین فی السفر فی خصوص الوصایا کما یفیده النظم القرآنی، و یشهد له السبب للنزول و سیأتی؛ فإذا لم یکن مع الموصی من یشهد علی وصیته من المسلمین فلیشهد رجلان من أهل الکفر، فإذا قدما و أدّیا الشهادة علی وصیته حلفا بعد الصلاة أنهما ما کذبا و لا بدّلا، و أن ما شهدا به حق، فیحکم حینئذ بشهادتهما فَإِنْ عُثِرَ بعد ذلک عَلی أَنَّهُمَا کذبا أو خانا حلف رجلان من أولیاء الموصی، و غرم الشاهدان الکافران ما ظهر علیهما من خیانة أو نحوها، هذا معنی الآیة عند من تقدم ذکره، و به قال سعید بن المسیب و یحیی بن یعمر و سعید

---

(۱). سبأ: ۳۳.

(۲). و عجزه: قلیل سوی الطعن النهال نوافله. و البیت لرجل من بنی عامر. و سلّم و عامر: قبیلتان من قیس عیلان.

(۳). الکهف: ۷۸.

ابن جبیر و أبو مجلز و النّخعی و شریح و عبیدة السّلمانی و ابن سیرین و مجاهد و قتادة و السدّی و الثوری و أبو عبید و أحمد بن حنبل. و ذهب إلی الأول: أعنی تفسیر ضمیر مِنْکُمْ بالقرابة أو العشیرة، و تفسیر مِنْ غَیْرِکُمْ بالأجانب الزهری و الحسن و عکرمة. و ذهب مالک و الشافعی و أبو حنیفة و غیرهم من الفقهاء أن الآیة منسوخة، و احتجوا بقوله: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ «۱». و قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَیْ عَدْلٍ مِنْکُمْ و الکفار لیسوا بمرضیین و لا عدول، و خالفهم الجمهور فقالوا: الآیة محکمة، و هو الحق لعدم وجود دلیل صحیح یدل علی النّسخ. و أما قوله تعالی: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ و قوله: وَ أَشْهِدُوا ذَوَیْ عَدْلٍ مِنْکُمْ «۲» فهما عامان فی الأشخاص و الأزمان و الأحوال، و هذه الآیة خاصة بحالة الضرب فی الأرض و بالوصیة و بحالة عدم الشهود

المسلمين، و لا تعارض بين عامّ و خاص. قوله: إِنْ أَنْتُمْ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ و ما بعده خبره، و الأوّل مذهب الجمهور من النحاة، و الثانى مذهب الأخفش و الكوفيين. و الضرب فى الأرض هو السفر. و قوله: فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ معطوف على ما قبله و جوابه محذوف؛ أى إن ضربتم فى الأرض فنزل بكم الموت و أردتم الوصية و لم تجدوا شهودا عليها مسلمين، ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم و بما تركتم فارتابوا فى أمرهما و ادّعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما، و يجوز أن يكون استئنافا لجواب سؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا فى الشهادة؟ فقال: تحبسونهما من بعد الصّلاة إن ارتبتم فى شهادتهما. و خص بعد الصلاة: أى صلاة العصر، قاله الأكثر لكونه الوقت الذى يغضب اللّه على من حلف فيه فاجرا كما فى الحديث الصحيح؛ و قيل: لكونه وقت اجتماع الناس و قعود الحكام للحكومة؛ و قيل: صلاة الظهر؛ و قيل: أىّ صلاة كانت. قال أبو علىّ الفارسى: تَحْبِسُونَهُما صفة لآخران، و اعترض بين الصفة و الموصوف بقوله: إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ و المراد بالحبس:

توقيف الشاهدين فى ذلك الوقت لتحليفهما، و فيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، و على جواز التغليظ على الحالف بالزمان و المكان و نحوهما. قوله: فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ معطوف على تَحْبِسُونَهُما أى يقسم باللّه الشاهدان على الوصية أو الوصيان.

و قد استدلّ بذلك ابن أبى ليلى على تحليف الشاهدين مطلقا إذا حصلت الريبة فى شهادتهما، و فيه نظر لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها. قوله: إِنِ ارْتَبْتُمْ جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم كما سبق. قوله: لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً جواب القسم، و الضمير فى بِهِ راجع إلى اللّه تعالى. و المعنى: لا نبيع حظّنا من اللّه تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذى ادّعيتموه علينا؛ و قيل: يعود إلى القسم: أى لا نستبدل بصحة القسم باللّه عرضا من أعراض الدنيا؛ و قيل: يعود إلى الشهادة، و إنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول: أى لا نستبدل بشهادتنا ثمنا. قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و هذا مبنىّ على أن العروض لا تسمى ثمنا، و عند الأكثر أنها تسمى ثمنا كما تسمى مبيعا. قوله: وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى أى و لو كان المقسم له أو المشهود له قريبا فإنا نؤثر الحق و الصدق، و لا نؤثر العرض الدنيوى و لا القرابة، و جواب لو محذوف لدلالة

---

(١). البقرة: ٢٨٢.

(٢). الطلاق: ٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٠٠

فتح القدير ج٢ ١٤٩

ما قبله عليه: أى و لو كان ذا قربى لا نشترى به ثمنا. قوله: وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ معطوف على لا نَشْتَرِي داخل معه فى حكم القسم، و أضاف الشهادة إلى اللّه سبحانه لكونه الآمر بإقامتها و الناهى عن كتمها. قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً عثر على كذا: اطلع عليه، يقال: عثرت منه على خيانة:

أى اطلعت و أعثرت غيرى عليه، و منه قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ «١» و أصل العثور الوقوع و السقوط على الشىء، و منه قول الأعشى:

بذات لوث «٢» عفرناة إذا عثرتفالتّعس أدنى لها من أن أقول لعا

و المعنى: أنه إذا اطلع بعد التحليف على أنّ الشّاهدين أو الوصيين استحقّا إثما: أى استوجبا إثما إما بكذب الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة. قال أبو على الفارسى: الإثم هنا اسم الشىء المأخوذ، لأن آخذه يأثم خذه، فسمى إثما كما سمى ما يؤخذ بغير حق

مظلمـة. و قال سـيبويه: المظلمـة اسم ما أخذ منک فكذلک سـمى هذا المأخوذ باسم المصدر. قوله: فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما أى فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما اسـتحقا إثما فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، و ليس المراد أنهما يقومان مقامهما فى أداء الشـهادة التى شـهدها المسـتحقان للإثم. قوله: مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ استحق مبنىّ للمفعول، فى قراءة الجمهور: و قرأ على و أبىّ و ابن عبـاس و حفص على البنـاء للفاعل، و الْأَوْلَيانِ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتـدأ محـذوف: أى هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل: هما الأوليان؛ و قيل: هو بـدل من الضـمير فى يقومان أو من آخران. و قرأ يحيى بن وثاب و الأعمش و حمزة الأولين:

جمع أول على أنه بـدل من الـذين، أو من الهـاء و الميم فى عليهم. و قرأ الحسن الأولا-ن. و المعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين اسـتحق عليهم الإثم: أى جنى عليهم، و هم أهل الميت و عشـيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان تثنية أولى. و المعنى على قراءة البنـاء للفاعـل: من الـذين استحق عليهم الأوليـان من بينهم بالشـهادة أن يجردوهمـا للقيام بالشـهادة و يظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت، فالأوليان فاعل اسـتحق و مفعوله أن يجردوهما للقيام بالشـهادة؛ و قيل: المفعول محـذوف، و التقـدير: من الذين اسـتحق عليهم الأوليان بالميت وصـيته التى أوصـى بها. قوله: فَيُقْسِـمانِ بِاللَّهِ عطف على يَقُومانِ

أى فيحلفان باللّه لشـهادتنا: أى يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما فى قوله تعالى: فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ «٣» أى يحلفان لشـهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما: أى من يمينهما على أنهما صادقان أمينان وَ مَا اعْتَدَيْنا أى تجاوزنا الحق فى أيمننا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ إن كنا حلفنا على باطل.

قوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أى ذلک البيان الـذى قـدمه اللّه سـبحانه فى هـذه القصة و عرفنا كيف يصـنع من أراد الوصيّة فى السفر، و لم يكن عنده أحد من أهله و عشيرته و عنده كفار أَدْنى

أى أقرب إلى أن يؤدى الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها فلا يحرّفوا و لا يبدّلوا و لا

---

(١). الكهف: ٢١.

(٢). ذات لوث: أى قوة.

(٣). النور: ۶.

يخونوا و هذا كلام مبتدأ يتضـمن ذكر المنفعة و الفائدة فى هذا الحكم الذى شـرعه اللّه فى هذا الموضع من كتابه؛ فالضـمير فى يَأْتُوا عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ و قيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم.

و المراد تحـذيرهم من الخيانـة، و أمرهم بـأن يشـهدوا بـالحق. قـوله: أَوْ يَخـافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمـانٌ بَعْـدَ أَيْمـانِهِمْ أى تردّ على الـورثة فيحلفون على خلاف ما شـهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، و هو معطوف على قوله: أَنْ يَأْتُوا فتكون الفائدة فى شرع اللّه سـبحانه لهذا الحكم هى أحد الأمرين: إما احتراز شـهود الوصـية عن الكذب و الخيانة فيأتون بالشـهادة على وجهها. أو يخافوا الافتضاح إذا ردّت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضـمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلک سـببا لتأدية شهادة شهود الوصـية على وجهها من غير كذب و لا خيانة؛ و قيل: إن يَخافُوا معطوف على مقدّر بعد الجملة الأولى، و التقدير: ذلک أدنى أن يـأتوا بالشـهادة على وجهها و يخـافوا عـذاب الآخرة بسـبب الكـذب و الخيانـة أو يخافوا الافتضاح بردّ اليمين، فأىّ الخوفين وقع حصل المقصود وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفـة أحكامه وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِـقِينَ الخارجين عن طاعته بأىّ ذنب، و منه الكذب فى

اليمين أو الشهادة.

و حاصل ما تضـمّنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضـرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين، فـإن لم يجـد شـهودا مسـلمين، و كان في سـفر، و وجـد كفارا جاز له أن يشـهد رجلين منهم على وصـيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصـى حلفا باللّه على أنهما شهدا بالحق و ما كتما من الشهادة شيئا و لا خانا مما تركه الميت شيئا، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسـما عليه من خلل في الشـهادة أو ظهور شـيء من تركة الميت زعما أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة و عمل بذلك.

و قـد أخرج الترمـذي و ضـعّفه، و ابن جرير و ابن أبي حـاتم، و النحـاس في تـاريخه، و أبـو الشـيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم في المعرفـة من طريق أبي النضـر و هو الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس، عن تميم الـداري في هذه الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ قال: بريء الناس منها غيري و غير عديّ بن بداء، و كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، و قدم عليهما مولى لبني هاشم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة، و معه جام من فضّة يريد به الملـك و هو عظم تجارته، فمرض فأوصـى إليهما و أمرهما أن يبلغا ما ترك أهله؛ قال تميم: فلما مات أخـذنا ذلك الجام فبعناه بـألف درهم ثم اقتسـمناه أنـا و عـديّ بن بـداء، فلما قـدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، و فقـدوا الجام فسألونا عنه: فقلنا: ما ترك غير هذا، أو ما دفع إلينا غيره؛ قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، و أدّيت إليهم خمسمائة درهم، و أخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فسـألهم البينـة فلم يجـدوا، فـأمرهم أن يسـتحلفوه بمـا يعظم به على أهـل دينه، فحلف فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَـهادَةُ بَيْنِكُمْ إلى قوله: أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ فقام عمرو بن العاص و رجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسـمائة درهم من عديّ بن بداء. و في إسناده أبو النّضر، و هو محمد بن السّائب الكلبي صاحب التفسير، قال الترمذي: تركه أهل العلم بالحديث. و أخرج

البخـاري في تاريخه و الترمـذي و حسـنه و ابن جرير و ابن المنـذر و النحاس و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عبـاس قـال: خرج رجـل من بني سـهم مع تميم الـدّاريّ و عـديّ بن بـداء، فمـات السّـهميّ بأرض ليس فيها مسـلم، فأوصـى إليهمـا، فلما قـدما بتركته فقـدوا جامـا من فضـة مخوّصـا بالـذهب، فأحلفهمـا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم بـاللّه ما كتمتماها و لا اطلعتما، ثم وجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم و عدي، فقام رجلان من أولياء السهميّ فحلفا باللّه لشهادتنا أحقّ من شـهادتهما و إن الجام لصاحبهم، و أخذوا الجام، قال: و فيهم نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَـهادَةُ بَيْنِكُمْ الآية، و في إسـناده محمد بن أبي القاسم الكوفي، قال الترمذي: قيل: إنه صالح الحديث، و قد روى ذلك أبو داود من طريقه. و قد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هي السبب في نزول الآية، و ذكرها المفسـرون في تفاسيرهم. و قال القرطبي: إنه أجمع أهل التفسير على أن هـذه القصة هي سـبب نزول الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و النحاس من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَـهادَةُ بَيْنِكُمْ الآيـة قال: هـذا لمن مات و عنـده المسـلمون أمره اللّه أن يشـهد على وصـيته عـدلين مسـلمين، ثم قال: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فهذا لمن مات و ليس عنده أحد من المسلمين أمر اللّه بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا باللّه بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمنا قليلا، فإن اطلع الأولياء على أنّ الكـافرين كـذبا في شـهادتهما، و ثمّ رجلاـن من الأولياء فحلفا باللّه أنّ شـهادة الكافرين باطلـة، فـذلك قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْـتَحَقَّا إِثْماً يقول: إن اطلع على أن الكـافرين كـذبا ذلِـكَ أَدْنى أَنْ يأتي الكافران بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ فتترك شـهادة الكافرين و يحكم بشـهادة الأولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام: إنما الأقسام إذا كانا كافرين. و

أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال: هذا رجل خرج مسافرا و معه مال فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته و أشهد عليهما عدلين من المسلمين، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدّى فسبيل ما أدى «۱»، و إن جحد استحلف باللّه الذى لا إله إلا هو دبر صلاة إن هذا الذى دفع إلىّ و ما غيبت منه شيئا، فإذا حلف برىء، فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذى يقول اللّه: اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ قال: من غير المسلمين من أهل الكتاب. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هذه الآية منسوخة. و أخرج ابن جرير عن زيد ابن أسلم فى الآية قال: كان ذلك فى رجل توفّى و ليس عنده أحد من أهل الإسلام، و ذلك فى أوّل الإسلام و الأرض حرب و الناس كفار إلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه بالمدينة، و كان النّاس يتوارثون بالوصية، ثم

---

(۱). كذا فى المطبوع، و لعل الصواب: فإن أدّيا ... جحدا ... استحلفا .. حلفا ... برئا ... عليهما.

نسخت الوصية و فرضت الفرائض و عمل المسلمون بها. و أخرج ابن جرير أيضا عن الزهرى قال: مضت السّنّة أن لا تجوز شهادة كافر فى حضر و لا سفر، إنما هى فى المسلمين. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن عبيدة فى قوله: تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ قال: صلاة العصر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً قال: لا نأخذ به رشوة وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ و إن كان صاحبها بعيدا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً أى اطّلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتما. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: الْأَوْلَيانِ قال: بالميت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها يقول: ذلك أحرى أن يصدقوا فى شهادتهم أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ يقول: و أن يخافوا العتب. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ قال: فتبطل أيمانهم و تؤخذ أيمان هؤلاء.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۱]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۰۹) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۱۰) وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (۱۱۱)

قوله: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ العامل فى الظرف فعل مقدّر: أى اسمعوا، أو اذكروا، أو احذروا.

و قال الزجاج: هو منصوب بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ المذكور فى الآية الأولى؛ و قيل: بدل من مفعول اتَّقُوا بدل اشتمال؛ و قيل: ظرف لقوله: لا يَهْدِي المذكور قبله؛ و قيل: منصوب بفعل مقدّر متأخر تقديره: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يكون من الأحوال كذا و كذا.

قوله: ما ذا أُجِبْتُمْ أى أىّ إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم اللّه إليهم؟ أو أىّ جواب أجابوكم به؟ و على الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها، و توجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، و جوابهم بقولهم: لا عِلْمَ لَنا مع أنهم عالمون

بمـا أجابوا به عليهم، تفويض منهم، و إظهـار للعجز، و عـدم القـدرة، و لا سـيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيـخ فإن تفويض الجواب إلى اللّه أبلغ فى حصول ذلك؛ و قيل المعنى: لا علم لنا لما أحدثوا بعدنا؛ و قيل: لا علم لنا بما اشـتملت عليه بواطنهم؛ و قيـل المعنى: لاـ علم لنـا إلاـ علم مـا أنت أعلم به منـا؛ و قيـل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشـر. قوله: إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ إذ: بـدل من: يوم يجمع، و هو تخصـيص بعـد التعميم و تخصـيص عيسـى عليه السـلام من بين الرسل لاختلاف طائفتى اليهود و النصارى فيه إفراطا و تفريطا، هذه تجعله إلها، و هذه تجعله كاذبا، و قيل: هو منصوب بتقدير اذكر.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۰۴

قوله: اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ ذكّره سـبحانه نعمته عليه و على أمه- مع كونه ذاكرا لها عالما بتفضل اللّه سـبحانه بها- لقصـد تعريف الأمم بما خصّ‍ـهما اللّه به من الكرامـة و ميزهما به من علوّ المقام، أو لتأكيـد الحجة و تبكيت الجاحد بأن منزلتهما عنـد اللّه هذه المنزلة و توبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند اللّه سـبحانه، و أنهما عبدان من جملة عباده منعـم عليهمـا بنعم اللّه سـبحانه ليس لهمـا من الأـمر شـىء. قـوله: إِذْ أَيَّدْتُـكَ بِرُوحِ الْقُـدُسِ إذ ظرف للنعمـة لأنهـا بمعنى المصـدر: أى اذكر إنعامى عليك وقت تأييدى لك، أو حال من النعمة: أى كائنة ذلك الوقت أَيَّدْتُكَ قوّيتك مأخوذ من الأيد، و هو القوّة. و فى روح القـدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التى خصه اللّه بها، و قيل: إنه جبريل عليه السـلام، و قيل: إنه الكلام الـذى يحيى به الأرواح. و القـدس: الطهر، و إضافته إليه لكونه سـببه، و جملة تُكَلِّمُ النَّاسَ مبينة لمعنى التأييد، و فِي الْمَهْدِ فى محـل نصب على الحال: أى تكلم النـاس حـال كونـك صبيـا و كهلا لا يتفاوت كلامك فى الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلاـمه فيهمـا تفاوتـا بينـا. و قـوله: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتـابَ معطوف على إِذْ أَيَّدْتُـكَ أى و اذكر نعمـتى عليـك وقت تعليمى لك الكتـاب: أى جنس الكتـاب، أو المراد بالكتاب الخطّ، و على الأوّل يكون ذكر التوراة و الإنجيل من عطف الخاص على العام، و تخصيصـهما بالـذكر لمزيـد اختصاصه بهما: أما التوراة فقـد كان يحتجّ بها على اليهود فى غالب ما يدور بينه و بينهم من الجدال كما هو مصرّح بذلك فى الإنجيل، و أما الإنجيل فلكونه نازلا عليه من عند اللّه سبحانه، و المراد بالحكمة جنس الحكمة؛ و قيل: هى الكلام المحكم وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ أى: تصوّر تصويرا مثل صورة الطير بِإِذْنِي لك بـذلك و تيسيرى له فَتَنْفُخُ فى الهيئـة المصوّرة فَتَكُونُ هـذه الهيئـة طَيْراً متحركـا حيـا كسـائر الطيور وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي لك و تسـهيله عليك و تيسـيره لك، و قد تقدّم تفسير هذا مطوّلا فى البقرة فلا نعيده وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة بِإِذْنِي و تكرير بإذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة اللّه ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر اللّه سبحانه. قوله: وَ إِذْ كَفَفْتُ معطوف على إِذْ تُخْرِجُ كففت معناه: دفعت و صـرفت بَنِي إِسْـرائِيلَ عَنْكَ حين هموا بقتلك إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضـحات فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هـذا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ أى ما هـذا الذى جئت به إلا سـحر بين، لما عظم ذلك فى صدرهم و انبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية، بل نسبوه إلى السـحر. قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي هو معطوف على ما قبله، و قـد تقـدّم تفسـير ذلك. و الوحى فى كلام العرب معناه الإلهام: أى ألهمت الحواريين و قـذفت فى قلوبهم؛ و قيل معناه: أمرتهم على ألسـنة الرسل أن يؤمنوا بى بالتوحيـد و الإخلاص و يؤمنوا برسالة رسولى. قوله: قالُوا آمَنَّا جملة مستأنفة كأنه قيل:

ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ أى مخلصون للإيمان: أى و اشهد يا رب، أو و اشهد يا عيسى.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۰۵

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُـلَ فَيَقُولُ مـا ذا أُجِبْتُمْ فيفزعون فيقولون: لاـ عِلْمَ لَنا فتردّ إليهم أفئـدتهم فيعلمون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى

حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا: لا علم لنا فرقا يذهل عقولهم، ثم يردّ اللّه إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول اللّه: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ «١». و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء و أممها، ثم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقرّ بها، فيقول: يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ الآية، ثم يقول: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه و جسده، فيجاثيهم بين يدى اللّه مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجّة، و يرفع لهم الصليب، و ينطلق بهم إلى النار». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى بالآيات التى وضع على يديه: من إحياء الموتى، و خلقه من الطين كهيئة الطير، و إبراء الأسقام و الخبر بكثير من الغيوب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ يقول: قذفت فى قلوبهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۵]

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۱۲) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (۱۱۳) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱۴) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۱۱۵)

قوله: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ الظرف منصوب بفعل مقدر: أى اذكر أو نحوه كما تقدّم، قيل: و الخطاب لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم. قرأ الكسائى «هل تستطيع» بالفوقية، و نصب ربك، و به قرأ علىّ و ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد، و قرأ الباقون بالتحتية و رفع ربك. و استشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ و السؤال عن استطاعته لذلك ينافى ما حكوه عن أنفسهم.

و أجيب بأن هذا كان فى أوّل معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم باللّه، و لهذا قال عيسى فى الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم: اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى لا تشكوا فى قدرة اللّه؛ و قيل: إنهم ادّعوا الإيمان و الإسلام دعوى باطلة، و يردّه أن الحواريين هم خلصاء عيسى و أنصاره كما قال: مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ

---

(۱). الأعراف: ۶۰.

الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ* «۱» و قيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، و قيل: إنهم لم يشكّوا فى استطاعة البارى سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، و إنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتى؟ مع علمه بأنه يستطيع ذلك و يقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك و هل يجيب إليه؟ و قيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى «۲» الآية، و يدل على هذا قولهم من بعد وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا و أما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك. قال الزجاج: المعنى هل تستدعى طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «۳»، و مائِدَةً: الخوان إذا كان عليه الطعام، من

مادة: إذا أعطاه و رفده كأنها تميد من تقدّم إليه قاله قطرب و غيره؛ و قيل: هى فاعلة بمعنى مفعولة ک عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۴» قاله أبو عبيدة. فأجابهم عيسى عليه السلام بقوله: اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى اتقوه من هذا السؤال و أمثاله إن كنتم صادقين فى إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترک الاقتراح على ربه على هذه الصفة، و قيل:

إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلک ذريعة إلى حصول ما طلبوه. قوله: قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة، و كذا ما عطف عليه من قولهم: وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ و المعنى: تطمئن قلوبنا بكمال قدرة اللّه، أو بأنک مرسل إلينا من عنده، أو بأنّ اللّه قد أجابنا إلى ما سألناه، و نعلم علما يقينا بأنک قد صادقتنا فى نبوّتک، و نكون عليها من الشّاهدين:

عند من لم يحضرها من بنى إسرائيل أو من سائر الناس أو من الشّاهدين للّه بالوحدانية، أو من الشّاهدين:

أى الحاضرين دون السّامعين. و لما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال: اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ أى كائنة أو نازلة من السماء، و أصل اللهمّ عند سيبويه و أتباعه: يا اللّه، فجعلت الميم بدلا من حرف النداء، و ربنا نداء ثان، و ليس بوصف، و تَكُونُ لَنا عِيداً وصف لمائدة.

و قرأ الأعمش يكون لنا عيدا أى يكون نزولها لنا عيدا. و قد كان نزولها يوم الأحد، و هو يوم عيد لهم؛ و العيد واحد الأعياد، و إنما جمع بالياء و أصله الواو للزومها فى الواحد؛ و قيل: للفرق بينه و بين أعواد جمع عود، ذكر معناه الجوهرى، و قيل: أصله من عاد يعود: أى رجع فهو عود بالواو، و تقلب ياء لانكسار ما قبلها مثل الميزان و الميقات و الميعاد، فقيل: ليوم الفطر و الأضحى عيدان، لأنهما يعودان فى كل سنة. و قال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه. قوله: لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا بدل من الضمير فى لنا بتكرير العامل: أى لمن فى عصرنا و لمن يأتى بعدنا من ذرارينا و غيرهم. قوله: وَ آيَةً مِنْكَ عطف على عيدا، أى دلالة و حجّة واضحة على كمال قدرتک و صحة إرسالک من أرسلته وَ ارْزُقْنا أى: أعطنا هذه المائدة المطلوبة، أو ارزقنا رزقا نستعين به على عبادتک وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ بل لا- رازق فى الحقيقة غيرک و لا- معطى سواک، فأجاب اللّه سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال: إِنِّي مُنَزِّلُها أى المائدة عَلَيْكُمْ

و قد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأوّل و هو الحق لقوله سبحانه:

إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ و وعده الحق و هو لا يخلف الميعاد. و قال مجاهد: ما نزلت و إنما هو ضرب

---

(۱). آل عمران: ۵۲.

(۲). البقرة: ۲۶۰.

(۳). يوسف: ۸۲.

(۴). الحاقة: ۲۱.

مثل ضربه اللّه لخلقه نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، و قال الحسن: وعدهم بالإجابة، فلما قال: فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ استغفروا اللّه و قالوا: لا نريدها. قوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ أى بعد تنزيلها فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً أى تعذيبا لا أُعَذِّبُهُ صفة لعذابا، و الضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب: أى لا- أعذب مثل ذلک التعذيب أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ قيل: المراد عالمى زمانهم، و قيل: جميع العالمين، و فى هذا من التهديد و الترهيب ما لا يقادر قدره.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة قالت:

كان الحواريون أعلم باللّه من أن يقولوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه، و يؤيد هذا ما أخرجه الحاكم و صححه و الطبرانى و ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هل تستطيع ربك بالتاء يعنى الفوقية. و أخرج أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها كذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: المائدة: الخوان، و تطمئن: توقن.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ فى قوله: تَكُونُ لَنا عِيداً يقول: نتخذ اليوم الذى نزلت فيه عيدا نعظمه نحن و من بعدنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس: أنه كان يحدّث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل: هل لكم أن تصوموا للّه ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت: لنا إن أجر العامل على من عمل له، و أمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا، و لم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً إلى قوله: أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات و سبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم.

و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «نزلت المائدة من السماء خبزا و لحما، و أمروا أن لا يخونوا و لا يدّخروا لغد، فخافوا و ادّخروا و رفعوا لغد فمسخوا قردة و خنازير» و قد روى موقوفا على عمار. قال الترمذى: و الوقف أصح. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المائدة سمكة و أريغفة. و أخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال: نزلت على عيسى ابن مريم و الحواريين خوان عليه سمك و خبز يأكلون منه أينما تولوا إذا شاؤوا. و أخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن عمرو قال: إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة و المنافقون و آل فرعون.

[سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۰]

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۱۸) قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۰۸

قوله: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ معطوف على ما قبله فى محل نصب بعامله أو بعامل مقدّر هنا: أى أذكر.

و قد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. و النكتة توبيخ عباد المسيح و أمه من النصارى. و قال السدّى و قطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، و الأوّل أولى: قيل: وَ إِذْ هنا بمعنى إذا، كقوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا «۱» أى إذا فزعوا، و قول أبى النجم:

ثمّ جزاه اللّه عنّى إذ جزى جنّات عدن فى السّموات العلى

أى إذا جزى، و قول الأسود بن جعفر الأزدى:

فالآن إذ هازلتهنّ فإنّما يقلن ألا لم يذهب الشّيخ مذهبا

أی إذا هازلتهنّ تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضی تنبيها علی تحقيق وقوعه. و قد قيل فی توجيه هذا الاستفهام منه تعالی إنه لقصد التوبيخ كما سبق؛ و قيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده و ادّعوا عليه ما لم يقله. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بقوله: اتَّخِذُونِی علی أنه حال: أی متجاوزين الحدّ، و يجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين: أی كائنين من دون اللّه. قوله: سُبْحانَكَ تنزيه له سبحانه: أی أنزهک تنزيها ما يَكُونُ لِی أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِی بِحَقٍ أی ما ينبغی لی أن أدّعی لنفسی ما ليس من حقها إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ردّ ذلک إلی علمه سبحانه، و قد علم أنه لم يقله، فثبت بذلک عدم القول منه. قوله: تَعْلَمُ ما فِی نَفْسِی وَ لا أَعْلَمُ ما فِی نَفْسِكَ هذه الجملة فی حكم التعليل لما قبلها: أی تعلم معلومی و لا أعلم معلومک، و هذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعانی و البيان؛ و قيل المعنی: تعلم ما فی غيبی و لا أعلم ما فی غيبک؛ و قيل: تعلم ما أخفيه و لا أعلم ما تخفيه؛ و قيل: تعلم ما أريد و لا أعلم ما تريد. قوله: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِی بِهِ هذه جملة مقرّرة لمضمون ما تقدّم: أی ما أمرتهم إلا بما أمرتنی أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّكُمْ هذا تفسير لمعنی ما قُلْتُ لَهُمْ أی ما أمرتهم، و قيل: عطف بيان للمضمر فی بِهِ و قيل: بدل منه وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً أی: حفيظا و رقيبا أرعی أحوالهم و أمنعهم عن مخالفة أمرک ما دُمْتُ فِيهِمْ أی: مدّة دوامی فيهم. فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِی قيل: هذا يدل علی أن اللّه سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، و ليس بشیء لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمت، و أنه باق فی السماء علی الحياة التی كان عليها فی الدنيا حتی ينزل إلی الأرض آخر الزمان، و إنما المعنی: فلما رفعتنی إلی السماء. قيل: الوفاة فی كتاب اللّه سبحانه جاءت علی ثلاثة أوجه: بمعنی الموت، و منه قوله تعالی: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها «٢» و بمعنی النوم، و منه قوله تعالی: وَ هُوَ الَّذِی يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «٣» أی ينيمكم،

---

(١). سبأ: ٥١.

(٢). الزمر: ۴٢.

(٣). الأنعام: ۶٠.

و بمعنی الرفع، و منه فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِی و إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّی مُتَوَفِّيكَ «١». كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أصل المراقبة: المراعاة، أی كنت الحافظ لهم. و العالم بهم و الشاهد عليهم إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ تصنع بهم ما شئت و تحكم فيهم بما تريد وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أی القادر علی ذلک الحكيم فی أفعاله، قيل: قاله علی وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعبده. و لهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوک؛ و قيل: قاله علی وجه التسليم لأمر اللّه و الانقياد له، و لهذا عدل عن الغفور الرحيم إلی العزيز الحكيم. قوله: قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ أی صدقهم فی الدنيا، و قيل فی الآخرة، و الأوّل أولی. قرأ نافع و ابن محيصن يوم بالنصب، و قرأ الباقون بالرفع، فوجه النصب أنه ظرف للقول:

أی قال اللّه هذا القول يوم ينفع الصادقين، و وجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هذا و ما أضيف إليه «٢». و قال الكسائی نصب يوم هاهنا لأنه مضاف إلی الجملة، و أنشد:

علی حين عاتبت المشيب علی الصّباو قلت ألمّا أصح و الشّيب وازع

و به قال الزجاج، و لا يجيز البصريون ما قالاه إلا إذا أضيف الظرف إلی فعل ماض. و قرأ الأعمش هذا يَوْمُ يَنْفَعُ بتنوين يوم كما فی قوله: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً «٣» فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين. و قد تقدّم تفسير قوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً. قوله:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أی رضی عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، و رضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم

على بال و لا تتصوره عقولهم، و الرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم و أعلى منازل الكرامة، و الإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة و الخلود فيها أبدا، و رضوان اللّه عنهم. و الفوز:
الظفر بالمطلوب على أتمّ الأحوال. قوله: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى و أمه، و أخبر بأن ملك السموات و الأرض له دون عيسى و أمه و دون سائر مخلوقاته، و أنه القادر على كلّ شيء دون غيره، و قيل المعنى: أن له ملك السموات و الأرض يعطى الجنات للمطيعين، جعلنا اللّه منهم.
و قد أخرج الترمذى و صحّحه و النسائى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: تلقّى عيسى حجّته و اللّه لقّاه فى قوله: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قال أبو هريرة عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فلقّاه اللّه سبحانه ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ الآية. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: يقول اللّه هذا يوم القيامة، أ لا ترى أنه يقول: هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ قال: قال اللّه ذلك لما رفع عيسى إليه، و قالت النصارى ما قالت. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى

---

(١). آل عمران: ۵۵.

(٢). الضمير فى إليه: يعود على يوم.

(٣). البقرة: ۴۸.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١١٠

قوله: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ قال: سيدى و سيدكم. و أخرج ابن المنذر عنه فى قوله: كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ قال: الحفيظ. و أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ قال: ما كنت فيهم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ يقول: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ أى من تركت منهم و مدّ فى عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال، فزالوا عن مقالتهم و وحدوك فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ يقول:
هذا يوم ينفع الموحّدين توحيدهم.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١١١

سورة الأنعام

اشارة

قال الثعلبىّ: سورة الأنعام مكية إلا ستّ آيات نزلت بالمدينة و هى: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ* إلى آخر ثلاث آيات، و قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلى آخر ثلاث آيات. قال ابن عطية:
و هى الآيات المحكمات، يعنى فى هذه السورة. و قال القرطبى: هى مكية إلا آيتين هما وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ* نزلت فى مالك بن الصيف و كعب بن الأشرف اليهوديين، و قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة. و أخرج أبو عبيد و

ابن المنـذر و الطبرانی و ابن مردويه عنه؛ قـال: أنزلت سورة الأنعـام بمكـة ليلا جملـة و حولها سـبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسـعود قال: نزلت سورة الأنعام يشـيعها سبعون ألفا من الملائكة. و أخرج ابن مردويه عن أسـماء قالت: نزلت سورة الأنعام على النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و هو فى مسير فى زجل «۱» من الملائكـة، و قد نظموا ما بين السـماء و الأرض. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن أسـماء بنت يزيـد نحوه. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه عن ابن عمر قـال: قـال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «نزلت علىّ سورة الأنعـام جملـة واحـدة يشيّعها سـبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيـح و التحميـد» و هو من طريق إبراهيم بن نائلـة شـيخ الطبرانی عن إسـماعيل بن عمرو عن يوسف ابن عطيـة بن عون عن نافع عن ابن عمر قـال: قـال رسـول اللّـه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، فـذكره. و ابن مردويه رواه عن الطـبرانی عن إسـماعيل المـذكور به. و أخرج الطبرانی و ابن مردويه و أبو الشيخ و البيهقی فی الشعب عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «نزلت سورة الأنعام و معها موكب من الملائكـة يسـدّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتّسبيـح و التّقـديس، و الأرض ترتجّ، و رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم يقول: سبحان اللّه العظيم، سبحان اللّه العظيم». و أخرج الحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم، و الإسماعيلی فی معجمه، و البيهقی عن جابر قال: لما نزلت سورة الأنعام سـبح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم قال: «لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سـدّ الأفق». و أخرج البيهقی و ضـعّفه، و الخطيب فی تاريخه عن علىّ بن أبی طالب قال: أنزل القرآن خمسا خمسا، و من حفظه خمسا خمسا لم ينسه، إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيّعها من كلّ سماء سبعون ملكا حتى أدّوها إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، مـا قرئت على عليـل إلا شـفاه اللّه. و أخرج أبو الشـيخ عن أبىّ بن كعب مرفوعا نحو حـديث ابن عمر. و أخرج النحاس فی تاريخه عن ابن عباس قال: سورة الأنعام نزلت بمكـة جملة واحدة، فهی مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ إلى تمام الآيات الثلاث. و أخرج الديلمی بسـند ضعيف عن أنس مرفوعا: «ينادی مناد: يا قارئ سورة الأنعام هلمّ إلى الجنة بحبـك إياها و تلاوتها». و أخرج ابن المنـذر عن أبی جحيفـة قال: نزلت سورة الأنعام جميعا معها سـبعون ألف ملك كلها مكية إلا وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ فإنها مدنية. و أخرج أبو عبيد فی فضائله، و الدارمی فی مسنده، و محمد بن نصر فی كتاب

---

(۱). زجل: صوت رفيع عال.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۱۲

الصـلاة، و أبو الشـيخ عن عمر بن الخطاب قال: الأنعام من نواجب القرآن. و أخرج محمد بن نصـر عن ابن مسعود مثله. و أخرج السـلفی بسـند واه عن ابن عباس مرفوعا: «من قرأ إذا صـلى الغـداة ثلاث آيات من أوّل سورة الأنعام إلى وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ نزل إليه أربعـون ألف ملـك يكتب له مثـل أعمـالهم، و نزل إليه ملـك من فوق سـبع سـماوات و معه مرزبّـة من حديـد، فـإن أوحى الشـيطان فی قلبه شـيئا من الشرّ ضربه ضربة حتى يكون بينه و بينه سبعون حجابا، فإذا كان يوم القيامة، قال اللّه تعالى: أنا ربك و أنت عبدی، امش فی ظلّی، و اشرب من الكوثر، و اغتسل من السلسبيل، و ادخل الجنة بغير حساب و لا عذاب».

و أخرج الديلمی عن ابن مسـعود قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: «من صلى الفجر فی جماعة، و قعد فی مصلاه، و قرأ ثلاث آيـات من أوّل سورة الأنعام؛ و كلّ اللّه به سـبعين ملكا يسبّحون اللّه و يسـتغفرون له إلى يوم القيامـة». و فی فضائل هـذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة و غير مرفوعة. قال القرطبی:

قال العلماء: هذه السورة أصل فی محاجّة المشـركين و غيرهم من المبتدعين و من كذب بالبعث و النشور، و هذا يقتضـى إنزالها جملة واحدة لأنها فی معنى واحد من الحجة و إن تصرّف ذلك بوجوه كثيرة، و عليها بنى المتكلّمون أصول الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ*

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱ الى ۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (۳)

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد للّه، للدلالة على أن الحمد كله له، و لإقامة الحجّة على الذين هم بربهم يعدلون. و قد تقدّم فى سورة الفاتحة ما يغنى عن الإعادة له هنا، ثم وصف نفسه بأنه: الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ إخبارا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك و أوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء و تخصيصه بالحمد، و الخلق يكون بمعنى الاختراع، و بمعنى التقدير. و قد تقدّم تحقيق ذلك، و جمع السماوات لتعدد طباقها، و قدّمها على الأرض لتقدّمها فى الوجود وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها «۱». قوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ معطوف على خلق، ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ثم ذكر خلق الأعراض بقوله: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ لأنّ الجواهر لا تستغنى عن الأعراض.

و اختلف أهل العلم فى المعنى المراد بالظّلمات و النور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، و بالنور ضياء النهار. و قال الحسن: الكفر و الإيمان. قال ابن عطية: و هذا خروج عن الظاهر، انتهى. و الأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كلّ ما يطلق عليه اسم الظلمة، و النور يشمل كلّ ما يطلق عليه اسم النور،

---

(۱). النازعات: ۳۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۱۳

فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر و نور الإيمان أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ «۱» و أفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، و جمع الظلمات لكثرة أسبابها و تعدد أنواعها. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق: و إذا كانت بمعنى خلق لم تتعدّ إلا إلى مفعول واحد. و قال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره. قال ابن عطية: و عليه يتفق اللفظ و المعنى فى النسق، فيكون الجمع معطوفا على الجمع، و المفرد معطوفا على المفرد، و تقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، و لهذا كان النهار مسلوخا من الليل. قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ معطوف على الحمد للّه، أو على خلق السماوات و الأرض، و ثم: لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن اللّه سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السماوات و الأرض و الظلمات و النور، فإن هذا يقتضى الإيمان به و صرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به و اتّخاذ شريك له، و تقديم المفعول للاهتمام، و رعاية الفواصل، و حذف المفعول لظهوره؛ أى يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، و هذا نهاية الحمق و غاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، و يكون من الكفرة الكفر. قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ فى معناه قولان: أحدهما و هو الأشهر، و به قال الجمهور: أن المراد آدم عليه السلام، و أخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم ولده و نسله. الثاني: أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها مخلوقة من الطين، ذكر اللّه سبحانه خلق آدم و بنيه بعد خلق السماوات و الأرض اتباعا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، و المطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث و ردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه. قوله: ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ جاء بكلمة ثُم لما بين خلقهم و بين موتهم من التفاوت.

و قد اختلف السلف و من بعدهم فى تفسير الأجلين، فقيل: قَضى أَجَلًا يعنى الموت وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ يعنى القيامة، و هو مروى عن ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و قتادة و الضحاك و مجاهد و عكرمة و زيد بن أسلم و عطية و السدى و خصيف و مقاتل و غيرهم، و قيل: الأوّل ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ و الثانى ما بين أن يموت إلى أن يبعث، و هو قريب من الأوّل. و قيل: الأوّل مدّة الدنيا؛ و الثانى عمر الإنسان إلى حين موته. و هو مرويّ عن ابن عباس و مجاهد. و قيل: الأوّل قبض الأرواح فى النوم؛ و الثاني: قبض الروح عند الموت. و قيل: الأوّل ما يعرف من أوقات الأهلة و البروج و ما يشبه ذلك؛ و الثانى أجل الموت. و قيل: الأوّل لمن مضى؛ و الثانى لمن بقى و لمن يأتى. و قيل: إن الأوّل الأجل الذى هو محتوم؛ و الثاني: لزيادة فى العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّا تقيا وصولا لرحمه زيد فى عمره، و إن كان قاطعا للرحم لم يزد له، و يرشد إلى هذا قوله تعالى: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ «٢». و قد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن صلة الرحم تزيد فى العمر، و ورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون و الوباء من أسباب الموت؛ و جاز الابتداء بالنكرة فى قوله: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ لأنها قد تخصصت بالصفة.

قوله: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ استبعاد لصدور الشّكّ منهم مع وجود المقتضى لعدمه: أى كيف تشكّون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء و الانتهاء ما يذهب بذلك و يدفعه، فإن من خلقكم من طين،

---

(١). الأنعام: ١٢٢.

(٢). فاطر: ١١.

و صيّركم أحياء تعلمون و تعقلون، و خلق لكم هذه الحواس و الأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتا، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم و يعيد هذه الأجسام كما كانت، و يردّ إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته و بديع حكمته. قوله: وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ قيل: إن فى السموات و فى الأرض، متعلق باسم اللّه باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودا و متصرفا و مالكا؛ أى هو المعبود أو المالك أو المتصرّف فى السموات و الأرض، كما تقول: زيد الخليفة فى الشرق و الغرب؛ أىّ حاكم أو متصرف فيهما؛ و قيل: المعنى: و هو اللّه يعلم سرّكم و جهركم فى السموات و فى الأرض فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما. قال النحاس: و هذا من أحسن ما قيل فيه.

و قال ابن جرير: هو اللّه فى السموات و يعلم سركم و جهركم فى الأرض. و الأوّل أولى، و يكون يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه فى السماء و الأرض يستلزم علمه بأسرار عباده و جهرهم، و علمه بما يكسبونه من الخير و الشرّ و جلب النفع و دفع الضرر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ أن هذه الآية أعنى: الْحَمْدُ لِلَّهِ إلى قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ نزلت فى أهل الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية فى الزّنادقة، قالوا: إن اللّه لم يخلق الظّلمة و لا الخنافس و لا العقارب و لا شيئا قبيحا، و إنما خلق النور و كلّ شىء حسن، فأنزلت فيهم هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ قال: الكفر و الإيمان.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: إن الذين بربهم يعدلون هم أهل

الشّرك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: يَعْدِلُونَ يشركون. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ قال: الآلهة التى عبدوها عدلوها باللّه، و ليس للّه عدل و لا ندّ، و ليس معه آلهة و لا اتّخذ صاحبة و لا ولدا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ يعنى آدم ثُمَّ قَضى أَجَلًا يعنى أجل الموت وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ أجل الساعة و الوقوف عند اللّه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عنه فى قوله: ثُمَّ قَضى أَجَلًا قال: أجل الدنيا، و فى لفظ أجل موته وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ قال: الآخرة لا يعلمه إلّا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه قَضى أَجَلًا قال: هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من اليقظة وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ قال:

هو أجل موت الإنسان.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ۴ الى ۱۱]

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۵) أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶) وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۱)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۱۵

قوله: وَ ما تَأْتِيهِمْ إلخ كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم و تمرّدهم، و هو الإعراض عن آيات اللّه التى تأتيهم كمعجزات الأنبياء، و ما يصدر عن قدرة اللّه الباهرة مما لا يشكّ من له عقل أنه فعل اللّه سبحانه، و الإعراض: ترك النّظر فى الآيات التى يجب أن يستدلوا بها على توحيد اللّه و مِنْ فى مِنْ آيَةٍ مزيدة للاستغراق و مِنْ فى مِنْ آياتِ تبعيضية: أى و ما تأتيهم آية من الآيات التى هى بعض آيات ربّهم إلا كانوا عنها معرضين، و الفاء فى فَقَدْ كَذَّبُوا جواب شرط مقدر: أى إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك و هو الحق لَمَّا جاءَهُمْ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، و قيل: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى أخبار الشىء الذى كانوا به يستهزئون و هو القرآن أو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، على أن: ما، عبارة عن ذلك تهويلا للأمر و تعظيما له: أى سيعرفون أن هذا الشىء الذى استهزءوا به ليس بموضع للاستهزاء، و ذلك عند إرسال عذاب اللّه عليهم، كما يقال: اصبر فسوف يأتيك الخبر، عند إرادة الوعيد و التهديد، و فى لفظ الأنبياء ما يرشد إلى ذلك فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم. قوله: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ كلام مبتدأ لبيان ما تقدّمه، و الهمزة للإنكار، و كَمْ يحتمل أن تكون الاستفهامية و أن تكون الخبرية و هى معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده، و مِنْ قَرْنٍ تمييز، و القرن يطلق على أهل كلّ عصر، سموا بذلك لاقترانهم، أى ألم يعرفوا بسماع الأخبار و معاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة فى عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم. و قيل: القرن مدّة من الزمان. و هى ستون عاما أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما فى الآية على تقدير مضاف محذوف: أى من أهل قرن. قوله: مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ مكن له فى الأرض: جعل له مكانا فيها، و مكنه فى الأرض: أثبته فيها، و الجملة مستأنفة، جواب سؤال مقدّر،

كأنه قيل: كيف ذلك؟ و قيل:

إن هذه الجملة صفة لقرن، و الأوّل أولى، و ما فى ما لَمْ نُمَكِّنْ نكرة موصوفة بما بعدها؛ أى مكّناهم تمكينا لم نمكّنه لكم، و المعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا و طول الأعمار و قوّة الأبدان و قد أهلكناهم جميعا، فإهلاككم- و أنتم دونهم- بالأولى. قوله: وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً يريد المطر الكثير، عبر عنه بالسماء، لأنه ينزل من السماء، و منه قول الشاعر «١»:

إذا نزل السّماء بأرض قوم .....

---

(١). هو: معود الحكماء معاوية بن مالك و هذا صدر بيت له و عجزه: رعيناه و إن كانوا غضابا. (تفسير القرطبى ۶/ ٣٩٢)

فتح القدير، ج٢، ص: ١١۶

و المدرار: صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة كمذكار للمرأة التى كثرت ولادتها للذكور، و ميناث للتى تلد الإناث، يقال درّ اللبن يدرّ: إذا أقبل على الحالب بكثرة. و انتصاب مِدْراراً على الحال؛ و جريان الأنهار من تحتهم معناه من تحت أشجارهم و منازلهم: أى أن اللّه وسّع عليهم النعم بعد التمكين لهم فى الأرض فكفروها، فأهلكهم اللّه بذنوبهم وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أى من بعد إهلاكهم قَرْناً آخَرِينَ فصاروا بدلا من الهالكين، و فى هذا بيان لكمال قدرته سبحانه و قوّة سلطانه و أنه يهلك من يشاء و يوجد من يشاء. قوله:

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فى هذه الجملة بيان شدّة صلابتهم فى الكفر، و أنهم لا يؤمنون و لو أنزل اللّه على رسوله كتابا مكتوبا فى قرطاس بمرأى منهم و مشاهدة فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، و حاسة اللمس لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا منهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ و لم يعملوا بما شاهدوا و لمسوا، و إذا كان هذا حالهم فى المرئىّ المحسوس، فكيف فيما هو مجرّد وحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بواسطة ملك لا يرونه و لا يحسونه؟ و الكتاب مصدر بمعنى الكتابة، و القرطاس: الصحيفة. قوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوّته صلّى اللّه عليه و سلّم و كفرهم بها: أى قالوا: هلا أنزل اللّه عليك ملكا نراه و يكلمنا أنه نبىّ حتى نؤمن به و نتبعه؟ كقولهم: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً «١» وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ أى لو أنزلنا ملكا على الصفة التى اقترحوها بحيث يشاهدونه و يخاطبونه و يخاطبهم لَقُضِيَ الْأَمْرُ أى لأهلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله و رؤيتهم له، لأن مثل هذه الآية البينة، و هى نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك و المعاجلة بالعقوبة ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ أى لا يمهلون بعد نزوله و مشاهدتهم له؛ و قيل إن المعنى: إن اللّه سبحانه لو أنزل ملكا مشاهدا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك فيبطل ما أرسل اللّه له رسله و أنزل به كتبه من هذا التكليف الذى كلف به عباده لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «٢». قوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا أى لو جعلنا الرسول إلى النبىّ ملكا يشاهدونه و يخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلا، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التى خلقه اللّه عليها إلا بعد أن يتجسّم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بنى آدم، لأنّ كلّ جنس يأنس بجنسه، فلو جعل اللّه سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكا مشاهدا مخاطبا لنفروا منه و لم يأنسوا به، و لداخلهم الرعب و حصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه و مشاهدته، هذا أقلّ حال فلا تتمّ المصلحة من الإرسال. و عند أن يجعله اللّه رجلا: أى على صورة رجل من بنى آدم ليسكنوا إليه و يأنسوا به سيقول الكافرون إنه ليس بملك و إنما هو بشر، و يعودون إلى مثل ما كانوا عليه. قوله وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ أى لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم إذا رأوه فى صورة إنسان قالوا: هذا إنسان و

ليس بملك، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه. قال الزجاج: المعنى: للبسنا عليهم؛ أى على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم؛ و كانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر و ليس بينه و بينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا و يشكّكونهم، فأعلم اللّه عزّ و جلّ أنه لو نزل ملكا فى صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون.

---

(۱). الفرقان: ۷.

(۲). الكهف: ۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۱۷

و اللبس: الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسا: أى خلطته، و أصله التستر بالثوب و نحوه، ثم قال سبحانه مؤنسا لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم و مسليا له: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقال: حاق الشىء يحيق حيقا و حيوقا و حيقانا. نزل؛ أى فنزل ما كانوا به يستهزءون، و أحاط بهم: و هو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أى قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا فى الأرض و انظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حلّ بهم من العقوبات، و كيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النّعيم العظيم الذى يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة و جناتهم مغبرة و أراضيهم مكفهرّة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون و بعد هلاكهم هالكون.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ يقول: ما يأتيهم من شىء من كتاب اللّه إلا أعرضوا عنه، و فى قوله فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزءوا به من كتاب اللّه عزّ و جلّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: مِنْ قَرْنٍ قال: أمة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً يقول: يتبع بعضها بعضا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن هارون التيمى فى الآية قال: المطر فى إبانه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ يقول: لو أنزلنا من السماء صحفا فيها كتاب فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لزادهم ذلك تكذيبا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ قال: فمسوه و نظروا إليه لم يصدقوا به. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قومه إلى الإسلام و كلّمهم فأبلغ إليهم فيما بلغنى، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب و النّضر بن الحارث بن كلدة و عبدة بن عبد يغوث و أبىّ ابن خلف بن وهب و العاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدّث عنك الناس و يرى معك، فأنزل اللّه وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ الآية. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ قال: ملك فى صورة رجل وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ لقامت الساعة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: لَقُضِيَ الْأَمْرُ يقول: لو أنزل اللّه ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً قال:

و لو أتاهم ملك فى صورته لَقُضِيَ الْأَمْرُ لأهلكناهم ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ لا يؤخرون وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النّظر إلى الملائكة وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ يقول: لخلطنا عليهم ما يخلطون. و

أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۱۸

فى قوله وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا قال: فى صورة رجل، و فى خلق رجل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا يقول: فى صورة آدمىّ. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ يقول: شبهنا عليهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال: شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق قال: مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما بلغنى بالوليد بن المغيرة و أمية بن خلف و أبى جهل بن هشام فهمزوه و استهزءوا به فغاظه ذلك، فأنزل اللّه وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الى ۲۱]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳) قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶)

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱۸) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۱۹) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱)

قوله: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ هذا احتجاج عليهم و تبكيت لهم. و المعنى: قل لهم هذا القول، فإن قالوا فقل: للّه، و إذا ثبت أنّ له ما فى السموات و الأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجّة عليهم فاللّه قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، و لكنه كتب على نفسه الرّحمة: أى وعد بها فضلا منه و تكرّما. و ذكر النفس هنا عبارة عن تأكّد وعده و ارتفاع الوسائط دونه، و فى الكلام ترغيب للمتولّين عنه إلى الإقبال إليه و تسكين خواطرهم؛ بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة، و أنه يقبل منهم الإنابة و التوبة، و من رحمته لهم إرسال الرسل، و إنزال الكتب، و نصب الأدلّة. قوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ اللام جواب قسم محذوف. قال الفراء و غيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: الرَّحْمَةَ و يكون ما بعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى: لَيَجْمَعَنَّكُمْ ليمهلنكم و ليؤخرنّ جمعكم. و قيل المعنى: ليجمعنكم فى القبور إلى اليوم الذى أنكرتموه. و قيل: إلى بمعنى فى: أى ليجمعنكم فى يوم القيامة. و قيل: يجوز أن يكون موضع لَيَجْمَعَنَّكُمْ النصب على البدل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن. و المعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم، كما قالوا فى قوله تعالى: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ «۱»

---

(۱). يوسف: ۳۵.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۱۹

أى أن يسجنوه، و قيل: إن جملة لَيَجْمَعَنَّكُمْ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، و للوعيد بعد الوعد؛ أى إن أمهلكم برحمته فهو

مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة، و الضمير فى لا رَيْبَ فِيهِ لليوم أو للجمع. قوله: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ قال الزجاج: إنّ الموصول مرتفع على الابتداء، و ما بعده خبره كما تقول: الذى يكرمنى فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

و قال الأخفش: إن شئت كان الَّذِينَ فى موضع نصب على البدل من الكاف و الميم فى لَيَجْمَعَنَّكُمْ أى ليجمعنّ المشركين الذين خسروا أنفسهم، و أنكره المبرد و زعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب و لا من المخاطب. لا يقال مررت بك زيد و لا مررت بى زيد؛ و قيل: يجوز أن يكون الَّذِينَ مجرورا على البدل من المكذبين الذين تقدّم ذكرهم أو على النعت لهم؛ و قيل: إنه منادى و حرف النداء مقدّر. قوله:

وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أى للّه، و خصّ السّاكن بالذكر، لأنّ ما يتّصف بالسّكون أكثر مما يتّصف بالحركة؛ و قيل المعنى: ما سكن فيهما أو تحرّك فاكتفى بأحد الضدّين عن الآخر، و هذا من جملة الاحتجاج على الكفرة. قوله: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام، و لما كان الإنكار لاتّخاذ غير اللّه وليا، لا لاتّخاذ الولى مطلقا، دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. و المراد بالولىّ هنا: المعبود: أى كيف أتّخذ غير اللّه معبودا؟ و فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مجرور على أنه نعت لاسم اللّه، و أجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، و أجاز الزجاج النصب على المدح، و أجاز أبو على الفارسى نصبه بفعل مضمر كأنه قيل: أترك فاطر السموات و الأرض. قوله: وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قرأ الجمهور بضم الياء و كسر العين فى الأوّل، و ضمها و فتح العين فى الثانى: أى يرزق و لا يرزق، و قرأ سعيد بن جبير و مجاهد و الأعمش بفتح الياء فى الثانى و فتح العين، و قرئ بفتح الياء و العين فى الأوّل و ضمها و كسر العين فى الثانى على أن الضمير يعود إلى الولىّ المذكور، و خص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام لأن الحاجة إليه أمسّ. قوله: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ أمره سبحانه بعد ما تقدّم من اتّخاذ غير اللّه وليا أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أوّل من أسلم وجهه للّه من قومه، و أخلص من أمته، و قيل: معنى أَسْلَمَ استسلم لأمر اللّه، ثم نهاه اللّه عزّ و جلّ أن يكون من المشركين. و المعنى: أمرت بأن أكون أوّل من أسلم و نهيت عن الشرك؛ أى يقول لهم هذا، ثم أمره أن يقول: إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه. و الخوف: توقع المكروه، و قيل: هو هنا بمعنى العلم، أى إنى أعلم إن عصيت ربى أن لى عذابا عظيما. قوله: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ و قرأ أهل المدينة و أهل مكة و ابن عامر على البناء للمفعول: أى من يصرف عنه العذاب، و اختار هذه القراءة سيبويه. و قرأ الكوفيون على البناء للفاعل و هو اختيار أبى حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة للّه. و معنى يَوْمَئِذٍ يوم العذاب العظيم فَقَدْ رَحِمَهُ اللّه أى نجاه و أنعم عليه و أدخله الجنة، و الإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة؛ أى فذلك الصرف أو الرحمة الْفَوْزُ الْمُبِينُ أى الظاهر الواضح، و قرأ أبىّ: «من يصرف اللّه عنه». قوله: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ أى إن ينزل اللّه بك ضرا من فقر أو مرض فَلا

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۲۰

كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ أى لا قادر على كشفه سواه وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ من رخاء أو عافية فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة ذلك المسّ بالشرّ و الخير. قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ القهر: الغلبة، و القاهر: الغالب، و أقهر الرجل: إذا صار مقهورا ذليلا، و منه قول الشاعر «۱»:

تمنّى حصين أن يسود جذاعهفأمسى حصين قد أذلّ و أقهرا

و معنى فَوْقَ عِبادِهِ فوقية الاستعلاء بالقهر و الغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أى بالمنزلة و الرفعة. و فى القهر معنى زائد ليس فى القدرة، و هو منع غيره عن بلوغ المراد وَ هُوَ الْحَكِيمُ فى أمره الْخَبِيرُ بأفعال عباده. قوله: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ

أَكْبَرُ شَهادَةً أيّ: مبتدأ، و أكبر:

خبره، و شهادة: تميز، و الشيء: يطلق على القديم و الحادث، و المحال و الممكن. و المعنى: أىّ شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد؛ و قيل إن شَيْءٍ هنا موضوع موضع اسم اللّه تعالى. و المعنى: اللّه أكبر شهادة؛ أى انفراده بالربوبية، و قيام البراهين على توحيده، أكبر شهادة و أعظم فهو شهيد بينى و بينكم؛ و قيل إن قوله: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه و بينهم كان أكبر شهادة له صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: إنه قد تمّ الجواب عند قوله: قُلِ اللَّهُ يعنى اللّه أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال: شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أى هو شهيد بينى و بينكم. قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى أوحى اللّه إلىّ هذا القرآن الذى تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به و أنذر به من بلغ إليه؛ أى كلّ من بلغ إليه من موجود و معدوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلة، و فى هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجودا وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة فى علم أصول الفقه، و قرأ أبو نهيك وَ أُوحِيَ على البناء للفاعل، و قرأ ابن عدى على البناء للمفعول. قوله: أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى الاستفهام للتوبيخ و التقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، و أما من قرأ على الخبر فقد حقّق عليهم شركهم، و إنما قال: آلِهَةً أُخْرى لأنّ الآلهة جمع؛ و الجمع يقع عليه التأنيث، كذا قال الفرّاء، و مثله قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى «٢» و قال: فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى قُلْ لا أَشْهَدُ أى فأنا لا أشهد معكم، فحذف لدلالة الكلام عليه، و ذلك لكون هذه الشهادة باطلة، و مثله فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ و ما: فى مِمَّا تُشْرِكُونَ موصولة أو مصدرية؛ أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة، أو من إشراككم باللّه. قوله: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الكتاب: للجنس فيشمل التوراة و الإنجيل و غيرهما؛ أى يعرفون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، قال به جماعة من السلف، و إليه ذهب الزجاج؛ و قيل: إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أى يعرفونه معرفة محققة بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء، و كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ بيان لتحقق تلك المعرفة و كمالها و عدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هى البالغة إلى غاية الإتقان إجمالا و تفصيلا. قوله: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

---

(١). هو المخبل السعدى.

(٢). الأعراف: ١٨٠.

فى محل رفع على الابتداء، و خبره فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و دخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ و قيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ و قيل: هو نعت للموصول الأوّل. و على الوجهين الأخيرين يكون فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ معطوفا على جملة الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ و المعنى على الوجه الأوّل: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم و تمرّدهم لا يؤمنون بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و على الوجهين الأخيرين: أن أولئك الذين آتاهم اللّه الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحقّ و عدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم، فهم لا يؤمنون. قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى اختلق على اللّه الكذب فقال: إنّ فى التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ التى يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البيّنة، فجمع بين كونه كاذبا على اللّه و مكذّبا بما أمره اللّه بالإيمان به، و من كان هكذا فلا أحد من عباد اللّه أظلم منه، و الضمير فى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ للشأن.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سلمان الفارسيّ قال:

إنا نجد فى التوراة أن اللّه خلق السماوات و الأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة

واحدة و أمسك عنده تسعا و تسعين رحمة فبها يتراحمون، و بها يتعاطفون، و بها يتباذلون، و بها يتزاورون، و بها تحنّ الناقة، و بها تنتج البقرة، و بها تيعر الشاة، و بها تتابع الطير، و بها تتابع الحيتان فى البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، و رحمته أفضل و أوسع. و قد أخرج مسلم و أحمد و غيرهما عن سلمان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «خلق اللّه يوم خلق السموات و الأرض مائة رحمة: منها رحمة يتراحم بها الخلق، و تسعة و تسعون ليوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة». و ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لما قضى اللّه الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش: إنّ رحمتى سبقت غضبى». و قد روى من طرق أخرى بنحو هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ يقول ما استقرّ فى الليل و النهار، و فى قوله: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا قال: أما الولى فالذى تولاه و يقرّ له بالربوبية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: بديع السّموات و الأرض. و أخرج أبو عبيد فى فضائله و ابن جرير و ابن الأنبارى عنه قال: كنت لا أدرى ما فاطر السّموات و الأرض؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قال: يرزق و لا يرزق.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ قال: من يصرف عنه العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ يقول: بعافية. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: جاء النحام بن زيد و قردم ابن كعب و بحرى بن عمير فقالوا: يا محمد! ما تعلم مع اللّه إلها غيره؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا إله إلا اللّه، بذلك بعثت، و إلى ذلك أدعو» فأنزل اللّه: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً الآية. و أخرج

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٢٢

ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مجاهد قال: أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن يسأل قريشا أى شىء أكبر شهادة؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول: اللّه شهيد بينى و بينكم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ يعنى أهل مكة وَ مَنْ بَلَغَ يعنى من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى كسرى و قيصر و النجاشى و كلّ جبار يدعوهم إلى اللّه عزّ و جل، و ليس بالنجاشى الذى صلّى عليه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن مردويه و أبو نعيم و الخطيب و ابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به، ثم قرأ و أوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به و من بلغ». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم» و فى لفظ: «من بلغه القرآن حتى تفهّمه و تعقّله كان كمن عاين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلّمه». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن مجاهد فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ قال: العرب وَ مَنْ بَلَغَ قال: العجم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال النضر و هو من بنى عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات و العزى، فأنزل اللّه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً الآية.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (٢٦)

وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٢٨) وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)

قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ قرأ الجمهور بالنون فى الفعلين، و قرئ بالياء فيهما، و ناصب الظرف محذوف مقدّر متأخرا: أى يوم نحشرهم كان كيت و كيت، و الاستفهام فى أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ للتقريع و التوبيخ للمشركين. و أضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء للّه فى الحقيقة، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، و هى ما كانوا يعبدونه من دون اللّه أو يعبدونه مع اللّه. قوله: الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أى تزعمونها شركاء، فحذف المفعولان معا، و وجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم فى تلك الحال أو كانت حاضرة و لكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه، فكان وجودها كعدمها. قوله: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا

وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ قال الزجاج: تأويل هذه الآية أن اللّه عزّ و جلّ أخبر بقصص المشركين و افتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، و نظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا. فإذا وقع فى هلكة تبرأ منه فتقول: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه. انتهى. فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم: أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به و قاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود و الحلف على نفيه بقوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و قيل: المراد بالفتنة هنا جوابهم: أى لم يكن جوابهم إلا الجحود و التبرّى، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا، و جملة ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ معطوفة على عامل الظرف المقدّر كما مرّ و الاستثناء مفرّغ، و قرئ فِتْنَتُهُمْ بالرفع و بالنصب، و يكن و تكن و الوجه ظاهر، و قرئ و ما كان فتنتهم و قرئ: ربنا بالنصب على النداء انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ بإنكار ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى زال و ذهب افتراؤهم و تلاشى و بطل ما كانوا يظنّونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى اللّه، هذا على أنّ ما مصدرية؛ و قيل: هى موصولة، عبارة عن الآلهة: أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون اللّه فلم يغن عنهم شيئا، و هذا تعجيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من حالهم المختلفة و دعواهم المتناقضة؛ و قيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة لأنها دار لا يجرى فيها غير الصدق، فمعنى: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ نفى شركهم عند أنفسهم، و فى اعتقادهم و يؤيد هذا قوله تعالى: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً «١». قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين فى الدنيا، و الضمير عائد إلى الذين أشركوا: أى و بعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، و الأكنة: الأغطية جمع كنان مثل الأسنة و السنان، كنت الشي‏ء فى كنه: إذا جعلته فيه، و أكننته أخفيته، و جملة جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو فى محل نصب على الحال: أى و قد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن، أو لئلا يفقهوه، و الوقر: الصمم؛ يقال: وقرت أذنه تقر وقرا: أى صمت.

و قرأ طلحة بن مصرف وقرا بكسر الواو: أى جعل فى آذانهم ما سدّها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، و هو مقدار ما يطيق أن يحمله، و ذكر الأكنة و الوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق و سماعه كأن قلوبهم لا تعقل و أسماعهم لا تدرك وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها أى لا يؤمنوا بشي‏ء من الآيات التى يرونها من المعجزات و نحوها لعنادهم و تمرّدهم. قوله: حَتَّى

إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ حتى هنا: هى الابتدائية التى تقع بعدها الجمل، و جملة يجادلونك فى محل نصب على الحال، و المعنى: أنهم بلغوا من الكفر و العناد أنهم إذا جاءوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين؛ و قيل: حتى هى الجارة و ما بعدها فى محل جر، و المعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين، و هذا غاية التكذيب و نهاية العناد. و الأساطير قال الزجاج: واحدها أسطار. و قال الأخفش: أسطورة. و قال أبو عبيدة: إسطارة. و قال النحاس: أسطور.

و قال القشيرى: أسطير. و قيل: هو جمع لا واحد له كعباديد و أبابيل. و المعنى: ما سطره الأوّلون فى الكتب

---

(١). النساء: ١٢٣.

من القصص و الأحاديث. قال الجوهرى: الأساطير: الأباطيل و الترهات. قوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ أى ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و يبعدون هم فى أنفسهم عنه. و قيل:

إنها نزلت فى أبى طالب فإنه كان ينهى الكفار عن أذية النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و يبعد هو عن إجابته وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ أى ما يهلكون بما يقع منهم من النهى و النأى إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب اللّه و سخطه، و الحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من تتأتى منه الرؤية، و عبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعانى. و وُقِفُوا معناه حبسوا، يقال: وقفته وقفا و وقف وقوفا؛ و قيل: معنى وُقِفُوا عَلَى النَّارِ: أدخلوها، فتكون على بمعنى فى؛ و قيل: هى بمعنى الباء: أى وقفوا بالنار، أى بقربها معاينين لها، و مفعول ترى محذوف، و جواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب، و التقدير: لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلا و حالا فظيعا فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ أى إلى الدنيا وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا أى التى جاءنا بها رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بها، العاملين بما فيها، و الأفعال الثلاثة داخلة تحت التمنى: أى تمنوا الرد، و أن لا يكذبوا، و أن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هى قراءة الكسائى و أهل المدينة و شعبة و ابن كثير و أبى عمرو. و قرأ حفص و حمزة بنصب نكذب و نكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمنى، و اختار سيبويه القطع فى وَ لا نُكَذِّبَ فيكون غير داخل فى التمنى، و التقدير:

و نحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب: أى لا نكذب رددنا أو لم نردّ، قال: و هو مثل دعنى و لا أعود: أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى. و استدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمنى بقوله: وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ لأن الكذب لا يكون فى التمنى. و قرأ ابن عامر وَ نَكُونَ بالنصب و أدخل الفعلين الأوّلين فى التمنى. و قرأ أبىّ و لا نكذّب بآيات ربّنا أبدا. و قرأ هو و ابن مسعود يا ليتنا نردّ فلا نكذّب بالفاء و النصب، و الفاء ينصب بها فى جواب التمنى كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، و قال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء. قوله: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ هذا إضراب عما يدلّ عليه التمنى من الوعد بالإيمان و التصديق: أى لم يكن ذلك التمنى منهم عن صدق نية و خلوص اعتقاد بل هو لسبب آخر، و هو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أى يجحدون من الشرك و عرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمنى و المواعيد الكاذبة؛ و قيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق و الكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ و قيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ و قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه و هو مثل القول الأوّل؛ و قيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث و القيامة وَ لَوْ رُدُّوا إلى الدنيا حسبما

تمنوا لَعادُوا لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات اللّه ثم عاند وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أى متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال و لو شاهدوا ما شاهدوا؛ و قيل المعنى: و إنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق و الإيمان. و قرأ يحيى بن وثاب وَ لَوْ رُدُّوا بكسر الراء

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۲۵

لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، و جملة وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ معترضة بين المعطوف، و هو و قالوا: و بين المعطوف عليه، و هو لعادوا؛ أى لعادوا إلى ما نهوا عنه وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا أى ما هى إلا حياتنا الدنيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت، و هذا من شدّة تمرّدهم و عنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قد تقدّم تفسيره فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ أى حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم؛ و قيل: على بمعنى عند، و جواب لو محذوف؛ أى لشاهدت أمرا عظيما، و الاستفهام فى أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ للتّقريع و التّوبيخ: أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنا موجودا، و هذا الجزاء الذى يجحدونه حاضرا.

قالُوا بَلى وَ رَبِّنا اعترفوا بما أنكروا و أكدوا اعترافهم بالقسم قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ الذى تشاهدونه و هو عذاب النار بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى بسبب كفركم به أو بكل شى‏ء مما أمرتم بالإيمان به فى دار الدنيا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ قال: معذرتهم.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ قال: حجّتهم، إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ يعنى المنافقين و المشركين قالوا و هم فى النار: هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا، فقال اللّه:

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ فى القيامة ما كانُوا يَفْتَرُونَ يكذبون فى الدنيا.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ثم قال: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً قال: بجوارحهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ قال:

باعتذارهم الباطل وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ قال: ما كانوا يشركون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ قال: قريش، و فى قوله: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً قال: كالجعبة للنبل. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً قال:

يسمعونه بآذانهم و لا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التى لا تسمع النداء و لا تدرى ما يقال لها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: الغطاء أكنّ قلوبهم أن يفقهوه، و الوقر: الصمم، و أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أساجيع الأوّلين. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أساطير الأوّلين: أحاديث الأوّلين.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: أساطير الأوّلين: كذب الأوّلين و باطلهم.

و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ قال: نزلت فى أبى طالب كان ينهى المشركين أن يردّوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يتباعد عما جاء به. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن القاسم بن مخيمرة نحوه. و أخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال:

ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به، و ينأون عنه: يتباعدون. و أخرج ابن جرير من طريق العوفىّ عنه قال:

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۲۶

لا يلقونه و لا يدعون أحدا يأتيه. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن الحنفية فى الآية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه و لا يجيبونه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: ينهون عن القرآن و عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ينأون عنه يتباعدون عنه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى هلال فى الآية قال: نزلت فى عمومة النبىّ و كانوا عشرة، فكانوا أشدّ الناس معه فى العلانية، و أشدّ الناس عليه فى السرّ. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ قال: من أعمالهم وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ يقول: و لو وصل اللّه لهم دنيا كدنياهم التى كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السّوء التى كانوا نهوا عنها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أخبر اللّه سبحانه أنهم لو ردّوا لم يقدروا على الهدى، فقال: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ أى و لو ردّوا إلى الدنيا لحيل بينهم و بين الهدى كما حيل بينهم و بينه أوّل مرّة و هم فى الدنيا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۱ الى ۳۶]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۳۲) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (۳۴) وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (۳۵)

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶)

قوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ هم الذين تقدّم ذكرهم. و المراد من تكذيبهم بلقاء اللّه:

تكذيبهم بالبعث، و قيل: تكذيبهم بالجزاء. و الأوّل أولى، لأنهم الذين قالوا قريبا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ «۱» حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أى القيامة، و سمّيت ساعة لسرعة الحساب فيها.

و معنى بغتة: فجأة، يقال: بغتهم الأمر يبغتهم بغتا و بغتة. قال سيبويه: و هى مصدر فى موضع الحال، قال:

و لا يجوز أن يقاس عليه، فلا يقال جاء فلان سرعة، و حَتَّى غاية للتكذيب لا للخسران، فإنه لا غاية له قالُوا يا حَسْرَتَنا هذا جواب إذا جاءتهم، أوقعوا النداء على الحسرة، و ليست بمنادى فى الحقيقة، ليدلّ ذلك على كثرة تحسرهم. و المعنى: يا حسرتنا احضرى فهذا أوانك، كذا قال سيبويه فى هذا النداء و أمثاله كقولهم: يا للعجب، و يا للرجل، و قيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحلّ بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، و الحسرة: الندم الشديد عَلى ما فَرَّطْنا فِيها أى على تفريطنا فى الساعة: أى فى الاعتداد لها، و الاحتفال بشأنها، و التصديق بها. و معنى فرّطنا ضيعنا، و أصله

---

(۱). الأنعام: ۲۹.

التقدّم، يقال فرط فلان: أى تقدّم و سبق إلى الماء، و منه قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و أنا فرطكم على الحوض»، و منه الفارط:

أى المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم: عَلى ما فَرَّطْنا أى على ما قدّمنا من عجزنا من التصديق بالساعة و الاعتداد لها. و قال ابن جرير الطبرى: إن الضمير فى فرّطنا فيها يرجع إلى الصفقة، و ذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، و الدنيا بالآخرة قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فى صفقتنا، و إن لم تذكر فى الكلام فهو دالّ عليها، لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة؛ و قيل: الضمير راجع إلى الحياة:

أى على ما فرّطنا فى حياتنا. قوله: وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ هذه الجملة حالية: أى يقولون تلك المقالة، و الحال أنهم يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أى ذنوبهم، جمع وزر: يقال: وزر يزر، فهو وازر و موزور، و أصله من الوزر. قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع: احمل وزرك: أى ثقلك، و منه الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية. و المعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها، و جعلها محمولة على الظهور تمثيل أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ أى بئس ما يحملون. قوله:

وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ أى و ما متاع الدنيا إلا لعب و لهو، على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هى إلا لعب و لهو. و القصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا و اللعب معروف، و كذلك اللهو، و كل ما يشغلك فقد ألهاك؛ و قيل: أصله الصرف عن الشىء. و ردّ بأن اللهو بمعنى الصرف لامه ياء، يقال: لهيت عنه، و لام اللهو واو، يقال: لهوت بكذا وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أى هى خير للذين يتقون الشرك و المعاصى، أفلا تعقلون ذلك. قرأ ابن عامر «و لدار الآخرة» بلام واحدة و بالإضافة، و قرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها، و جعل الآخرة نعتا لها و الخبر خير، و قرئ تعقلون بالفوقية و التحتية. قوله: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ هذا الكلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عما ناله من الغمّ و الحزن بتكذيب الكفار له، و دخول قد للتكثير فإنها قد تأتى لإفادته كما تأتى ربّ، و الضمير فى إِنَّهُ للشأن، و قرئ بفتح الياء من يحزنك و ضمها، و قرئ يُكَذِّبُونَكَ مشدّدا و مخففا، و اختار أبو عبيد قراءة التخفيف. قال النحاس:

و قد خولف أبو عبيد فى هذا. و معنى يُكَذِّبُونَكَ على التشديد: ينسبونك إلى الكذب و يردّون عليك ما قلته. و معنى المخفّف: أنهم لا يجدونك كذابا، يقال أكذبته: وجدته كذابا، و أبخلته: وجدته بخيلا.

و حكى الكسائى عن العرب: أكذبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، و كذّبته: أخبرت أنه كاذب. و قال الزجاج: كذبته إذا قلت له كذبت، و أكذبته: إذا أردت أن ما أتى به كذب. و المعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق، و لكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به، و لهذا قال: وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ و وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ لهم و الإزراء عليهم، و وصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذى وقع منهم ظلم بين. قوله: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا هذا من جملة التسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أى أن هذا الذى وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأوّل ما صنعه الكفار مع من أرسله اللّه إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد

بهم و لا تحزن و اصبر كما صبروا على ما كذبوا به و أوذوا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد و لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ «۱» إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا «۲» وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ- إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ- وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «۳» كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۴»، وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ بل وعده كائن، و أنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم. و قد كان ذلك و للّه الحمد وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ما جاءك من تجرّى قومهم عليهم فى الابتداء و تكذيبهم لهم ثم نصرهم عليهم فى الانتهاء، و أنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل، فيرجعون إليك، و يدخلون فى

الدين الذى تدعوهم إليه طوعا أو كرها. قوله: وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ كان النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم يكبر عليه إعراض قومه و يتعاظمه و يحزن له فبين له اللّه سبحانه أن هذا الذى وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، و الإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة، لما سبق فى علم اللّه عزّ و جلّ، و ليس فى استطاعته و قدرته إصلاحهم و إجابتهم قبل أن يأذن اللّه بذلك، ثم علق ذلك بما هو محال، فقال: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ فتأتيهم بآية منه أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ منها فافعل، و لكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ «۵»، و لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ «۶» و النفق: السّرب و المنفذ، و منه النّافقاء لجحر اليربوع، و منه المنافق. و قد تقدّم فى البقرة ما يغنى عن الإعادة. و السلم: الدرج الذى يرتقى عليه، و هو مذكر لا يؤنث، و قال الفراء: إنه يؤنث. قال الزجاج: و هو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن، و قيل: إن الخطاب و إن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فالمراد به أمته، لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرّد الكفرة و تصميمهم على كفرهم، و لا يشعرون أن للّه سبحانه فى ذلك حكمة لا تبلغها العقول و لا تدركها الأفهام، فإن اللّه سبحانه لو جاء لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو الابتلاء و الامتحان معنى، و لهذا قال: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى جمع إلجاء و قسر، و لكنه لم يشأ ذلك، و للّه الحكمة البالغة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ فإنّ شدّة الحرص و الحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن اللّه بذلك هو صنيع أهل الجهل و لست منهم، فدع الأمور مفوّضة إلى عالم الغيب و الشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة، و لا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التى لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارا إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ أى إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول و توجبه الأفهام، و هؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون و لا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة و فى آذانهم من الوقر، و لهذا قال: وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعا لا يفهمون الصواب و لا يعقلون الحق: أى أن هؤلاء لا يلجئهم اللّه إلى الإيمان و إن كان قادرا على ذلك، كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: قالُوا يا حَسْرَتَنا قال: الحسرة الندامة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب بسند صحيح عن أبى سعيد الخدرى قال:

---

(۱). الرعد: ۳۸.

(۲). غافر: ۵۱.

(۳). الصافات: ۱۷۱- ۱۷۳.

(۴). المجادلة: ۲۱.

(۵). فاطر: ۸.

(۶). الغاشية: ۲۲.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يا حَسْرَتَنا قال: «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فتلك الحسرة». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ قال: ما يعملون. و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: لَعِبٌ وَ لَهْوٌ قال: كل لعب: لهو. و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه و الضياء فى المختارة عن علىّ بن أبى طالب قال: قال أبو جهل للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: إنا لا

نكـذبك و لكن نكـذّب بما جئت به، فأنزل اللّه فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى يزيد المدنى أن أبا جهل قال: و اللّه إنى لأعلم أنه صادق، و لكن متى كنا تبعا لبنى عبد مناف؟.

و أخرج عبـد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى ميسرة نحو رواية علىّ بن أبى طالب. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ قال: يعلمون أنك رسول اللّه و يجحدون. و أخرج ابن جرير عن الضـحاك فى قوله: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ قال: يعزّى نبيه صـلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسـماء و الصفات عن ابن عباس قال: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ و النفق: السـرب، فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لهم سـلّما فى السّماء فتصعد عليه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به فافعل وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى يقول سـبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. و أخرج عبـد الرزاق و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و أبو الشـيخ عن قتادة فى قوله: نَفَقاً فِي الْأَرْضِ قال: سـربا أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ قال: يعنى الدرج. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ قال: المؤمنون وَ الْمَوْتى قال: الكفار. و أخرج هؤلاء عن مجاهد مثله.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

هـذا كان منهم تعنّتا و مكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله اللّه على رسوله من الآيات البيّنات التى من جملتها القرآن، و قد علموا أنهم قـد عجزوا عن أن يـأتوا بسورة مثله، و مرادهم بالآيـة هنـا، هى التى تضـطرهم إلى الإيمان: كنزول الملائكـة بمرأى منهم و مسمع، أو نتق الجبل، كما وقع لبنى إسـرائيل، فأمره اللّه سـبحانه أن يجيبهم بأن اللّه قادر على أن ينزل على رسوله آية تضـطرهم إلى الإيمان، و لكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التّكليف الذى هو الابتلاء و الامتحان، و أيضا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولهـا بـل سـيعاجلهم بالعقوبـة إذا لم يؤمنوا. قـال الزّجـاج: طلبوا أن يجمعهم على الهـدى، يعنى جمع إلجـاء وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن

اللّه قـادر على ذلـك، و أنه تركه لحكمـة بالغـة لاـ تبلغهـا عقولهم. قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ الدابـة: من دبّ يدبّ فهو دابّ: إذا مشـى مشـيا فيه تقارب خطو. و قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة وَ لا طائِرٍ معطوف على دَابَّةٍ مجرور فى قراءة الجمهور. و قرأ الحسن و عبـد اللّه بن أبى إسـحاق وَ لاـ طـائِرٍ بالرفع عطفا على موضع من دابـة على تقـدير زيادة من، و بِجَناحَيْهِ لـدفع الإبهام، لأنّ العرب تسـتعمل الطّيران لغير الطير كقولهم: طر فى حاجتى: أى أسـرع، و قيل: إنّ اعتدال جسـد الطـائر بين الجنـاحين يعينه على الطيران، و مع عـدم الاعتـدال يميـل، فأعلمنـا سـبحانه أن الطيران بالجنـاحين؛ و قيـل: ذكر الجناحين للتأكيد كضـرب بيده و أبصر بعينيه و نحو ذلك. و الجناح: أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء، و أصـله الميل إلى ناحيـة من النواحى. و المعنى: ما من دابـة من الدواب التى تدبّ فى أىّ مكان من أمكنة الأرض، و لا طائر يطير فى أىّ ناحية من نواحيها إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ أى جماعات مثلكم خلقهم اللّه كما خلقكم، و رزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه و تقديره و إحاطته بكل شىء، و قيل:

أمثالنا فى ذكر اللّه و الدّلالة عليه، و قيل: أمثالنا فى كونهم محشورين، و روى ذلك عن أبى هريرة. و قال سفيان ابن عيينة: أى ما من صنف من الدوابّ و الطير إلا فى الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، و منهم من يشره كالخنزير، و منهم من يعوى كالكلب، و منهم من يزهو كالطاووس؛ و قيل: أَمْثالُكُمْ فى أن لها أسماء تعرف بها. و قال الزّجاج: أَمْثالُكُمْ فى الخلق و الرزق و الموت و البعث و الاقتصاص. و الأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان. قوله: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ أى ما أغفلنا عنه و لا ضيعنا فيه من شيء. و المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإنّ اللّه أثبت فيه جميع الحوادث؛ و قيل: إنّ المراد به القرآن؛ أى ما تركنا فى القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا، و مثله قوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «١»، و قال: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ «٢»، و من جملة ما أجمله فى الكتاب العزيز قوله: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «٣» فأمر فى هذه الآية باتباع ما سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره اللّه سبحانه فى كتابه العزيز، بهذه الآية و بنحو قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي «٤» و بقوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «٥»، و مِنْ فى مِنْ شَيْءٍ مزيدة للاستغراق. قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ يعنى الأمم المذكورة، و فيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، و قد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، و منهم أبو ذرّ و أبو هريرة و الحسن و غيرهم. و ذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، و به قال الضحاك. و الأوّل أرجح للآية، و لما صح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، و لقول اللّه تعالى: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «٦»، و ذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية حشر الكفار، و ما تخلل كلام معترض. قالوا: و أما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب و القصاص. و استدلوا أيضا: بأن فى هذا الحديث خارج الصحيح «٧» عن بعض الرواة

---

(١). النحل: ٨٩.

(٢). النحل: ۴۴.

(٣). الحشر: ٧.

(۴). آل عمران: ٣١.

(۵). الأحزاب: ٢١.

(۶). التكوير: ۶.

(٧). أى: فى غير الصحيح كما فى القرطبى (۶/ ۴٢١)

زيادة، و لفظه «حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، و للحجر لم ركب على الحجر؟ و العود لم خدش العود؟» قالوا: و الجمادات لا يعقل خطابها و لا ثوابها و لا عقابها. قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ أى لا يسمعون بأسماعهم و لا ينطقون بألسنتهم، نزلهم منزلة من لا يسمع و لا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغى قبوله من الحجج الواضحة و الدلائل الصحيحة. و قال أبو على: يجوز أن يكون صممهم و بكمهم فى الآخرة. قوله: فِي الظُّلُماتِ أى فى ظلمات الكفر و الجهل و الحيرة لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم.

و المعنى: كائنين فى الظلمات التى تمنع من إبصار المبصرات و ضموا إلى الصمم و البكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسّهم كالمسلوبة التى لا ينتفع بها بحال، و قد تقدّم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الإعادة، ثم بين سبحانه أنّ الأمرّ بيده ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضلّه، و من شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى

غير الحقّ، و لا يمشى فيه إلا إلى صوب الاستقامة.

و قد أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ قال: أصنافا مصنّفة تعرف بأسمائها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: الطير أمة، و الإنس أمة، و الجن أمة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدىّ: قال: خلق أمثالكم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريح فى الآية قال: الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق اللّه من الدوابّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ يعنى: ما تركنا شيئا إلا و قد كتبناه فى أمّ الكتاب. و أخرج عبد الرزاق و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ قال: موت البهائم حشرها، و فى لفظ قال: يعنى بالحشر: الموت. و أخرج عبد الرزاق و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى هريرة قال: «ما من دابة و لا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها: كونى ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً و إن شئتم فاقرؤوا وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ الآية».

و أخرج ابن جرير عن أبى ذرّ قال: انتطحت شاتان عند النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال لى: «يا أبا ذرّ أ تدرى فيم انتطحتا؟ قلت: لا، قال: لكنّ اللّه يدرى و سيقضى بينهما» قال أبو ذرّ: و لقد تركنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علما. و أخرجه أيضا أحمد، و فى صحيح مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۰ الى ۴۵]

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (۴۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴)

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۵)

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۳۲

قوله: أَ رَأَيْتَكُمْ الكاف و الميم عند البصريين للخطاب و لا حظّ لهما فى الإعراب، و هو اختيار الزجاج. و قال الكسائى و الفراء و غيرهما: إن الكاف و الميم فى محل نصب بوقوع الرؤية عليهما. و المعنى:

أ رأيتم أنفسكم. قال فى الكشاف مرجّحا للمذهب الأوّل: إنه لا محل للضمير الثانى: يعنى الكاف من الإعراب، لأنك تقول: أ رأيتك زيدا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول: أ رأيت نفسك زيدا ما شأنه و هو خلف من القول. انتهى. و المعنى: أخبرونى إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ كما أتى غيركم من الأمم أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أى القيامة أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ هذا على طريقة التبكيت و التوبيخ: أى أ تدعون غير اللّه فى هذه الحالة من الأصنام التى تعبدونها أم تدعون اللّه سبحانه، و قوله: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ تأكيد لذلك التوبيخ: أى أغير اللّه من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين: أن أصنامكم تضرّ و تنفع و أنها آلهة كما تزعمون. قوله: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ معطوف على منفىّ مقدّر أى لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أى فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك. قوله: وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ أى و تنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى:

أى ما تجعلونه شريكا له من الأصنام و نحوها فلا تدعونها، و لا ترجون كشف ما بكم منها، بل تعرضون عنها إعراض الناس. و قال الزّجاج: يجوز أن يكون المعنى: و تتركون ما تشركون. قوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى و لقد أرسلنا إلى أمم كائنة من قبلك رسلا فكذبوهم فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ أى البؤس و الضرّ و قيل: البأساء المصائب فى الأموال، و الضراء المصائب فى الأبدان، و به قال الأكثر: لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أى يدعون اللّه بضراعة، مأخوذ من الضراعة و هى الذلّ، يقال: ضرع فهو ضارع، و منه قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط ممّا تطيح الطّوائح

قوله: فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أى فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا لكنهم لم يتضرعوا، و هذا عتاب لهم على ترك الدعاء فى كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدّة تمرّدهم و غلوّهم فى الكفر، و يجوز أن يكون المعنى أنهم تضرّعوا عند أن نزل بهم العذاب، و ذلك تضرّع ضرورى لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه، و الأول أولى كما يدل عليه وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ أى صلبت و غلظت وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى أغواهم بالتصميم على الكفر و الاستمرار على المعاصى. قوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أى تركوا ما ذكروا به، أو أعرضوا عما ذكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم، و به قال ابن عباس و ابن جريج و أبو على الفارسى. و المعنى: أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء و الضرّاء و أعرضوا عن ذلك فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ‌ءٍ أى لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الخير على أنواعه

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٣٣

فرح بطر و أشر و أعجبوا بذلك و ظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقا و صوابا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أى فجأة و هم غير مترقبين لذلك. و البغتة: الأخذ على غرّة من غير تقدمة أمارة، و هى مصدر فى موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه. قوله: فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ المبلس: الحزين الآيس من الخير لشدّة ما نزل به من سوء الحال، و من ذلك اشتق اسم إبليس، يقال: أبلس الرجل إذا سكت، و أبلست الناقة إذا لم ترع. قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرساقال نعم أعرفه و أبلسا «١»

أى تحيّر لهول ما رأى، و المعنى: فإذا هم محزونون متحيّرون آيسون من الفرح. قوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الدابر: الآخر، يقال: دبر القوم يدبرهم دبرا: إذا كان آخرهم فى المجى‌ء، و المعنى:

أنه قطع آخرهم: أى استؤصلوا جميعا حتى آخرهم. قال قطرب: يعنى أنهم استؤصلوا و أهلكوا. قال أمية ابن أبى الصلت:

فأهلكوا بعذاب حصّ دابرهمفما استطاعوا له صرفا و لا انتصروا

و منه التّدبير لأنه إحكام عواقب الأمور. قوله: وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أى على هلاكهم، و فيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه عند نزول النعم التى من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون فى الأرض و لا يصلحون، فإنهم أشدّ على عباد اللّه من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، و اقطع دابرهم و أبدلهم بالعدل الشامل لهم.

و قد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ قال: خوف السلطان و غلاء السعر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ قال: يعنى تركوا ما ذكروا به. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ قال: ما دعاهم اللّه إليه و رسله؛ أبوه و ردّوه عليهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْ‌ءٍ قال: رخاء الدنيا و يسرها. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

عن السدى فى قوله: حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا قال: من الرزق أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ قال: مهلكون، متغير حالهم فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا يقول: فقطع أصل الذين ظلموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى فى قوله: أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً قال: أمهلوا عشرين سنة، و لا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة، و محتاج

---

(۱). «المكرس»: الذى صار فيه الكرس، و الكرس: أبوال الإبل و أبعارها يتلبّد بعضها على بعض فى الدار و الدمن.

«أبلس»: سكت غمّا.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۳۴

إلى نقل عن الشارع و إلا فهو كلام لا طائل تحته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: المبلس:

المجهود المكروب الذى قد نزل به الشرّ الذى لا يدفعه، و المبلس أشد من المستكين، و فى قوله: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قال: استؤصلوا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

هذا تكرير للتّوبيخ لقصد تأكيد الحجّة عليهم، و وحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر و لهذا جمعه، و الختم: الطبع، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة، و المراد: أخذ المعانى القائمة بهذه الجوارح، أو أخذ الجوارح نفسها، و الاستفهام فى مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ للتوبيخ، و مَنْ مبتدأ، و إِلهٌ خبره، و غَيْرُ اللَّهِ صفة للخبر، و وحد الضمير فى بِهِ مع أن المرجع متعدّد، على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور، و قيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات، و قيل:

إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أى يأتيكم بذلك المذكور، ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالنظر فى تصريف الآيات و عدم قبولهم لها تعجيبا له من ذلك، و التصريف: المجىء بها على جهات مختلفة، تارة إنذار، و تارة إعذار، و تارة ترغيب، و تارة ترهيب، و قوله: ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ عطف على نصرف، و معنى يصدفون:

يعرضون، يقال: صدف عن الشىء: إذا أعرض عنه صدفا و صدوفا. قوله: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أى أخبرونى عن ذلك، و قد تقدّم تفسير البغتة قريبا أنها الفجأة. قال الكسائى: بغتهم يبغتهم بغتا و بغتة:

إذا أتاهم فجأة، أى من دون تقديم مقدّمات تدل على العذاب، و الجهرة أن يأتى العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه؛ و قيل البغتة: إتيان العذاب ليلا و الجهرة: إتيان العذاب نهارا كما فى قوله تعالى: بَياتاً أَوْ نَهاراً «۱». هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ الاستفهام للتقرير: أى ما يهلك هلاك تعذيب و سخط إلا القوم الظالمون. و قرئ: يُهْلَكُ على البناء للفاعل. قال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أنتم و من أشبهكم؟

انتهى. قوله: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل، أى مبشرين لمن أطاعهم بما أعدّ اللّه له من الجزاء العظيم، و منذرين لمن عصاهم بما له عند اللّه من العذاب الوبيل؛ و قيل: مبشرين فى الدنيا بسعة الرزق و فى الآخرة بالثواب، و منذرين: مخوّفين بالعقاب، و هما حالان مقدّرتان: أى ما نرسلهم إلا مقدّرين تبشيرهم و إنذارهم فَمَنْ آمَنَ

وَ أَصْلَحَ أى آمن بما جاءت به الرسل وَ أَصْلَحَ حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ بوجه من الوجوه وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ بحال من الأحوال، هـذا حال من آمن و أصلح، و أما حال المكذبين؛ فهو أنه يمسـهم العذاب بسبب فسـقهم؛ أى خروجهم عن التصديق و الطاعة.

---

(١). يونس: ٥٠.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٣٥

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: يَصْدِفُونَ قال:
يعـدلون. و أخرج ابن أبى شـيبة و عبـد بن حميـد و ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و أبـو الشـيخ عن مجاهـد فى قـوله:
يَصْدِفُونَ قال: يعرضون، و قال فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً قال:
فجأة آمنين، أو جهرة، قال: و هم ينظرون. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كلّ فسق فى القرآن فمعناه الكذب.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٠ الى ٥٥]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)
وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه، و تعنّتهم بإنزال الآيات التى تضطرّهم إلى الإيمان، أنه لم يكن عنده خزائن اللّه حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، و المراد: خزائن قدرته التى تشتمل على كلّ شىء من الأشياء، و يقول لهم: إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به، و يعرّفهم بما سيكون فى مستقبل الدهر وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ حتى تكلّفونى من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر، و ليس فى هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، و قد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، و لا يترتب على ذلك فائدة دينية و لا دنيوية. بل الكلام فى مثل هذا من الاشتغال بما لا يعنى، و من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ أى ما أتبع إلا ما يوحيه اللّه إلىّ، و قد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملا بما يفيده القصر فى هذه الآية، و المسألة مدوّنة فى الأصول و الأدلة عليها معروفة، و قد صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أوتيت القرآن و مثله معه» قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ هذا الاستفهام للإنكار، و المراد: أنه لا يستوى الضالّ و المهتدى، أو المسلم و الكافر أو من اتبع ما أوحى إليه و من لم يتبعه، و الكلام تمثيل أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ فى ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما، فإنه بين، لا يلتبس على من له أدنى عقل و أقلّ تفكر. قوله: وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ الإنذار: الإعلام، و الضمير فى به راجع إلى ما يوحى؛ و قيل إلى اللّه؛ و قيل: إلى اليوم الآخر. و خصّ الذين يخافون أن يحشروا؛ لأنّ الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به و إنكاره

فتح القدير، ج٢، ص: ١٣٦

له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك. قيل: و معنى يخافون: يعلمون و يتيقنون أنهم محشورون، فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين و أهل الذمة و بعض المشركين؛ و قيل معنى الخوف على حقيقته، و المعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يذكره و إن لم يكن مصدقا به فى الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع و التذكير له أنفع. قوله:

لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ الجملة فى محل نصب على الحال، أى أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولىّ لهم يواليهم و لا نصير يناصرهم و لا شفيع يشفع لهم من دون اللّه، و فيه ردّ على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم، و هم أهل الكتاب، أو أن أصنامهم تشفع لهم، و هم المشركون. قوله: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ الدعاء: العبادة مطلقا؛ و قيل: المحافظة على صلاة الجماعة؛ و قيل: الذكر و قراءة القرآن؛ و قيل: المراد: الدعاء للّه بجلب النفع و دفع الضرر. قيل: و المراد بذكر الغداة و العشىّ: الدوام على ذلك و الاستمرار؛ و قيل: هو على ظاهره، و يُرِيدُونَ وَجْهَهُ فى محل نصب على الحال. و المعنى: أنهم مخلصون فى عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه اللّه تعالى: أى يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره. قوله: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ هذا كلام معترض بين النهى و جوابه، متضمن لنفى الحامل على الطرد: أى حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شىء، و حسابك على نفسك ما عليهم منه شىء، فعلام تطردهم؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا «١» و طعن عندك فى دينهم و حسبهم، فكيف و قد زكّاهم اللّه عزّ و جلّ بالعبادة و الإخلاص، و هذا هو مثل قوله تعالى: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «٢» و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى «٣» و قوله: إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي «۴». قوله: فَتَطْرُدَهُمْ جواب النفى فى قوله: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ و هو من تمام الاعتراض: أى إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم، و جالسهم، و لا تطردهم، مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدين و الفضل، و من فى ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ للتبعيض، و الثانية للتوكيد، و كذا فى ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ. قوله: فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ جواب للنهى، أعنى: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أى فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، و حاشاه عن وقوع ذلك، و إنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل الإسلام كقوله تعالى: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ «۵»، و قيل: إن فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ معطوف على فَتَطْرُدَهُمْ على طريق التسبب، و الأوّل أولى. قوله: وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أى مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض، و الفتنة الاختبار: أى عاملناهم معاملة المختبرين، و اللام فى لِيَقُولُوا للعاقبة: أى ليقول البعض الأوّل مشيرين إلى البعض الثانى أَ هؤُلاءِ الذين مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أى أكرمهم بإصابة الحق دوننا. قال النحاس: و هذا من المشكل، لأنه يقال: كيف فتنوا ليقولوا هذا القول و هو إن كان على طريقة الإنكار كفر، و أجاب بجوابين: الأوّل أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار؛ و الثانى

---

(١). هود: ٢٧.

(٢). الأنعام: ۱۶۴.

(٣). النجم: ٣٩.

(۴). الشعراء: ١١٣.

(۵). الزمر: ۶۵.

أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبته هذا القول منهم كقوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً «١».
قوله: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ هذا الاستفهام للتقرير. و المعنى: أن مرجع الاستحقاق لنعم اللّه سبحانه هو الشكر، و هو أعلم بالشاكرين له، فما بالكم تعترضون بالجهل و تنكرون الفضل. قوله: وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا هم الذين نهاه اللّه عن طردهم، و هم المستضعفون من المؤمنين، كما سيأتى بيانه فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أمره اللّه بأن يقول لهم هذا القول تطييبا لخواطرهم و إكراما لهم. و السلام، و السلامة:
بمعنى واحد، فمعنى سلام عليكم: سلمكم اللّه. و قد كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام؛ و قيل: إن هذا السلام هو من جهة اللّه: أى أبلغهم منا السلام. قوله: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أى أوجب ذلك إيجاب فضل و إحسان؛ و قيل: كتب ذلك فى اللوح المحفوظ. قيل: هذا من جملة ما أمره اللّه سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيرا بسعة مغفرة اللّه و عظيم رحمته.
قوله: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ قرأ ابن عامر و عاصم و نافع بفتح أن من أنه، و قرأ الباقون بكسرها. فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة بدلا من الرحمة: أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره. و على القراءة الثانية تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستئناف، و موضع بجهالة النصب على الحال، أى عمله و هو جاهل. قيل: و المعنى أنه فعل فعل الجاهلين، لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر فى العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه، فقد فعل فعل أهل الجهل و السفه لا فعل أهل الحكمة و التدبير؛ و قيل المعنى:
أنه عمل ذلك و هو جاهل لما يتعلّق به من المضرة، فتكون فائدة التقييد بالجهالة: الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر. قوله: ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد عمله وَ أَصْلَحَ ما أفسده بالمعصية، فراجع الصواب و عمل الطاعة فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قرأ ابن عامر و عاصم بفتح الهمزة من فَأَنَّهُ و قرأ الباقون بالكسر. فعلى القراءة الأولى تكون أن و ما بعدها خبر مبتدأ محذوف: أى فأمره أن اللّه غفور رحيم، و هذا اختيار سيبويه، و اختار أبو حاتم أن الجملة فى محل رفع على الابتداء و الخبر مضمر، كأنه قيل: فله فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قال: لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء. و أما على القراءة الثانية فالجملة مستأنفة.
قوله: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أى مثل ذلك التفصيل نفصلها، و التفصيل: التبيين، و المعنى: أن اللّه فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، و بين لهم حكم كل طائفة. قوله: وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ
قال الكوفيون: هو معطوف على مقدّر: أى و كذلك نفصل الآيات لنبين لكم و لتستبين، قال النحاس:
و هذا الحذف لا يحتاج إليه. و قيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى: قرئ لِتَسْتَبِينَ بالفوقية و التحتية، فالخطاب على الفوقية للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، و سبيل: منصوب على قراءة نافع. و أما على قراءة ابن كثير و أبى عمرو و ابن عامر و حفص بالرفع، فالفعل مسند إلى سبيل، و أما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضا، و هى قراءة حمزة و الكسائى و شعبة بالرفع. و إذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين.
و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

---

(١). القصص: ٨.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ قال: الأعمى الكافر الذى عمى عن حقّ اللّه و أمره و نعمه عليه، و البصير:
العبد المؤمن الذى أبصر بصرا نافعا فوحّد اللّه وحده، و عمل بطاعة ربه، و انتفع بما آتاه اللّه. و أخرج أحمد و ابن جرير و ابن

المنـذر و ابن أبى حـاتم و الطبرانى و أبو الشـيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحليـة عن عبـد اللّه ابن مسـعود قـال: «مرّ الملأـ من قريش على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنده صـهيب و عمّار و بلال و خبّاب و نحوهم من ضـعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضـيت بهؤلاء من قومك أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أ نحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنا، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فـأنزل اللّه فيهم القرآن وَ أَنْـذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخـافُونَ أَنْ يُحْشَـرُوا إِلى رَبِّهِمْ إلى قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و قـد أخرج هـذا السـبب مطوّلا ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة، و فيه: إن الذين جاءوا إلى النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و قرظـة بن عبد عمرو بن نوفل و الحارث بن عامر بن نوفل و مطعم بن عدىّ بن الخيار بن نوفل فى أشـراف الكفار من عبد مناف.

و أخرجه ابن أبى شـيبة و ابن ماجة و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشـيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحليـة، و البيهقى فى الـدلائل عن خبّاب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمى و عيينـة ابن حصن الفزارى، فـذكر نحو حديث عبد اللّه بن مسعود مطوّلا. قال ابن كثير: هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، و الأقرع و عيينة إنما أسـلما بعد الهجرة بدهر. و أخرج مسـلم و النسائى و ابن ماجة و غيرهم عن سـعد بن أبى وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية فى سـتة: أنا و عبد اللّه بن مسـعود و بلال و رجل من هـذيل و رجلان لست أسـمّيهما، فقال المشـركون للنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم: اطرد هؤلاء عنك لا يجترءون علينـا، فوقـع فى نفس رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم مـا شـاء اللّه أن يقع فحـدّث نفسه، فـأنزل اللّه وَ لاـ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ و قد روى فى بيان السـبب روايات موافقة لما ذكرنا فى المعنى. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ قال: يعنى الصلاة المكتوبة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الصـلاة المكتوبة الصّـبح و العصـر. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم النخعى فى الآية قال: هم أهل الذكر لا تطردهم عن الذكر. قال سـفيان: أى أهل الفقه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ يعنى أنه جعل بعضـهم أغنياء و بعضـهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء: أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا يعنى أ هؤلاء هداهم اللّه، و إنما قالوا ذلك اسـتهزاء و سـخرية. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أ هؤلاء الذين منّ اللّه عليهم من بيننا أى لو كان لهم كرامة على اللّه ما أصابهم هذا الجهد.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ماهان قال: أتى قوم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فقـالوا: إنـا أصـبنا ذنوبـا عظاما، فما ردّ عليهم شـيئا فانصـرفوا، فأنزل اللّه وَ إذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا الآيـة. فـدعاهم فقرأها عليهم. و أخرج ابن المنـذر عن ابن جريـج قـال: أخبرت أن قوله: سَـلامٌ عَلَيْكُمْ كانوا إذا دخلوا على النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم بـدأهم بالسـلام، فقـال: سَـلامٌ عَلَيْكُمْ و إذا لقيهم فكـذلك أيضا. و أخرج عبـد الرزاق و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ كَـذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ قال: نبيّن الآيات.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۳۹

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ قال: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَـلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۵۶) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِـنْ رَبِّي وَ كَـذَّبْتُمْ بِهِ مـا عِنْـدِي مـا تَسْـتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّـ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَـقَّ وَ هُـوَ خَيْرُ الْفاصِـلِينَ (۵۷) قُـلْ لَوْ أَنَّ عِنْـدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (۵۸) وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۵۹)

قوله: قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أمره اللّه سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار و يخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه و يعبدونه من دون اللّه، أى نهاه عن ذلك و صرفه و زجره، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم: لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ أى لا أسلك المسلك الذى سلكتموه فى دينكم من اتباع الأهواء و المشى على ما توجبه المقاصد الفاسدة التى يتسبب عنها الوقوع فى الضلال. قوله: قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً أى اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم و طرد من أردتم طرده وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ إن فعلت ذلك، و هذه الجملة الاسمية معطوفة على الجملة التى قبلها، و المجىء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام و الثبات، و قرئ ضَلَلْتُ بفتح اللام و كسرها و هما لغتان. قال أبو عمرو: ضللت بكسر اللام لغة تميم، و هى قراءة ابن وثاب و طلحة بن مصرف، و الأولى هى الأصح و الأفصح، لأنها لغة أهل الحجاز، و هى قراءة الجمهور.

قال الجوهرى: و الضلال و الضلالة: ضدّ الرشاد، و قد ضللت أضلّ. قال اللّه تعالى: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِى «١» قال فهذه: يعنى المفتوحة لغة نجد و هى الفصيحة، و أهل العالية يقول: ضللت بالكسر أضلّ انتهى. قوله: قُلْ إِنِّى عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى البينة: الحجّة و البرهان، أى إنى على برهان من ربى و يقين، لا على هوى و شك، أمره اللّه سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة و الشكوك الفاسدة التى لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة. قوله:

وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ أى بالربّ، أو بالعذاب، أو بالقرآن، أو بالبينة، و التذكير للضمير باعتبار المعنى. و هذه الجملة إما حالية بتقدير قد: أى و الحال أن قد كذبتم به، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الحجج الواضحة و البراهين البينة. قوله: ما عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله، استهزاء، نحو قوله:

أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً «٢»، و قولهم: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «٣»، و قولهم: مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* «۴»، و قيل: ما عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من الآيات التى تقترحونها علىّ. قوله: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أى ما الحكم فى كل شىء إلا للّه سبحانه، و من جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة. و المراد: الحكم الفاصل

---

(١). سبأ: ۵٠.

(٢). الإسراء: ٩٢.

(٣). الأنفال: ٣٢.

(۴). سبأ: ٢٩.

بين الحق و الباطل. قوله: يَقُصُّ الْحَقَ قرأ نافع و ابن كثير و عاصم يَقُصُ بالقاف و الصاد المهملة، و قرأ الباقون يقضى بالضاد المعجمة و الياء، و كذا قرأ علىّ و أبو عبد الرحمن السلمى و سعيد بن المسيب، و هو مكتوب فى المصحف بغير ياء. فعلى القراءة الأولى هو من القصص: أى يتبع الحق فيما يحكم به. و على القراءة الثانية هو من القضاء: أى يقضى القضاء بين عباده، و الحق منتصب على المفعولية، أو على أنه صفة لمصدر محذوف، أى يقضى القضاء الحق، أو يقص القصص الحق وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أى بين الحقّ و الباطل بما يقضى به بين عباده و يفصله لهم فى كتابه، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: لَوْ أَنَّ عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدورا لى و فى وسعى لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ أى لقضى اللّه الأمر

بيننا بأن ينزله اللّه سبحانه لكم بسؤالى له و طلبى ذلك؛ أو المعنى: لو كان العذاب الذى تطلبونه و تستعجلون به عندى و فى قبضتى لأنزلته بكم، و عند ذلك يقضى الأمر بينى و بينكم وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و بالوقت الذى ينزل فيه عذابهم و بما تقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجا لهم و إعذارا إليهم. قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ المفاتح جمع مفتح بالفتح؛ و هو المخزن: أى عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتح بكسر الميم، و هو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا، و يؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميقع و عنده مفاتيح الغيب فإن المفاتيح جمع مفتاح و المعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتح التى يتوصل بها إلى المخازن. و قوله: لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ جملة مؤكّدة لمضمون الجملة الأولى، و أنه لا علم لأحد من خلقه بشىء من الأمور الغيبية التى استأثر اللّه بعلمها، و يندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجا أوّليا. و فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهّان و المنجّمين و الرمليين و غيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، و لا يدخل تحت قدرتهم و لا يحيط به علمهم، و لقد ابتلى الإسلام و أهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة و الأنواع المخذولة و لم يربحوا من أكاذيبهم و أباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق صلّى اللّه عليه و سلّم: «من أتى كاهنا أو منجّما فقد كفر بما أنزل على محمد». قوله: وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ خصّهما بالذّكر لأنهما من أعظم مخلوقات اللّه: أى يعلم ما فيهما من حيوان و جماد علما مفصلا لا يخفى عليه منه شىء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس و يتطلعون لعلم ما فيهما وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها أى من ورق الشجر و هو تخصيص بعد التعميم: أى يعلمها و يعلم زمان سقوطها و مكانه، و قيل: المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال و الأرزاق، و حكى النقاش عن جعفر بن محمد: أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بنى آدم، قال ابن عطية: و هذا قول جار على طريقة الرموز و لا يصح عن جعفر بن محمد و لا ينبغى أن يلتفت إليه وَ لا حَبَّةٍ كائنة فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ أى فى الأمكنة المظلمة، و قيل: فى بطن الأرض وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ بالخفض عطفا على حبة: و هى معطوفة على ورقة. و قرأ ابن السميقع و الحسن و غيرهما بالرفع عطفا على موضع من ورقة، و قد شمل وصف الرطوبة و اليبوسة جميع الموجودات. قوله: إِلَّا فِي

كِتابٍ مُبِينٍ هو اللوح المحفوظ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من إِلَّا يَعْلَمُها و قيل: هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى فى قوله: قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي قال:

على ثقة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ قال: لقامت الساعة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ قال: يقول خزائن الغيب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ قال: هنّ خمس: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ إلى قوله: عَلِيمٌ خَبِيرٌ* «۱». و أخرج أحمد و البخارى و غيرهما عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا اللّه:

لا يعلم ما فى غد إلا اللّه، و لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللّه، و لا يعلم متى يأتى المطر إلا اللّه، و لا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا الله، و لا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا اللّه». و أخرج سعيد بن منصور و عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها قال:

ما من شجرة فى برّ و لا بحر إلا و بها ملك يكتب ما يسقط من ورقها. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه.

و أخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ قال: للّه تبارك و تعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده، فذلك قوله: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها. و أخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ما من زرع على الأرض و لا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب: بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان» فذلك قوله تعالى: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ الآية. و قد رواه يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ فقال: الرطب و اليابس من كلّ شيء.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۰ الى ۶۲]

وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (۶۲)

قوله: يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون و ليس ذلك موتا حقيقة، فهو مثل قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها «۲» و التوفى: استيفاء الشيء، و توفيت الشيء و استوفيته: إذا أخذته أجمع، قال الشاعر:

إنّ بنى الأدرد ليسوا من أحدو لا توفّاهم قريش فى العدد

---

(۱). لقمان: ۳۴.

(۲). الزمر: ۴۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۴۲

قيل: الروح إذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة؛ و قيل: لا تخرج منه الروح بل الذهن فقط، و الأولى أن هذا أمر لا يعرفه إلا اللّه سبحانه. قوله: وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ أى كسبتم بجوارحكم من الخير و الشرّ. قوله: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ أى فى النهار، يعنى اليقظة؛ و قيل: يبعثكم من القبور فيه:

أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل و الكسب بالنهار؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار و يعلم ما جرحتم فيه؛ و قيل: ثم يبعثكم فيه، أى فى المنام، و معنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم، فإنه عالم بذلك و لكن لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى أى معين لكلّ فرد من أفراد العباد من حياة و رزق ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ أى رجوعكم بعد الموت ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته. قوله: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ المراد:

فوقية القدرة و الرتبة، كما يقال: السلطان فوق الرعية، و قد تقدّم بيانه فى أوّل السورة. قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً أى ملائكة جعلهم اللّه حافظين لكم، و منه قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ «۱» و المعنى:

أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات و يحفظ أعمالكم، و الحفظة: جمع حافظ، مثل: كتبة: جمع كاتب وَ عَلَيْكُمْ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، و تقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه و أنه أمر حقيق بذلك؛ و قيل: هو متعلق بحفظة. قوله: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا حتى: يحتمل أن تكون هى الغائية، أى و يرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ و يحتمل أن تكون الابتدائية، و المراد بمجيء الموت مجيء علاماته. و قرأ حمزة

توفاه رسلنا و قرأ الأعمش تتوفّاه و الرسل: هم أعوان ملك الموت، و معنى توفته: استوفت روحه لا يُفَرِّطُونَ أى لا يقصرون و يضيعون، و أصله من التقدّم، و قال أبو عبيدة: لا يتوانون. و قرأ عبيد بن عمير لا يفرطون بالتخفيف: أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام و الإهانة. قوله: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ معطوف على توفته، و الضمير راجع إلى أحد لأنه فى معنى الكل مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، أى ردّوا بعد الحشر إلى اللّه: أى إلى حكمه و جزائه. مَوْلاهُمُ مالكهم الذى يلى أمورهم.

الْحَقِ قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم اللّه. و قرأ الحسن الحق بالنصب على إضمار فعل، أى:

أعنى أو أمدح، أو على المصدر وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر و الروية و التدبر.

و قد أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «مع كلّ إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن اللّه فى قبض روحه قبضه و إلا ردّها إليه، فذلك قوله تعالى: يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: ما من ليلة إلا و اللّه يقبض الأرواح كلّها، فيسأل كلّ نفس عمّا عمل صاحبها من النهار، ثم يدعو ملك الموت فيقول: اقبض روح هذا؛ و ما من يوم إلا و ملك الموت ينظر فى كتاب حياة الناس، قائل يقول: ثلاثا، و قائل يقول: خمسا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: أما

---

(۱). الانفطار: ۱۰.

وفاته إيّاهم بالليل فمنامهم، و ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ فيقول: ما اكتسبتم بالنّهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ قال: فى النهار لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى و هو الموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ قال: ما كسبتم من الإثم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً قال: هم المعقّبات من الملائكة يحفظونه و يحفظون عمله.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: أعوان ملك الموت من الملائكة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: هُمْ لا يُفَرِّطُونَ يقول: لا يضيعون.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۳ الى ۶۵]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵)

قيل: المراد بظلمات البرّ و البحر: شدائدهما. قال النحاس: و العرب تقول: يوم مظلم: إذا كان شديدا، فإذا عظّمت ذلك قالت: يوم ذو كوكب، أى يحتاجون فيه لشدّة ظلمته إلى كوكب. و أنشد سيبويه:

بنى أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب اشنعا

و الاستفهام للتقريع و التوبيخ: أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟ قرأ أبو بكر عن عاصم خفية بكسر الخاء، و قرأ الباقون بضمها، و هما لغتان. و قرأ الأعمش «و خيفة» من الخوف. و جملة تَدْعُونَهُ فى محل نصب على الحال: أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرّع و خفية أو متضرّعين و مخفين.

و المراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر. قوله: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا كذا قرأ أهل المدينة و أهل الشام. و قرأ الكوفيون لَئِنْ أَنْجانا و الجملة فى محل نصب على تقدير القول: أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدّة التى نزلت بنا و هى الظلمات المذكورة لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد.

قوله: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ قرأ الكوفيون و هشام ينجيكم بالتّشديد، و قرأ الباقون بالتخفيف، و قراءة التشديد تفيد التكثير؛ و قيل: معناهما واحد، و الضمير فى مِنْها راجع إلى الظلمات.

و الكرب: الغم يأخذ بالنفس، و منه: رجل مكروب. قال عنترة:

و مكروب كشفت الكرب عنهبطعنة فيصل لمّا دعانى

ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ باللّه سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد و ذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم، و لا يضرّونكم، و لا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً أى الذى قدر على إنجائكم من تلك الشدائد و دفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم

فتح القدير، ج‏2، ص: 144

فى شدّة و محنة و كرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق: ما ينزل من السماء من المطر و الصواعق. و المبعوث من تحت الأرجل: الخسف و الزلازل و الغرق، و قيل: مِنْ فَوْقِكُمْ يعنى الأمراء الظلمة و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ يعنى السفلة و عبيد السوء. قوله: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قرأ الجمهور بفتح التحتية، من لبس الأمر: إذا خلطه، و قرأ أبو عبد اللّه المدينى بضمها: أى يجعل ذلك لباسا لكم؛ قيل و الأصل: أو يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجرّ كما فى قوله تعالى: وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ و المعنى: يجعلكم مختلطى الأهواء مختلفى النحل متفرقى الآراء؛ و قيل:

يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا. و الشيع: الفرق، أى يخلطكم فرقا. قوله: وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أى يصيب بعضكم بشدّة بعض من قتل و أسر و نهب وَ يُذِيقَ معطوف على يَبْعَثَ و قرئ: «نذيق» بالنون. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ نبين لهم الحجج و الدلالات من وجوه مختلفة لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذى بيناه لهم بيانات متنوّعة.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ يقول: من كرب البرّ و البحر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن ابن عباس قال: يقول: إذا أضلّ الرجل الطريق دعا اللّه لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «1». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال: يعنى من أمرائكم أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ يعنى سفلتكم أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً يعنى بالشّيع الأهواء المختلفة وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ قال: يسلّط بعضكم على بعض بالقتل و العذاب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه من وجه آخر فى تفسير الآية قال: عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أئمة السوء أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: خدم السوء. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا من وجه آخر قال: مِنْ فَوْقِكُمْ من قبل أمرائكم و أشرافكم أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: من قبل سفلتكم و عبيدكم. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن أبى مالك عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال: القذف أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: الخسف. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضا مِنْ فَوْقِكُمْ قال: الصيحة و الحجارة و الريح أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: الرجفة و الخسف، و هما عذاب أهل التكذيب وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ قال: عذاب أهل الإقرار. و أخرج البخارى و غيره عن جابر بن عبد اللّه قال: لما نزلت هذه الآية قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعوذ بوجهك أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ قال: أعوذ بوجهك أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

بَعْضٍ قال: هذا أهون أو أيسر». و أخرج أحمد و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و غيرهم من حديث طويل عن ثوبان، و فيه: «و سألته أن لا يسلّط عليهم عدوّا من غيرهم فأعطانيها، و سألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها». و أخرج مسلم و غيره من حديث سعد بن أبى وقاص: «أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مرّ بمسجد بنى معاوية

---

(١). يونس: ٢٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٤٥

دخل فركع فيه ركعتين و صلينا معه و دعا ربّه طويلا، ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربّى ثلاثا فأعطانى اثنتين و منعنى واحدة: سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق، و سألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيهما و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» و أخرج أحمد، و الحاكم و صحّحه من حديث جابر بن عتيك نحوه. و أخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبى هريرة. و أخرج أيضا ابن أبى شيبة و ابن مردويه من حديث حذيفة بن اليمان نحوه. و أخرج أحمد و النسائى و ابن مردويه عن أنس نحوه أيضا. و أخرج أحمد و الترمذى و حسّنه، و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه الآية قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أما إنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد».

و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية و الضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب فى هذه الآية قال: هنّ أربع و كلهنّ عذاب و كلهنّ واقع لا محالة، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بخمس و عشرين سنة: فألبسوا شيعا، و ذاق بعضهم بأس بعض؛ و بقيت اثنتان واقعتان لا محالة: الخسف، و الرّجم. و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٦ الى ٧٣]

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (٧١) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قوله: وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب. و قومه المكذبون: هم قريش، و قيل: كل معاند، و جملة وَ هُوَ الْحَقُّ فى محل نصب على الحال، أى كذبوا بالقرآن أو العذاب، و الحال أنه حق. و قرأ ابن أبى عبلة «و كذبت» بالتاء قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى: لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها. قيل: و هذه الآية منسوخة بآية القتال؛ و قيل: ليست بمنسوخة

إذ لم يكن إيمانهم فى

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١۴۶

وسعه. قوله: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ أى لكلّ شى‌ء وقت يقع فيه. و النبأ: الشى‌ء الذى ينبأ عنه؛ و قيل المعنى: لكل عمل جزاء. قال الزجاج: يجوز أن يكون وعيدا لهم بما ينزل بهم فى الدنيا. و قال الحسن:

هذا وعيد من اللّه للكفار، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ذلك بحصوله و نزوله بهم كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يتوعدهم به. قوله: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له. و الخوض: أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيها بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول؛ و قيل: هو مأخوذ من الخلط، و كلّ شى‌ء خضته فقد خلطته، و منه: خاض الماء بالعسل: خلطه. و المعنى: إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب و الردّ و الاستهزاء فدعهم، و لا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا فى حديث مغاير له، أمره اللّه سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التى يستهان فيها بآيات اللّه إلى غاية هى الخوض فى غير ذلك.

و فى هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمّح بمجالسة المبتدعة الذين يحرّفون كلام اللّه و يتلاعبون بكتابه و سنة رسوله، و يردّون ذلك إلى أهوائهم المضلّة و بدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم و يغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم، و ذلك يسير عليه غير عسير. و قد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون فى حضوره مفسدة زائدة على مجرّد سماع المنكر.

و قد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتى عليه الحصر، و قمنا فى نصرة الحق و دفع الباطل بما قدرنا عليه، و بلغت إليه طاقتنا، و من عرف هذه الشريعة المطهرة حقّ معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما فى مجالسة من يعصى اللّه بفعل شى‌ء من المحرّمات، و لا سيما لمن كان غير راسخ القدم فى علم الكتاب و السنة. فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم و هذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح فى قلبه، ما يصعب علاجه و يعسر دفعه فيعمل بذلك مدّة عمره و يلقى اللّه به معتقدا أنه من الحق و هو الباطل و أنكر المنكر. قوله: وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى إِمَّا هذه هى الشرطية و تلزمها غالبا نون التأكيد و لا تلزمها نادرا و منه قول الشاعر:

إمّا يصبك عدوّ فى مناوأةيوما فقد كنت تستعلى و تنتصر

و قرأ ابن عباس ينسيك بتشديد السين، و مثله قول الشاعر:

....

و قد ينسّيك بعض الحاجة الكسل «١» و المعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى: الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات و التكذيب بها. قيل: و هذا الخطاب و إن كان ظاهره للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فالمراد التعريض لأمته لتنزّهه عن أن ينسيه الشيطان؛ و قيل: لا وجه لهذا فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك

---

(١). و صدره: قالت سليمى أ تسرى اليوم أم تقل.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١۴٧

الأحاديث الصحيحة: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّرونى» و نحو ذلك. قوله: وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم فى آيات اللّه من حساب الكفار من شى‌ء. و قيل المعنى:

ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض فى آيات اللّه فى مجالستهم لهم من شىء. و على هذا التفسير: ففى الآية التّرخيص للمتقين من المؤمنين فى مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب. قيل: و هذا الترخيص كان فى أوّل الإسلام، و كان الوقت وقت تقية، ثم نزل قوله تعالى: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ «١» فنسخ ذلك. قوله: وَ لكِنْ ذِكْرى لهم، ذكرى: فى موضع نصب على المصدر، أو رفع على أنها مبتدأ؛ و خبرها محذوف: أى و لكن عليهم ذكرى. و قال الكسائى:

المعنى: و لكن هذه ذكرى. و المعنى على الاستدراك من النفى السابق: أى: و لكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة و البيان لهم بأن ذلك لا يجوز. أما على التفسير الأوّل فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون فى آيات اللّه لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و أما على التفسير الثانى فالترخيص فى المجالسة لا يسقط التذكير لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الخوض فى آيات اللّه إذا وقعت منكم الذكرى لهم. و أما جعل الضمير للمتقين؛ فبعيد جدّا. قوله: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذى كان يجب عليهم العمل به و الدخول فيه لعبا و لهوا؛ و لا تعلق قلبك بهم؛ فإنهم أهل تعنت و إن كنت مأمورا بإبلاغهم الحجة. و قيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال؛ و قيل المعنى: أنهم اتخذوا دينهم الذى هم عليه لعبا و لهوا كما فى فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات و الضلالات المتقدم ذكرها؛ و قيل: المراد بالدين هنا:

العيد: أى اتخذوا عيدهم لعبا و لهوا، و جملة وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا معطوفة على اتَّخَذُوا أى: غرّتهم حتى آثروها على الآخرة و أنكروا البعث و قالوا: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ «٢». و قوله: وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ الضمير فى بِهِ للقرآن أو للحساب. و الإبسال: تسليم المرء للهلاك، و منه أبسلت ولدى: أى رهنته فى الدم، لأن عاقبة ذلك الهلاك.

قال النابغة:

و نحن رهنّا بالإفاقة عامرابما كان فى الدّرداء رهنا فأبسلا

أى فهلك، و الدرداء: كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم، فالمعنى: و ذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت: أى ترتهن و تسلم للهلكة، و أصل الإبسال: المنع، و منه شجاع باسل: أى ممتنع من قرنه. قوله: وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها العدل هنا: الفدية. و المعنى: و إن بذلت تلك النفس التى سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك، و فاعل يُؤْخَذْ ضمير يرجع إلى العدل، لأنه بمعنى المفدى به كما فى قوله: وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ و قيل: فاعله منها، لأن العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل، و كل عدل: منصوب على المصدر: أى عدلا كل عدل، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتخذين دينهم لعبا و لهوا، و خبره الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا و لهوا هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا، و لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ جواب سؤال مقدّر

---

(١). النساء: ١۴٠.

(٢). المؤمنون: ٣٧.

كأنه قيل: كيف حال هؤلاء؟ فقيل: لهم شراب من حميم، و هو الماء الحارّ، و مثله قوله تعالى: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ «١» و هو هنا شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم. قوله: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة، و الاستفهام: للتوبيخ أى كيف ندعو من دون اللّه أصناما لا تنفعنا بوجه من وجوه النفع إن أردنا منها نفعا و لا نخشى

ضرّها بوجه من الوجوه، و من كان هكذا فلا يستحق العبادة وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا عطف على نَدْعُوا. و الأعقاب: جمع عقب، أى كيف ندعو من كان كذلك و نرجع إلى الضلالة التى أخرجنا اللّه منها؟ قال أبو عبيدة: يقال لمن ردّ عن حاجته و لم يظفر بها قد ردّ على عقبيه. و قال المبرّد: تعقب بالشرّ بعد الخير. و أصله من المعاقبة و العقبى، و هما ما كان تاليا للشىء واجبا أن يتبعه، و منه: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ* «٢»، و منه: عقب الرجل، و منه:

العقوبة، لأنها تالية للذنب. قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ هوى يهوى إلى الشىء: أسرع إليه. و قال الزجاج: هو من هوى النفس، أى زين له الشيطان هواه، و اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ هوت به، و الكاف فى كَالَّذِي إما نعت مصدر محذوف: أى نردّ على أعقابنا ردّا كالذى، أو فى محل نصب على الحال من فاعل نردّ: أى نردّ حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين، أى ذهبت به مردة الجنّ بعد أن كان بين الإنس. قرأ الجمهور اسْتَهْوَتْهُ و قرأ حمزة استهواه على تذكير الجمع. و قرأ ابن مسعود و الحسن استهواه الشيطان و هو كذلك فى قراءة أبيّ، و حَيْرانَ حال: أى حال كونه متحيّرا تائها لا يدرى كيف يصنع؟ و الحيران هو الذى لا يهتدى لجهة، و قد حار يحار حيرة و حيرورة: إذا تردّد، و به سمى الماء المستنقع الذى لا منفذ له حائرا. قوله لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى صفة لحيران، أو حالية، أى له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له ائتنا فلا يجيبهم و لا يهتدى بهديهم. قوله: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى أمره اللّه سبحانه بأن يقول لهم: إِنَّ هُدَى اللَّهِ أى دينه الذى ارتضاه لعباده هُوَ الْهُدى و ما عداه باطل وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «٣» وَ أُمِرْنا معطوف على الجملة الاسمية: أى من جملة ما أمره اللّه بأن يقوله، و اللام فى لِنُسْلِمَ هى لام العلة، و المعلل هو الأمر، أى أمرنا لأجل أن نسلم لربّ العالمين. و قال الفراء: المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب، و بأن تذهب، بمعنى. و قال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول: هى لام الخفض. قوله: وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ معطوف على لِنُسْلِمَ على معنى: و أمرنا أن نسلم، و أن أقيموا، و يجوز أن يكون عطفا على يدعونه على المعنى: أى يدعونه إلى الهدى و يدعونه أن أقيموا وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فكيف تخالفون أمره وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ خلقا بِالْحَقِ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة؟ قوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُ أى و اذكر يوم يقول كن فيكون أو و اتقوا يوم يقول كن فيكون؛ و قيل: هو عطف على الهاء فى وَ اتَّقُوهُ و قيل: إن يَوْمَ ظرف لمضمون جملة قَوْلُهُ الْحَقُ و المعنى: و أمره المتعلق بالأشياء، الحق: أى المشهود له بأنه حق؛ و قيل: قوله مبتدأ، و الحق صفة له وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ خبره مقدّما عليه، و المعنى: قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول:

---

(١). الحج: ١٦.

(٢). القصص: ٨٣.

(٣). آل عمران: ٨٥.

كن فيكون؛ و قيل: إن قوله مرتفع بيكون، و الحق صفته: أى يوم يقول: كن يكون قوله الحق. و قرأ ابن عامر فَنَكُونَ بالنون، و هو إشارة إلى سرعة الحساب. و قرأ الباقون بالياء التحتية و هو الصواب. قوله:

وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ الظرف منصوب بما قبله: أى له الملك فى هذا اليوم؛ و قيل: هو بدل من اليوم الأوّل، و الصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، و الثانية للإنشاء، و كذا قال الجوهرى: إن الصور: القرن، قال الرّاجز:

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحا شديدا لا كنطح الصّورين

و الصّور بضم الصاد و بكسرها لغة، و حكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ بتحريك الواو، جمع صورة، و

المراد: الخلق. قال أبو عبيدة: و هذا و إن كان محتملا- يردّ بما فى الكتاب و السنة. و قال الفراء: كن فيكون، يقال إنه للصور خاصة: أى و يوم يقول للصور كن فيكون. قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ رفع عالم على أنه صفة للذى خلق السموات و الأرض، و يجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ: أى هو عالم الغيب و الشهادة، و روى عن بعضهم أنه قرأ يُنْفَخُ بالبناء للفاعل، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل عالِمُ الْغَيْبِ و يجوز أن يرتفع بفعل مقدّر كما أنشد سيبويه:

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط ممّا تطيح الطّوائح

أى يبكيه مختبط. و قرأ الحسن و الأعمش عالم بالخفض على البدل من الهاء فى لَهُ الْمُلْكُ وَ هُوَ الْحَكِيمُ فى جميع ما يصدر عنه الْخَبِيرُ بكل شىء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ يقول:

كذبت قريش بالقرآن وَ هُوَ الْحَقُّ و أما الوكيل: فالحفيظ، و أما لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ فكان نبأ القوم استقرّ يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب. و أخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ قال: نسخ هذه الآية آية السيف: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «1». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ يقول: حقيقة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن أنه قال فى قوله: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ قال: حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها أرسلت عقوبتها. و أخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ قال: فعل و حقيقة ما كان منه فى الدنيا و ما كان منه فى الآخرة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ و نحو هذا فى القرآن قال: أمر اللّه المؤمنين بالجماعة، و نهاهم عن الاختلاف و الفرقة، و أخبرهم أنما أهلك من كان قبلهم بالمراء و الخصومات فى دين اللّه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا قال: يستهزئون بها، نهى محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(1). التوبة: 5.

فتح القدير، ج2، ص: 150

أن يقعد معهم إلا أن ينسى، فإذا ذكر فليقم، و ذلك قول اللّه فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت فى أهل الأهواء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو نعيم فى الحلية عن أبى جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون فى آيات اللّه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن محمد بن على قال:

إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون فى آيات اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال: كان المشركون بمكّة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاضوا و استهزءوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم و نجالسهم فلا نعيب عليهم، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ أيضا عن السدىّ أنه قال: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. و أخرج النحاس عن ابن عباس فى قوله:

وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ قال: نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية، و هى قوله:

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها «1» الآية. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن مجاهد وَ ما عَلَى

الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إن قعدوا، و لكن لا يقعدوا. و أخرج ابن أبى شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه و قال:
لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً قال: هو مثل قوله: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً يعنى: أنه للتهديد. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه عن قتادة فى هذه الآية قال: نسختها آية السيف. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: لَعِباً وَ لَهْواً قال: أكلا و شربا. و أخرج ابن جرير و المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَنْ تُبْسَلَ قال: أن تفضح، و فى قوله:
أُبْسِلُوا قال: فضحوا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: أَنْ تُبْسَلَ قال: تسلم، و فى قوله: أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا قال: أسلموا بجرائرهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قال: هذا مثل ضربه اللّه للآلهة و للدعاة الذين يدعون إلى اللّه. و قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ يقول: أضلّته، و هم الغيلان يدعونه باسمه و اسم أبيه و جدّه فيتبعها و يرى أنه فى شيء فيصبح و قد ألقته فى هلكة، و ربما أكلته أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ قال: هو الرجل لا يستجيب لهدى اللّه، و هو الرجل أطاع الشيطان، و عمل فى الأرض بالمعصية، و حاد عن الحق، و ضلّ عنه، و لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى و يزعمون أن الذى يأمرونه به هدى، يقول اللّه ذلك لأوليائهم من الإنس، يقول: إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ و الضّلالة ما تدعو إليه الجن. و أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد بن حميد و أبو داود و الترمذى و حسّنه و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان و الحاكم و صححه و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن عبد اللّه بن عمرو قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الصور فقال: ينفخ فيه». و الأحاديث الواردة فى كيفية

---

(١). النساء: ١۴٠.

فتح القدير، ج٢، ص: ١۵١

النفخ ثابتة فى كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها هاهنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ يعنى أنّ عالم الغيب و الشهادة هو الذى ينفخ فى الصور.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ٧۴ الى ٨٣]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧۴) وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

قوله: لِأَبِيهِ آزَرَ قال الجوهرى: آزر اسم أعجمى، و هو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام. و قال ابن فارس: إنه مشتق من القوّة. قال الجوينى فى النكت من التفسير له: ليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارخ، و الذى فى القرآن يدل على أنّ اسمه آزر. و قد تعقّب فى دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق و الضّحّاك و الكلبى أنه كان له اسمان: آزر و تارخ. و قال مقاتل: آزر: لقب، و تارخ: اسم، و قال سليمان التيمى: إنّ آزر سبّ و عتب، و معناه فى كلامهم المعوجّ.

و قال الضحّاك: معنى آزر: الشيخ الهمّ «۱» بالفارسية. و قال الفرّاء: هى صفة ذم بلغتهم كأنه قال: يا مخطئ. و روى مثله عن الزجّاج. و قال مجاهد: هو اسم صنم. و على هذا إطلاق اسم الصّنم على أبيه إما للتعبير له لكونه معبوده، أو على حذف مضاف: أى قال لأبيه عابد آزر، أو: أتعبد آزر؟ على حذف الفعل.

و قرأ ابن عباس «أإزر» بهمزتين الأولى مفتوحة و الثانية مكسورة، و روى عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين، و محل إِذْ قالَ النصب على تقدير و اذكر إذ قال إبراهيم، و يكون هذا المقدر معطوفا على قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ و قيل: و هو معطوف على وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ و آزر عطف بيان. قوله: أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً الاستفهام للإنكار، أى أ تجعلها آلهة لك تعبدها إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ المتبعين لك فى عبادة الأصنام فِي ضَلالٍ عن طريق الحق مُبِينٍ واضح وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ أى و مثل تلك الإراءة

---

(۱). الهمّ: الفانى.

نرى إبراهيم، و الجملة معترضة، و مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ملكهما، و زيدت التاء و الواو للمبالغة فى الصّفة، و مثله الرغبوت و الرهبوت مبالغة فى الرغبة و الرهبة. قيل: أراد بملكوت السّموات و الأرض ما فيهما من الخلق؛ و قيل: كشف اللّه له عن ذلك حتى رأى إلى العرش و إلى أسفل الأرضين؛ و قيل: رأى من ملكوت السموات و الأرض ما قصه اللّه فى هذه الآية؛ و قيل: المراد بملكوتهما الربوبية و الإلهية، أى نريه ذلك، و نوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التى سلكها؛ و معنى نُرِي أريناه، حكاية حال ماضية. قوله:

وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ متعلق بمقدّر: أى أريناه ذلك لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ و قد كان آزر و قومه يعبدون الأصنام و الكواكب و الشمس و القمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ؛ و قيل: إنه ولد فى سرب، و جعل رزقه فى أطراف أصابعه؛ فكان يمصها. و سبب جعله فى السرب أن النمروذ رأى رؤيا أنّ ملكه يذهب على يد مولود؛ فأمر بقتل كل مولود، و اللّه أعلم. قوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أى ستره بظلمته، و منه الجنة و المجنّ و الجنّ كلّه من الستر، قال الشاعر:

و لو لا جنان اللّيل أدرك ركضنابذى الرّمث و الأرطى عياض بن ناشب

و الفاء للعطف على قالَ إِبْراهِيمُ أى و اذكر إذ قال و إذ جنّ عليه، الليل فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه، و جواب لما رَأى كَوْكَباً قيل: رآه من شقّ الصّخرة الموضوعة على رأس السرب الذى كان فيه؛ و قيل: رآه لما أخرجه أبوه من السرب و كان وقت غيبوبة الشمس؛ قيل: رأى المشترى و قيل:

الزهرة. قوله: هذا رَبِّي جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فما ذا قال عند رؤية الكوكب؟

قيل: و كان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية؛ و قيل: أراد قيام الحجّة على قومه كالحاكى لما هو عندهم و ما يعتقدونه لأجل إلزامهم، و بالثانى قال الزجاج؛ و قيل: هو على حذف حرف الاستفهام:

أى أ هذا ربى؟ و معناه إنكار أن يكون مثل هذا ربا، و مثله قوله تعالى: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ «۱» أى أفهم الخالدون، و مثله

قول الهذلى:

رفونى و قالوا يا خويلد لا ترعفقلت و أنكرت الوجوه هم هم

أى أهم هم، و قول الآخر «٢»:

لعمرك ما أدرى و إن كنت داريابسبع رمين الجمر أم بثمان

أى أ بسبع، و قيل المعنى: و أنتم تقولون هذا ربى فأضمر القول؛ و قيل: المعنى على حذف مضاف: أى هذا دليل ربى فَلَمَّا أَفَلَ أى غرب قالَ إبراهيم لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ أى الآلهة التى تغرب، فإن الغروب تغير من حال إلى حال، و هو دليل الحدوث فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً أى طالعا، يقال:

بزغ القمر: إذا ابتدأ فى الطلوع، و البزغ: الشق كان يشق بنوره الظلمة فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِی رَبِّی

---

(١). الأنبياء: ٣۴.

(٢). هو عمر بن أبى ربيعة.

أى لئن لم يثبتنى على الهداية و يوفقنى للحجة لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم و يحرمونها حظّها من الخير فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً بازغا و بازغة منصوبان على الحال، لأن الرؤية بصرية، و إنما قالَ هذا رَبِّی مع كون الشمس مؤنثة، لأن مراده هذا الطالع، قاله الكسائى و الأخفش، و قيل: هذا الضوء؛ و قيل: الشخص، هذا أَكْبَرُ أى مما تقدّمه من الكوكب و القمر قالَ يا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ أى من الأشياء التى تجعلونها شركاء للّه و تعبدونها، و ما موصولة أو مصدرية، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع و لا تضرّ مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ أى قصدت بعبادتى و توحيدى اللّه عزّ و جلّ؛ و ذكر الوجه لأنه العضو الذى يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدّم، و قد تقدّم معنى فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً مائلا إلى الدين الحق. قوله: وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ أى وقعت منهم المحاجة له فى التوحيد بما يدلّ على ما يدّعونه من أن ما يشركون به و يعبدونه من الأصنام آلهة، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه اللّه عنه أنه قال: أَ تُحاجُّونِّی فِی اللَّهِ أى فى كونه لا شريك له و لا ندّ و لا ضدّ. و قرأ نافع بتخفيف نون أ تحاجونى. و قرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية و نافع خفف فحذف إحدى النونين، و قد أجاز ذلك سيبويه. و حكى عن أبى عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن، و جملة وَ قَدْ هَدانِ فى محل نصب على الحال؛ أى هدانى إلى توحيده و أنتم تريدون أن أكون مثلكم فى الضلالة و الجهالة و عدم الهداية. قوله:

وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ قال هذا لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه و تصيبه بمكروه، أى إنى لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات اللّه لا يضر و لا ينفع، و الضمير فى به يجوز رجوعه إلى اللّه و إلى معبوداتهم المدلول عليها بما فى ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّی شَيْئاً أى إلا وقت مشيئة ربى بأن يلحقنى شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه، و ذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التى لا تضرّ و لا تنفع. و المعنى:

على نفى حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال، و إثبات الضرر و النفع للّه سبحانه و صدورهما حسب مشيئته، ثم علل ذلك بقوله: وَسِعَ رَبِّی كُلَّ شَیْءٍ عِلْماً أى إنّ علمه محيط بكلّ شىء، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، و إذا شاء إنزال شرّ بى كان، ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن، ثم قال لهم مكملا للحجة عليهم و دافعا لما خوّفوه به وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً أى كيف أخاف ما لا يضرّ و لا ينفع و لا يخلق و لا يرزق، و الحال أنكم

لا تخافون ما صدر منكم من الشرك باللّه، و هو الضارّ النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامى الذى لا يجدون عنه مخلصا و لا متحوّلا، و الاستفهام للإنكار عليهم و التقريع، و ما فى ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً: مفعول أشركتم، أى و لا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء للّه، أو: المعنى أن اللّه سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له و لا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها و اتخذوها آلهة و جعلوها شركاء للّه سبحانه؟ قوله: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ المراد بالفريقين فريق المؤمنين و فريق المشركين: أى إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودى هو اللّه المتصف بتلك الصفات،

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٥۴

و معبودكم هى تلك المخلوقات، فكيف تخوّفونى بها؟ و كيف أخافها و هى بهذه المنزلة و لا تخافون من إشراككم باللّه سبحانه؟ و بعد هذا فأخبرونى: أىّ الفريقين أحقّ بالأمن و عدم الخوف إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ بحقيقة الحال و تعرفون البراهين الصحيحة و تميزونها عن الشّبه الباطلة؟ ثم قال اللّه سبحانه قاضيا بينهم و مبينا لهم:

الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا، و قيل: هو من تمام قول إبراهيم؛ و قيل: هو من قول قوم إبراهيم. و معنى لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ لم يخلطوه بظلم. و المراد بالظلم: الشرك، لما ثبت فى الصحيحين و غيرهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ليس هو كما تظنّون، إنما هو كما قال لقمان: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «١»»، و العجب من صاحب الكشاف حيث يقول فى تفسير هذه الآية: و أبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس. و هو لا يدرى أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل «٢»، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى الموصول المتصف بما سبق، و لَهُمُ الْأَمْنُ جملة وقعت خبرا عن اسم الإشارة، هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إلى الحق ثابتون عليه، و غيرهم على ضلال و جهل، و الإشارة بقوله: تِلْكَ حُجَّتُنا إلى ما تقدّم من الحجج التى أوردها إبراهيم عليهم: أى تلك البراهين التى أوردها إبراهيم عليهم من قوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ إلى قوله: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ. وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ أى أعطيناه إياها و أرشدناه إليها، و جملة آتَيْناها إِبْراهِيمَ فى محل نصب على الحال، أو فى محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة عَلى قَوْمِهِ أى حجة على قومه نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ بالهداية و الإرشاد إلى الحق و تلقين الحجة، أو بما هو أعم من ذلك إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ أى حكيم فى كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده، و أن منهم من يستحقّ الرفع و منهم من لا يستحقّه. و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قال: الآزر الصنم و أبو إبراهيم اسمه: يازر و أمه اسمها: مثلى و امرأته اسمها: سارة، و سريته أم إسماعيل اسمها: هاجر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

آزر لم يكن بأبيه و لكنه اسم صنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: اسم أبيه تارخ و اسم الصنم:

آزر. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سليمان التيمى، أنه قرأ وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قال: بلغنى: أنها أعوج، و أنها أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال: إنّ والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر، و إنما اسمه تارخ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: الشمس و القمر و النجوم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال

---

(١). لقمان: ١٣.

(٢). هذا مثل يضرب فى الاستغناء عن الأشياء الصغيرة إذا وجد ما هو أكبر منها و أعظم نفعا (الأمثال اليمانية ١/ ٩٥)

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٥٥

فى الآية: كشف ما بين السموات حتى نظر إليهنّ على صخرة، و الصخرة على حوت، و هو الحوت الذى منه طعام الناس، و الحوت فى سلسلة، و السلسلة فى خاتم العزّة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى الآية: قال: سلطانهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله: وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ يقول: خاصموه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ تُحاجُّونِّي قال: أ تخاصمونى.

و أخرج ابن أبى شيبة و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه فسر وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ بالشرك، و كذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب، و كذلك أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان، و كذلك أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سلمان الفارسى، و كذلك أخرجا أيضا عن أبىّ بن كعب، و كذلك أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس. و أخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ مثله، و قد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك، و يغنى عن الجميع ما قدّمنا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تفسير الآية كما هو ثابت فى الصحيحين و غيرهما. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ قال: خصمهم. و أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ قال: بالعلم. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (٨٦) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (٨٩) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (٩٠)

قوله: وَ وَهَبْنا لَهُ معطوف على جملة وَ تِلْكَ حُجَّتُنا عطف جملة فعلية على جملة اسمية و قيل:

معطوف على آتيناها، و الأوّل أولى. و المعنى: و وهبنا ذلك جزاء له على الاحتجاج فى الدين و بذل النفس فيه، و كُلًّا هَدَيْنا انتصاب كُلًّا على أنه مفعول لما بعده مقدّم عليه للقصر: أى كلّ واحد منهما هديناه، و كذلك نوحا منصوب بهدينا الثانى أو بفعل مضمر يفسره ما بعده وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أى من ذرية إبراهيم، و قال الفراء: من ذرية نوح. و اختاره ابن جرير الطبرى و القشيرى و ابن عطية، و اختار الأوّل الزّجاج، و اعترض عليه بأنه عدّ من هذه الذّرية يونس و لوطا و ما كانا من ذرية إبراهيم، فإن لوطا هو ابن أخى إبراهيم، و انتصب داوُدَ وَ سُلَيْمانَ بفعل مضمر أى و هدينا من ذريته داود و سليمان، و كذلك

فتح القدير، ج‌٢، ص: ١٥٦

ما بعدهما، و إنما عدّ اللّه سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التى عدّدها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء. و معنى: مِنْ قَبْلُ فى قوله: وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ أى من قبل إبراهيم، و الإشارة بقوله:

وَ كَذلِكَ إلى مصدر الفعل المتأخر: أى و مثل ذلك الجزاء نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ وَ إِلْياسَ قال الضحّاك: هو من ولد إسماعيل، و قال القتبى: هو من سبط يوشع بن نون. و قرأ الأعوج و الحسن و قتادة وَ إِلْياسَ بوصل الهمزة. و قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و عاصم وَ الْيَسَعَ مخففا. و قرأ الكوفيون إلا عاصما بلامين. و كذا قرأ الكسائى و رد القراءة الأولى، و لا وجه للردّ فهو اسم أعجمى، و العجمة لا تؤخذ بالقياس بل تؤدّى على حسب السّماع، و لا يمتنع أن يكون فى الاسم لغتان للعجم، أو تغيره العرب تغييرين. قال المهدوى: من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع و الألف و اللام مزيدتان، كما فى قول الشاعر:

رأيت اليزيد بن الوليد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

و من قرأ بلامين فالاسم ليسع، و قد توهم قوم أن اليسع هو إلياس و هو و هم، فإن اللّه أفرد كلّ واحد منهما، و قال وهب: اليسع صاحب إلياس، و كانوا قبل يحيى و عيسى و زكريا؛ و قيل: إلياس هو إدريس، و هذا غير صحيح لأنّ إدريس جدّ نوح و إلياس من ذريته؛ و قيل: إلياس هو الخضر؛ و قيل: لا، بل اليسع هو الخضر وَ كُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ أى كل واحد فضلناه بالنبوّة على عالمى زمانه، و الجملة معترضة.

قوله: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ أى هدينا، وَ مِنْ للتبعيض: أى هدينا بعض آبائهم و ذرياتهم و أزواجهم وَ اجْتَبَيْناهُمْ معطوف على فضلنا، و الاجتباء الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته، فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصيتك. قال الكسائى: جبيت الماء فى الحوض جبى مقصور، و الجابية الحوض، قال الشاعر:

... كجابية الشّيخ العراقىّ تفهق «١» و الإشارة بقوله: ذلِكَ هُدَى اللَّهِ إلى الهداية و التّفضيل و الاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة يَهْدِى بِهِ اللّه مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و هم الذين وفقهم للخير و اتباع الحق وَ لَوْ أَشْرَكُوا أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير اللّه لَحَبِطَ عَنْهُمْ من حسناتهم ما كانُوا يَعْمَلُونَ و الحبوط البطلان.

و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ إلى الأنبياء المذكورين سابقا: أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين وَ الْحُكْمَ العلم وَ النُّبُوَّةَ الرسالة أو ما هو أعمّ من ذلك فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ الضمير فى بها: للحكم و النبوّة و الكتاب، أو للنبوّة فقط، و الإشارة بهؤلاء إلى كفّار قريش المعاندين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً هذا جواب الشرط، أى ألزمنا بالإيمان بها قوما لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ و هم المهاجرون و الأنصار، أو الأنبياء المذكورون

---

(١). و صدره: نفى الذم عن آل المحلق جفنة. و البيت للأعشى.

سابقا، و هذا أولى لقوله فيما بعد أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فإنّ الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين و الأنصار إذ لا يصحّ أن يؤمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالاقتداء بهداهم، و تقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء: و الاقتداء: طلب موافقة الغير فى فعله. و قيل المعنى: اصبر كما صبروا؛ و قيل: اقتد بهم فى التوحيد، و إن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، و فيها دلالة على أنه صلّى اللّه عليه و سلّم مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نصّ. قوله: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً أمره اللّه بأن يخبرهم بأنه لا يسألهم أجرا على القرآن، و أن يقول لهم: ما هُوَ إِلَّا ذِكْرى يعنى القرآن لِلْعالَمِينَ أى موعظة و تذكير للخلق كافة الموجودين عند نزوله و من سيوجد من بعد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب قال: الخال والد و العم والد، نسب اللّه عيسى إلى أخواله فقال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ حتى بلغ إلى قوله: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى و أخرج أبو الشيخ و الحاكم و البيهقى عن عبد الملك بن عمير قال: دخل

يحيى بن يعمر على الحجّاج فذكر الحسين، فقال الحجّاج:

لم يكن من ذرية النبى، فقال يحيى: كذبت، فقال: لتأتينى على ما قلت ببينة، فتلا وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلى قوله: وَ عِيسى فأخبر اللّه أن عيسى من ذرية آدم بأمه، فقال: صدقت. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجّاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن و الحسين من ذرية النبى، تجده فى كتاب اللّه، و قد قرأته من أوّله إلى آخره فلم أجده؟ فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدّم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

وَ اجْتَبَيْناهُمْ قال: أخلصناهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قال: يريد هؤلاء الذين هديناهم و فعلنا بهم. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: الحكم:

اللب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ يعنى أهل مكة، يقول: إن يكفروا بالقرآن فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ يعنى: أهل المدينة و الأنصار. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً قال: هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال اللّه فيهم: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رجاء العطاردى قال فى الآية: هم الملائكة. و أخرج البخارى و النسائى و غيرهما عن ابن عباس فى قوله: فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقتدى بهداهم و كان يسجد فى ص، و لفظ ابن أبى حاتم عن مجاهد: سألت ابن عباس عن السجدة التى فى ص، فقال هذه الآية «١»، و قال: أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً قال: قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضا من عروض الدنيا.

---

(١). آية السجدة فى سورة ص هى وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ [سورة ص: ٢٤].

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٥٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩١ الى ٩٤]

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩٢) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قدرت الشيء و قدّرته عرفت مقداره، و أصله: الستر، ثم استعمل فى معرفة الشيء، أى لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل و إنزاله للكتب. و قيل المعنى: و ما قدروا نعم اللّه حق تقديرها. و قرأ أبو حيوة: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدَرِهِ بفتح الدال: و هى لغة، و لما وقع منهم هذا الإنكار و هم من اليهود أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يورد عليهم حجّة لا يطيقون دفعها، فقال: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى و هم يعترفون بذلك و يذعنون له، فكان فى هذا من التبكيت لهم، و التقريع ما لا يقادر قدره، مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال اللّه «١» على البشر و هم

الأنبياء عليهم السلام، فبطل جحدهم و تبيّن فساد إنكارهم؛ و قيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش، فيكون إلزامهم بإنزال اللّه الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك و يعلمونه بالأخبار من اليهود، و قد كانوا يصدقونهم و نُوراً وَ هُدىً منتصبان على الحال و لِلنَّاسِ متعلّق بمحذوف هو صفة لهدى: أى كائنا للناس. قوله: تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها ليتمّ لكم ما تريدونه من التحريف و التبديل و كتم صفة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المذكورة فيه، و هذا ذمّ لهم، و الضمير فى تُبْدُونَها راجع إلى القراطيس، و فى تَجْعَلُونَهُ راجع إلى الكتاب، و جملة تجعلونه فى محل نصب على الحال، و جملة تبدونها صفة لقراطيس وَ تُخْفُونَ كَثِيراً معطوف على تُبْدُونَها: أى و تخفون كثيرا منها، و الخطاب فى وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ لليهود، أى و الحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم، و يحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقرّرة لما قبلها، و الذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم من الأمور التى أوحى اللّه إليه بها، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم و لا على لسان أنبيائهم و لا علمه آباؤهم، و يجوز أن يكون ما فى ما لَمْ تَعْلَمُوا عبارة عما علموه من التوراة، فيكون ذلك على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة؛ و قيل: الخطاب للمشركين من قريش و غيرهم، فتكون ما

---

(١). أى إنزال الكتب السماوية على الأنبياء الذين هم من البشر.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٥٩

عبارة عما علموه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذى ألزمهم به حيث قال: مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى فقال: قُلِ اللَّهُ أى أنزله اللّه ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون، أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون. قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ هذا من جملة الرد عليهم فى قولهم: ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ أخبرهم بأن اللّه أنزل التوراة على موسى، و عقبه بقوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ يعنى على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكيف تقولون:

ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ و مبارك و مصدق: صفتان لكتاب، و المبارك: كثير البركة، و المصدق:

كثير التصديق، و الذى بين يديه: ما أنزله اللّه من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوراة و الإنجيل، فإنه يوافقها فى الدعوة إلى اللّه و إلى توحيده و إن خالفها فى بعض الأحكام. قوله: وَ لِتُنْذِرَ قيل: هو معطوف على ما دل عليه مبارك، كأنه قيل: أنزلناه للبركات و لتنذر، و خص أم القرى و هى مكة لكونها أعظم القرى شأنا، و لكونها أوّل بيت وضع للناس، و لكونها قبلة هذه الأمة و محلّ حجهم، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض و المراد بمن حولها جميع أهل الأرض، و المراد بأنذر أمّ القرى: إنذار أهلها و أهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مبتدأ، و يُؤْمِنُونَ بِهِ خبره، و المعنى: أن من حقّ من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب و يصدقه و يعمل بما فيه، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها و يندفع به ضرّها، و جملة وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ فى محل نصب على الحال، و خص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها و بمنزلة الرأس لها. قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدّم من الاحتجاج عليهم بأن اللّه أنزل الكتب على رسله: أى كيف تقولون: ما أنزل اللّه على بشر من شىء، و ذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، و لا أحد أظلم ممن افترى على اللّه كذبا فزعم أنه نبىّ و ليس بنبىّ، أو كذب على اللّه فى شىء من الأشياء أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ أى و الحال أنه لم يوح إليه شىء، و قد صان اللّه أنبياءه عما تزعمون عليهم، و إنما هذا شأن الكذّابين رؤوس الإضلال كمسيلمة الكذّاب و الأسود العنسىّ و سجاح. و قوله: وَ مَنْ

قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ معطوف على مِمَّنِ افْتَرى أى و من أظلم ممن افترى أو ممن قال: أوحى إلىّ و لم يوح إليه شىء، أو ممن قال: سأنزل مثل ما أنزل اللّه، و هم القائلون:

لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا و قيل: هو عبد اللّه بن أبى سرح، فإنه كان يكتب الوحى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأملى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فقال عبد اللّه: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هكذا أنزلت» فشكّ عبد اللّه حينئذ و قال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه، و لئن كان كاذبا لقد قلت كما قال، ثم ارتدّ عن الإسلام و لحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف. قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح له، و المراد كلّ ظالم، و يدخل فيه الجاحدون لما أنزل اللّه، و المدّعون للنبوات افتراء على اللّه دخولا أوّليا، و جواب لو: محذوف، أى لرأيت أمرا عظيما، و الغمرات: جمع غمرة، و هى الشدّة، و أصلها الشىء

فتح القدير، ج‏٢، ص: ١٦٠

الذى يغمر الأشياء فيغطيها، و منه غمرة الماء، ثم استعملت فى الشدائد، و منه غمرة الحرب. قال الجوهرى:

و الغمرة: الشدّة و الجمع غمر؛ مثل نوبة و نوب، و جملة وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ فى محل نصب:

أى و الحال أن الملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواح الكفار؛ و قيل: للعذاب، و فى أيديهم مطارق الحديد، و مثله قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ «١». قوله:

أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ أى قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا و خلصوها من العذاب، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم و سلموها إلينا لنقبضها الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر، و الهون و الهوان بمعنى، أى اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى إهانة و ذلّة بعد ما كنتم فيه من الكبر و التّعاظم، و الباء فى بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِ للسببية: أى بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال اللّه كتبه على رسله و الإشراك به وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ عن التّصديق لها و العمل بها فكان ما جوزيتم به من عذاب الهون جَزاءً وِفاقاً. قوله: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى قرأ أبو حيوة فرادى بالتنوين، و هى لغة تميم، و قرأ الباقون بألف التأنيث للجمع فلم ينصرف. و حكى ثعلب «فراد» بلا تنوين مثل: ثلاث و رباع، و فرادى جمع فرد كسكارى جمع سكران و كسالى جمع كسلان، و المعنى:

جئتمونا منفردين واحدا واحدا كل واحد منفرد عن أهله و ماله و ما كان يعبده من دون اللّه فلم ينتفع بشىء من ذلك كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى على الصفة التى كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم، و الكاف نعت مصدر محذوف: أى جئتمونا مجيئا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم، أو حال من ضمير فرادى: أى مشابهين ابتداء خلقنا لكم وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أى أعطيناكم، و الخول ما أعطاه اللّه للإنسان من متاع الدنيا: أى تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشىء منه و لا انتفعتم به بوجه من الوجوه وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ عبدتموهم و قلتم: ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «٢» و زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ للّه يستحقّون منكم العبادة كما يستحقها. قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قرأ نافع و الكسائى و حفص بنصب بينكم على الظرفية، و فاعل تقطع محذوف، أى تقطع الوصل بينكم، أنتم و شركاؤكم كما يدل عليه: وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمْ و قرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى البين، أى وقع التقطّع بينكم، و يجوز أن يكون معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى إسناد الفعل إلى الظرف، و إنما نصب لكثرة استعماله ظرفا. و قرأ ابن مسعود لقد تقطع ما بينكم على إسناد الفعل إلى ما، أى الذى بينكم وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ من الشركاء و الشرك، و حيل بينكم و بينهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة اللّه، فمن آمن أن اللّه على كل شىء قدير قد قدر اللّه حقّ قدره، و من لم يؤمن بذلك فلم يقدر اللّه حقّ قدره، إذ قالوا: ما أنزل اللّه على بشر من شىء.

قالت اليهود: يا محمد أنزل اللّه عليك كتابا؟ قال: نعم، قالوا: و اللّه ما أنزل اللّه من السماء كتابا،

---

(١). الأنفال: ٥٠.

(٢). الزمر: ٣.

فأنزل اللّه قُلْ يا محمد مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى إلى آخر الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قالها مشركو قريش. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ قال: قال فنحاص اليهودى: ما أنزل اللّه على محمد من شىء، فنزلت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة قال: نزلت فى مالك بن الصيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف.

فخاصم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال له النبى: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التّوراة أن اللّه يبغض الحبر السّمين؟ و كان حبرا سمينا، فغضب و قال: و اللّه ما أنزل اللّه على بشر من شىء، فقال له أصحابه: ويحك و لا على موسى؟ قال: ما أنزل اللّه على بشر من شىء، فنزلت». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ قال: اليهود، و قوله: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قال: هذه للمسلمين. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا قال: هم اليهود آتاهم اللّه علما فلم يقتدوا به، و لم يأخذوا به، و لم يعملوا به، فذمّهم اللّه فى علمهم ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ قال: هو القرآن الذى أنزله اللّه على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد بن حميد عنه قال: مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى من الكتب التى قد خلت قبله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى قال: مكة و من حولها. قال: يعنى ما حولها من القرى إلى المشرق و المغرب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: إنما سمّيت أمّ القرى لأن أوّل بيت وضعت «١» بها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى قال: هى مكة، قال: و بلغنى أن الأرض دحيت من مكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار نحوه. و أخرج الحاكم فى المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ الآية، فلما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة فرّ إلى عثمان أخيه من الرضاعة، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، ثم استأمن له. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى خلف الأعمى: أنها نزلت فى عبد اللّه بن أبى سرح و كذلك روى ابن أبى حاتم عن السدىّ. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ قال: نزلت فى مسيلمة الكذّاب و نحوه ممن دعا إلى مثل ما دعا إليه وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ قال: نزلت فى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمة نحوه.

و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً- فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً «٢» قال النضر و هو من بنى عبد الدار: و الطّاحنات طحنا، و العاجنات عجنا، قولا كثيرا. فأنزل اللّه:

(١). أى: الكعبة المشرقة.

(٢). المرسلات: ١- ٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٦٢

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: غَمَراتِ الْمَوْتِ قال: سكرات الموت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال فى قوله:

وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ هذا عند الموت، و البسط: الضرب يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ*.

و أخرج أبو الشيخ عنه قال فى الآية: هذا ملك الموت عليه السلام. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ قال: بالعذاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: عَذابَ الْهُونِ قال: الهوان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لى اللات و العزّى، فنزلت:

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله:

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى الآية، قال: كيوم ولد يردّ عليه كل شىء نقص منه يوم ولد. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ قال: من المال و الخدم وَراءَ ظُهُورِكُمْ قال: فى الدنيا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قال: ما كان بينهم من الوصل. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ قال: تواصلكم فى الدنيا.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٥ الى ٩٩]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

قوله: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى هذا شروع فى تعداد عجائب صنعه تعالى و ذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شىء منه، و الفلق: الشق؛ أى هو سبحانه فالق الحبّ فيخرج منه النبات، و فالق النوى فيخرج منه الشجر؛ و قيل: معنى فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى الشق الذى فيهما من أصل الخلقة؛ و قيل: معنى فالِقُ خالق. و النوى: جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر و المشمش و الخوخ. قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ هذه الجملة خبر بعد خبر فهى فى محل رفع؛ و قيل: هى جملة مفسرة لما قبلها، لأن معناها معناه، و الأول أولى، فإن معنى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ يخرج الحيوان من مثل النطفة و البيضة و هى ميتة.

و معنى وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ مخرج النطفة و البيضة و هى ميتة من الحىّ، و جملة وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ

فتح القدير، ج٢، ص: ١٦٣

مِنَ الْحَيِ معطوفة على يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ عطف جملة اسمية على جملة فعلية و لا ضير فى ذلك؛ و قيل: معطوفة على فالِقُ

على تقدير أن جملة يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ مفسرة لما قبلها، و الأوّل أولى، و الإشارة ب ذلِكُمُ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقا و اللَّهَ خبره. و المعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكلّ كمال، و المفضل بكلّ إفضال، و المستحقّ لكلّ حمد و إجلال فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه و كمال قدرته. قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ مرتفع على أنه من جملة أخبار إِنَ فى إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى و قيل: هو نعت للاسم الشريف فى ذلِكُمُ اللَّهُ و قرأ الحسن و عيسى بن عمر فالق الإصباح بفتح الهمزة، و قرأ الجمهور بكسرها، و هو على قراءة الفتح جمع صبح، و على قراءة الكسر مصدر أصبح، و الصبح و الصباح: أوّل النهار، و كذا الإصباح، و قرأ النّخعى «فلق الإصباح» بفعل و همزة مكسورة. و المعنى فى فالِقُ الْإِصْباحِ أنه شاقّ الضّياء عن الظلام و كاشفه، أو يكون المعنى على حذف مضاف: أى فالق ظلمة الإصباح، و هى الغبش، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار، لأنه يبدو مختلطا بالظلمة ثم يصير أبيض خالصا. و قرأ الحسن و عيسى ابن عمر و عاصم و حمزة و الكسائى وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً حملا على معنى فالِقُ عند حمزة و الكسائى، و أما عند الحسن و عيسى فعطفا على فلق. و قرأ الجمهور و جاعل عطفا على فالق. و قرئ فالق و جاعل بنصبهما على المدح. و قرأ يعقوب «و جاعل الليل ساكنا». و السكن: محل السكون، من سكن إليه: إذا اطمأنّ إليه، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم و يستريحون من التعب و النصب. قوله: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً بالنصب على إضمار فعل: أى و جعل الشمس و القمر، و بالرفع على الابتداء، و الخبر محذوف تقديره و الشمس و القمر مجعولان حسبانا، و بالجرّ على الليل على قراءة من قرأ: و جاعل الليل. قال الأخفش: و الحسبان: جمع حساب، مثل شهبان و شهاب. و قال يعقوب: حسبان: مصدر حسبت الشيء أحسبه حسابا و حسبانا. و الحساب: الاسم؛ و قيل: الحسبان بالضم: مصدر حسب بالفتح، و الحسبان بالكسر: مصدر حسب. و المعنى: جعلهما محلّ حساب تتعلّق به مصالح العباد، و سيرهما على تقدير لا يزيد و لا ينقص، ليدلّ عباده بذلك على عظيم قدرته و بديع صنعه؛ و قيل الحسبان: الضّياء، و فى لغة أن الحسبان:

النار، و منه قوله تعالى: وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ «١» و الإشارة ب ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو بجعل على القراءتين. و العزيز: القاهر الغالب. و العليم: كثير العلم، و من جملة معلوماته: تسييرهما على هذا التدبير المحكم. قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها أى خلقها للاهتداء بها فِي ظُلُماتِ الليل عند المسير فى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ و إضافة الظلمات إلى البرّ و البحر لكونها ملابسة لهما، أو المراد بالظلمات: اشتباه طرقهما التى لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، و هذه إحدى منافع النجوم التى خلقها اللّه لها، و منها ما ذكره اللّه فى قوله: وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ «٢». وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «٣»، و منها: جعلها زينة للسّماء، و من زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على اللّه الفرية قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ التى بيناها بيانا مفصلا لتكون أبلغ فى الإعتبار لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بما فى هذه الآيات من

---

(١). الكهف: ٤٠.

(٢). الصافات: ٧.

(٣). الملك: ٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ١۶۴

الدلالة على قدرة اللّه و عظمته و بديع حكمته. قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ أى آدم عليه السلام كما تقدّم، و هذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قرأ ابن عباس و سعيد بن جبير و الحسن و أبو عمرو و عيسى و الأعرج و النّخعى بكسر القاف و الباقون بفتحها، و هما مرفوعان على أنهما مبتداءان و خبرهما محذوف، و التقدير: فمنكم

مستقرّ أو فلكم مستقرّ، التقدير الأوّل على القراءة الأولى، و الثانى على الثانية: أى فمنكم مستقرّ على ظهر الأرض، أو فلكم مستقرّ على ظهرها، و منكم مستودع فى الرّحم أو فى باطن الأرض أو فى الصلب؛ و قيل: المستقرّ فى الرحم، و المستودع فى الأرض؛ و قيل: المستقرّ فى القبر. قال القرطبى: و أكثر أهل التفسير يقولون: المستقرّ ما كان فى الرحم، و المستودع ما كان فى الصلب؛ و قيل: المستقرّ من خلق، و المستودع من لم يخلق؛ و قيل: الاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبور إلى المبعث.

و مما يدل على تفسير المستقرّ بالكون على الأرض قول اللّه تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ* «۱»، و ذكر سبحانه هاهنا يَفْقَهُونَ و فيما قبله يَعْلَمُونَ لأنّ فى إنشاء الأنفس من نفس واحدة و جعل بعضها مستقرّا و بعضها مستودعا من الغموض و الدّقة ما ليس فى خلق النجوم للاهتداء، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق و إمعان فكر. قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته. و الماء هو ماء المطر، و فى فَأَخْرَجْنا بِهِ التفات من الغيبة إلى التكلّم إظهارا للعناية بشأن هذا المخلوق و ما ترتب عليه، و الضمير فى بِهِ عائد إلى الماء، و نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ يعنى كل صنف من أصناف النبات المختلفة؛ و قيل: المعنى رزق كل شىء، و التفسير الأوّل أولى. ثم فصل هذا الإجمال فقال:

فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً قال الأخفش: أى أخضر. و الخضر: رطب البقول، و هو ما يتشعّب من الأغصان الخارجة من الحبة؛ و قيل: يريد القمح و الشعير و الذرة و الأرز و سائر الحبوب نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا هذه الجملة صفة لخضرا: أى نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبا: أى مركبا بعضه على بعضه كما فى السنابل وَ مِنَ النَّخْلِ خبر مقدّم، و مِنْ طَلْعِها بدل منه، و على قراءة من قرأ يخرج منه حبّ يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب، و أجاز الفراء فى غير القرآن قنوانا عطفا على حبا، و تميم يقولون قنيان. و قرئ بضم القاف و فتحها باعتبار اختلاف اللغتين، لغة قيس، و لغة أهل الحجاز. و الطلع: الكفرى قبل أن ينشق عن الإغريض «۲»، و الإغريض يسمى طلعا أيضا. و القنوان: جمع قنو، و الفرق بين جمعه و تثنيته أن المثنى مكسور النون، و الجمع على ما يقتضيه الإعراب، و مثله صنوان. و القنو: العذق. و المعنى: أن القنوان أصله من الطلع. و العذق هو عنقود النخل، و قيل القنوان: الجمار. و الدانية: القريبة التى ينالها القائم و القاعد.

قال الزجاج: المعنى: منها دانية، و منها بعيدة فحذف، و مثله سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «۳» و خصّ الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر و الامتنان، و ذلك فيما يقرب تناوله أكثر. قوله: وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ

---

(۱). البقرة: ۳۶.

(۲). قال فى القاموس: الطّلع من النخيل شىء يخرج كأنه نعلان مطبقان و قشره يسمى الكفرى و ما فى داخله الإغريض لشدة بياضه.

(۳). النحل: ۸۱.

قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى و الأعمش و عاصم فى قراءته الصحيحة عنه برفع جنات، و قرأ الباقون بالنصب. و أنكر القراءة الأولى أبو عبيدة و أبو حاتم حتى قال أبو حاتم: هى محال، لأنّ الجنّات لا تكون من النخل. قال النحاس: ليس تأويل الرفع على هذا، و لكنه رفع بالابتداء، و الخبر محذوف: أى و لهم جنات، كما قرأ جماعة من القراء وَ حُورٌ عِينٌ «۱» و قد أجاز مثل هذا سيبويه و الكسائى و الفراء، و أما على النصب فقيل:

هو معطوف على نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أى و أخرجنا به جنات كائنة من أعناب، أو النصب بفعل يقدّر متأخرا:

أى وجنات من أعناب أخرجناها، و هكذا القول فى انتصاب الزيتون و الرمان: و قيل: هما منصوبان على الاختصاص لكونهما

عزيزين، و مُشْتَبِهاً منتصب على الحال: أى كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا فى بعض أوصافه و لا يشبه بعضه بعضا فى البعض الآخر؛ و قيل: إن أحدهما يشبه الآخر فى الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن و باعتبار حجمه، و لا يشبه أحدهما الآخر فى الطعم؛ و قيل: خصّ الزيتون و الرمان لقرب منابتهما من العرب كما فى قول اللّه سبحانه: أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ «٢»، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر و إلى ينعه إذا أينع. و الثمر فى اللغة: جنى الشجر. و اليانع: الناضج الذى قد أدرك و حان قطافه. قال ابن الأنبارى: الينع جمع يانع، كركب و راكب. و قال الفراء، أينع: احمرّ، قرأ حمزة و الكسائى ثَمَرِهِ بضم الثاء و الميم، و قرأ الباقون بفتحهما، إلا الأعمش فإنه قرأ ثمره بضم الثاء و سكون الميم تخفيفا. و قرأ محمد بن السّميقع و ابن محيصن و ابن أبى إسحاق وَ يَنْعِهِ بضم الياء التحتية. قال الفراء: هى لغة بعض أهل نجد. و قرأ الباقون بفتحها، و الإشارة بقوله: إِنَّ فِي ذلِكُمْ إلى ما تقدّم ذكره مجملا- و مفصلا لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ باللّه استدلالا بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التى قصّها عليهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يقول: خلق الحب و النوى. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: يفلق الحبّ و النوى عن النبات. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: الشقان اللذان فيهما. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن أبى مالك نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قال: النخلة من النواة و السّنبلة من الحبة وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ قال: النواة من النخلة، و الحبة من السنبلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ قال: الناس الأحياء من النطف، و النطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء، و من الأنعام و النبات كذلك أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى فكيف تكذبون. و أخرج أيضا عن الحسن قال: «أنى تصرفون». و أخرج أيضا عن ابن عباس فى فالِقُ الْإِصْباحِ قال: «خلق الليل و النهار». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: يعنى بالإصباح: ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى فالِقُ الْإِصْباحِ قال: إضاءة الفجر. و أخرج عبد الرزاق و عبد

---

(١). الواقعة: ٢٢.

(٢). الغاشية: ١٧.

ابن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ قال: فالق الصبح. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً قال: سكن فيه كل طير و دابة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً يعنى عدد الأيام و الشهور و السنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قال: يضلّ الرجل و هو فى الظّلمة، و الجور: عن الطّريق. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر، و الخطيب فى كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى برّكم و بحركم ثم أمسكوا، فإنها و اللّه ما خلقت إلا زينة للسماء، و رجوما للشياطين، و علامات يهتدى بها. و أخرج عبد الرزاق و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن مردويه و الخطيب عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «تعلّموا من النجوم ما تهتدون به فى ظلمات البرّ و البحر، ثم انتهوا».

و قد ورد فى استحباب مراعاة الشمس و القمر لذكر اللّه سبحانه، لا لغير ذلك؛ أحاديث، منها عند الحاكم و صححه عن أبى

هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أحبّ عباد اللّه إلى اللّه الذين يراعون الشمس و القمر لذكر اللّه». و أخرج ابن شاهين و الطبرانى و الحاكم و الخطيب عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه. و أخرج أحمد فى الزهد، و الخطيب عن أبى الدرداء نحوه. و أخرج الخطيب فى كتاب النجوم عن أبى هريرة نحو حديثه الأول مرفوعا. و أخرج الحاكم فى تاريخه، و الديلمى بسند ضعيف عن أبى هريرة أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاثة يظلّهم اللّه فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: التاجر الأمين، و الإمام المقتصد، و راعى الشمس بالنهار». و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد عن سلمان الفارسى قال:

«سبعة فى ظلّ اللّه يوم لا ظلّ إلا ظله، فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة». فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر اللّه و الصلاة لا لغير ذلك. و قد جعل اللّه انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس، و أوّل صلاة الظهر زوالها، و وقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية، و وقت المغرب غروب الشمس. و ورد فى صلاة العشاء: «أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر» و به يعرف أوائل الشهور و أوساطها و أواخرها. فمن راعى الشمس و القمر بهذه الأمور فهو الذى أراده صلّى اللّه عليه و سلّم، و من راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد، و هكذا النجوم، ورد النهى عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه و الخطيب عن علىّ قال: نهانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن النّظر فى النجوم. و أخرج ابن مردويه و المرهبى و الخطيب عن أبى هريرة قال: نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن النّظر فى النجوم. و أخرج الخطيب عن عائشة مرفوعا مثله.

و أخرج الطبرانى و أبو نعيم فى الحلية و الخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إذا ذكر أصحابى فأمسكوا، و إذا ذكر القدر فأمسكوا، و إذا ذكرت النّجوم فأمسكوا». و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء و التفكر و الاعتبار. و ما ورد فى جواز النظر فى النجوم فهو مقيد بالاهتداء و التفكر و الاعتبار كما يدلّ عليه حديث ابن عمر السابق، و عليه يحمل

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۶۷

ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه: أنه سأل رجلا عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرّج أن يخبره، فقال عكرمة: سمعت ابن عباس يقول: علم عجز الناس عنه و وددت أنى علمته. و قد أخرج أبو داود و الخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أما بعد، فإن ناسا يزعمون أن كسوف هذه الشمس، و كسوف هذا القمر، و زوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، و إنهم قد كذبوا، و لكنها آيات من آيات اللّه يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة». و قد ثبت فى الصحيحين و غيرهما فى كسوف الشمس و القمر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد و لا لحياته، و لكن يخوّف اللّه بهما عباده». و أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا:

«إن اللّه نصب آدم بين يديه، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذرّيته من صلبه حتى ملؤوا الأرض»، فهذا الحديث هو معنى ما فى الآية، وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صحّحه من طرق عن ابن عباس فى قوله: فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قال: المستقر ما كان فى الرّحم، و المستودع ما استودع فى أصلاب الرجال و الدواب. و فى لفظ: المستقر ما فى الرحم و على ظهر الأرض و بطنها مما هو حىّ و مما قد مات. و فى لفظ: المستقرّ ما كان فى الأرض، و المستودع ما كان فى الصّلب. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى الآية: قال: مستقرّها فى الدنيا، و مستودعها فى الآخرة. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد

و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: المستقرّ: الرحم، و المستودع: المكان الذى يموت فيه. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن و قتادة فى الآية قالا: مستقرّ فى القبر، و مستودع فى الدنيا، أوشك أن يلحق بصاحبه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله:

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً قال: هذا السنبل. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال قريبة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قنوان: الكبائس، و الدانية: المنصوبة. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى قِنْوانٌ دانِيَةٌ قال:

تهدل العذوق من الطّلع. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله:

مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ قال: متشابها ورقه مختلفا ثمره. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ قال: رطبه و عنبه. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن البراء وَ يَنْعِهِ قال: نضجه.

[سورة الأنعام (6): الآيات 100 الى 103]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

فتح القدير، ج‌2، ص: 168

هذا الكلام يتضمّن ذكر نوع آخر من جهالاتهم و ضلالاتهم. قال النحاس: الجنّ: المفعول الأوّل، و شركاء: المفعول الثانى، كقوله تعالى: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً «1»، وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً «2» و أجاز الفراء: أن يكون الجنّ بدلا من شركاء و مفسّرا له. و أجاز الكسائى رفع الجنّ بمعنى هم الجنّ، كأنه قيل:

من هم؟ فقيل: الجنّ، و بالرفع قرأ يزيد بن قطيب و أبو حيان، و قرئ بالجرّ على إضافة شركاء إلى الجنّ للبيان.

و المعنى: أنهم جعلوا شركاء للّه فعبدوهم كما عبدوه، و عظموهم كما عظموه. و قيل: المراد بالجنّ هاهنا الملائكة لاجتنانهم: أى استتارهم، و هم الذين قالوا: الملائكة بنات اللّه؛ و قيل: نزلت فى الزنادقة الذين قالوا: إن اللّه تعالى و إبليس أخوان، فاللّه خالق الناس و الدوابّ، و إبليس خالق الحيات و السباع و العقارب. و روى ذلك عن الكلبى، و يقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا: للعالم صانعان هما الربّ سبحانه و الشيطان. و هكذا القائلون: كل خير من النور، و كل شرّ من الظلمة، و هم المانوية. قوله: وَ خَلَقَهُمْ جملة حالية بتقدير قد: أى و قد علموا أن اللّه خلقهم، أو خلق ما جعلوه شريكا للّه. قوله: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ قرأ نافع بالتشديد على التكثير، لأن المشركين ادّعوا أن الملائكة بنات اللّه، و النصارى ادّعوا أن المسيح ابن اللّه، و اليهود ادّعوا أن عزيزا ابن اللّه، فكثر ذلك من كفرهم فشدّد الفعل لمطابقة المعنى. و قرأ الباقون بالتخفيف. و قرئ «حرفوا» من التحريف: أى زوّروا. قال أهل اللغة: معنى خرقوا: اختلفوا و افتعلوا و كذبوا، يقال: اختلق الإفك و اخترقه و خرقه، أو أصله من خرق الثوب: إذا شقه: أى اشتقوا له بنين و بنات. قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بمحذوف و هو حال: أى كائنين بغير علم، بل قالوا: ذلك عن جهل خالص، ثم بعد حكاية هذا الضلال البيّن و البهت الفظيع من جعل الجنّ شركاء للّه، و إثبات بنين و بنات له نزه اللّه نفسه، فقال: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ و قد تقدّم الكلام فى معنى سبحانه. و معنى تعالى تباعد و ارتفع عن قولهم الباطل الذى وصفوه به. قوله: بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى مبدعهما، فكيف يجوز أن يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ و قد جاء البديع: بمعنى المبدع كالسميع بمعنى

المسمع كثيرا، و منه قول عمرو بن معدى كرب:

أمن ريحانة الدّاعى السّميع يورّقنى و أصحابى هجوع؟

أى المسمع، و قيل: هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل، و الأصل بديع سماواته و أرضه. و أجاز الكسائى خفضه على النعت للّه. و الظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف، أو على أنه مبتدأ و خبره أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ و قيل: هو مرفوع على أنه فاعل تَعالى و قرئ بالنصب على المدح، و الاستفهام فى أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ للإنكار. و الاستبعاد، أى من كان هذا وصفه، و هو أنه خالق السموات و الأرض و ما فيهما كيف يكون له ولد؟ و هو من جملة مخلوقاته، و كيف يتخذ ما يخلقه ولدا، ثم بالغ فى نفى الولد، فقال: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ أى كيف يكون له ولد و الحال أنه لم تكن له صاحبة، و الصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، و جملة وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لتقرير ما قبلها، لأن من كان خالقا لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولدا وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، و الإشارة بقوله:

---

(۱). المائدة: ۲۰.

(۲). المدثر: ۱۲.

ذلِكُمُ إلى الأوصاف السابقة، و هو فى موضع رفع على الابتداء و ما بعده خبره، و هو الاسم الشريف، و رَبُّكُمْ خبر ثان، و لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خبر ثالث، و خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ خبر رابع، و يجوز أن يكون اللَّهُ رَبُّكُمْ بدلا من اسم الإشارة، و كذلك لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ خبر المبتدأ، و يجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، و أجاز الكسائى و الفراء النصب فيه فَاعْبُدُوهُ أى: من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة، فاعبدوه و لا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء.

قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ الأبصار: جمع بصر، و هو الحاسة، و إدراك الشيء: عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج: أى لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفىّ هو هذا الإدراك لا مجرّد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا شك فيه و لا شبهة، و لا يجهله إلا من يجهل السّنّة المطهرة جهلا عظيما، و أيضا قد تقرّر فى علم البيان و الميزان أن رفع الإيجاب الكلى سلب جزئى؛ فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار و هى أبصار الكفار، هذا على تسليم أنّ نفى الإدراك يستلزم نفى الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، و الآية من سلب العموم لا من عموم السلب، و الأوّل تخلفه الجزئية، و التقدير: لا تدركه كلّ الأبصار بل بعضها، و هى أبصار المؤمنين. و المصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية فى الآخرة. و اعتضادها بقوله تعالى:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ «۱» الآية. قوله: وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ أى يحيط بها و يبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، و خصّ الأبصار ليجانس ما قبله. و قال الزجاج: فى هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار:

أى لا يعرفون كيفية حقيقة البصر و ما الشيء الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، انتهى. وَ هُوَ اللَّطِيفُ أى الرفيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أى رفق به، و اللطف فى العمل: الرفق فيه، و اللطف من اللّه: التوفيق و العصمة، و ألطفه بكذا: إذا أبرّه. و الملاطفة:

المبارّة، هكذا قال الجوهرى و ابن فارس، و الْخَبِيرُ المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ قال: و اللّه خلقهم وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ قال: تخرّصوا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ خَرَقُوا قال: جعلوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد قال:

كـذبوا. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و العقيلى و ابن عدى و أبو الشيـخ و ابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ قال: «لو أنّ الإنس و الجنّ و الملائكة و الشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفّوا صفّا واحدا ما أحاطوا باللّه أبدا». قال الذهبى: هذا حديث منكر. انتهى. و فى إسناده عطية العوفى و هو ضعيف. و أخرج الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: رأى محمد ربّه. قال عكرمة: فقلت له أليس اللّه يقول: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ قال:

لا أمّ لك ذاك نوره إذا تجلّى بنوره لا يدركه شيء، و فى لفظ: إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر.

و أخرج ابن جرير عنه قال: لا يحيط بصر أحد باللّه. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى كتاب الرؤية عن الحسن

---

(۱). القيامة: ۲۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۷۰

فى قوله: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ قال: فى الدّنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إسماعيل بن علية مثله.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۸]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷) وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸)

البصائر: جمع بصيرة، و هى فى الأصل: نور القلب، و المراد بها هنا الحجّة البيّنة و البرهان الواضح، و هذا الكلام وارد على لسان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لهذا قال فى آخره: وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ و وصف البصائر بالمجيء تفخيما لشأنها و جعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال: جاءت العافية، و انصرف المرض، و أقبلت السعود، و أدبرت النحوس فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ أى: فمن تعقل الحجة و عرفها و أذعن لها فنفع ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار وَ مَنْ عَمِيَ عن الحجّة و لم يتعقّلها و لا أذعن لها، فضرر ذلك على نفسه لأنه يتعرض لغضب اللّه فى الدنيا و يكون مصيره النار وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ برقيب أحصى عليكم أعمالكم، و إنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى و هو الحفيظ عليكم. قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف عن عبادة الأوثان وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرفها فى الوعد و الوعيد و الوعظ و التنبيه. قوله: وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ العطف على محذوف: أى نصرّف الآيات لتقوم الحجّة و ليقولوا درست، أو علة لفعل محذوف يقدّر متأخرا، أى:

و ليقولوا درست صرّفناها، و على هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة. و المعنى: و مثل ذلك التصريف نصرّف الآيات و ليقولوا: درست، فإنه لا احتفال بقولهم، و لا اعتداد بهم، فيكون معناه: الوعيد و التهديد لهم، و عدم الاكتراث بقولهم. و قد أشار إلى مثل هذا الزجاج. و قال النحاس: و فى المعنى قول آخر حسن، و هو أن يكون معنى نُصَرِّفُ الْآياتِ نأتى بها آية بعد آية لِيَقُولُوا دَرَسْتَ علينا فيذكرون الأوّل بالآخر، فهذا حقيقته، و الذى قاله أبو إسحاق:- يعنى الزجاج- مجاز، و فى دَرَسْتَ قراءات، قرأ أبو عمرو و ابن كثير «دارست» بألف بين الدال و الراء كفاعلت، و هى قراءة علىّ و ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و عكرمة و

أهـل مكـة. و قرأ ابن عامر درست بفتـح السين و إسكان التاء من غير ألف كخرجت، و هى قراءة الحسن. و قرأ الباقون دَرَسْـتَ كضـربت، فعلى القراءة الأولى المعنى: دارست أهل الكتاب و دارسوك: أى ذاكرتهم و ذاكروك، و يـدلّ على هـذا ما وقع فى الكتاب العزيز من إخبار اللّه عنهم بقوله:

وَ أَعـانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ «١» أى أعان اليهود النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على القرآن، و مثله قولهم: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا «٢»، و قولهم: إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ «٣». و المعنى على القراءة الثانيـة: قدمت هذه الآيات و عفت و انقطعت، و هو كقولهم: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ*. و المعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على

---

(١). الفرقان: ۴.

(٢). الفرقان: ۵.

(٣). النحل: ١٠٣.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٧١

القراءة الأولى. قال الأخفش: هى بمعنى دارست إلا أنه أبلغ. و حكى عن المبرد أنه قرأ: و ليقولوا بإسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد، أى: و ليقولوا ما شاؤوا فإن الحق بين، و فى هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس و هو القراءة؛ و قيل من درسته: أى ذللته بكثرة القراءة، و أصله درس الطعام:

أى داسه. و الدّياس: الدّراس بلغة أهل الشام؛ و قيل: أصله من درست الثوب أدرسه درسا: أى أخلقته، و درست المرأة درسا: أى حاضت، و يقال: إن فرج المرأة يكنى أبا أدراس و هو فى الحيض، و الدّرس أيضا:

الطّريق الخفى. و حكى الأصمعى: بعير لم يدرّس: أى لم يركب. و روى عن ابن عباس و أصحابه و أبى و ابن مسعود و الأعمش أنهم قرءوا درس أى درس محمـد الآيـات، و قرئ درست و به قرأ زيـد ابن ثـابت: أى الآيات على البناء للمفعول، و دارست أى دارست اليهود محمدا، و اللام فى لِنُبَيِّنَهُ لام كى: أى نصرف الآيات لكى نبينه لقوم يعلمون، و الضمير راجع إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن، أو إلى القرآن و إن لم يجر له ذكر، لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المـدلول عليه بالفعل. قوله: اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أمره اللّه باتباع مـا أوحى إليه و أن لاـ يشـغل خـاطره بهم، بـل يشـتغل باتبـاع ما أمره اللّه، و جملـة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ معترضــة بيـن المعطـوف و المعطوف عليـه لقصـد تأكيـد إيجـاد الاتبـاع وَ أَعْرِضْ معطـوف على اتَّبِعْ أمره اللّه بالإـعراض عن المشـركين بعد ما أمره باتباع ما أوحى إليه، و هذا قبل نزول آية السيـف وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا أى لو شاء اللّه عدم إشراكهم ما أشـركوا، و فيه أن الشـرك بمشيئة اللّه سبحانه، و الكلام فى تقرير هـذا على الوجه الذى يتعارف به أهل علم الكلام، و الميزان معروف فلاـ نطيـل بـإيراده وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً أى: رقيبا وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى: قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالـة. قوله: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ الموصول عبارة عن الآلهـة التى كـانت تعبـدها الكفار. و المعنى: لا تسب يا محمـد آلهـة هؤلاء الكفار التى يـدعونها من دون اللّه، فيتسبّب عن ذلك سبّهم للّه عدوانا و تجاوزا عن الحقّ و جهلا منهم.

و فى هـذه الآيـة دليل على أن الـداعى إلى الحقّ و النّاهى عن الباطل إذا خشـى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، و مخالفة حق، و وقوع فى باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجبا عليه، و ما أنفع هذه الآية و أجل فائدتها لمن كان من الحـاملين لحجج اللّه المتصـدين لبيانهـا للنـاس إذا كان بين قوم من الصم و البكم الـذين إذا أمرهم بمعروف تركوه و تركوا غيره من المعروف، و إذا نهـاهم عن منكر فعلوه و فعلوا غيره من المنكرات عنـادا للحق و بغضـا لاتباع المحقين و جراءة على اللّه

سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلّا السيف، و هو الحكم العدل لمن عائد الشريعة المطهرة و جعل المخالفة لها و التجرؤ على أهلها ديدنه و هجّيراه «۱»، كما يشاهد ذلک فی أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حقّ وقعوا فی كثير من الباطل، و إذا أرشدوا إلى السّنّة قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدّين، المتهاونون بالشرائع، و هم شرّ من الزنادقة، لأنهم يحتجّون بالباطل، و ينتمون

---

(۱). ديدنه و هجّيراه: دأبه و عادته و ما يولع بذكره.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۷۲

إلى البدع، و يتظهرون بذلک غير خائفين و لا وجلين، و الزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام و تحاماهم أهله، و قد ينفق كيدهم و يتم باطلهم و كفرهم نادرا على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم و تحرز و خيفة و وجل، و قد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، و هی أصل أصيل فی سدّ الذرائع و قطع التطرّق إلى الشبه. و قرأ أهل مكة عدوا بضم العين و الدال و تشديد الواو، و هی قراءة الحسن و أبی رجاء و قتادة. و قرأ من عداهم بفتح العين و ضم الدال و تشديد الواو، و معنى القراءتين واحد: أی ظلما و عدوانا، و هو منتصب على الحال، أو على المصدر أو على أنه مفعول له كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ أی مثل ذلک التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار عملهم من الخير و الشرّ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ* «۱» ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ فی الدنيا من المعاصی التی لم ينتهوا عنها، و لا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم اللّه به إليهم، و ما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فی قوله: قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ أی بينة فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ أی فمن اهتدى فإنما يهتدی لنفسه وَ مَنْ عَمِیَ أی من ضلّ فَعَلَيْها. و أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه و الضياء فی المختارة عن ابن عباس أنه كان يقرأ دارست و قال: قرأت. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه دَرَسْتَ قال: قرأت و تعلمت. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه أيضا قال: دارست خاصمت، جادلت، تلوت. و أخرج أبو الشيخ عن السدیّ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ قال: كفّ عنهم، و هذا منسوخ، نسخه القتال فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۲». و أخرج ابن أبی حاتم و البيهقی فی الأسماء و الصفات عن ابن عباس فی قوله: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا يقول اللّه تبارک و تعالى:

لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أی بحفيظ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قال: قالوا يا محمد لتنتهينّ عن سبک آلهتنا أو لنهجونّ ربک، فنهاهم اللّه أن يسبّوا أوثانهم فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ و قد ثبت فی الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ملعون من سبّ والديه، قالوا: يا رسول اللّه! و كيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، و يسبّ أمه فيسبّ أمه».

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۳]

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱۰) وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ

الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

---

(١). النحل: ٩٣.

(٢). التوبة: ٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٧٣

قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أى الكفار مطلقا، أو كفار قريش، و جهد الأيمان: أشدّها، أى أقسموا باللّه أشدّ أيمانهم التى بلغتها قدرتهم، و قد كانوا يعتقدون أنّ اللّه هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به، و انتصاب جهد على المصدرية و هو بفتح الجيم المشقة، و بضمها الطاقة، و من أهل اللغة من يجعلهما لمعنى واحد، و المعنى:

أنهم اقترحوا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم آية من الآيات التى كانوا يقترحونها، و أقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التى اقترحوها لَيُؤْمِنُنَّ بِها و ليس غرضهم الإيمان، بل معظم قصدهم التحكّم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و التلاعب بآيات اللّه، فأمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بقوله: إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ هذه الآية التى يقترحونها و غيرها و ليس عندى من ذلك شيء، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها، و إن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها. قوله: وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ قرأ أبو عمرو و ابن كثير بكسر الهمزة من أنها و هى قراءة مجاهد، و يؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود و ما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون قال مجاهد و ابن زيد: المخاطب بهذا:

المشركون: أى و ما يدريكم، ثم حكم عليهم بقوله: أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و قال الفراء و غيره:

الخطاب للمؤمنين، لأن المؤمنين قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: يا رسول اللّه! لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون، فقال اللّه تعالى: وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و قرأ أهل المدينة و الأعمش و حمزة و الكسائى و عاصم و ابن عامر أَنَّها إِذا جاءَتْ بفتح الهمزة، قال الخليل: أنها بمعنى لعلها، و فى التنزيل وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى «١» أى أنّه يزكّى. و حكى عن العرب: ائت السوق أنك تشترى لنا شيئا: أى لعلك، و منه قول عدى ابن زيد:

أعاذل ما يدريك أنّ منيّتى إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

أى لعل منيتى، و منه قول دريد بن الصّمّة:

أرينى جوادا مات هزلا لأنّنى أرى ما ترين أو بخيلا مخلّدا

أى لعلنى، و قول أبى النجم:

قلت لشيبان ادن من لقائه أنّ تغدّى اليوم من شوائه

أى لعلى، و قول جرير:

هل أنتم عائجون بنا لأنّا نرى العرصات أو أثر الخيام

أى لعلنا اه. و قد وردت فى كلام العرب كثيرا بمعنى لعل. و حكى الكسائى أنها كذلك فى مصحف أبىّ بن كعب. و قال الكسائى أيضا و الفرّاء: إن لا- زائدة، و المعنى: و ما يشعركم أنها: أى الآيات، إذا جاءت يؤمنون فزيدت كما زيدت فى قوله تعالى: وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ «٢» و فى

---

(۱). عبس: ۳.

(۲). الأنبياء: ۹۵.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۷۴

قوله: ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «۱» و ضعّف الزجّاج و النحّاس و غيرهما زيادة لا و قالوا: هو غلط و خطأ.

و ذكر النحاس و غيره أن فى الكلام حذفا و التقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع. قوله: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ معطوف على لا يُؤْمِنُونَ قيل: و المعنى: نقلّب أفئدتهم و أبصارهم يوم القيامة على لهب النار و حرّ الجمر كَما لَمْ يُؤْمِنُوا فى الدنيا وَ نَذَرُهُمْ فى الدنيا:

أى نمهلهم و لا نعاقبهم فعلى هذا بعض الآية فى الآخرة. و بعضها فى الدنيا؛ و قيل: المعنى: و نقلب أفئدتهم و أبصارهم فى الدنيا، أى نحول بينهم و بين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم و بين ما دعوتهم إليه أوّل مرة عند ظهور المعجزة؛ و قيل: فى الكلام تقديم و تأخير، و التقدير: أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا، و نقلب أفئدتهم و أبصارهم و نذرهم فى طغيانهم يعمهون: أى يتحيّرون، و الكاف فى كَما لَمْ يُؤْمِنُوا نعت مصدر محذوف، و ما مصدرية، و يَعْمَهُونَ فى محل نصب على الحال. قوله: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ أى: لا يؤمنون و لو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ «۲»، وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم، فقالوا لهم: إن هذا النبى صادق مرسل من عند اللّه فآمنوا به، لم يؤمنوا وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مما سألوه من الآيات قُبُلًا أى كفلا و ضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات. هذا على قراءة من قرأ قبلا بضم القاف و هم الجمهور. و قرأ نافع و ابن عامر قبلا بكسرها: أى مقابلة. و قال محمد بن يزيد المبرد: قبلا بمعنى ناحية، كما تقول: لى قبل فلان مال، فقبلا نصب على الظرف، و على المعنى الأوّل ورد قوله تعالى: أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا أى: يضمنون، كذا قال الفرّاء. و قال الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل؛ أى جماعة جماعة. و حكى أبو زيد: لقيت فلانا قبلا و مقابلة و قبلا كله واحد بمعنى المواجهة، فيكون على هذا الضم كالكسر و تستوى القراءتان. و الحشر: الجمع ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إيمانهم، فإن ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن، و الاستثناء مفرغ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ جهلا يحول بينهم و بين درك الحق و الوصول إلى الصواب. قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍ هذا الكلام لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و دفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم، أى مثل هذا الجعل جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا و المعنى: كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار.

فجعلنا لكل واحد منهم عدوا من كفار زمنهم، و شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ بدل من عَدُوًّا و قيل:

هو المفعول الثانى لجعلنا. و قرأ الأعمش: الجن و الإنس بتقديم الجن، و المراد بالشّياطين: المردة من الفريقين، و الإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و الأصل الإنس و الجن: الشياطين، و جملة يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فى محل نصب على الحال، أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض؛ و قيل: إنّ الجملة مستأنفة لبيان حال العدوّ، و سمى و حيا لأنه إنما يكون خفية بينهم، و جعل تمويهم زخرف القول لتزيينهم إياه، و المزخرف: المزين، و زخارف الماء طرائقه، و غُرُوراً منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض يغرونهم بذلك غرورا، و يجوز أن يكون فى موضع الحال، و يجوز أن يكون مفعولا له، و الغرور:

الباطل. قوله: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقا من الأمور التى جرت من

---

(۱). الأعراف: ۱۲.

(٢). الأنعام: ٨.

الكفار فی زمنه و زمن الأنبياء قبله، أی: لو شاء ربک عدم وقوع ما تقدّم ذكره ما فعلوه و أوقعوه؛ و قيل:

ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل فَذَرْهُمْ أی اتركهم، و هذا الأمر لتهديد للكفار كقوله: ذَرْنِی وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «١»، وَ ما يَفْتَرُونَ إن كانت ما مصدرية فالتقدير: اتركهم و افتراءهم، و إن كانت موصولة فالتقدير: اتركهم و الذی يفترونه. قوله: وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اللام فی لتصغی لام كی، فتكون علة كقوله يُوحِی و التقدير. يوحی بعضهم إلی بعض ليغروهم و لتصغی؛ و قيل: هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا، أی: لتصغی جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا، و قيل: إن اللام للأمر و هو غلط، فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، و الإصغاء: الميل، يقال: صغوت أصغو صغوا، و صغيت أصغی؛ و يقال: صغيت بالكسر؛ و يقال أصغيت الإناء: إذا أملته ليجتمع ما فيه، و أصله: الميل إلی الشیء لغرض من الأغراض، و يقال صغت النجوم: إذا مالت للغروب، و أصغت الناقة: إذا أمالت رأسها، و منه قول ذی الرّمّة:

تصغی إذا شدّها بالكور جانحةحتّی إذا ما استوی فی غرزها تثب

و الضمير فی إِلَيْهِ لزخرف القول، أو لما ذكر سابقا من زخرف القول و غيره: أی أوحی بعضهم إلی بعض زخرف القول ليغروهم وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ من الكفار وَ لِيَرْضَوْهُ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ من الآثام، و الاقتراف:

الاكتساب؛ يقال: خرج ليقترف لأهله: أی ليكتسب لهم، و قارف فلان هذا الأمر: إذا واقعه، و قرفه:

إذا رماه بالريبة، و اقترف: كذب، و أصله اقتطاع قطعة من الشیء.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ فی قريش وَ ما يُشْعِرُكُمْ يا أيها المسلمون أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ و أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظی قال: كلّم رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم قريشا فقالوا: يا محمد! تخبرنا أنّ موسی كان معه عصا يضرب بها الحجر، و أن عيسی كان يحيی الموتی، و أن ثمود لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتی نصدّقک، فقال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم:

«أی شیء تحبون أن آتيكم به»؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا، قال: «فإن فعلت تصدقونی»؟ قالوا:

نعم، و اللّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعون، فقام رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهبا فإن لم يصدقوا عند ذلک لنعذبنهم، و إن شئت فاتركهم حتی يتوب تائبهم، فقال: «بل يتوب تائبهم»، فأنزل اللّه وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إلی قوله: يَجْهَلُونَ و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ قال: لما جحد المشركون ما أنزل اللّه لم تثبت قلوبهم علی شیء و ردّت عن كل أمر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا قال:

معاينة ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أی أهل الشقاء إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أی أهل السّعادة و الذين سبق لهم فی علمه أن يدخلوا فی الإيمان. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا

---

(١). المدثر: ١١.

أی فعاينوا ذلک معاينة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: أفواجا قبيلا. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فی

قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ قال: إنّ للجنّ شياطين يضلّونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، فيلتقى شيطان الإنس و شيطان الجنّ، فيقول هذا لهذا: أضلله بكذا و أضلله بكذا، فهو يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً و قال ابن عباس: الجنّ هم الجانّ و ليسوا شياطين، و الشياطين ولد إبليس و هم لا يموتون إلا مع إبليس و الجنّ يموتون، فمنهم المؤمن و منهم الكافر. و أخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: الكهنة هم شياطين الإنس. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قال: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، فإن اللّه يقول: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: من الإنس شياطين و من الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس زُخْرُفَ الْقَوْلِ قال: يحسن بعضهم لبعض القول؛ يتبعوهم فى فتنتهم. و قد أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا أبا ذر تعوّذ باللّه من شرّ شياطين الجنّ و الإنس، قال: يا نبىّ اللّه و هل للإنس شياطين؟ قال: نعم، شياطين الإنس و الجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا». و أخرج أحمد و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لِتَصْغى تميل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه وَ لِتَصْغى تزيغ وَ لِيَقْتَرِفُوا يكتسبوا.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١١٧]

أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

قوله: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على فعل مقدّر، و الكلام هو على إرادة القول، و التقدير: قل لهم يا محمد: كيف أضلّ و أبتغى غير اللّه حكما؟ و غير: مفعول لأبتغى مقدّم عليه، و حكما:

المفعول الثانى أو العكس. و يجوز أن ينتصب حكما على الحال، و الحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر فى مثل هذه الصفة المشتقة. أمره اللّه سبحانه و تعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه من أن يجعل بينه و بينهم حكما فيما اختلفوا فيه، و إنّ اللّه هو الحكم العدل بينه و بينهم، و جملة وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا فى محل نصب على الحال: أى كيف أطلب حكما غير اللّه و هو الذى أنزل عليكم القرآن مفصّلا مبينا واضحا مستوفيا لكلّ قضية على التفصيل، ثم أخبر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بأن أهل الكتاب و إن أظهروا الجحود و المكابرة، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند اللّه بما دلتهم عليه كتب اللّه المنزلة كالتوراة و الإنجيل من أنه رسول اللّه و أنه خاتم الأنبياء،

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٧٧

و بِالْحَقِ متعلّق بمحذوف وقع حالا: أى متلبسا بالحق الذى لا شك فيه و لا شبهة، ثم نهاه اللّه عن أن يكون من الممترين فى أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند اللّه بالحق، أو نهاه عن مطلق الامتراء و يكون ذلك تعريضا لأمته عن أن يمترى أحد منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له، أى: فلا يكوننّ أحد من الناس من الممترين و لا يقدح فى ذلك كون الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن خطابه خطاب لأمته. قوله:

وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا قرأ أهل الكوفة: كلمة، بالتوحيد، و قرأ الباقون: بالجمع، و المراد بالكلمات: العبارات أو

متعلقاتها من الوعد و الوعيد. و المعنى: أنّ اللّه قد أتمّ وعده و وعيده، فظهر الحق و انطمس الباطل؛ و قيل: المراد بالكلمة أو الكلمات: القرآن، و صِدْقاً وَ عَدْلًا منتصبان على التمييز أو الحال أو على أنهما نعت مصدر محذوف، أى: تمام صدق و عدل لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ لا خلف فيها و لا مغير لما حكم به، و الجملة المنفية فى محل نصب على الحال أو مستأنفة وَ هُوَ السَّمِيعُ لكل مسموع الْعَلِيمُ بكل معلوم. قوله: وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أخبره اللّه سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من فى الأرض أضلوه، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين، و هم الطائفة التى لا تزال على الحق و لا يضرّها خلاف من يخالفها، كما ثبت ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: المراد بالأكثر: الكفار؛ و قيل: المراد بالأرض: مكة، أى: أكثر أهل مكة، ثم علل ذلك سبحانه بقوله: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ أى: ما يتبعون إلا الظنّ الذى لا أصل له، و هو ظنّهم أن معبوداتهم تستحق العبادة و أنها تقربهم إلى اللّه وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى و ما هم إلا يخرصون، أى يحدسون و يقدّرون، و أصل الخرص: القطع، و منه خرص النخل يخرص: إذا حزره ليأخذ منه الزكاة، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه، و إذا كان هذا حال أكثر من فى الأرض فالعلم الحقيقى هو عند اللّه، فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره، و هو العالم بمن يضلّ عن سبيله و من يهتدى إليه. قال بعض أهل العلم: إن أَعْلَمُ فى الموضعين بمعنى يعلم، قال:

و منه قول حاتم الطائى:

تحالفت طيّ من دوننا حلفاو اللّه أعلم ما كنّا لهم خذلا

و الوجه فى هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر، فتكون من منصوبة بالفعل الذى جعل أفعل التفضيل نائبا عنه؛ إن أفعل التفضيل على بابه و النصب بفعل مقدّر؛ و قيل: إنها منصوبة بأفعل التفضيل أى إن ربك أعلم أيّ الناس يضلّ عن سبيله؛ و قيل: فى محل نصب بنزع الخافض: أى بمن يضلّ قاله بعض البصريين؛ و قيل: فى محل جرّ بإضافة أفعل التفضيل إليها.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: مُفَصَّلًا قال: مبينا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: صِدْقاً وَ عَدْلًا قال: صدقا فيما وعد، و عدلا فيما حكم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نصر السجزى فى الإبانة عن محمد بن كعب القرظى فى قوله: لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ قال: لا تبديل لشيء قاله فى الدنيا و الآخرة لقوله: ما يُبَدَّلُ

فتح القدير، ج ٢، ص: ١٧٨

الْقَوْلُ لَدَيَ «١». و أخرج ابن مردويه و ابن النجار عن أنس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا قال: «لا إله إلا اللّه». و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى اليمان عامر بن عبد اللّه قال: دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد الحرام يوم فتح مكة و معه مخصرة، و لكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنما صنما و يطعن فى صدر الصنم بعصا ثم يعقره، فكلما صرع صنما أتبعه الناس ضربا بالفؤوس حتى يكسروه و يطرحوه خارجا من المسجد، و النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)

لما تقدّم ذكر ما يصنعه الكفار فى الأنعام من تلك السنن الجاهلية؛ أمر اللّه المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه؛ و قيل:

إنها نزلت فى سبب خاص و سيأتى، و لكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم اللّه حلّ إن كان مما أباح اللّه أكله. و قال عطاء: فى هذه الآية الأمر بذكر اللّه على الشراب و الذبح و كل مطعوم، و الشرط فى إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ للتهييج و الإلهاب: أى بأحكامه من الأوامر و النواهى التى من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم اللّه عليه، و الاستفهام فى وَ ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ للإنكار: أى ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن اللّه لكم بذلك وَ الحال أن قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أى بين لكم بيانا مفصلا يدفع الشك و يزيل الشبهة بقوله: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً «٢» إلى آخر الآية، ثم استثنى فقال: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ أى: من جميع ما حرّمه عليكم، فإن الضرورة تحلل الحرام، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة. قرأ نافع و يعقوب وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ بفتح الفعلين على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه. و قرأ أبو عمرو و ابن عامر و ابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول. و قرأ عطية العوفى فَصَّلَ بالتخفيف: أى أبان و أظهر. قوله:

وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ هم الكفار الذين كانوا يحرّمون البحيرة و السائبة و نحوهما. فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم و لا يعلمون أن ذلك جهل و ضلالة لا يرجع إلى شيء من العلم، ثم أمرهم اللّه أن يتركوا ظاهر الإثم و باطنه. و الظاهر: ما كان يظهر كأفعال الجوارح، و الباطن: ما كان لا يظهر كأفعال القلب؛ و قيل: ما أعلنتم و ما أسررتم؛ و قيل: الزنا الظاهر و الزنا المكتوم.

و أضاف الظاهر و الباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على اللّه سبحانه.

و قد أخرج أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن

---

(١). ق: ٢٩.

(٢). الأنعام: ١۴۵.

مردويه عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قالوا: إنّا نأكل مما قتلنا و لا نأكل مما قتل اللّه فأنزل اللّه فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إلى قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فإنه حلال إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ يعنى: القرآن مُؤْمِنِينَ قال: مصدقين وَ ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يعنى: الذبائح وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ يعنى: ما حرّم عليكم من الميتة وَ إِنَّ كَثِيراً يعنى: من مشركى العرب لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ يعنى: فى أمر الذبائح. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ أى من الميتة و الدم و لحم الخنزير.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ قال: هو نكاح الأمهات و البنات وَ باطِنَهُ قال: هو الزّنا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: الظاهر منه: لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ «١» و حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ «٢» الآية، و الباطن: الزنا. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: علانيته و سرّه.

[سورة الأنعام (۶): آية ١٢١]

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ

لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱)
نهى اللّه سبحانه عن أكل ما لم يـذكر اسم اللّه عليه بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم اللّه عليه. و فيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه.
و قـد اختلف أهل العلم فى ذلك؛ فـذهب ابن عمر و نافع مولاه و الشعبى و ابن سيرين و هو روايـة عن مالك و عن أحمـد بن حنبل، و به قال أبو ثور و داود الظاهرى: أن ما لم يـذكر اسم اللّه عليه من الذبائـح حرام من غير فرق بين العامـد و الناسـى لهـذه الآيـة، و لقـوله تعـالى فى آيـة الصـيد: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ «۳»، و يزيـد هذا الاسـتدلال تأكيدا قوله سبحانه فى هذه الآية: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ
و قد ثبت فى الأحاديث الصّحيحة الأمر بالتسمية فى الصيد و غيره. و ذهب الشافعى و أصحابه و هو رواية عن مالك و رواية عن أحمد أن التسمية مستحبة لا واجبة، و هو مروىّ عن ابن عباس و أبى هريرة و عطاء بن أبى رباح، و حمل الشافعى الآية على من ذبـح لغير اللّه و هو تخصيص للآيـة بغير مخصص. و قـد روى أبو داود فى المرسل أن النبىّ صـلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم اللّه أو لم يـذكر». و ليس فى هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكر اسم اللّه عليه أم لا؟ فقال: سمّوا أنتم و كلوا» يفيد أن التسمية عند الأكـل تجزئ مع التباس وقوعها عنـد الذبـح. و ذهب مالك و أحمـد فى المشـهور عنهما و أبو حنيفـة و أصحابه و إسحاق بن راهويه أن التسمية إن

---

(۱). النساء: ۲۲.

(۲). النساء: ۲۳.

(۳). المائدة: ۴.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۸۰

تركت نسيانا لم تضرّ، و إن تركت عمدا لم يحلّ أكل الذبيحة. و هو مروىّ عن علىّ و ابن عباس و سعيد بن المسيب و عطاء و طاوس و الحسن البصرى و أبى مالك و عبد الرحمن بن أبى ليلى و جعفر بن محمد و ربيعة بن أبى عبد الرحمن، و استدلوا بما أخرجه البيهقى عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «المسلم إن نسى أن يسمّى حين يذبح فليـذكر اسم اللّه و ليأكله»، و هذا الحديث رفعه خطأ، و إنما هو من قول ابن عباس. و كذا أخرجه من قوله عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميـد و ابن المنـذر؛ نعم يمكن الاستدلال لهـذا المـذهب بمثـل قوله تعالى: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا «۱» كما سبق تقريره، و بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «رفع عن أمتى الخطأ و النّسيان» و أما حديث أبى هريرة الذى أخرجه ابن عدىّ: «أن رجلا جاء إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! أ رأيت الرجل منا يذبح و ينسى أن يسمّى؟ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «اسم اللّه على كلّ مسلم» فهو حديث ضعيف، قد ضعّفه البيهقى و غيره. قوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ الضمير يرجع إلى ما بتقدير مضاف أى: و إن أكل ما لم يذكر لفسق، و يجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا: أى فإن الأكل لفسق. و قد تقدّم تحقيق الفسق.
و قد استدلّ من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير اللّه بقوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ و وجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقا، بل الفسق الذّبح لغير اللّه. و يجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه اللّه عليه غير ممتنع شرعا وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المباينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فيما يأمرونكم به و ينهونكم عنه إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مثلهم.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: قال المشركون، و فى لفظ: قال اليهود: لا تأكلوا مما قتل اللّه و تأكلوا مما قتلتم أنتم! فأنزل اللّه وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ و أخرج ابن جرير و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال: لما نزلت وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدا، فقالوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، و ما ذبح اللّه بمسمار من ذهب- يعنى الميتة- فهو حرام، فنزلت وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ قال: الشياطين من فارس و أولياؤهم من قريش. و قد روى نحو ما تقدّم فى حديث ابن عباس الأوّل من غير طريق. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ قال: إبليس أوحى إلى مشركى قريش. و أخرج أبو داود و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ فنسخ، و استثنى من ذلك فقال: وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ و أخرج عبد بن حميد عن عبد اللّه بن يزيد الخطمى قال: كلوا ذبائح المسلمين و أهل الكتاب مما ذكر اسم اللّه عليه. و روى ابن أبى حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس فى النسخ.

---

(١). البقرة: ٢٨٦.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٨١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام. و قرأ نافع و ابن أبى نعيم بإسكانها، قال النحاس: يجوز أن يكون محمولا على المعنى: أى انظروا و تدبروا: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً «١» أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ و المراد بالميت هنا: الكافر أحياه اللّه بالإسلام؛ و قيل معناه:

كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه. و الأوّل أولى، لأن السياق يشعر بذلك لكونه فى تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، و كثيرا ما تستعار الحياة للهداية و للعلم، و منه قول القائل:

و فى الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

و إنّ امرأ لم يحى بالعلم ميّت فليس له حتّى النّشور نشور

و النور: عبارة عن الهداية و الإيمان، و قيل: هو القرآن، و قيل: الحكمة، و قيل: هو النور المذكور فى قوله تعالى: يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ «٢» و الضمير فى به راجع إلى النور كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ أى: كمن صفته فى الظلمات، و مثله: مبتدأ، و الظلمات: خبره، و الجملة: صفة لمن؛ و قيل: مثل زائدة، و المعنى: كمن فى الظلمات، كما تقول: أنا أكرم من مثلك، أى: منك، و مثله:

فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ «٣»، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «٤» و قيل المعنى: كمن مثله مثل من هو فى الظلمات، و لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها فى محل نصب على الحال أى: حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال. قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها

لِيَمْكُرُوا فِيها أى: مثل ذلك الجعل جعلنا فى كل قريهٔ، و الأكابر: جمع أكبر، قيل: هم الرؤساء و العظماء، و خصـهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد، و المكر: الحيلهٔ فى مخالفهٔ الاستقامهٔ، و أصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامهٔ أى: يصرف عنه وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ أى: وبـال مكرهم عائـد عليهم وَ ما يَشْعُرُونَ بـذلك لفرط جهلهم وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ من الآيات قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ يريـدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبيـاء، و هـذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبـهٔ و عجرفتهم العجيبهٔ، و نظيره يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً «٥». و المعنى: إذا جاءت الأكابر آيـهٔ قالوا هذه المقالهٔ، فأجاب اللّه عنهم بقوله: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ أى إن اللّه أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا و يكون موضعا لها و أمينا عليها، و قد اختـار أن يجعـل الرسالـهٔ فى محمـد صـفيه و حبيبه، فـدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعّـدهم بقوله: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ أى ذلّ و هوان، و أصله من الصغر كأنّ الذلّ يصغر إلى المرء نفسه؛ و قيل: الصغار هو

---

(١). الأنعام: ١١۴.

(٢). الحديد: ١٢.

(٣). المائدهٔ: ٩٥.

(۴). الشورى: ١١.

(٥). المدثر: ٥٢.

الرضا بالذلّ، روى ذلك عن ابن السكيت.

و قـد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن ابن عباس أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ قال: كان كافرا ضالًّا فهديناه وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً و هو القرآن كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ الكفر و الضلالهٔ.

و أخرج ابن أبى شيبهٔ و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمهٔ فى الآيهٔ قال: نزلت فى عمار بن ياسر.

و أخرج أبو الشـيخ و ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قوله: أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ يعنى عمر بن الخطاب كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها يعنى أبا جهل بن هشام.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى الآيهٔ قال: نزلت فى عمر بن الخطاب و أبى جهل بن هشام كانا ميتين فى ضـلالتهما فأحيا اللّه عمر بالإسـلام و أعزّه، و أقرّ أبا جهل فى ضلالته و موته، و ذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دعا فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بأبى جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب».

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن عكرمهٔ فى قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها قال:

نزلت فى المستهزئين. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآيـهٔ قال: سلّطنا شـرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و أخرج ابن أبى شيبهٔ و عبد بن حميد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد قال:

أَكابِرَ مُجْرِمِيها عظماؤها. و أخرج ابن المنـذر و أبو الشـيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ الآيهٔ قال: قالوا لمحمد حين دعـاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هـذا حقّا لكان فينا من هو أحقّ أن يؤتى به من محمـد وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١». و أخرج ابن المنـذر عن ابن عباس فى قوله: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا قال: أشـركوا صَغارٌ قال: هوان.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸)

قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ الشرح: الشق و أصله التوسعة، و شرحت الأمر: بينته و أوضحته، و المعنى: من يرد اللّه هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح، وَ مَنْ يُرِدْ إضلاله يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً. قرأ ابن كثير ضَيِّقاً بالتخفيف مثل هين و لين. و قرأ الباقون بالتشديد و هما لغتان. و قرأ نافع حرجا بالكسر، و معناه الضيق، كرر المعنى تأكيدا، و حسن ذلك اختلاف اللفظ. و قرأ الباقون بالفتح: جمع حرجة و هي شدة الضيق، و الحرجة الغيضة، و الجمع حرج

---

(۱). الزخرف: ۳۱.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۸۳

و حرجات، و منه فلان يتحرج: أي يضيق على نفسه. و قال الجوهري: مكان حرج و حرج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، و الحرج: الإثم. و قال الزجاج: الحرج: أضيق الضيق. و قال النحاس: حرج اسم الفاعل و حرج مصدر وصف به كما يقال: رجل عدل. قوله: كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ. قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء. و قرأ النخعي «يصاعد» و أصله يتصاعد. و قرأ الباقون يَصَّعَّدُ بالتشديد و أصله يتصعد، و معناه: يتكلّف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء. و قيل: المعنى على جميع القراءات: كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوّا عن الإسلام، و ما: في كَأَنَّما هي المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية.

قوله: كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ أي مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيّقا حرجا يجعل اللّه الرجس. و الرجس في اللغة: النتن، و قيل: هو العذاب، و قيل: هو الشيطان يسلّطه اللّه عليهم، و قيل: هو ما لا خير فيه؛ و المعنى الأوّل هو المشهور في لغة العرب، و هو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبة و هو يصدق على جميع المعاني المذكورة. و الإشارة بقوله: وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ إلى ما عليه النبي صلّى اللّه عليه و سلّم و من معه من المؤمنين، أي: هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه؛ و قيل: الإشارة إلى ما تقدّم مما يدل على التوفيق و الخذلان، أي: هذا هو عادة اللّه في عباده يهدي من يشاء و يضل من يشاء، و انتصاب مُسْتَقِيماً على الحال كقوله تعالى: وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً «۱»، وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً «۲»، قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ أي بيناها و أوضحناها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ما فيها و يتفهمون معانيها لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي: لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم يوصلهم إليها وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ أي ناصرهم، و الباء في بِما كانُوا يَعْمَلُونَ للسببية: أي بسبب أعمالهم. قوله: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدما: أي و اذكر يوم نحشرهم أو وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ نقول: يا مَعْشَرَ الْجِنِ و المراد حشر جميع الخلق في القيامة، و المعشر:

الجماعة، أي: يوم الحشر نقول: يا جماعة الجن! قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أي من الاستمتاع بهم كقوله: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ «۳» و قيل: استكثرتم من إغوائهم و إضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم، و مثله قولهم: استكثر الأمير من الجنود، و المراد: التقريع و التوبيخ، و على الأوّل فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم و دخولهم فيما يريدون

منهم وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أما استماع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، و أما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصى فوقعوا فيها و تلذذوا بها، فذلك هو استمتاعهم بالجن؛ و قيل: استمتاع الإنس بالجن أنه كان إذا مرّ الرجل بواد فى سفره و خاف على نفسه قال: أعوذ بربّ هذا الوادى من جميع ما أحذر، يعنى ربه من الجن، و منه قوله تعالى: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً «۴» و قيل: استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، و استمتاع الإنس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب و ينالون بذلك شيئا من حظوظ

---

(۱). البقرة: ۹۱.

(۲). هود: ۷۲.

(۳). الأنعام: ۱۲۸.

(۴). الجن: ۶.

الدنيا كالكهان وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِی أَجَّلْتَ لَنا أى: يوم القيامة اعترافا منهم بالوصول إلى ما وعدهم اللّه به مما كانوا يكذبون به. و لما قالوا هذه المقالة أجاب اللّه عليهم ف قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ أى: موضع مقامكم.

و المثوى: المقام، و الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر. قوله: خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ المعنى الذى تقتضيه لغة العرب فى هذا التركيب: أنهم يخلدون فى النار فى كل الأوقات إلا فى الوقت الذى يشاء اللّه عدم بقائهم فيها. و قال الزجّاج: إنّ الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة أى: خالدين فى النار إلا ما شاء اللّه من مقدار حشرهم من قبورهم و مقدار مدّتهم فى الحساب، و هو تعسّف، لأنّ الاستثناء هو من الخلود الدائم و لا يصدق على من لم يدخل النار؛ و قيل: الاستثناء راجع إلى النار؛ أى: إلا ما شاء اللّه من تعذيبهم بغيرها فى بعض الأوقات كالزمهرير؛ و قيل: الاستثناء لأهل الإيمان، و ما بمعنى من؛ أى إلا من شاء اللّه إيمانه فإنه لا يدخل النار؛ و قيل المعنى: إلا ما شاء اللّه من كونهم فى الدنيا بغير عذاب. و كلّ هذه التأويلات متكلفة، و الذى ألجأ إليها ما ورد فى الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية من خلود الكفار فى النار أبدا، و لكن لا تعارض بين عام و خاص لا سيما بعد وروده فى القرآن مكررا كما سيأتى فى سورة هود خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ «۱» و لعله يأتى هنالك إن شاء اللّه زيادة تحقيق.

و قد أخرج ابن المبارك فى الزهد و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم، و ليس هو محمد بن على قال: «سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذه الآية فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول اللّه؟! قال: «نور يقذف فيه فينشرح صدره له و ينفسح له»، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، و التّجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل لقاء الموت». و أخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب من طرق عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين نزلت هذه الآية: فذكر نحوه. و أخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا من طريق أخرى. و أخرجه سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن النجار فى تاريخه عن عبد اللّه بن المستورد، و كان من ولد جعفر بن أبى طالب قال: تلا رسول اللّه صلّى اللّه

عليه و سلّم هذه الآية فذكر نحوه. و هذه الطرق يقوّى بعضها بعضا، و المتصل يقوّى المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوىّ متعين. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان و التوحيد قلبه حتى يدخله اللّه فى قلبه. و أخرج البيهقى فى الأسماء و الصفات عنه فى الآية يقول: من أراد أن يضلّه يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقا، و الإسلام واسع، و ذلك حين يقول: ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «۲» يقول:

ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق. و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: دارُ السَّلامِ قال: الجنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن زيد قال: السّلام: هو اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى

---

(۱). هود: ۱۰۷.

(۲). الحج: ۷۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۵

قال: اللّه هو السّلام، و داره الجنة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ يقول: من ضلالتكم إياهم، يعنى: أضللتم منهم كثيرا، و فى قوله:

خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ قال: إن هذه الآية لا ينبغى لأحد أن يحكم على اللّه فى خلقه لا ينزلهم جنّة و لا نارا.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۹ الى ۱۳۲]

وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۱۳۰) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲)

قوله: وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً أى: مثل ما جعلنا بين الجن و الإنس ما سلف كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً و المعنى: نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضا، ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولى على هذا: نجعله وليا له. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: معناه: نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس. و روى عنه أيضا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى: نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يذلّه، فيكون فى الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلّط اللّه عليه ظالما آخر.

و قال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف و انظر متعجبا. و قيل معنى نولى: نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية: أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا. قوله: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ أى: يوم نحشرهم نقول لهم:

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ أو هو شروع فى حكاية ما سيكون فى الحشر، و ظاهره أن اللّه يبعث فى الدنيا إلى الجنّ رسلا منهم، كما يبعث إلى الإنس رسلا منهم؛ و قيل: معنى منكم: أى ممن هو مجانس لكم فى الخلق و التكليف، و القصد بالمخاطبة، فإن الجنّ و الإنس متحدون فى ذلك، و إن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجنّ من تلك الحيثية؛ و قيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجنّ كما يغلب الذكر على الأنثى؛ و قيل: المراد بالرسل إلى الجنّ ها هنا هم النّذر منهم، كما فى قوله: وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ

مُنْذِرِينَ «۱». قوله: يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي صفة أخرى لرسل، و قد تقدّم بيان معنى القصّ. قوله: قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا هذا إقرار منهم بأن حجة اللّه لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، و الجملة جواب سؤال مقدّر، فهى مستأنفة، و جملة وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فى محل نصب على الحال، أو هى جملة معترضة وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا بالرسل المرسلين إليهم و الآيات التى جاءوا بها، و قد تقدّم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرّحة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم، و مثل قولهم:

وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ «۲» محمول على أنهم يقرّون فى بعض مواطن يوم القيامة و ينكرون فى بعض آخر لطول ذلك اليوم، و اضطراب القلوب فيه و طيشان العقول، و انغلاق الأفهام و تبلّد الأذهان، و الإشارة بقوله:

---

(۱). الأحقاف: ۲۹.

(۲). الأنعام: ۲۳.

ذلِكَ إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم. و أن فى أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى هى المخفّفة من الثقيلة، و اسمها ضمير شأن محذوف. و المعنى: ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى، أو هى المصدرية، و الباء فى بِظُلْمٍ سببية: أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم، و الحال أن أهلها غافلون، لم يرسل اللّه إليهم رسولا. و المعنى: أن اللّه أرسل الرسل إلى عباده لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، و الحال أنهم غافلون عن الإعذار و الإنذار بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، و ارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «۱»؛ و قيل: المعنى: ما كان اللّه مهلك أهل القرى بظلم منه، فهو سبحانه يتعالى عن الظّلم بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقّوا ذلك و ترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء؛ و قيل: المعنى أن اللّه لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك، فهو مثل قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «۲»، وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى لكلّ من الجنّ و الإنس درجات متفاوتة مما عملوا فنجازيهم بأعمالهم، كما قال فى آية أخرى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «۳»، و فيه دليل على أنّ المطيع من الجنّ فى الجنة، و العاصى فى النار وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ من أعمال الخير و الشر، و الغفلة: ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره. قرأ ابن عامر «تعملون» بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً قال: يولّى اللّه بعض الظالمين بعضا فى الدنيا، يتبع بعضهم بعضا فى النار. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد فى الآية مثل ما حكينا عنه قريبا. و أخرج أبو الشيخ عن الأعمش فى تفسير الآية قال: سمعتهم يقولون: إذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم. و أخرج الحاكم فى التاريخ، و البيهقى فى الشعب، من طريق يحيى بن هاشم حدّثنا يونس بن أبى إسحاق عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كما تكونون كذلك يؤمر عليكم» قال البيهقى: هذا منقطع، و يحيى ضعيف. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: رُسُلٌ مِنْكُمْ قال: ليس فى الجنّ رسل، و إنّما الرسل فى الإنس، و النذارة فى الجنّ، و قرأ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ «۴». و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن الضحاك قال: الجنّ يدخلون الجنة و يأكلون و يشربون. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ليث بن أبى سليم قال: مسلمو الجنّ لا يدخلون الجنة و لا النار، و ذلك أن اللّه أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده و لا يعيد ولده. و أخرج أبو الشيخ فى العظمة أيضا عن ابن عباس قال: الخلق أربعة: فخلق فى الجنة كلّهم، و خلق فى النار كلّهم، و خلقان فى الجنة و النار، فأما الذين فى الجنة كلّهم فالملائكة، و أما الذين

فى النار كلّهم فالشياطين، و أما الذين فى الجنة و النار فالإنس و الجنّ، لهم الثواب و عليهم العقاب.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۷]

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (۱۳۳) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱۳۴) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۱۳۶) وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۳۷)

---

(۱). الإسراء: ۱۵.

(۲). الأنعام: ۱۶۴.

(۳). الأحقاف: ۱۹.

(۴). الأحقاف: ۲۹.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۱۸۷

قوله: وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ أى عن خلقه لا يحتاج إليهم و لا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم و لا يضرّه كفرهم و مع كونه غنيا عنهم، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم، و ما أحسن هذا الكلام الربانى و أبلغه! و ما أقوى الاقتران بين الغنى و الرحمن فى هذا المقام! فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هى غاية التفضل و التطوّل إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضى إلى الهلاك وَ يَسْتَخْلِفْ من بعد إهلاككم ما يَشاءُ من خلقه ممن هو أطوع له و أسرع إلى امتثال أحكامه منكم كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ الكاف نعت مصدر محذوف، و ما مصدرية: أى و يستخلف استخلافا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين، قيل: هم أهل سفينة نوح، و لكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم و لا استخلف غيرهم رحمة لهم و لطفا بهم إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث و المجازاة لَآتٍ لا محالة، فإن اللّه لا يخلف الميعاد وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أى بفائتين عن ما هو نازل بكم، و واقع عليكم: يقال أعجزنى فلان: أى فاتنى و غلبنى. قوله: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ المكانة: الطريقة، أى اثبتوا على ما أنتم عليه، فإنى غير مبال بكم و لا مكترث بكفركم، إنى ثابت على ما أنا عليه فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ من هو على الحق و من هو على الباطل، و هذا وعيد شديد، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر؟ و عاقِبَةُ الدَّارِ هى العاقبة المحمودة التى يحمد صاحبها عليها: أى من له النصر فى دار الدنيا، و من له وراثة الأرض، و من له الدار الآخرة. و قال الزجّاج: معنى مكانتكم: تمكنكم فى الدنيا، أى اعملوا على تمكنكم من أمركم، و قيل: على ناحيتكم، و قيل: على موضعكم. قرأ حمزة و الكسائى: من يكون بالتحتية، و قرأ الباقون:

بالفوقية. و الضمير فى إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ للشأن، أى: لا يفلح من اتصف بصفة الظلم، و هو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم. قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم و جهلهم و إيثارهم لآلهتهم على اللّه سبحانه: أى جعلوا للّه سبحانه مما خلق من حرثهم و نتاج دوابهم نصيبا و لآلهتهم نصيبا من ذلك يصرفونه فى سدنتها و القائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بإنفاقه فى ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه للّه، و قالوا: اللّه غنيّ عن ذلك. و الزعم: الكذب. قرأ يحيى بن وثّاب و السّلمى و الأعمش و الكسائى بِزَعْمِهِمْ بضم الزاى، و قرأ الباقون بفتحها، و هما لغتان فَما كانَ

لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أى إلى المصارف التى شرع اللّه الصرف فيها كالصدقة و صلة الرحم،

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۸

و قرى الضيف وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ أى يجعلونه لآلهتهم و ينفقونه فى مصالحها ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى ساء الحكم حكمهم فى إيثار آلهتهم على اللّه سبحانه؛ و قيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه للّه ذكروا عليه اسم أصنامهم، و إذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم اللّه، فهذا معنى الوصول إلى اللّه، و الوصول إلى شركائهم، و قد قدّمنا الكلام فى ذرأ.

قوله: وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ أى: و مثل ذلك التزيين الذى زيّنه الشّيطان لهم فى قسمة أموالهم بين اللّه و بين شركائهم زين لهم قتل أولادهم. قال الفرّاء و الزّجّاج: شركاؤهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان؛ و قيل: هم الغواة من الناس؛ و قيل: هم الشياطين، و أشار بهذا إلى الوأد، و هو دفن البنات مخافة السبى و الحاجة؛ و قيل: كان الرجل يحلف باللّه لئن ولد له كذا من الذكور لينحرنّ أحدهم كما فعله عبد المطلب.

قرأ الجمهور زَيَّنَ بالبناء للفاعل و نصب قَتْلَ على أنه مفعول زين، و جرّ أولاد بإضافة قتل إليه، و رفع شُرَكاؤُهُمْ على أنه فاعل زين، و قرأ الحسن بضم الزاى و رفع قتل، و خفض أولاد، و رفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل، و رفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه: أى زينه شركاؤهم، و مثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومةو مختبط ما تطيح الطّوائح

أى يبكيه ضارع. و قرأ ابن عامر و أهل الشام بضم الزاى، و رفع قتل، و نصب أولاد، و خفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم، و معموله أولادهم؛ ففيه الفصل بين المصدر و ما هو مضاف إليه بالمفعول، و مثله فى الفصل بين المصدر و ما أضيف إليه قول الشاعر:

تمرّ على ما تستمرّ و قد شفتغلائل عبد القيس منها صدورها

بجر صدورها، و التقدير: شفت عبد القيس غلائل صدورها. قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز فى كلام و لا فى شعر، و إنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف و المضاف إليه بالظرف فى الشعر لاتساعهم فى الظروف، و هو أى: الفصل بالمفعول به فى الشعر بعيد، فإجازته فى القرآن أبعد. و قال أبو غانم أحمد ابن حمدان النحوى: إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز فى العربية و هى زلة عالم، و إذا زلّ العالم لم يجز اتباعه و ردّ قوله إلى الإجماع، و إنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرّق بين المضاف و المضاف إليه بالظرف كقول الشاعر:

كما خطّ الكتاب بكفّ يومايهودىّ يقارب أو يزيل

و قول الآخر:

...

للّه درّ اليوم من لامها «۱» و قال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فهى فصيحة لا قبيحة. قالوا:

---

(۱). و صدره: لمّا رأت ساتيد ما استعبرت. و البيت لعمرو بن قميئة. «ساتيد ما»: اسم جبل.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۸۹

و قد ورد ذلك فى كلام العرب و فى مصحف عثمان رضى اللّه عنه شُرَكائِهِمْ بالياء.

و أقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتبرين كما بيّنا ذلك فى رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوى فقراءته

ردّ عليه، و لا يصحّ الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل فى النظم كما قدّمنا، و كقول الشاعر:

فزججتها بمزجّةزجّ القلوص أبى مزادة

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، و فى الآية قراءة رابعة و هى جرّ الأولاد و الشركاء، و وجه ذلك أنّ الشّركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم فى النسب و الميراث. قوله: لِيُرْدُوهُمْ اللام لام كى أى:

لكى يردوهم من الإرداء و هو الإهلاك وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ معطوف على ما قبله: أى فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم و لخلط دينهم عليهم وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ أى لو شاء اللّه عدم فعلهم ما فعلوه، فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن، و إذا كان ذلك بمشيئة اللّه فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ فدعهم و افتراءهم فذلك لا يضرك.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال: الذرية: الأصل، و الذرية: النسل. و أخرجا أيضا عن ابن عباس وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قال: بسابقين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله:

عَلى مَكانَتِكُمْ قال: على ناحيتكم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ الآية قال: جعلوا للّه من ثمارهم و مائهم نصيبا و للشيطان و الأوثان نصيبا، فإن سقط من ثمره ما جعلوه للّه فى نصيب الشيطان تركوه، و إن سقط ممّا جعلوه للشياطين فى نصيب اللّه ردّوه إلى نصيب الشيطان، و إن انفجر من سقى ما جعلوه للّه فى نصيب الشيطان تركوه، و إن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان فى نصيب اللّه نزحوه، فهذا ما جعلوا للّه من الحرث و سقى الماء، و أما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول اللّه: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ «١» الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عنه نحوه من طريق أخرى.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: جعلوا للّه ممّا ذرأ من الحرث جزءا و لشركائهم جزءا، فما ذهب به الريح مما سموا للّه إلى جزء أوثانهم تركوه و قالوا اللّه عن هذا غنى، و ما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء اللّه أخذوه. و الأنعام التى سمّوا للّه: البحيرة و السائبة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خوف العيلة.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٨ الى ١٤٠]

وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

---

(١). المائدة: ١٠٣.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩٠

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم و ضلالاتهم. و الحجر بكسر أوّله و سكون ثانيه فى قراءة الجمهور. و قرأ أبان بن عثمان حجر بضم الحاء و الجيم، و قرأ الحسن و قتادة بفتح الحاء و إسكان الجيم، و قرأ ابن عباس و ابن الزبير «حرج» بتقديم الراء على الجيم، و كذا هو فى مصحف أبىّ، و هو من الحرج، يقال فلان يتحرّج:

أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشتبه عليه و الحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول، أى: محجور، و

أصله المنع، فمعنى الآية: هذه أنعام و حرث ممنوعة، يعنون أنها لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشاءون بزعمهم و هم خدام الأصنام. و القسم الثانى قولهم: وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها و هى البحيرة و السائبة و الحام؛ و قيل: إن هذا القسم الثانى مما جعلوه لآلهتهم أيضا. و القسم الثالث أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا و هى ما ذبحوا لآلهتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم اللّه. و قيل: إن المراد لا يحجون عليها افْتِراءً عَلَى اللَّهِ أى للافتراء عليه سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ أى بافترائهم أو بالذى يفترونه، و يجوز أن يكون افتراء منتصبا على أنه مصدر، أى: افتروا افتراء، أو حال: أى مفترين، و انتصابه على العلة أظهر، ثم بين اللّه سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال: وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ يعنون البحائر و السوائب من الأجنة خالِصَةٌ لِذُكُورِنا أى حلال لهم وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أى على جنس الأزواج، و هنّ النساء فيدخل فى ذلك البنات و الأخوات و نحوهنّ؛ و قيل: هو اللبن جعلوه حلالا للذكور محرّما على الإناث، و الهاء فى خالصة للمبالغة فى الخلوص كعلامة و نسابة، قاله الكسائى و الأخفش. و قال الفراء: تأنيثها لتأنيث الأنعام. و ردّ بأن ما فى بطون الأنعام غير الأنعام، و تعقب هذا الردّ بأن ما فى بطون الأنعام أنعام، و هى الأجنة، و ما: عبارة عنها، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما، و تذكير محرّم باعتبار لفظها. و قرأ الأعمش خالص قال الكسائى: معنى خالص و خالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدّم عنه. و قرأ قتادة خالِصَةٌ بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما، و خبر المبتدأ محذوف كقولك: الذى فى الدار قائما زيد، هذا قول البصريين. و قال الفراء: إنه انتصب على القطع. و قرأ ابن عباس خالِصَةٌ بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما. و قرأ سعيد بن جبير خالصا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً. قرئ بالتحتية و الفوقية، أى: و إن يكن الذى فى بطون الأنعام مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ أى فى الذى فى البطون شُرَكاءُ يأكل منه الذكور و الإناث سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أى بوصفهم على أنه منتصب بنزع الخافض، و المعنى: سيجزيهم بوصفهم الكذب على اللّه؛ و قيل المعنى: سيجزيهم جزاء وصفهم. ثم بين اللّه سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً أى بناتهم بالوأد الذى كانوا يفعلونه سفها، أى: لأجل السفه: و هو الطيش و الخفة لا لحجة عقلية و لا شرعية كائنا ذلك منهم بِغَيْرِ عِلْمٍ يهتدون به. قوله: وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من الأنعام التى سموها بحائر و سوائب

افْتِراءً عَلَى اللَّهِ أى: للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه قَدْ ضَلُّوا عن طريق الصواب بهذه الأفعال وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى الحق، و لا هم من أهل الاستعداد لذلك.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال:

الحجر ما حرموا من الوصيلة و تحريم ما حرموا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال: ما جعلوا للّه و لشركائهم. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن قتادة وَ حَرْثٌ حِجْرٌ قال: حرام. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى الآية قال: يقولون: حرام أن يطعم الابن شيئا وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها قال: البحيرة و السائبة و الحامى وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إذا نحروها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى وائل فى قوله: وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا قال:

لم تكن يحجّ عليها و هى البحيرة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ الآية قال: اللبن. و أخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد فى الآية قال: السائبة و البحيرة محرّم على أزواجنا قال: النساء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ قال: قولهم الكذب فى ذلك. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه، فكان للرجال دون النساء و إن كانت أنثى تركوها فلم تذبح، و إن كانت ميتة كانوا فيها شركاء. و أخرج عبد بن حميد و البخارى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: إذا سرّك أن تعلم

جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين و مائة من سورة الأنعام قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ إلى قوله: وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر و ربيعة. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: هذا صنع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى و الفاقة و يغذو كلبه وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ قال: جعلوه بحيرة و سائبة و وصيلة و حاميا تحكّما من الشيطان فى أموالهم.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۱ الى ۱۴۲]

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۱۴۱) وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲)

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة اللّه و عظيم صنعه أَنْشَأَ أى: خلق، و الجنات: البساتين مَعْرُوشاتٍ مرفوعات على الأعمدة وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ غير مرفوعات عليها؛ و قيل المعروشات؛ ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم و الزرع و البطيخ، و غير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل و سائر الأشجار؛ و قيل المعروشات: ما أنبته الناس و عرشوه، و غير المعروشات: ما نبت فى البرارى

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۱۹۲

و الجبال. قوله: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ معطوف على جنات، و خصهما بالذكر مع دخولهما فى الجنات لما فيهما من الفضيلة مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أى حال كونه مختلفا أكله فى الطعم و الجودة و الرداءة. قال الزجاج:

و هذه مسألة مشكلة فى النحو، يعنى: انتصاب مختلفا على الحال لأنه يقال قد أنشأها و لم يختلف أكلها، فالجواب أنّ اللّه سبحانه أنشأها مقدّرا فيها الاختلاف، و قد بيّن هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا: أى مقدّرا للصيد به غدا، كما تقول: لتدخلنّ الدار آكلين شاربين: أى مقدّرين ذلك، و هذه هى الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدوّنة فى كتب النحو.

و قال: مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ و لم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «۱» أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أى أكل ذلك. قوله: وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ معطوف على جنات: أى و أنشأ الزيتون و الرمان حال كونه متشابها و غير متشابه، و قد تقدم الكلام على تفسير هذا كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أى من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك إِذا أَثْمَرَ أى إذا حصل فيه الثمر و إن لم يدرك و يبلغ حدّ الحصاد. قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ

و قد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب، فذهب ابن عمر و عطاء و مجاهد و سعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة، و أنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة و الضّغث و نحوهما. و ذهب ابن عباس و محمد ابن الحنفية و الحسن و النخعى و طاوس و أبو الشعثاء و قتادة و الضحاك و ابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة. و اختاره ابن جرير، و يؤيده أن هذه الآية مكية و آية الزكاة مدنية فى السنة الثانية بعد الهجرة، و إلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف و الخلف. و قالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب. قوله: وَ لا تُسْرِفُوا أى فى التّصدّق، و أصل الإسراف فى اللغة: الخطأ، و الإسراف فى النفقة: التبذير؛ و قيل: هو خطاب للولاة يقول لهم: لا تأخذوا فوق حقكم؛ و قيل: المعنى: لا تأخذوا الشى‏ء بغير حقه و تضعونه فى غير مستحقه. قوله: وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً معطوف على جنات، أى: و أنشأ لكم من الأنعام حمولة و فرشا، و الحمولة: ما يحمل عليها، و هو يختصّ بالإبل فهى فعولة بمعنى فاعلة؛ و الفرش: ما يتّخذ من الوبر و الصوف و الشعر فراشا يفترشه الناس؛ و قيل: الحمولة الإبل، و الفرش: الغنم؛ و قيل الحمولة:

كـل مـا حمـل عليه من الإبـل و البقر و الخيل و البغال و الحمير، و الفرش: الغنم، و هـذا لا يتم إلا على فرض صـحة إطلاق اسـم الأنعام على جميع هـذه المـذكورات؛ و قيل: الحمولة: ما تركب، و الفرش: ما يؤكل لحمه كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ من هذه الأشـياء وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطـانِ كمـا فعـل المشـركون من تحريم مـا لم يحرمه اللّه و تحليل ما لم يحلله إِنَّهُ أى الشـيطان لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ مظهر للعداوة و مكاشف بها.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ قال: المعروشات ما عرش الناس وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ ما خرج فى الجبال و البريّة من الثمار. و أخرج عبد

---

(١). الجمعة: ١١.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩٣

ابن حميـد عن قتـادة قـال: معروشات: بالعيـدان و القصب، و غير معروشات قال: الضاحى «١». و أخرج أبو الشـيخ عن ابن عبـاس مَعْرُوشاتٍ قال: الكرم خاصة. و أخرج ابن المنذر و النحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ قال: «ما سقط من السنبل». و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و النحاس و الطبرانى و أبو الشـيخ و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عمر فى قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ قال: كانوا يعطون من اعترّ «٢» بهم شيئا سوى الصدقة. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن مجاهد فى الآية قال: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن المنـذر و أبو الشـيخ عن ميمون بن مهران و يزيد الأصمّ قال: كان أهل المدينة إذا صـرموا النخل يجيئون بالعذق فيضـعونه فى المسـجد، فيجىء فيضـربه بالعصا فيسـقط منه، فهو قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن حماد بن أبى سـليمان فى الآيـة قال: كانوا يطعمون منه رطبا. و أخرج أحمد و أبو داود فى سـننه من حديث جابر بن عبد اللّه: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أمر من كلّ حادى عشرة أوسق من التمر بقنو يعلّق فى المسجد للمساكين. و إسناده جيد. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و النحـاس و البيهقى فى سـننه عن ابن عباس قال: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ نسخها العشر و نصف العشر. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر عن السدىّ نحوه. و أخرج النحاس و أبو الشيخ و البيهقى عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة نحوه.

و أخرج أبو عبيد و ابن أبى شـيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن الضـحّاك نحوه. و أخرج سـعيد بن منصور و ابن المنذر عن الشـعبى قال: إنّ فى المال حقّا سوى الزكاة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى العالية قال: ما كانوا يعطون شـيئا سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا و أسـرفوا، فأنزل اللّه وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم عن ابن جريـج قـال: نزلت فى ثابت بن قيس بن شـماس جـذّ نخلا فقال: لا يأتينى اليوم أحـد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسـى و ليس له تمرة، فـأنزل اللّه وَ لا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهـد قال: لو أنفقت مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة اللّه لم يكن إسـرافا، و لو أنفقت صاعا فى معصية اللّه كان إسرافا، و للسّلف فى هذا مقالات طويلة. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: الحمولة: ما حمل عليه من الإبل، و الفرش: صغار الإبل التى لا تحمل.

و أخرج أبـو الشـيخ عن ابن عبـاس قـال: الحمولـة: الكبـار من الإبـل، و الفرش: الصـغار من الإبـل. و أخرج أبو الشـيخ عنه قـال: الحمولة: ما حمل عليه، و الفرش: ما أكل منه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن

(١). الشجرة الضاحية: البارزة للشمس.

(٢). يقال: عررته: إذا أتيته تطلب معروفه.

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩٤

أبى حاتم عنه أيضا قال: الحمولة: الإبل و الخيل و البغال و الحمير و كلّ شىء يحمل عليه، و الفرش: الغنم.

و أخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال: الحمولة: الإبل و البقر، و الفرش: الضأن و المعز.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٣ الى ١٤٤]

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

اختلف فى انتصاب ثَمانِيَةَ على ما ذا؟ فقال الكسائى: بفعل مضمر، أى و أنشأ ثمانية أزواج، و قال الأخفش سعيد: هو منصوب على البدل من حمولة و فرشا؛ و قال الأخفش على بن سليمان: هو منصوب بكلوا، أى كلوا لحم ثمانية أزواج؛ و قيل: منصوب على أنه بدل من ما فى مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ و الزوج: خلاف الفرد، يقال: زوج أو فرد، كما يقال: شفع أو وتر، فقوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يعنى ثمانية أفراد، و إنما سمى الفرد زوجا فى هذه الآية لأن كل واحد من الذكر و الأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، و يقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال: هما زوج و هو زوج، و يقول: اشتريت زوجى حمام، أى: ذكرا و أنثى. و الحاصل أن الواحد إذا كان منفردا سواء كان ذكرا أو أنثى، قيل: له فرد، و إن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما: زوج، و لكل واحد على انفراده منهما: زوج، و يقال لهما أيضا: زوجان، و منه قوله تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى «١». قوله: مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق، و الضأن: ذوات الصوف من الغنم، و هو جمع ضائن، و يقال للأنثى:

ضائنة، و الجمع ضوائن؛ و قيل: هو جمع لا واحد له؛ و قيل: فى جمعه ضئين كعبد و عبيد. و قرأ طلحة ابن مصرف الضَّأْنِ بفتح الهمزة، و قرأ الباقون بسكونها. و قرأ أبان بن عثمان و من الضأن اثنان و من المعز اثنان رفعا بالابتداء. قوله: وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ معطوف على ما قبله مشارك له فى حكمه. و قرأ ابن عامر و أبو عمرو و ابن كثير و أهل البصرة بفتح العين من المعز. و قرأ الباقون بسكونها، قال النحاس:

الأكثر فى كلام العرب المعز و الضأن بالإسكان، و المعز من الغنم خلاف الضأن، و هى ذوات الأشعار و الأذناب القصار، و هو اسم جنس؛ و واحد المعز ماعز، مثل: صحب و صاحب، و ركب و راكب، و تجر و تاجر، و الأنثى ماعزة. و المراد من هذه الآية: أن اللّه سبحانه بين حال الأنعام و تفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحا للامتنان بها على عباده، و دفعا لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها و تحريم بعضها تقوّلا على اللّه سبحانه و افتراء عليه، و الهمزة فى قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ للإنكار. و المراد بالذكرين الكبش و التيس، و بالأنثيين النعجة و العنز، و انتصاب الذكرين بحرّم، و الأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه. و المعنى:

الإنكار على المشركين فى أمر البحيرة و ما ذكر معها، و قولهم: ما فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا

(١). القيامة: ٣٩.

فتح القدير، ج‏2، ص: 195

وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا أی قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام، و إن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام، و إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعنى من الضأن و المعز فكل مولود حرام ذكرا كان أو أنثى و كلها مولود، فيستلزم أن كلها حرام. و قوله: نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى أخبرونى بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين. و المراد من هذا: التبكيت لهم و إلزام الحجة، لأنه يعلم أنه لا علم عندهم، و هكذا الكلام فى قوله: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ إلى آخره. قوله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا أم: هى المنقطعة، و الاستفهام للإنكار، و هى بمعنى بل و الهمزة، أى: بل كنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم اللّه بهذا التحريم. و المراد: التبكيت و إلزام الحجة كما سلف قبله. قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى لا أحد أظلم ممّن افترى على اللّه كذبا فحرم شيئا لم يحرّمه اللّه و نسب ذلك إليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين، و اللام فى لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ للعلة: أى لأجل أن يضل الناس بجهل و هو متعلق بافترى إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ على العموم، و هؤلاء المذكورون فى السياق داخلون فى ذلك دخولا أوّليا، و ينبغى أن ينظر فى وجه تقديم المعز و الضأن على الإبل و البقر مع كون الإبل و البقر أكثر نفعا و أكبر أجساما و أعود فائدة، لا سيما فى الحمولة و الفرش اللذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح فى إعراب ثمانية.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه من طرق عن ابن عباس قال: الأزواج الثمانية من الإبل و البقر و الضأن و المعز. و ليت شعرى ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة، فإنها لا تتعلّق به فائدة، و كون الأزواج الثمانية هى المذكورة هو هكذا فى الآية مصرّحا به تصريحا لا لبس فيه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: الذّكر و الأنثى زوجان. و أخرج عبد ابن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ قال: فى شأن ما نهى اللّه عنه من البحيرة و السائبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ليث بن أبى سليم قال: الجاموس و البختىّ من الأزواج الثمانية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قال: فهذه أربعة قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ يقول: لم أحرّم شيئا من ذلك أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ يعنى هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى، فلم يحرّمون بعضا و يحلون بعضا؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ يقول: كلّها حلال؛ يعنى ما تقدّم ذكره ممّا حرّمه أهل الجاهلية.

[سورة الأنعام (6): آية 145]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

فتح القدير، ج‏2، ص: 196

أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد فى شى‏ء مما أوحى إليه محرّما غير هذه المذكورات، فدلّ ذلك على انحصار المحرّمات فيها لو لا أنها مكية، و قد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة و زيد فيها على هذه المحرّمات المنخنقة و الموقوذة و المتردّية و النطيحة و صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تحريم كل ذى ناب من السباع و كل ذى مخلب من الطير و تحريم الحمر الأهلية و الكلاب و نحو ذلك. و بالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق و يفيده الاستثناء، فيضم إليه كل ما ورد بعده فى الكتاب أو السّنّة ممّا يدلّ على تحريم شى‏ء من الحيوانات، و إن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شى‏ء حرّمه اللّه من حيوان و غيره فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شى‏ء من الأشياء.

و قد روى عن ابن عباس و ابن عمر و عائشة أنه لا حرام إلا ما ذكره اللّه فى هذه الآية، و روى ذلك عن مالك و هو قول ساقط، و مذهب فى غاية الضعف لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن، و إهمال ما صح عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضى ذلك و لا موجب يوجبه. قوله: مُحَرَّماً صفة لموصوف محذوف: أى طعاما محرّما عَلى أى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ من المطاعم، و فى يَطْعَمُهُ زيادة تأكيد و تقرير لما قبله إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أى ذلك الشىء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس. و قرئ يَكُونَ بالتحتية و الفوقية، و قرئ ميتة بالرفع على أن يكون تامة. و الدم المسفوح: الجارى، و غير المسفوح معفوّ عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذّبح، و منه الكبد و الطحال، و هكذا ما يتلطّخ به اللحم من الدم. و قد حكى القرطبى الإجماع على هذا. قوله: أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، و الضمير فى فَإِنَّهُ راجع إلى اللحم أو إلى الخنزير. و الرّجس: النّجس، و قد تقدّم تحقيقه. قوله: أَوْ فِسْقاً عطف على لحم الخنزير، و أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ صفة فسق: أى ذبح على الأصنام، و سمى فسقا لتوغله فى باب الفسق، قيل: و يجوز أن يكون فِسْقاً مفعولا له لأهلّ: أى أهلّ به لغير اللّه فسقا على عطف أهلّ على يكون، و هو تكلف لا حاجة إليه فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ قد تقدّم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى كثير المغفرة و الرحمة، فلا يؤاخذ المضطرّ بما دعت إليه ضرورته.

و قد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال: إنّ أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء و يحلّون أشياء، فنزلت قُلْ لا أَجِدُ الآية. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء و يتركون أشياء تعذّرا، فبعث اللّه نبيه و أنزل كتابه و أحلّ حلاله و حرّم حرامه، فما أحلّ فهو حلال، و ما حرّم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا هذه الآية قُلْ لا أَجِدُ إلى آخرها. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال:

ما خلا هذا فهو حلال. و أخرج البخارى و أبو داود و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد: إنهم يزعمون أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفارى عندنا بالبصرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكن أبى ذلك البحر ابن

فتح القدير، ج‏٢، ص: ١٩٧

عباس، و قرأ قُلْ لا أَجِدُ الآية. و أقول: و إن أبى ذلك البحر فقد صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و التمسّك بقول صحابى فى مقابلة قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من سوء الاختيار و عدم الإنصاف. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ليس شىء من الدوابّ حرام إلا ما حرّم اللّه فى كتابه قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية. و أخرج سعيد بن منصور و أبو داود و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عمر: أنه سئل عن أكل القنفذ، فقرأ قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول:

ذكر عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «خبيثة من الخبائث»، فقال ابن عمر: إن كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قاله فهو كما قال.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة: أنها كانت إذا سئلت عن كل ذى ناب من السباع و مخلب من الطير تلت: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً الآية. و أخرج أحمد و البخارى و النّسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس: أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت: يا رسول اللّه! ماتت فلانة: تعنى الشاة، قال: «فلو لا أخذتم مسكها»؟ قالت:

يا رسول اللّه! أ نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ

يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً «و أنتم لا تطعمونه، و إنما تدبغونه حتى تستنفعوا به» فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته، فاتّخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها. و مثل هذا حديث شاة ميمونة، و هو فى الصّحيح.

و مثله حديث: «إنما حرم من الميتة أكلها» و هو أيضا فى الصحيح. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَوْ دَماً مَسْفُوحاً قال: مهراقا. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة، و أخذوا الدم فأكلوه، قال: هو دم مسفوح. و أخرج أبو الشيخ عن الشعبى: أنه سئل عن لحم الفيل و الأسد فتلا قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَ الآية. و الأحاديث الواردة بتحريم كلّ ذى ناب من السباع و مخلب من الطير و الحمر الأهلية و نحوها مستوفاة فى كتب الحديث.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

قدّم عَلَى الَّذِينَ هادُوا على الفعل، للدلالة على أن هذا التحريم مختصّ بهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم.

و الذين هادوا: اليهود، ذكر اللّه ما حرّمه عليهم عقب ذكر ما حرّمه على المسلمين. و الظفر: واحد الأظفار، و يجمع أيضا على أظافير، و زاد الفراء فى جموع ظفر أظافر و أظافرة، و ذو الظفر: ما له إصبع من دابة أو طائر، و يدخل فيه الحافر و الخف و المخلب، فيتناول الإبل و البقر و الغنم و النّعام و الإوز و البط و كلّ ما له مخلب من الطير، و تسمية الحافر و الخفّ ظفرا مجاز. و الأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر فى لغة العرب، لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتى من قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ فإن كان فى لغة العرب بحيث يقال على

فتح القدير، ج٢، ص: ١٩٨

البقر و الغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصا. حرّم اللّه ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم كما قال تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «١». قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما لا غير هذه المذكورات، كلحمهما، و الشحوم يدخل فيها الثّروب و شحم الكلية؛ و قيل: الثّروب جمع ثرب، و هو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش، ثم استثنى اللّه سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم فإنه لم يحرمه اللّه عليهم، و ما فى موضع نصب على الاستثناء أَوِ الْحَوايا معطوف على ظهورهما أى إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، و هى المباعر التى يجتمع البعر فيها، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم، و واحدها حاوية، مثل ضاربة و ضوارب؛ و قيل: واحدها حاوياء، مثل قاصعاء و قواصع؛ و قيل: حوية: كسفينة و سفائن. و قال أبو عبيدة: الحوايا ما تحوّى من البطن: أى استدار، و هى متحوية: أى مستديرة؛ و قيل الحوايا: خزائن اللبن، و هى تتصل بالمباعر؛ و قيل الحوايا: الأمعاء التى عليها الشحوم. قوله: أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ معطوف على ما فى ما حَمَلَتْ كذا قال الكسائى و الفراء و ثعلب؛ و قيل: إن الحوايا و ما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم.

و المعنى: حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرّم، و لا وجه لهذا التكلف و لا موجب له، لأنه يكون المعنى إن اللّه حرّم عليهم إحدى هذه المذكورات. و المراد بما اختلط بعظم: ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان، و منه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى التحريم المدلول عليه بحرّمنا أى: ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم؛ و قيل: إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله: جَزَيْناهُمْ أى: ذلك الجزاء جزيناهم، و

هو تحريم ما حرّمه اللّه عليهم وَ إِنَّا لَصادِقُونَ فى كلّ ما نخبر به، و من جملـة ذلك هذا الخبر، و هو موجود عندهم فى التوراة، و نصّها: «حرّمت عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير، و كل دابة ليست مشـقوقة الحافر، و كل حوت ليس فيه سفاسف» أى بياض، انتهى. و الضـمير فى كَذَّبُوكَ لليهود، أى: فـإن كـذبك اليهود فيمـا وصـفت من تحريم اللّه عليهم تلـك الأشـياء فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ و من رحمته حلمه عنكم و عدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا، و هو و إن أمهلكم و رحمكم ف لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ إذا أنزله بهم و استحقّوا المعاجلـة بالعقوبـة. و قيـل المراد: لاـ يردّ بـأسه فى الآـخرة عن القوم المجرمين. و الأوّل أولى، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها: تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا، و قيل: الضـمير يعود إلى المشـركين الذين قسـموا الأنعام إلى تلك الأقسام و حللوا بعضـها و حرّموا بعضـها؛ و قيل المراد: أنه ذو رحمة للمطيعين وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ و لا ملجئ لهذا.

و قـد أخرج ابـن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قـوله: كُلَّ ذِي ظُفُرٍ قـال: هـو الـذى ليس بمنفرج الأصـابع، يعنى: ليس بمشـقوق الأصـابع. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سـننه عنه كُلَّ ذِي ظُفُرٍ قال: البعير و النّعامـة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هو كلّ شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم، و ما انفرج أكلته اليهود، قال: انفرجت قوائم الدجاج و العصافير فاليهود تأكله، و لم ينفرج خفّ

(۱). النساء: ۱۶۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۱۹۹

البعير و لا النعامة، و لا قائمة الوزينة «۱» فلا تأكل اليهود الإبل و لا النعام و لا الوزينة، و لا كل شـىء لم تنفرج قائمته كذلك، و لا تأكل حمار الوحش. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سـننه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما يعنى ما علق بالظهر من الشـحم أَوِ الْحَوايا هى المبعر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله:

إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما قال: الألية أَوِ الْحَوايا قال: المبعر أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ قال:

الشحم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: أَوِ الْحَوايا قال: المباعر.

و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن أبى حاتم عن الضحاك أَوِ الْحَوايا قال: المرائض و المباعر. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عبـاس أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ قال: الأليـة اختلط شـحم الأليـة بالعصـعص فهو حلال، و كلّ شـحم القوائم و الجنب و الرأس و العين و الأـذن يقولون قـد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم، إنما حرّم عليهم الثرب و شـحم الكليـة، و كلّ شـىء كان كـذلك ليس فى عظم. و أخرج ابن أبى شـيبة و عبـد بن حميـد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن مجاهد فى قوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ قال: اليهـود. و أخرج ابن أبى حـاتم عن السـدىّ قـال: كـانت اليهـود يقولـون: إنّ مـا حرمه إسـرائيل فنحن نحرّمه، فـذلك قـوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ الآية.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۰]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا

وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

أخبر اللّه عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة، و هم كفّار قريش أو جميع المشركين، يريدون أنه لو شاء اللّه عدم شركهم ما أشركوا هم و لا آباؤهم، و لا حرّموا شيئا من الأنعام كالبخيرة و نحوها، و ظنّوا أنّ هذا القول يخلّصهم عن الحجّة التى ألزمهم بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أنّ ما فعلوه حقّ، و لو لم يكن حقّا لأرسل اللّه إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك، و على تحريم ما لم يحرمه اللّه رسلا يأمرونهم بترك الشرك و بترك التحريم لما لم يحرمه اللّه، و التحليل لما لم يحلله كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء اللّه حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا أى: استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذى أنزلناه بهم، ثم أمره اللّه أن يقول لهم: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا أى: هل عندكم دليل صحيح يعد من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه و نتدبّره؟ و المقصود من هذا: التبكيت لهم، لأنه قد علم أنه

---

(١). قال فى القاموس: الوزّ: الإوزّ، كالوزّين.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٠٠

فتح القدير ج٢ ٢٤٩

لا علم عندهم يصلح للحجّة و يقوم به البرهان، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شىء من العلم، و أنهم إنما يتبعون الظّنون؛ أى: ما يتبعون إلا الظنّ الذى هو محلّ الخطأ و مكان الجهل وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ أى: تتوهمون مجرّد توهم فقط كما يتوهّم الخارص، و قد سبق تحقيقه، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم أن للّه الحجّة البالغة على الناس أى: التى تنقطع عندها معاذيرهم و تبطل شبههم و ظنونهم و توهماتهم. و المراد بها الكتب المنزلة، و الرسل المرسلة، و ما جاءوا به من المعجزات فَلَوْ شاءَ هدايتكم جميعا لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و لكنه لم يشأ ذلك، و مثله قوله تعالى: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا «١» و ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه، و مثله كثير، ثم أمره اللّه أن يقول لهؤلاء المشركين هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ أى: هاتوهم و أحضروهم، و هم اسم فعل يستوى فيه المذكر و المؤنث، و المفرد و المثنى و المجموع عند أهل الحجاز، و أهل نجد يقولون: هلما، هلمى، هلموا، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال، و بلغة أهل الحجاز نزل القرآن، و منه قوله تعالى: وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا و الأصل عند الخليل: ها ضمت إليها لم، و قال غيره: أصلها هل، زيدت عليها الميم، و فى كتاب العين للخليل: أن أصلها هل أؤم: أى هل أقصدك، ثم كثر استعمالهم لها، و هذا أيضا من باب التبكيت لهم، حيث يأمرهم بإحضار الشهود، على أن اللّه حرّم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم فَإِنْ شَهِدُوا لهم بغير علم بل مجازفة و تعصب فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ أى فلا تصدقهم، و لا تسلم لهم، فإنهم كاذبون جاهلون، و شهادتهم باطلة وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى: و لا تتبع أهواءهم، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا. قوله: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ معطوف على الموصول: أى لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا، و أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أى: يجعلون له عدلا من مخلوقاته كالأوثان، و الجملة: إما فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على: لا يؤمنون.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن مجاهد فى قوله: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا قال: هذا قول قريش إن اللّه حرّم هذا:

أى: البحيرة، و السائبة، و الوصيلة و الحام. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ قال:

السلطان. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه قيل له: إنّ ناسا يقولون: ليس الشرّ بقدر، فقال ابن عباس: بيننا و بين أهل القدر هذه الآية سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إلى قوله: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ قال ابن عباس: و العجز و الكيس من القدر. و أخرج

أبو الشيخ عن عليّ بن زيد قال: انقطعت حجّة القدرية عند هذه الآية: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ قال: أرونى شهداءكم.

---

(١). الأنعام: ١٠٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٠١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٣]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قوله: قُلْ تَعالَوْا أى تقدّموا. قال ابن الشّجرى: إنّ المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا، فقيل له تعال: أى ارفع شخصك بالقيام و تقدّم، و اتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف و الماشي.

و هكذا قال الزمخشرى فى الكشاف: إنه من الخاص الذى صار عاما، و أصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر و اتسع فيه حتى عمّ. قوله: أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ أتل: جواب الأمر، و ما:

موصولة فى محل نصب به، أى: أتل الذى حرّمه ربكم عليكم. و المراد من تلاوة ما حرّم اللّه تلاوة الآيات المشتملة عليه، و يجوز أن تكون ما مصدرية، أى: أتل تحريم ربكم. و المعنى: ما اشتمل على التحريم؛ قيل:

و يجوز أن تكون ما استفهامية، أى: أتل أى شيء حرّم ربكم، على جعل التلاوة بمعنى القول، و هو ضعيف جدّا، و عليكم: إن تعلق بأتل، فالمعنى: أتل عليكم الذى حرّم ربكم، و إن تعلّق بحرّم، فالمعنى أتل الذى حرّم ربكم عليكم، و هذا أولى، لأن المقام مقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقا؛ و قيل: إن: عليكم، للإغراء و لا تعلق لها بما قبلها. و المعنى: عليكم أن لا تشركوا إلى آخره، أى: الزموا ذلك كقوله تعالى: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ «١» و هو أضعف مما قبله، و أن فى أَلَّا تُشْرِكُوا: مفسرة لفعل التلاوة، و قال النحاس: يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلا من ما، أى: أتل عليكم تحريم الإشراك؛ و قيل:

يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ، أى: المتلوّ أن لا تشركوا، و شيئا: مفعول أو مصدر، أى: لا تشركوا به شيئا من الأشياء، أو شيئا من الإشراك. قوله: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً أى: أحسنوا بهما إحسانا، و الإحسان إليهما: البرّ بهما، و امتثال أمرهما و نهيهما. و قد تقدّم الكلام على هذا. قوله: وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ لما ذكر حقّ الوالدين على الأولاد، ذكر حقّ الأولاد على الوالدين، و هو أن لا يقتلوهم من أجل إملاق. و الإملاق: الفقر، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر و الإناث خشية الإملاق، و تفعله بالإناث خاصة خشية العار. و حكى النقاش عن مؤرّج أن الإملاق: الجوع بلغة لخم، و ذكر منذر بن سعيد البلوطى أن الإملاق: الإنفاق. يقال أملق ماله: بمعنى أنفقه. و المعنى الأوّل هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة، و أئمة التفسير هاهنا وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ أى المعاصى، و منه وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً «٢» و ما: فى ما ظَهَرَ بدل من الفواحش، و كذا ما بطن. و المراد بما ظهر: ما أعلن به منها، و ما بطن: ما أسرّ. و قد تقدّم وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ اللام فى النفس للجنس، و الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ صفة للنفس، أى: لا تقتلوا شيئا من الأنفس التى حرّمها اللّه إِلَّا بِالْحَقِ أى إلا بما يوجبه

(۱). المائدة: ۱۰۵.

(۲). الإسراء: ۳۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۰۲

الحق، و الاستثناء مفرّغ؛ أى لا تقتلوه فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، و من الحق: قتلها قصاصا و قتلها بسبب زنا المحصن، و قتلها بسبب الردّة، و نحو ذلك من الأسباب التى ورد الشّرع بها، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم مما تلاه عليهم، و هو مبتدأ، و وَصَّاكُمْ بِهِ خبره، أى: أمركم به، و أوجبه عليكم وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ أى: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إِلَّا الخصلة بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ من غيرها، و هى ما فيه صلاحه و حفظه و تنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم و زيادة فى ماله؛ و قيل: المراد بالتى هى أحسن: التجارة حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أى: إلى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشدّه، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ «۱».

و اختلف أهل العلم فى الأشدّ؛ فقال أهل المدينة: بلوغه و إيناس رشده. و قال أبو حنيفة: خمس و عشرون سنة. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو البلوغ. و قيل: إنه انتهاء الكهولة، و منه قول سحيم الرّياحى:

أخو خمسين مجتمع أشدّى و نجّدنى مداورة الشّؤون

و الأولى فى تحقيق بلوغ الأشد: أنه البلوغ إلى سنّ التكليف مع إيناس الرشد، و هو أن يكون فى تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه و التبذير، و يدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء:

وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ «۲» فجعل بلوغ النكاح، و هو بلوغ سنّ التكليف مقيدا بإيناس الرشد، و لعله قد سبق هنالك كلام فى هذا، و الأشد: واحد لا جمع له؛ و قيل: واحده شدّ كفلس و أفلس و أصله من شدّ النهار: أى ارتفع. و قال سيبويه: واحده شدة. قال الجوهرى: و هو حسن فى المعنى، لأنه يقال: بلغ الكلام شدته، و لكن لا تجمع فعلة على أفعل. قوله:

وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ أى بالعدل فى الأخذ و الإعطاء عند البيع و الشراء لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أى: إلا طاقتها فى كل تكليف من التكاليف، و منه التكليف بإيفاء الكيل و الوزن، فلا يخاطب المتولى لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة و النقصان وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا أى: إذا قلتم بقول فى خير أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه و تحرّوا الصواب، و لا تتعصبوا فى ذلك لقريب و لا على بعيد، و لا تميلوا إلى صديق و لا على عدو، بل سوّوا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمر اللّه به، و الضمير فى وَ لَوْ كانَ راجع إلى ما يفيده وَ إِذا قُلْتُمْ فإنه لا بد للقول من مقول فيه، أو مقول له: أى و لو كان المقول فيه، أو المقول له ذا قُرْبى أى صاحب قرابة لكم. و قيل إن المعنى: و لو كان الحق على مثل قراباتكم و الأوّل أولى، و مثل هذه الآية قوله: وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ «۳». قوله: وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا أى أوفوا بكلّ عهد عهده اللّه إليكم، و من جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام، و يجوز أن يراد به كل عهد و لو كان بين المخلوقين، لأنّ اللّه سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوّغا لإضافته إليه، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم ذكره وَصَّاكُمْ بِهِ أمركم به أمرا مؤكدا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فتتعظون بذلك. قوله: وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً أنّ

(۱). النساء: ۶.

(۲). النساء: ۶.

(٣). النساء: ١٣٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٠٣

فی موضع نصب، أی: و اتل أنّ هـذا صـراطی، قاله الفراء و الکسائی. قال الفرّاء: و یجوز أن یکون خفضا؛ أی وصّاکم به، و بأن هذا. و قال الخلیل و سیبویه: إنّ التقدیر: و لأن هذا صراطی مستقیما کما فی قوله سبحانه:

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ «١». و قرأ الأعمش و حمزة و الکسائی وَ أَنَّ هـذا بکسـر الهمزة علی الاستئناف، و التقـدیر: الذی ذکر فی هذه الآیـات صـراطی. و قرأ ابن أبی إسـحاق و یعقوب و إن هـذا صـراطی بالتخفیف علی تقـدیر ضـمیر الشأن. و قرأ الأعمش و هـذا صراطی و فی مصـحف عبد اللّه بن مسـعود و هذا صـراط ربکم و فی مصحف أبیّ و هذا صراط ربّک و الصراط: الطریق، و هو طریق دین الإسـلام، و نصب مسـتقیما علی الحال، و المسـتقیم المستوی الذی لا اعوجاج فیه، ثم أمرهم باتباعه و نهاهم عن اتّباع سائر السّـبل، أی: الأدیان المتباینـة طرقها فَتَفَرَّقَ بِکُمْ أی تمیل بکم عَنْ سَبِیلِهِ أی عن سبیل اللّه المسـتقیم الذی هو دین الإسـلام. قال ابن عطیة: و هذه السـبل تعمّ الیهودیة و النصـرانیة و المجوسیة و سائر أهل الملل و أهل البدع و الضلالات من أهل الأهواء و الشّذوذ فی الفروع و غیر ذلک من أهل التعمّق فی الجدل و الخوض فی الکلام.

هـذه کلّها عرضـة للزّلل و مظنّـة لسوء المعتقـد، و الإشارة ب ذلِکُمْ إلی ما تقـدّم، و هو مبتدأ و خبره وَصَّاکُمْ بِهِ أی: أکد علیکم الوصیة به لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ ما نهاکم عنه.

و قد أخرج الترمذی و حسّـنه، و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن عبادة ابن الصامت قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «أیّکم یبایعنی علی هؤلاء الآیات الثلاث؟ ثم تلا قُلْ تَعالَوْا إلی ثلاث آیات، ثم قال: فمن و فی بهنّ فـأجره علی اللّه، و من انتقص منهنّ شـیئا فـأدرکه اللّه فی الـدنیا کـانت عقوبته، و من أخّره إلی الآخرة کان أمره إلی اللّه إن شاء آخذه و إن شاء عفا عنه». و أخرج ابن أبی شـیبة و ابن الضّـریس و ابن المنذر عن کعب الأحبار قال: أوّل ما أنزل فی التوراة عشـر آیات، و هی العشر التی أنزلت من آخر الأنعام قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ إلی آخرها. و أخرج أبو الشیخ عن عبید اللّه ابن عبـد اللّه بن عـدی بن الخیـار قـال: سـمع کعب رجلاـ یقرأ: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلَّا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً فقال کعب: و الـذی نفس کعب بیـده إنها لأول آیـة فی التوراة: بسم اللّه الرحمن الرحیم قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ إلی آخر الآیات انتهی. قلت: هی الوصایا العشـر التی فی التوراة، و أوّلها أنا الرب إلهک الذی أخرجک من أرض مصـر من بیت العبودیة لا یکن لک إله آخر غیری. و منها:

أکرم أبـاک و أمـک لیطول عمرک فی الأـرض التی یعطیـک الرب إلهـک، لاـ تقتـل، لا تزن، لا تسـرق، لا تشـهد علی قریبک شهادة زور، و لا تشـته بنت قریبک، و لا تشته امرأة قریبک و لا عبده و لا أمته و لا ثوره و لا حماره و لا شیئا مما لقریبک، فلعل مراد کعب الأحبـار هـذا؛ و للیهود بهـذه الوصایـا عنایـة عظیمـة و قـد کتبها أهل الزبور فی آخر زبورهم، و أهل الإنجیل فی أوّل إنجیلهم. و هی مکتوبـة فی لوحین، و قـد ترکنـا منها ما یتعلّق بالسـبت. و أخرج عبـد بن حمیـد و أبو الشـیخ عن قتادة وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَکُمْ مِنْ إِمْلاقٍ قال: من خشـیة الفاقـة، قال: و کان أهل الجاهلیـة یقتل أحـدهم ابنته مخافـة الفاقـة علیها و السبی وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما

---

(١). الجن: ١٨.

فتح القدیر، ج٢، ص: ٢٠٤

ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ قال: سرّها و علانیتها. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس وَ لا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ قال: خشية الفقر وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ قال: كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزّنا بأسا فى السرّ و يستقبحونه فى العلانية، فحرّم اللّه الزنا فى السرّ و العلانية. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً قال:

اعلموا أنّ السّبيل سبيل واحد جماعه الهدى و مصيره الجنة، و أن إبليس اشترع سبلا متفرّقة جماعة الضلالة و مصيرها النار. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «خطّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خطا بيده ثم قال: هذا سبيل اللّه مستقيما، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط و عن شماله ثم قال: و هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

و أخرج أحمد و ابن ماجة و ابن مردويه من حديث جابر نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن مسعود أنّ رجلا سأله: ما الصّراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى أدناه و طرفه الجنة، و عن يمينه جوادّ و عن شماله جوادّ، و ثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، و من أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ قال: الضّلالات.

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٧]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التى وصى اللّه عباده بها، و قد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى و إيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه، و هو ما تقدم من قوله: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ فقيل: إنّ ثم هاهنا بمعنى الواو؛ و قيل: تقدير الكلام: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: المعنى:

قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم، ثم أتل إيتاء موسى الكتاب، و قيل: إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبىّ يوصى بها أمته؛ و قيل: إن ثم للتراخى فى الإخبار كما تقول: بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب. قوله: تَماماً مفعول لأجله أو مصدر، و عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ قرئ بالرفع و هى قراءة يحيى بن يعمر و ابن أبى إسحاق، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ: أى على الذى هو أحسن، و منه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع: ما أنا بالذى قائل لك شيئا. و قرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين، و أجاز الفراء و الكسائى أن يكون اسما نعتا للذى، و هذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٠٥

قبل أن يتمّ، و المعنى عندهم تماما على من أحسن قبوله و القيام به كائنا من كان، و يؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ «تماما على الذين أحسنوا» و قال الحسن: كان فيهم محسن و غير محسن، فأنزل اللّه الكتاب تماما على المحسنين؛ و قيل المعنى: أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه اللّه قبل نزول التوراة عليه؛ و قيل المعنى: تماما على الذى أحسن به اللّه

عزّ و جلّ إلى موسى من الرسالة و غيرها، و قيل: تماما على إحسان موسى بطاعة اللّه عزّ و جلّ، قاله الفراء. قوله: وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ معطوف على تماما، أى:

و لأجل تفصيل كل شيء، و كذا هُدىً وَ رَحْمَةً معطوفتان عليه: أى: و للهدى و الرحمة، و الضمير فى لعلهم راجع إلى بنى إسرائيل المدلول عليه بذكر موسى، و الباء فى بِلِقاءِ متعلقة بيؤمنون. قوله: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ الإشارة إلى القرآن، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره كتاب، و أنزلناه صفة لكتاب، و مبارك صفة أخرى له، و تقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها، و المبارك: كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية و الدينية فَاتَّبِعُوهُ فإنه لما كان من عند اللّه و كان مشتملا على البركة، كان اتباعه متحتما عليكم وَ اتَّقُوا مخالفته و التكذيب بما فيه لَعَلَّكُمْ إن قبلتموه و لم تخالفوه تُرْحَمُونَ برحمة اللّه سبحانه، و أن فى أَنْ تَقُولُوا فى موضع نصب. قال الكوفيون: لئلا تقولوا. و قال البصريون: كراهة أن تقولوا: و قال الفراء و الكسائى: المعنى: فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ أى التوراة و الإنجيل عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا و هم اليهود و النصارى و لم ينزل علينا كتاب وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ أى عن تلاوة كتبهم بلغاتهم لَغافِلِينَ أى: لا ندرى ما فيها، و مرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم و الغفلة عن معناهما. قوله: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ معطوف على تَقُولُوا أى: أو أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ إلى الحق الذى طلبه اللّه، فإن هذه المقالة و المعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد صلّى اللّه عليه و سلّم إليهم، و إنزال القرآن عليه، و لهذا قال: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: كتاب أنزله اللّه على نبيكم، و هو منكم يا معشر العرب، فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة و تعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة، فقد أسفر الصبح لذى عينين وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ معطوف على بَيِّنَةٌ أى جاءكم البينة الواضحة و الهدى الذى يهتدى به كلّ من له رغبة فى الاهتداء، و رحمة من اللّه يدخل فيها كل من يطلبها و يريد حصولها، و لكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات اللّه و الصدوف عنها، أى: الانصراف عنها، و صرف من أراد الإقبال إليها فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ التى هى رحمة و هدى للناس وَ صَدَفَ عَنْها فضلّ بانصرافه عنها، و أضلّ بصرف غيره عن الإقبال إليها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ أى العذاب السيئ- ب سبب ما كانُوا يَصْدِفُونَ و قيل معنى صدف: أعرض، و يصدفون: يعرضون، و هو مقارب لمعنى الصرف، و قد تقدّم تحقيق معنى هذا اللفظ، و الاستفهام فى فَمَنْ أَظْلَمُ للإنكار، أى: إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات اللّه و صدف عنها، مع ما يفيده ذلك من التبكيت لهم.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٠٦

قال: على المؤمنين المحسنين. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ قال: تماما لما كان قد أحسن اللّه. و أخرج أيضا عن ابن زيد قال: تماما لنعمته عليهم و إحسانه إليهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ هذا كِتابٌ قال: هو القرآن الذى أنزل اللّه على محمد فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا يقول: فاتبعوا ما أحلّ اللّه فيه و اتقوا ما حرّم. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فى قوله: عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا قال: اليهود و النصارى، خاف أن تقوله قريش. و أخرج ابن المنذر و ابن حاتم عن ابن عباس قال: هم اليهود و النصارى وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ قال: تلاوتهم.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ قال: هذا قول كفار العرب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يقول: قد جاءتكم بينة لسان عربى مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

صَدَفَ عَنْها قال: أعرض عنها. و أخرج عبد بن حميد عن الضحّاك فى قوله: يَصْدِفُونَ قال:

يعرضون.

[سورة الأنعام (6): آية 158]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

أي: لما أقمنا عليهم الحجّة و أنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم، فلم ينفعهم ذلك و لم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقى بعد هذا إلا أنهم يَنْظُرُونَ أى: ينتظرون أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أى: ملائكة الموت لقبض أرواحهم، و عند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ يا محمد كما اقترحوه بقوله: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا «1» و قيل: معناه أو يأتى أمر ربك بإهلاكهم؛ و قيل المعنى:

أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله: أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ و قيل: هو من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا اللّه، و قد جاء فى القرآن حذف المضاف كثيرا كقوله: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ «2» و قوله: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ «3» أى حب العجل؛ و قيل: إتيان اللّه: مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله:

وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا «4». قوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ قرأ ابن عمر و ابن الزبير يوم تأتى بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية. قال المبرد: التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل و منه قول جرير:

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة و الجبال الخشّع

و قرأ ابن سيرين «لا تنفع»: بالفوقية. قال أبو حاتم: إن هذا غلط عن ابن سيرين. و قد قال الناس فى هذا شىء دقيق من النحو ذكره نفطويه، و ذلك أن الإيمان و النفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فأنث الإيمان إذ هو من النفس. قال النحاس: و فيه وجه آخر و هو أن يؤنث الإيمان، لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث مثل فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ و معنى يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يوم يأتى الآيات

---

(1). الفرقان: 21.

(2). يوسف: 82.

(3). البقرة: 93.

(4). الفجر: 22.

التى اقترحوها، و هى التى تضطرهم إلى الإيمان لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها أو ما هو أعمّ من ذلك فيدخل فيه ما ينتظرونه؛ و قيل: هى الآيات التى هى علامات القيامة المذكورة فى الأحاديث الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فهى التى إذا جاءت لا ينفع نفسا إيمانها. قوله: لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل إتيان بعض الآيات، فأما التى قد كانت آمنت من قبل مجىء بعض الآيات فإيمانها ينفعها، و جملة لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فى محل نصب على أنها صفة نفسها. قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً معطوف على آمَنَتْ و المعنى: أنه لا ينفع نفسا إيمانها عند حضور الآيات متّصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل، أو آمنت من قبل و لكن لم تكسب فى إيمانها خيرا، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجىء بعض الآيات مع كسب الخير فى الإيمان، فمن آمن من قبل فقط و لم يكسب خيرا فى إيمانه أو كسب خيرا و لم يؤمن فإن ذلك غير نافعه، و هذا التركيب هو

كقولك: لا أعطى رجلا اليوم أتانى لم يأتنى بالأمس أو لم يمدحنى فى إتيانه إلىّ بالأمس، فإن المستفاد من هذا أنه لا يستحقّ العطاء إلاـ رجل أتاه بالأمس و مدحه فى إتيانه إليه بالأمس، ثم أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم: انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له، و هذا تهديد شديد و وعيد عظيم، و هو يقوّى ما قيل فى تفسير يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ أنها الآيات التى اقترحوها من إتيان الملائكة و إتيان العذاب لهم من قبل اللّه كما تقدّم بيانه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ قال:

عند الموت أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ قال: يوم القيامة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى تفسير الآية مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ قال يوم القيامة فى ظلل من الغمام. و أخرج أحمد و عبد بن حميد فى مسنده و الترمذى و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ قال: طلوع الشمس من مغربها. قال الترمذى: غريب. و رواه ابن أبى شيبة و عبد بن حميد عن أبى سعيد موقوفا. و أخرجه الطبرانى و ابن عدى و ابن مردويه من حديث أبى هريرة مرفوعا. و أخرجه سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و نعيم بن حماد و الطبرانى عن ابن مسعود موقوفا. فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوى من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به، و يؤيده ما ثبت فى الصحيحين و غيرهما عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت و رآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها، ثم قرأ الآية». و أخرج مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و غيرهم عن أبى ذرّ مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً يقول: كسبت فى تصديقها عملا صالحا هؤلاء أهل القبلة، و إن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، و إن عملت قبل الآية خيرا، ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها. و أخرج ابن أبى حاتم أبو الشيخ عن مقاتل فى قوله: أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قال: يعنى المسلم الذى لم يعمل فى إيمانه خيرا و كان

قبل الآية مقيما على الكبائر. و الآيات التى هى علامات القيامة قد وردت الأحاديث المتكاثرة فى بيانها و تعدادها، و هى مذكورة فى كتب السّنّة.

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۱۵۹) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۶۰)

قرأ حمزة و الكسائى «فارقوا دينهم» و هى قراءة علىّ بن أبى طالب؛ أى تركوا دينهم و خرجوا عنه.

و قرأ الباقون: فرّقوا بالتشديد إلاـ النخعى فإنه قرأ بالتخفيف. و المعنى: أنهم جعلوا دينهم متفرّقا، فأخذوا ببعضه و تركوا بعضه، قيل: المراد بهم اليهود و النصارى. و قد ورد فى معنى هذا؛ فى اليهود قوله تعالى:

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ «۱»؛ و قيل: المراد بهم المشركون عبد بعضهم الصّنم و بعضهم الملائكة؛ و قيل: الآية عامة فى جميع الكفار و كلّ من ابتدع و جاء بما لم يأمر به اللّه، و هذا هو الصّواب لأنّ اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب و طوائف المشركين و غيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام، و معنى شيعا: فرقا و أحزابا، فتصدق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدا مجتمعا، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبرائهم يخالف الصواب، و يباين

الحق لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أى لست من تفرّقهم، أو من السؤال عن سبب تفرّقهم و البحث عن موجب تحزبهم فى شيء من الأشياء، فلا يلزمك من ذلك شيء و لا تخاطب به إنما عليك البلاغ، و هو مثل قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من غشّنا فليس منّا» أى نحن برآء منه، و موضع فِي شَيْءٍ نصب على الحال. قال الفراء: هو على حذف مضاف: أى لست من عقابهم فى شيء، و إنما عليك الإنذار، ثم سلاه اللّه تعالى بقوله: إِنَّمٰا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّٰهِ فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته، و الحصر بإنما: هو فى حكم التعليل لما قبله و التأكيد له ثُمَّ هو يوم القيامة يُنَبِّئُهُمْ أى يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة بما كانُوا يعملونه من الأعمال التى تخالف ما شرعه اللّه لهم و أوجبه عليهم، و هذه الآية من جملة ما هو منسوخ بآية السيف. قوله: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به؛ الممتثلين لما شرعه لهم؛ بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات؛ فله من الجزاء عشر حسنات، و التقدير: فله عشر حسنات أمثالها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. قال أبو على الفارسي: حسن التأنيث فى عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافا إلى مؤنث، نحو ذهبت بعض أصابعه. و قرأ الحسن و سعيد بن جبير و الأعمش فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثٰالُهٰا برفعهما.

و قد ثبت هذا التضعيف فى السنة بأحاديث كثيرة، و هذا التضعيف هو أقلّ ما يستحقه عامل الحسنة.

و قد وردت الزيادة على هذا عموما و خصوصا، ففى القرآن كقوله: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ «٢».

و ورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، و ورد فى السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة. و قد قدمنا تحقيق هذا فى موضعين من هذا التفسير، فليرجع إليهما وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَةِ من الأعمال

---

(١). البينة: ۴.

(٢). البقرة: ٢۶١.

السيئة فَلٰا يُجْزىٰ إِلّٰا مِثْلَهٰا من دون زيادة عليها، على قدرها فى الخفّة و العظم، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده فى النار، و فاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات، كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرّحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، و ما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب؛ فعلينا أن نقول: يجازيه اللّه بمثله و إن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، و هذا إن لم يتب، أما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته، أو تغمده اللّه برحمته، و تفضل عليه بمغفرته، فلا مجازاة، و أدلة الكتاب و السنة مصرّحة بهذا تصريحا لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وَ هُمْ أى من جاء بالحسنة و من جاء بالسيئة لٰا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب حسنات المحسنين، و لا بزيادة عقوبات المسيئين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اختلفت اليهود و النّصارى قبل أن يبعث محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل عليه إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ الآية. و أخرج النّحاس عنه فى ناسخه إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ قال: اليهود و النّصارى تركوا الإسلام و الدين الذى أمروا به وَ كانُوا شِيَعاً فرقا أحزابا مختلفة لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ نزلت بمكة ثم نسخها قٰاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ «١». و أخرج أبو الشيخ عنه وَ كٰانُوا شِيَعاً قال: مللا- شتّى. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ الآية قال:

هم فى هذه الأمة. و أخرج الحكيم الترمذى و ابن جرير و الطبرانى، و الشيرازى فى الألقاب، و ابن مردويه عنه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «هم أهل البدع و الأهواء من هذه الأمة»، و فى إسناده عباد بن كثير، و هو متروك الحديث، و لم يرفعه غيره، و من عداه وقفوه على أبى هريرة. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى أمامة فى الآية قال: هم

الحروريـة، و قـد رواه ابـن أبى حـاتم و النحـاس و ابن مردويه عن أبى غـالب عن أبى أمامـة مرفوعـا، و لا يصـحّ رفعه. و أخرج الحكيم الترمـذى و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن شاهين و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و أبو نصـر السـجزى فى الإبانة، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لعائشة: «يا عائش؛ إنّ الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعا هم أصحاب البدع و أصحاب الأهواء و أصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إنّ لكلّ صاحب ذنب توبـة غير أصـحاب البـدع و أصـحاب الأهـواء ليس لهم توبـة، و هم منى برآء» قال ابن كثير: هو غريب، و لا يصـحّ رفعه. و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها قال رجل من المسلمين: يا رسول اللّه! لا إله إلا اللّه حسنة؟ قال: «نعم أفضل الحسنات»، و هـذا مرسل و لا نـدرى كيف إسـناده إلى سـعيد. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و أبو نعيم فى الحليـة عن ابن مسـعود مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج ابن المنـذر عن ابن عبـاس مثله. و أخرج أبو الشـيخ عن أبى هريرة مثله أيضـا. و قـد قـدّمنا الإشارة إلى أنها قـد ثبتت الأحاديث الصـحيحة بمضاعفة الحسـنة إلى عشـر أمثالهـا، فلا نطيل بـذكرها، و وردت أحاديث كثيرة فى الزيادة على هـذا المقـدار، و فضل اللّه واسع، و عطاؤه جمّ.

---

(١). التوبة: ٣۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢١٠

[سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۳]

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١۶١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١۶٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١۶٣)

لمـا بيّن سـبحانه أنّ الكفـار تفرّقـوا فرقـا و تحزبـوا أحزابـا أمر رسـوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن يقول لهم: إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي أى أرشدنى بما أوحاه إلىّ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و هو ملة إبراهيم عليه السلام، و دِيناً منتصب على الحال كما قال قطرب، أو على أنه مفعول هـدانى كما قال الأخفش؛ و قيل: منتصب بفعل يـدل عليه هـدانى، لأن معناه عرّفنى، أى: عرفنى دينا؛ و قيل: إنه بـدل من محل إلى صـراط، لأن معناه هدانى صـراطا مسـتقيما، كقوله تعالى: وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً و قيل: منصوب بإضمار فعل، كأنه قيل: اتبعوا دينا. قوله:

قِيَماً قرأه الكوفيون و ابن عـامر بكسـر القـاف، و التخفيف و فتـح الياء. و قرأه الباقون بفتـح القاف و كسـر الياء المشـدّدة، و هما لغتان: و معناه الدين المسـتقيم الذى لا عوج فيه، و هو صـفة لدينا، وصف به مع كونه مصدرا، مبالغة، و انتصاب مِلَّةَ إِبْراهِيمَ على أنها عطف بيان لدينا، و يجوز نصبها بتقدير أعنى، و حَنِيفاً منتصب على أنه حال من إبراهيم، قاله الزّجّاج. و قال على بن سليمان: هو منصوب بإضمار أعنى. و الحنيف: المائل إلى الحق، و قد تقدّم تحقيقه وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى محل نصب معطوف على حنيفا، أو جملة معترضة مقررة لما قبلها. قوله: قُلْ إِنَّ صَلاتِي أمره اللّه سبحانه أن يقول لهم بهذه المقالة عقب أمره بأن يقول لهم بالمقالـة السابقـة؛ قيـل: و وجه ذلـك أنّ مـا تضـمنه القول الأوّل إشارة إلى أصول الـدين، و هـذا إلى فروعها. و المراد بالصـلاة: جنسـها فيـدخل فيه جميع أنواعها؛ و قيل: المراد بها هنا: صـلاة الليل، و قيل: صـلاة العيد. و النسك: جمع نسـيكة، و هى الذبيحة كـذا قـال مجاهـد و الضـحاك و سـعيد بن جبير و غيرهم، أى: ذبيحتى فى الحـج و العمرة. و قـال الحسن: دينى. و قـال الزجاج: عبادتى من قولهم:

نسک فلان هو ناسک: إذا تعبد، و به قال جماعة من أهل العلم. وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي أی: ما أعمله فی حياتی و مماتی من أعمال الخير، و من أعمال الخير فی الممات الوصية بالصدقات و أنواع القربات؛ و قيل: نفس الحياة و نفس الموت لِلَّهِ و قرأ الحسن نسكی بسكون السين. و قرأ الباقون بضمها. و قرأ أهل المدينة محيای بسكون الياء. و قرأ الباقون بفتحها، لئلا يجتمع ساكنان قال النحاس: لم يجزه، أی السكون أحد من النحويين إلا يونس، و إنما أجازه لأن المدّة التی فی الألف تقوم مقام الحركة. و قرأ ابن أبی إسحاق و عيسى بن عمر و عاصم الجحدری محيی من غير ألف و هی لغة عليا مضر، و منه قول الشاعر «١»:

سبقوا هویّ و أعنقوا لهواهمفتخرّموا و لكلّ جنب مصرع

لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أی خالصا له لا شريك له فيه، و الإشارة بِذلِكَ إلى ما أفاده لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ من الإخلاص فی الطاعة و جعلها للّه وحده. قوله: وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ أی أوّل

---

(١). هو أبو ذؤيب.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢١١

مسلمی أمته؛ و قيل: أوّل المسلمين أجمعين، لأنه و إن كان متأخرا فی الرسالة فهو أولهم فی الخلق، و منه قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ «١» الآية، و الأوّل أولى. قال ابن جرير الطبری:

استدل بهذه الآية الشافعی على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر، فإن اللّه أمر به نبيه و أنزله فی كتابه، ثم ذكر حديث علیّ أن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهی للذی فطر السّموات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين» إلى قوله: «و أنا أول المسلمين» قلت: هذا هو فی صحيح مسلم مطوّلا. و هو أحد التوجهات الواردة، و لكنّه مقيّد بصلاة الليل كما فی الروايات الصحيحة، و أصح التوجهات الذی كان يلازمه النبی صلّى اللّه عليه و سلّم و يرشد إليه هو «اللهم باعد بينی و بين خطاياى» إلى آخره، و قد أوضحنا هذا فی شرحنا للمنتقى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه هنا.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن مقاتل فی قوله: إِنَّ صَلاتِي قال: يعنی المفروضة وَ نُسُكِي يعنی الحج. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير وَ نُسُكِي قال: ذبيحتی. و أخرجا أيضا عن قتادة إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي قال: حجّی و ذبيحتی. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله: وَ نُسُكِي قل: ذبيحتی فی الحج و العمرة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن قتادة فی قوله: وَ نُسُكِي قال: ضحيتی. و فی قوله: وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قال: من هذه الأمة. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقی عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا فاطمة! قومی فاشهدی أضحيتك فإنه يغفر لك بأوّل قطرة تقطر من دمها كلّ ذنب عملته، و قولی: إنّ صلاتی إلى و أنا أوّل المسلمين، قلت: يا رسول اللّه هذا لك و لأهل بيتك خاصّة- فأهل ذلك أنتم- أم للمسلمين عامة؟ قال: لا، بل للمسلمين عامة».

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١۶۴ الى ١۶۵]

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١۶۴) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١۶۵)

الاستفهام فی أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا للإنكار، و هو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير اللّه، أی: كيف أبغی غير اللّه ربا

مستقلا و أترك عبادة اللّه أو شريكا للّه فأعبدهما معا، و الحال أنه ربّ كل شىء، و الذى تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق مثلى لا يقدر على نفع و لا ضرّ، و فى هذا الكلام من التقريع و التوبيخ لهم ما لا يقادر قدره، و غير: منصوب بالفعل الذى بعده، و ربا: تمييز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين قوله: وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها أى لا يؤاخذ مما أتت من الذنب و ارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها، و هو مثل قوله تعالى: لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ «٢» و قوله: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أصل الوزر: الثقل، و منه قوله تعالى: وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ «٣» و هو هنا: الذنب

---

(١). الأحزاب: ٧.

(٢). البقرة: ٢٨٦.

(٣). الشرح: ٢.

وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ قال الأخفش: يقال: وزر يوزر، و وزر يزر وزرا، و يجوز إزرا، و فيه ردّ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه، و الواحد من القبيلة بذنب الآخر و قد قيل:

إن المراد بهذه الآية فى الآخرة و كذلك التى قبلها لقوله تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «١»، و مثله قول زينب بنت جحش: «يا رسول اللّه! أ نهلك و فينا الصّالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث». و الأولى: حمل الآية على ظاهرها، أعنى: العموم و ما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التى تحملها العاقلة و نحو ذلك، فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم و يقرّ فى موضعه و لا يعارض هذه الآية قوله تعالى: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «٢» فإنّ المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ «٣». ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فى الدنيا، و عند ذلك يظهر حق المحقين و باطل المبطلين. قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ خلائف: جمع خليفة، أى: جعلكم خلفاء الأمم الماضية و القرون السالفة، قال الشّمّاخ:

تصيبهم و تخطئنى المناياو أخلف فى ربوع عن ربوع

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا، أو أن هذا النوع الإنسانى خلفاء اللّه فى أرضه وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فى الخلق، و الرزق، و القوة، و الفضل، و العلم، و درجات: منصوب بنزع الخافض، أى: إلى درجات لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور، أو ليبتلى بعضكم ببعض كقوله تعالى: وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً «٤» ثمّ خوّفهم فقال: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ فإنه و إن كان فى الآخرة فكل آت قريب كما قال: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ «٥» ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال: وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ قال: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ قال: أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ قال: فى الرّزق.

---

(١). الأنفال: ٢٥.

(٢). العنكبوت: ١٣.

(۳). النحل: ۲۵.

(۴). الفرقان: ۲۰.

(۵). النحل: ۷۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۱۳

سورة الأعراف

اشارة

هى مكيّة إلاـ ثمان آيات، و هى قوله: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ إلى قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ «۱». و قد أخرج ابن الضّريس، و النحّاس فى ناسخه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس، قال: سورة الأعراف نزلت بمكة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزّبير مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة: قال: آية من الأعراف مدنية، و هى وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ «۲» إلى آخر الآية، و سائرها مكية. و قد ثبت أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقرأ بها فى المغرب يفرّقها فى الرّكعتين. و آياتها مائتان و ستّ آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱ الى ۷]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (۱) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۳) وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (۴)

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۵) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (۷)

قوله: المص قد تقدّم فى فاتحة سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة، و هو: إما مبتدأ و خبره كتاب، أى: المص حروف كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ أو هو: خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا المص أى المسمى به، و أما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التّعديد فلا محلّ له، و كتاب: خبر المبتدأ على الوجه الأوّل، أو خبر مبتدأ محذوف على الثانى، أى: هو كتاب. قال الكسائى: أى: هذا كتاب، و أنزل إليك صفة له فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ الحرج: الضيق، أى: لا يكن فى صدرك ضيق منه من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك و يؤذوك فإن اللّه حافظك و ناصرك. و قيل: المراد: لا يضق صدرك حيث لم يؤمنوا به و لم يستجيبوا لك فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ*، و قال مجاهد و قتادة: الحرج هنا: الشك، لأن الشاك ضيق الصدر، أى: لا تشك فى أنه منزل من عند اللّه، و على هذا يكون النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم من باب التعريض، و المراد أمته، أى: لا يشك أحد منهم فى ذلك، و الضمير فى منه راجع إلى الكتاب، فعلى الوجه الأوّل يكون على تقدير مضاف محذوف، أى: من إبلاغه، و على الثانى يكون التقدير، من إنزاله، و الضمير فى لِتُنْذِرَ بِهِ راجع إلى الكتاب أى: لتنذر الناس بالكتاب الذى أنزلناه إليك، و هو متعلق بأنزل، أى: أنزل إليك لإنذارك

(۱). الأعراف: ۱۶۳- ۱۶۵.

(۲). الأعراف: ۱۶۳.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۲۱۴

للناس به، أو متعلق بالنهى، لأن انتفاء الشك فى كونه منزّلا من عند اللّه أو انتفاء الخوف من قومه يقوّيه على الإنذار و يشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة و يباشر بقوّة نفس. قوله: وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ الذكرى:

التذكير. قال البصريون: الذكرى: فى محل رفع على إضمار مبتدأ. و قال الكسائى: هى فى محل رفع عطفا على كتاب، و يجوز النصب على المصدر، أى: و ذكر به ذكرى، قاله البصريون. و يجوز الجر حملا على موضع لتنذر، أى: للإنذار و الذكرى، و تخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، و فيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين. قوله: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: الكتاب و مثله السنة لقوله:

وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱» و نحوها من الآيات، و هو أمر للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لأمته؛ و قيل: هو أمر للأمة بعد أمره صلّى اللّه عليه و سلّم بالتبليغ، و هو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون اللّه يعبدونهم و يجعلونهم شركاء للّه، فالضمير على هذا فى مِنْ دُونِهِ يرجع إلى ربّ، و يجوز أن يرجع إلى ما فى ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ أى: لا تتبعوا من دون كتاب اللّه أولياء تقلدونهم فى دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم و يحرمونه عليهم. قوله: قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ انتصاب قليلا على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر، أى: تذكرا قليلا، و ما: مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا، و ما: مصدرية، أى: لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم، قرئ تذكرون بالتخفيف بحذف إحدى التاءين، و قرئ بالتشديد على الإدغام، قوله: وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها كم: هى الخبرية المفيدة للتكثير و هى فى موضع رفع على الابتداء و أَهْلَكْناها الخبر، و من قرية: تمييز، و يجوز أن تكون فى محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها، لأن لها صدر الكلام، و لو لا اشتغال أهلكناها بالضمير لجاز انتصاب كم به، و القرية: موضع اجتماع الناس، أى: كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها، أو أهلكنا أهلها، و المراد: أردنا إهلاكها. قوله: فَجاءَها بَأْسُنا معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مرّ، لأن ترتيب مجي‏ء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير، إذ الإهلاك هو نفس مجي‏ء البأس. و قال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، و المعنى: أهلكناها و جاءها بأسنا، و الواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها؛ و قيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية؛ فيكون المعنى: و كم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع؛ و قيل المعنى: و كم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا؛ و قيل: أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا، و البأس: هو العذاب. و حكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى: و كم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها، مثل دنا فقرب، و قرب فدنا بَياتاً أى:

ليلا، لأنه يبات فيه، يقال: بات يبيت بيتا و بياتا، و هو مصدر واقع موقع الحال، أى: بائتين. قوله:

أَوْ هُمْ قائِلُونَ معطوف على بياتا، أى: بائتين أو قائلين، و جاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالا لاجتماع الواوين، واو العطف و واو الحال، هكذا قال الفراء. و اعترضه الزجاج فقال: هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو، تقول: جاءنى زيد راكبا أو هو ماش لأن فى الجملة ضميرا قد عاد إلى الأوّل، و أو فى هذا الموضع:

---

(۱). الحشر: ۷.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۲۱۵

للتفصيل لا ـ للشك. و القيلولة: هى نوم نصف النهار. و قيل: هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدّة الحرّ من دون نوم، و خص الوقتين لأنهما وقت السكون و الدعة فمجىء العذاب فيهما أشدّ و أفظع. قوله: فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا: إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ الدعوى: الدعاء، أى: فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم، و مثله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ «١» أى: آخر دعائهم؛ و قيل: الدعوى هنا بمعنى الادّعاء، و المعنى: ما كان ما يدّعونه لدينهم و ينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه و فساده، و اسم كان إِلَّا أَنْ قالُوا و خبرها دَعْواهُمْ و يجوز العكس؛ و المعنى: ما كان دعواهم إلا قولهم:

إنا كنا ظالمين. قوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هذا وعيد شديد، و السؤال للقوم الذين أرسل اللّه إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع و التوبيخ، و اللام لام القسم، أى: لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، و الفاء: لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ أى: الأنبياء الذين بعثهم اللّه، أى: نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم و من أطاع منهم و من عصى؛ و قيل: المعنى: فلنسألن الذين أرسل إليهم: يعنى: الأنبياء، و لنسألن المرسلين: يعنى الملائكة، و لا يعارض هذا قول اللّه سبحانه:

وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٢» لما قدّمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففى موطن يسألون، و فى موطن لا يسألون، و هكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة و نفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدّد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا ـ عظيما فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ أى: على الرسل و المرسل إليهم ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لهم بعلم لا بجهل، أى: عالمين بما يسرون و ما يعلنون وَ ما كُنَّا غائِبِينَ عنهم فى حال من الأحوال حتى يخفى علينا شىء مما وقع بينهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و ابن النجار فى تاريخه، عن ابن عباس فى قوله: المص قال: أنا اللّه أفصل. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أن هذا و نحوه من فواتح السور: قسم أقسم اللّه به، و هى من أسماء اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله:

المص قال: هو المصوّر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله:

المص قال: الألف من اللّه، و الميم من الرحمن، و الصاد من الصمد. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: معناه أنا اللّه الصّادق. و لا ـ يخفى عليك أن هذا كلّه قول بالظن و تفسير بالحدس، و لا حجّة فى شىء من ذلك، و الحق ما قدّمنا فى فاتحة سورة البقرة. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فَلا ـ يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ قال: الشك، و قال لأعرابىّ: ما الحرج فيكم؟ قال: اللبس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: ضيق. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم، ثم قرأ فَما كانَ دَعْواهُمْ الآية. و أخرجه ابن جرير عنه مرفوعا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ قال: نسأل الناس عما أجابوا المرسلين و نسأل المرسلين عما بلغوا فلنقصنّ

---

(١). يونس: ١٠.

(٢). القصص: ٧٨.

عليهم بعلم قال: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون. و أخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال: أحدهما الأنبياء، و أحدهما الملائكة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: نسأل الناس عن قول لا إله إلا اللّه و نسأل جبريل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨ الى ١٨]

وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (٩) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠) وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (١٧)

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

قوله: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ الوزن: مبتدأ و خبره الحق، أي: الوزن فى هذا اليوم العدل الذى لا جور فيه، أو الخبر: يومئذ، و الحق: وصف للمبتدأ، أي: الوزن العدل كائن فى هذا اليوم؛ و قيل:

إن الحق خبر مبتدأ محذوف.

و اختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم، فقيل: المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا، و هذا هو الصحيح، و هو الذى قامت عليه الأدلة؛ و قيل: توزن نفس الأعمال و إن كانت أعراضا فإن اللّه يقلبها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح: «إن البقرة و آل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صوافّ». و كذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون و نحو ذلك؛ و قيل: الميزان: الكتاب الذى فيه أعمال الخلق؛ و قيل: الوزن و الميزان: بمعنى العدل و القضاء، و ذكرهما من باب ضرب المثل، كما تقول: هذا الكلام فى وزن هذا. قال الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، و الأولى أن نتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيرى: و قد أحسن الزجّاج فيما قال، إذ لو حمل الصراط على الدين الحقّ، و الجنة و النار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، و الشياطين و الجنّ على الأخلاق المذمومة، و الملائكة على القوى المحمودة، ثم قال:

و قد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل و إذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر و صارت هذه الظواهر نصوصا. انتهى. و الحق هو القول الأوّل: و أما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون فى استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، و ليس فى ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢١٧

من عقولهم من الصحابة و التابعين و تابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم و قال كلّ ما شاء، و تركوا الشّرع خلف ظهورهم و ليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها، و يتحد قبولهم لها، بل كلّ فريق يدّعى على العقل ما يطابق هواه، و يوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له، فتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم، يعرف هذا كلّ منصف، و من أنكره فليصفّ فهمه و عقله عن شوائب التعصب و التمذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه.

و قد ورد ذكر الوزن و الموازين فى مواضع من القرآن كقوله: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً «١»، و قوله: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ «٢»، و قوله:

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ- وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ «۳»، و قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ «۴»، و قوله: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ- فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ- وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ- فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ «۵»، و الفاء فى فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ للتفصيل.

و الموازين: جمع ميزان، و أصله موزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، و ثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال؛ و قيل: إن الموازين جمع موزون، أى: فمن رجحت أعماله الموزونة، و الأوّل أولى.

و ظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله؛ و قيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال، و الإشارة بقوله:

فَأُولئِكَ إلى من، و الجمع باعتبار معناه، كما رجع إليه ضمير مَوازِينُهُ باعتبار لفظه، و هو مبتدأ، خبره هُمُ الْمُفْلِحُونَ و الكلام فى قوله: وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ مثله، و الباء فى بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ سببية، و ما مصدرية. و معنى يَظْلِمُونَ يكذبون. قوله:

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أى جعلنا لكم فيها مكانا، و هيأنا لكم فيها أسباب المعايش. و المعايش جمع معيشة، أى: ما يتعايش به من المطعوم و المشروب و ما تكون به الحياة، يقال: عاش يعيش عيشا و معاشا و معيشا. قال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش، و المعيشة عند الأخفش و كثير من النحويين مفعلة.

و قرأ الأعرج «معائش» بالهمز، و كذا روى خارجة بن مصعب عن نافع. قال النحاس: و الهمز لحن لا يجوز، لأن الواحدة معيشة و الياء أصلية كمدينة و مداين و صحيفة و صحايف. قوله: قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ الكلام فيه كالكلام فيما تقدّم قريبا من قوله تعالى: قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ «۶». و قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم اللّه على عبيده. و المعنى: خلقناكم نطفا ثم صوّرناكم بعد ذلك، و قيل المعنى: خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم فى ظهره؛ و قيل: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ يعنى: آدم، ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ راجع إليه، و يدلّ عليه ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فإنّ ترتيب هذا القول على الخلق و التصوير يفيد أن المخلوق المصوّر آدم عليه السلام. و قال الأخفش: إن ثم فى ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ بمعنى الواو؛ و قيل: المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق.

قال النحاس: و هذا أحسن الأقوال؛ و قيل المعنى: و لقد خلقنا الأرواح أوّلا، ثم صوّرنا الأشباح، ثم قلنا

---

(۱). الأنبياء: ۴۷.

(۲). المؤمنون: ۱۰۱.

(۳). المؤمنون: ۱۰۲ و ۱۰۳.

(۴). النساء: ۴۰.

(۵). القارعة: ۶- ۹.

(۶). الأعراف: ۳.

للملائكة اسجدوا لآدم، أى: أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر، و فعلوا السجود بعد الأمر إِلَّا إِبْلِيسَ قيل:

الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفردا بينهم، أو كما قيل: لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجنّ؛ و قيل غير ذلك، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة. قوله: لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء و من جعل الاستثناء

منقطعا قال معناه: لكن إبليس لم يكن من الساجدين، و جملة قالَ ما مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل فماذا قال له اللّه؟ و لا فى أَلَّا تَسْجُدَ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة ص ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ «١»؛ و قيل: إن منع بمعنى قال، و التقدير: من قال لک أن لا تسجد؟ و قيل: منع بمعنى دعا، أى: ما دعاک إلى أن لا تسجد؟

و قيل: فى الكلام حذف، و التقدير: ما منعک من الطاعة و أحوجک إلى أن لا تسجد إِذْ أَمَرْتُکَ أى:

وقت أمرتک، و قد استدل به على أن الأمر للفور، و البحث مقرر فى علم الأصول، و الاستفهام فى ما مَنَعَکَ للتقريع و التوبيخ، و إلا فهو سبحانه عالم بذلک، و جملة قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قال إبليس؟ و إنما قال فى الجواب: أنا خير منه، و لم يقل: منعنى كذا، لأن فى هذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع و هو اعتقاده أنه أفضل منه. و الفاضل لا يفعل مثل ذلک للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله. ثم علل ما ادّعاه من الخيرية بقوله:

خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ اعتقادا منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين. و قد أخطأ عدوّ اللّه فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته و سكونه و طول بقائه و هى خفيفة مضطربة سريعة النفاد، و مع هذا فهو «٢» موجود فى الجنة دونها، و هى «٣» عذاب دونه، و هى محتاجة إليه لتتحيز فيه، و هو مسجد و طهور، و لو لا سبق شقاوته «۴» و صدق كلمة اللّه عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة و قدوة، فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى، و جملة قالَ فَاهْبِطْ استئنافية كالتى قبلها، و الفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر، أى: اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون اللّه فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقرّ من يعصى و يطيع، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر و يعصى أمر ربه مثلک، و لهذا قال: فَما يَكُونُ لَکَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها. و من التفاسير الباطلة ما قيل: إن معنى فَاهْبِطْ مِنْها أى اخرج من صورتک النارية التى افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوّهة؛ و قيل: المراد هبوطه من الجنة؛ و قيل: من زمرة الملائكة، و جملة فَاخْرُجْ لتأكيد الأمر بالهبوط، و جملة إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِينَ تعليل للأمر، أى: إنک من أهل الصغار و الهوان على اللّه و على صالحى عباده، و هكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان و الصغار. و من لبس رداء التواضع ألبسه اللّه رداء الترفع،

---

(١). ص: ٧۵.

(٢). أى: الطين.

(٣). أى: النار.

(۴). أى: إبليس.

و جملة قالَ أَنْظِرْنِی إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ استئنافية كما تقدّم فى الجمل السابقة، أى: أمهلنى إلى يوم البعث، و كأنه طلب أن لا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده، و الضمير فى يُبْعَثُونَ لآدم و ذريته، فأجابه اللّه بقوله: إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أى: الممهلين إلى ذلک اليوم، ثم تعاقب بما قضاه اللّه لک، و أنزله بک فى دركات النار. قيل: الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه، و جملة قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِی مستأنفة كالجمل السابقة واردة جوابا لسؤال مقدّر، و الباء فى فَبِما للسببية، و الفاء: لترتيب الجملة على ما قبلها؛ و قيل: الباء للقسم كقوله: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «١» أى فبإغوائک إياى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَکَ الْمُسْتَقِيمَ و الإغواء: الإيقاع فى الغىّ؛ و قيل: الباء بمعنى اللام، و قيل: بمعنى مع. و المعنى: فمع إغوائک إياى، و قيل ما فى فَبِما أَغْوَيْتَنِی للاستفهام. و المعنى: فبأى شىء أغويتنى؟ و الأوّل أولى. و مراده بهذا الإغواء الذى جعله سببا لما سيفعله مع العباد هو

ترک السجود منه و أن ذلک کان بإغواء اللّه له، حتى اختار الضلالة على الهدى؛ و قيل: أراد به اللعنة التى لعنه اللّه، أى: فبما لعنتنى فأهلكتنى لأقعدن لهم، و منه: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا «٢» أى: هلاكا. و قال ابن الأعرابى: يقال غوى الرجل يغوى غيا: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه، و منه وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى «٣» أى: فسد عيشه فى الجنة لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ أى لأجهدنّ فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم. و الصراط المستقيم: هو الطريق الموصل إلى الجنة. و انتصابه على الظرفية، أى: فى صراطك المستقيم كما حكى سيبويه: ضرب زيد الظهر و البطن، و اللام فى لَأَقْعُدَنَ لام القسم، و الباء فَبِما أَغْوَيْتَنِي متعلقة بفعل القسم المحذوف، أى: فبما أغويتنى أقسم لأقعدنّ. قوله: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدو عدوّه، و لهذا ترک ذکر جهة الفوق و التحت، و عدى الفعل إلى الجهتين الأولیین بمن، و إلى الأخريين بعن، لأنّ الغالب فيمن يأتى من قدام و خلف أن يكون متوجها إلى ما يأتيه بكلية بدنه، و الغالب فيمن يأتى من جهة اليمين و الشمال أن يكون منحرفا، فناسب فى الأولیین التعدية بحرف الابتداء، و فى الأخريين التعدية بحرف المجاورة، و هو تمثيل لوسوسته و تسويله بمن يأتى حقيقة؛ و قيل المراد مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ من دنياهم وَ مِنْ خَلْفِهِمْ من آخرتهم وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ من جهة حسناتهم وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ من جهة سيئاتهم، و استحسنه النحاس. قوله: وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ أى: و عند أن أفعل ذلک لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستى فيهم و إغوائى لهم، و هذا قاله على الظنّ و منه قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ «٤»، و قيل: إنه سمع ذلک من الملائكة فقاله، و عبر بالشكر عن الطاعة، أو هو على حقيقته و أنهم لم يشكروا اللّه بسبب الإغواء، و جملة قالَ اخْرُجْ مِنْها استئناف كالجمل التى قبلها، أى: من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدّم مَذْؤُماً أى مذموما من ذأمه إذا ذمه يقال ذأمته و ذممته بمعنى. و قرأ الأعمش «مذوما». و قرأ الزهرى مَذُوماً بغير همزة؛ و قيل: المذءوم: المنفى، و المدحور: المطرود. قوله:

لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، و جوابه لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ

---

(١). ص: ٨٢.

(٢). مريم: ٥٩.

(٣). طه: ١٢١.

(٤). سبأ: ٢٠.

و قيل اللام فى لَمَنْ تَبِعَكَ للتوكيد، و فى لَأَمْلَأَنَ لام القسم. و الأوّل أولى، و جواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط، لأن من شرطية، و فى هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره. و قرأ عاصم فى رواية عنه لَمَنْ تَبِعَكَ بكسر اللام، و أنكره بعض النحويين. قال النحاس: و تقديره و اللّه أعلم: من أجل من اتبعك، كما يقال: أكرمت فلانا لك؛ و قيل: هو علة لأخرج، و ضمير مِنْكُمْ له و لمن اتبعه، و غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة، و الأصل منک و منهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُ قال: العدل فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ قال: حسناته وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ قال: حسناته. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدى: توزن الأعمال. و قد ورد فى كيفية الميزان و الوزن و الموزون أحاديث كثيرة. و أخرج أحمد و الترمذى و ابن ماجة و ابن حبان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن عمرو قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة و تسعون سجلا، كلّ

سجل منها مدّ البصر، فيقول: أ تنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:
لا، يا ربّ! فيقول: أ فلك عـذر أو حسـنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا ربّ، فيقول: بلى، إنّ لك عندنا حسـنة و إنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، فيقول: يا ربّ! ما هذه البطاقة مع هذه السّجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السّجلات فى كفة و البطاقة فى كفّة؛ فطاشت السّجلات و ثقلت البطاقة» و قد صححه أيضا الترمذى، و إسناد أحمد حسن. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ قال: خلقوا فى أصلاب الرجال و صوّروا فى أرحام النساء. و أخرج الفريابى عنه أنه قال: خلقوا فى ظهر آدم ثم صوّروا فى الأرحام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: أما خلقناكم: فآدم، و أما ثم صوّرناكم: فذريته.

و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: خلق إبليس من نار العزّة. و قد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خلقت الملائكة من نور، و خلق إبليس من نار، و خلق آدم مما وصفه لكم». و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: أوّل من قاس إبليس فى قوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و إسناده صحيح إلى الحسن. و أخرج أبو نعيم فى الحلية و الديلمى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أوّل من قاس أمر الدّين برأيه إبليس، قال اللّه له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتنى من نار و خلقته من طين» قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه يوم القيامة بإبليس؛ لأنه اتبعه بالقياس. و ينبغى أن ينظر فى إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه و هو لا يشبه كلام النبوّة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فَبِما أَغْوَيْتَنِي أضللتنى. و أخرج عبد ابن حميد عنه فى قوله: لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ قال: طريق مكة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن مسعود مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۲۱

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ قال: أشككهم فى آخرتهم وَ مِنْ خَلْفِهِمْ قال: أرغّبهم فى دنياهم وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ أشبه عليهم أمر دينهم وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ قال: أسنّ لهم المعاصى و أحقّ عليهم الباطل وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ قال: موحّدين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ يقول: من حيث يبصرون وَ مِنْ خَلْفِهِمْ من حيث لا يبصرون وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ من حيث يبصرون وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ من حيث لا يبصرون. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال: لم يستطع أن يقول من فوقهم. و فى لفظ: علم أنّ الرّحمة تنزل من فوقهم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله:
مَذْؤُماً قال: ملوما مَدْحُوراً قال: مقيتا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد مَذْؤُماً قال: منفيا مَدْحُوراً قال: مطرودا.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۹) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (۲۰) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (۲۱) فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۲) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۲۴) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (۲۵)

قوله: وَ يا آدَمُ هو على تقدير القول، أى: و قلنا يا آدم. قال له هذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة، أو من السماء، أو من بين الملائكة كما تقدّم. و قد تقدّم معنى الإسكان، و معنى لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فى البقرة. و معنى مِنْ حَيْثُ شِئْتُما من أىّ نوع من أنواع الجنة شئتما أكله، و مثله ما تقدّم من قوله تعالى: وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما «۱» و حذف النون من فَتَكُونا لكونه معطوفا على المجزوم أو منصوبا على أنه جواب النهى. قوله: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ الوسوسة: الصوت الخفى، و الوسوسة: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة و وسواسا بكسر الواو، و الوسوسة بالفتح:

الاسم، مثل الزلزلة و الزلزال، و يقال لهمس الصائد و الكلاب و أصوات الحلى: وسواس. قال الأعشى:

تسمع للحلىّ وسواسا إذا انصرفت «۲» .....

و الوسواس: اسم الشيطان. و معنى وسوس له: وسوس إليه، أو فعل الوسوسة لأجله. قوله: لِيُبْدِيَ

---

(۱). البقرة: ۳۵.

(۲). و عجزه: كما استعان بريح عشرق زجل.

«عشرق»: شجر له حب صغار إذا جفّ صوّت بمرّ الريح.

لَهُمَا أى: ليظهر لهما، و اللام للعاقبة كما فى قوله: لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً؛ و قيل: هى لام كى، أى: فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء، أو لكى يقع الإيذاء. قوله: ما وُورِيَ أى: ما ستر و غطى عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما سمّى الفرج سوءة؛ لأن ظهوره يسوء صاحبه، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما، فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما و لا يراها أحدهما من الآخر، و إنما لم تقلب الواو فى وُورِيَ همزة، لأن الثانية مدة؛ قيل: إنما بدت عورتهما لهما لا لغيرهما، و كان عليهما نور يمنع من رؤيتها وَ قالَ أى: الشيطان لهما ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ أكل هذه الشجرة إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أن فى موضع نصب، و فى الكلام مضاف محذوف تقديره: إلا كراهة أن تكونا ملكين، هكذا قال البصريون. و قال الكوفيون: التقدير لئلا تكونا ملكين أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ فى الجنة أو من الذين لا يموتون. قال النحاس: فضل اللّه الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع فى القرآن، فمنها هذا، و منها وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ و منها وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ قال ابن فورك: لا حجّة فى هذه الآية، لأنّه يحتمل أن يريد: ملكين فى أن لا يكون لهما شهوة فى الطعام.

و قد اختلف الناس فى هذه المسألة اختلافا كثيرا و أطالوا الكلام فى غير طائل، و ليست هذه المسألة مما كلفنا اللّه بعلمه، فالكلام فيها لا يعنينا. و قرأ ابن عباس و يحيى بن أبى كثير و الضحاك «ملكين» بكسر اللام، و أنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة و قال: لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين. و قد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى قال أبو عبيد: هذه حجّة بيّنة لقراءة الكسر، و لكنّ الناس على تركها، فلهذا تركناها. قال النّحاس: هى قراءة شاذة، و أنكر على أبى عبيد هذا الكلام و جعله من الخطأ الفاحش. قال: و هل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة و هى غاية الطالبين، و إنما معنى وَ مُلْكٍ لا يَبْلى المقام فى ملك الجنة و الخلود فيه. قوله: وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ أى: حلف لهما فقال: أقسم إقساما أى: حلف، و منه قول الشاعر:

و قاسمها باللّه جهدا لأنتماألذّ من السّلوى إذا ما نشورها «۱»

و صيغة المفاعلة و إن كانت فى الأصل تدلّ على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك. و قد قدّمنا تحقيق هذا فى المائدة، و المراد بها هنا المبالغة فى صدور الإقسام لهما من إبليس؛ و قيل إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة. قوله: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ التدلية و الإدلاء: إرسال الشىء من أعلى إلى أسفل، يقال:

أدلى دلوه: أرسلها، و المعنى: أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة؛ و قيل معناه: أوقعهما فى الهلاك؛ و قيل: خدعهما، و أنشد نفطويه:

إنّ الكريم إذا تشاء خدعتهو ترى اللّئيم مجرّبا لا يخدع

---

(١). «السلوى»: العسل. و «شار العسل»: اجتناه و أخذه من موضعه.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٢٣

و قيل معنى: فَدَلَّاهُما دللهما من الدالة، و هى الجرأة: أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

قوله: فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما أى: لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساترا لها و هو تقلص النور الذى كان عليها. و قد تقدّم فى البقرة. قوله: وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ طفق يفعل كذا: بمعنى شرع يفعل كذا. و حكى الأخفش: طفق يطفق مثل ضرب يضرب، أى: شرعا أو جعلا يخصفان عليهما. قرأ الحسن «يخصفان» بكسر الخاء و تشديد الصاد، و الأصل: يختصفان فأدغم و كسرت الخاء لالتقاء الساكنين. و قرأ ابن بريدة و يعقوب بفتح الخاء. و قرأ الزهرى «يخصفان» من أخصف. و قرأ الجمهور «يخصفان» من خصف. و المعنى: أنهما أخذا يقطعان الورق و يلزقانه بعورتهما ليستراها، من خصف النعل: إذا جعله طبقة فوق طبقة وَ ناداهُما رَبُّهُما قائلا لهما:

أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ التى نهيتكما عن أكلها، و هذا عتاب من اللّه لهما و توبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه وَ أَقُلْ لَكُما معطوف على أَنْهَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ أى مظهر للعداوة. قوله: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قالا؟ و هذا منهما اعتراف بالذنب، و أنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة، ثم قالا: وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و جملة قالَ اهْبِطُوا استئناف كالتى قبلها، و الخطاب لآدم و حواء و ذريتهما، أو لهما و لإبليس، و جملة بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فى محل نصب على الحال وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أى موضع استقرار وَ لكم مَتاعٌ تتمتعون به فى الدنيا و تنتفعون به من المطعم و المشرب و نحوهما إِلى حِينٍ أى: إلى وقت، و هو وقت موتكم، و جملة قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ استئنافية كالتى قبلها، أى: فى الأرض تحيون، و فيها يأتيكم الموت، و منها تخرجون إلى دار الآخرة. و مثله قوله تعالى: مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى «١» و اعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى فى البقرة فارجع إليه.

و قد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن وهب ابن منبه فى قوله: لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما قال: كان على كلّ واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أتاهما إبليس فقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين مثله، يعنى مثل اللّه عزّ و جلّ، فلم يصدّقاه حتى دخل فى جوف الحية فكلمهما. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبدا وَ قاسَمَهُما قال: حلف لهما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن كعب فى قوله: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ قال: مناهما بغرور. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى شيبة عن عكرمة قال: لباس كل دابة منها، و لباس الإنسان الظفر،

فأدركت آدم التوبة عند ظفره. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى و ابن عساكر عن ابن

---

(۱). طه: ۵۵.

عباس قال: كان لباس آدم و حواء كالظفر، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: لما أسكن اللّه آدم الجنة كساه سربالا من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السّربال فبقى فى أطراف أصابعه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم فى الجنة الياقوت، فلما عصى قلص فصار الظفر.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ طَفِقا يَخْصِفانِ قال: يرقعان كهيئة الثوب. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ قال آدم: ربّ إنه حلف لى بك، و لم أكن أعلم أن أحدا من خلقك يحلف بك إلا صادقا. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا الآية قال: هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه. و أخرج عبد بن حميد عن الضّحّاك مثله.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۲۶) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (۲۷)

عبّر سبحانه بالإنزال عن الخلق: أى خلقنا لكم لباسا يوارى سوآتكم التى أظهرها إبليس من أبويكم، و السّوءة: العورة كما سلف، و الكلام فى قدرها و ما يجب ستره منها مبين فى كتب الفروع. قوله: وَ رِيشاً قرأ الحسن و عاصم من رواية المفضل الضبى و أبو عمرو من رواية الحسن بن علىّ الجعفى «و رياشا» و قرأ الباقون «و ريشا» و الرياش جمع ريش: و هو اللباس. قال الفراء: ريش و رياش كما يقال لبس و لباس، و ريش الطائر ما ستره اللّه به. و قيل المراد بالريش هنا: الخصب و رفاهية العيش. قال القرطبى: و الذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. و حكى أبو حاتم عن أبى عبيدة: و هبت له دابة و ريشها، أى: و ما عليها من اللباس. و قيل المراد بالريش هنا: لباس الزينة لذكره بعد قوله: قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً و عطفه عليه. قوله: وَ لِباسُ التَّقْوى قرأ أهل المدينة و ابن عامر و الكسائى بنصب لباس. و قرأ الباقون بالرفع؛ فالنصب: على أنه معطوف على لباس الأوّل، و الرفع: على أنه مبتدأ، و جملة ذلِكَ خَيْرٌ خبره، و المراد بلباس التقوى: لباس الورع و اتقاء معاصى اللّه، و هو الورع نفسه و الخشية من اللّه، فذلك خير لباس و أجمل زينة؛ و قيل: لباس التقوى: الحياء؛ و قيل: العمل الصالح، و قيل: هو لباس الصوف و الخشن من الثياب لما فيه من التواضع للّه؛ و قيل: هو الدرع و المغفر الذى يلبسه من يجاهد فى سبيل اللّه، و الأوّل أولى.

و هو يصدق على كل ما فيه تقوى للّه فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال، و مثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع فى كلام العرب، و منه:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التّقى تقلّب عريانا و إن كان كاسيا

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۲۵

و مثله:

تغطّ بأثواب السّخاء فإنّنی أری کلّ عیب و السّخاء غطاؤه

و الإشارة بقوله: ذلِکَ إلی لباس التقوی: أی هو خیر لباس، و قرأ الأعمش و لباس التّقوی خیر و الإشارة بقوله: ذلِکَ مِنْ آیاتِ اللَّهِ إلی الإنزال المدلول علیه بأنزلنا: أی ذلک الإنزال من آیات اللّه الدالة علی أن له خالقا، ثم کرّر اللّه سبحانه النداء لبنی آدم تحذیرا لهم من الشیطان، فقال: یا بَنِی آدَمَ لا یَفْتِنَنَّکُمُ الشَّیْطانُ أی لا یوقعنکم فی الفتنة، فالنهی و إن کان للشیطان فهو فی الحقیقة لبنی آدم بأن لا یفتتنوا بفتنته و یتأثروا لذلک، و الکاف فی کَما أَخْرَجَ نعت مصدر محذوف، أی: لا یفتننکم فتنة مثل إخراج أبویکم من الجنة، و جملة یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما فی محل نصب علی الحال، و قد تقدّم تفسیره، و اللام فی لِیُرِیَهُما سَوْآتِهِما لام کی، أی: لکی یریهما، و قد تقدّم تفسیره أیضا، قوله: إِنَّهُ یَراکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ مِنْ حَیْثُ لا تَرَوْنَهُمْ هذه الجملة تعلیل لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة فی تحذیرهم منه، لأن من کان بهذه المثابة- یری بنی آدم من حیث لا یرونه- کان عظیم الکید، و کان حقیقا بأن یحترس منه أبلغ احتراس وَ قَبِیلُهُ أعوانه من الشیاطین و جنوده.

و قد استدلّ جماعة من أهل العلم بهذه الآیة علی أن رؤیة الشیاطین غیر ممکنة، و لیس فی الآیة ما یدل علی ذلک، و غایة ما فیها أنه یرانا من حیث لا نراه، و لیس فیها أنا لا نراه أبدا، فإن انتفاء الرؤیة منا له فی وقت رؤیته لنا لا یستلزم انتفاءها مطلقا، ثم أخبر اللّه سبحانه بأنه جعل الشیاطین أولیاء للذین لا یؤمنون من عباده و هم الکفار.

و قد أخرج عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: یا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمْ لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ قال: کان ناس من العرب یطوفون بالبیت عراة، و فی قوله:

وَ رِیشاً قال: المال. و أخرج ابن جریر عن عروة بن الزبیر فی قوله: لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ قال:

الثیاب وَ رِیشاً قال: المال وَ لِباسُ التَّقْوی قال: خشیة اللّه. و أخرج ابن أبی حاتم عن زید بن علیّ فی قوله: لِباساً یُوارِی سَوْآتِکُمْ قال: لباس العامة وَ رِیشاً قال: لباس الزینة وَ لِباسُ التَّقْوی قال: الإسلام. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ من طرق عن ابن عباس فی قوله: وَ رِیشاً قال: المال و اللباس و العیش و النعیم، و فی قوله: وَ لِباسُ التَّقْوی قال: الإیمان و العمل الصالح ذلِکَ خَیْرٌ قال: الإیمان و العمل خیر من الریش و اللباس. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: و ریاشا یقول: المال. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله:

یَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما قال: التقوی، و فی قوله:

إِنَّهُ یَراکُمْ هُوَ وَ قَبِیلُهُ قال: الجنّ و الشّیاطین.

فتح القدیر، ج ۲، ص: ۲۲۶

[سورة الأعراف (۷): الآیات ۲۸ الی ۳۰]

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَیْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۲۸) قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ کَما بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِیقاً هَدی وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّیاطِینَ أَوْلِیاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰)

الفاحشة: ما تبالغ فی فحشه و قبحه من الذنوب. قال أکثر المفسرین: هی طواف المشرکین بالبیت عراة.

و قیل: هی الشّرک، و الظاهر أنها تصدق علی ما هو أعم من الأمرین جمیعا، و المعنی: أنهم إذا فعلوا ذنبا قبیحا متبالغا فی القبح

اعتذروا عن ذلک بعذرين: الأوّل: أنهم فعلوا ذلک اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلک الفاحشة؛ و الثانى: أنهم مأمورون بذلک من جهة اللّه سبحانه. و كلا العذرين فى غاية البطلان و الفساد، لأنّ وجود آبائهم على القبح لا يسوّغ لهم فعله، و الأمر من اللّه سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتباع الأنبياء و العمل بالكتب المنزلة و نهاهم عن مخالفتهما، و مما نهاهم عنه: فعل الفواحش، و لهذا ردّ سبحانه عليهم بأن أمر نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ فكيف تدّعون ذلک عليه سبحانه، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ و هو من تمام ما أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم، و فيه من التّقريع و التّوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحا فى كل شىء فكيف إذا كان فى التقوّل على اللّه؟ و إن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر و أبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلک من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «١» و القائلون وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها و المقلد لو لا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلک المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر اللّه به، و أنه الحق، لم يبق عليه، و هذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودىّ على اليهودية و النّصرانى على النصرانية و المبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية و النصرانية أو البدعة و أحسنوا الظنّ بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر اللّه به و لم ينظروا لأنفسهم، و لا طلبوا الحق كما يجب و بحثوا عن دين اللّه كما ينبغى، و هذا هو التقليد البحت و القصور الخالص، فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لک النذير المبالغ فى التّحذير من أن تقول هذه المقالة و تستمر على الضلالة، فقد اختلط الشرّ بالخير و الصحيح بالسقيم و فاسد الرأى بصحيح الرواية. و لم يبعث اللّه إلى هذه الأمة إلا نبيا واحدا أمرهم باتباعه و نهى عن مخالفته فقال: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «٢» و لو كان محض رأى أئمة المذاهب و أتباعهم حجّة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعدّدون بعدد أهل الرأى المكلّفين للناس بما لم يكلّفهم اللّه به. و إن من أعجب الغفلة و أعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب اللّه، و وجود سنّة رسوله، و وجود من يأخذونهما عنه، و وجود آلة الفهم لديهم و ملكة العقل عندهم. قوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ القسط: العدل و فيه أن اللّه سبحانه يأمر بالعدل لا- كما زعموه من أن اللّه أمرهم بالفحشاء؛ و قيل: القسط

---

(١). الزخرف: ٢٣.

(٢). الحشر: ٧.

هنا هو لا- إله إلا اللّه، و فى الكلام حذف، أى: قل أمر ربى بالقسط فأطيعوه. قوله: وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ معطوف على المحذوف المقدّر: أى توجهوا إليه فى صلاتكم إلى القبلة فى أى مسجد كنتم، أو فى كل وقت سجود، أو فى كل مكان سجود، على أن المراد بالسجود الصلاة وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء، أو العبادة له؛ و قيل: وحدوه و لا تشركوا به.

قوله: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ الكاف: نعت مصدر محذوف. و قال الزجاج: هو متعلق بما قبله. و المعنى:

كما أنشأكم فى ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكرى البعث، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته؛ و قيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلک ليس معكم شىء، فيكون مثل قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ و قيل: كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب فَرِيقاً هَدى منتصب بفعل يفسره ما بعده؛ و قيل:

منتصب على الحال من المضمر فى تعودون، أى:

تعودون فريقين: سعداء و أشقياء و يقويه قراءة أبىّ «فريقين فريقا هدى»، و الفريق الذى هداه اللّه هم المؤمنون باللّه المتبعون لأنبيائه، و الفريق الذى حقت عليه الضلالة: هم الكفار. قوله: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعليل لقوله: وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ أى: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين فى معصية اللّه، و مع هذا فإنهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ و لم يعترفوا على أنفسهم بالضّلالة، و هذا أشدّ فى تمرّدهم و عنادهم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، فنهوا عن ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى مثله.

و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب نحوه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال: و اللّه ما أكرم اللّه عبدا قط على معصيته و لا رضيها له و لا أمر بها، و لكن رضى لكم بطاعته و نهاكم عن معصيته. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ قال: بالعدل وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال: إلى الكعبة حيث صلّيتم فى كنيسة أو غيرها كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ قال: شقّى و سعيد. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ الآية قال: إن اللّه بدأ خلق بنى آدم مؤمنا و كافرا كما قال: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ «1» ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا و كافرا. و أخرج ابن جرير، عن جابر فى الآية قال: يبعثون على ما كانوا عليه: المؤمن على إيمانه و المنافق على نفاقه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية فقال: قاتلهم اللّه أليس قد قال اللّه تعالى: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ- فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية: يقول: كما خلقناكم أوّل مرّة كذلك تعودون.

---

(1). التغابن: 2.

فتح القدير، ج‌2، ص: 228

[سورة الأعراف (7): الآيات 31 الى 33]

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33)

هذا خطاب لجميع بنى آدم و إن كان واردا على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، و الزينة: ما يتزين به الناس من الملبوس، أمروا بالتّزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة و الطواف. و قد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة فى الصلاة، و إليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب فى كل حال من الأحوال و إن كان الرجل خاليا كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. و الكلام على العورة و ما يجب ستره منها مفصل فى كتب الفروع. قوله: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا أمر اللّه سبحانه عباده بالأكل و الشرب، و نهاهم عن الإسراف فلا زهد فى ترك مطعم و لا مشرب، و تاركه بالمرّة قاتل لنفسه و هو من أهل النار، كما صح فى الأحاديث الصحيحة، و المقلل منه على وجه يضعف به بدنه و يعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على نفسه، و على من يعول، مخالفا لما أمر اللّه به و أرشد إليه، و المسرف فى إنفاقه على وجه لا يفعله إلا

أهل السفه و التبذير، مخالف لما شرعه اللّه لعباده واقع فى النهى القرآنى؛ و هكذا من حرّم حلالا أو حلل حراما، فإنه يدخل فى المسرفين و يخرج عن المقتصدين. و من الإسراف الأكل لا- لحاجة، و فى وقت شبع. قوله: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ الزينة: ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التى لم يرد نهى عن التزين بها و الجواهر و نحوها؛ و قيل: الملبوس خاصة، و لا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه اللّه، و لا حرج على من تزيّن بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة و لم يمنع منها مانع شرعى، و من زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا. و قد قدّمنا فى هذا ما يكفى، و هكذا الطيبات من المطاعم و المشارب و نحوهما مما يأكله الناس فإنه لا زهد فى ترك الطيب منها، و لهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أو حرّمه على غيره. و ما أحسن ما قال ابن جرير الطبرى:

و لقد أخطأ من آثر لباس الشعر و الصوف على لباس القطن و الكتان مع وجود السبيل إليه من حله، و من أكل البقول و العدس و اختاره على خبز البرّ، و من ترك أكل اللحم خوفا من عارض الشهوة، و قد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطوّلا- و الطيبات: المستلذات من الطعام؛ و قيل: هو اسم عام لما طاب كسبا و مطعما. قوله:

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أى: أنها لهم بالأصالة و إن شاركهم الكفار فيها ما داموا فى الحياة خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: مختصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار. و قرأ نافع «خالصة» بالرفع، و هى قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر. و قرأ الباقون بالنصب على الحال. قال أبو على الفارسى: و لا يجوز الوقف على الدنيا، لأن ما بعدها متعلق بقوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا حال منه بتقدير: قل: هى ثابتة

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۲۹

للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة. قوله: كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى: مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل و التحريم. قوله: قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ جمع فاحشة. و قد تقدّم تفسيرها ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ أى ما أعلن منها و ما أسرّ، و قيل: هى خاصة بفواحش الزنا و لا وجه لذلك، و الإثم يتناول كلّ معصية يتسبب عنها الإثم؛ و قيل هو الخمر خاصة، و منه قول الشاعر:

شربت الإثم حتّى ضلّ عقلى كذلك الإثم تذهب بالعقول

و مثله قول الآخر:

نشرب الإثم بالصّواع جهارا «۱» ....

و قد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصا بالخمر. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، و حقيقة أنه جميع المعاصى، كما قال الشاعر:

إنّى وجدت الأمر أرشده تقوى الإله و شرّه الإثم

قال الفراء: الإثم ما دون الحق و الاستطالة على الناس. انتهى. و ليس فى إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به، فهو أحد المعاصى التى يصدق عليها. قال فى الصحاح: و قد يسمّى الخمر إثما، و أنشد:

شربت الإثم .. البيت و كذا أنشده الهروى قبله فى غريبه. قوله: وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِ أى: الظلم المجاوز للحد، و أفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ «۲» وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أى: و أن تجعلوا اللّه شريكا لم ينزل عليكم به حجّة. و المراد التهكّم بالمشركين، لأنّ اللّه لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا له وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ بحقيقته و أن اللّه قاله، و هذا مثل ما كانوا ينسبون إلى اللّه سبحانه من التحليلات و التحريمات التى

لم يأذن بها.

و قد أخرج ابن أبی شيبة و مسلم و النسائی و غيرهم عن ابن عباس: أنّ النساء كنّ يطفن عراة؛ إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة و تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّهو ما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عنه فی الآية قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم اللّه بالزينة. و الزينة: اللباس و ما يواری السّوءة و ما سوى ذلک من جيد البزّ و المتاع. و أخرج ابن عدی و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبی هريرة قال: قال رسول

---

(١). و عجزه: و ترى المسک بيننا مستعارا.

(٢). النحل: ٩٠.

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خذوا زينة الصلاة، قالوا: و ما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلّوا فيها». و أخرج العقيلی و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم فی قول اللّه خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ قال: «صلّوا فی نعالكم». و الأحاديث فی مشروعية الصلاة فی النعل كثيرة جدّا، و أما كون ذلک هو تفسير الآية كما روی فی هذين الحديثين فلا أدری كيف إسنادهما. و قد ورد النهی عن أن يصلی الرجل فی الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شیء، و هو فی الصحيحين و غيرهما من حديث أبی هريرة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البيهقی فی الشعب عن ابن عباس قال: أحلّ اللّه الأكل و الشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه فی قوله: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قال: فی الطعام و الشراب. و أخرج عبد بن حميد و النسائی و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقی فی الشعب، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «كلوا و اشربوا و تصدّقوا و البسوا فی غير مخيلة و لا سرف، فإنّ اللّه سبحانه يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبی حاتم و الطبرانی و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت و هم عراة يصفرون و يصفقون، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ فأمروا بالثياب أن يلبسوها قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ قال: ينتفعون بها فی الدّنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة. و أخرج عبد ابن حميد و أبو الشيخ عن الضحاک قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَياةِ الدُّنْيا قال: المشركون يشاركون المؤمنين فی زهرة الدّنيا و هی خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قال: الودک و اللحم و السمن. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها اللّه من الثياب و غيرها، و هو قول اللّه قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا «١» و هو هذا، فأنزل اللّه قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَياةِ الدُّنْيا يعنی: شارک المسلمون الكفار فی الطيبات فی الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها و لبسوا من جياد ثيابها و نكحوا من صالحی نسائها، ثم يخلص اللّه الطيبات فی الآخرة للذين آمنوا و ليس للمشركين فيها شیء. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما ظهر منها: العرية، و ما بطن: الزنا، و كانوا يطوفون بالبيت عراة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد فی الآية قال: ما ظهر منها:

طواف الجاهلية عراة، و ما بطن: الزنا. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن السدّی فی قوله:

وَ الْإِثْمَ قال: المعصية وَ الْبَغْيَ قال: أن يبغی على الناس بغير حقّ.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٤ الى ٣٩]

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (٣٧) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨)

وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

---

(١). يونس: ٥٩.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٣١

قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أي: وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من اللّه أو يميتهم فيه، و يجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعا، و الضمير في أَجَلُهُمْ لكلّ أمة، أي: إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدّره عليهم واقعا في ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة و لا يستقدمون عنه ساعة.

قال أبو السعود ما معناه: إن قوله: وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ عطف على يَسْتَأْخِرُونَ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا؛ و قيل: المراد بالمجيء: الدنوّ بحيث يمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة منه و ليس بذاك. و قرأ ابن سيرين «آجالهم» بالجمع، و خصّ الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات. و قد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله و إن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك، و البحث في ذلك طويل جدّا، و مثل هذه الآية قوله تعالى: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ* «١». قوله: يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ الآية، إن: هي الشرطية و ما: زائدة للتوكيد، و لهذا لزمت الفعل النون المؤكدة، و القصص قد تقدّم معناه؛ و المعنى: إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي و يبينونها لكم فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ أي: اتقى معاصي اللّه و أصلح حال نفسه باتباع الرسل، و إجابتهم فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و هذه الجملة الشرطية هي الجواب للشرط الأوّل؛ و قيل: جوابه ما دلّ عليه الكلام، أي: إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فأطيعوهم. و الأوّل أولى، و به قال الزجاج وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا التي يقصها عليهم رسلنا وَ اسْتَكْبَرُوا عن إجابتها و العمل بما فيها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ لا يخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات و الرسل فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أي: لا أحد أظلم منه. و قد تقدّم تحقيقه، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المكذبين المستكبرين يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ أي: مما كتب اللّه لهم من خير و شرّ؛ و قيل: ينالهم من العذاب بقدر كفرهم؛ و قيل: الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيها؛ و قيل: هو اللوح المحفوظ. قوله: حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا أي: إلى غاية هي هذه، و جملة يَتَوَفَّوْنَهُمْ في محل نصب على الحال. و المراد بالرسل هنا: ملك الموت و أعوانه؛ و قيل: حتى هنا: هي التي للابتداء، و لكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها، و الاستفهام في قوله: أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ للتقريع و التوبيخ، أي: أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون اللّه و تعبدونها، و جملة قالُوا ضَلُّوا عَنَّا استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جوابا عنه، أي: ذهبوا عنا و غابوا فلا ندري أين هم؟

(۱). الحجر: ۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۳۲

وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ أى أقرّوا بالكفر على أنفسهم. قوله: قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ القائل: هو اللّه عزّ و جلّ، و فِي بمعنى مع، أى: مع أمم؛ و قيل: هى على بابها، و المعنى: ادخلوا فى جملتهم؛ و قيل: هو قول مالك خازن النار، و المراد بالأمم التى قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس: هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ من الأمم الماضية لَعَنَتْ أُخْتَها أى الأمة الأخرى التى سبقتها إلى النار، و جعلت أختا لها باعتبار الدين، أو الضلالة، أو الكون فى النار حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها أى: تداركوا، و التدارك: التلاحق و التتابع و الاجتماع فى النار. و قرأ الأعمش «تداركوا» على الأصل من دون إدغام. و قرأ ابن مسعود «حتى إذا أدركوا» أى: أدرك بعضهم بعضا. و روى عن أبى عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل، فكأنه سكت على إذا للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها، و هو مثل قول الشاعر:

يا نفس صبرا كلّ حيّ لاقو كلّ اثنين إلى افتراق

قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ أى: أخراهم دخولا لأولاهم دخولا، و قيل: أخراهم: أى: سفلتهم و أتباعهم لِأُولاهُمْ لرؤسائهم و كبارهم، و هذا أولى كما يدل عليه رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فإن المضلين هم الرؤساء. و يجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم و اقتدوا بدينهم من بعدهم، فيصح الوجه الأوّل، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم، قوله: فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ الضعف: الزائد على مثله مرة أو مرات، و مثله قوله تعالى: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً «۱» و قيل الضعف هنا الأفاعى و الحيات، و جملة قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ استئنافية جوابا لسؤال مقدّر؛ و المعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب، أى: الطائفة الأولى، و الطائفة الأخرى وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ بما لكل نوع من العذاب وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ أى: قال السابقون للاحقين، أو المتبوعون للتابعين فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بل نحن سواء فى الكفر باللّه و استحقاق عذابه فَذُوقُوا عذاب النار كما ذقناه بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ من معاصى اللّه و الكفر به.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب و ابن النجار عن أبى الدرداء قال:

تذاكرنا زيادة العمر عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلنا: من وصل رحمه أنسئ فى أجله فقال: إنه ليس بزائد فى عمره، قال اللّه تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و لكن الرجل يكون له الذرية الصالحة، فيدعون اللّه من بعده فيبلغه ذلك، فذلك الذى ينسأ فى أجله. و فى لفظ: فيلحقه دعاؤهم فى قبره، فذلك زيادة العمر. و هذا الحديث ينبغى أن يكشف عن إسناده ففيه نكارة، و قد جاءت الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين و غيرهما بخلافه. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم يقولون: اللهم أطل عمره، و اللّه يقول: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر من طريق

(۱). الأحزاب: ۶۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۳۳

الزهرى عن ابن المسيب قال: لما طعن عمر قال كعب: لو دعا اللّه لأخر فى أجله، فقيل له: أليس قد قال اللّه: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ فقال كعب: و قد قال اللّه: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ «۱». و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ قال: ما قدّر لهم من

خير و شرّ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: من الأعمال من عمل خيرا جزى به و من عمل شرّا جزى به. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عنه أيضا قال: نصيبهم من الشّقاوة و السّعادة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: ما سبق من الكتاب. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى الآية قال: رزقه و أجله و عمله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى صالح فى الآية قال: من العذاب. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدىّ فى قوله: قَدْ خَلَتْ قال: قد مضت كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها قال: كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك، يلعن المشركون المشركين، و اليهود اليهود، و النصارى النصارى، و الصابئون الصابئين، و المجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ الذين كانوا فى آخر الزمان لِأُولاهُمْ الذين شرعوا لهم ذلك الدين رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ الأولى و الآخرة وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ و قد ضللتم كما ضللنا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: عَذاباً ضِعْفاً قال: مضاعفا قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ قال: مضاعف، و فى قوله: فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ قال: تخفيف من العذاب.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

قوله لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ قرأ ابن عباس و حمزة و الكسائى بفتح التحتية لكون تأنيث الجمع غير حقيقى فجاز تذكيره. و قرأ الباقون بالفوقية على التأنيث. و قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائى تفتح بالتخفيف. و قرأ الباقون بالتشديد، و المعنى: أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا، و قد دلّ على هذا المعنى و أنه المراد من الآية ما جاء فى الأحاديث الصحيحة: أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء

---

(١). فاطر: ١١.

الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء؛ و قيل: لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا، قاله مجاهد و النخعى؛ و قيل لأعمالهم، أى: لا تقبل، بل تردّ عليهم فيضرب بها فى وجوههم؛ و قيل المعنى: أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها، لأن الجنة فى السماء، فيكون على هذا القول العطف لجملة وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ من عطف التفسير، و لا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح و الدعاء و الأعمال، و لا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية. قوله وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ أى أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، و لهذا علقه بالمستحيل، فقال حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ و هو لا يلج أبدا،

و خص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل فى كبر الذات، و خص سمّ الخياط، و هو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية فى الضيق، و الجمل الذكر من الإبل و الجمع جمال و أجمال و جمالات، و إنما يسمى جملا إذا أربع. و قرأ ابن عباس الْجَمَّلُ بضم الجيم و فتح الميم مشدّدة، و هو حبل السفينة الذى يقال له القلس و هو حبال مجموعة قاله ثعلب؛ و قيل الحبل الغليظ من القنب، و قيل الحبل الذى يصعد به فى النخل. و قرأ سعيد بن جبير الْجُمَلُ بضم الجيم و تخفيف الميم: و هو القلس أيضا. و قرأ أبو السمال الْجَمْلُ بضم الجيم و سكون الميم. و قرئ أيضا بضمهما. و قرأ عبد اللّه بن مسعود «حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط» و قرئ فِي سَمِ بالحركات الثلاث، و السم: كل ثقب لطيف، و منه ثقب الإبرة، و الخياط ما يخاط به، يقال خياط و مخيط وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين، أى: جنس من أجرم و قد تقدّم تحقيقه. و المهاد: الفراش، و الغواش: جمع غاشية، أى:
نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم. قوله لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أى: لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم و يقدرون عليه، و لا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم، و هذه الجملة معترضة بين المبتدأ و الخبر، و مثله لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها «١» و قرأ الأعمش تكلف بالفوقية و رفع نفس، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى الموصول، و خبره أَصْحابُ الْجَنَّةِ و الجملة خبر الموصول، و جملة و هُمْ فِيها خالِدُونَ فى محل نصب على الحال. قوله وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ هذا من جملة ما ينعم اللّه به على أهل الجنة، أن ينزع اللّه ما فى قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضا حتى تصفو قلوبهم و يودّ بعضهم بعضا، فإن الغلّ لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر، و الغلّ: الحقد الكامن فى الصدور؛ و قيل: نزع الغلّ فى الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضا فى تفاضل المنازل وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا أى: لهذا الجزاء العظيم، و هو الخلود فى الجنة و نزع الغلّ من صدورهم، و الهداية لهذا هى الهداية لسببه من الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو، و قرأ الباقون بإثباتها، و ما كنا نطيق أن نهتدى لهذا الأمر لولا هداية اللّه لنا، و الجملة مستأنفة أو حالية، و جواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله، أى: لولا هداية اللّه لنا ما كنا لنهتدى. قوله لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ

---

(١). الطلاق: ٧.

اللام لام القسم، قالوا هذا: لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم، من تصديق الرسل و ظهور صدق ما أخبروهم به فى الدنيا من أن جزاء الإيمان و العمل الصالح هو هذا الذى صاروا فيه. قوله: وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا و عملوا الصالحات، فقيل لهم تلكم الجنة أورثتموها: أى: ورثتم منازلها بعملكم.

قال فى الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة انتهى.

أقول: يا مسكين! هذا قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما صح عنه «سدّدوا و قاربوا و اعلموا أنه لن يدخل أحد الجنّة بعمله، قالوا: و لا أنت يا رسول اللّه؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمّدنى اللّه برحمته»، و التصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، و لو لا التفضّل من اللّه سبحانه و تعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلا، فلو لم يكن التفضّل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة، و فى التنزيل ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ «١» و فيه فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ «٢».

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ يعنى لا يصعد إلى اللّه من عملهم شىء.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال:
لا تفتح لهم لعمل و لا لدعاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية قال: لا تفتح لأرواحهم، و هى تفتح لأرواح المؤمنين. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه أيضا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ قال: ذو القوائم فِي سَمِّ الْخِياطِ قال: فى خرت «٣» الإبرة. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى فى الكبير و أبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ قال: زوج الناقة. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم و تشديد الميم و قال:
هو الحبل الغليظ أو هو من حبال السفن. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر أنه سئل عن سم الخياط فقال:
الجمل فى ثقب الإبرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: المهاد: الفراش، و الغواش: اللحف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال: فينا- و اللّه أهل بدر- نزلت هذه الآية وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ و أخرج النسائى و ابن جرير و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا اللّه فيكون حسرة عليهم، و كلّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لو لا أن هدانا اللّه فهذا شكرهم». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و الدارمى و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد و أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:
وَ نُودُوا: أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: «نودوا: أن صحّوا فلا تسقموا، و انعموا

---

(١). النساء: ٧٠.

(٢). النساء: ١٧٥.

(٣). قال فى القاموس: الخرت: الثقب فى الأذن و غيرها.

فلا تبأسوا، و شبّوا فلا تهرموا، و اخلدوا فلا تموتوا».

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٤ الى ٤٩]

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (٤٥) وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)
أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)
مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم و إيقاع الحسرة فى قلوبهم، و أَنْ قَدْ وَجَدْنا هو نفس النداء، أى: إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا اللّه به من النعيم فهل وصلتم إلى ما وعدكم اللّه به من العذاب

الأليم، و الاستفهام هو للتقريع و التوبيخ، و حذف مفعول وعد الثانى لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث و الحساب و العقاب، و قيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد قالُوا نَعَمْ أى: وجدنا ما وعدنا ربّنا حقا. و قرأ الأعمش و الكسائى نعم بكسر العين. قال مكى: من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرّق بين نعم التى هى جواب و بين نعم التى هى اسم للبقر و الغنم و الإبل، و المؤذن: المنادى، أى: فنادى مناد بينهم، أى:

بين الفريقين؛ قيل: هو من الملائكة أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى و البزى بتشديد أن و هو الأصل. و قرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة. و قرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول، و جملة الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صفة للظالمين، و يجوز الرفع و النصب على إضمارهم، أو أعنى. و الصدّ: المنع، أى: يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يطلبون اعوجاجها، أى: ينفرون الناس عنها و يقدحون فى استقامتها بقولهم: إنها غير حق و إن الحق ما هم فيه، و العوج بالكسر فى المعانى و الأعيان ما لم يكن منتصبا، و بالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح، و جملة وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ فى محل نصب على الحال. قوله وَ بَيْنَهُما حِجابٌ أى: بين الفريقين أو بين الجنة و النار. و الحجاب: هو السور المذكور فى قوله تعالى فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ «١» قوله وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ الأعراف: جمع عرف، و هى شرفات السور المضروب بينهم، و منه عرف الفرس و عرف الديك و الأعراف فى اللغة: المكان المرتفع، و هذا الكلام خارج مخرج المدح كما فى قوله رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ «٢».

و قد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف من هم؟ فقيل: هم الشهداء، ذكره القشيرى و شرحبيل بن سعد؛ و قيل: هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم و تفرّغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره مجاهد؛ و قيل:

---

(١). الحديد: ١٣.

(٢). النور: ٣٧.

هم قوم أنبياء، ذكره الزجّاج؛ و قيل: هم قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم، قاله ابن مسعود و حذيفة بن اليمان و ابن عباس و الشعبى و الضحّاك و سعيد بن جبير؛ و قيل: هم العباس و حمزة و على و جعفر الطيار يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، و مبغضيهم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم و هم فى كل أمة، و اختار هذا القول النحاس؛ و قيل: هم أولاد الزنا، روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: هم ملائكة موكولون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة و النار ذكره أبو مجلز، و جملة يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ صفة الرجال. و السيما: العلامة؛ أى: يعرفون كلا من أهل الجنة و النار بعلاماتهم كبياض الوجوه و سوادها، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، أو علامة يجعلها اللّه لكل فرق فى ذلك الموقف، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أى: نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ أى: نادوهم بقولهم: سلام عليكم تحية و إكراما و تبشيرا، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب. قوله لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ أى:

لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف و الحال أنهم يطمعون فى دخولها؛ و قيل: معنى يَطْمَعُونَ يعلمون أنهم يدخلونها و ذلك معروف عند أهل اللغة، أى: طمع بمعنى علم، ذكره النحاس. و هذا القول أعنى كونهم أهل الأعراف مروىّ عن جماعة منهم ابن عباس و ابن مسعود. و قال أبو مجلز: هم أهل الجنة، أى: أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها و الحال أنهم يطمعون فى دخولها. قوله وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ أى: إذا صرفت أبصار أهل الأعراف

تلقاء أصحاب النار، أى:

جهة أصحاب، و أصل معنى تِلْقاءَ جهة اللقاء، و هى: جهة المقابلة و لم يأت مصدر على تفعال بكسر أوّله غير مصدرين، أحدهما: هذا، و الآخر: تبيان، و ما عداهما بالفتح قالُوا أى قال أهل الأعراف رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ سألوا اللّه أن لا يجعلهم منهم وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا من الكفار يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ أى: بعلاماتهم قالُوا بدل من نادى ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ الذى كنتم تجمعون للصدّ عن سبيل اللّه، و الاستفهام: للتقريع و التوبيخ، قوله وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

ما مصدرية: أى و ما أغنى عنكم استكباركم أ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ هذا من كلام أصحاب الأعراف، أى: قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذى صاروا إلى الجنة هذه المقالة. و قد كان الكفار يقسمون فى الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم، و هذا تبكيت للكفار و تحسير لهم.

قوله ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف، أى: قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة، فقد انتفى عنكم الخوف و الحزن بعد الدخول. و قرأ طلحة بن مصرف «أدخلوا» بكسر الخاء.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا قال:

من النعيم و الكرامة فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قال: من الخزى و الهوان و العذاب. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية. و أخرج

ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ بَيْنَهُما حِجابٌ قال: هو السور و هو الأعراف، و إنما سمّى الأعراف لأنّ أصحابه يعرفون الناس. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن حذيفة قال:

الأعراف: سور بين الجنة و النار. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى البعث و النشور عن ابن عباس قال: الأعراف: هو الشىء المشرف. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عنه قال: الأعراف: سور له عرف كعرف الديك. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: الأعراف: جبال بين الجنة و النار فهم على أعرافها، يقول: على ذراها. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها تلّ بين الجنة و النار حبس عليه ناس من أهل الذنوب. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: زعموا أنه الصراط.

و أخرج ابن جرير عن حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم اللّه بها من النار، و هم آخر من يدخل الجنة، قد عرفوا أهل الجنة و أهل النار. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود: أنهم من استوت حسناتهم و سيئاتهم يقفون على الصراط. و أخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه. و كذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق و سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن أبى زرعة بن عمرو ابن جرير قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أصحاب الأعراف؟ فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار و لم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائى، فارعوا من الجنة حيث شئتم». قال ابن كثير: و هذا مرسل حسن. و أخرج البيهقى فى البعث عن حذيفة أراه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، و يؤمر بأهل النار إلى النار، ثم يقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها و حالت بينكم و بين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتى و رحمتى».

و أخرج سعيد بن منصور و ابن منيع و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى البعث، عن عبد الرحمن المزنى قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أصحاب الأعراف؟ فقال:

«هم قوم قتلوا فى سبيل اللّه فى معصية آبائهم، فمنعهم من النار قتلهم فى سبيل اللّه، و منعهم من الجنة معصيتهم آباءهم». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه و البيهقى فى البعث عن أبى هريرة مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد اللّه بن مالك الهلالى عن أبيه مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن رجل من مزينة مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار أنه سئل عن قوله لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ قال: سلمت عليهم الملائكة و هم لم يدخلوها و هم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدّى قال:

أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، أهل النار بسواد وجوههم، و أهل الجنة ببياض وجوههم،

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۳۹

فإذا مرّوا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا سلام عليكم، و إذا مرّوا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا قال: فى النار. يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ قال اللّه لأهل التكبر: أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ يعنى أصحاب الأعراف ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۰ الى ۵۴]

وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۵۱) وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۵۳) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۵۴)

قوله أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ الإفاضة: التوسعة؛ يقال: أفاض عليه نعمه، طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء أو بشيء مما رزقهم اللّه من غيره من الأشربة أو الأطعمة، فأجابوا بقولهم: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما أى: الماء و ما رزقهم اللّه من غيره عَلَى الْكافِرِينَ فلا نواسيكم بشيء مما حرّمه اللّه عليكم؛ و قيل:

إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة، و جملة الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً فى محل جر صفة الكافرين. و قد تقدّم تفسير اللهو و اللعب و الغرور. قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ أى نتركهم فى النار كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا الكاف: نعت مصدر محذوف، و ما: مصدرية، أى: نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا. قوله: وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ معطوف على ما نسوا، أى: كما نسوا، و كما كانوا بآياتنا يجحدون، أى: ينكرونها، و اللام فى وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ جواب القسم. و المراد بالكتاب:

الجنس، إن كان الضمير للكفار جميعا، و إن كان للمعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فالمراد بالكتاب القرآن، و التفصيل التبيين، و عَلى عِلْمٍ فى محل نصب على الحال، أى: عالمين حال كونه هُدىً للمؤمنين وَ رَحْمَةً لهم. قال الكسائى و الفراء: و يجوز هُدىً وَ رَحْمَةً لهم. قال الكسائى و الفراء: و يجوز هُدىً وَ رَحْمَةً بالخفض على النعت لكتاب. قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ

بـالهمز من آل، و أهـل المدينـة يخفون الهمزة. و النظر: الانتظار، أى: هل ينتظرون إلا ما وعـدوا به فى الكتاب من العقاب الـذى يؤول الأمر إليه؛ و قيل تأويله: جزاؤه؛ و قيل عاقبته. و المعنى متقارب. و يوم: ظرف ليقول، أى: يوم

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۰

يـأتى تـأويله، و هو يوم القيامـة يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ أى: تركوه من قبـل أن يـأتى تـأويله قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ الـذى أرسـلهم اللّه به إلينا فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ استفهام منهم، و معناه التمنى فَيَشْفَعُوا لَنا منصوب لكونه جوابا للاستفهام. قوله أَوْ نُرَدُّ قال الفراء: المعنى أو هل نردّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ و قال الزجاج: نردّ: عطف على المعنى، أى: هل يشفع لنا أحد أو نردّ.

و قرأ ابن أبى إسحاق أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له: لا تبك عينك، إنّمانحاول ملكا أو نموت فنعذرا

و قرأ الحسن برفعهما، و معنى الآيـة: هل لنا شـفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العـذاب، أو هل نردّ إلى الدنيا فنعمل صالحا غير ما كنا نعمل من المعاصـى قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ أى: لن ينتفعوا بها فكانت أنفسـهم بلاء عليهم و محنة، فكأنهم خسـروها كما يخسـر التـاجر رأس مـاله؛ و قيـل: خسـروا النعيم و حظ الأنفس وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: افتراؤهم أو الـذى كانوا يفترونه. و المعنى: أنه بطل كـذبهم الـذى كانوا يقولونه فى الـدنيا أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شـريكا للّه، فلم ينفعهم و لا حضـر معهم. قوله إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام هـذا نوع من بديع صـنع اللّه و جليل قدرته و تفرّده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده و عبادته. و أصل ستة سدسة أبدلت التاء من أحد السينين و أدغم فيها الدال، و الدليل على هذا: أنك تقول فى التصـغير: سديسـة، و فى الجمع: أسـداس، و تقول: جاء فلان سادسا. و اليوم: من طلوع الشـمس إلى غروبها، قيل: هـذه الأيام من أيام الـدنيا؛ و قيل: من أيام الآخرة، و هـذه الأيام الست أولها: الأحـد، و آخرها: الجمعة، و هو سـبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة، يقول لها كونى فتكون، و لكنه أراد أن يعلم عباده الرفق و التأنى فى الأمور، أو خلقها فى سـتة أيام لكون شىء عنـده أجلا. و فى آيـة أخرى وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ «۱». قوله ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولا، و أحقّها و أولاها بالصواب:

مذهب السّلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه، و الاستواء فى لغة العرب: هو العلو و الاسـتقرار. قال الجوهرى: اسـتوى على ظهر دابته، أى: اسـتقرّ، و استوى إلى السماء، أى: صعد، و استوى، أى: استولى و ظهر، و منه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراقمن غير سيف و دم مهراق

و اسـتوى الرجل، أى: انتهى شـبابه، و استوى، أى: اتّسق و اعتدل. و حكى عن أبى عبيدة أن معنى (استوى) هنا: علا، و مثله قول الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرةو قد حلّق النّجم اليمانىّ فاستوى

أى علا و ارتفع. و العرش: قال الجوهرى: هو سرير الملك. و يطلق العرش على معان أخر منها عرش

(۱). ق: ۳۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۱

البيت: سـقفه، و عرش البئر: طيها بالخشب، و عرش السـماك: أربعة كواكب صـغار، و يطلق على الملك و السلطان و العزّ و منه قول زهير:

تداركتما عبسا و قد ثلّ عرشهاو ذبيان إذ زلّت بأقدامها النّعل

و قول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهمبعتيبة بن الحرث بن شهاب

و قول الآخر:

رأوا عرشى تثلّم جانباهفلمّا أن تثلّم أفردونى

و قد ثبت فى الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن و إحاطته بالسموات و الأرض و ما بينهما و ما عليهما، و هو المراد هنا. قوله يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ أى: يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه. و قرأ عاصم و حمزة و الكسائى يغشى بالتشديد، و قرأ الباقون بالتخفيف و هما لغتان، يقال: أغشى يغشى، و غشى يغشى، و التغشية فى الأصل: إلباس الشىء الشىء، و لم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ «١». و قرأ حميد بن قيس: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ على إسناد الفعل إلى الليل، و محل هذه الجملة النصب على الحال، و التقدير: استوى على العرش مغشيا الليل النهار، و هكذا قوله يَطْلُبُهُ حَثِيثاً حال من الليل، أى: حال كون الليل طالبا للنهار طلبا حثيثا لا يفتر عنه بحال، و حثيثا صفة مصدر محذوف، أى: يطلبه طلبا حثيثا؛ أو حال من فاعل يطلب. و الحث:

الاستعجال و السرعة، يقال: و لى حثيثا، أى: مسرعا. قوله وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ قال الأخفش: معطوف على السموات، و قرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء و الخبر. و المعنى على الأوّل: و خلق الشمس و القمر و النجوم حال كونها مسخرات، و على الثانى: الإخبار عن هذه بالتسخير.

قوله أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، و الخلق: المخلوق، و الأمر: كلامه، و هو كن فى قوله: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٢». أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل، أو التصرّف فى مخلوقاته، و لما ذكر سبحانه فى هذه الآية خلق السموات و الأرض فى ذلك الأمد اليسير، ثم ذكره استواءه على عرشه و تسخير الشمس و القمر و النجوم، و أن له الخلق و الأمر. قال تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أى: كثرت بركته و اتسعت، و منه بورك الشىء و بورك فيه، كذا قال ابن عرفة. و قال الأزهرى فى تَبارَكَ معناه: تعالى و تعاظم. و قد تقدم تفسير رَبُّ الْعالَمِينَ فى الفاتحة مستكملا.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الآية قال: ينادى الرجل أخاه فيقول: يا أخى أغثنى فإنى قد احترقت، فأفض علىّ من الماء، فيقال: أجبه، فيقول: إنّ اللّه حرّمهما على الكافرين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قال:

---

(١). النحل: ٨١.

(٢). النحل: ٤٠.

من الطعام. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال: يستسقونهم و يستطعمونهم، و فى قوله إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ قال: طعام الجنة و شرابها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس فى قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا يقول: نتركهم فى النار كما تركوا لقاء يومهم هذا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ قال: نؤخرهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن

قتادة فی قوله هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ قال: عاقبته. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ جزاؤه. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن ابن عباس يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ قال يوم القيامة. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس ما كانُوا يَفْتَرُونَ قال: ما كانوا يكذبون فی الدنيا. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ قال: كل يوم مقداره ألف سنة. و أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت فی قوله اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الكيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول، و الإقرار به إيمان، و الجحود به كفر. و أخرج اللّالكائی عن مالك أن رجلا سأله كيف استوى على العرش؟ فقال:

الكيف غير معقول و الاستواء منه غير مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة. و أخرج ابن أبی الدنيا فی كتاب الدعاء و الخطيب فی تاريخه عن الحسن بن علیّ قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية فی كل ليلة أن يعصمه اللّه من كل سلطان ظالم، و من كل شيطان مريد، و من كل سبع ضار، و من كل لص عاد: آية الكرسی، و ثلاث آيات من الأعراف إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ «١» و عشرا من أوّل الصافات، و ثلاث آيات من الرحمن. أولها يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ «٢» و خاتمة الحشر. و أخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبی مرزوق قال: من قرأ عند نومه إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الآية، بسط عليه ملك جناحه حتی يصبح و قد عوفی من السرق. و أخرج أبو الشيخ عن محمد ابن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال: مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه، فقرأ رجل منهم إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ الآية كلّها، و قد أصمت الرجل فتحرّك ثم استوى جالسا، ثم سجد يومه و ليلته حتی كان من الغد من الساعة التی سجد فيها، قال له أهله: الحمد للّه الذی عافاك. قال: بعث إلی نفسی ملك يتوفاها، فلمّا قرأ صاحبكم الآية التی قرأ سجد الملك و سجدت بسجوده، فهذا حين رفع رأسه، ثم مال فقضی. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن السدّی فی قوله: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ قال: يغشی الليل النهار فيذهب بضوئه و يطلبه سريعا حتی يدركه.

و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة قال: يلبس الليل النهار. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: حَثِيثاً قال: سريعا. و أخرج ابن أبی حاتم عن سفيان بن عيينة فی قوله: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ قال: الخلق:

ما دون العرش، و الأمر: ما فوق ذلك. و أخرج ابن أبی حاتم و البيهقی عنه قال: الخلق هو المخلوق، و الأمر هو الكلام.

---

(١). الآيات: ٥٤- ٥٦.

(٢). الآيات: ٣٣- ٣٥.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٤٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٥ الی ٥٨]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

أمرهم اللّه سبحانه بالدّعاء، و قيد ذلك بكون الداعی متضرّعا بدعائه مخفيا له، و انتصاب تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً على الحال، أی: متضرّعين بالدعاء مخفين له، أو صفة مصدر محذوف، أی: ادعوه دعاء تضرّع و دعاء خفية، و التضرّع: من الضراعة، و هی الذلة

و الخشوع و الاستكانة، و الخفية: الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، و أحسم لباب ما يخالف الإخلاص، ثم علّل ذلك بقوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى:
المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء و فى كلّ شىء، فمن جاوز ما أمره اللّه به فى شىء من الأشياء فقد اعتدى، و اللّه لا يحبّ المعتدين، و تدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولا- أوليا. و من الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ما ليس له، كالخلود فى الدنيا، أو إدراك ما هو محال فى نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به. قوله وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها نهاهم اللّه سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه، قليلا كان أو كثيرا، و منه قتل الناس، و تخريب منازلهم، و قطع أشجارهم و تغوير أنهارهم. و من الفساد فى الأرض: الكفر باللّه و الوقوع فى معاصيه، و معنى:
بَعْدَ إِصْلاحِها: بعد أن أصلحها اللّه بإرسال الرسل و إنزال الكتب و تقرير الشرائع. قوله وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إعرابها يحتمل الوجهين المتقدمين فى تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً و فيه: أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلا طامعا فى إجابة اللّه لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف و الرجاء ظفر بمطلوبه. و الخوف: الانزعاج من المضار التى لا يؤمن من وقوعها، و الطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة.
قوله إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ هذا إخبار من اللّه سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأىّ نوع من الأنواع كان إحسانهم، و فى هذا ترغيب للعباد إلى الخير و تنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد اللّه.
و قد اختلف أئمة اللغة و الإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة اللّه حيث قال قريب و لم يقل قريبة، فقال الزجّاج: إن الرحمة مؤوّلة بالرحم لكونها بمعنى العفو و الغفران، و رجح هذا التأويل النحاس. و قال النضر ابن شميل: الرحمة مصدر بمعنى الترحم، و حقّ المصدر التذكير. و قال الأخفش سعيد: أراد بالرحمة هنا المطر، و تذكير بعض المؤنث جائز، و أنشد:
فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۴ فلا مزنة و دقت و دقهاو لا أرض أبقل إبقالها «۱»
و قال أبو عبيدة: تذكير قريب على تذكير المكان، أى: مكان قريب. قال على بن سليمان الأخفش:
و هذا خطأ، و لو كان كما قال لكان قريب منصوبا كما تقول: إن زيدا قريبا منك. و قال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر و يؤنث، و إن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم. و روى عن الفراء أنه قال: يقال فى النسب قريبة فلان، و فى غير النسب يجوز التذكير و التأنيث فيقال: دارك عنا قريب و فلانة منا قريب قال اللّه تعالى وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً «۲» و منه قول امرئ القيس:
له الويل إن أمسى و لا أمّ هاشمقريب و لا البسباسة ابنة يشكرا
و روى عن الزجّاج أنه خطّأ الفرّاء فيما قاله و قال: إن سبيل المذكر و المؤنث أن يجريا على أفعالهما؛ و قيل:
إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى جاز فى خبرها التذكير، ذكر معناه الجوهرى. قوله وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ عطف على قوله يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع ما فى ذلك من الدلالة على وحدانيته و ثبوت إلاهيته. و رياح: جمع ريح، و أصل ريح:
روح، و قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو نشرا بضم النون و الشين جمع ناشر على معنى النسب: أى ذات نشر. و قرأ الحسن و قتادة و ابن عامر نشرا بضم النون و إسكان الشين من نشر. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى نشرا بفتح النون و إسكان الشين على المصدر، و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، و معنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذى هو خلاف الطىّ فكأن الريح

مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة. و قال أبو عبيدة: معناه متفرقة فى وجوهها على معنى ننشرها هاهنا و هاهنا. و قرأ عاصم بُشْراً بالباء الموحدة و إسكان الشين جمع بشير، أى: الرياح تبشر بالمطر، و مثله قوله تعالى وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ «٣». قوله بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أراد بالرحمة هنا المطر، أى: قدّام رحمته، و المعنى: أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدى المطر. قوله حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا أقلّ فلان الشيء: حمله و رفعه، و السحاب يذكر و يؤنث، و المعنى: حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء الذى صارت تحمله سُقْناهُ أى: السحاب لِبَلَدٍ مَيِّتٍ أى: مجدب ليس فيه نبات، يقال: سقته لبلد كذا؛ و إلى بلد كذا؛ و قيل: اللام هنا لام العلة، أى: لأجل بلد ميت، و البلد: هو الموضع العامر من الأرض فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ أى: بالبلد الذى سقناه لأجله أو بالسحاب، أى: أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله أو بالريح، أى: فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدى المطر الماء؛ و قيل إن الباء هنا بمعنى من، أى:

فأنزلنا منه الماء فَأَخْرَجْنا بِهِ أى: بالماء مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أى: من جميع أنواعها. قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى أى: مثل ذلك الإخراج، و هو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

---

(١). البيت لعامر الطائى.

«المزنة»: السحابة. «الودق»: المطر.

(٢). الأحزاب: ٦٣.

(٣). الروم: ٤٦.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٤٥

أى: تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة اللّه و بديع صنعته، و إنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها. قوله وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ أى: التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن اللّه و تيسيره إخراجا حسنا تاما وافيا وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً أى: و التربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدا، أى: لا خير فيه. و قرأ طلحة بن مصرّف نَكِداً بسكون الكاف. و قرأ ابن القعقاع نكدا بفتح الكاف: أى ذا نكد. و قرأ الباقون نَكِداً بفتح النون و كسر الكاف. و قرئ يخرج أى يخرجه البلد؛ قيل: معنى الآية التشبيه، شبّه تعالى السريع الفهم بالبلد الطّيّب، و البليد بالبلد الخبيث، ذكره النحّاس؛ و قيل: هذا مثل للقلوب، فشبّه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، و النائى عنه بالبلد الخبيث، قاله الحسن؛ و قيل: هو مثل لقلب المؤمن و المنافق، قاله قتادة؛ و قيل: هو مثل للطيب و الخبيث من بنى آدم، قاله مجاهد كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ أى: مثل ذلك التصريف لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ اللّه و يعترفون بنعمته.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً قال: السر إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فى الدعاء و لا فى غيره. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: التضرّع: علانية، و الخفية: سرّ. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً يعنى:

مستكينا، و خفية: يعنى فى خفض و سكون فى حاجاتكم من أمر الدنيا و الآخرة إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ يقول: لا تدعوا على المؤمن و المؤمنة بالشرّ: اللهم اخزه و العنه و نحو ذلك؛ فإن ذلك عدوان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى مجلز فى قوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ قال: لا تسألوا منازل الأنبياء.

و أخرج ابن المبارك و ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن قال: لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء و ما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم و بين ربّهم، و ذلك أن اللّه يقول ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً و ذلك أن اللّه ذكر عبدا صالحا فرضى قوله

فقال إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن صالح فى قوله وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها قال: بعد ما أصلحها الأنبياء و أصحابهم. و أخرج أبو الشيخ عن أبى سنان فى الآية قال: أحللت حلالى و حرّمت حرامى و حدّدت حدودى فلا تفسدوها. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً قال: خوفا منه، و طمعا لما عنده إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ يعنى: المؤمنين، و من لم يؤمن باللّه فهو من المفسدين. و أخرج ابن جريج و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ قال: إن اللّه يرسل الريح فيأتى بالسّحاب من بين الخافقين- طرف السماء و الأرض من حيث يلتقيان- فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيبسطه فى السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قال: يستبشر بها الناس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ قال: هو المطر، و فى قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى قال: كذلك تخرجون، و كذلك النّشور كما يخرج الزرع بالماء. و أخرج

ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى قال: إذا أراد اللّه أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فيهوى كلّ روح إلى جسده، فكذلك يحيى اللّه الموتى بالمطر كإحيائه الأرض، و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ الآية قال: هو مثل ضربه اللّه للمؤمن، يقول:

هو طيب، عمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب وَ الَّذِي خَبُثَ ضرب مثلا للكافر كالبلد السبخة المالحة التى لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث و عمله خبيث، و قد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۹ الى ۶۴]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۶۰) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴)

لما بيّن سبحانه كمال قدرته و بديع صنعته فى الآيات السابقة؛ ذكر هنا أقاصيص الأمم و ما فيها من تحذير الكفار و وعيدهم، لتنبيه هذه الأمة على الصّواب، و أن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة. و اللام:

جواب قسم محذوف. و هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، و قد تقدّم ذكر نوح فى آل عمران فأغنى عن الإعادة هنا، و ما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربى: إنه وهم. قال المازرى: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولا على أن إدريس كان نبيا غير مرسل، و جملة فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ استئنافية، جواب سؤال مقدر. قوله ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هذه الجملة فى حكم العلة لقوله اعْبُدُوا أى: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحقّ منكم أن يكون معبودا. قرأ نافع و أبو عمرو و عاصم و حمزة و ابن كثير و ابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على الموضع. و قرأ الكسائى بالخفض فى جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ. و أجاز الفراء و الكسائى النصب على الاستثناء: يعنى: ما لكم من إله إلا إياه. و قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ و لا النصب، و يردّه أن بعض بنى أسد ينصبون غير فى جميع الأحوال، و منه قول الشاعر «۱»:

لم يمنع الشّرب منها غير أن نطقت‌حمامة فى غصون ذات أوقال «۲»

و جملة إِنِّی أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة، أى: إن لم تعبدوه

---

(۱). هو أبو قيس بن الأسلت.

(۲). «أوقال»: ثمار.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۷

فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، أو عذاب يوم الطوفان. قوله قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ جملة استئنافية جواب سؤال مقدّر، و الملأ: أشراف القوم و رؤساؤهم؛ و قيل: هم الرجال، و قد تقدّم بيانه فى البقرة، و الضلال: العدول عن طريق الحق و الذهاب عنه، أى: إنا لنراك فى دعائك إلى عبادة اللّه وحده فى ضلال عن طريق الحق، و جملة قالَ يا قَوْمِ استئنافية أيضا جواب سؤال مقدّر لَيْسَ بِی ضَلالَةٌ كما تزعمون وَ لكِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أرسلنى إليكم لسوق الخير إليكم و دفع الشرّ عنكم، نفى عن نفسه الضلالة، و أثبت لها ما هو أعلى منصبا و أشرف رفعة و هو أنه رسول اللّه إليهم، و جملة أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّی فى محل رفع على أنها صفة لرسول، أو هى مستأنفة مبينة لحال الرسول. و الرسالات: ما أرسله اللّه به إليهم مما أوحاه إليه وَ أَنْصَحُ لَكُمْ عطف على أُبَلِّغُكُمْ يقال: نصحته و نصحت له، و فى زيادة اللام: دلالة على المبالغة فى إمحاض النصح. قال الأصمعى: الناصح: الخالص من الغلّ، و كلّ شىء خلص فقد نصح، فمعنى أنصح هنا: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، و الاسم: النصيحة، و جملة وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ معطوفة على الجملة التى قبلها مقررة لرسالته و مبينة لمزيد علمه، و أنه يختصّ بعلم الأشياء التى لا يعلمونها بإخبار اللّه له بذلك. قوله أَ وَ عَجِبْتُمْ فتحت الواو لكونها العاطفة و دخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم. و المعطوف عليه مقدّر: كأنه قيل: استبعدتم و عجبتم أو أ كذبتم و عجبتم أو أنكرتم و عجبتم أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: وحى و موعظة عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ أى: على لسان رجل منكم تعرفونه، و لم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، و قيل على بمعنى مع، أى:

مع رجل منكم لأجل ينذركم به وَ لِتَتَّقُوا ما يخالفه وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بسبب ما يفيده الإنذار لكم و التقوى منكم من التعرّض لرحمة اللّه سبحانه لكم و رضوانه عنكم فَكَذَّبُوهُ أى فبعد ذلك كذبوه و لم يعملوا بما جاء به من الإنذار فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ من المؤمنين به المستقرين معه فِی الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا و استمروا على ذلك و لم يرجعوا إلى التوبة، و جملة إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ علة لقوله وَ أَغْرَقْنَا أى: أغرقنا المكذبين لكونهم عمى القلوب لا تنجح فيهم الموعظة و لا يفيدهم التذكير.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «أوّل نبى أرسل نوح». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نعيم و ابن عساكر عن يزيد الرقاشى قال: إنما سمّى نوح عليه السلام نوحا لطول ما ناح على نفسه. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم و صحّحه، عن ابن عباس قال: كان بين آدم و نوح عشرة قرون، كلّهم على شريعة من الحقّ.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: الملأ يعنى الأشراف من قومه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ يقول: بيان من ربكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ قال: كفارا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ قال: عن الحقّ.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۴۸

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

قوله وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً أي: و أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم، أي: واحدا من قبيلتهم أو صاحبهم و سمّاه أخا لكونه ابن آدم مثلهم، و عاد هو من ولد سام بن نوح. قيل: هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، و هود هو ابن عبد اللّه بن رباح بن الخلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، و هُوداً عطف بيان. قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قد تقدّم تفسير هذا قريبا، و الاستفهام فى أَ فَلا تَتَّقُونَ للإنكار. و قد تقدّم أيضا تفسير الملأ، و السفاهة: الخفة و الحمق. و قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة، نسبوه إلى الخفة و الطيش، و لم يكتفوا بذلك حتى قالوا إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة، ثم أجاب عليهم بنفى السفاهة عنه، و استدرك من ذلك بأنه رسول ربّ العالمين. و قد تقدّم بيان معنى هذا قريبا، و كذلك سبق تفسير أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي و تقدّم معنى الناصح، و الأمين: المعروف بالأمانة، و سبق أيضا تفسير أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ فى قصة نوح التى قبل هذه القصة. قوله وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ أذكرهم نعمة من نعم اللّه عليهم، و هى: أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، أى:

جعلهم سكان الأرض التى كانوا فيها، أو جعلهم ملوكا، و إذ منصوب باذكر و جعل الذكر للوقت. و المراد:

ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأنّ الشيء إذا كان وقته مستحقا للذكر، فهو مستحقّ له بالأولى وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً أي: طولا فى الخلق و عظم جسم زيادة على ما كان عليه آباؤهم فى الأبدان. و قد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد. قوله فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ الآلاء:

جمع إليّ و من جملتها نعمة الاستخلاف فى الأرض، و البسطة فى الخلق و غير ذلك مما أنعم به عليهم، و كرر التذكير لزيادة التقرير، و الآلاء: النعم لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إن تذكرتم ذلك لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها، و من شكر فقد أفلح. قوله قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ هذا استنكار منهم لدعائه إلى

عبادة اللّه وحده دون معبوداتهم التى جعلوها شركاء للّه، و إنما كان هذا مستنكرا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا أي: نترك الذى كانوا يعبدونه، و هذا داخل فى جملة ما استنكروه. قوله فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ هذا استعجال منهم للعذاب الذى كان هود يعدهم به، لشدة تمرّدهم على اللّه و نكوصهم عن طريق الحق، و بعدهم عن اتباع الصواب، فأجابهم بقوله: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق وقوعه، كما ذكره أئمة المعانى و البيان، و قيل: معنى وقع وجب، و الرجس: العذاب، و قيل: هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة، فقال أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ يعنى: أسماء الأصنام التى كانوا يعبدونها جعلها

أسماء، لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطلة، فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ أى: سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم و آباؤكم و لا حقيقة لذلك ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أى: من حجة تحتجون بها على ما تدّعونه لها من الدعاوى الباطلة ثم توعدهم بأشد وعيد فقال فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ أى: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له، و هو واقع بكم لا محالة و نازل عليكم بلا شك؛ ثم أخبر اللّه سبحانه أنه نجّى هودا و من معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به و لم يقبل رسالته، و أنه قطع دابر القوم المكذبين، أى: أستأصلهم جميعا. و قد تقدّم تحقيق معناه، و جملة وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ معطوفة على كذبوا، أى: استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا و عدم الإيمان.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قال: ليس بأخيهم فى الدّين، و لكنه أخوهم فى النسب لأنه منهم؛ فلذلك جعل أخاهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خيثم قال:

كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذرّ. و أخرج ابن عساكر عن وهب قال: كان الرجل من عاد ستين ذراعا بذراعهم، و كان هامة الرجل مثل القبّة العظيمة، و كان عين الرجل لتفرخ فيها السّباع، و كذلك مناخرهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعا طولا. و أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس قال: كان الرجل منهم ثمانين باعا، و كانت البرّة فيهم ككلية البقرة، و الرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً قال: شدة. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد و ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتّخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلّوه «۱»، و إن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله آلاءَ اللَّهِ قال: نعم اللّه، و فى قوله رِجْسٌ قال: سخط.

و أخرج ابن عساكر قال: لما أرسل اللّه الريح على عاد اعتزل هود و من معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبهم

---

(۱). قال فى القاموس: قلّه و أقلّه: حمله و رفعه.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۵۰

فتح القدير ج۲ ۲۹۹

من الريح إلا ما تلين عليه الجلود و تلتذ به الأنفس، و إنها لتمرّ بالعادى فتحمله بين السماء و الأرض و تدمغه بالحجارة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا قال:

استأصلناهم. و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن جرير و ابن عساكر عن علىّ بن أبى طالب قال: قبر هود يحضر موت فى كثيب أحمر عند رأسه سدرة. و أخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبى العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبر هود. و أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: كان عمر هود أربعمائة سنة و اثنتين و سبعين سنة.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۷۳ الى ۷۹]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قوله وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً معطوف على ما تقدّم، أى: و أرسلنا إلى ثمود أخاهم، و ثمود: قبيلة سموا باسم أبيهم، و هو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، و صالح عطف بيان، و هو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، و امتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسما للقبيلة. و قال أبو حاتم: لم ينصرف لأنه أعجمى. قال النحاس: و هو غلط لأنه من الثمد، و هو الماء القليل، و قد قرأ القراء ألا إنّ ثمودا كفروا ربهم «١» على أنه اسم للحىّ، و كانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز و الشام إلى وادى القرى. قوله قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قد تقدّم تفسيره فى قصة نوح قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أى: معجزة ظاهرة، و هى إخراج الناقة من الحجر الصلد، و جملة هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً مشتملة على بيان البينة المذكورة، و انتصاب آية: على الحال، و العامل فيها معنى الإشارة، و فى إضافة الناقة إلى اللّه تشريف لها و تكريم. قوله فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أى: دعوها تأكل فى أرض اللّه، فهى ناقة اللّه، و الأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم و لا تملكونه وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ من السوء، أى: لا تتعرّضوا لها بوجه من الوجوه التى تسوؤها. قوله فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ هو جواب النهى: أى إذا لم تتركوا مسها بشىء من السوء أخذكم عذاب أليم، أى: شديد الألم. قوله وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ أى: استخلفكم فى الأرض أو جعلكم ملوكا فيها، كما تقدم

---

(١). هود: ٦٨.

فى قصة هود وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى: جعل لكم فيها مباءة، و هى المنزل الذى تسكنونه تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً أى: تتخذون من سهولة الأرض قصورا، أو هذه الجملة مبينة لجملة: وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ و سهول الأرض ترابها، يتخذون منه اللبن و الآجر و نحو ذلك فيبنون به القصور وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً أى تتخذون فى الجبال التى هى صخور بيوتا تسكنون فيها، و قد كانوا لقوّتهم و صلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفا يسكنون فيها؛ لأنّ الأبنية و السقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم، و انتصاب بيوتا على أنها حال مقدّرة، أو على أنها مفعول ثان لتنتحون على تضمينه معنى تتخذون. قوله فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ تقدّم تفسيره فى القصة التى قبل هذه. قوله وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ العثى و العثو لغتان، و قد تقدم تحقيقه فى البقرة بما يغنى عن الإعادة قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

أى: قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون، و لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من الذين استضعفوا بإعادة حرف الجر بدل البعض من الكل، لأن فى المستضعفين من ليس بمؤمن هذا على عود ضمير مِنْهُمْ إلى الذين استضعفوا، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين، و مقول القول: أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالوا هذا على طريق الاستهزاء و السخرية. قوله:

قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته، مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم، هل تعلمون برسالته أم لا؟ مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان، و تنبيها على أن كونه مرسلا أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه،

فأجابوا تمردا و عنادا بقولهم إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و هـذه الجمل المعنويـة يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقـدرة كمـا سبق بيـانه. قوله فَعَقَرُوا النَّاقَةَ العقر: الجرح، و قيل: قطع عضو يؤثر فى تلف النفس؛ يقال: عقرت الفرس: إذا ضـربت قوائمه بالسيف، و قيل أصل العقر: كسر عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر؛ لأنّ العقر سبب النحر فى الغالب، و أسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحـدا منهم، لأنهم راضون بـذلك موافقون عليه. و قـد اختلف فى عاقر الناقة ما كان اسـمه، فقيل قدار بن سالف، و قيل غير ذلك وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أى: استكبروا، يقال عتا يعتو عتوّا: استكبر، و تعتى فلان: إذا لم يطع، و الليل العاتى: الشـديد الظلمـة وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ هذا استعجال منهم للنقمة و طلب منهم لنزول العذاب و حلول البليـة بهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أى الزلزلـة، يقال رجف الشـىء يرجف رجفانا، و أصـله حركـة مع صوت، و منه يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ «١»؛ و قيل كانت صيحة شديـدة خلعت قلوبهم فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ أى بلـدهم جاثِمِينَ لاصـقين بالأرض على ركبهم و وجوههم كمـا يجثم الطـائر، و أصـل الجثوم للأرنب و شـبهها، و قيـل للناس و الطير. و المراد أنهم أصـبحوا فى دورهم ميتين لا حراك بهم فَتَوَلَّى عَنْهُمْ صالح عند اليأس من إجابتهم وَ قالَ لهم المقالة: لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ و يحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضـية، كما وقع من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من التكليم لأهل قليب بدر بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، و كأنه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما

(١). النازعات: ۶.

فاتهم من الإيمان و السـلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا فى إبلاغهم الرسالة و محض النصح، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب، و نزل بهم ما كذبوا به و استعجلوه.

و قد أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شـيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى الطفيل قال: قـالت ثمود لصالـح: ائتنا بآيـة إن كنت من الصّادقين، قال: اخرجوا، فخرجوا إلى هضـبة من الأرض فإذا هى تمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح:

هـذه ناقـة اللّه لكم آيـة فلما ملوها عقروها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حـاتم و أبو الشيخ عن قتادة: أن صالحا قال لهم حين عقروا الناقـة: تمتّعوا ثلاثـة أيام ثم قال لهم: آيـة هلاككم أن تصبح وجوهكم غدا مصـفرّة، و تصـبح اليوم الثـانى محمرّة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودّة، فأصـبحت كـذلك، فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا و تحنطوا، ثم أخـذتهم الصـيحة فأخمـدتهم. و قال عاقر الناقة: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون:

أ ترضـين؟ فتقول: نعم، و الصبىّ، حتى رضوا أجمعون، فعقرها. و أخرج أحمـد و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشـيخ و الحاكم و صـححه و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم لمـا نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات. فإن قوم صالـح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آيـة فبعث اللّه لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها و يحتلبون من لبنها مثل الذى كانوا يأخذون من مائها يوم غبها و تصـدر من هـذا الفـج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فوعـدهم اللّه العـذاب بعد ثلاثة أيام، و كان وعد من اللّه غير مكذوب، ثم جاءتهم الصـيحة فأهلك اللّه من كان منهم تحت مشارق الأرض و مغاربها، إلا رجلا كان فى حرم اللّه فمنعه حرم اللّه من عذاب اللّه، فقيل: يا رسول اللّه! من هو؟ فقال: أبو رغال؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

قال ابن كثير: هذا الحديث على شرط مسلم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث أبى الطفيل مرفوعا مثله. و أخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» و أصل الحديث فى الصحيحين من غير وجه، و فى لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود. و أخرج أحمد و ابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبى كبشة الأنمارى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ قال: لا تعقروها. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً قال: كانوا ينقبون فى الجبال البيوت. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ قال: غلوا فى الباطل فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال: الصيحة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ قال: ميتين. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۵۳

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الى ۸۴]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۸۴)

قوله وَ لُوطاً معطوف على ما سبق، أى: و أرسلنا لوطا، أو منصوب بفعل مقدّر، أى: و اذكر لوطا وقت قال لقومه. قال الفرّاء: لوط مشتق من قولهم: هذا أليط بقلبى؛ أى: ألصق، قال الزّجّاج:

زعم بعض النحويين أن لوطا يجوز أن يكون مشتقّا من لطت الحوض إذا ملسته بالطين، و هذا غلط. لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق. و قال سيبويه: نوح و لوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة، فلذلك صرفت، و لوط هو ابن هاران بن تارخ، فهو ابن أخى إبراهيم، بعثه اللّه إلى أمة تسمى سدوم أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أى:

الخصلة الفاحشة المتمادية فى الفحش و القبح، قال ذلك إنكارا عليهم و توبيخا لهم ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أى: لم يفعلها أحد قبلكم، فإن اللواط لم يكن فى أمة من الأمم قبل هذه الأمة، و «من» مزيدة للتوكيد للعموم فى النفى، و إنه مستغرق لما دخل عليه، و الجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم و التوبيخ لهم. قوله إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً قرأ نافع و حفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة. و قرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ و التقريع و اختار القراءة الأولى أبو عبيد و الكسائى و غيرهما، و اختار الخليل و سيبويه القراءة الثانية، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ و كذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام و تكريره المفيد للمبالغة فى التقريع و التوبيخ، و انتصاب شهوة على المصدرية، أى: تشتهونهم شهوة، و يجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال، أى: مشتهين، و يجوز أن يكون مفعولا له، أى: لأجل الشهوة، و فيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل، فهم فى هذا كالبهائم التى تنزو بعضها على بعض لما يتقاضاها من الشهوة مِنْ دُونِ النِّساءِ أى: متجاوزين فى فعلكم هذا للنساء اللاتى هنّ محل لقضاء الشهوة و موضع لطلب اللذة، ثم أضرب عن الإنكار المتقدّم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف الذى تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة. قوله وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ الواقعين فى هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ أى: لوطا و أتباعه مِنْ قَرْيَتِكُمْ أى: ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف المخالف لما طلبه منهم و أنكره عليهم، و

جملة إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ تعليل لما أمروا به من الإخراج، و وصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته. و أنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع فى هذه الفاحشة فلا يساكنونا فى قريتنا، و يحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية و الاستهزاء، ثم أخبر اللّه سبحانه أنه أنجى لوطا و أهله المؤمنين له، و استثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن له، و معنى كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أنها كانت من الباقين فى عذاب اللّه، يقال غبر الشيء: إذا مضى. و غبر: إذا بقى، فهو من الأضداد. و حكى

ابن فارس فى المجمل عن قوم أنهم قالوا: الماضى عابر بالعين المهملة، و الباقى غابر بالمعجمة. و قال الزجاج: مِنَ الْغابِرِينَ أى: من الغائبين عن النجاة. و قال أبو عبيد: المعنى مِنَ الْغابِرِينَ أى: من المعمرين و كانت قد هرمت، و أكثر أهل اللغة على أن الغابر: الباقى. قوله وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً قيل: أمطر بمعنى إرسال المطر. و قال أبو عبيدة: مطر فى الرحمة و أمطر فى العذاب، و المعنى هنا: أن اللّه أمطر عليهم مطرا غير ما يعتادونه و هو رميهم بالحجارة كما فى قوله وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «۱» فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ هذا خطاب لكل من يصلح له، أو لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و سيأتى فى هود قصة لوط بأبين مما هنا.

و قد أخرج ابن أبى الدنيا و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و البيهقى فى شعب الإيمان، و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ قال: أدبار الرجال. و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: إنما كان بدء عمل قوم لوط: أن إبليس جاءهم فى هيئة صبىّ، أجمل صبىّ رآه الناس، فدعاهم إلى نفسه فنكحوه ثم جسروا على ذلك. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عنه فى قوله: إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ قال: من أدبار الرجال و من أدبار النساء. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ قال: من الباقين فى عذاب اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان قوم لوط أربعة آلاف ألف.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۵ الى ۹۳]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸۵) وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۸۶) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۸۷) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (۸۸) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (۸۹)

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (۹۳)

قوله: وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً معطوف على ما تقدّم، أى: و أرسلنا. و مدين: اسم قبيلة،

---

(۱). الحجر: ۷۴.

فتح القدير، ج‏2، ص: 255

و قيل: اسم بلد و الأوّل أولى، و سميت القبيلة باسم أبيهم: و هو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر و تميم. قوله:

أَخاهُمْ شُعَيْباً شعيب: عطف بيان، و هو شعيب بن ميكائيل بن مدين بن إبراهيم، قاله عطاء و ابن إسحاق و غيرهما. و قال الشرقيّ بن القطامي: إنه شعيب بن عيفاء بن يوبب بن مدين بن إبراهيم. و زعم ابن سمعان أنه شعيب بن جزى بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. و قال قتادة: هو شعيب ابن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. قوله: قالَ يا قَوْمِ إلى قوله: بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قد سبق شرحه فى قصة نوح. قوله: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ أمرهم بإيفاء الكيل و الميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل و الوزن، و كانوا لا يوفونهما، و ذكر الكيل الذى هو المصدر، و عطف عليه الميزان الذى هو اسم للآلة.

و اختلف فى توجيه ذلك، فقيل: المراد بالكيل: المكيال، فتناسب عطف الميزان عليه؛ و قيل: المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل، و الفاء فى فَأَوْفُوا للعطف على اعبدوا. قوله: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ البخس: النقص و هو يكون بالتعييب للسلعة أو التّزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها و الاحتيال عليه، و كل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل و ظاهر قوله: أَشْياءَهُمْ أنهم كانوا يبخسون الناس فى كل الأشياء، و قيل: كانوا مكاسين يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم، و منه قول زهير:

أفى كلّ أسواق العراق إتاوةو فى كلّ ما باع امرؤ مكس درهم

قوله: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها قد تقدّم تفسيره قريبا و يدخل تحته قليل الفساد و كثيره و دقيقه و جليله، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى العمل بما أمرهم به و ترك ما نهاهم عنه، و المراد بالخيرية هنا: الزيادة المطلقة، لأنه لا خير فى عدم إيفاء الكيل و الوزن، و فى بخس الناس، و فى الفساد فى الأرض أصلا.

قوله: وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ الصِّراط: الطريق، أى: لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقعدون فى الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوّعدون من أراد المجى‏ء إليه، و يقولون:

إنه كذّاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، قاله ابن عباس و قتادة و مجاهد و السدّى و غيرهم؛ و قيل: المراد القعود على طرق الدين و منع من أراد سلوكها، و ليس المراد به القعود على الطرق حقيقة، و يؤيده وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ و قيل: المراد بالآية: النهى عن قطع الطريق و أخذ السلب، و كان ذلك من فعلهم؛ و قيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية فى الطرق من أموال الناس، فنهوا عن ذلك. و القول الأوّل أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهى على جميع هذه الأقوال المذكورة.

و جملة تُوعِدُونَ فى محل نصب على الحال، و كذلك ما عطف عليها، أى: لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله صادّين عن سبيل اللّه، باغين لها عوجا، و المراد بالصدّ عن سبيل اللّه: صدّ الناس عن الطريق الذى قعدوا عليه و منعهم من الوصول إلى شعيب، فإن سلوك الناس فى ذلك السبيل للوصول إلى نبىّ اللّه هو سلوك سبيل اللّه، و مَنْ آمَنَ بِهِ مفعول تصدّون، و الضمير فى آمن به يرجع إلى اللّه، أو إلى سبيل اللّه، أو

فتح القدير، ج‏2، ص: 256

إلى كل صراط أو إلى شعيب، وَ تَبْغُونَها عِوَجاً أى: تطلبون سبيل اللّه أن تكون معوجة غير مستقيمة، و قد سبق الكلام على العوج. قال الزجاج: كسر العين فى المعانى و فتحها فى الإجرام وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أى: وقت كنتم قَلِيلًا عددكم فَكَثَّرَكُمْ بالنسل؛ و قيل: كنتم فقراء فأغناكم وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ من الأمم الماضية، فإن اللّه أهلكهم و أنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم و محا أثرهم وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إليكم من الأحكام التى شرعها اللّه لكم وَ طائِفَةٌ منكم لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ هذا من باب التهديد و الوعيد الشديد لهم.

و ليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. و حكم اللّه بين الفريقين: هو نصر المحقين على المبطلين، و مثله قوله تعالى: فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ «۱» أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحلّ بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم اللّه عليهم قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أى: قال الأشراف المستكبرون لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ لم يكتفوا بترك الإيمان و التمرّد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغيا و بطرا و أشرا إلى توعد نبيهم و من آمن به الإخراج من قريتهم أو عوده هو و من معه فى ملتهم الكفرية، أى: لا بدّ من أحد الأمرين: إما الإخراج، أو العود. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء، يقال: عاد إلىّ من فلان مكروه، أى: صار، و إن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، فلا يرد ما يقال: كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه اللّه رسولا؟ و يحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب بالعود إلى ملتهم، و جملة قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ مستأنفة، جواب عن سؤال مقدّر، و الهمزة: لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود، و الواو للحال، أى: أ تعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا للعود إليها، أو: أ تخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها، أو فى الحال كراهتنا للأمرين جميعا، و المعنى: إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين و لا يصح لكم ذلك، فإنّ المكره لا اختيار له و لا تعدّ موافقته مكرها: موافقة، و لا عوده إلى ملتكم مكرها عودا، و بهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ التى هى الشرك بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها بالإيمان فلا يكون منا عود إليها أصلا وَ ما يَكُونُ لَنا أى: ما يصح لنا، و لا يستقيم أَنْ نَعُودَ فِيها بحال من الأحوال إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى: إلا حال مشيئته سبحانه، فإنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. قال الزّجّاج: أى إلا بمشيئة اللّه عزّ و جلّ، قال: و هذا قول أهل السّنّة، و المعنى: أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء اللّه ذلك، فالاستثناء منقطع؛ و قيل: إن الاستثناء هنا على جهة التسليم للّه عزّ و جلّ كما فى قوله: وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ «۲» و قيل: هو كقولهم: لا أكلمك حتى يبيضّ الغراب، و حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط، و الغراب لا يبيض، و الجمل لا يلج، فهو من باب التعليق بالمحال. وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى: أحاط علمه بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شىء، و علما منصوب على التمييز؛ و قيل: المعنى وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها أى:

القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ عودنا إليها عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا أى: عليه اعتمدنا

---

(۱). التوبة: ۲۵.

(۲). هود: ۸۸.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۲۵۷

فى أن يثبتنا على الإيمان، و يحول بيننا و بين الكفر و أهله، و يتمّ علينا نعمته، و يعصمنا من نقمته. قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ الفتاحة: الحكومة، أى احكم بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الحاكمين، دعوا اللّه سبحانه أن يحكم بينهم، و لا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقّين على المبطلين؛ كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه، فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكفرين و حلول نقمة اللّه بهم وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ معطوف على قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك، و يحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب. و اللام فى لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً موطئة لجواب قسم محذوف، أى: دخلتم فى دينه و تركتم دينكم إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ جواب القسم ساد مسدّ جواب الشرط، و خسرانهم: هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل و الوزن و ترك التطفيف الذى كانوا يعاملون الناس به فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أى: الزلزلة؛ و قيل: الصيحة كما فى قوله:

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ «۱» فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ قد تقدم تفسيره فى قصة صالح.

قوله: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حلّ بهم من النعمة، و الموصول: مبتدأ، و كأن لم يغنوا: خبره؛ يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به، و غنى القوم فى دارهم أى: طال مقامهم فيها، و المغنى: المنزل؛ و الجمع: المغانى. قال حاتم الطائى:

غنينا زمانا بالتّصعلك و الغنى كما الدّهر فى أيامه العسر و اليسر

كسبنا صروف الدّهر لينا و غلظة و كلّا سقاناه بكأسهما الدّهر

فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا و لا أزرى بأحسابنا الفقر

و معنى الآية: الذين كذّبوا شعيبا كأن لم يقيموا فى دارهم؛ لأنّ اللّه سبحانه استأصلهم بالعذاب، و الموصول فى الذين كذبوا شعيبا مبتدأ، خبره كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ و هذه الجملة مستأنفة كالأولى، متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين فَتَوَلَّى عَنْهُمْ أى: شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي التى أرسلنى بها إليكم وَ نَصَحْتُ لَكُمْ ببيان ما فيه سلامة دينكم و دنياكم فَكَيْفَ آسى أى: أحزن عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ باللّه مصرّين على كفرهم متمردين عن الإجابة أو الأسى: شدة الحزن، آسى على ذلك: فهو آس. قال شعيب هذه المقالة تحسّرا على عدم إيمان قومه، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم باللّه و عدم قبولهم لما جاء به رسوله.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن عساكر عن عكرمة و السدى قالا: ما بعث اللّه نبيا مرتين إلا شعيبا: مرة إلى مدين فأخذتهم الصيحة، و مرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قال: لا تظلموا الناس. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قال: لا تظلموهم وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا و أراد الإسلام. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: كانوا يجلسون فى الطريق فيخبرون من أتى عليهم

---

(۱). هود: ۹۴.

أن شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: بكل سبيل حق وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: تصدّون أهلها وَ تَبْغُونَها عِوَجاً قال: تلتمسون لها الزيغ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ قال: هو العاشر وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: تصدّون عن الإسلام وَ تَبْغُونَها عِوَجاً قال: هلاكا. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: هم العشار. و أخرج ابن جرير عن أبى العالية عن أبى هريرة أو غيره- شك أبو العالية- قال: أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلا شقته و لا شىء إلا خرقته قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا- وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها قال: ما ينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد إذ نجّانا اللّه إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا و اللّه لا يشاء الشرك، و لكن يقول: إلا أن يكون اللّه قد علم شيئا، فإنه قد وسع كل شىء علما. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الأسماء و الصفات و ابن الأنبارى فى الوقف و الابتداء عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى ما قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول: تعال أفاتحك، تعنى أقاضيك. و أخرج ابن جرير و ابن

المنـذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ يقول: اقض. و أخرج ابن أبى حاتم عن السـدّى قال: الفتح: القضاء، لغة يمانية إذا قـال أحـدهم تعـال أقاضـيك القضاء قال: تعال أفاتحك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن ابن عباس لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا قال: لم يعيشوا فيهـا. و أخرج عبـد بن حميـد و ابن جرير عن قتـادة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم عن ابن عباس فَكَيْفَ آسـى قـال: أحزن. و أخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: فى المسـجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما، قبر إسـماعيل و قبر شعيب، فقبر إسماعيل فى الحجر، و قبر شعيب مقابل الحجر الأسود. و أخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة و من معه من المؤمنين، فقبورهم فى غربى الكعبـة بين دار النـدوة و بين بـاب بنى سـهم. و أخرج ابن أبى حـاتم و الحاكم عن ابن إسـحاق قال: ذكر لى يعقوب ابن أبى مسـلمة «أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم كان إذا ذكر شعيبا قال: ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذّبوه و توعّدوه بالرّجم و النفى من بلادهم و عتوا على اللّه أخذهم عذاب يوم الظلة».

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٠]

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩۵) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)
أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢۵٩

قوله: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍ لما فصل اللّه سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، و هم المذكورون سابقا أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها، أي: و ما أرسلنا فى قرية من القرى من نبىّ من الأنبياء، و فى الكلام محذوف، أي: فكذب أهلها إلا أخذناهم، و الاستثناء مفرّغ، أي: ما أرسلنا فى حال من الأحوال إلا فى حال أخذنا أهلها، فمحل أخذنا: النصب، و البأساء: البؤس و الفقر، و الضراء: الضرّ، و قد تقدم تحقيق معنى البأساء و الضراء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ أي: لكى يتضرّعوا و يتذلّلوا، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار و تكذيب الأنبياء. قوله: ثُمَّ بَدَّلْنا معطوف على أخذنا، أي: ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدّلناهم مَكانَ السَّيِّئَةِ التى أصبناهم بها من البلاء و الامتحان الْحَسَنَةَ أي: الخصلة الحسنة، فصاروا فى خير وسعة و أمن حَتَّى عَفَوْا يقال عفا: كثر، و عفا: درس، فهو من أسماء الأضداد، و المراد هنا:

أنهم كثروا فى أنفسهم و فى أموالهم، أي: أعطيناهم الحسنة مكان السيئة حتى كثروا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ أي: قالوا هذه المقالة عند أن صاروا فى الحسنة بعد السيئة، أي: أن هذا الذى مسّنا من البأساء و الضراء، ثم من الرخاء و الخصب من بعد، هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله، فمسّهم من البأساء و الضّرّاء ما مسنا و من النعمة و الخير ما نلناه، و معناهم: أن هذه العادة الجارية فى السّلف و الخلف، و أن ذلك ليس من اللّه سبحانه ابتلاء لهم و اختبارا لما عندهم، و فى هذا من شدّة عنادهم و قوة تمردهم و عتوّهم ما لا يخفى، و لهذا عاجلهم اللّه بالعقوبة و لم يمهلهم فقال: فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً أي: فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ و لا إمهال وَ الحال أن هُمْ لا يَشْعُرُونَ بذلك و لا يترقبونه، و اللام فى الْقُرى للعهد، أي: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى التى أرسلنا إليها رسلنا آمَنُوا بالرسل المرسلين إليهم وَ اتَّقَوْا ما صمموا عليه من الكفر و لم يصرّوا على ما فعلوا من القبائح لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أي: يسرنا لهم خير السماء و الأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها؛ قيل:

المراد بخير السماء:

المطر، و خير الأرض: النبات، و الأولى حمل ما فى الآيـة على ما هو أعمّ من ذلك؛ و يجوز أن تكون اللام فى القرى للجنس، و المراد: لو أنّ أهل القرى أين كانوا، و فى أىّ بلاد سكنوا، آمنوا و اتقوا إلى آخر الآية وَ لكِنْ كَذَّبُوا بالآيات و الأنبياء و لم يؤمنوا و لا اتقوا فَأَخَذْناهُمْ بالعذاب بسبب ما كانُوا يَكْسِبُونَ من الذنوب الموجبة لعذابهم، و الاستفهام فى أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى للتقريع و التوبيخ، و أهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله، و الفاء للعطف، و هو مثل أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ «١»؛ و قيل:

المراد بالقرى مكة و ما حولها لتكذيبهم للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و الحمل على العموم أولى. قوله: أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً أى: وقت بيات، و هو الليل على أنه منصوب على الظرفية، و يجوز أن يكون مصدرا بمعنى: تبيتا، أو مصدرا

---

(١). المائدة: ٥٠.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٦٠

فى موضع الحال: أى مبيتين، و جملة وَ هُمْ نائِمُونَ فى محل نصب على الحال، و الاستفهام فى أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ كالاستفهام الذى قبله، و الضحى: ضحوة النهار، و هو فى الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت و ارتفعت. قرأ ابن عامر و الحرميان أَ وَ أَمِنَ بإسكان الواو و قرأ الباقون بفتحها، و جملة وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فى محل نصب على الحال، أى: يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة، و الاستفهام فى أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ للتّقريع و التوبيخ و إنكار ما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر اللّه بهم و عقوبته لهم، و فى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لإنكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من أمن مكر اللّه، فقال: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ أى: الذين أفرطوا فى الخسران، و وقعوا فى وعيده الشديد، و قيل: مكر اللّه هنا هو استدراجه بالنعمة و الصحة. و الأولى: حمله على ما هو أعمّ من ذلك. قوله: أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها قرئ «نهد» بالنون، و بالتحتية، فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو اللّه سبحانه، و مفعول الفعل أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أى أن الشأن هو هذا، و على القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أى: أخذناهم بكفرهم و تكذيبهم، و الهداية هنا بمعنى التبيين، و لهذا عديت باللام. قوله: وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ أى:

و نحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف، و لا يصحّ عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع اللّه على قلبه لعدم قبولهم للإيمان؛ و قيل: هو معطوف على فعل مقدّر دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: يغفلون عن الهداية و نطبع؛ و قيل:

معطوف على يرثون، قوله: فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ جواب لو، أى: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم و الطّبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله اللّه إليهم من الوعظ و الإعذار و الإنذار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ قال: مكان الشدة الرخاء حَتَّى عَفَوْا قال: كثروا و كثرت أموالهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: حَتَّى عَفَوْا قال: جموا «١». و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ قال: قالوا: قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئا فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا قال: بما أنزل اللّه وَ اتَّقَوْا قال: ما حرّمه اللّه لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ يقول: أعطتهم السماء بركتها و الأرض نباتها. و أخرج ابن أبى حاتم من طريق معاذ بن رفاعة عن موسى الطائفى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أكرموا الخبز فإنّ اللّه أنزله من بركات السّماء و أخرجه من بركات الأرض». و أخرج البزار و الطبرانى، قال السيوطى بسند ضعيف عن عبد اللّه بن

أمّ حرام قال:

صليت القبلتين مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «أكرموا الخبز فإن اللّه أنزله من

(۱). قال فى القاموس: الجمّ: الكثير من الشيء.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶۱

بركات السماء و سخّر له بركات الأرض، و من تتبع ما يسقط من السّفرة غفر له». و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال: كان أهل قرية أوسع اللّه عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث اللّه عليهم الجوع. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس «۱» فى قوله: أَ وَ لَمْ يَهْدِ قال: أ و لم نبين. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها قال: المشركون.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲]

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (۱۰۱) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (۱۰۲)

قوله: تِلْكَ الْقُرى أى: التى أهلكناها، و هى قرى قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب المتقدّم ذكرها نَقُصُّ عَلَيْكَ أى: نتلو عليك مِنْ أَنْبائِها أى: من أخبارها، و هذه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، و نقصّ إما فى محل نصب على أنه حال، و تِلْكَ الْقُرى مبتدأ و خبر، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر، و الْقُرى صفة لتلك، و من فى مِنْ أَنْبائِها للتبعيض، أى: نقصّ عليك بعض أنبائها، و اللام فى لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ جواب القسم. و المعنى: أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل اللّه ببيناته كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا عند مجيء الرسل بِما كَذَّبُوا به مِنْ قَبْلُ مجيئهم، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل فى حال من الأحوال و لا فى وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم، بل هم مستمرون على الكفر، متشبثون بأذيال الطّغيان دائما، و لم ينجع فيهم مجيء الرسل و لا ظهر له أثر، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله؛ و قيل المعنى: فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم، كقوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا و قيل: سألوا المعجزات، فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها. و الأوّل أولى، و معنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل:

أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل، و إنزال الكتب. قوله: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ أى: مثل ذلك الطبع الشديد يطبع اللّه على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ و لا تذكير و لا ترغيب و لا ترهيب. قوله وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقا، أى: ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد، أى: عهد يحافظون عليه و يتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود فى كل حال؛ و قيل: الضمير يرجع إلى الناس على العموم؛ أى:

ما وجدنا لأكثر الناس من عهد، و قيل: المراد بالعهد: هو المأخوذ عليهم فى عالم الذرّ؛ و قيل: الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى؛ أى: الأكثر منهم لا عهد و لا وفاء، و القليل منهم قد يفى

(۱). فى ابن جرير الطبرى (۹/ ۷): أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد ...

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٢

بعهده و يحافظ عليه، و إن فى وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ هى المخففة من الثقيلة، و ضمير الشأن محذوف، أى: أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين، أو هى النافية، و اللام فى لَفاسِقِينَ بمعنى إلا: أى إلا فاسقين، خارجين عن الطاعة خروجا شديدا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب فى قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ قال: كان فى علم اللّه يوم أقرّوا بالميثاق من يكذّب به ممن يصدّق به. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ قال: مثل قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ قال: الوفاء. و أخرج ابن أبى حاتم فى الآية قال: هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ قال: ذاك أن اللّه إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٢]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٠٥) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (١٠٧)

وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (١١٠) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (١١٣) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (١١٧)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (١١٩) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (١٢٠) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (١٢٢)

قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى أى: من بعد نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، أى: ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل؛ و قيل الضمير فى مِنْ بَعْدِهِمْ راجع إلى الأمم السابقة، أى: من بعد إهلاكهم إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فرعون: هو لقب لكلّ من يملك أرض مصر بعد العمالقة، و ملأ فرعون:

أشراف قومه، و تخصيصهم بالذّكر مع عموم الرسالة لهم و لغيرهم؛ لأنّ من عداهم كالأتباع لهم. قوله:

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٣

فَظَلَمُوا بِها أى كفروا بها، و أطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التى جاء بها موسى كان كفرا متبالغا لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التى جاءهم بها، و المراد بالآيات هنا: هى الآيات التسع، أو معنى فَظَلَمُوا بِها ظلموا الناس بسببها لما صدّوهم عن الإيمان بها، أو ظلموا أنفسهم بسببها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى: المكذّبين بالآيات الكافرين بها و جعلهم مفسدين؛ لأنّ تكذيبهم و كفرهم من أقبح أنواع الفساد. قوله: وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أخبره بأنه مرسل من اللّه إليه، و جعل ذلك عنوانا لكلامه معه، لأنّ من كان مرسلا من جهة من هو ربّ العالمين أجمعين؛ فهو حقيق بالقبول لما جاء به، كما يقول من أرسله الملك فى حاجة إلى رعيته: أنا رسول الملك إليكم، ثم يحكى ما أرسل به فإن فى

ذلک من تربیة المهابة و إدخال الروعة ما لا یقادر قدره. قوله: حَقِیقٌ عَلی أَنْ لا أَقُولَ عَلَی اللّهِ إِلَّا الْحَقَ قرئ «حقیق علیّ أن لا أقول». أی: واجب علیّ و لازم لی أن لا أقول فیما أبلغکم عن اللّه إلا القول الحقّ، و قرئ حَقِیقٌ عَلی أَنْ لا أَقُولَ بدون ضمیر فی علی؛ قیل فی توجیهه أن علی بمعنی الباء. أی: حقیق بأن لا أقول، و یؤیده قراءة أبیّ و الأعمش فإنهما قرءا: «حقیق بأن لا أقول»؛ و قیل: إن حَقِیقٌ مضمن معنی حریص؛ و قیل: إنه لما کان لازما للحق کان الحقّ لازما له، فقول الحق حقیق علیه، و هو حقیق علی قول الحق؛ و قیل: إنه أغرق فی وصف نفسه فی ذلک المقام؛ حتی جعل نفسه حقیقة علی قول الحق؛ کأنه وجب علی الحق أن یکون موسی هو قائله. و قرأ عبد اللّه بن مسعود:

«حقیق أن لا أقول» بإسقاط علی، و معناها واضح ثم قال بعد هذا: قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ أی بما یتبیّن به صدقی و أنّی رسول من رب العالمین. و قد طوی هنا ذکر ما دار بینهما من المحاورة کما فی موضع آخر أنه قال فرعون: فَمَنْ رَبُّکُما یا مُوسی «۱» ثم قال بعد جواب موسی وَ ما رَبُّ الْعالَمِینَ الآیات الحاکیة لما دار بینهما. قوله: فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرائِیلَ أمره بأن یدع بنی إسرائیل یذهبون معه و یرجعون إلی أوطانهم و هی الأرض المقدّسة، و قد کانوا باقین لدیه مستعبدین ممنوعین من الرجوع إلی وطنهم، و الفاء لترتیب ما بعدها علی ما قبلها، فلما قال ذلک قالَ له فرعون: إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ من عند اللّه کما تزعم فَأْتِ بِها حتی نشاهدها و ننظر فیها إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِینَ فی هذه الدعوی التی جئت بها. قوله: فَأَلْقی عَصاهُ فَإِذا هِیَ ثُعْبانٌ مُبِینٌ أی وضعها علی الأرض فانقلبت ثعبانا، أی:

حیة عظیمة من ذکور الحیات، و معنی مُبِینٌ أن کونها حیة فی تلک الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فیه وَ نَزَعَ یَدَهُ أی أخرجها و أظهرها من جیبه أو من تحت إبطه، و فی التنزیل وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ «۲». قوله: فَإِذا هِیَ بَیْضاءُ لِلنّاظِرِینَ أی: فإذا یده التی أخرجها بیضاء تتلألأ نورا یظهر لکل مبصر قالَ الْمَلَأُ أی: الأشراف مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لما شاهدوا انقلاب العصا حیة، و مصیر یده بیضاء من غیر سوء إِنَّ هذا أی: موسی لَساحِرٌ عَلِیمٌ أی کثیر العلم بالسحر، و لا تنافی بین نسبة هذا القول إلی الملأ هنا و إلی فرعون فی سورة الشعراء، فکلّهم قد قالوه، فکان ذلک مصحّحا لنسبته إلیهم تارة و إلیه أخری، و جملة یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ وصف لساحر، و الأرض المنسوبة

---

(۱). طه: ۴۹.

(۲). النمل: ۱۲.

إلیهم هی أرض مصر: و هذا من کلام الملأ، و أما فَما ذا تَأْمُرُونَ فقیل: هو من کلام فرعون، قال للملأ لما قالوا بما تقدّم، أی: بأی شیء تأمروننی؟ و قیل: هو من کلام الملأ؛ أی: قالوا لفرعون: فبأی شیء تأمرنا؟ و خاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظیما له کما یخاطب الرؤساء أتباعهم، و ما: فی موضع نصب بالفعل الذی بعدها، و یجوز أن تکون ذا بمعنی الذی کما ذکره النحاة فی: ماذا صنعت، و کون هذا من کلام فرعون هو الأولی بدلیل ما بعده و هو قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ قال الملأ جوابا لکلام فرعون حیث استشارهم، و طلب ما عندهم من الرأی: أرجه، أی: أخّره و أخاه، یقال: أرجأته و أرجیته: أخّرته. قرأ عاصم و الکسائی و حمزة و أهل المدینة «أَرْجِهْ» بغیر همز، و قرأ الباقون بالهمز، و قرأ أهل الکوفة إلا الکسائی أَرْجِهْ بسکون الهاء. قال الفرّاء: هی لغة للعرب یقفون علی الهاء فی الوصل، و أنکر ذلک البصریون؛ و قیل: معنی أرجه: احبسه؛ و قیل: هو من رجا یرجو: أی أطمعه و دعه یرجوک، حکاه النحاس عن محمد بن یزید المبرد وَ أَرْسِلْ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ أی: أرسل جماعة حاشرین فی المدائن التی فیها السحرة، و حاشرین:

مفعول أرسل؛ و قيل: هو منصوب على الحال، و يَأْتُوكَ جواب الأمر، أى: يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم بِكَلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ أى: بكل ماهر فى السحر كثير العلم بصناعته. قرأ أهل الكوفة إلا عاصم:

«سحار» و قرأ من عداهم: «ساحر». قوله: وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ فى الكلام طىّ، أى: فبعث فى المدائن حاشرين، و جاء السحرة فرعون. قوله: قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى: فلما جاءوا فرعون قالوا له إن لنا لأجرا، و الجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: أىّ شىء قالوا له لما جاءوه؟ و الأجر:

الجائزة و الجعل، الزموا فرعون أن يجعل لهم جعلا- إن غلبوا موسى بسحرهم. قرأ نافع و ابن كثير: «إِنَّ لَنا» على الإخبار، و قرأ الباقون: «أئن لنا» على الاستفهام، استفهموا فرعون عن الجعل الذى سيجعله لهم على الغلبة، و معنى الاستفهام التقرير. و أما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل و أنه لا بدّ لهم منه، فأجابهم فرعون بقوله: نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ أى: إن لكم لأجرا، و إنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقرّبين لدينا. قوله: قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون: نعم و إنكم لمن المقرّبين. و المعنى:

أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك تأدّبا معه و ثقة من أنفسهم بأنهم غالبون و إن تأخروا، و أن فى موضع نصب، قاله الكسائى و الفراء: أى: إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن.

فأجابهم موسى بقوله: أَلْقُوا اختار أن يكونوا المتقدّمين عليه بإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم و لا هائب لما جاءوا به. قال الفراء: فى الكلام حذف. المعنى: قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم و لن تبطلوا آياته؛ و قيل: هو تهديد، أى: ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح، و الموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر فَلَمَّا أَلْقَوْا أى: حبالهم و عصيهم سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ أى قلبوها و غيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التمويه و التخييل الذى يفعله المشعوذون و أهل الخفة وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ أى أدخلوا الرهبة فى قلوبهم إدخالا شديدا وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ فى أعين

فتح القدير، ج‏2، ص: 265

الناظرين لما جاءوا به، و إن كان لا حقيقة له فى الواقع. قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ أمره اللّه سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر أن يلقى عصاه فَإِذا هِيَ أى: العصا تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قرأ حفص تَلْقَفُ بإسكان اللام و تخفيف القاف من لقف يلقف. و قرأ الباقون: بفتح اللام و تشديد القاف من تلقّف يتلقّف، يقال: لقفت الشى‏ء و تلقّفته؛ إذا أخذته أو بلعته. قال أبو حاتم:

و بلغنى فى بعض القراءات تلقّم بالميم و التشديد، قال الشاعر:

أنت عصا موسى الّتى لم تزل تلقم ما يأفكه السّاحر

و ما فى ما يَأْفِكُونَ مصدرية أو موصولة، أى: إفكهم أو ما يأفكونه، سمّاه إفكا، لأنه لا حقيقة له فى الواقع بل هو كذب و زور و تمويه و شعوذة فَوَقَعَ الْحَقُ أى: ظهر و تبين لما جاء به موسى وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من سحرهم، أى: تبين بطلانه فَغُلِبُوا أى: السحرة هُنالِكَ أى:

فى الموقف الذى أظهروا فيه سحرهم وَ انْقَلَبُوا من ذلك الموقف صاغِرِينَ أذلاء مقهورين وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ أى: خروا ساجدين كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود، أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم، و جملة قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ- رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ما ذا قالوا عند سجودهم أو فى سجودهم، و إنما قالوا هذه المقالة و صرّحوا بأنهم آمنوا بربّ العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: ربّ موسى و هارون لئلا- يتوهّم متوهّم من قوم فرعون المقرّين بإلهيته أن السّجود له.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مُوسى قال: إنما سمّى موسى؛ لأنه ألقى بين ماء و شجر، فالماء بالقبطية مو و الشجر سى. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد: أن فرعون كان فارسيا من أهل إصطخر. و أخرج أيضا عن ابن لهيعة. أنه كان من أبناء مصر. و أخرج أيضا و أبو الشيخ عن محمد ابن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة. و أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طلحة أن فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة أشبار. و أخرج أيضا عن الحسن قال: كان علجا من همذان. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلى قال: مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَأَلْقى عَصاهُ قال: ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين، فكانت تضىء بالليل و يضرب بها الأرض بالنهار فتخرج له رزقه و يهشّ بها على غنمه فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: حية تكاد تساوره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لقد دخل موسى على فرعون و عليه «زرمانقة» من صوف ما تجاوز مرفقيه، فاستأذن على فرعون فقال: أدخلوه، فدخل فقال: إن إلهى أرسلنى إليك، فقال للقوم حوله: ما علمت لكم من إله غيرى، خذوه. قال: إنى قد جئتك بآية، قال: فائت بها إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فصارت ثعبانا بين لحييه ما بين السّقف إلى الأرض، و أدخل يده فى جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار، فخرّوا على وجوههم، و أخذ موسى

فتح القدير، ج‏2، ص: 266

عصاه، ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه، فلما أفاق و ذهب عن فرعون الروع قال للملأ حوله:

ماذا تأمرونى قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ و لا تأتنا به و لا يقربنا وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ و كانت السحرة يخشون من فرعون، فلما أرسل إليهم قالوا: قد احتاج إليكم إلهكم، قال: إن هذا فعل كذا و كذا، قالوا: إن هذا ساحر سحر إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ- قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: عصا موسى اسمها ماشا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عنه فى قوله: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: الحية الذكر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ قال: الذكر من الحيات فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض و الأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها و وثب، فأحدث و لم يكن يحدث قبل ذلك، فصاح يا موسى خذها و أنا أؤمن بربك و أرسل معك بنى إسرائيل، فأخذها موسى فصارت عصا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَرْجِهْ قال: أخّره. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: احبسه و أخاه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس من طرق فى قوله: وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ قال: الشرط. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: وَ جاءَ السَّحَرَةُ قال: كانوا سبعين رجلا، أصبحوا سحرة، و أمسوا شهداء.

و قد اختلفت كلمة السلف فى عددهم؛ فقيل: كانوا سبعين كما قال ابن عباس، و قيل: كانوا اثنى عشر، و قيل: خمسة عشر ألفا، و قيل: سبعة عشر ألفا، و قيل: تسعة عشر ألفا، و قيل: ثلاثين ألفا، و قيل:

سبعين ألفا، و قيل: ثمانين ألفا، و قيل: ثلاثمائة ألف، و قيل: تسعمائة ألف. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: إِنَّ لَنا لَأَجْراً أى عطاء. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا قال: ألقوا حبالا غلاظا و خشبا طوالا، فأقبلت يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: ألقى موسى عصاه فأكلت كلّ حيّة لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا.

و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قال: ما يكذبون. و أخرج ابن

جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ قال: تسترط «۱» حبالهم و عصيهم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قال:

التقى موسى و أمير السحرة، فقال له موسى: أ رأيتك إن غلبتك أ تؤمن بى و تشهد أن ما جئت به حق؟

فقال الساحر: لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر، فو اللّه لئن غلبتنى لأومننّ بك و لأشهدنّ أنه حق، و فرعون ينظر إليهما، و هو قول فرعون إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال: لما خرّ السحرة سجّدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

---

(۱). تسترط: أى تبتلع.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۶۷

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۹]

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (۱۲۶) وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (۱۲۷)

قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹)

قوله: آمَنْتُمْ بِهِ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار و بإثباتها. أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبينا لما هو الحامل لهم على ذلك فى زعمه إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أى: حيلة احتلتموها أنتم و موسى عن مواطأة بينكم سابقة لِتُخْرِجُوا من مدينة مصر أَهْلَها من القبط، و تستولوا عليها، و تسكنوا فيها أنتم و بنو إسرائيل. و معنى فِي الْمَدِينَةِ أن هذه الحيلة و المواطأة كانت بينكم و أنتم بالمدينة مدينة مصر قبل أن تبرزوا أنتم و موسى إلى هذه الصحراء، ثم هدّدهم بقوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة صنعكم هذا و سوء مغبّته؛ ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ أى: الرجل اليمنى و اليد اليسرى، أو الرجل اليسرى و اليد اليمنى، ثم لم يكتف عدوّ اللّه بهذا، بل جاوزه إلى غيره فقال: ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جذوع النخل؛ أى أجعلكم عليها مصلوبين؛ زيادة تنكيل بهم و إفراطا فى تعذيبهم، و جملة قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ استئنافية، جواب سؤال كما تقدّم، و معناه: إنك و إن فعلت بنا هذا الفعل فتعدة يوم الجزاء، سيجازيك اللّه بصنعك و يحسن إلينا بما أصابنا فى ذاته، فتوعّدوه بعذاب اللّه فى الآخرة لما توعّدهم بعذاب الدنيا. و يحتمل أن يكون المعنى: إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ بالموت: أى لا بدّ لنا من الموت و لا يضرّنا كونه بسبب منك.

قوله: وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا قرأ الحسن بفتح القاف. قال الأخفش: هى لغة، و قرأ الباقون بكسرها، يقال:

نقمت الأمر: أنكرته، أى: لست تعيب علينا و تنكر منا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا مع أن هذا هو الشرف العظيم و الخير الكامل، و مثله لا يكون موضعا للعيب و مكانا للإنكار، بل هو حقيق بالثناء الحسن و الاستحسان البالغ، ثم تركوا خطابه، و قطعوا الكلام معه، و التفتوا إلى خطاب الجناب العليّ، مفوّضين الأمر إليه، طالبين منه عزّ و جلّ أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً الإفراغ: الصبّ؛ أى: اصببه علينا حتى يفيض و يغمرنا. طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعدادا منهم لما سينزل

بهم من العذاب من عدوّ اللّه و توطينا لأنفسهم على التصلّب فى الحق و ثبوت القدم على الإيمان، ثم قالوا:
وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ أى: توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّفين و لا مبدّلين و لا مفتونين، و لقد كان ما هم عليه من السّحر و المهارة فى علمه مع كونه شرّا محضا سببا للفوز بالسعادة، لأنهم علموا أن هذا

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٨

الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر، و أنه من فعل اللّه سبحانه، فوصلوا بالشرّ إلى الخير، و لم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان و الاعتراف و الإيمان، و إذا كانت المهارة فى علم الشرّ قد تأتى بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة فى علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا، و ثبت أقدامنا على الحق، و أفرغ علينا سجال الصبر و توفنا مسلمين. قوله: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه، أى: أ تتركه و قومه ليفسدوا فى الأرض بإيقاع الفرقة و تشتيت الشمل. و المراد بالأرض هنا: أرض مصر. قوله: وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قرأ نعيم بن ميسرة «و يذرك» بالرفع على تقدير مبتدأ، أى: و هو يذرك أو على العطف على أَ تَذَرُ مُوسى
أى: أ تذره و يذرك، و قرأ الأشهب العقيلى وَ يَذَرَكَ بالجزم: إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة، أو على ما قيل فى وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ فى توجيه الجزم. و قرأ أنس بن مالك «و نذرك» بالنون و الرفع، و معناه: أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه و آلهته. و قرأ الباقون «و يذرك» بالنصب بأن مقدّرة على أنه جواب الاستفهام و الواو نائبة عن الفاء أو عطفا على لِيُفْسِدُوا أى: ليفسدوا و ليذرك، لأنهم على الفساد فى زعمهم، و هو يؤدّى إلى ترك فرعون و آلهته.
و اختلف المفسرون فى معنى وَ آلِهَتَكَ لكون فرعون كان يدّعى الربوبية كما فى قوله: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و قوله: أَنَا رَبُّكُمْ* فقيل معنى و آلهتك: و طاعتك، و قيل معناه: و عبادتك، و يؤيده قراءة على و ابن عباس و الضحاك «و إلهتك» و فى حرف أبى «أ تذر موسى و قومه ليفسدوا فى الأرض و قد تركوك أن يعبدوك» و قيل: إنه كان يعبد بقرة، و قيل: كان يعبد النجوم، و قيل: كان له أصنام يعبدها قومه تقرّبا إليه فنسبت إليه، و لهذا قال: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى قاله الزجاج، و قيل: كان يعبد الشمس.
فقال فرعون مجيبا لهم و مثبتا لقلوبهم على الكفر: سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ قرأ نافع و ابن كثير «سنقتل» بالتخفيف، و قرأ الباقون بالتشديد، أى: سنقتل الأبناء و نستحيى النساء، أى: نتركهنّ فى الحياة، و لم يقل سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أى: مستعلون عليهم بالقهر و الغلبة، أو هم تحت قهرنا و بين أيدينا، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، و جملة قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ مستأنفة، جواب سؤال مقدّر. بما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة باللّه و الصبر على المحنة، ثم أخبرهم إِنَّ الْأَرْضَ يعنى أرض مصر لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أو جنس الأرض، و هو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون و قومه، و أن اللّه سيورثهم أرضهم و ديارهم. ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين، أى:
العاقبة المحمودة فى الدنيا و الآخرة للمتقين من عباده، و هم موسى و من معه. و عاقبة كل شيء آخره. و قرئ «و العاقبة» بالنصب عطفا على الأرض، و جملة قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا مستأنفة: جواب سؤال مقدّر كالتى قبلها؛ أى أوذينا من قبل أن تأتينا رسولا و ذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا رسولا بقتل أبنائنا الآن؛ و قيل المعنى: أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا فى الأعمال الشاقة بغير جعل وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا بما صرنا

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٦٩

فيه الآن من الخوف على أنفسنا و أولادنا و أهلنا؛ و قيل: إن الأذى من قبل و من بعد واحد، و هو قبض الجزية منهم، و جملة قالَ

عَسى رَبُّكَمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ مستأنفة كالتى قبلها، وعدهم بإهلاك اللّه لعدوّهم، و هو فرعون و قومه. قوله: وَ يَسْتَخْلِفَكَمْ فِی الْأَرْضِ هو تصريح بما رمز إليه سابقا من أن الأرض للّه.

و قد حقّق اللّه رجاءه، و ملكوا مصر فى زمان داود و سليمان، و فتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، و أهلك فرعون و قومه بالغرق و أنجاهم فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ من الأعمال بعد أن يمنّ عليكم بإهلاك عدوّكم وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِی الْأَرْضِ فيجازيكم بما عملتم فيه من خير و شرّ.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِی الْمَدِينَةِ إذ التقيتما لتظاهرا، فتخرجا منها أهلها لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ الآية، قال: فقتلهم و قطعهم كما قال. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان أوّل من صلب فرعون، و هو أوّل من قطع الأيدى و الأرجل من خلاف. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله: مِنْ خِلافٍ قال: يدا من هاهنا و رجلا من هاهنا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قال: من قبل إرسال اللّه إياك و من بعده. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن وهب بن منبه فى الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلّفنا اللبن قبل أن تأتينا، فلما جئت كلّفنا اللّبن مع التبن أيضا، فقال موسى: أى ربّ! أهلك فرعون، حتى متى تبقيه؟

فأوحى اللّه إليه أنهم لم يعملوا الذنب الذى أهلكهم به. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية قال:

حزا «۱» لعدوّ اللّه حاز أنه يولد فى العام غلام يسلب ملكك، قال: فتتبع أولادهم فى ذلك العام بذبح الذكر منهم، ثم ذبحهم أيضا بعد ما جاءهم موسى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: إن بناء- أهل البيت- يفتح و يختم، و لا بدّ أن تقع دولة لبنى هاشم فانظروا فيمن تكونوا من بنى هاشم؟ و فيهم نزلت عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ و ينبغى أن ينظر فى صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة فى بنى إسرائيل لا فى بنى هاشم واقعة فى هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى و فرعون.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۶]

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳) وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرائِيلَ (۱۳۴)

فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِی الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۳۶)

---

(۱). قال فى القاموس: حزا: تكهن.

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۲۷۰

المراد بآل فرعون هنا: قومه، و المراد بالسنين: الجدب، و هذا معروف عند أهل اللغة، يقولون أصابتهم سنة: أى جدب سنة، و فى الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف». و أكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم، و من العرب من

يعربه إعراب المفرد و يجرى الحركات على النون، و أنشد الفراء:

أرى مرّ السّنين أخذن منّى كما أخذ السّرار من الهلال

بكسر النون من السنين. قال النحاس: و أنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون.

أقول: قد ورد ما لا احتمال فيه و هو قول الشاعر:

و ماذا تزدرى الأقوام منّى و قد جاوزت حدّ الأربعين

و بعده:

أخو خمسين مجتمع أشدّى و نجّدنى مداورة الشّؤون

فإن الأبيات قبله و بعده مكسورة. و أوّل هذه الأبيات:

أنا ابن جلا و طلّاع الثّنايا متى أضع العمامة تعرفونى

و حكى الفرّاء عن بنى عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنينا، مصروفا، قال: و بنو تميم لا يصرفونه، و يقال أسنت القوم: أى أجدبوا، و منه قول ابن الزبعرى:

.....

و رجال مكّة مسنتون عجاف «١» وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ بسبب عدم نزول المطر و كثرة العاهات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فيتعظون و يرجعون عن غوايتهم. قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ أى: الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر و صلاح الثمرات و رخاء الأسعار قالُوا لَنا هذِهِ أى: أعطيناها باستحقاق، و هى مختصة بنا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ أى: خصلة سيئة من الجدب و القحط و كثرة الأمراض و نحوها من البلاء يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أى: يتشاءموا بموسى و من معه من المؤمنين به، و الأصل يتطيروا أدغمت التاء فى الطاء. و قرأ طلحة تطيروا على أنه فعل ماض، و قد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور و الحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشىء، و مثل هذا قوله تعالى وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ «٢» قيل:

---

(١). و صدره: عمرو العلا هشم الثّريد لقومه.

(٢). النساء: ٧٨.

و وجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع، و وجه تنكير السيئة ندرة وقوعها. قوله أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى: سبب خيرهم و شرهم بجميع ما ينالهم من خصب و قحط من عند اللّه ليس بسبب موسى و من معه، و كان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه و بما يفهمونه، و لهذا عبر بالطائر عن الخير و الشر الذى يجرى بقدر اللّه و حكمته و مشيئته وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ بهذا بل ينسبون الخير و الشر إلى غير اللّه جهلا منهم. و قرأ الحسن طيرهم قوله وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ قال الخليل: أصل مهما «ما» الشرطية زيدت عليه «ما» التى للتوكيد، كما تزاد فى سائر الحروف مثل:

حيثما و أينما و كيفما و متى ما، و لكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء. و قال الكسائى: أصله مه؛ أى: اكفف ما تأتينا به من آية، و زيدت عليها «ما» الشرطية؛ و قيل: هى كلمة مفردة يجازى بها، و محل مهما الرفع على الابتداء، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها، و من آية: لبيان مهما، و سموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده، و هو لِتَسْحَرَنا بِها أى: لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم، و الضمير فى به عائد إلى مهما، و الضمير فى بها عائد إلى آية؛ و قيل: إنهما جميعا عائدان إلى مهما، و تذكير الأوّل باعتبار اللفظ، و تأنيث الثانى باعتبار المعنى فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ جواب الشرط، أى: فما نحن

لک بمصدّقين، أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشیء مما يجیء به من الآيات التی هی زعمهم من السحر، فعند ذلک نزلت بهم العقوبة من اللّه عزّ و جلّ المبينة بقوله فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ و هو المطر الشديد.

قال الأخفش: واحده طوفانة، و قيل: هو مصدر، كالرجحان و النقصان فلا واحد له، و قيل: الطوفان:

الموت. و قال النّحاس: الطوفان فی اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل، أی: ما يطيف بهم فيهلكهم وَ الْجَرادَ هو الحيوان المعروف أرسله اللّه لأكل زروعهم فأكلها وَ الْقُمَّلَ قيل: هی الدباء؛ و الدباء: الجراد قبل أن تطير، و قيل: هی السوس، و قيل: البراغيث، و قيل: دواب سود صغار، و قيل:

ضرب من القردان، و قيل: الجعلان. قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. و قرأ الحسن القمل بفتح القاف و إسكان الميم. و قرأ الباقون بضم القاف و فتح الميم مشددة. و قد فسّر عطاء الخراسانی «القمل» بالقمل، وَ الضَّفادِعَ جمع ضفدع و هو الحيوان المعروف الذی يكون فی الماء وَ الدَّمَ روی أنه سأل النيل عليهم دما، و قيل: هو الرعاف. قوله آياتٍ مُفَصَّلاتٍ أی: مبينات، قال الزّجّاج: هو منصوب على الحال. و المعنى: أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات فَاسْتَكْبَرُوا أی: ترفعوا عن الإيمان باللّه وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ لا يهتدون إلى حق و لا ينزعون عن باطل، قوله وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ أی: العذاب بهذه الأمور التی أرسلها اللّه عليهم، و قرئ بضم الراء و هما لغتان، و قيل: كان هذا الرجز طاعونا مات به من القبط فی يوم واحد سبعون ألفا قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ أی: بما استودعک من العلم، أو بما اختصّک به من النبوّة؛ أو بما عهد إليک أن تدعو به فيجيبک، و الباء متعلقة بادع، على معنى: أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء، بحق ما عندک من عهد اللّه، أو ادع لنا متوسلا إليه بعهده عندک، و قيل: إن الباء للقسم، و جوابه لنؤمنن؛ أی: أقسمنا بعهد

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٧٢

اللّه عندک لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ على أن جواب الشرط سدّ جواب القسم، و على أن الباء ليست للقسم تكون اللام فی لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ جواب قسم محذوف، و لَنُؤْمِنَنَ جواب الشرط، سادّ مسدّ جواب القسم وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِی إِسْرائِيلَ معطوف على لنؤمنن، و قد كانوا حابسين لبنی إسرائيل عندهم يمتهنونهم فی الأعمال فوعدوه بإرسالهم معه فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ أی: رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى و سألوه ما سألوه، لكن لا رفعا مطلقا، بل رفعا مقيدا بغاية هی الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق، و جواب لما إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ أی: ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، و إذا: هی الفجائية، أی: فاجؤوا النكث و بادروه فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ أی: أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدّم لهم من الذنوب المتعددة فَأَغْرَقْناهُمْ فِی الْيَمِ أی: فی البحر، قيل:

هو الذی لا يدرک قعره، و قيل: هو لجته و أوسطه، و جملة بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا تعليل للإغراق وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ معطوف على كذبوا، أی: كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا، أو عن الآيات التی لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها و كانوا فی تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها، و الثانی أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق.

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ قال: السّنين الجوع. و أخرج ابن أبی شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: السّنين: الجوائح، وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ دون ذلک. و أخرج الحكيم الترمذی فی نوادر الأصول، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: لما أخذ اللّه آل فرعون بالسنين يبس كلّ شیء لهم، و ذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر، و اجتمعوا إلى فرعون، فقالوا: إن كنت كما تزعم فائتنا فی نيل مصر بماء، قال: غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال: أی شیء صنعت إن لم أقدر على أن أجری فی نيل مصر ماء غدوة كذبونی؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل و لبس مدرعة صوف ثم خرج حافيا حتى أتى

نيل مصر، فقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء، فما علم إلا بجزر الماء يقبل، فخرج و أقبل النيل يزخ بالماء لما أراد اللّه بهم من الهلكة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قال: العافية و الرخاء قالُوا لَنا هذِهِ نحن أحقّ بها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ قال: بلاء و عقوبة يَطَّيَّرُوا بِمُوسى قال: يتشاءموا به. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قال: الأمر من قبل اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عائشة قالت:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «الطوفان الموت» قال ابن كثير: هو حديث غريب. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان الغرق. و أخرج هؤلاء عن مجاهد قال: الطوفان الموت على كل حال.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان: مطروا دائما بالليل و النهار ثمانية أيام، و القمل: الجراد الذى له أجنحة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الطوفان أمر من أمر ربك، ثم قرأ فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ «١». و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن

---

(١). القلم: ١٩.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٢٧٣

أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: الطُّوفانَ الماء و الطاعون «١» وَ الْجَرادَ. قال: يأكل مسامير رتجهم؛ يعنى أبوابهم، و ثيابهم، وَ الْقُمَّلَ الدباء وَ الضَّفادِعَ تسقط على فرشهم و فى أطعمتهم، وَ الدَّمَ يكون فى ثيابهم و مائهم و طعامهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: القمل: الدباء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كانت الضفادع برّية، فلما أرسلها اللّه على آل فرعون سمعت و أطاعت فجعلت تقذف نفسها فى القدر و هى تغلى، و فى التنانير و هى تفور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: سال النيل دما فكان الإسرائيلى يستقى ماء طيبا، و يستقى الفرعونى دما، و يشتركان فى إناء واحد؛ فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء طيبا و ما يلى الفرعونى دما. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله وَ الدَّمَ قال: سلط اللّه عليهم الرعاف. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: مكث موسى فى آل فرعون بعد ما غلب السّحرة أربعين سنة يريهم الآيات و الجراد و القمل و الضفادع. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله آياتٍ مُفَصَّلاتٍ قال: كانت آيات مفصّلات يتبع بعضها بعضا ليكون للّه الحجّة عليهم. و أخرج ابن المنذر عنه قال: يتبع بعضها بعضا تمكث فيهم سبتا إلى سبت ثم ترفع عنهم شهرا. و أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الرّجز: العذاب». و أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: الرّجز: الطاعون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ قال: الغرق. و أخرج ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال: اليمّ البحر. و أخرج أيضا عن السدّى مثله.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٧ الى ١٤١]

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١۴١)

قوله وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ يعنى: بنى إسرائيل الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ أى يذلّون و يمتهنون بالخدمة لفرعون و قومه مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا منصوبان بأورثنا. و قال الكسائى و الفراء: إن الأصل: فى مشارق الأرض و مغاربها، ثم حذفت فى فنصبا، و الأوّل أظهر لأنه يقال أورثته المال، و الأرض: هى

---

(١). قال فى القاموس: الطاعون: الوباء.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٧۴

مصر و الشام، و مشارقها: جهات مشرقها. و مغاربها: جهات مغربها، و هى التى كانت لفرعون و قومه من القبط؛ و قيل: المراد جميع الأرض لأن داود و سليمان من بنى إسرائيل، و قد ملكا الأرض. قوله الَّتِي بارَكْنا فِيها صفة للمشارق و المغارب؛ و قيل: صفة الأرض، و المباركة فيها: إخراج الزرع و الثمار منها على أتمّ ما يكون و أنفع ما ينفع، قوله تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى أى: مضت و استمرت على التمام، و الكلمة هى وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «١»، و هذا وعد من اللّه سبحانه بالنّصر و الظفر بالأعداء و الاستيلاء على أملاكهم، و الحسنى: صفة للكلمة، و هى تأنيث الأحسن، و تمام هذه الكلمة عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون و قومه. قوله وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ التدمير: الإهلاك، أى: أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ قرأ ابن عامر و أبو بكر عن عاصم يَعْرِشُونَ بضم الراء. قال الكسائى: هى لغة تميم. و قرأ إبراهيم بن أبى عبلة يَعْرِشُونَ بتشديد الراء و ضم حرف المضارعة. و قرأ الباقون بكسر الراء مخففة أى: ما كانوا يعرشونه من الجنات، و منه قوله تعالى وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ «٢» و قيل معنى يعرشون: يبنون، يقال: عرش يعرش، أى: بنى يبنى. قوله وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ هذا شروع فى بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون و قومه.

و معنى جاوزنا ببنى إسرائيل البحر: جزناه بهم و قطعناه. و قرئ جوزنا بالتشديد، و هو بمعنى قراءة الجمهور فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قرأ حمزة و الكسائى «يعكفون» بكسر الكاف، و قرأ الباقون بضمها، يقال عكف يعكف، و يعكف بمعنى: أقام على الشىء و لزمه، و المصدر منهما عكوف؛ قيل هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة، كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ و قيل كانوا من الكنعانيين قالُوا أى: بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً أى:

صنما كائنا كالذى لهؤلاء القوم، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لإلها، فأجاب عليهم موسى، و قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات اللّه ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير اللّه، و لكن هؤلاء القوم، أعنى: بنى إسرائيل أشد خلق اللّه عنادا و جهلا و تلوّنا. و قد سلف فى سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك، ثم قال لهم موسى: إِنَّ هؤُلاءِ يعنى القوم العاكفين على الأصنام مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ التبار: الهلاك، و كل إناء منكسر فهو متبر، أى: أن هؤلاء هالك ما هم فيه مدمّر مكسر، و الذى هم فيه: هو عبادة الأصنام، أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمّر لا يتمّ منه شىء. قوله وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام. قال فى الكشاف: و فى إيقاع هؤلاء اسما لإن و تقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها، و سم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرّضون للتبار، و أنه لا يعدوهم ألبتة، و أنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ما طلبوا و يبغض إليهم ما أحبوا. قوله أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً الاستفهام للإنكار و التوبيخ، أى: كيف أطلب لكم غير اللّه إلها تعبدونه و قد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعض منه؟ و المعنى: أن

هذا الذى طلبتم لا يكون

---

(۱). القصص: ۵.

(۲). الأنعام: ۱۴۱.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۷۵

أبدا، و إدخال الهمزة على غير للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها، و غير مفعول للفعل الذى بعده، و إلها تمييز أو حال، و جملة وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم، بما أنعم به عليكم، من إهلاك عدوكم، و استخلافكم فى الأرض، و إخراجكم من الذلّ و الهوان إلى العزّ و الرفعة، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره؟ قوله وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أى: و اذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم و يمتهنونكم بأنواع الامتهانات، هذا على أن هذا الكلام محكىّ عن موسى، و أما إذا كان فى حكم الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد، فهو بمعنى اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون، و جملة يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ فى محل نصب على الحال، أى: أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و يجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه، و جملة يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ مفسرة للجملة التى قبلها، أو بدل منها. و قد سبق بيان ذلك، و الإشارة بقوله وَ فِي ذلِكُمْ إلى العذاب، أى: فى هذا العذاب الذى كنتم فيه بَلاءٌ عليكم مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ و قيل: الإشارة إلى الإنجاء، و البلاء: النعمة. و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها قال: الشام. و أخرج هؤلاء عن قتادة مثله. و أخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن عبد اللّه بن شوذب قال: هى فلسطين، و قد روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى قال:

ظهور قوم موسى على فرعون و تمكين اللّه لهم فى الأرض و ما ورثهم منها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ قال: يبنون. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى عمران الجونى مثله. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال: تماثيل بقر من نحاس، فلما كان عجل السامرى شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوّل شأن العجل ليكون للّه عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و صححه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول اللّه! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللّه أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الّذين من قبلكم». و أخرج نحوه ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه من طريق كثير بن عبد اللّه بن عوف عن أبيه عن جدّه مرفوعا، و كثير: ضعيف جدّا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله مُتَبَّرٌ قال: خسران. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال: هلاك.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۷۶

[سورة الأعراف (٧): آية ١۴٢]

وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١۴٢)

هذا من جملة ما كرم اللّه به موسى عليه السلام و شرفه. و الثلاثين: هى ذو القعدة و العشر هى عشر ذى الحجة، ضرب اللّه هذه المدة موعدا لمناجاة موسى و مكالمته، قيل: و كان التكليم فى يوم النحر، و الفائدة فى فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً مع العلم بأن الثلاثين و العشر أربعون لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها، فبين أن العشر غير الثلاثين، و أربعون ليلة منصوب على الحال، أى: فتم حال كونه بالغا أربعين ليلة.

قوله وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي أى: كن خليفتى فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضى إلى المناجاة وَ أَصْلِحْ أمر بنى إسرائيل بحسن سياستهم و الرفق بهم و تفقد أحوالهم وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ أى: لا تسلك سبيل العاصين و لا تكن عونا للظالمين.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله وَ واعَدْنا مُوسى الآية قال: ذو القعدة، و عشر من ذى الحجة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد عن مجاهد مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: إن موسى قال لقومه: إنّ ربّى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه و أخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربّه زاده اللّه عشرا، فكانت فتنتهم فى العشر الذى زاده اللّه، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامرى قد أبصر جبريل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، ثم ذكر قصة السامرىّ.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١۴٣ الى ١۴٧]

وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١۴٣) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١۴۴) وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (١۴۵) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (١۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١۴٧)

اللام فى لِمِيقاتِنا للاختصاص؛ أى: كان مجيئه مختصا بالميقات المذكور بمعنى أنه جاء فى الوقت الموعود وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ أى: أسمعه كلامه من غير واسطة. قوله أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ أى: أرنى نفسك أنظر إليك؛ أى سأله النظر إليه اشتياقا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه. و سؤال موسى للرؤية يدلّ على أنها جائزة

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٧٧

عنده فى الجملة، و لو كانت مستحيلة عنده لما سألها، و الجواب بقوله لَنْ تَرانِي يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذى طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرّائى حيا فى دار الدنيا، و أما رؤيته فى الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، و الجدال فى مثل هذا و المراوغة لا تأتى بفائدة، و منهج الحقّ واضح، و لكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان

عليه و أدرک عليه آباءه و أهل بلده، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع فی التعصب، و المتعصّب و إن كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء، و أذنه عن سماع الحق صمّاء، يدفع الحقّ و هو يظنّ أنه ما دفع غير الباطل، و يحسب أن ما نشأ عليه هو الحقّ؛ غفلة منه و جهلا بما أوجبه اللّه عليه من النظر الصحيح، و تلقی ما جاء به الكتاب و السنة بالإذعان و التسليم، و ما أقلّ المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فی الأصول و الفروع، فإنه صار بها باب الحقّ مرتجا، و طريق الإنصاف مستوعرة، و الأمر للّه سبحانه، و الهداية منه:

يأبی الفتی إلا اتّباع الهوی‌و منهج الحقّ له واضح

جملة قالَ لَنْ تَرانِی مستأنفة، لكونها جوابا لسؤال مقدّر، كأنه قيل: فما قال اللّه له؟ و الاستدراک بقوله وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِی معناه أنک لا تثبت لرؤيتی و لا يثبت لها ما هو أعظم منک جرما و صلابة و قوّة، و هو الجبل فانظر إليه فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ و لم يتزلزل عند رؤيتی له فَسَوْفَ تَرانِی و إن ضعف عن ذلک فأنت منه أضعف، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسی عليه السلام بالجبل؛ و قيل: هو من باب التعليق بالمحال، و علی تسليم هذا فهو فی الرؤية فی الدنيا لما قدّمنا.

و قد تمسک بهذه الآية كلا طائفتی المعتزلة و الأشعرية؛ فالمعتزلة استدلوا بقوله لَنْ تَرانِی و بأمره بأن ينظر إلی الجبل، و الأشعرية قالوا: إنّ تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدلّ علی أنها جائزة غير ممتنعة، و لا يخفاک أن الرؤية الأخروية هی بمعزل عن هذا كله، و الخلاف بينهم هو فيها، لا فی الرؤية فی الدنيا فقد كان الخلاف فيها فی زمن الصحابة و كلامهم فيها معروف. قوله فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا تجلی معناه:

ظهر، من قولک جلوت العروس: أی أبرزتها. و جلوت السيف: أخلصته من الصدأ، و تجلی الشی‌ء:

انكشف. و المعنی: فلما ظهر ربه للجبل جعله دكا، و قيل المتجلی: هو أمره و قدرته، قاله قطرب و غيره، و الدک: مصدر بمعنی المفعول، أی: جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا. هذا علی قراءة من قرأ دكا بالمصدر، و هم أهل المدينة و أهل البصرة، و أما علی قراءة أهل الكوفة جَعَلَهُ دَكَّاءَ علی التأنيث، و الجمع دكاوات كحمراء و حمراوات، و هی اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية، فالمعنی: أن الجبل صار صغيرا كالرابية أو أرضا مستوية. قال الكسائی: الدک: الجبال العراض، واحدها أدک. و الدكاوات جمع دكاء، و هی رواب من طين ليست بالغلاظ، والد كادک: ما التبد من الأرض فلم يرتفع، و ناقة دكاء: لا سنام لها وَ خَرَّ مُوسی صَعِقاً أی: مغشيا عليه مأخوذا من الصاعقة، و المعنی: أنه صار حاله لما غشی عليه كحال من يغشی عليه عند إصابة الصاعقة له. يقال صعق الرجل فهو صعق و مصعوق: إذا أصابته الصاعقة فَلَمَّا أَفاقَ من غشيته قالَ سُبْحانَکَ أی: أنزهک تنزيها من أن أسأل شيئا لم تأذن لی به تُبْتُ إِلَيْکَ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۲۷۸

عن العود إلی مثل هذا السؤال. قال القرطبی: و أجمعت الأمة علی أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون؛ و قيل: هی توبة من قتله للقبطی، ذكره القشيری، و لا وجه له فی مثل هذا المقام وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بک قبل قومی الموجودين فی هذا العصر المعترفين بعظمتک و جلالک، و جملة قالَ يا مُوسی مستأنفة كالتی قبلها، متضمنة لإكرام موسی و اختصاصه بما اختصه اللّه به. و الاصطفاء: الاجتباء و الاختيار، أی: اخترتک علی الناس المعاصرين لک برسالتی كذا قرأ نافع و ابن كثير بالإفراد، و قرأ الباقون بالجمع. و الرسالة مصدر، و الأصل فيه الإفراد، و من جمع فكأنه نظر إلی أن الرسالة هی علی ضروب، فجمع لاختلاف الأنواع، و المراد بالكلام هنا: التكليم. امتنّ اللّه سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، و هما: الرسالة و التكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه، أی: أعطاه من هذا الشرف الكريم، و أمره بأن يكون من الشاكرين علی هذا العطاء العظيم و الإكرام الجليل. قوله وَ كَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‌ءٍ من كل شی‌ء: أی

من كـلّ مـا يحتـاج إليه بنو إسـرائيل فى دينهم و دنيـاهم، و هـذه الألواح: هى التوراة، قيل: كانت من زمردة خضـراء؛ و قيل: من ياقوتة حمراء، و قيل:
من زبرجد، و قيل: من صخرة صماء. و قد اختلف فى عدد الألواح و فى مقدار طولها و عرضها، و الألواح:
جمع لوح، و سـمى لوحـا لكونه تلوح فيه المعـانى، و أسـند اللّه سـبحانه الكتابـة إلى نفسه تشـريفا للمكتوب فى الألـواح، و هى مكتوبـة بأمره سـبحانه؛ و قيل: هى كتابـة خلقها اللّه فى الألواح، و مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فى محل نصب على أنه مفعول كَتَبْنا و مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا بدل من محل كل شـىء، أى: موعظة لمن يتعظ بها من بنى إسـرائيل و غيرهم و تفصيلا للأحكام المحتاجة إلى التفصيل فَخُذْها بِقُوَّةٍ أى: خذ الألواح بقوّة، أى: بجدّ و نشاط، و قيل: الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شىء، أو إلى التوراة، قيل: و هـذا الأمر على إضـمار القول، أى: فقلنا له: خـذها، و قيل: إن فَخُذْها بدل من قوله فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أى: بـأحسن مـا فيهـا بمـا أجره أكـثر من غيره، و هو مثـل قوله تعـالى اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مـا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ «١»، و قـوله فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ و من الأحسن الصبر على الغير، و العفو عنه، و العمل بالعزيمـة دون الرخصة، و بالفريضـة دون النافلة، و فعل المأمور به، و ترك المنهىّ عنه. قوله سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قيل: هى أرض مصر التى كانت لفرعون و قومه، و قيل: منازل عاد و ثمود، و قيل: هى جهنم، و قيل: منازل الكفار من الجبارة و العمالقة ليعتبروا بها، و قيل الدار: الهلاك. و المعنى:
سـأريكم هلاك الفاسـقين. و قـد تقـدّم تحقيق معنى الفسق. قوله سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ قيل: معنى سَأَصْرِفُ عَنْ آيـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ سـأمنعهم فهم كتـابى، و قيـل سأصـرفهم عن الإيمـان بها، و قيل سأصـرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ «٢»، و قيل: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكّروا فيها و لا يعتبروا بها. و اختلف فى تفسير الآيات، فقيل: هى المعجزات، و قيل: الكتب المنزلة، و قيل: هى خلق السموات و الأرض، و صرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، و لا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، و حمل الصرف على

---

(١). الزمر: ٥٥.

(٢). الصف: ٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٧٩

جميع المعانى المـذكورة و بِغَيْرِ الْحَقِ إما متعلق بقوله يَتَكَبَّرُونَ أى: يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالا، أى: يتكبرون متلبسـين بغير الحق. قوله وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها معطوف على يَتَكَبَّرُونَ منتظم معه فى حكم الصـلة. و المعنى سأصـرف عن آيـاتى المتكبرين التـاركين للإيمـان بمـا يرونه من الآيـات، و يـدخل تحت كـل آيـة الآيات المنزلـة، و الآيات التكوينيـة، و المعجزات، أى: لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت. و قرأ مالك بن دينار يروا بضم الياء فى الموضـعين، و جملة وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا معطوفـة على ما قبلها داخلـة فى حكمها، و كـذلك جملـة وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا و المعنى: أنهم إذا وجـدوا سبيلا من سـبل الرشـد تركوه و تجنبوه، و إن رأوا سبيلا من سـبل الغىّ سـلكوه و اختاروه لأنفسـهم. قرأ أهل المدينة و أهل البصرة الرُّشْدِ بضم الراء و إسكان الشين. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بفتح الراء و الشين. قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرشـد و الرشـد، فقال: الرشد الصـلاح، و الرشد فى الدين. قال النحاس: سـيبويه يذهب إلى أن الرشد كالسـخط و السخط.
قال الكسائى: و الصحيح عن أبى عمرو و غيره ما قال أبو عبيـدة. و أصل الرشـد فى اللغـة: أن يظفر الإنسان بما يريد، و هو ضـدّ الخيبة، و الإشارة بقوله ذلِكَ إلى الصـرف، أى: ذلك الصـرف بسـبب تكذيبهم أو الإشارة إلى التكبر و عدم الإيمان بالآيات، و

تجنب سبيل الرشد، و سلوك سبيل الغيّ، و اسم الإشارة مبتدأ، و خبره جملة بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ أي: بسبب تكذيبهم بالآيات و غفلتهم عنها، و الموصول فى وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ مبتدأ. و خبره حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ و المراد بلقاء الآخرة: لقاء الدار الآخرة، أي: لقائهم لها أو لقائهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف، و حباط الأعمال، بطلانها، أي: بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة و الصلة و إن كانوا فى حال كفرهم لا طاعات لهم، و يحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوّة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح «أسلمت على ما أسلفت من خير». هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الكفر باللّه، و التّكذيب بآياته، و تنكب سبيل الحقّ، و سلوك سبيل الغيّ.

و قد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب قال: لما كلّم اللّه موسى قال: يا ربّ! أ هكذا كلامك؟ قال: يا موسى إنما أكلمك بقوّة عشرة آلاف لسان و لى قوة الألسن كلها، و لو كلمتك بكنه كلامى لم تك شيئا. و أخرج البزار و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، من حديث جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «لما كلّم اللّه موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه فقال له موسى: يا ربّ! أ هذا كلامك الذى كلمتنى به؟ قال: يا موسى! إنما كلمتك بقوّة عشرة آلاف لسان و لى قوّة الألسن كلها و أقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا: يا موسى! صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، أ لم تروا إلى أصوات الصّواعق التى تقتل، فى أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه و ليس به». و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن

ابن معاوية قال: إنّما كلّم اللّه موسى بقدر ما يطيق من كلامه، و لو تكلّم بكلامه كله لم يطقه شيء، فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور ربّ العالمين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ يقول: أعطنى أنظر إليك. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: لما سمع الكلام طمع فى الرؤية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال موسى لربه تبارك و تعالى: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قال اللّه: يا موسى! إنك لن ترانى، قال يقول: ليس ترانى و لا يكون ذلك أبدا، يا موسى! إنه لن يرانى أحد فيحيا، قال موسى ربّ إنى أراك ثم أموت أحبّ إلىّ من أن لا أراك ثم أحيا، فقال اللّه لموسى: يا موسى! انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ يقول: فإن ثبت مكانه لم يتضعضع و لم ينهد لبعض ما يرى من عظمتى فَسَوْفَ تَرانِي أنت لضعفك و ذلتك، و إن الجبل انهدّ بقوته و شدته و عظمته فأنت أضعف و أذلّ. و أخرج أحمد و عبد بن حميد، و الترمذى و صحّحه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن عدى فى الكامل، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى كتاب الرؤية، من طرق عن أنس بن مالك: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ هذه الآية فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا قال هكذا، و أشار بإصبعيه و وضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر، و فى لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً و فى لفظ فساخ الجبل فى الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، و هذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الجبل الذى أمره اللّه أن ينظر إليه الطور. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى كتاب الرؤية عن ابن عباس فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر جَعَلَهُ دَكًّا قال: ترابا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً قال: مغشيّا عليه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية و الديلمى عن أنس أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لما تجلّى اللّه للجبل طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة و ثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد و ورقان و رضوى، و بمكة: حراء و ثبير و ثور». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لما تجلّى اللّه لموسى تطايرت سبعة أجبل، ففى الحجاز خمسة منها، و فى اليمن اثنان، فى الحجاز: أحد و ثبير و حراء و ثور و ورقان، و فى اليمن: حضور و صبر». و أخرج ابن

جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عباس أن موسى لما كلّمه ربه أحبّ أن ينظر إليه فسأله فقال لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ قال: فحفّ حول الجبل الملائكة، و حفّ حول الملائكة بنار؛ و حف حول النار بملائكة؛ و حفّ حولهم بنار، ثم تجلّى ربّه للجبل تجلّى منه مثل الخنصر، فجعل دكا و خرّ موسى صعقا، فلم يزل صعقا ما شاء اللّه، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك و أنا أوّل المؤمنين من بنى إسرائيل. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن عليّ بن أبى طالب قال: كتب اللّه الألواح لموسى و هو يسمع صريف الأقلام فى لوح. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، كان طول اللوح اثنى عشر ذراعا». و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا يقولون: كانت الألواح

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۸۱

من ياقوتة. و أنا أقول: إنما كانت من زمرّد و كتابها الذهب، كتبها اللّه بيده، فسمع أهل السموات صريف الأقلام.

أقول: رحم اللّه سعيدا ما كان أغناه عن هذا الذى قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بالرأى و لا بالحدس، و الذى يغلب به الظنّ أن كثيرا من السلف- رحمهم اللّه- كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور، فلهذا اختلفت و اضطربت، فهذا يقول من خشب، و هذا يقول من ياقوت، و هذا يقول من زمرّد، و هذا يقول من زبرجد، و هذا يقول من برد، و هذا يقول من حجر. و أخرج أبو الشيخ عن السدى وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ كل شى‏ء أمروا به و نهوا عنه. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و قد اختلف السلف فى المكتوب فى الألواح اختلافا كثيرا، و لا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فَخُذْها بِقُوَّةٍ قال بجدّ و حزم سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قال: دار الكفار. و أخرج ابن جرير عنه وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال: أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فَخُذْها بِقُوَّةٍ قال: بطاعة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله فَخُذْها بِقُوَّةٍ يعنى: بجدّ و اجتهاد وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها قال: بأحسن ما يجدون منها. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ قال: مصيرهم فى الآخرة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: منازلهم فى الدنيا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال: جهنم. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: مصر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ قال: عن أن يتفكّروا فى آياتى. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج عَنْ آياتِيَ قال: عن خلق السّموات و الأرض و الآيات التى فيها، سأصرفهم عن أن يتفكّروا فيها أو يعتبروا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سفيان بن عيينة فى الآية قال: أنزع عنهم فهم القرآن.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۱]

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۱۴۹) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۵۰) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۱۵۱)

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۸۲

قوله وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ أى: من بعد خروجه إلى الطور مِنْ حُلِيِّهِمْ متعلّق ب:

اتّخذ أو بمحذوف وقع حالا، و من للتبعيض، أو للابتداء، أو للبيان، و الحلى: جمع حلى، و قرأ أهل المدينة و أهل البصرة مِنْ حُلِيِّهِمْ بضم الحاء و تشديد الياء. و قرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر الحاء. و قرأ يعقوب بفتح الحاء و تخفيف الياء، قال النحاس: جمع حلى و حلى و حلى مثل ثدى و ثدى و ثدى، و الأصل حلوى أدغمت الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء و تكسر الحاء لكسرة اللام و ضمها على الأصل، و أضيفت الحلى إليهم و إن كانت لغيرهم لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة، و عِجْلًا مفعول اتخذ، و قيل: هو بمعنى التصيير فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف، أى: اتخذوا عجلا إلها، و جَسَداً بدل من عجلا، و قيل:

وصف له، و الخوار: الصياح؛ يقال: خار يخور خوارا إذا صاح، و كذلك جأر يجأر جؤارا. و نسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعا مع أنه اتخذه السامرىّ وحده لكونه واحدا منهم، و هم راضون بفعله. روى أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم فى العشر المزيدة، قال السامرى لبنى إسرائيل، و كان مطاعا فيهم:

إنّ معكم حليا من حلى آل فرعون الذى استعرتموه منهم لتتزينوا به فى العيد و خرجتم و هو معكم، و قد أغرق اللّه أهله من القبط فهاتوها، فدفعوها إليه فاتخذ منها العجل المذكور. قوله أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ الاستفهام للتقريع و التوبيخ، أى: ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتّخذوه إلها لا يقدر على تكليمهم، فضلا عن أن يقدر على جلب نفع لهم، أو دفع ضرّ عنهم وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أى: طريقا واضحة يسلكونها اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ أى: اتخذوه إلها وَ كانُوا ظالِمِينَ لأنفسهم فى اتخاذه أو فى كل شىء، و من جملة ذلك: هذا الاتخاذ. قوله وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ أى: ندموا و تحيّروا بعد عود موسى من الميقات؛ يقال للنادم المتحيّر: قد سقط فى يده. قال الأخفش: يقال سقط فى يده و أسقط، و من قال: سقط فى أيديهم على البناء للفاعل، فالمعنى عنده: سقط الندم، و أصله أن من شأن من اشتدّ ندمه و حسرته أن يعضّ يده غما فتصير يده مسقوطا فيها، لأن فاه قد وقع فيها. و قال الأزهرى و الزجاج و النحاس و غيرهم: معنى سقط فى أيديهم: أى فى قلوبهم و أنفسهم، كما يقال: حصل فى يده مكروه، و إن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيها لما يحصل فى القلب و النفس بما يحصل فى اليد؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد، قال اللّه تعالى: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ و أيضا الندم و إن حلّ القلب فأثره يظهر فى البدن، لأن النادم يعضّ يده و يضرب أحدى يديه على الأخرى، قال اللّه تعالى: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها «۱» و منه وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ «۲» أى: من الندم، و أيضا: النادم يضع ذقنه فى يده وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا معطوف على سقط، أى: تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل و أنهم قد ابتلوا بمعصية اللّه سبحانه قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا قرأ حمزة و الكسائى بالفوقية فى الفعلين جميعا، و قرأ الباقون بالتحتية، و اللام للقسم، و جوابه لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و فى هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة باللّه و التضرع و الابتهال فى السؤال، و سيأتى فى سورة طه إن شاء اللّه ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، و إنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول و الفعل فى موضع واحد. قوله وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً

---

(۱). الكهف: ۴۲.

(۲). الفرقان: ۲۷.

هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، و انتصاب غضبان و أسفا: على الحال، و الأسف: شديد الغضب. قيل: هو منزلة وراء الغضب أشدّ منه، و هو أسف و أسيف و أسفان و أسوف، قال ابن جرير الطبرى: أخبره اللّه قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، فلذلك رجع و هو غضبان أسفا قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي هذا ذمّ من موسى لقومه؛ أى: بئس العمل ما عملتموه من بعدى؛ أى: من

بعد غیبتی عنکم، یقال: خلفه بخیر و خلفه بشرّ، استنکر علیهم ما فعلوه و ذمهم لکونهم قد شاهدوا من الآیات ما یوجب بعضه الانزجار و الإیمان باللّه وحده، و لکن هذا شأن بنی إسرائیل فی تلوّن حالهم و اضطراب أفعالهم، ثم قال منکرا علیهم أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ و العجلة: التقدّم بالشیء قبل وقته، یقال: عجلت الشیء: سبقته، و أعجلت الرجل حملته علی العجلة، و المعنی: أ عجلتم عن انتظار أمر ربکم: أی میعاده الذی وعدنیه، و هو الأربعون ففعلتم ما فعلتم، و قیل معناه: تعجلتم سخط ربکم؛ و قیل معناه: أ عجلتم بعبادة العجل أن یأتیکم أمر ربکم وَ أَلْقَی الْأَلْواحَ أی: طرحها لما اعتراه من شدّة الغضب و الأسف حین أشرف علی قومه و هم عاکفون علی عبادة العجل. قوله وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ أی: أخذ برأس أخیه هارون أو بشعر رأسه حال کونه یجرّه إلیه، فعل به ذلک لکونه لم ینکر علی السامریّ و لا غیره ما رآه من عبادة بنی إسرائیل للعجل فقال هارون معتذرا منه: ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی أی: إنی لم أطق تغییر ما فعلوه لهذین الأمرین: استضعافهم لی، و مقاربتهم لقتلی، و إنما قال ابن أمّ مع کونه أخاه من أبیه و أمه، لأنها کلمة لین و عطف، و لأنها کانت کما قیل مؤمنة. و قال الزجاج: قیل کان هارون أخا موسی لأمه لا لأبیه. قرئ ابْنَ أُمَ بفتح المیم تشبیها له بخمسة عشر، فصار کقولک یا خمسة عشر أقبلوا. و قال الکسائی و الفرّاء و أبو عبید:

إن الفتح علی تقدیر یا ابن أمّ، و قال البصریون: هذا القول خطأ، لأن الألف خفیفة لا تحذف، و لکن جعل الاسمین اسما واحدا کخمسة عشر، و اختاره الزجاج و النحاس. و أما من قرأ بکسر المیم فهو علی تقدیر ابن أمی، ثم حذفت الیاء و أبقیت الکسرة لتدل علیها. و قال الأخفش و أبو حاتم: ابن أمّ بالکسر، کما تقول یا غلام أقبل، و هی لغة شاذّة و القراءة بها بعیدة، و إنما هذا فیما یکون مضافا إلیک. و قرئ ابن أمی بإثبات الیاء. قوله فَلا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْداءَ الشماتة: السّرور من الأعداء بما یصیب من یعادونه من المصائب، و منه قوله صلّی اللّه علیه و سلّم «اللهم إنی أعوذ بک من سوء القضاء، و درک الشقاء، و جهد البلاء، و شماتة الأعداء» و هو فی الصحیح، و منه قول الشاعر:

إذا ما الدّهر جرّ علی أناس کلاکلة أناخ بآخرینا

فقل للشّامتین بنا أفیقوا سیلقی الشّامتون کما لقینا

و المعنی: لا تفعل بی ما یکون سببا للشماتة منهم. و قرأ مجاهد و مالک بن دینار «فلا تشمت بی الأعداء» بفتح حرف المضارعة و فتح المیم و رفع الأعداء، علی أن الفعل مسند إلیهم، أی: لا یکون ذلک منهم لفعل تفعله بی. و روی عن مجاهد أنه قرأ (تشمت) کما تقدّم عنه مع نصب الأعداء. قال ابن جنی: و المعنی فلا تشمت بی أنت یا ربّ! و جاز هذا کما فی قوله اللَّهُ یَسْتَهْزِئُ بِهِمْ و نحوه، ثم عاد إلی المراد فأضمر فعلا

فتح القدیر، ج۲، ص: ۲۸۴

نصب به الأعداء کأنه قال: و لا تشمت یا ربّ بی الأعداء، و ما أبعد هذه القراءة عن الصواب، و أبعد تأویلها عن وجوه الإعراب. قوله وَ لا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ أی: لا تجعلنی بغضبک علیّ فی عداد القوم الظالمین، یعنی: الذین عبدوا العجل أو لا تعتقد أنی منهم. قوله قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی هذا کلام مستأنف، جواب سؤال مقدّر، کأنه قیل: فماذا قال موسی بعد کلام هارون هذا؟ فقیل قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی طلب المغفرة له أوّلا، و لأخیه ثانیا لیزیل عن أخیه ما خافه من الشماتة، فکأنه تذمم مما فعله بأخیه، و أظهر أنه لا وجه له، و طلب المغفرة من اللّه مما فرط منه فی جانبه، ثم طلب المغفرة لأخیه إن کان قد وقع منه تقصیر فیما یجب علیهم من الإنکار علیهم و تغییر ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله و إدخال أخیه فی رحمة اللّه التی وسعت کلّ شیء، فهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ

و قد أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن المنذر عن مجاهد فی قوله وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسی الآیة، قال: حین دفنوها ألقی علیها

السامرى قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: استعاروا حليا من آل فرعون، فجمعه السامرى فصاغ منه عِجْلًا فجعله جَسَداً لحما و دما لَهُ خُوارٌ. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله خُوارٌ قال: الصوت. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: خار العجل خورة لم يثن أ لم تر أن اللّه قال أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ قال: ندموا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أَسِفاً قال: حزينا. و أخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال: الأسف: منزلة وراء الغضب أشدّ من ذلك. و أخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال: الأسف: الغضب الشديد. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: رفع اللّه منها ستة أسباعها و بقى سبع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال:
لما ألقاها موسى ذهب التّفصيل و بقى الهدى. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانت تسع رفع منها لوحان و بقى سبعة. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قال: مع أصحاب العجل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٢ الى ١٥٤]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

الغضب: ما نزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم، و ما سينزل بهم فى الآخرة من العذاب، و الذلّة:
هى التى ضربها اللّه عليهم بقوله ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ «١»، و قيل: هى إخراجهم من ديارهم، و قيل هى الجزية، و فيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم، و إنما أخذت من ذراريهم، و الأولى: أن يقيد الغضب و الذلة بالدنيا

---

(١). البقرة: ٦١.

لقوله فِي الْحَياةِ الدُّنْيا و إن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلها لا لمن بعدهم من ذراريهم، و مجرّد ما أمروا به، من قتل أنفسهم هو غضب من اللّه عليهم، و به يصيرون أذلاء. و كذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب اللّه عليهم، و به يصيرون أذلاء، و أما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصحّ تفسير ما فى الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقى، و هو لم يتعذر هنا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ أى: ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين، و الافتراء مثل: الكذب، فمن افترى على اللّه سيناله من اللّه غضب و ذلة فى الحياة الدنيا، و إن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد: ما يصدق عليه أنه من غضب اللّه سبحانه و أن فيه ذلة بأىّ نوع كان وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ أى سيئة كانت ثُمَّ تابُوا عنها من بعد عملها وَ آمَنُوا باللّه إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أى من بعد هذه التوبة، أو من بعد عمل هذه السيئات التى قد تاب عنها فاعلها و آمن باللّه لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران لذنوب عباده، و كثير الرحمة لهم. قوله وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أصل السكوت: السكون و الإمساك؛ يقال: جرى الوادى ثلاثا ثم سكن؛ أى: أمسك عن الجرى: قيل: هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، و يقول له قل لقومك كذا، و ألق الألواح و جرّ برأس أخيك فترك الإغراء و سكت؛ و قيل: هذا الكلام فيه قلب، و الأصل سكت موسى عن الغضب، كقولهم أدخلت الأصبع

الخاتم، و الخاتم الأصبع، و أدخلت القلنسوة رأسى، و رأسى القلنسوة.

و قرأ معاوية بن قرّة و لما سكن عن موسى الغضب و قرئ سكت و أسكت أَخَذَ الْأَلْواحَ التى ألقاها عند غضبه وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ النسخ: نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر، و يقال للأصل الذى كان النقل منه، نسخة. و للمنقول: نسخة أيضا. قال القشيرى: و المعنى: وَ فِي نُسْخَتِها: أى فيما نسخ من الألواح المتكسرة و نقل إلى الألواح الجديدة هُدىً وَ رَحْمَةٌ و قيل المعنى: و فيما نسخ له منها، أى: من اللوح المحفوظ؛ و قيل المعنى: و فيما كتب له فيها هدى و رحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، و هذا كما يقال: أنسخ ما يقول فلان، أى: أثبته فى كتابك و النسخة فعلة، بمعنى مفعولة كالخطبة. و الهدى:

ما يهتدون به من الأحكام؛ و الرحمة: ما يحصل لهم من اللّه عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة؛ و اللام فى لِلَّذِينَ هُمْ متعلّقة بمحذوف، أى: كائنة لهم أو لأجلهم، و اللام فى لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ للتقوية للفعل، لما كان مفعوله متقدّما عليه فإنه يضعف بذلك بعض الضعف. و قد صرح الكسائى بأنها زائدة. و قال الأخفش: هى لام الأجل أى لأجل ربهم يرهبون. و قال محمد بن يزيد المبرد: هى متعلّقة بمصدر الفعل المذكور، و التقدير: للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون.

و قد أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أيوب قال: تلا أبو قلابة هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إلى قوله وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ قال: هو جزاء كلّ مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أعطى موسى التوراة فى سبعة ألواح من زبرجد، فيها تبيان لكلّ شىء و موعظة، و لما جاء فرأى بنى إسرائيل عكوفا على العجل رمى التوراة من يده فتحطّمت، و أقبل على هارون فأخذ برأسه فرفع اللّه منها ستة أسباع و بقى سبع

وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ قال: فيما بقى منها. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال: كانت الألواح من زمرد فلما ألقاها موسى ذهب التّفصيل، و بقى الهدى و الرحمة، و قرأ وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‌ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‌ءٍ و قرأ: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ قال: و لم يذكر التفصيل هاهنا.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٥٧]

وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (١٥٥) وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‌ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

قوله وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا هذا شروع فى بيان ما كان من موسى و من القوم الذين اختارهم. و سبعين: مفعول اختار، و قومه منصوب بنزع الخافض، أى: من قومه على الحذف و الإيصال، و مثله قول الرّاعى:

اخترتك النّاس إذ رثّت خلائقهمو اختلّ من كان يرجى عنده السّول

يريد اخترتك من الناس، و معنى لِمِيقاتِنا للوقت الذى وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع، و الميقات: الكلام الذى تقدم ذكره

لأن اللّه أمره أن يأتى إلى الطور فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل؛ و الرجفة فى اللغة: الزلزلة الشديدة، قيل: إنهم زلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ قاله عليه السلام تحسرا و تلهفا، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى اللّه عنهم من قولهم وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ على ما تقدّم فى البقرة؛ و قيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً «۱» بل أخذتهم الرجفة، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل؛ و قيل: إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل و لا نهوا السامرىّ و من معه عن عبادته، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم، و المعنى: لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافا منه عليه السلام بالذنب، و تلهفا على ما فرط من قومه، و الاستفهام فى قوله: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا للجحد، أى: لست ممن يفعل ذلك، قاله ثقة منه برحمة اللّه، و المقصود منه الاستعطاف و التضرّع، و قيل معناه الدعاء و الطلب، أى: لا تهلكنا. قال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه

(۱). البقرة: ۵۵.

يقول: و قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره، و لكنه كقول عيسى إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ «۱»؛ و قيل: المراد بالسفهاء: السبعون، و المعنى: أ تهلك بنى إسرائيل لما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً؛ و قيل: المراد بهم: السامرى و أصحابه. قوله إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أى: ما الفتنة التى وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التى تختبر بها من شئت و تمتحن بها من أردت، و لعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ «۲» تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أى: تضلّ بهذه الفتنة من تشاء من عبادك، و تهدى بها من تشاء منهم، و مثله لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا* «۳»، ثم رجع إلى الاستعطاف و الدعاء فقال أَنْتَ وَلِيُّنا أى: المتولى لأمورنا فَاغْفِرْ لَنا ما أذنبناه وَ ارْحَمْنا برحمتك التى وسعت كل شىء وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ للذنوب وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً بتوفيقنا للأعمال الصّالحة، أو تفضل علينا بإفاضة النعم فى هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق وَ فِي الْآخِرَةِ أى: و اكتب لنا فى الآخرة الجنة بما تجازينا به، أو بما تتفضّل به علينا من النعيم فى الآخرة، و جملة إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة و الرحمة و الحسنة فى الدنيا و فى الآخرة، أى: إنا تبنا إليك و رجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسرائيل. و الهود: التوبة. و قد تقدّم فى البقرة، و جملة قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ مستأنفة كنظائرها فيما تقدّم، قيل: المراد بالعذاب هنا: الرجفة، و قيل: أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم، أى: ليس هذا إليك يا موسى، بل ما شئت كان، و ما لم أشأ لم يكن. و الظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب، و يدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا أوّليا؛ و قيل: المراد من أشاء من المستحقين للعذاب، أو من أشاء أن أضله و أسلبه التوفيق وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ من الأشياء من المكلفين و غيرهم، ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الذنوب وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ المفروضة عليهم وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ أى: يصدّقون بها و يذعنون لها، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله و أصرح فقال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ و هو محمد عليه الصلاة و السّلام، فخرجت اليهود و النصارى و سائر الملل. و الأمى: إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لا تكتب و لا تحسب، و هم العرب، أو نسبة إلى الأم. و المعنى أنه باق على حالته التى ولد عليها لا يكتب و لا يقرأ المكتوب؛ و قيل: نسبة إلى أمّ القرى، و هى مكة الَّذِي يَجِدُونَهُ يعنى اليهود و النصارى، أى:
يجدون نعته مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ و هما مرجعهم فى الدين، و هذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وصف هذا النبىّ الذى يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف، أى: بكل ما تعرفه

القلوب و لا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أى: ما تنكره القلوب و لا تعرفه، و هو ما كان من مساوئ الأخلاق، قيل: إن قوله يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ إلى قوله أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها، ذكر معناه الزجاج، و قيل: هو فى محل نصب على الحال من النبىّ، و قيل: هو مفسر لقوله مَكْتُوباً. قوله يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات، و قيل: يحلّ لهم ما حرّم عليهم من الأشياء التى حرّمت عليهم بسبب

---

(١). المائدة: ١١٨.

(٢). طه: ٨٥.

(٣). هود: ٧.

ذنوبهم وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ أى: المستخبثات كالحشرات و الخنازير وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ الإصر: الثقل، أى: يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة. و قد تقدّم بيانه فى البقرة وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ أى: و يضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم، الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أى: بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ اتَّبِعُوهُ فيما جاء به من الشرائع وَ عَزَّرُوهُ أى: عظموه و وقروه، قاله الأخفش، و قيل: معناه منعوه من عدّوه، و أصل العزر: المنع، و قرأ الجحدرى وَ عَزَّرُوهُ بالتخفيف وَ نَصَرُوهُ أى: قاموا بنصره على من يعاديه وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أى: اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوّته؛ و قيل المعنى: و اتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتّباعه بالعمل بسنته مما يأمر به و ينهى عنه، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه، و الإشارة ب أُولئِكَ إلى المتصفين بهذه الأوصاف هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالخير و الفلاح لا غيرهم من الأمم.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ الآية.

قال: كان اللّه أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا اللّه أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحدا من قبلنا و لا تعطه أحدا بعدنا، فكره اللّه ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة قالَ موسى رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ يقول: إن هى إلا عذابك تصيب به من تشاء و تصرفه عمّن تشاء. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد لِمِيقاتِنا قال: لتمام الموعد، و فى قوله: فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال:

ماتوا ثم أحياهم. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ قال:

بليتك. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ قال: مشيئتك. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنّ السّبعين الذين اختارهم موسى من قومه، إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم يرضوا بالعمل و لم ينهوا عنه. و أخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ فلم يعطها موسى قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ إلى قوله الْمُفْلِحُونَ و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ قال: فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قال: تبنا إليك. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى وجرة السعدى،- و كان من أعلم الناس بالعربية- قال: لا و اللّه ما أعلمها فى كلام العرب هدنا؛ قيل: فكيف؟ قال: هدنا بكسر الهاء؟ يقول: ملنا. و أخرج عبد الرزاق و أحمد فى الزهد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن و قتادة فى قوله وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ قال: وسعت رحمته فى الدنيا البرّ و الفاجر، و هى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. و أخرج مسلم و غيره عن سلمان عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال «إن للّه مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، و بها تعطف الوحوش على

أولادها، و أخّر تسعة و تسعين إلى يوم القيامة». و أخرج نحوه أحمد و أبو داود و الطبرانى و الحاكم و الضياء المقدسى من حديث

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٨٩

جندب بن عبد اللّه البجلى. و أخرج أبو الشيخ عن السدى قال: لما نزلت وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قال إبليس: و أنا من الشى‏ء، فنسخها اللّه، فنزلت فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ إلى آخر الآية. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن أريج قال: لما نزلت وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قال إبليس: أنا من الشى‏ء، قال اللّه تعالى فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ قالت اليهود: فنحن نتقى و نؤتى الزكاة، قال اللّه الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَ فعزلها اللّه عن إبليس و عن اليهود، و جعلها لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج البزار فى مسنده و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم، قوله: وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ إلى قوله فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ فأعطى محمدا كلّ شى‏ء سأل موسى ربّه فى هذه الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه فى قوله فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ قال: كتبها اللّه لهذه الأمة. و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: يتقون الشّرك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن النخعى فى قوله النَّبِيَّ الْأُمِّيَ قال: كان لا يقرأ و لا يكتب. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: هو نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم كان أميا لا يكتب. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ قال: يجدون نعته و أمره و نبوته مكتوبا عندهم. و أخرج ابن سعد و البخارى و ابن جرير، و البيهقى فى الدلائل، عن عطاء بن يسار قال:

لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرنى عن صفة رسول اللّه، قال: أجل، و اللّه إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا، و حرزا للأميين أنت عبدى و رسولى سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ و لا غليظ و لا صخّاب فى الأسواق و لا تجزى بالسيئة السيئة، و لكن تعفو و تصفح، و لن يقبضه اللّه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه، و يفتح به أعينا عميا و آذانا صمّا و قلوبا غلفا». و أخرج ابن سعيد و الدارمى فى مسنده و البيهقى فى الدلائل و ابن عساكر عن عبد اللّه بن سلام مثله. و قد روى نحو هذا مع اختلاف بعض الألفاظ و زيادة و نقص فى بعض عن جماعة.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ قال: الحلال وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ قال: التثقيل الذى كان فى دينهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ قال: كلحم الخنزير و الربا و ما كانوا يستحلونه من المحرّمات من المآكل التى حرمها اللّه، و فى قوله وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ قال: هو ما كان اللّه أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ قال: ما غلظ على بنى إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم و نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ عَزَّرُوهُ يعنى: عظّموه و وقروه.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٢٩٠

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٨]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ

النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِی یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ کَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸)
لما تقدّم ذكر أوصاف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المكتوبة فى التوراة و الإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس، جميعا، لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، و جَمِیعاً منصوب على الحال، أى: حال كونكم جميعا، و الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إما فى محل جرّ على الصفة للاسم الشريف أو منصوب على المدح، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و جملة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ بدل من الصلة، مقرر لمضمونها مبين لها، لأنّ من ملك السموات و الأرض و ما فيهما هو الإله على الحقيقة، و هكذا من كان يحيى و يميت هو المستحقّ لتفرّده بالربوبية و نفى الشركاء عنه، و الأمر بالإيمان باللّه و برسوله متفرع على ما قبله، و قد تقدّم تفسير النبىّ الأمّى، و هما وصفان لرسوله، و كذلك الَّذِی یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ کَلِماتِهِ وصف له، و المراد بالكلمات ما أنزله اللّه عليه و على الأنبياء من قبله أو القرآن فقط، و جملة وَ اتَّبِعُوهُ مقررة لجملة فَآمِنُوا بِاللَّهِ و لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ علة للأمر بالإيمان و الاتّباع.
و قد أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الأحمر و الأسود فقال: يا أَیُّهَا النَّاسُ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً و الأحاديث الصحيحة الكثيرة فى هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ کَلِماتِهِ قال: آياته. و أخرج أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد وَ کَلِماتِهِ قال: عيسى.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۶]

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَیْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَیْنا إِلی مُوسی إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَیْناً قَدْ عَلِمَ کُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَیْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَیْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوی کُلُوا مِنْ طَیِّباتِ ما رَزَقْناکُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۶۰) وَ إِذْ قِیلَ لَهُمُ اسْکُنُوا هذِهِ الْقَرْیَةَ وَ کُلُوا مِنْها حَیْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَکُمْ خَطِیئاتِکُمْ سَنَزِیدُ الْمُحْسِنِینَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَیْرَ الَّذِی قِیلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما کانُوا یَظْلِمُونَ (۱۶۲) وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْیَةِ الَّتِی کانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ یَعْدُونَ فِی السَّبْتِ إِذْ تَأْتِیهِمْ حِیتانُهُمْ یَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ یَوْمَ لا یَسْبِتُونَ لا تَأْتِیهِمْ کَذلِکَ نَبْلُوهُمْ بِما کانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۳)
وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلی رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِیسٍ بِما کانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ (۱۶۶)

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۹۱

قوله: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسی لما قصّ اللّه علينا ما وقع من السامرىّ و أصحابه، و ما حصل من بنى إسرائيل من التزلزل فى الدين، قصّ علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدّم ذكرهم، و وصفهم بأنهم یَهْدُونَ بِالْحَقِ أى: يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق وَ بِهِ أى: بالحق یَعْدِلُونَ بين الناس فى الحكم؛ و قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم منهم. قوله: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَیْ عَشْرَةَ أَسْباطاً الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدّم ذكرهم، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق و به يعدلون، و المعنى: صيرناهم قطعا متفرّقة و ميزنا بعضهم من بعض، و هذا من جملة ما قصّه اللّه علينا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، و المعنى: أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا، كل سبط معروف على انفراده، لكل سبط نقيب، كما فى قوله تعالى: وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً «۱» و قد تقدّم. و قوله:

اثْنَتَیْ عَشْرَةَ هو ثانى مفعولى قطعنا لتضمنه معنى التصيير، و أسباطا: تمييز له، أو بدل منه، و أَمَماً نعت للأسباط أو بدل منه، و الأسباط: جمع سبط: و هو ولد الولد، صاروا اثنتى عشرة أمة من اثنى عشر ولدا، و أراد بالأسباط: القبائل، و لهذا أنث العدد كما فى قول الشاعر:

و إنّ قريشا كلّها عشر أبطنو أنت برىء من قبائلها العشر

أراد بالبطن: القبيلة، و قد تقدّم تحقيق معنى الأسباط فى البقرة، و روى المفضّل عن عاصم أنه قرأ قَطَّعْناهُمُ مخففا، و سماهم أمما، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد، و كانوا مختلفى الآراء يؤمّ بعضهم غير ما يؤمه الآخر وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أى: وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش فى التيه أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ تفسير لفعل الإيحاء فَانْبَجَسَتْ عطف على مقدّر يدل عليه السياق، أى: فضرب فانبجست، و الانبجاس: الانفجار، أى: فانفجرت مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً بعدد الأسباط لكل سبط عين يشربون منها قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ أى: كل سبط منهم العين المختصة به التى يشرب منها، و قد تقدّم فى البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ أى: جعلناه ظللا عليهم فى التيه، يسير بسيرهم، و يقيم بإقامتهم وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى أى: الترنجبين و السمانى، كما تقدّم تحقيقه فى البقرة كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ أى: و قلنا لهم كلوا من المستلذات التى رزقناكم وَ ما ظَلَمُونا بما وقع منهم من المخالفة و كفران النعم و عدم تقديرها حق قدرها وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أى: كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم، لا يجاوزهم إلى غيرهم وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ أى: و اذكر وقت قيل لهم هذا القول و هو اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ أى: ببيت المقدس أو أريحاء، و قيل:

---

(۱). المائدة: ۱۲.

غير ذلك مما تقدم بيانه وَ كُلُوا مِنْها أى: من المأكولات الموجودة فيها حَيْثُ شِئْتُمْ أى: فى أىّ مكان شئتم من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه وَ قُولُوا حِطَّةٌ قد تقدم تفسيرها فى البقرة وَ ادْخُلُوا الْبابَ أى: باب القرية المتقدمة حال كونكم سُجَّداً أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة، و بين الدخول ساجدين، فلا يقال كيف قدّم الأمر بالقول هنا على الدخول و أخره فى البقرة؟ و قد تقدّم بيان معنى السجود الذى أمروا به نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ جواب الأمر. و قرئ خطيتكم ثم وعدهم بقوله: سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أى: سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضّل به عليهم من النعم، و الجملة استئنافية جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا لهم بعد المغفرة؟ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِی قِيلَ لَهُمْ قد تقدّم بيان ذلك فى البقرة فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ أى: عذابا كائنا منها بِما كانُوا يَظْلِمُونَ أى: بسبب ظلمهم. قوله: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِی كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ معطوف على عامل إذ المقدّر، أى: اذكر إذ قيل لهم و اسألهم، و هذا سؤال تقريع و توبيخ، و المراد من سؤال القرية: سؤال أهلها، أى: اسألهم عن هذا الحادث الذى حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم اللّه به. و فى ضمن هذا السؤال فائدة جليلة، و هى تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من اللّه سبحانه، فيكون دليلا على صدقه.

و اختلف أهل التفسير فى هذه القرية: أىّ قرية هى؟ فقيل: أيلة، و قيل: طبرية، و قيل: مدين، و قيل:

إيليا، و قيل: قرية من قرى ساحل الشام التى كانت حاضرة البحر؛ أى: التى كانت بقرب البحر، يقال كنت بحضرة الدار؛ أى: بقربها. و المعنى: سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة. قرئ «و اسألهم» و قرئ «سلهم». إِذْ يَعْدُونَ أى: وقت يعدون، و هو ظرف لمحذوف دلّ عليه الكلام، لأن السؤال هو عن حالهم و قصتهم وقت يعدون؛ و قيل: إنه ظرف لكانت أو لحاضرة.

و قرئ «يعدّون» بضم الياء و كسر العين و تشديد الدال من الإعداد للآلة. و قرأ الجمهور يَعْدُونَ بفتح الياء و سكون العين و ضم الدال مخففة، أى: يتجاوزون حدود اللّه بالصيد يوم السبت الذى نهوا عن الاصطياد فيه، و قرئ «يعدّون» بفتح الياء و العين و ضم الدال مشدّدة، و بمعنى يعتدون، أدغمت التاء فى الدال. و السبت: هو اليوم المعروف، و أصله السكون، يقال سبت إذا سكن و سبت اليهود تركوا العمل فى سبتهم، و الجمع أسبت، و سبوت، و أسبات، و قرأ ابن السميقع فى «الأسبات» على الجمع إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ ظرف ليعدون. و الحيتان: جمع حوت و أضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه، و يَوْمَ سَبْتِهِمْ ظرف لتأتيهم. و قرئ «يوم أسباتهم» و شُرَّعاً حال، و هو جمع شارع، أى: ظاهرة على الماء، و قيل: رافعة رؤوسها، و قيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض. قال فى الكشاف: يقال: شرع علينا فلان: إذا أدنى منا، و أشرف علينا، و شرعت على فلان فى بيته، فرأيته يفعل كذا، انتهى وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ أى: لا يفعلون السبت، و ذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان كما كانت تأتيهم فى يوم السبت كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ أى:

فتح القدير، ج ٢، ص: ٢٩٣

مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم، و الابتلاء: الامتحان و الاختبار وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ معطوف على إذ يعدون معمول لعامله داخل فى حكمه، و الأمة: الجماعة، أى: قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد فى وعظ المتعدّين فى السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة، و إقلاعهم عن المعصية لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أى: مستأمل لهم بالعقوبة أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً بما انتهكوا من الحرمة، و فعلوا من المعصية؛ و قيل: إن الجماعة القائلة لم تعظون قوما؟ هم العصاة الفاعلون للصيد فى يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم. و المعنى: إذا علمتم أن اللّه مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ أى: قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون، و هم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأوّل، أو الفاعلين على الوجه الثانى مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ قرأ عيسى بن عمر و طلحة بن مصرف مَعْذِرَةً بالنصب، و هى قراءة حفص عن عاصم، و قرأ الباقون بالرفع. قال الكسائى: و نصبه على وجهين: أحدهما على المصدر، و الثانى: على تقدير فعلنا ذلك معذرة، أى: لأجل المعذرة. و الرفع على تقدير مبتدأ، أى: موعظتنا معذرة إلى اللّه حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر اللذين أوجبهما علينا، و لرجاء أن يتعظوا فيتقوا و يقلعوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسّرين: إنّ بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت و صادت و كانت نحو سبعين ألفا، و فرقة اعتزلت فلم تنه و لم تعص، و فرقة اعتزلت و نهت و لم تعص، فقالت الطائفة التى لم تنه و لم تعص للفرقة الناهية: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً يريدون: الفرقة العاصية اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ قالوا ذلك على غلبة الظنّ لما جرت به عادة اللّه من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى اللّه، و لعلهم يتقون، و لو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، و عاصية، لقال: لعلكم تتقون.

قوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أى: لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسى للشىء المعرض عنه كلية الإعراض أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ أى: الذين فعلوا النهى، و لم يتركوه وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا و هم العصاة المعتدون فى السبت بِعَذابٍ بَئِيسٍ أى:

شديد، من بؤس الشىء يبؤس بأسا إذا اشتد، و فيه إحدى عشرة قراءة للسبعة و غيرهم بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أى: بسبب فسقهم، و الجار و المجرور متعلق بأخذنا فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ أى: تجاوزوا الحد فى معصية اللّه سبحانه تمرّدا و تكبرا قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً أى: أمرناهم أمرا كونيا لا أمرا قوليا، أى:

مسخناهم قردة، قيل إنه سبحانه عذبهم أوّلا بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم قردة؛ و قيل إن قوله:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا تكرير لقوله: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ للتأكيد و التقرير، و أن المسخ هو العذاب البئيس، و الخاسئ: الصاغر الذليل أو المباعد المطرود، يقال: خسأته فخسئ، أى: باعدته فتباعد. و اعلم أن ظاهر النظم القرآنى هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ و أنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدّم فالطائفة التى لم تنه و لم تعص يحتمل

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۹۴

أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهى و عتت عما نهاها اللّه عنه من ترك النهى عن المنكر، و يحتمل أنها لم تمسخ لأنها و إن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها و نهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة، و هى صيد الحوت فى يوم السبت، و لا عتت عن نهيه لها عن الصيد؛ و أما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية، و إنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها و بين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين، فهما فى الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما فى النهى و الاعتزال و النجاة من المسخ.

و قد أخرج الفريابى و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال موسى: يا ربّ! أجد أمة أناجيلهم فى قلوبهم، قال: تلك أمة تكون بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهنّ، قال: تلك أمة تكون بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون، قال: تلك بعدك؛ أمة أحمد، قال: يا ربّ! اجعلنى من أمة أحمد، فأنزل اللّه كهيئة المرضاة «۱» لموسى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ الآية، قال: بلغنى أنّ بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم و كفروا و كانوا اثنى عشر سبطا، تبرأ سبط منهم مما صنعوا، و اعتذروا، و سألوا اللّه أن يفرق بينهم و بينهم، ففتح اللّه لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً «۲» و وعد الآخرة: عيسى بن مريم. قال ابن عباس: ساروا فى السرب سنة و نصفا.

أقول: و مثل هذا الخبر العجيب و النبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، و افترقت النصارى بعد عيسى اثنتين و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، و لتفترقن هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة كلّها فى النار إلا فرقة، فأما اليهود فإن اللّه يقول:

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ فهذه التى تنجو، و أما النصارى فإن اللّه يقول: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ «۳» فهذه التى تنجو، و أما نحن فيقول: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۴» فهذه التى تنجو من هذه الأمة. و قد قدّمنا: أنّ زيادة كلها فى النار لم تصح لا مرفوعة و لا موقوفة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَانْبَجَسَتْ قال: فانفجرت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال: دخلت على ابن عباس، و هو يقرأ هذه الآية وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ قال: يا عكرمة! هل تدرى أىّ قرية هذه؟ قلت لا، قال: هى أيلة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال: هى طبرية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس

---

(۱). أى: ترضية له.

(۲). الإسراء: ۱۰۴.

(۳). المائدة: ۶۶.

(۴). الأعراف: ۱۸۱.

فتح القدير، ج۲، ص: ۲۹۵

فى قوله: إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ قال: يظلمون. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: شُرَّعاً يقول: من كل مكان. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: ظاهرة على الماء. و أخرج ابن المنذر عنه قال: واردة.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: هى قرية على شاطئ البحر بين مصر و المدينة يقال لها أيلة، فحرّم اللّه عليهم الحيتان يوم سبتهم فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمكثوا كذلك ما شاء اللّه، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة، فلم يزدادوا إلا غيا. فقالت طائفة من النهاة يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ و كانوا أشدّ غضبا من الطائفة الأخرى و كل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب اللّه نجت الطائفتان اللتان قالوا لِمَ تَعِظُونَ و الذين قالوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ و أهلك اللّه أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أنهم ثلاث فرق: فرقة العصاة، و فرقة الناهون، و فرقة القائلون لم تعظون؛ فما نجا إلا الذين نهوا و هلك سائرهم، فأصبح الذين نهوا ذات غداة فى مجالسهم يتفقدون الناس لا يرونهم، و قد باتوا من ليلتهم و غلقوا عليهم دورهم. فجعلوا يقولون إن للناس لشأنا فانظروا ما شأنهم؟ فاطلعوا فى دورهم فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه و إنه لقرد، و المرأة بعينها و إنها لقردة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن عكرمة عن ابن عباس فذكر القصة، و فى آخرها أنه قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا و لا أرى الآخرين ذكروا، و نحن نرى أشياء ننكرها و لا نقول فيها. قال عكرمة: فقلت: جعلنى اللّه فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه و خالفوهم، و قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ قال:

فأمر بى فكسيت ثوبين غليظين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس أيضا قال: نجا الناهون و هلك الفاعلون، و لا أدرى ما صنع بالساكتين. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عنه قال: و اللّه لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحبّ إلى مما عدل به. و فى لفظ: من حمر النعم. و لكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعا.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة قال: قال ابن عباس: ما أدرى أ نجا الذين قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أم لا؟ قال: فما زلت أبصّره حتى عرف أنهم قد نجوا فكسانى حلة.

و أخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبى سليم قال: مسخوا حجارة الذين قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: بِعَذابٍ بَئِيسٍ قال: أليم وجيع.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۷ الى ۱۷۰]

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۶۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (۱۷۰)

فتح القدير، ج‏2، ص: 296

قوله: وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ معطوف على ما قبله، أى: و اسألهم وقت تأذن ربك، و تأذن: تفعل، من الإيذان، و هو الإعلام. قال أبو على الفارسى: آذن بالمد: أعلم، و أذّن بالتشديد: نادى. و قال قوم:

كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن و تيقّن. و المعنى فى الآية: و اسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ قيل: و فى هذا الفعل معنى القسم كعلم اللّه و شهد اللّه، و لذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث قال: لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ أى: ليرسلنّ عليهم و يسلطن كقوله: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ «1»، إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ غاية لسومهم سوء العذاب ممن يبعثه اللّه عليهم، و قد كانوا أبقاهم اللّه هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدى أهل الملل، و هكذا هم فى هذه الملة الإسلامية فى كل قطر من أقطار الأرض فى الذلة المضروبة عليهم و العذاب و الصغار، يسلمون الجزية بحقن دمائهم و يمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التى يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار. و معنى يَسُومُهُمْ يذيقهم، و قد تقدّم بيان أصل معناه، ثم علّل ذلك بقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ يعاجل به فى الدنيا كما وقع لهؤلاء وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أى: كثير الغفران و الرحمة وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أى: فرّقناهم فى جوانبها، أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، و أُمَماً منتصب على الحال، أو مفعول ثان لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا، و جملة مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ بدل من أُمَماً، قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و من مات قبل البعثة المحمدية غير مبدّل، و قيل: هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدّم بيانه قبل هذا وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ أى:

دون هذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى و هو الصلاح، و محل دُونَ ذلِكَ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، و التقدير: و منهم أناس دون ذلك، و المراد بهؤلاء: هم من لم يؤمن، بل انهمك فى المخالفة لما أمره اللّه به. قال النحاس: دُونَ منصوب على الظرف، و لا نعلم أحدا رفعه وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ أى: امتحناهم بالخير و الشرّ رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر و المعاصى فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ المراد بهم أولاد الذين قطعهم اللّه فى الأرض. قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام: الأولاد، الواحد و الجمع سواء. و الخلف بفتح اللام: البدل ولدا كان أو غيره. قال ابن الأعرابى: الخلف بالفتح: الصالح، و بالسكون: الطالح. قال لبيد:

ذهب الّذين يعاش فى أكنافهمو بقيت فى خلف كجلد الأجرب

و منه قيل للردىء من الكلام خلف بالسكون، و قد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، و منه قول حسان بن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك و خلفنالأوّلنا فى طاعة اللّه تابع

وَرِثُوا الْكِتابَ أى: التوراة من أسلافهم يقرءونها و لا يعملون بها يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏

---

(1). الإسراء: 5.

فتح القدير، ج‏2، ص: 297

أخبر اللّه عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم و قوّة نهمتهم، و الأدنى: مأخوذ من الدنوّ، و هو القرب، أى: يأخذون عرض هذا الشى‏ء الأدنى، و هو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء و ما هو مجعول لهم من السّحت فى مقابلة تحريفهم لكلمات اللّه، و تهوينهم للعمل بأحكام التوراة و كتمهم لما يكتمونه منها؛ و قيل: إن الأدنى مأخوذ من الدناءة و السقوط، أى: إنهم يأخذون عرض الشى‏ء الدنى‏ء الساقط وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا أى: يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم فى الضلالة و عدم رجوعهم إلى الحق، و جملة يَأْخُذُونَ يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم، أو فى محل نصب على الحال، و جملة يَقُولُونَ معطوفة عليها، و المراد بهذا الكلام: التقريع و التوبيخ لهم، و جملة وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ فى محل نصب

على الحال، أى: يتعللون بالمغفرة، و الحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذى كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة و لا خائفين من التبعة؛ و قيل: الضمير فى يَأْتِهِمْ ليهود المدينة، أى: و إن يأت هؤلاء اليهود الذين هم فى عصر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عرض مثل العرض الذى كان يأخذه أسلافهم أخذوه كما أخذه أسلافهم أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أى: التوراة أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و جملة وَ دَرَسُوا ما فِيهِ معطوفة على يُؤْخَذْ على المعنى، و قيل: على وَرِثُوا الْكِتابَ و الأولى أن تكون فى محل نصب على الحال بتقدير قد. و المعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم فى الكتاب، و الحال أن قد درسوا ما فى الكتاب و علموه، فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، و ذلك أشدّ ذنبا و أعظم جرما. و قيل: معنى دَرَسُوا ما فِيهِ أى: محوه بترك العمل به، و الفهم له، من قولهم درست الريح الآثار: إذا محتها وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ من ذلك العرض الذى أخذوه و آثروه عليها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ اللّه و يجتنبون معاصيه أَ فَلا تَعْقِلُونَ فتعلمون بهذا و تفهمونه، و فى هذا من التوبيخ و التقريع ما لا يقادر قدره قوله: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ قرأ الجمهور يُمَسِّكُونَ بالتشديد من مسك و تمسك، أى: استمسك بالكتاب: و هو التوراة. و قرأ أبو العالية و عاصم فى رواية أبى بكر بالتخفيف من أمسك و يمسك. و روى عن أبىّ بن كعب أنه قرأ مسكوا و المعنى: أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب و لا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه و عرفوه و هم من تقدّم ذكره، و طائفة يتمسكون بالكتاب، أى: التوراة، و يعملون بما فيه و يرجعون إليه فى أمر دينهم، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند اللّه، و الموصول: مبتدأ، و إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ خبره، أى: لا نضيع أجر المصلحين منهم، و إنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة فى سائر العبادات التى يفعلها المتمسكون بالتوراة لأنها رأس العبادات و أعظمها، فكان ذلك وجها لتخصيصها بالذكر؛ و قيل: لأنها تقام فى أوقات مخصوصة، و التمسك بالكتاب مستمرّ فذكرت لهذا، و فيه نظر. فإن كل عبادة فى الغالب تختصّ بوقت معين، و يجوز أن يكون الموصول معطوفا على الموصول الذى قبله و هو للذين يتقون، و لكون أَ فَلا تَعْقِلُونَ جملة معترضة.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ قال: محمد و أمته إلى يوم القيامة، و سوء العذاب: الجزية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

فتح القدير، ج‏2، ص: 298

عنه قال: سُوءَ الْعَذابِ الخراج، و فى قوله: وَ قَطَّعْناهُمْ قال: هم اليهود بسطهم اللّه فى الأرض، فليس منها بقعة إلا و فيها عصابة منهم و طائفة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ قال: على اليهود و النصارى إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ فبعث اللّه عليهم أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يأخذون منهم الجزية و هم صاغرون وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً قال: يهود مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ و هم مسلمة أهل الكتاب وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ قال: اليهود وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ قال: الرخاء و العافية وَ السَّيِّئاتِ قال: البلاء و العقوبة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ بالخصب و الجدب. و أخرج أبو الشيخ عنه أنه سئل عن هذه الآية فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى قال:

أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها و يتبعون رخص القرآن وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا و لا يعرض لهم شى‏ء من الدنيا إلا أخذوه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ قال: النصارى يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى قال: ما أشرف لهم من شى‏ء من الدنيا حلالا أو حراما يشتهونه أخذوه و يتمنون المغفرة، و إن يجدوا آخر مثله يأخذوه.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ الآية، يقول: يأخذون ما أصابوا و يتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام

وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ فيما يوجبون على اللّه من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها و لا يتوبون منها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن أبى زيد فى قوله: وَ دَرَسُوا ما فِيهِ قال: علموا ما فى الكتاب، لم يأتوه بجهالة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ قال: هى لأهل الإيمان منهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ قال: من اليهود و النصارى.

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧١]

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قوله: وَ إِذْ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله، أى: و اسألهم إذ نتقنا الجبل؛ أى: رفعنا الجبل فَوْقَهُمْ و كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ أى: كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم، و الظلة: اسم لكل ما أظلّ، و قرئ «طلة» بالطاء، من أطلّ عليه إذا أشرف وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ أى: ساقط عليهم. قيل: الظنّ هنا بمعنى العلم، و قيل: هو على بابه خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ هو على تقدير القول، أى: و قلنا لهم خذوا، و القوّة: الجدّ و العزيمة، أى: أخذا كائنا بقوّة وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ من الأحكام التى شرعها اللّه لكم و لا تنسوه لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه و تعملوا بما أمرتم به، و قد تقدّم تفسير ما هنا فى البقرة مستوفى فلا نعيده.

فتح القدير، ج٢، ص: ٢٩٩

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ يقول: رفعناه، و هو قوله: وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ «١» فقال: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و إلا أرسلته عليكم.

و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، فقيل لهم: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا و أطعنا، و إذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا و عصينا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه أيضا قال: إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف، قال اللّه وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ قال: لتأخذنّ أمرى أو لأرمينكم به، فسجدوا و هم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم، و كانت سجدة رضيها اللّه سبحانه فاتخذوها سنة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ قال: انتزعه اللّه من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، ثم قال: لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

قوله: وَ إِذْ منصوب بفعل مقدّر معطوف على ما قبله كما تقدّم، قوله: مِنْ بَنِي آدَمَ استدلّ بهذا على أنّ المراد بالمأخوذين هنا: هم ذرية بنى آدم، أخرجهم اللّه من أصلابهم نسلا بعد نسل.

و قد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين، قالوا: و معنى أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ دلّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما فى قوله تعالى: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ «٢»، و قيل المعنى: أن اللّه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، و أنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه؛ و قيل:

المراد ببنى آدم هنا: آدم نفسه كما وقع فى غير هذا الموضع. و المعنى: أن اللّه سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته و أخذ عليهم العهد، و هؤلاء هم عالم الذرّ، و هذا هو الحق الذى لا ينبغى العدول عنه و لا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و موقوفا على غيره من الصحابة و لا ملجئ للمصير إلى المجاز، و إذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل، و سنذكر آخر هذا البحث إن شاء اللّه بعض ما ورد فى ذلك. قوله: مِنْ ظُهُورِهِمْ هو بدل من بنى آدم، بدل بعض من كل، و قيل بدل اشتمال قوله: ذرياتهم، قرأ الكوفيون و ابن كثير ذُرِّيَّتَهُمْ بالتوحيد، و هى تقع على الواحد و الجمع، و قرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أى: أشهد كل واحد منهم أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ أى: قائلا أ لست بربكم، فهو على إرادة القول: قالُوا بَلى شَهِدْنا أى: على أنفسنا بأنك ربنا. قوله: أَنْ تَقُولُوا قرأ أبو عمرو بالياء التحتية فى هذا و فى قوله: أَوْ تَقُولُوا على الغيبة، كما كان فيما قبله على الغيبة، و قرأ الباقون بالفوقية على الخطاب. و المعنى:

---

(١). النساء: ١٥۴.

(٢). فصلت: ١١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٠

فتح القدير ج٢ ٣۴٩

كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا، أى: فعلنا ذلك الأخذ و الإشهاد كراهة أن يقولوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أى: عن كون اللّه ربنا وحده لا شريك له. قوله: أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ معطوف على تَقُولُوا الأوّل، أى: فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و أَوْ لمنع الخلوّ دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين. مِنْ قَبْلُ أى من قبل زماننا وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ لا نهتدى إلى الحق و لا نعرف الصواب أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ من آبائنا و لا ذنب لنا لجهلنا و عجزنا عن النظر و اقتفائنا آثار سلفنا، بين اللّه سبحانه فى هذه الحكمة؛ التى لأجلها أخرجهم من ظهر آدم و أشهدهم على أنفسهم، و أنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، و يعتلوا بهذه العلة الباطلة و يعتذروا بهذه المعذرة الساقطة وَ كَذلِكَ أى: و مثل ذلك التفصيل نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إلى الحق و يتركون ما هم عليه من الباطل.

و قد أخرج مالك فى الموطأ و أحمد فى المسند و عبد بن حميد و البخارى فى تاريخه، و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان فى صحيحه، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات، و الضياء فى المختارة: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ الآية فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عنها فقال: «إنّ اللّه خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول اللّه! ففيم العمل؟

فقال: إنّ اللّه إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، و إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار». و أخرج أحمد و النسائى و ابن جرير، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ اللّه أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان «١» يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنشرها بين يديه، ثم كلّمهم فقال: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا بَلى شَهِدْنا إلى قوله: الْمُبْطِلُونَ . و إسناده لا مطعن فيه. و قد أخرجه ابن أبى حاتم موقوفا على ابن عباس.

و أخرج ابن جرير و ابن مندة فى كتاب الردّ على الجهمية عن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«و إذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم، قال: أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس، فقال لهم: أ لست بربكم؟ قالوا: بلى، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» و فى إسناده أحمد بن أبى ظبية أبو محمد الجرجانى قاضى قومس كان أحد الزهاد، و أخرج له النسائى فى سننه. و قال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه. و قال ابن عدىّ: حدّث بأحاديث كثيرة غرائب. و قد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد اللّه بن عمر،

---

(١). واد إلى جنب عرفة.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠١

و هؤلاء أئمة ثقات. و أخرج عبد بن حميد، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و الطبرانى، و أبو الشيخ فى العظمة، و ابن مردويه، عن أبى أمامة: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لمّا خلق اللّه الخلق و قضى القضية و أخذ ميثاق النبيين و عرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه و أخذ أهل الشمال بيده الأخرى و كلتا يدى الرحمن يمين، فقال: يا أصحاب اليمين، فاستجابوا له فقالوا: لبيك ربنا و سعديك، قال: أ لست بربكم؟

قالوا: بلى» الحديث، و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية، و بعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره، و أخذ العهد عليهم كما فى حديث أنس مرفوعا فى الصحيحين و غيرهما.

و أما المروى عن الصحابة فى تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه فى عالم الذرّ و أخذ العهد عليهم و إشهادهم على أنفسهم فهى كثيرة، منها: عن ابن عباس عند عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: [خلق اللّه آدم و أخذ ميثاقه أنه ربه و كتب أجله و رزقه و مصيبته «١»، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذرّ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم و كتب آجالهم و أرزاقهم و مصائبهم «٢». و أخرج نحوه عنه ابن جرير و ابن أبى حاتم و أخرج نحوه عنه أيضا ابن جرير و ابن المنذر.

و أخرج نحوه عنه عبد الرزاق و ابن المنذر. و أخرج نحوه عنه عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن منده، و هذا المعنى مروى عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن عمر فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس. و أخرج ابن عبد البرّ فى التمهيد عن ابن مسعود و ناس من الصحابة فى تفسير الآية نحوه. و أخرج عبد بن حميد و عبد اللّه بن حنبل فى رواية المسند و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن منده و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات و الضياء فى المختارة و ابن عساكر فى تاريخه عن أبىّ بن كعب فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الآية قال: جمعهم جميعا فجعلهم أرواحا فى صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد و الميثاق، ثم أشهدهم على أنفسهم. و قد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره، و فيما قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغنى عن التطويل.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٨]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨)

قوله وَ اتْلُ معطوف على الأفعال المقدّرة فى القصص السابقة، و إيراد هذه القصة منه سبحانه و تذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم فى التوراة. و قد اختلف فى هذا الذى أوتى الآيات فَانْسَلَخَ مِنْها

---

(١). ما بين حاصرتين من الدر المنثور.

(٢). فى الأصل: «مصيباتهم» و التصحيح من الدر المنثور.

فقيل: هو بلعم بن باعوراء، و كان قد حفظ بعض الكتب المنزلة؛ و قيل: كان قد أوتى النبوّة و كان مجاب الدعوة، بعثه اللّه إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان، فأعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم و ترك ما بعث به، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له فى ذلك فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون، و اندلع لسانه على صدره فقال قد ذهبت منى الآن الدنيا و الآخرة فلم يبق إلا المكر و الخديعة و الحيلة، و سأمكر لكم، و إنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن اللّه يبغض الزنا، فإن وقعوا فيه هلكوا، فوقع بنو إسرائيل فى الزنا، فأرسل اللّه عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا؛ و قيل: إن هذا الرجل اسمه باعم و هو من بنى إسرائيل؛ و قيل: المراد به أمية بن أبى الصّلت الثّقفى، و كان قد قرأ الكتب و علم أنّ اللّه مرسل رسولا فى ذلك؛ فلما أرسل اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم حسده و كفر به؛ و قيل هو أبو عامر بن صيفى و كان يلبس المسوح فى الجاهلية، فكفر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و قيل: نزلت فى قريش آتاهم اللّه آياته التى أنزلها على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكفروا بها، و قيل: نزلت فى اليهود و النصارى انتظروا خروج محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فكفروا به. قوله فَانْسَلَخَ مِنْها أى: من هذه الآيات التى أوتيها كما تنسلخ الشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ عند انسلاخه عن الآيات، أى: لحقه فأدركه و صار قرينا له، أو فأتبعه خطواته، و قرئ فَأَتْبَعَهُ بالتشديد بمعنى تبعه فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ المتمكنين فى الغواية و هم الكفار. قوله وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها الضمير يعود إلى الذى أوتى الآيات، و المعنى: لو شئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها، أى: بسببها، و لكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها و تركه للعمل بها؛ و قيل المعنى: و لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة بها، أى: بالعمل بها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أصل الإخلاد: اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به و لزمه، و المعنى هنا: أنه مال إلى الدنيا و رغب فيها و آثرها على الآخرة وَ اتَّبَعَ هَواهُ أى: اتبع ما يهواه و ترك العمل بما يقتضيه العلم الذى علمه اللّه، و هو حطام الدنيا؛ و قيل: كان هواه مع الكفار؛ و قيل: اتبع رضا زوجته، و كانت هى التى حملته على الانسلاخ من آيات اللّه. قوله فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ أى:

فصار لما انسلخ عن الآيات و لم يعمل بها منحطا إلى أسفل رتبة مشابها لأخس الحيوانات فى الدناءة، مماثلا له فى أقبح أوصافه، و هو أنه يلهث فى كلا حالتى قصد الإنسان له و تركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شدّ عليه أو لم يشد عليه، و ليس بعد هذا فى الخسة و الدناءة شىء، و جملة إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ فى محل نصب على الحال، أى: مثله كمثل الكلب حال كونه متصفا بهذه الصفة، و المعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية فى جميع أحواله سواء وعظه و ذكره المذكر، و زجره الزاجر أو لم يقع شىء من ذلك. قال القتبى: كلّ شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال، و حال الراحة، و حال المرض، و حال الصحة، و حال الرى، و حال العطش، فضربه اللّه مثلا لمن كذب بآياته؛ فقال: إن وعظته ضلّ و إن تركته ضلّ، فهو كالكلب إن تركته لهث و إن طردته لهث كقوله

تعالى: وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ

صامِتُونَ «۱» و اللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك. قال الجوهرى: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثا و لهاثا بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، و كذلك الرجل إذا أعيا. قيل معنى الآية: أنك إذا حملت على الكلب نبح و ولّى هاربا، و إن تركته شدّ عليك و نبح، فيتعب نفسه مقبلا عليك و مدبرا عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، و الإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدّم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة. و هو مبتدأ و خبره مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد أن علموا بها و عرفوها، فحرفوا و بدّلوا و كتموا صفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كذبوا بها فَاقْصُصِ الْقَصَصَ أى: فاقصص عليهم هذا القصص الذى هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فى ذلك و يعملون فيه أفهامهم، فينزجرون عن الضلال، و يقبلون على الصواب. قوله ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة فى القبح إلى الغاية، يقال: ساء الشيء: قبح، فهو لازم، و ساءه يسوؤه مساءة: فهو متعد و هو من أفعال الذم: كبئس، و فاعله ضمير مستتر فيه، و مثلا تمييز مفسر له، و المخصوص بالذم هو: الذين كذبوا بآياتنا، و لا بدّ من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة أى: ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا. و قال الأخفش: جعل المثل القوم مجازا، و القوم مرفوع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ، التقدير: ساء المثل مثلا هو مثل القوم، كذا قال. و قدره أبو على الفارسى: ساء مثلا مثل القوم، كما قدّمنا. و قرأ الجحدرى و الأعمش ساء مثل القوم. قوله وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ أى: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها، و لا يتجاوزها، و الجملة معطوفة على التى قبلها، على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات اللّه و ظلم أنفسهم مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي لما أمر به و شرعه لعباده وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران، من هداه فلا مضلّ له، و من أضلّه فلا هادى له؛ ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن.

و قد أخرج الفريابى و عبد الرزاق و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا قال: هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن آبز. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، و فى لفظ: بلعام بن باعر الذى أوتى الاسم كان فى بنى إسرائيل.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، تعلّم اسم اللّه الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه و قومه فقالوا: إنّ موسى رجل حديد و معه جنود كثيرة، و إنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع اللّه أن يرد عنا موسى و من معه، قال: إنّى إن دعوت اللّه أن يردّ موسى و من معه مضت دنياى و آخرتى، فلم يزالوا به حتى دعا اللّه فسلخ ما كان فيه. و فى قوله إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ قال: إن حمل الحكمة لم يحملها، و إن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضا لهث و إن يطرد لهث. و أخرج ابن أبى حاتم

---

(۱). الأعراف: ۱۹۳.

و أبو الشيخ عنه فى الآية قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، و كانت له امرأة له منها ولد، فقالت: أجعل لى منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذى تريدين؟ قالت: ادع اللّه أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل فدعا اللّه فجعلها أجمل

امرأة فى بنى إسرائيل؛ فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه و أرادت شيئا آخر، فدعا اللّه أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع اللّه أن يردّها إلى الحال التى كانت عليه فدعا اللّه فعادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث و سميت البسوس. و أخرج عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمرو فى الآية قال: هو أمية بن أبى الصّلت الثّقفى، و فى لفظ: نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصّلت. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عنه نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية قال: قال ابن عباس: هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، و كانت الأنصار تقول: هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق، و كانت ثقيف تقول: هو أمية بن أبى الصلت.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: هو صيفى بن الراهب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله فَانْسَلَخَ مِنْها قال: نزع منه العلم و فى قوله وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها قال: رفعه اللّه بعلمه. و أخرج مسلم و النسائى و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن جابر بن عبد اللّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى خطبته يحمد اللّه و يثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول «من يهد اللّه فلا مضلّ له، و من يضلل فلا هادى له، أصدق الحديث كتاب اللّه. و أحسن الهدى هدى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و شرّ الأمور محدثاتها، و كلّ محدثة بدعة، و كلّ بدعة ضلالة، و كلّ ضلالة فى النار» ثم يقول:

«بعثت أنا و السّاعة كهاتين».

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٩]

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٧٩)

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا أى: خلقنا، و قد تقدّم بيان أصل معناه مستوفى، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها لِجَهَنَّمَ أى: للتعذيب بها كَثِيراً أى: خلقا كثيرا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أى: من طائفتى الجنّ و الإنس جعلهم سبحانه للنار بعدله، و بعمل أهلها يعملون. و قد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة، ثم وصف هؤلاء فقال لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها كما يفقه غيرهم بعقولهم، و جملة لا يَفْقَهُونَ بِها فى محل رفع على أنها صفة لقلوب، و جملة لَهُمْ قُلُوبٌ فى محلّ نصب صفة لكثيرا، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم و إرشادهم غير فاقهة مطلقا و إن كانت تفقه فى غير ما فيه النفع و الرشاد فهو كالعدم، و هكذا معنى وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها فإن الذى انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر و الاعتبار و إن كانت مبصرة فى غير ذلك،

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٥

و الذى انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، و الشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة، و ما جاءت به رسل اللّه، و إن كانوا يسمعون غير ذلك، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى هؤلاء المتّصفين بهذه الأوصاف كالأنعام فى انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنّهم أضلّ منها، لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها و يضرّها فتنتفع بما ينفع، و تجتنب ما يضرّ، و هؤلاء لا يميزون بين ما ينفع و ما يضرّ باعتبار ما طلبه اللّه منهم و كلفهم به، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل و بصر و سمع.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ لَقَدْ ذَرَأْنا قال: خلقنا.

و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: خلقنا لجهنم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن النجّار عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ اللّه لما ذرأ لجهنّم من ذرأ كان ولد الزّنا ممّن ذرأ لجهنم». و أخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ قال: لقد خلقنا لجهنم لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها قال: لا يفقهون شيئا من أمور الآخرة وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها الهدى وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها الحق، ثم جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم شرا من الأنعام، فقال: بَلْ هُمْ أَضَلُّ ثم أخبر أنّهم الغافلون.

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٠]

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

هذه الآية مشتملة على الإخبار من اللّه سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التّفصيل، و الحسنى تأنيث الأحسن؛ أى التى هى أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمّى و أشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة؛ فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، و قد ثبت فى الصحيح «إنّ للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنّة» و سيأتى، و يأتى أيضا بيان عددها آخر البحث إن شاء اللّه. قوله وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ الإلحاد: الميل و ترك القصد، يقال: لحد الرجل فى الدين و ألحد:

إذا مال، و منه اللحد فى القبر لأنه فى ناحية، و قرئ يُلْحِدُونَ و هما لغتان، و الإلحاد فى أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه، إما بالتغيير كما فعله المشركون، فإنهم أخذوا اسم اللات من اللّه، و العزّى من العزيز، و مناة من المنان؛ أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن اللّه بها، أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض. و معنى وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ اتركوهم و لا تحاجوهم و لا تعرضوا لهم، و على هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال؛ و قيل معناه الوعيد كقوله تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «١» و قوله ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا «٢» و هذا أولى لقوله سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة و تحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. و قد ذكر مقاتل و غيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين: أ ليس يزعم محمد و أصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا، فما بال هذا يدعو ربّين اثنين؟ حكى ذلك القرطبى.

و قد أخرج أحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن خزيمة و أبو عوانة و ابن جرير و ابن

---

(١). المدثر: ١١.

(٢). الحجر: ٣.

أبى حاتم و الطبرانى و ابن مندة و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنّ للّه تسعة و تسعين اسما مائة إلّا واحدا من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر». و فى لفظ ابن مردويه و أبى نعيم: «من دعا بها استجاب اللّه دعاءه» و زاد الترمذى فى سننه بعد قوله يحبّ الوتر: «هو اللّه الذى لا إله إلا هو الرّحمن، الرّحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع، المعز، المذل، السّميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور،

الشّكور، العلىّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرّقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولىّ، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحىّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الأحد، الصّمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظّاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البرّ، التوّاب، المنتقم، العفو، الرّؤوف، مالك الملك، ذو الجلال و الإكرام، المقسط، الجامع، الغنىّ، المغنى، المانع، الضارّ، النّافع، النّور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرّشيد، الصّبور».

هكذا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب ابن أبى حمزة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعة و قال: هذا حديث غريب. و قد روى من غير وجه عن أبى هريرة، و لا يعلم فى كثير شىء من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث. و رواه ابن حبان فى صحيحه و ابن خزيمة و الحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق. و رواه ابن ماجة فى سننه من طريق أخرى عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا؛ فسرد الأسماء المتقدّمة بزيادة و نقصان. قال ابن كثير فى تفسيره: و الذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه. و إنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم و عبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك: أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد و سفيان بن عيينة و أبى زيد اللغوى. قال: ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة و التسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد اللّه بن مسعود عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال «ما أصاب أحدا قط همّ و لا حزن فقال:

اللهم إنى عبدك ابن عبدك و أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، و نور صدرى، و جلاء حزنى، و ذهاب همّى و غمّى، إلا أذهب اللّه همّه و حزنه، و أبدله مكانه فرجا؛ فقيل: يا رسول اللّه ألا نتعلّمها؟ فقال: بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها». و قد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان فى صحيحه بمثله انتهى. و أخرجه البيهقى أيضا

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۰۷

فى الأسماء و الصفات. قال ابن حزم: جاءت فى إحصائها، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصحّ منها شىء أصلا. و قد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى و ابن مردويه و أبو نعيم عن ابن عباس و ابن عمر قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكراه، و لا أدرى كيف إسناده. و أخرج ابن أبى الدنيا و الطبرانى كلاهما فى الدعاء و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن أبى هريرة: إن للّه تسعة و تسعين اسما من أحصاها دخل الجنة: أسأل اللّه الرحمن، الرحيم، الإله، الربّ، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحىّ، القيّوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البادئ، و فى لفظ: القائم، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، العفوّ، الغفار، الوهاب، الفرد، و فى لفظ: القادر، الأحد، الصمد، الوكيل، الكافى، الباقى، المغيث، الدائم، المتعالى، ذا الجلال و الإكرام، المولى، البصير، الحق، المتين، الوارث، المنير، الباعث، القدير، و فى لفظ: المجيب، المحيى، المميت، الحميد؛ و فى لفظ: الجميل: الصادق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتّاح، التوّاب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلام، العلى، العظيم، الغنى، الملك، المقتدر، الأكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادى، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الخلاق، الكفيل، الجليل.

و أخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال: سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة و التسعين التى من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هى فى القرآن، ففى الفاتحة خمسة أسماء، يا اللّه، يا ربّ، يا رحمن، يا رحيم، يا ملك؛ و فى البقرة ثلاثة و ثلاثون اسما: يا محيط، يا قدير، يا عليم، يا حكيم، يا على، يا عظيم، يا تواب، يا بصير، يا ولى، يا واسع، يا كافى، يا رؤوف، يا بديع، يا شاكر، يا واحد، يا سميع، يا قابض، يا باسط، يا حىّ، يا قيوم، يا غنى، يا حميد، يا غفور، يا حليم، يا إله، يا قريب، يا مجيب، يا عزيز، يا نصير، يا قوى، يا شديد، يا سريع، يا خبير؛ و فى آل عمران: يا وهاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا متفضل، و فى النساء: يا رقيب، يا حسيب، يا شهيد، يا مقيت، يا وكيل، يا علىّ، يا كبير، و فى الأنعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يا برهان، و فى الأعراف: يا محيى، يا مميت، و فى الأنفال: يا نعم المولى، و يا نعم النصير؛ و فى هود: يا حفيظ يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما تريد؛ و فى الرعد: يا كبير، يا متعالى؛ و فى إبراهيم: يا منان، يا وارث؛ و فى الحجر: يا خلاق؛ و فى مريم: يا فرد؛ و فى طه: يا غفار، و فى قد أفلح: يا كريم؛ و فى النور: يا حق يا مبين؛ و فى الفرقان: يا هادى؛ و فى سبأ: يا فتاح، و فى الزمر: يا عالم؛ و فى غافر: يا قابل التوب، يا ذا الطول، يا رفيع؛ و فى الذاريات: يا رزاق، يا ذا القوة، يا متين؛ و فى الطور: يا برّ؛ و فى اقتربت:

يا مقتدر، يا مليك؛ و فى الرحمن: يا ذا الجلال و الإكرام، يا رب المشرقين، يا ربّ المغربين، يا باقى

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٠٨

يا معين، و فى الحديد: يا أوّل، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن؛ و فى الحشر: يا ملك، يا قدّوس، يا سلام، يا مؤمن، يا مهيمن، يا عزيز، يا جبار، يا متكبر، يا خالق، يا بارئ، يا مصوّر، و فى البروج: يا مبدئ، يا معيد؛ و فى الفجر: يا وتر؛ و فى الإخلاص: يا أحد، يا صمد، انتهى.

و قد ذكر ابن حجر فى التلخيص أنه تتّبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة و تسعين ثم سردها فابحثه. و يؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس و ابن عمر قالا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «للّه تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنة، و هى فى القرآن». و أخرج البيهقى عن عائشة أنها قالت: «يا رسول اللّه! علّمنى اسم اللّه الذى إذا دعى به أجاب، قال لها: قومى فتوضّئى و ادخلى المسجد فصلّى ركعتين ثم ادعى حتى أسمع، ففعلت؛ فلما جلست للدعاء قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهمّ وفّقها، فقالت: اللهمّ إنى أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلّها ما علمنا منها و ما لم نعلم، و أسألك باسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر الذى من دعاك به أجبته، و من سألك به أعطيته، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: أصبتيه، أصبتيه.

و قد أطال أهل العلم على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربى فى شرح الترمذى حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب و السنة من أسماء اللّه ألف اسم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ قال: الإلحاد: أن يدعو اللات و العزّى فى أسماء اللّه. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: الإلحاد: التكذيب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية قال: اشتقوا العزّى من العزيز، و اشتقوا اللات من اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية قال: الإلحاد: المضاهاة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش أنه قرأ يُلْحِدُونَ من لحد، و قال: تفسيرها: يدخلون فيها ما ليس منها. و أخرج عبد الرزاق بن حميد و ابن جرير عن قتادة فى الآية قال: يشركون.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨١ الى ١٨٦]

وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ

كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)
مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)
قوله وَ مِمَّنْ خَلَقْنا خبر مقدّم و أُمَّةٌ مبتدأ مؤخر و يَهْدُونَ و ما بعده صفة ما، و يجوز أن يكون وَ مِمَّنْ خَلَقْنا هو المبتدأ كما تقدّم فى قوله وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ* و المعنى: أن من جملة من خلقه اللّه أمة يهدون الناس متلبسين بِالْحَقِ أو يهدونهم بما عرفوه من الحق وَ بالحق يَعْدِلُونَ بينهم، قيل هم من هذه الأمة، و إنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد فى الحديث الصحيح، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
فتح القدير، ج٢، ص: ٣٠٩
لا يَعْلَمُونَ و الاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، و الدرج: كفّ الشىء، يقال أدرجته و درجته، و منه إدراج الميت فى أكفانه؛ و قيل: هو من الدرجة، فالاستدراج: أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، و منه درج الصبىّ: إذا قارب بين خطاه، و أدرج الكتاب: طواه شيئا بعد شىء، و درج القوم:
مات بعضهم فى أثر بعض؛ و المعنى: سنستدرجهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم، و ذلك بإدرار النّعم عليهم و إنسائهم شكرها، فينهمكون فى الغواية، و يتنكبون طرق الهداية؛ لاغترارهم بذلك و أنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند اللّه من المنزلة و الزلفة، قوله وَ أُمْلِي لَهُمْ معطوف على سنستدرجهم، أى: أطيل لهم المدّة و أمهلهم و أؤخر عنهم العقوبة، و جملة إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ مقرّرة لما قبلها من الاستدراج و الإملاء و مؤكدة له، و الكيد: المكر، و المتين: الشديد القوىّ؛ و أصله من المتن و هو اللحم الغليظ الذى على جانب الصّلب.
قال فى الكشاف: سمّاه كيدا، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه فى الظاهر إحسان و فى الحقيقة خذلان، و الاستفهام فى أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا للإنكار عليهم حيث لم يتفكّروا فى شأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و فيما جاء به و ما فى ما بِصاحِبِهِمْ للاستفهام الإنكارى، و هى فى محل رفع بالابتداء، و الخبر: بصاحبهم، و الجنة: مصدر، أى: وقع منهم التكذيب و لم يتفكروا أىّ شىء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا، و قولهم زورا و بهتانا؛ و قيل إنّ ما نافية و اسمها مِنْ جِنَّةٍ و خبرها بصاحبهم، أى: ليس بصاحبهم شىء مما يدّعونه من الجنون، فيكون هذا ردا لقولهم: يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «١» و يكون الكلام قد تمّ عند قوله أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا و الوقف عليه من الأوقاف الحسنة، و جملة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ مقررة لمضمون ما قبلها، و مبينة لحقيقة حال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستفهام فى أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ للإنكار و التقريع و التوبيخ و لقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر فى الآيات البينة الدالّة على كمال قدرته و تفرّده بالإلهية، و الملكوت: من أبنية المبالغة، و معناه: الملك العظيم و قد تقدّم بيانه، و المعنى: إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر، و لا نظروا فى مخلوقات اللّه حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون فى ضلالتهم خائضون فى غوايتهم لا يعملون فكرا و لا يمعنون نظرا. قوله وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ أى: لم ينظروا فى ملكوت السموات و الأرض و لا فيما خلق اللّه من شىء من الأشياء كائنا ما كان، فإن فى كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين و موعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات و الأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته، قوله:
وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ معطوف على ملكوت، و أن هى المخففة من الثقيلة و اسمها ضمير الشأن و خبرها عسى و ما بعدها: أى: أو لم ينظروا فى أن الشأن و الحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب. و المعنى: إنهم إذا كانوا يجوّزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به و ينتفعون بالتفكر فيه و الاعتبار به فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

الضمير يرجع إلى ما تقدّم من التفكر و النظر فى الأمور المذكورة، أى: فبأىّ حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ و فى هذا الاستفهام من التقريع و التوبيخ ما لا يقادر قدره؛ و قيل: الضمير للقرآن، و قيل: لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قيل: للأجل المذكور قبله، و جملة

---

(۱). الحجر: ۶.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۳۱۰

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ مقررة لما قبلها، أى: إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله اللّه و من يضلله فلا هادى له، أى: فلا يوجد من يهديه إلى الحق و ينزعه عن الضلالة ألبتة وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ قرئ بالرفع على الاستئناف و بالجزم عطفا على محل الجزاء، و قرئ بالنون، و معنى يعمهون: يتحيّرون، و قيل: يتردّدون، و هو فى محل نصب على الحال.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ قال: ذكر لنا أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «هذه أمتى بالحق يحكمون و يقضون و يأخذون و يعطون». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: بلغنا أن نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم و قد أعطى القوم بين أيديكم مثلها، وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ «۱»». و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ يقول: سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال: عذاب بدر. و أخرج أبو الشيخ عن يحيى ابن المثنى فى الآية قال: كلما أحدثوا ذنبا جدّدنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار. و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن سفيان فى الآية قال: نسبغ عليهم النعمة و نمنعهم شكرها. و أخرج ابن أبى الدنيا و البيهقى عن ثابت البنانى أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر اللّه بالعباد المضيّعين. و أخرج أبو الشيخ فى قوله وَ أُمْلِي لَهُمْ يقول: أكفّ عنهم إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ إنّ مكرى شديد، ثم نسخها اللّه فأنزل فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۲». و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كيد اللّه:

العذاب و النقمة. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال:

ذكر لنا: أنّ نبيّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قام على الصفا، فدعا قريشا فخذا فخذا: يا بنى فلان! يا بنى فلان! يحذّرهم بأس اللّه و وقائع اللّه إلى الصباح، حتى قال قائل: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوّت حتى أصبح، فأنزل اللّه: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۷ الى ۱۹۲]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۷) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۸۹) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۹۰) أَ يُشْرِكُونَ ما

لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)

وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)

---

(١). الأعراف: ١٥٩.

(٢). التوبة: ۵.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣١١

قوله يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ السائلون: هم اليهود، و قيل: قريش، و الساعة: القيامة، و هى من الأسماء الغالبة، و إطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، و أيان: ظرف زمان مبنى على الفتح.

قال الرّاجز:

أيّان تقضى حاجتى إيّاناأ ما ترى لنجحها أوانا

و معناه: معنى متى، و اشتقاقه: من أىّ، و قيل: من أين. و قرأ السلمى إيان بكسر الهمزة و هو فى موضع رفع على الخبر، و مُرْساها المبتدأ عند سيبويه، و مرساها بضم الميم: أى وقت إرسائها، من أرساها اللّه، أى: أثبتها، و بفتح الميم من رست: أى تثبتت، و منه وَ قُدُورٍ راسِياتٍ و منه رسا الجبل. و المعنى متى يرسيها اللّه: أى يثبتها و يوقعها، و ظاهر يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أن السؤال عن نفس الساعة، و ظاهر أَيَّانَ مُرْساها أن السؤال عن وقتها، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها فى الوقت المعين لذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی أى: علمها باعتبار وقوعها عند اللّه لا يعلمها غيره، و لا يهتدى إليها سواه لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أى: لا يظهرها لوقتها و لا يكشف عنها إلا اللّه سبحانه، و التجلية: إظهار الشى‏ء، يقال جلى لى فلان الخبر: إذا أظهره و أوضحه، و فى استئثار اللّه سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة و تدبير بليغ كسائر الأشياء التى أخفاها اللّه و استأثر بعلمها. و هذه الجملة مقررة لمضمون التى قبلها. قوله ثَقُلَتْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قيل: معنى ذلك: أنه لما خفى علمها على أهل السّموات و الأرض كانت ثقيلة، لأنّ كلّ ما خفى علمه ثقيل على القلوب؛ و قيل المعنى: لا تطيقها السّموات و الأرض لعظمها؛ لأنّ السّماء تنشق، و النجوم تتناثر، و البحار تنضب؛ و قيل: عظم وصفها عليهم؛ و قيل: ثقلت المسألة عنها، و هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها أيضا لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً إلا فجأة على غفلة، و البغتة، مصدر فى موضع الحال، و هذه الجملة كالتى قبلها فى التقرير. قوله: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها. قال ابن فارس: الحفىّ:

العالم بالشى‏ء، و الحفى: المستقصى فى السؤال، و منه قول الأعشى:

فإن تسألى عنّى فيا ربّ سائلحفىّ عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال: أحفى فى المسألة و فى الطلب فهو محف، و حفىّ على التكثير، مثل مخصب و خصيب. و المعنى:

يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها، أو كأنه مستقص للسؤال عنها، و مستكثر منه، و الجملة التشبيهية فى محلّ نصب على الحال، أى: يسألونك مشبها حالك حال من هو حفىّ عنها؛ و قيل المعنى: يسألونك عنها كأنك حفىّ بهم، أى: حفىّ ببرهم و فرح بسؤالهم. و الأوّل: هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى. قوله: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی أمره اللّه سبحانه بأن يكرّر ما أجاب به عليهم سابقا، لتقرير الحكم و تأكيده، و قيل: ليس بتكرير، بل أحدهما: معناه الاستئثار بوقوعها، و الآخر: الاستئثار بكنهها نفسها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ باستئثاء اللّه بهذا و عدم علم خلقه به، لم يعلمه ملك مقرب و لا

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣١٢

نبىّ مرسل. قوله قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ هذه الجملة متضمّنة لتأكيد ما تقدّم من عدم علمه بالساعة، أيان

تكون، و متى تقع، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له، أو دفع ضرّ عنه إلا ما شاء اللّه سبحانه مع النفع له و الدفع عنه؛ فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر اللّه بعلمه، و فى هذا من إظهار العبودية و الإقرار بالعجز عن الأمور التى ليست من شأن العبيد و الاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له صلّى اللّه عليه و سلّم ما فيه أعظم زاجر، و أبلغ واعظ لمن يدّعى لنفسه ما ليس من شأنها، و ينتحل علم الغيب بالنجامة، أو الرمل، أو الطرق بالحصى، أو الزجر، ثم أكد هذا و قرّره بقوله وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ أى: لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرّضت لما فيه الخير، فجلبته إلى نفسى و توقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنى، و لكنّى عبد لا أدرى ما عند ربّى، و لا ما قضاه فىّ و قدّره لى، فكيف أدرى غير ذلك، و أتكلّف علمه؟ و قيل: المعنى لو كنت أعلم ما يريد اللّه عزّ و جلّ منى من قبل أن يعرّفنيه لفعلته؛ و قيل: لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلت فلم أغلب؛ و قيل: لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، و الأولى: حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور و غيرها تحتها، و قد قيل: إن وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ كلام مستأنف، أى: ليس بى ما تزعمون من الجنون، و الأولى أنه متصل بما قبله، و المعنى: لو علمت الغيب ما مسنى السوء و لحذرت عنه كما قدّمنا ذلك. قوله إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى: ما أنا إلا مبلغ عن اللّه لأحكامه، أنذر بها قوما، و أبشر بها آخرين، و لست أعلم بغيب اللّه سبحانه، و اللام فى لِقَوْمٍ متعلق بكلا الصفتين، أى: بشير لقوم، و نذير لقوم، و قيل: هو متعلق ببشير، و المتعلق بنذير: محذوف، أى: نذير لقوم يكفرون، و بشير لقوم يؤمنون. قوله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم اللّه على عباده و عدم مكافأتهم لها مما يجب من الشكر و الاعتراف بالعبودية و أنه المنفرد بالإلهية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم، و قوله وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها معطوف على خَلَقَكُمْ أى: هو الذى خلقكم من نفس آدم و جعل من هذه النفس زوجها، و هى حواء خلقها من ضلع من أضلاعه، و قيل: المعنى جَعَلَ مِنْها من جنسها كما فى قوله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً* «١» و الأوّل أولى لِيَسْكُنَ إِلَيْها علة للجعل، أى: جعله منها لأجل يسكن إليها، يأنس إليها، و يطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكن و إليه آنس، و كان هذا فى الجنة كما وردت بذلك الأخبار، ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما، فقال فَلَمَّا تَغَشَّاها و التغشى: كناية عن الوقاع، أى: فلما جامعها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً علقت به بعد الجماع، و وصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخفّ منه عند كونه علقة، و عند كونه علقة أخفّ منه عند كونه مضغة، و عند كونه مضغة أخفّ مما بعده، و قيل: إنه خفّ عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، و لم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله فَمَرَّتْ بِهِ أى: استمرت بذلك الحمل، تقوم و تقعد و تمضى فى حوائجها لا تجد به ثقلا، و الوجه الأوّل أولى لقوله فَلَمَّا أَثْقَلَتْ فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها، و قرئ فَمَرَّتْ بِهِ بالتخفيف، أى: فجزعت لذلك، و قرئ «فمارت به» من المور،

---

(١). النحل: ٧٢.

و هو المجى‏ء و الذهاب؛ و قيل المعنى: فاستمرت به. و قد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس و يحيى بن يعمر، و رويت قراءة فمارت عن عبد اللّه بن عمر، و روى عن ابن عباس أنه قرأ فاستمرت به قوله دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما جواب لما، أى: دعا آدم و حواء ربهما و مالك أمرهما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً أى ولدا صالحا، و اللام جواب قسم محذوف، و لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط، أى: من الشاكرين لك على هذه النعمة؛ و فى هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث فى بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما، و علما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب فَلَمَّا آتاهُما ما طلباه من الولد الصالح و أجاب دعاءهما جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما قال كثير من المفسرين: إنه جاء إبليس إلى حواء و قال لها: إن ولدت ولدا فسمّيه

باسمى فقالت: و ما اسمک؟ قال: الحارث، و لو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث فكان هذا شركا فى التسمية و لم يكن شركا فى العبادة. و إنما قصد أنّ الحارث كان سبب نجاة الولد، كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه، كما قال حاتم الطائى:

و إنّى لعبد الضّيف ما دام ثاوياو ما فىّ إلا تلک من شيمة العبد

و قال جماعة من المفسرين: إن الجاعل شركا فيما آتاهما هم جنس بنى آدم، كما وقع من المشركين منهم، و لم يكن ذلک من آدم و حواء، و يدلّ على هذا جمع الضمير فى قوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ و ذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ من هيئة واحدة و شكل واحد وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها أى: من جنسها فَلَمَّا تَغَشَّاها يعنى جنس الذكر جنس الأنثى، و على هذا لا يكون لآدم و حوّاء ذكر فى الآية و تكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين. و قد قدّمنا الإشارة إلى نحو هذا، و ذكرنا أنه خلاف الأولى لأمور منها: وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها بأن هذا إنما هو لحواء، و منها: دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. و قد قرأ أهل المدينة و عاصم شركا على التوحيد، و قرأ أبو عمر و سائر أهل الكوفة بالجمع. و أنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، و أجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف، أى: جعلا له ذا شرک، أو ذوى شرک، و الاستفهام فى أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً للتقريع و التّوبيخ، أى: كيف يجعلون للّه شريكا لا يخلق شيئا و لا يقدر على نفع لهم و لا دفع عنهم. قوله وَ هُمْ يُخْلَقُونَ عطف على ما لا يَخْلُقُ و الضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئا، أى: و هؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون، و جمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلک وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ أى: لمن جعلهم شركاء نَصْراً إن طلبه منهم وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ إن حصل عليهم شىء من جهة غيرهم، و من عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: قال حمل بن أبى قشير و سمول بن زيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فإنا نعلم ما هى؟ فأنزل اللّه يَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى إلى قوله وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و أخرج

عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة أَيَّانَ مُرْساها أى: متى قيامها؟ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ قال: قالت قريش يا محمد! أسرّ إلينا الساعة لما بيننا و بينک من القرابة؟ قال يَسْئَلُونَکَ كَأَنَّکَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ و ذكر لنا أن نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقول: «تهيج الساعة بالناس و الرجل يسقى على ماشيته، و الرجل يصلح حوضه، و الرجل يخفض ميزانه و يرفعه، و الرجل يقيم سلعته فى السوق قضاء اللّه لا تأتيكم إلا بغتة» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله أَيَّانَ مُرْساها قال: منتهاها. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ يقول: لا يأتى بها إلا اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هو يجلّيها لوقتها لا يعلم ذلک إلا اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله ثَقُلَتْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله ثَقُلَتْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: ثقل علمها على أهل السموات و الأرض، يقول: كبرت عليهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله ثَقُلَتْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال: إذا جاءت انشقت السماء، و انتثرت النجوم، و كوّرت الشمس، و سيرت الجبال، و ما يصيب الأرض، و كان ما قال اللّه سبحانه فذلک ثقلها فيهما. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً قال: فجأة آمنين.

و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى البعث عن مجاهد فى قوله: كَأَنَّکَ

حَفِيٌّ عَنْها قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمتها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها يقول: كأنك عالم بها، أى: لست تعلمها. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عنه كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قال: لطيف بها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عنه أيضا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها يقول: كأن بينك و بينهم مودة كأنك صديق لهم، قال: لما سأل الناس محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفىّ بهم، فأوحى اللّه إليه إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ استأثر بعلمها فلم يطلع ملكا و لا رسولا.

و أخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال: كان ابن عباس يقرأ كأنّك حفىّ بها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريج قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قال: الهدى و الضلالة وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ متى أموت لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ قال: العمل الصالح. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ قال: لعملت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا لا ربح فيه وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ قال: و لا يصيبنى الفقر. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ قال: لاجتنبت ما يكون من الشرّ قبل أن يكون.

و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الرويانى و الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن سمرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، و كان لا يعيش لها

ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمّته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحى الشيطان و أمره». و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن سمرة فى قوله فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ قال: سمياه عبد الحارث. و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن أبىّ بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفا عليه. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: حملت حواء فأتاها إبليس فقال: إنّى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعننى أو لأجعلن له قرنى أيل فيخرج من بطنك فيشقه و لأفعلنّ و لأفعلنّ يخوّفهما، سمّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما أيضا فقال مثل ذلك، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حبّ الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: كان هذا فى بعض أهل الملل و ليس بآدم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن سمرة فى قوله حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً لم يستبن فَمَرَّتْ بِهِ لما استبان حملها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَمَرَّتْ بِهِ قال: فشكت أحملت أم لا؟ و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن أيوب قال: سئل الحسن عن قوله فَمَرَّتْ بِهِ قال: لو كنت عربيا لعرفتها إنما هى استمرّت بالحمل.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً قال: هى النطفة فَمَرَّتْ بِهِ يقول استمرت به. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَمَرَّتْ بِهِ قال: فاستمرت به. و أخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران فَمَرَّتْ بِهِ يقول: استخفته. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً فقال: أشفقا أن يكون بهيمة، فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال غلاما سويا. و أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ قال: كان شريكا فى طاعة و لم يكن شريكا فى عبادة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: ما أشرك آدم، إنّ أوّلها: شكر، و آخرها: مثل ضربه لمن بعده. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ هذا فصل من آية آدم خاصة فى آلهة العرب.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك نحوه و أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال: هذا فى الكفار يدعون

اللّه فإذا آتاهما صالحا هوّدا أو نصرا، ثم قال: أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ يقول: يطيعون ما لا يخلق شيئا، و هى الشياطين لا تخلق شيئا و هى تخلق وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً يقول: لمن يدعوهم.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٣ الى ١٩٨]

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٩٤) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)

وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

فتح القدير، ج٢، ص: ٣١٦

قوله وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ هذا خطاب للمشركين، أى: و إن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى و الرشاد؛ بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم و يرشدوكم؛ لا يتبعوكم و لا يجيبوكم إلى ذلك، و هو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع و دفع الضرّ، و النّصر على الأعداء. قال الأخفش: معناه و إن تدعوهم؛ أى:

الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم؛ و قيل: المراد من سبق فى علم اللّه أنه لا يؤمن. و قرئ لا يَتَّبِعُوكُمْ مشدّدا و مخففا و هما لغتان. و قال بعض أهل اللغة: أتبعه مخففا: إذا مضى خلفه و لم يدركه، و اتبعه مشدّدا: إذا مضى خلفه فأدركه، و جملة سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مقرّرة لمضمون ما قبلها، أى:

دعاؤكم لهم عند الشدائد و عدمه سواء لا فرق بينهما، لأنهم لا ينفعون و لا يضرون، و لا يسمعون و لا يجيبون، و قال أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مكان أم صمتم، لما فى الجملة الاسمية من المبالغة. و قال محمد بن يحيى: إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية، يعنى لمطابقة وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ و ما قبله، قوله إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد للّه كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء تنطقون و تمشون و تسمعون و تبصرون، و هذه الأصنام ليست كذلك، و لكنها مثلكم فى كونها مملوكة للّه مسخرة لأمره. و فى هذا تقريع لهم بالغ و توبيخ لهم عظيم، و جملة فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ مقرة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم، و أنهم لا يستطيعون شيئا، أى: ادعوا هؤلاء الشركاء، فإن كانوا كما تزعمون فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تدّعونه لهم من قدرتهم على النفع و الضرّ، و الاستفهام فى قوله أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ و ما بعده للتقريع و التوبيخ، أى:

هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شىء من الآلات التى هى ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التى تعكفون على عبادتها ليست لهم أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها فى نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا فى نفعكم و ليس لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها كما يبطش غيرهم من الأحياء، و ليس لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها كما تبصرون، و ليس لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، و بهذه المنزلة من العجز، و أم فى هذه المواضع هى المنقطعة التى بمعنى بل و الهمزة، كما ذكره أئمة النحو. و قرأ سعيد بن جبير إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ بتخفيف إن و نصب عبادا، أى: ما الذين تدعون مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ على إعمال إن النافية عمل ما الحجازية، و قد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه و غيره من اختيار الرفع فى خبرها، و بأن الكسائى قال:

إنها لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى ما إلا أن يكون بعدها إيجاب كما فى قوله: إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ، و البطش: الأخذ

بقوّة. و قرأ أبو جعفر يَبْطِشُونَ بضم الطاء، و هى لغة، ثم لما بين لهم

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۱۷

حال هذه الأصنام، و تعاور وجوه النقص و العجز لها من كل باب، أمره اللّه بأن يقول لهم ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع و الضرّ ثُمَّ كِيدُونِ أنتم و هم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد فَلا تُنْظِرُونِ أى: فلا تمهلونى، و لا تؤخرون إنزال الضرر بى من جهتها، و الكيد: المكر، و ليس بعد هذا التحدّى لهم و التعجيز لأصنامهم شى‌ء، ثم قال لهم: إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ أى: كيف أخاف هذه الأصنام التى هذه صفتها و لى ولىّ ألجأ إليه و أستنصر به و هو اللّه عزّ و جلّ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ و هذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها، و ولىّ الشى‌ء هو الذى يحفظه و يقوم بنصرته، و يمنع منه الضرر وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ أى: يحفظهم و ينصرهم، و يحول ما بينهم و بين أعدائهم قال الأخفش: و قرئ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ يعنى: جبريل. قال النحاس: هى قراءة عاصم الجحدرى و القراءة الأولى أبين، لقوله وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ قوله وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ كرّر سبحانه هذا لمزيد التأكيد و التقرير، و لما فى تكرار التّوبيخ و التّقريع من الإهانة للمشركين و التنقيص بهم، و إظهار سخف عقولهم، و ركاكة أحلامهم وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ جملة مبتدأة لبيان عجزهم، أو حالية، أى: و الحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون، و المراد: الأصنام إنهم يشبهون النّاظرين، و لا أعين لهم يبصرون بها، قيل: كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة، فكانوا بذلك فى هيئة الناظرين و لا يبصرون، و قيل: المراد بذلك المشركون، أخبر اللّه عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم، و إن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

و قد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: يجاء بالشمس و القمر حتى يلقيا بين يدى اللّه تعالى، و يجاء بمن كان يعبدهما، فيقال فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ قال: هؤلاء المشركون. و أخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ ما تدعوهم إليه من الهدى.

[سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۹ الى ۲۰۶]

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (۱۹۹) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۰۰) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (۲۰۲) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۰۳) وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۲۰۴) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (۲۰۵) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (۲۰۶)

قوله خُذِ الْعَفْوَ لما عدّد اللّه ما عدده من أحوال المشركين و تسفيه رأيهم و ضلال سعيهم؛ أمر رسوله

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۱۸

صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال: أخذت حقّى عفوا: أى سهلا، و هذا نوع من التيسير الذى كان يأمر به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما ثبت فى الصحيح أنه كان يقول: «يسّروا و لا تعسّروا و بشّروا و لا تنفّروا»، و المراد بالعفو هنا: ضد الجهد، و قيل: المراد؛ خذ العفو من صدقاتهم و لا تشدّد عليهم فيها، و تأخذ ما يشق عليهم، و كان هذا قبل نزول فريضة الزكاة وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ أى: بالمعروف. و قرأ عيسى بن عمر بِالْعُرُفِ بضمتين، و هما لغتان، و العرف و المعروف و العارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول و تطمئن إليها النفوس، و منه قول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين اللّه و النّاس

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ أى: إذا أقمت الحجّة فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا، فأعرض عنهم و لا تمارهم، و لا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء و السفاهة؛ قيل: و هذه الآية هى من جملة ما نسخ بآية السيف، قاله عبد الرحمن بن زيد و عطاء؛ و قيل: هى محكمة، قاله مجاهد و قتادة. قوله: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ النزغ: الوسوسة، و كذا النغز و النخس. قال الزجّاج: النزغ: أدنى حركة تكون، و من الشيطان: أدنى وسوسة، و أصل النزغ: الفساد، يقال نزغ بيننا: أى أفسد، و قيل: النزغ: الإغواء، و المعنى متقارب، أمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ باللّه؛ و قيل: إنه لما نزل قوله خُذِ الْعَفْوَ قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «كيف يا ربّ بالغضب»؟ فنزلت، و جملة إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ علة لأمره بالاستعاذة، أى: استعذ به، و التجئ إليه، فإنه يسمع ذلك منك و يعلم به، و جملة إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا مقرّرة لمضمون ما قبلها، أى: إن شأن الذين يتقون اللّه و حالهم هو التذكر لما أمر اللّه به من الاستعاذة به و الالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان و إن كان يسيرا. قرأ أهل البصرة طيف و كذا أهل مكة. و قرأ أهل المدينة و الكوفة طائِفٌ و قرأ سعيد ابن جبير طيف بالتشديد. قال النحاس: كلام العرب فى مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف. قال الكسائى: هو مخفف مثل ميت و ميت. قال النحاس: و معناه فى اللغة ما يتخيل فى القلب، أو يرى فى النوم، و كذا معنى طائف. قال أبو حاتم: سألت الأصمعى عن طيّف فقال: ليس فى المصادر فيعل. قال النحاس: ليس هو مصدرا و لكن يكون بمعنى طائف؛ و قيل: الطيف و الطائف معنيان مختلفان، فالأوّل التخيل، و الثانى الشيطان نفسه؛ فالأوّل من طاف الخيال يطوف طيفا، و لم يقولوا من هذا طائف. قال السهيلى: لأنه تخيل لا حقيقة له، فأما قوله فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ «١» فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة. قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، فطاف الخيال يطيف. قال حسان:

فدع هذا و لكن من لطيف يؤرّقنى إذا ذهب العشاء

و سمّيت الوسوسة طيفا، لأنها لمّة من الشيطان تشبه لمّة الخيال فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ بسبب التذكّر؛ أى: منتبهون، و قيل: على بصيرة. و قرأ سعيد بن جبير تَذَكَّرُوا بتشديد الذال. قال النحاس: و لا

---

(١). القلم: ١٩.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣١٩

وجه له فى العربية. قوله وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ قيل: المعنى: و إخوان الشياطين، و هم الفجار من ضلال الإنس، على أن الضمير فى إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقا، و المراد به: الجنس، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه. يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ أى: تمدّهم الشياطين فى الغىّ، و تكون مددا لهم، و سميت الفجار من الإنس: إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم و يقتدون بهم؛ و قيل: إن المراد بالإخوان: الشياطين، و بالضمير: الفجار من الإنس، فيكون الخبر جاريا على من هو له. و قال الزجاج: فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: و الذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا و لا أنفسهم ينصرون وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ لأن الكفار إخوان الشياطين، ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ الإقصار: الانتهاء عن الشىء، أى: لا تقصر الشياطين فى مدّ الكفار فى الغىّ، قيل: إن فى الغىّ متصلا بقوله يَمُدُّونَهُمْ و قيل: بالإخوان، و الغى:

الجهل. قرأ نافع يَمُدُّونَهُمْ بضم حرف المضارعة و كسر الميم. و قرأ الباقون بفتح حرف المضارعة و ضم الميم، و هما لغتان: يقال مدّ و أمد. قال مكى: و مدّ أكثر. و قال أبو عبيدة و جماعة من أهل اللغة: فإنه يقال إذا كثر شىء شيئا بنفسه مدّة، و إذا كثره بغيره، قيل أمدّه نحو يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ «١» و قيل: يقال مددت فى الشرّ و أمددت فى الخير. و قرأ

عاصم الجحدری یمادونهم فی الغی. و قرأ عیسی ابن عمر ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ بفتح الیاء و ضم الصاد و تخفیف القاف. قوله وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآیَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَیْتَها اجتبی الشیء بمعنی جباه لنفسه: أی جمعه، أی: هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسک؛ و قیل: المعنی اختلقتها، یقال اجتبیت الکلام: انتحلته و اختلقته و اخترعته، إذا جئت به من عند نفسک، کانوا یقولون لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إذا تراخی الوحی هذه المقالة، فأمره اللّه بأن یجیب علیهم بقوله إِنَّما أَتَّبِعُ ما یُوحی إِلَیَ أی: لست ممن یأتی بالآیات من قبل نفسه کما تزعمون قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما یُوحی إِلَیَّ مِنْ رَبِّی فما أوحاه إلیّ و أنزله علیّ أبلغه إلیکم، و بصائر: جمع بصیرة، أی: هذا القرآن المنزل علیّ هو بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ یتبصر بها من قبلها، و قیل: البصائر، الحجج و البراهین. و قال الزجاج: البصائر: الطرق وَ هُدیً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ معطوف علی بصائر، أی: هذا القرآن هو بصائر و هدی، یهتدی به المؤمنون و رحمة لهم. قوله وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا أمرهم اللّه سبحانه بالاستماع للقرآن و الإنصات له عند قراءته لینتفعوا به، و یتدبّروا ما فیه من الحکم و المصالح؛ قیل: هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، و لا یخفاک أن اللفظ أوسع من هذا و العام لا یقصر علی سببه، فیکون الاستماع و الإنصات عند قراءة القرآن فی کل حالة، و علی أیّ صفة، مما یجب علی السامع؛ و قیل: هذا خاص بقراءة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم للقرآن، دون غیره، و لا وجه لذلک لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ أی: تنالون الرحمة، و تفوزون بها بامتثال أمر اللّه سبحانه، ثم أمره اللّه سبحانه أن یذکره فی نفسه، فإن الإخفاء أدخل فی الإخلاص و أدعی للقبول؛ قیل:

المراد بالذکر هنا ما هو أعم من القرآن و غیره من الأذکار التی یذکر اللّه بها. و قال النحاس: لم یختلف فی معنی وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ أنه الدعاء؛ و قیل: هو خاص بالقرآن؛ أی: اقرأ القرآن بتأمل و تدبر، و تَضَرُّعاً وَ خِیفَةً منتصبان علی الحال، أی: متضرعا و خائفا، و الخیفة: الخوف، و أصلها: خوفة

---

(۱). آل عمران: ۱۲۵.

فتح القدیر، ج‌۲، ص: ۳۲۰

قلبت الواو یاء لانکسار ما قبلها، و حکی الفراء أنه یقال فی جمع خیفة: خیف. قال الجوهری: و الخیفة:

الخوف و الجمع: خیف، و أصله الواو، أی: خوف وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ أی: دون المجهور به من القول و هو معطوف علی ما قبله، أی: متضرعا، و خائفا، و متکلما بکلام هو دون الجهر من القول، و بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ متعلق باذکر أی أوقات الغدوات و أوقات الأصائل، و الغدو: جمع غدوة، و الآصال: جمع أصیل، قاله الزجّاج و الأخفش، مثل یمین و أیمان، و قیل: الآصال جمع أصل، و الأصل جمع أصیل فهو علی هذا جمع الجمع، قاله الفرّاء. قال الجوهری: الأصیل الوقت من بعد العصر إلی المغرب، و جمعه أصل و آصال و أصائل کأنه جمع أصیلة. قال الشاعر:

لعمری لأنت البیت أکرم أهله‌و أقعد فی أفنائه بالأصائل

و یجمع أیضا علی أصلان مثل بعیر و بعران، و قرأ أبو مجلز و الإیصال و هو مصدر. و خصّ هذین الوقتین لشرفهما، و المراد دوام الذکر للّه وَ لا تَکُنْ مِنَ الْغافِلِینَ أی: عن ذکر اللّه إِنَّ الَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ لا یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ المراد بهم: الملائکة. قال القرطبی: بالإجماع. قال الزجاج: و قال:

عند ربک، و اللّه عزّ و جلّ بکل مکان، لأنهم قریبون من رحمته، و کل قریب من رحمة اللّه عزّ و جلّ فهو عنده. و قال غیره: لأنهم فی موضع لا ینفذ فیه إلا حکم اللّه؛ و قیل: إنهم رسل اللّه، کما یقال: عند الخلیفة جیش کثیر، و قیل هذا علی جهة التشریف و التکریم لهم، و معنی یُسَبِّحُونَهُ یعظّمونه و ینزّهونه عن کل شین وَ لَهُ یَسْجُدُونَ أی: یخصّونه بعبادة السجود التی هی

أشرف عبادة؛ و قيل: المراد بالسجود:
الخضوع و الذلة، و فى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم.
و قد أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و البخارى و أبو داود و النسائى، و النحاس فى ناسخه، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن عبد اللّه بن الزبير فى قوله خُذِ الْعَفْوَ الآية، قال: ما نزلت هذه الآية إلا فى إختلاف الناس، و فى لفظ: أمر اللّه نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: أمر اللّه نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الشعبى قال:
لما أنزل اللّه خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما هذا يا جبريل؟
قال: لا أدرى حتى أسأل العالم، فذهب ثم رجع فقال: إن اللّه أمرك أن تعفو عمّن ظلمك، و تعطى من حرمك، و تصل من قطعك». و أخرج ابن مردويه عن جابر نحوه. و أخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال: لما نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى حمزة بن عبد المطلب قال: «و اللّه لأمثلنّ بسبعين منهم، فجاء جبريل بهذه الآية، و أخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: ما عفا لك من مكارم الأخلاق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله خُذِ الْعَفْوَ قال: خذ ما عفا من أموالهم
فتح القدير، ج۲، ص: ۳۲۱
ما أتوك به من شىء فخذه، و هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة و تفصيلها. و أخرج ابن جرير و النحاس فى ناسخه عن السدّى فى الآية قال: الفضل من المال نسخته الزكاة. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال:
لما نزل خُذِ الْعَفْوَ الآية. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «كيف بالغضب يا ربّ؟ فنزل وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ . و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا قال: هم المؤمنون. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ قال: الغضب. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: الطيف: الغضب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله تَذَكَّرُوا قال:
إذا زلّوا تابوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: الطّائف:
اللمة من الشيطان تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ يقول: فإذا هم منتهون عن المعصية آخذون بأمر اللّه عاصون للشيطان. وَ إِخْوانُهُمْ قال: إخوان الشيطان يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ قال:
لا الإنس يمسكون عما يعملون من السيئات، و لا الشياطين تمسك عنهم، و إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها يقول: لو لا أحدثتها، لو لا تلقّيتها فأنشأتها. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِ قال: هم الجنّ يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ يقول:
لا يسأمون وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها يقول: هلا افتعلتها من تلقاء نفسك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى هريرة فى قوله وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ الآية قال: نزلت فى رفع الأصوات و هم خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصلاة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: يعنى فى الصلاة المفروضة. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عنه قال:

صلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقرأ خلفه قوم فخلطوا، فنزلت وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ الآية. فهذه فى المكتوبة.
قال: و إن كنّا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و البيهقى عن محمد بن كعب القرظى نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن مغفل نحوه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن ابن مسعود نحوه أيضا. و قد روى نحو هذا عن جماعة من السلف، و صرّحوا بأن هذه الآية نزلت فى قراءة الصلاة من الإمام. و أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى الآية قال:
عند الصلاة المكتوبة، و عند الذكر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال: فى الصلاة و حين ينزل الوحى. و أخرج البيهقى عنه فى الآية أنه قال: هذا فى الصلاة. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ الآية، قال:
أمره اللّه أن يذكره، و نهاه عن الغفلة، أما بالغدوّ: فصلاة الصبح، و الآصال: بالعشى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر. قال: الآصال ما بين الظهر و العصر. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: لا تجهر بذاك بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ بالبكر و العشىّ. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد
فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۲۲
بِالْغُدُوِّ قال: آخر الفجر: صلاة الصّبح، و الآصال: آخر العشى، صلاة العصر. و الأحاديث و الآثار عن الصحابة فى سجود التلاوة، و عدد المواضع التى يسجد فيها، و كيفية السجود و ما يقال فيه مستوفاة فى كتب الحديث و الفقه، فلا نطوّل بإيراد ذلك هاهنا.
فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۲۳

سورة الأنفال

اشارة

صرّح كثير من المفسرين بأنها مدنية، و لم يستثنوا منها شيئا، و به قال الحسن و عكرمة و جابر بن زيد و عطاء. و قد روى مثل هذا عن ابن عباس، أخرجه النحّاس فى ناسخه، و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه قال:
سورة الأنفال نزلت بالمدينة. و أخرجه ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير، و أخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت. و أخرج سعيد بن منصور و البخارى و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال:
نزلت فى بدر. و فى لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبى: قال ابن عباس هى مدنية إلا سبع آيات من قوله:
وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى آخر سبع آيات، و جملة آيات هذه السورة ست و سبعون آية، و قد كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يقرأ بها فى صلاة المغرب، كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب. و أخرج أيضا عن زيد بن ثابت عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنفال (۸): آية ۱]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِکُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

الأنفال: جمع نفل محرّکا، و هو: الغنيمة، و منه قول عنترة:

إنّا إذا احمرّ الوغى نروى القناو نعفّ عند مقاسم الأنفال

أى: الغنائم، و أصل النفل: الزيادة، و سميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ اللّه لهذه الأمة مما کان محرما على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد، و يطلق النفل على معان أخر منها: اليمين، و الانتفاء، و نبت معروف. و النافلة التطوّع لکونها زائدة على الواجب. و النافلة: ولد الولد، لأنه زيادة على الولد و کان سبب نزول الآية: اختلاف الصحابة رضى اللّه عنهم فى يوم بدر کما سيأتى بيانه فنزع اللّه ما غنموه من أيديهم و جعله للّه و الرسول، فقال: قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ أى حکمها مختص بهما يقسمها بينکم رسول اللّه عن أمر اللّه سبحانه و ليس لکم حکم فى ذلک.

و قد ذهب جماعة من الصحابة و التابعين إلى أن الأنفال کانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ثم أمرهم بالتقوى، و إصلاح ذات البين، و طاعة اللّه و الرسول بالتسليم لأمرهما، و ترک الاختلاف الذى وقع بينهم، ثم قال: إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن کنتم مؤمنين باللّه، و فيه من التهييج و الإلهاب ما لا يخفى، مع

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٢٤

کونهم فى تلک الحال على الإيمان فکأنه قال: إن کنتم مستمرّين على الإيمان باللّه، لأنّ هذه الثلاثة الأمور التى هى تقوى اللّه، و إصلاح ذات البين، و طاعة اللّه و الرسول، لا يکمل الإيمان بدونها، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتق و ليس بمطيع للّه و رسوله ليس بمؤمن.

و قد أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و الحاکم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن أبى أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النّفل، و ساءت فيه أخلاقنا. فانتزعه اللّه من أيدينا و جعله إلى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، فقسمه رسول اللّه بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء. و أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبان، و الحاکم و صحّحه، و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم اللّه العدوّ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون و يقتلون، و أکبت طائفة على العسکر يحوزونه و يجمعونه، و أحدقت طائفة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يصيب العدوّ منه غرّة، حتى إذا کان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها و جمعناها فليس لأحد فيها نصيب، و قال الذين خرجوا فى طلب العدوّ: لستم بأحق بها منا نحن نفينا عنه العدوّ و هزمناهم، و قال الذين أحدقوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خفنا أن يصيب العدوّ منه غرّة فاشتغلنا به، فنزلت يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ قسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين المسلمين، و کان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا أغار فى أرض العدوّ نفل الربع، و إذا أقبل راجعا و کلّ الناس نفل الثلث، و کان يکره الأنفال و يقول: ليرد قوىّ المسلمين على ضعيفهم. و أخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده، و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية فنصرها اللّه و فتح عليها، فکان من آتاه بشىء نفله من الخمس، فرجع رجال کانوا يستقدمون و يقتلون و يأسرون و ترکوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئا، فقالوا: يا رسول اللّه! ما بال رجال منا يستقدمون و يأسرون، و تخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة؟ فسکت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزل يَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ الآية، فدعاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ردّوا ما أخذتم، و اقتسموا بالعدل و السوية؛ فإنّ اللّه

يأمركم بذلك، فقالوا: قد أنفقنا و أكلنا، فقال: احتسبوا ذلك». و أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى و صححه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و أبو نعيم فى الحلية، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن سعد بن أبى وقاص قال قلت: يا رسول اللّه! قد شفانى اللّه اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، فقال: «إنّ هذا السيف لا لك و لا لى، ضعه، فوضعته، ثم رجعت قلت: عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى إذا رجل يدعونى من ورائى، قلت: قد أنزل اللّه فىّ شيئا؟ قال: كنت سألتنى هذا السيف و ليس هو لى، و إنه قد وهب لى فهو لك» و أنزل اللّه هذه الآية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ و فى لفظ لأحمد أن سعدا قال: لما قتل أخى يوم بدر و قتلت سعيد بن العاص و أخذت سيفه و كان يسمى ذا الكنيفة فأتيت به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم ذكر نحو ما تقدّم و قد روى هذا الحديث

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٢٥

عن سعد من وجوه أخر. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: أن الناس سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الغنائم يوم بدر فنزلت يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ و أخرج ابن مردويه عنه قال: لم ينفل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعد إذ نزلت عليه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ إلا من الخمس فإنه نفل يوم خيبر من الخمس. و أخرج ابن أبى شيبة و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

«من قتل قتيلا فله كذا و كذا، و من أسر أسيرا فله كذا و كذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، و أما الشبان فسارعوا إلى القتل و الغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا، و لو كان منكم شىء للجأتم إلينا، فاختصموا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ الآية، فقسم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الغنائم بينهم بالسوية». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: الأنفال المغانم، كانت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خالصة ليس لأحد منها شىء ما أصاب من سرايا المسلمين من شىء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول، فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن يعطيهم منها شيئا فأنزل اللّه يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لى جعلتها و لرسولى ليس لكم فيها شىء فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ إلى قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ثم أنزل اللّه وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية، ثم قسم ذلك الخمس لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لذى القربى و اليتامى و المساكين و المهاجرين فى سبيل اللّه، و جعل أربعة أخماس الناس فيه سواء، للفرس سهمان، و لصاحبه سهم، و للراجل سهم. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: هى الغنائم، ثم نسخها وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية. و أخرج مالك و ابن أبى شيبة و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحّاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل و السلب من النفل، فأعاد المسألة فقال ابن عباس: هذا مثل ضبيع الذى ضربه عمر؛ و فى لفظ: فقال: ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقى، و كان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه قال: الأنفال المغانم، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها فيرد القوىّ على الضعيف.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و النحاس و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: هو ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو دابة أو متاع فذلك للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم يصنع به ما شاء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال: أرسلنا إلى سعيد ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال و إنه لا نفل بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضا قال: ما كانوا ينفلون إلا من

الخمس و روى عبد الرزاق عنه أنه قال: لا- نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس. و أخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميرا من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن الشعبى

فى قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قال: ما أصابت السرايا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و النحاس فى ناسخه عن مجاهد و عكرمة قال: كانت الأنفال للّه و الرسول حتى نسخها آية الخمس وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى فى الأدب المفرد، و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ قال: هذا تخريج من اللّه على المؤمنين أن يتقوا اللّه و أن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال. و أخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال: كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم، فقسمت بين من ثبت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بين من قاتل و غنم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ قال: طاعة الرسول: اتّباع الكتاب و السّنّة.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۲ الى ۴]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴)

الوجل: الخوف و الفزع، و المراد: أنّ حصول الخوف من اللّه و الفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملى الإيمان، المخلصين للّه، فالحصر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان. قال جماعة من المفسرين:

هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما أمر به من قسمة الغنائم، و لا يخفاك أن هذا و إن صحّ إدراجه تحت معنى الآية من جهة: أن وجل القلوب عند الذكر و زيادة الإيمان عند تلاوة آيات اللّه يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال للّه و الرسول، و لكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، و لا بوقت دون وقت، و لا بواقعة دون واقعة، و المراد من تلاوة آياته: تلاوة الآيات المنزلة، أو التعبير عن بديع صنعته و كمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع و عجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون. قيل: و المراد بزيادة الإيمان، هو زيادة انشراح الصدر، و طمأنينة القلب، و انثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات؛ و قيل: المراد بزيادة الإيمان: زيادة العمل، لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد و لا ينقص، و الآيات المتكاثرة، و الأحاديث المتواترة، ترد ذلك و تدفعه وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا- على غيره، و التوكل على اللّه: تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور، و الموصول فى قوله: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ فى محل رفع على أنه وصف للموصول الذى قبله، أو بدل منه، أو بيان له، أو فى محل نصب على المدح، و خص إقامة الصلاة و الصدقة لكونهما أصل الخير و أساسه، و «من» فى مِمَّا للتبعيض، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدّمة، و هو مبتدأ و خبره هُمُ الْمُؤْمِنُونَ أى:

أنّ هؤلاء هم الكاملون الإيمان، البالغون فيه إلى أعلى درجاته و أقصى غاياته و حَقًّا مصدر مؤكّد لمضمون جملة هم المؤمنون، أى: حق ذلك حقا، أو صفة مصدر محذوف، أى: هم المؤمنون إيمانا حقا، ثم ذكر ما أعدّ لمن كان جامعا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال: لَهُمْ دَرَجاتٌ أى: منازل خير و كرامة و شرف فى الجنة كائنة عند ربهم، و فى كونها عنده سبحانه: تشريف لهم و تكريم و تعظيم و تفخيم، و جملة لَهُمْ

دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ خبر ثان ل أُولئِکَ أو مستأنفة جوابا لسؤال مقدر، وَ مَغْفِرَةٌ معطوف على درجات، أى: مغفرة لذنوبهم وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ یکرمهم اللّه به من واسع فضله و فائض جوده.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ قال: فرقت قلوبهم. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عنه أیضا فی الآیة قال: المنافقون لا یدخل قلوبهم شیء من ذکر اللّه عند أداء فرائضه، و لا یؤمنون بشیء من آیات اللّه، و لا یتوکلون على اللّه، و لا یصلون إذا غابوا، و لا یؤدّون زکاة أموالهم، فأخبر اللّه أنّهم لیسوا بمؤمنین، ثم وصف المؤمنین فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ فأدّوا فرائضه. و أخرج الحکیم الترمذی و ابن جریر و أبو الشیخ من طریق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء قالت: إنما الوجل فی القلب کاحتراق السعفة یا شهر بن حوشب، أما تجد قشعریرة؟ قلت: بلى، قالت: فادع عندها فإن الدعاء یستجاب عند ذلک. و أخرج الحکیم الترمذی عن ثابت البنانی قال: قال فلان:

إنی لأعلم متى یستجاب لی؟ قالوا: و من أین لک؟ قال: إذا اقشعرّ جلدی، و وجل قلبی، و فاضت عینای، فذلک حین یستجاب لی. و أخرج أیضا عن عائشة قالت: ما الوجل فی قلب المؤمن إلا کضرمة السّعفة، فإذا وجل أحدکم فلیدع عند ذلک. و أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن السدّی فی الآیة قال: هو الرجل یرید أن یظلم، أو یهمّ بمعصیة فیقال له اتق اللّه فیجل قلبه.

و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس فی قوله: زادَتْهُمْ إِیماناً قال: تصدیقا.

و أخرج هؤلاء عن الربیع بن أنس فی قوله: زادَتْهُمْ إِیماناً قال: خشیة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ عَلى رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ یقول: لا یرجون غیره. و أخرجا عنه فی قوله:

أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا قال: برئوا من الکفر. و أخرج أبو الشیخ عنه حَقًّا قال: خالصا.

و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر فی قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ یعنی: فضائل و رحمة. و أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ قال: أعمال رفیعة. و أخرج عبد ابن حمید و ابن أبی حاتم عن الضحاک فی قوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ قال: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فیرى الذی هو فوق فضله على الذی هو أسفل منه. و لا یرى الذی هو أسفل أنه فضل علیه أحد. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن زید فی قوله: وَ مَغْفِرَةٌ قال: بترک الذنوب وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ قال: الأعمال الصالحة. و أخرج ابن أبی حاتم عن محمد بن کعب القرظی قال: إذا سمعتم اللّه یقول وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ فهی الجنة.

[سورة الأنفال (۸): الآیات ۵ الى ۸]

کَما أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَیْتِکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ لَکارِهُونَ (۵) یُجادِلُونَکَ فِی الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَیَّنَ کَأَنَّما یُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ یَنْظُرُونَ (۶) وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذاتِ الشَّوْکَةِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُحِقَّ الْحَقَّ بِکَلِماتِهِ وَ یَقْطَعَ دابِرَ الْکافِرِینَ (۷) لِیُحِقَّ الْحَقَّ وَ یُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸)

فتح القدیر، ج ۲، ص: ۳۲۸

قوله: کَما أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَیْتِکَ بِالْحَقِ قال الزجّاج: الکاف فی موضع نصب؛ أی: الأنفال ثابتة لک کما أخرجک ربک من بیتک بالحق؛ أی: مثل إخراج ربک، و المعنى: امض لأمرک فی الغنائم و نفل من شئت و إن کرهوا، لأنّ بعض الصحابة قال لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و سلّم حین جعل لکل من أتى بأسیر شیئا قال:

بقی أکثر الناس بغیر شیء، فموضع الکاف نصب کما ذکرنا، و به قال الفراء و قال أبو عبیدة: هو قسم، أی: و الذی أخرجک، فالکاف: بمعنى الواو، و ما: بمعنى الذی. و قال الأخفش سعید بن مسعدة: المعنى أولئک هم المؤمنون حقا کما أخرجک

ربک. و قال عکرمـة: المعنى: أطيعوا اللّه و رسوله كما أخرجک ربک؛ و قيل: كما أخرجک متعلق بقوله: لَهُمْ دَرَجاتٌ أى: هذا الوعـد للمؤمنين حق فى الآخرة كَما أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَيْتِکَ بِالْحَقِ الواجب له، فأنجز وعدک و ظفرک بعدوّک و أوفى لک، ذكره النحاس و اختاره، و قيل: الكاف فى «كما» كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده: كما وجهتک إلى أعدائى فاستضعفوک، و سألت مددا فأمددتک، و قوّيتک، و أزحت علتک، فخذهم الآن، فعاقبهم؛ و قيل: إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتـدأ محـذوف تقـديره: هـذه الحال كحال إخراجک، يعنى: أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة، مثل حالهم فى كراهـة خروجک للحرب، ذكره صاحب الكشاف، و بالحق متعلق بمحـذوف، و التقـدير: إخراجا متلبسا بالحق الذى لا شـبهة فيه، و جملـة وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ فى محل نصب على الحال، أى: كما أخرجک فى حال كراهتهم لذلک، لأنه لما وعـدهم اللّه إحـدى الطـائفتين: إمـا العير أو النفير، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمـة، و السـلامة من القتال، كما سـيأتى بيانه، و جملة يُجادِلُونَکَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ و ما: فى محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، و مجادلتهم لمـا نـدبهم إلى إحـدى الطـائفتين، و فـات العير، و أمرهم بقتال النفير، و لم يكن معهم كثير أهبـة، لـذلک شق عليهم، و قالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة و أكملنا الأهبة، و معنى: فِي الْحَقِ أى: فى القتال بعد ما تبين لهم أنک لا تأمر بالشـىء إلا بإذن اللّه، أو بعـد مـا تبين لهم أن اللّه وعـدهم بـالظفر بإحـدى الطائفتين، و أن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير، و بَعْدَ ظرف ليجادلونک، و ما مصدرية، أى:

يجادلونـک بعـد ما تبين الحق لهم. قوله: كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ الكاف: فى محل نصب على الحال من الضـمير فى لَكارِهُونَ أى: حال كونهم فى شـدة فزعهم من القتال يشـبهون حال من يساق ليقتل، و هو مشاهد لأسـباب قتله، ناظر إليها، لا يشـک فيها. قوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ الظرف: منصوب بفعل مقـدّر، أى: و اذكروا وقت وعـد اللّه إياكم إحـدى الطائفتين، و أمرهم بـذكر الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث، لقصد المبالغة، و الطائفتان: هما العير و النّفير، و إحدى:

هو ثانى مفعولى يعد، و أَنَّها لَكُمْ بدل منه، بدل اشـتمال، و معناه: أنها مسـخّرة لكم، و أنكم تغلبونها، و تغنمون منها، و تصـنعون بها ما شئتم من قتل و أسر و غنيمة، لا يطيقون لكم دفعا، و لا يملكون لأنفسهم منكم ضرا و لا نفعا، و فى هذه الجملة تذكير لهم بنعمـة من النعم التى أنعم اللّه عليهم. قوله: وَ تَوَدُّونَ معطوف على يَعِدُكُمُ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ من الطائفتين،

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۲۹

و هى طائفـة العير تَكُونُ لَكُمْ دون ذات الشوكـة، و هى طائفـة النفير. قـال أبو عبيـدة: أى غير ذات الحـدّ. و الشوكـة: السـلاح، و الشوكة: النبت الذى له حدّ، و منه: رجل شائک السلاح، أى: حديد السلاح ثم يقلب فيقال شاكى السلاح؛ فالشوكة مستعارة من واحـدة الشوک، و المعنى: و تودّون أن تظفروا بالطائفـة التى ليس معهـا سـلاح، و هى طائفـة العير لأنها غنيمـة صافيـة عن كـدر القتال إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها. قوله: وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ معطوف على تَوَدُّونَ و هو من جملة ما أمروا بذكر وقته، أى: و يريد اللّه غير ما تريدون، و هو أن يحقّ الحقّ بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة.

و قتلكـم لصناديدهم، و أسـر كـثير منهم، و اغتنـام مـا غنمتم من أمـوالهم الـتى أجلبـوا بهـا عليكم و رامـوا دفعكم بهـا، و المراد بالكلمات: الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة، و وعدكم منه بالظفر بها وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ الدابر: الآخر، و قطعه عبارة عن الاستئصال. و المعنى: و يستأصلهم جميعا. قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ هذه الجملة علة لما يريده اللّه، أى: أراد ذلک، أو يريـد ذلـک ليظهر الحق و يرفعه وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ و يضـعه، أو اللام متعلقـة بمحـذوف، أى: فعل ذلک ليحق الحق، و قيل: متعلق

بيقطع، و ليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين، و هذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، و العلة المقتضية له، و المصلحة المترتبة عليه، و إحقاق الحق: إظهاره، و إبطال الباطل: إعدامه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ «١» و مفعول وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ محذوف، أى: و لو كرهوا أن يحقّ الحق و يبطل الباطل، و المجرمون: هم المشركون من قريش، أو جميع طوائف الكفار.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن أبى أيوب الأنصارى قال: «قال لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نحن بالمدينة، و بلغه أنّ عير أبى سفيان قد أقبلت فقال: ما ترون فيها لعلّ اللّه يغنمناها و يسلمنا، فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة و ثلاثة عشر، فأخبرنا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعدّتنا، فسرّ بذلك و حمد اللّه و قال: عدّة أصحاب طالوت، فقال: ما ترون فى قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: يا رسول اللّه! لا و اللّه ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم قال: ما ترون فى قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «٢» فأنزل اللّه كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ إلى قوله: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ فلما وعدنا اللّه إحدى الطائفتين، إما القوم و إما العير، طابت أنفسنا، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهم إنى أنشدك وعدك، فقال ابن رواحة: يا رسول اللّه! إنّى أريد أن أشير عليك- و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أفضل من أن يشير عليه- إنّ اللّه أجلّ و أعظم من أن تنشده وعده. فقال: يا بن رواحة! لأنشدنّ اللّه وعده، فإنّ اللّه لا يخلف الميعاد، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى وجوه القوم فانهزموا، فأنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى «٣» فقتلنا و أسرنا، فقال عمر: يا رسول اللّه! ما أرى أن يكون لك أسرى فإنما نحن داعون مؤلفون، فقلنا: يا معشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام

---

(١). الأنبياء: ١٨.

(٢). المائدة: ٢۴.

(٣). الأنفال: ١٧.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثم استيقظ فقال: ادعوا لى عمر، فدعى له فقال: إن اللّه قد أنزل علىّ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية»، و فى إسناده ابن لهيعة، و فيه مقال معروف. و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف، و ابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بدر حتى إذا كان بالرّوحاء خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال أبو بكر: يا رسول اللّه! بلغنا أنهم كذا و كذا ثم خطب الناس فقال: كيف ترون؟ فقال عمر مثل قول أبى بكر، ثم خطب الناس فقال:

كيف ترون؟ فقال سعد بن معاذ: يا رسول اللّه! إيانا تريد؟ فو الذى أكرمك و أنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط، و لا لى بها علم، و لئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرنّ معك و لا نكونن كالذين قالوا لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ «١» و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكم متبعون، و لعلك أن تكون خرجت لأمر و أحدث اللّه إليك غيره، فانظر الذى أحدث اللّه إليك فامض له، فصل حبال من شئت، و اقطع حبال من شئت، و عاد من شئت، و سالم من شئت، و خذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ إلى قوله: وَ يَقْطَعَ دابِرَ

الْكافِرِينَ و إنما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يريد الغنيمة مع أبى سفيان فأحدث اللّه إليه القتال. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ قال: كذلك يجادلونك فى خروج القتال. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِ فقال: خروج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بدر وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ قال: لطلب المشركين يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ أنك لا تصنع إلا ما أمرك اللّه به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ قال: هى عير أبى سفيان، ودّ أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أن العير كانت لهم، و أن القتال صرف عنهم. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ أى: شأفتهم. و وقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث و السير و التاريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٩ الى ١٠]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قوله: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ الظرف متعلق بمحذوف، أى: و اذكروا وقت استغاثتكم؛ و قيل بدل من وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ معمول لعامله؛ و قيل متعلق بقوله: لِيُحِقَّ الْحَقَ و الاستغاثة: طلب الغوث، يقال: استغاثنى فلان فأغثته، و الاسم: الغياث؛ و المعنى: أنّ المسلمين لما علموا أنه لا بدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة و هم النفير، كما أمرهم اللّه بذلك، و أراده منهم، و رأوا كثرة عدد النفير، و قلّة عددهم، استغاثوا باللّه سبحانه، و قد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف، و عدد المسلمين ثلاثمائة و سبعة عشر رجلا، و أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما رأى ذلك استقبل القبلة، ثم

---

(١). المائدة: ٢۴.

مدّ يديه فجعل يهتف بربّه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض» الحديث. فَاسْتَجابَ لَكُمْ عطف على تستغيثون داخل معه فى التذكير، و هو و إن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى، و لهذا عطف عليه: استجاب. قوله: أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ أى: بأنى ممدكم، فحذف حرف الجرّ و أوصل الفعل إلى المفعول، و قرئ بكسر الهمزة على إرادة القول، أو على أن فى، استجاب: معنى القول. قوله: مُرْدِفِينَ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول، و قرأ الباقون بكسرها اسم فاعل، و انتصابه على الحال، و المعنى على القراءة الأولى: أنه جعل بعضهم تابعا لبعض، و على القراءة الثانية: أنهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض؛ و قيل: إن مردفين على القراءتين، نعت لألف، و قيل: إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ممدكم، أى: ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة، و قد قيل: إن ردف و أردف بمعنى واحد، و أنكره أبو عبيدة قال لقوله تعالى: تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ «١» و لم يقل المردفة، قال سيبويه: و فى الآية قراءة ثالثة و هى «مردّفين» بضم الراء و كسر الدال مشدّدة. و قراءة رابعة بفتح الراء و تشديد الدال. و قرأ جعفر بن محمد و عاصم الجحدرى «بآلاف» جمع ألف، و هو الموافق لما تقدّم فى آل عمران، و الضمير فى وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله: أَنِّي مُمِدُّكُمْ إِلَّا بُشْرى أى: إلا بشارة لكم بنصره، و هو استثناء مفرّغ، أى: ما جعل إمدادكم لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ أى: بالإمداد قُلُوبُكُمْ و فى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمدّ اللّه المسلمين بهم للبشرى لهم و

تطمين قلوبهم و تثبيتها، و اللام فى لتطمئن: متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخرا، أى: و لتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر وَ ما النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا من عند غيره، ليس للملائكة فى ذلك أثر، فهو الناصر على الحقيقة، و ليسوا إلا سببا من أسباب النصر التى سببها اللّه لكم، و أمدكم بها إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى كلّ أفعاله.

و قد أخرج ابن جرير عن علىّ رضى اللّه عنه قال: نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و فيها أبو بكر، و نزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنا فى الميسرة. و أخرج سنيد و ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: ما أمدّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأكثر من هذه الألف التى ذكر اللّه فى الأنفال، و ما ذكر الثلاثة الآلاف و الخمسة الآلاف إلا بشرى. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: مُرْدِفِينَ قال: متتابعين. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله:

مُرْدِفِينَ يقول: المدد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ عنه أيضا فى الآية قال: وراء كل ملك ملك. و أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال: كان ألف مردفين و ثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف، و هم مدد المسلمين فى ثغورهم. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: مُرْدِفِينَ قال: مجدّين. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال:

متتابعين أمدّهم اللّه بألف ثم بثلاثة، ثم أكملهم خمسة آلاف وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لكم وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ قال: يعنى نزول الملائكة. قال: و ذكر لنا أن عمر قال: أما يوم بدر فلا نشكّ أن الملائكة

---

(١). النازعات: ٧.

كانوا معنا و أما بعد ذلك فاللّه أعلم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد مُرْدِفِينَ قال: بعضهم على أثر بعض.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١١ الى ١٤]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (١٤)

قوله: إِذْ يُغَشِّيكُمُ الظرف منصوب بفعل مقدّر كالذى قبله، أو بدل ثان من إذ يعدكم، أو منصوب بالنصر المذكور قبله؛ و قيل غير ذلك مما لا وجه له، و يُغَشِّيكُمُ هى قراءة نافع و أهل المدينة على أن الفاعل هو اللّه سبحانه، و هذه القراءة هى المطابقة لما قبلها: أعنى قوله: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و لما بعدها أعنى وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ فيتشاكل الكلام و يتناسب. و قرأ ابن كثير و أبو عمرو يغشاكم على أن الفاعل النعاس، و قرأ الباقون يُغَشِّيكُمُ بفتح الغين و تشديد الشين، و هى كقراءة نافع و أهل المدينة فى إسناد الفعل إلى اللّه، و نصب النعاس قال مكى: و الاختيار ضم الياء و التشديد، و نصب النعاس لأن بعده أَمَنَةً مِنْهُ و الهاء فى منه: للّه فهو الذى يغشيهم النعاس، و لأن الأكثر عليه، و على القراءة الأولى و الثالثة يكون انتصاب أمنة على أنها مفعول له. و لا يحتاج فى ذلك إلى تأويل و تكلف، لأن فاعل الفعل المعلل و العلة واحد بخلاف انتصابها على العلة، باعتبار القراءة الثانية فإنه يحتاج إلى تكلف، و أما على جعل الأمنة مصدرا فلا إشكال، يقال أمن أمنة و أمنا و أمانا، و هذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم

اللّه بها عليهم، و هى أنهم مع خوفهم من لقاء العدوّ، و المهابة لجانبه سكن اللّه قلوبهم و أمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين، و كان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها. قيل: و فى امتنان اللّه عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان: أحدهما: أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد، الثانى: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ و قيل: إن النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين، و قد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران. قوله: وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ هذا المطر كان بعد النعاس، و قيل: قبل النعاس. و حكى الزجّاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه و بقى المؤمنون لا ماء لهم، فأنزل اللّه المطر ليلة بدر. و الذى فى سيرة ابن إسحاق و غيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر و أنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم، و لم يصب المسلمين منه إلا ما شدّ لهم دهس الوادى «١»، و أعانهم على المسير، و معنى لِيُطَهِّرَكُمْ

____

(١). الدهس: الأرض يثقل فيها المشى للينها.

بِهِ ليرفع عنكم الأحداث وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ أى: وسوسته لكم، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه، من الخوف و الفشل، حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب، و الضمير فى بِهِ من قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ راجع إلى الماء الذى أنزله اللّه، أى: يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال؛ و قيل: الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل. قوله: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه لا يقف على ذلك سواه، أى: و اذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة؛ و قيل: هو بدل من إِذْ يَعِدُكُمُ كما تقدّم، و لكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون فلا يكون من جملة النعم التى عدّدها اللّه عليهم؛ و قيل: العامل فيه يثبت فيكون المعنى: يثبت الأقدام وقت الوحى و ليس لهذا التقييد معنى، و قيل: العامل فيه لِيَرْبِطَ و لا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء، و معنى الآية: أنى معكم بالنصر و المعونة، فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول يُوحِي و على قراءة الكسر يكون بتقدير القول. و معنى فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا بشروهم بالنصر أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم، و تكثير سوادهم، و هذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، و الفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قوله: سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ قد تقدّم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران، قيل: هذه الجملة تفسير لقوله: أَنِّي مَعَكُمْ قوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ قيل: المراد الأعناق أنفسها و فَوْقَ زائدة. قاله الأخفش و غيره. و قال محمد بن يزيد:

هذا خطأ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها و لكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه و ما قرب منها؛ و قيل المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ و قيل: المراد بفوق الأعناق: أعاليها لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع. قيل: و هذا أمر للملائكة، و قيل: للمؤمنين، و على الأوّل قيل: هو تفسير لقوله:

فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. قوله: وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال الزجّاج: واحد البنان بنانة، و هى هنا الأصابع و غيرها من الأعضاء، و البنان مشتق من قولهم: أبّن الرجل بالمكان: إذا أقام به، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة و الحياة؛ و قيل: المراد بالبنان هنا: أطراف الأصابع من اليدين و الرجلين، و هو عبارة عن الثبات فى الحرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء. قال عنترة:

و كان فتى الهيجاء يحمى ذمارهاو يضرب عند الكرب كلّ بنان

و قال عنترة أيضا:

و إنّ الموت طوع يدى إذا ماوصلت بنانها بالهندوانى

قال ابن فارس: البنان: الأصابع، و يقال: الأطراف، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما وقع عليهم من القتل، و دخل فى قلوبهم من الرعب، و هو مبتدأ، و بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ خبره، أى: ذلك بسبب مشاقتهم، و الشقاق أصله: أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق، و قد تقدّم تحقيق ذلك

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۳۴

وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ له، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق. قوله: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ الإشارة إلى ما تقدّم من العقاب، أو الخطاب هنا للكافرين، كما أن الخطاب فى قوله: ذلِكُمْ للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج: ذلكم: رفع بإضمار الأمر أو القصة، أى: الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال: و يجوز أن يضمر و اعلموا. قال فى الكشاف:

و يجوز أن يكون نصبا على: عليكم ذلكم فذوقوه، كقولك زيدا فاضربه. قال أبو حيان: لا يجوز تقدير عليكم، لأنه اسم فعل، و أسماء الأفعال لا تضمر، و تشبيهه: بزيدا فاضربه، غير صحيح لأنه لم يقدّر فيه:

عليك، بل هو من باب الاشتغال، و جملة وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ معطوفة على ما قبلها، فتكون الإشارة على هذا: إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به و يكون وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ: إشارة إلى العقاب الآجل.

و قد أخرج أبو يعلى، و البيهقى فى الدلائل، عن علىّ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، و لقد رأيتنا و ما فينا إلا نائم إلّا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلّى تحت شجرة حتى أصبح. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر، فيما أغشاهم اللّه من النعاس أمنة منه. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَمَنَةً مِنْهُ قال: أمنا من اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: أَمَنَةً مِنْهُ قال: رحمة منه، أمنة من العدو. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: النعاس فى الرأس، و النوم فى القلب. و أخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال: كان النعاس أمنة من اللّه، و كان النّعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، و نعاس يوم أحد. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله:

وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ قال: طش «۱» كان يوم بدر. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية قال: المطر أنزله اللّه عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار، و التبدت به الأرض، و طابت به أنفسهم، و ثبتت به أقدامهم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث اللّه السّماء و كان الوادى دهسا، و أصاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه ما لبد الأرض و لم يمنعهم المسير، و أصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن المشركين غلبوا المسلمين فى أوّل أمرهم على الماء، فظمئ المسلمون و صلوا مجنبين محدثين، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن و قال أ تزعمون أن فيكم نبيا و أنكم أولياء اللّه و تصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل اللّه من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء، فشرب المسلمون و تطهروا، و ثبتت أقدامهم، و ذهبت وسوسته. و قد قدّمنا المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، و هذا المروىّ عن ابن عباس فى إسناده العوفى، و هو ضعيف جدا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو

---

(۱). قال فى القاموس: الطّشّ و الطّشيش: المطر الضعيف و هو فوق الرذاذ.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۳۵

الشيخ عن مجاهد فى قوله: رِجْزَ الشَّيْطانِ قال: وسوسته. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:
وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ قال: بالصبر وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ قال: كان بطن الوادى دهاسا، فلما مطروا اشتدت الرملة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ قال: حتى تشتدّ على الرمل و هو كهيئة الأرض. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علىّ قال: «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يصلى تلك الليلة و يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد»، و أصابهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله: وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ و أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال: قال لى أبى:
يا بنىّ! لقد رأيتنا يوم بدر و إن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السّيف. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق و على البنان مثل سمة النار قد احترق به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ يقول: الرؤوس. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عطية فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ قال: اضربوا الأعناق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ يقول: اضربوا الرقاب. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال: يعنى بالبنان: الأطراف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطية وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ قال: كلّ مفصل.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (١٨)
الزحف: الدنوّ قليلا قليلا، و أصله: الاندفاع على الإلية، ثم سمّى كلّ ماش فى الحرب إلى آخر: زاحفا، و التزاحف: التدانى و التقارب، تقول: زحف إلى العدوّ زحفا، و ازدحف القوم: أى مشى بعضهم إلى بعض، و انتصاب زحفا: إما على أنه مصدر لفعل محذوف: أى تزحفون زحفا، أو على أنه حال من المؤمنين، أى: حال كونكم زاحفين إلى الكفار، أو حال من الذين كفروا: أى حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين أى متزاحفين فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ نهى اللّه المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم و قد دبّ بعضهم إلى بعض للقتال، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن، و على كل حال إلا حالة التحرّف و التحيز. و قد روى عن عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبى هريرة و أبى سعيد و أبى نضرة و عكرمة و نافع و الحسن و قتادة و زيد بن أبى حبيب و الضحّاك: أنّ تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختصّ بيوم

بدر، و أن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، و لو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم و لا لهم فئة إلا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض، و به قال أبو حنيفة. قالوا:
و يؤيده قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ فإنه إشارة إلى يوم بدر؛ و قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف. و ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة، و أنّ الفرار من الزحف محرّم، و يؤيد هذا: أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر. و أجيب عن قول الأوّلين: بأن الإشارة فى يَوْمَئِذٍ إلى يوم بدر: بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، و لا منافاة بين هذه الآية و آية الضعف، بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه اللّه فى آية الضعف، و لا

وجه لما ذكروه من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بالخروج، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم و من خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال.

و يؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر، كما فى حديث «اجتنبوا السبع الموبقات، و فيه: و التولّى يوم الزّحف» و نحوه من الأحاديث، و هذا البحث تطول ذيوله و تتشعب طرقه، و هو مبين فى مواطنه.

قال ابن عطية: و الأدبار: جمع دبر، و العبارة بالدبر فى هذه الآية، متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ و الذمّ له، قوله: إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ التحرف: الزوال عن جهة الاستواء، و المراد به هنا: التحرّف من جانب إلى جانب فى المعركة طلبا لمكايد الحرب و خدعا للعدوّ، و كمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدوّ فيكرّ عليه و يتمكن منه، و نحو ذلك من مكائد الحرب فإن الحرب خدعة.

قوله: أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ أى: إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدوّ، و انتصاب متحرّفا و متحيزا على الاستثناء من المولين، أى: و من يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرّفا أو متحيزا، و يجوز انتصابهما على الحال، و يكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له، و جملة فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ جزاء للشرط.

و المعنى: من ينهزم و يفرّ من الزحف فقد رجع بغضب كائن من اللّه إلا المتحرّف و المتحيز وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ أى: المكان الذى يأوى إليه هو النار: ففراره أوقعه إلى ما هو أشدّ بلاء مما فرّ منه و أعظم عقوبة. و المأوى:

ما يأوى إليه الإنسان وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ما صار إليه من عذاب النار. و قد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الزحف، و فى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة. قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ الفاء جواب شرط مقدّر، أى: إذا عرفتم ما قصه اللّه عليكم من إمداده لكم بالملائكة، و إيقاع الرعب فى قلوبهم، فلم تقتلوهم و لكنّ اللّه قتلهم، بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر. قوله: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى اختلف المفسّرون فى هذا الرمى على أقوال: فروى عن مالك أن المراد به: ما كان منه صلّى اللّه عليه و سلّم فى يوم حنين، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى فأصابت كل واحد منهم؛ و قيل: المراد به: الرمية التى رمى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أبىّ بن خلف بالحربة فى عنقه فانهزم و مات منها؛ و قيل:

المراد به: السهم الذى رمى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى حصن خيبر، فسار فى الهواء حتى أصاب ابن أبى الحقيق و هو على فراشه، و هذه الأقوال ضعيفة، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر. و أيضا المشهور فى كتب السير

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۳۷

و الحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة. و الصحيح كما قال ابن إسحاق و غيره أن المراد بالرمى المذكور فى هذه الآية: هو ما كان منه صلّى اللّه عليه و سلّم فى يوم بدر، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فأصابت كل واحد منهم، و دخلت فى عينيه و منخريه و فمه. قال ثعلب: المعنى وَ ما رَمَيْتَ الفزع و الرعب فى قلوبهم إِذْ رَمَيْتَ بالحصباء فانهزموا وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى أى:

أعانك و أظفرك، و العرب تقول: رمى اللّه لك، أى: أعانك و أظفرك و صنع لك. و قد حكى مثل هذا أبو عبيدة فى كتاب المجاز. و قال محمد بن يزيد المبرد: المعنى: وَ ما رَمَيْتَ بقوّتك إِذْ رَمَيْتَ و لكنك بقوّة اللّه رميت؛ و قيل المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر، و لكنها كانت رمية اللّه حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأن صورتها وجدت منه، و نفاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل اللّه عزّ و جلّ، فكأنّ اللّه فاعل الرمية على الحقيقة، و كأنها لم توجد من رسول اللّه صلّى

اللّه عليه و سلّم أصلا، هكذا فى الكشاف. قوله:
وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً البلاء هاهنا: النعمة؛ و المعنى: و لينعم على المؤمنين إنعاما جميلا، و اللام متعلقة بمحذوف، أى: و للإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها، أى: و لكن اللّه رمى ليمحق الكافرين و ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لدعائهم عليم بأحوالهم، و الإشارة بقوله: ذلكم، إلى البلاء الحسن، و هو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: الغرض ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ أى: إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين و توهين كيد الكافرين؛ و قيل: المشار إليه القتل و الرمى. و قد قرئ بتشديد الهاء و تخفيفها مع التنوين. و قرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة. و الكيد: المكر، و قد تقدّم بيانه.
و قد أخرج البخارى فى تاريخه و النسائى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن نافع أنه سأل ابن عمر قال: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدوّنا، و لا ندرى من الفئة، أمامنا أو عسكرنا؟ فقال لى: الفئة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: إن اللّه يقول إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ قال: إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر لا لقبلها و لا لبعدها. و أخرج عبد بن حميد و أبو داود و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و النحّاس فى ناسخه، و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ الآية قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرّنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر و أنا فئة لكلّ مسلم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: نزلت فى أهل بدر خاصة ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يتركوه. و قد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين و من بعدهم و قد قدمنا الإشارة إلى ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ يعنى مستطردا يريد الكرّة على المشركين أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ يعنى: أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ يقول: استوجبوا سخطا من اللّه وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ فهذا يوم بدر خاصّة،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٣٨
كأن اللّه شدّد على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين و هو أوّل قتال قاتلوا فيه المشركين من أهل مكة.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: المتحرف: المتقدّم من أصحابه أن يرى عورة من العدوّ فيصيبها. و المتحيّز: الفارّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كذلك من فرّ اليوم إلى أميره و أصحابه.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ قال:
هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن سعد و ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد، و البخارى فى الأدب المفرد و اللفظ له، و أبو داود، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عمر قال: كنّا فى غزاة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف نلقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب؟ فأتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرّارون، فقال: لا، بل أنتم العكارون «١»، فقبلنا يده فقال: أنا فئتكم و أنا فئة المسلمين، ثم قرأ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ. و قد روى فى تحريم الفرار من الزحف، و أنه من الكبائر أحاديث، و ورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس. و أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر. و أخرجه ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ قال لأصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم حين قال: هذا قتلت، و هذا قتلت.

وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم حين حصب الكفار.

و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة فی قوله: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال: رماهم يوم بدر بالحصباء. و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردويه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء إلی الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فی طست، و رمی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم بتلك الحصباء و قال: شاهت الوجوه، فانهزمنا، فذلك قوله تعالی: وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ الآية. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن جابر قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فی طست، فلما اصطفّ النّاس أخذهنّ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فرمی بهنّ فی وجوه المشركين، فانهزموا، فذلك قوله وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى و أخرج الطبرانی و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ قال: قال رسول اللّه لعلیّ: ناولنی قبضة من حصباء، فناوله، فرمی بها فی وجوه القوم فما بقی أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت هذه الآية وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبی حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما كان يوم أحد أخذ أبیّ بن خلف يركض فرسه حتی دنا من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم و اعترض رجال من المسلمين لأبیّ بن خلف ليقتلوه. فقال لهم رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «استأخروا، فاستأخروا، فأخذ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم حربته فی يده

---

(١). قال فی القاموس: العكّار: الكرار، العطّاف.

فرمی بها أبیّ بن خلف و كسر ضلعا من أضلاعه، فرجع أبیّ بن خلف إلی أصحابه ثقيلا فاحتملوه حين ولوا قافلين، فطفقوا يقولون لا بأس، فقال أبیّ حين قالوا له ذلك: و اللّه لو كانت بالناس لقتلتهم، أ لم يقل إنی أقتلك إن شاء اللّه، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتی مات ببعض الطريق فدفنوه. قال ابن المسيب:

و فی ذلك أنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن سعيد بن المسيب و الزهری نحوه، و إسناده صحيح إليهما، و قد أخرجه الحاكم فی المستدرك. قال ابن كثير: و هذا القول عن هذين الإمامين غريب جدا، و لعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها، و هكذا قال فيما قال عبد الرحمن ابن جبير كما سيأتی- و أخرج ابن جرير و ابن أبی حاتم عن عبد الرحمن بن جبير: أن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم يوم ابن أبی الحقيق دعا بقوس فرمی بها الحصن، فأقبل السهم يهوی حتّی قتل ابن أبی الحقيق فی فراشه، فأنزل اللّه وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى و أخرج ابن إسحاق و ابن أبی حاتم عن عروة بن الزبير فی قوله وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى أی: لم يكن ذلك برميتك لو لا الذی جعل اللّه من نصرك و ما ألقی فی صدور عدوّك حتی هزمهم وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً أی: ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فی إظهارهم علی عدوّهم مع كثرة عدوّهم و قلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، و يشكروا بذلك نعمته.

[سورة الأنفال (٨): آية ١٩]

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

الاستفتاح: طلب النّصر، و قد اختلف فی المخاطبين بالآية من هم؟ فقيل: إنها خطاب للكفار تهكما بهم، و المعنی: إن تستنصروا اللّه علی محمد، فقد جاءكم النصر، و قد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا اللّه أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم اللّه بهم،

و سمّى ما حلّ بهم من الهلاك نصرا؛ و معنى بقية الآية على هذا القول وَ إِنْ تَنْتَهُوا عما كنتم عليه من الكفر و العداوة لرسول اللّه فَهُوَ أى: الانتهاء خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا إلى ما كنتم عليه من الكفر و العداوة نَعُدْ بتسليط المؤمنين عليكم و نصرهم كما سلطناهم و نصرناهم فى يوم بدر وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ أى: جماعتكم شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ أى:

لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال و لو فى حال كثرتها، ثم قال وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و من كان اللّه معه فهو المنصور، و من كان اللّه عليه فهو المخذول. و قرئ بكسر إن و فتحها فالكسر: على الاستئناف، و الفتح على تقدير: و لأن اللّه مع المؤمنين فعل ذلك. و قيل: إن الآية خطاب للمؤمنين، و المعنى: إن تستنصروا اللّه فقد جاءكم النصر فى يوم بدر، و إن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم، و فداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك، فهو خير لكم، و إن تعودوا إلى مثل ذلك، نعد إلى توبيخكم كما فى قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ الآية، و لا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً و يأباه أيضا وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ و توجيه ذلك لا يمكن إلا بتكليف و تعسف، و قيل: إن الخطاب فى إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ للمؤمنين، و ما بعده للكافرين، و لا يخفى ما فى هذا من تفكيك النّظم، و عود الضمائر الجارية

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٤٠

فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن مندة، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن شهاب عن عبد اللّه بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم! أقطعنا للرحم، و آتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحا منه فنزلت إِنْ تَسْتَفْتِحُوا الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عطية قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدى الفئتين، و أفضل الفئتين، و خير الفئتين، فنزلت الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس إِنْ تَسْتَفْتِحُوا يعنى: المشركين، أى: إن تستنصروا فقد جاءكم المدد. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن مجاهد إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ قال: كفار قريش فى قولهم: ربنا افتح بيننا و بين محمد و أصحابه، ففتح بينهم يوم بدر.

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة فى قوله إِنْ تَسْتَفْتِحُوا قال: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدى فى قوله وَ إِنْ تَنْتَهُوا قال: عن قتال محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ قال: إن تستفتحوا الثانية، أفتح لمحمد وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ قال: مع محمد و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد عن قتادة وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ يقول: نعد لكم بالأسر و القتل.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

أمر اللّه سبحانه المؤمنين بطاعته، و طاعة رسوله، و نهاهم عن التولّى عن رسوله، فالضّمير فى عَنْهُ عائد إلى الرسول، لأن طاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هى من طاعة اللّه، و مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ و يحتمل أن يكون هذا الضمير راجعا إلى اللّه و إلى رسوله كما فى قوله وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ و قيل:

الضمير راجع إلى الأمر الذى دلّ عليه أطيعوا، و أصل تولوا: تتولوا، فطرحت إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب

للمؤمنين، و به قال الجمهور؛ و قيل: إنه خطاب للمنافقين، و المعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية: و هذا و إن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدّا، لأن اللّه وصف من خاطبه فى هذه الآية بالإيمان و هو التصديق، و المنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء، و أبعد من هذا من قال: الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبىّ من الآية، و جملة وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ فى محل نصب على الحال، و المعنى: و أنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج و البراهين، و تصدقون بها و لستم كالصمّ البكم وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا و هم المشركون، أو المنافقون، أو اليهود، أو الجميع من هؤلاء، فإنّهم يسمعون بآذانهم من غير فهم و لا عمل، فهم كالذى لم يسمع أصلا، لأنه لم ينتفع بما سمعه. ثم أخبر سبحانه بأنّ شَرَّ

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٤١

الدَّوَابِ أى: ما دبّ على الأرض عِنْدَ اللَّهِ أى: فى حكمه الصُّمُّ الْبُكْمُ أى: الذين لا يسمعون، و لا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع و ينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع و النطق الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ما فيه النّفع لهم فيأتونه، و ما فيه الضّرر عليهم فيجتنبونه، فهم شرّ الدوابّ عند اللّه، لأنها تميز بعض تمييز، و تفرق بين ما ينفعها و يضرّها وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ أى: فى هؤلاء الصمّ البكم خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ سماعا ينتفعون به، و يتعقلون عنده الحجج و البراهين. قال الزجاج لَأَسْمَعَهُمْ جواب كل ما سألوا عنه؛ و قيل: لَأَسْمَعَهُمْ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم، لأنهم طلبوا إحياء قصىّ بن كلاب، و غيره ليشهدوا بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون و جملة وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فى محل نصب على الحال. و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ قال: غاضبون. و أخرج ابن أبى حاتم عن علىّ بن أبى طالب فى قوله إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الآية قال: إنّ هذه الآية نزلت فى فلان و أصحاب له. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و البخارى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ قال: هم نفر من قريش من بنى عبد الدار. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ قال: لا يتبعون الحق. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية فى النّضر بن الحارث و قومه، و لعله المكنّى بعنه بفلان فيما تقدّم من قول علىّ رضى اللّه عنه. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ أى: لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألسنتهم، و لكنّ القلوب خالفت ذلك منهم. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال:

قالوا نحن صمّ عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه، بكم لا نجيبه فيه بتصديق، قتلوا جميعا بأحد، و كانوا أصحاب اللواء يوم أحد.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥)

الأمر هنا بالاستجابة مؤكّد لما سبق من الأمر بالطاعة، و وحد الضمير هنا حيث قال إِذا دَعاكُمْ كما وحده فى قوله وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ و قد قدّمنا الكلام فى وجه ذلك، و الاستجابة: الطاعة. قال أبو عبيدة معنى استجيبوا: أجيبوا، و إن كان استجاب: يتعدّى باللام، و أجاب: بنفسه كما فى قوله: يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ «١»، و قد يتعدّى بنفسه كما فى قول الشاعر «٢»:

---

(١). الأحقاف: ٣١.

(٢). هو كعب بن سعد الغنوى.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۲ وداع دعا يا من يجيب إلى النّدىفلم يستجبه عند ذاک مجيب

إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ اللام متعلقة بقوله اسْتَجِيبُوا أى: استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم، و لا مانع من أن تكون متعلقة بدعا، أى: إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، فإن العلم حياة، كما أن الجهل موت، فالحياة هنا: مستعارة للعلم، قال الجمهور من المفسّرين: المعنى استجيبوا للطاعة و ما تضمّنه القرآن من أوامر و نواه، ففيه الحياة الأبدية، و النعمة السّرمدية؛ و قيل: المراد بقوله لِما يُحْيِيكُمْ الجهاد، فإنّه سبب الحياة فى الظاهر، لأن العدوّ إذا لم يغز غزا، و يستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة على أنه:

يجب على كل مسلم إذا بلغه قول اللّه، أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية؛ أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان، و يدع ما خالفه من الرأى، و أقوال الرجال. و فى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، و ترک التقيد بالمذاهب، و عدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب و السنة كائنا ما كان. قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ قيل معناه: بادروا إلى الاستجابة، قبل أن لا تتمكّنوا منها، بزوال القلوب التى تعقلون بها، بالموت الذى كتبه اللّه عليكم؛ و قيل معناه: إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ، فأعلمهم اللّه أنه يحول بين المرء و قلبه، بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا، و يبدل عدوّهم من الأمن خوفا؛ و قيل:

هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ «۱» و معناه: أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية. و اختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من اللّه عزّ و جلّ، بأنه أملک لقلوب عباده منهم، و أنه يحول بينهم و بينها إذا شاء، حتى لا يدرک الإنسان شيئا إلا بمشيئته عزّ و جلّ، و لا يخفاک أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ معطوف على أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ و أنكم محشورون إليه و هو مجازيكم بالخير خيرا، و بالشرّ شرّا، قال الفراء: و لو استأنفت فكسرت همزة أَنَّهُ لكان صوابا، و لعل مراده: أن مثل هذا جائز فى العربية. قوله وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً أى: اتّقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح و الطالح، و لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم.

و قد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى تُصِيبَنَ فقال الفراء: هو بمنزلة قولک: انزل عن الدابة لا تطرحنک، فهو جواب الأمر بلفظ النهى، أى: إن تنزل عنها لا تطرحنک، و مثله قوله تعالى ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ «۲» أى: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء، و قال المبرد: إنه نهى بعد أمر. و المعنى: النهى للظالمين، أى: لا يقربنّ الظلم، و مثله ما روى عن سيبويه لا أرينک هاهنا، فإن معناه: لا تكن هاهنا، فإن من كان هاهنا رأيته. و قال الجرجانى:

إنّ: لا تصيبنّ، نهى فى موضع وصف لفتنة، و قرأ علىّ و زيد بن ثابت و أبىّ و ابن مسعود لتصيبنّ على أن اللام جواب لقسم محذوف، و التقدير: اتقوا فتنة و اللّه لتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة، لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة.

وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ و من شدّة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، و قد وردت

---

(۱). ق: ۱۶.

(۲). النمل: ۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۳

الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه، و لا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون

بتسليط العباد بعضهم على بعض، و يمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة، و اللّه أعلم، و يمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب، كترك الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، فتكون الإصابة المتعدّية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ قال: للحق. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية: قال: هو هذا القرآن فيه الحياة و الثقة و النجاة و العصمة فى الدنيا و الآخرة. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله: إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ أى: للحرب التى أعزّكم اللّه بها بعد الذلّ، و قوّاكم بها بعد الضعف، و منعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم. و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلّى فى المسجد فدعانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول اللّه! إنى كنت أصلى، فقال: ألم يقل اللّه تعالى استجيبوا للّه و للرسول إذا دعاكم».

الحديث، و فيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعمّ كل دعاء من اللّه أو من رسوله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه من طرق عن ابن عباس فى قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ قال: يحول بين المؤمن و بين الكفر و معاصى اللّه، و يحول بين الكافر و بين الإيمان و طاعة اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال: علمه يحول بين المرء و قلبه. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: يحول بين المرء و قلبه حتى يتركه لا يعقل. و أخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: فى القرب منه. و أخرج أحمد و البزار و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر عن مطرف قال: قلت للزبير: يا أبا عبد اللّه! ضيّعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه. قال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر و عمر و عثمان وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً و لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: قرأ الزبير وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً قال: البلاء و الأمر الذى هو كائن. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن الحسن فى الآية قال: نزلت فى علىّ و عثمان و طلحة و الزبير. و أخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال نزلت فى أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خاصة و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدى قال: نزلت فى أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة و الزبير، و هما من أهل بدر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: تصيب الظالم، و الصالح عامة. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: هى مثل. يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ حتى يتركه لا يعقل. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: أمر اللّه المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم اللّه بالعذاب و قد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف، و ينهوا عن المنكر

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣۴۴

عمهم اللّه بعذاب من عنده.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢۶ الى ٢٨]

وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢۶) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

الخطاب بقوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ للمهاجرين، أي: اذكروا وقت قلتكم، و مُسْتَضْعَفُونَ خبر ثان للمبتدأ، و الأرض: هى أرض مكة، و الخطف: الأخذ بسرعة، و المراد بالناس: مشركو قريش؛ و قيل: فارس و الروم فَآواكُمْ يقال: آوى إليه بالمد و بالقصر بمعنى: انضمّ إليه. فالمعنى: ضمكم اللّه إلى المدينة أو إلى الأنصار وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ أى: قوّاكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر، أو قوّاكم بالملائكة يوم بدر وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ التى من جملتها الغنائم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى: إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم، و الخون أصله كما فى الكشاف: النقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل فى ضد الأمانة و الوفاء، لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان؛ و قيل معناه: الغدر و إخفاء الشىء، و منه قوله تعالى: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ «۱» نهاهم اللّه عن أن يخونوه بترك شىء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شىء مما أمنهم عليه، أو بترك شىء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اؤتمنوا عليها، و سميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، و جملة وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: و أنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد، أو و أنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر اللّه بها عباده، و إن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا، كما فى الآية الأخرى وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فآثروا حقّه على أموالكم و أولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ قال: كان هذا الحىّ من العرب أذلّ الناس ذلا، و أشقاه عيشا، و أجوعه بطونا، و أعراه جلودا، و أبينه ضلالة، من عاش عاش شقيا، و من مات منهم ردّى فى النار، يؤكلون و لا يأكلون، لا و اللّه ما نعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشرّ منزلا منهم، حتى جاء اللّه بالإسلام، فمكن به فى البلاد، و وسع به فى الرزق، و جعلهم به ملوكا على رقاب الناس، و بالإسلام أعطى اللّه ما رأيتم، فاشكروا للّه نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، و أهل الشكر فى مزيد من اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قال: فى الجاهلية بمكة فَآواكُمْ إلى الإسلام. و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن وهب فى قوله: يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قال: الناس إذ ذاك فارس و الروم.

---

(۱). غافر: ۱۹.

و أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قيل: يا رسول اللّه! و من الناس؟ قال: أهل فارس. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: فَآواكُمْ قال: إلى الأنصار بالمدينة وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ قال: يوم بدر. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن جابر بن عبد اللّه أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنّ أبا سفيان بمكان كذا و كذا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن أبا سفيان فى مكان كذا و كذا فاخرجوا إليه و اكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل اللّه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ الآية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن أبى قتادة قال: نزلت هذه الآية لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فى أبى لبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت اللّه و رسوله. و أخرج سنيد و ابن جرير عن الزهرى نحوه بأطول منه و أخرج عبد بن حميد عن الكلبى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث أبا لبابة إلى قريظة و كان حليفا لهم،

فأومأ بيده أنه الذبح فنزلت. و أخرج أبو الشيخ عن السدى فى هذه الآية أنها نزلت فى أبى لبابة و نسختها الآية التى فى براءة وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ «١» و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: لا تَخُونُوا اللَّهَ قال: بترك فرائضه وَ الرَّسُولَ بترك سننه، و ارتكاب معصيته وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ يقول: لا تنقصوها، و الأمانة: الأعمال التى ائتمن اللّه عليها العباد. و أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية فى قتل عثمان، و لعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان. و أخرج أبو الشيخ عن يزيد بن حبيب فى الآية قال: هو الإخلال «٢» بالسّلاح فى المغازى، و لعل مراده أن هذا يندرج تحت عمومها.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحد إلا و هو يشتمل على فتنة. لأن اللّه يقول أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ فمن استعاذ منكم فليستعذ باللّه من مضلات الفتن.

و أخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال: فتنة الأخبار اختبرهم، و قرأ: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً «٣».

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

جعل سبحانه التّقوى شرطا فى الجعل المذكور، مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون، جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا. و التقوى: اتقاء مخالفة أوامره و الوقوع فى مناهيه. و الفرقان: ما يفرق به

---

(١). التوبة: ١٠٢.

(٢). قال فى لسان العرب: أخلّ بالشيء: غاب عنه و تركه.

(٣). الأنبياء: ٣٥.

بين الحقّ و الباطل، و المعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، و ثقوب البصائر، و حسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس؛ و قيل: الفرقان: المخرج من الشبهات، و النجاة من كل ما يخافونه، و منه قول الشاعر:

مالك من طول الأسى فرقان‏بعد قطين رحلوا و بانوا

و منه قول الآخر:

و كيف أرجى الخلد و الموت طالبى‏و ما لى من كأس المنيّة فرقان

و قال الفرّاء: المراد بالفرقان: الفتح و النصر. قال ابن إسحاق: الفرقان الفصل بين الحق و الباطل، و بمثله قال ابن زيد. و قال السدىّ: الفرقان: النجاة، و يؤيّد تفسير الفرقان بالمخرج و النجاة، قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً و به قال مجاهد و مالك بن أنس. وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أى: يسترها حتى تكون غير ظاهرة وَ يَغْفِرْ لَكُمْ «١» ما اقترفتم من الذنوب؛ و قد قيل: إن المراد بالسيئات: الصغائر، و بالذنوب التى تغفر: الكبائر؛ و قيل: المعنى: أنه يغفر لهم ما تقدّم من الذنوب و ما تأخر وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات و مغفرة الذنوب.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً قال: هو المخرج. و أخرج ابن جرير عنه قال: هو النجاة. و أخرج ابن جرير عن عكرمة مثله. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: هو النّصر.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

قوله: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا الظرف معمول لفعل محذوف. أى: و اذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك، أو معطوف على ما تقدّم من قوله وَ اذْكُرُوا ذكر اللّه رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه، و هى نجاته من مكر الكافرين و كيدهم، كما سيأتى بيانه لِيُثْبِتُوكَ أى: يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب و أبو حاتم و غيرهما، و عنه قول الشاعر:

فقلت ويحكما ما فى صحيفتكمقالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعا

و قيل: المعنى ليحبسوك، يقال: أثبته: إذا حبسه؛ و قيل ليوثقوك، و منه: فَشُدُّوا الْوَثاقَ «٢». و قرأ الشّعبى «ليبيتوك» من البيات. و قرئ ليثبتوك بالتشديد أَوْ يُخْرِجُوكَ معطوف على ما قبله، أى: يخرجوك من مكة التى هى بلدك و بلد أهلك. و جملة وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ مستأنفة، و المكر:

---

(١). الطلاق: ٢.

(٢). محمد: ۴.

التدبير فى الأمر فى خفية، و المعنى: أنهم يخفون ما يعدّونه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المكايد، فيجازيهم اللّه على ذلك، و يردّ كيدهم فى نحورهم، و سمى ما يقع منه تعالى: مكرا، مشاكلة كما فى نظائره وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ أى: المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشدّ ضررا عليهم و أعظم بلاء من مكرهم. قوله: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أى التى تأتيهم بها و تتلوها عليهم قالُوا تعنتا و تمردا و بعدا عن الحق قَدْ سَمِعْنا ما تتلوه علينا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا الذى تلوته علينا، قيل: إنهم قالوا هذا توهما منهم أنهم يقدرون على ذلك، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه، ثم قال عنادا و تمرّدا: إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى: ما يستطره الوراقون من أخبار الأوّلين، و قد تقدّم بيانه مستوفى وَ إِذْ قالُوا أى: و اذكر إذ قالوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ بنصب الحقّ على أنه خبر كان، و الضمير للفصل، و يجوز الرفع، قال الزجّاج: و لا أعلم أحدا قرأ بها، و لا اختلاف بين النّحويين فى إجازتها، و لكن القراءة سنة، و المعنى: إن كان القرآن الذى جاءنا به محمد هو الحق فَأَمْطِرْ عَلَيْنا قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود و الإنكار. قال أبو عبيدة: يقال: أمطر: فى العذاب، و مطر: فى الرحمة. و قال فى الكشاف: قد كثر الإمطار فى معنى العذاب أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد، فأجاب اللّه عليهم بقوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ يا محمد فِيهِمْ موجود فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف غفرانك، أى:

و ما كان اللّه معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه؛ و قيل: المعنى: لو كانوا ممن يؤمن باللّه و يستغفره لم يعذبهم، و قيل: إنّ الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم، أى: و ما كان اللّه ليعذبهم و فيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا

من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر و ما بعده؛ و قيل: المعنى: و ما كان اللّه معذّبهم و فى أصلابهم من يستغفر اللّه.

و قد أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الدلائل، و الخطيب عن ابن عباس فى قوله: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال بعضهم: بل اقتلوه، و قال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع اللّه نبيه على ذلك، فبات علىّ على فراش النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوه عليا ردّ اللّه مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدرى، فاقتصّوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا فى الجبل، فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو نعيم و البيهقى عن ابن عباس فذكر القصة بأطول مما هنا.

و فيها ذكر الشيخ النجدى؛ أى: إبليس و مشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما و يعطوا كل واحد منهم سيفا ثم

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۴۸

يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه فى القبائل، فقال الشيخ الجندى: هذا و اللّه هو الرأى، فتفرّقوا على ذلك. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال: لما ائتمروا بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه؛ قال له عمّه أبو طالب: هل تدرى ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى، قال: من حدّثك بهذا؟ قال: ربى، قال:

نعم الربّ ربك، استوص به خيرا، قال: أنا أستوصى به؟ بل هو يستوصى بى. و أخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه. و هذا لا يصحّ، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال: قال عكرمة هى مكية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء فى قوله لِيُثْبِتُوكَ يعنى: ليوثقوك. و أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط، و طعيمة ابن عدى، و النّضر بن الحارث؛ و كان المقداد أسر النّضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول اللّه! أسيرى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنه كان يقول فى كتاب اللّه ما يقول، قال: و فيه أنزلت هذه الآية وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا، و هذا مرسل. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى أنها نزلت فى النّضر بن الحارث. و أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ الآية، فنزلت وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية.

و أخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل، و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنّها نزلت فى النّضر بن الحارث، و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج ابن جرير عن عطاء نحوه و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت و يقولون: لبيك اللهم لبيك. لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك. و يقولون: غفرانك غفرانك. فأنزل اللّه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستغفار؛ فذهب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و بقى الاستغفار.

و أخرج الترمذى و ضعّفه عن أبى موسى الأشعرى قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «أنزل اللّه علىّ أمانين لأمتى وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار». و أخرج أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان عن

أبى هريرة قال: كان فيكم أمانان مضـى أحدهما و بقى الآخر، قال: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ الآية. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و الطبرانى و ابن مردويه و الحاكم و ابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا، و الأحاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا، معروفة فى كتب الحديث.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

وَ ما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧)

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٤٩

قوله: وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ لما بيّن سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدّمان: وجود رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين ظهورهم، و وقوع الاستغفار. ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار، أعنى: كفار مكة مستحقون لعذاب اللّه لما ارتكبوا من القبائح. و المعنى: أىّ شىء لهم يمنع من تعذيبهم؟ قال الأخفش: إن أن زائدة. قال النحاس: لو كان كما قال لرفع يعذبهم، و جملة وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فى محل نصب على الحال، أى: و ما يمنع من تعذيبهم؟ و الحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام، كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه من البيت. و جملة وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ فى محل نصب على أنها حال من فاعل يَصُدُّونَ و هذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت. و أن أمره مفوض إليهم، ثم قال مبينا لمن له ذلك إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أى: ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك و المعاصى وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ذلك، و الحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون و لكنهم يعاندون. قوله وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً المكاء: الصفير من مكا يمكو مكاء، و منه قول عنترة:

و حليل غانية تركت مجدّلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوّت. و منه: مكت است الدابة: إذا نفخت بالريح، قيل المكاء: هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكّاء. قال الشاعر:

إذا غرّد المكّاء فى غير دوحة فويل لأهل الشّاء و الحمرات

و التّصدية: التصفيق، يقال: صدّى يصدّى تصدية: إذا صفق، و منه قول عمرو بن الإطنابة:

و ظلّوا جميعا لهم ضجّة مكاء لدى البيت بالتّصدية

أى: بالتصفيق؛ و قيل المكاء: الضرب بالأيدى، و التّصدية: الصياح؛ و قيل المكاء: إدخالهم أصابعهم فى أفواههم، و التّصدية: الصفير؛ و قيل التصدية: صدّهم عن البيت؛ قيل: و الأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء. و معنى الآية: أن المشركين كانوا يصفرون و يصفقون عند البيت، الذى هو موضع للصلاة و العبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة، قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، و قرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان، و ما بعده اسمها. قوله فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم و مبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم، و المراد به: عذاب الدنيا كيوم بدر، و عذاب الآخرة. قوله إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٥٠

من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية. و المعنى: أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق بمحاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جمع الجيوش لذلك، و إنفاق أموالهم عليها، و ذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر، و يوم أحد، و يوم الأحزاب، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش؛ ثم أخبر اللّه سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: فَسَيُنْفِقُونَها أى: سيقع منهم هذا الإنفاق ثُمَّ تَكُونُ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، و كأن ذات الأموال تنقلب حسرة و تصير ندما، ثُم آخر الأمر يُغْلَبُونَ كما وعد اللّه به فى مثل قوله كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي و معنى (ثم) فى الموضعين: إما التراخى فى الزمان، لما بين الإنفاق المذكور، و بين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، و إما التراخى فى الرتبة، لما بين بذل المال، و عدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ أى: استمروا على الكفر، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم و حسن إسلامه، أى: يساقون إليها لا إلى غيرها، ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله فقال: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ أى: الفريق الخبيث من الكفار مِنَ الفريق الطَّيِّبِ و هم المؤمنون وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ أى: يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً عبارة عن الجمع و الضم، أى: يجمع بعضهم إلى بعض، و يضمّ بعضهم إلى بعض، حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم، يقال: ركم الشيء يركمه: إذا جمعه و ألقى بعضه على بعض، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى الفريق الخبيث هُمُ الْخاسِرُونَ أى: الكاملون فى الخسران؛ و قيل: الخبيث و الطيب: صفة للمال، و التقدير: يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون، من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون، فيضمّ تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيه فى جهنم، و يعذبهم بها، كما فى قوله تعالى: فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ قال فى الكشاف: و اللام على هذا متعلقة بقوله: ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً، و على الأوّل:

ب: يُحْشَرُونَ و أُولئِكَ إشارة إلى الذين كفروا. انتهى.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ثم استثنى أهل الشرك فقال وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ قال: عذابهم فتح مكة. و أخرج ابن إسحاق و أبو حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ و هم يجحدون بآيات اللّه و يكذبون رسله. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أى: من آمن باللّه و عبده، أنت و من أتبعك، وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ الذين يخرجون منه و يقيمون الصلاة عنده، أى:

أنت و من آمن بك. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ قال: من كانوا حيث كانوا. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش يعارضون النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الطواف و يستهزئون و يصفرون و يصفقون، فنزلت وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

فتح القدير، ج‏2، ص: 351

و ابن مردويه و الضياء عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر و تصفق، فأنزل اللّه وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً قال: و المكاء: الصفير، إنما شبهوا بصفير الطير، و تصدية: التصفيق، و أنزل اللّه فيهم قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ «1» الآية. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه. و أخرج الفريابى و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عنه نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: المكاء: الصفير، و التصدية: التصفيق. و أخرج ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن

مجاهـد، قال: المكاء: إدخال أصابعهم فى أفواههم، و التصديـة: الصـفير، يخلطون بذلك كله على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم صلاته.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتم عن السـدّى. قـال: المكـاء: الصـفير، على نحو طير أبيض يقـال له: المكـاء بـأرض الحجـاز، و التّصديـة: التصـفيق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حـاتـم و أبو الشـيخ عن سـعيد بن جـبير فى قوله إِلَّا مُكـاءً قـال: كـانوا يشـبكون أصابعهم و يصفرون فيهنّ وَ تَصْدِيَةً قال: صدّهم الناس.

و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان المشـركون يطوفون بالبيت على الشـمال، و هو قوله وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فالمكاء: مثل نفخ البوق، و التّصدية: طوافهم على الشمال.

و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن الضـحاك فى قوله فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قال: يعنى أهل بدر، عذبهم اللّه بالقتل و الأسر. و أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدلائل، كلّهم من طريقه: قال: حدّثنى الزهرى و محمد بن يحيى بن حيان و عاصم ابن عمر بن قتادة و الحسـين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا: لما أصـيبت قريش يوم بدر و رجع فلهم إلى مكة و رجع أبو سـفيان بعيره، مشـى عبد اللّه بن أبى ربيعة و عكرمة بن أبى جهل و صفوان بن أميـة فى رجـال من قريش أصـيب آباؤهم، فكلموا أبا سـفيان و من كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشـر قريش إن محمدا قد وتركم و قتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثارا. ففعلوا، ففيهم كما ذكر ابن عبـاس أنزل اللّه إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إلى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى أبى سـفيان بن حرب. و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشـيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج هؤلاء و غيرهم عن سـعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن الحكم بن عتيبـة فى الآيـة قال: نزلت فى أبى سـفيان، أنفق على مشـركى قريش يوم أحـد أربعين أوقيـة من ذهب، و كانت الوقية يومئذ اثنين و أربعين مثقالا «٢» من ذهب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن شـمر بن عطيـة فى قوله لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح فى الدنيا، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى فى جهنم.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً قال: يجمعه جميعا.

---

(١). الأعراف: ٣٢.

(٢). المثقال: ٦٠، ٣ غرام.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٥٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

أمر اللّه سـبحانه رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن يقول للكفار هذا المعنى، و سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: و لو كـان كمـا قـال الكسـائى: إنه فى مصـحف عبـد اللّه بن مسـعود قـل للّـذين كفروا إن تنتهوا يعنى بالتاء المثناة من فوق لما تأدّت الرسالـة إلا بتلك الألفاظ بعينها. و قال فى الكشاف: أى: قل لأجلهم هـذا القول، و هو إِنْ يَنْتَهُوا و لو كان بمعنى: خاطبهم، لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم، و هى قراءة ابن مسـعود، و نحوه وَ قـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كـانَ خَيْراً مـا سَبَقُونا إِلَيْهِ «١» خاطبوا به

غيرهم لأجلهم ليسمعوه، أى:

إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قتاله بالدخول فى الإسلام يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ لهم من العداوة، انتهى. و قيل معناه: إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطيّة: و الحامل على هذا جواب الشرط:

يغفر لهم ما قد سلف، و مغفرة ما قد سلف لا تكون إلّا لمنته عن الكفر. و فى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله وَ إِنْ يَعُودُوا إلى القتال و العداوة، أو إلى الكفر الذى هم عليه، و يكون العود بمعنى الاستمرار فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ هذه العبارة مشتملة على الوعيد و التهديد و التمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب اللّه؛ أى: قد مضت سنّة اللّه فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأوّلين من الأمم أن يصيبه بعذاب، فليتوقّعوا مثل ذلك وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ أى: كفر، و قد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى فَإِنِ انْتَهَوْا عما ذكر فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء، وَ إِنْ تَوَلَّوْا عما أمروا به من الانتهاء، فَاعْلَمُوا أيها المؤمنون أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ أى: ناصركم عليهم نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ فمن والاه فاز، و من نصره غلب.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ قال: فى قريش و غيرها يوم بدر، و الأمم قبل ذلك. و أخرج أحمد و مسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل اللّه الإسلام فى قلبى أتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدى، قال: مالك؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط ماذا»؟ قلت: أن تستغفر لى، قال:

«أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ و أن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ و أن الحجّ يهدم ما كان قبله».

و قد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الإسلام يجبّ ما قبله، و التوبة تجبّ ما قبلها». و قد فسر كثير من السلف قوله تعالى فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ بما مضى فى الأمم المتقدّمة من عذاب من قاتل الأنبياء و صمّم على الكفر، و قال السدّى و محمد بن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر. و فسّر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر. و قال محمد بن إسحاق: بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير و غيره من علمائنا حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

---

(١). الأحقاف: ١١.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٥٣

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

لما أمر اللّه سبحانه بالقتال بقوله: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ و كانت المقاتلة مظنّة حصول الغنيمة ذكر حكم الغنيمة، و الغنيمة قد قدّمنا أنّ أصلها: إصابة الغنم من العدوّ، ثم استعملت فى كلّ ما يصاب منهم، و قد تستعمل فى كلّ ما ينال بسعى، و منه قول الشاعر:

و قد طوّفت فى الآفاق حتّى رضيت من الغنيمة بالإياب

و مثله قول الآخر:

و مطعم الغنم يوم الغنم مطعمهأنّى توجّه و المحروم محروم

و أما معنى الغنيمة فى الشرع، فحكى القرطبى الاتفاق على أنّ المراد بقوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ: مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة و القهر. قال: و لا تقتضى اللغة هذا التخصيص، و لكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع. و قد ادّعى ابن عبد البر الإجماع على هذه الآية بعد قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ و أن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، و أن قوله: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر، على ما تقدّم أوّل السورة؛ و قيل إنها أعنى قوله:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ محكمة غير منسوخة، و أنّ الغنيمة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ليست مقسومة بين الغانمين و كذلك لمن بعده من الأئمة، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية، قالوا: و للإمام أن يخرجها عنهم، و احتجّوا بفتح مكة و قصّة حنين، و كان أبو عبيدة يقول: افتتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مكة عنوة و منّ على أهلها فردّها عليهم و لم يقسمها و لم يجعلها فيئا، و قد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أنّ أربعة أخماس الغنيمة للغانمين، و ممّن حكى ذلك ابن المنذر و ابن عبد البرّ و الداودى و المازرى و القاضى عياض و ابن العربى، و الأحاديث الواردة فى قسمة الغنيمة بين الغانمين و كيفيتها كثيرة جدا. قال القرطبى: و لم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ الآية ناسخ لقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية، بل قال الجمهور:

إن قوله وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ناسخ، و هم الذين لا يجوز عليهم التّحريف و لا التّبديل لكتاب اللّه. و أما قصّة فتح مكة فلا حجّة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها، قال: و أما قصّة حنين فقد عوّض الأنصار لما قالوا: تعطى الغنائم قريشا و تتركنا و سيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم: «أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا و ترجعون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بيوتكم» كما فى مسلم و غيره، و ليس لغيره أن يقول هذا القول، بل

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۴

ذلك خاص به. قوله أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ يشمل كلّ شيء يصدق عليه اسم الغنيمة و مِنْ شَيْءٍ بيان لما الموصولة، و قد خصص الإجماع من عموم الآية الأسارى. فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف.

و كذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام؛ و قيل: كذلك الأرض المغنومة. و ردّ بأنه لا إجماع على الأرض.

قوله: فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ قرأ النّخعى فإن لله بكسر إن. و قرأ الباقون بفتحها على أن: أنّ و ما بعدها مبتدأ و خبره محذوف، و التقدير: فحق أو فواجب أن للّه خمسه.

و قد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة: الأوّل: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة، فيجعل السدس للكعبة. و هو الذى للّه، و الثانى: لرسول اللّه، و الثالث: لذوى القربى، و الرابع:

لليتامى، و الخامس: للمساكين، و السادس: لابن السبيل. و القول الثانى: قاله أبو العالية و الربيع: إنها تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد، و يقسم أربعة على الغانمين، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله فما قبضه من شيء جعله للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول و من بعده الآية. القول الثالث: روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال: إن الخمس لنا، فقيل له: إن اللّه يقول وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فقال: يتامانا و مساكيننا و أبناء سبيلنا. القول الرابع: قول الشافعى: إنّ الخمس يقسم على خمسة، و إن سهم اللّه، و سهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين، و الأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية. القول الخامس: قول أبى حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، و المساكين، و ابن السبيل، و قد ارتفع حكم قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بموته كما ارتفع حكم سهمه. قال: و يبدأ من الخمس

بإصلاح القناطر و بناء المساجد و أرزاق القضاة و الجند. و روى نحو هذا عن الشافعي. القول السادس: قول مالك: إنه موكول إلى نظر الإمام و اجتهاده، فيأخذ منه بغير تقدير، و يعطى منه الغزاة باجتهاد، و يصرف الباقى فى مصالح المسلمين. قال القرطبى: و به قال الخلفاء الأربعة و به عملوا، و عليه يدل قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «مالى مما أفاء اللّه عليكم إلا الخمس. و الخمس مردود عليكم» فإنه لم يقسمه أخماسا و لا أثلاثا. و إنما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم. لأنهم من أهل من يدفع إليه. قال الزجاج محتجا لهذا القول:

قال اللّه تعالى يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ «۱» و جائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك. قوله وَ لِذِي الْقُرْبى قيل: إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم، لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و قد اختلف العلماء فى القربى على أقوال: الأول أنهم قريش كلّها. روى ذلك عن بعض السلف، و استدلّ بما روى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا: يا بنى فلان يا بنى فلان.

و قال الشافعي و أحمد و أبو ثور و مجاهد و قتادة و ابن جريج و مسلم بن خالد: هم بنو هاشم و بنو المطلب لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم «إنما بنو هاشم و بنو المطلب شىء واحد. و شبّك بين أصابعه» و هو فى الصحيح، و قيل: هم بنو هاشم خاصة، و به قال مالك و الثورى و الأوزاعى و غيرهم، و هو مروى عن على بن الحسين و مجاهد. قوله إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ قال الزجاج عن فرقة: إن المعنى فاعلموا أن اللّه مولاكم إن كنتم آمنتم باللّه، و قالت

(۱). البقرة: ۲۱۵.

فرقة أخرى: إن إِنْ متعلقة بقوله وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ قال ابن عطية: و هذا هو الصحيح لأن قوله وَ اعْلَمُوا يتضمّن الأمر بالانقياد و التسليم لأمر اللّه فى الغنائم، فعلق إن بقوله وَ اعْلَمُوا على هذا المعنى، أى: إن كنتم مؤمنين باللّه، فانقادوا، و سلموا لأمر اللّه فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

و قال فى الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدلّ عليه وَ اعْلَمُوا بمعنى: إن كنتم آمنتم باللّه فاعلموا أنّ الخمس من الغنيمة يجب التقرب به، فاقطعوا عنه أطماعكم، و اقتنعوا بالأخماس الأربعة، و ليس المراد بالعلم المجرد، و لكن العلم المضمن بالعمل، و الطاعة لأمر اللّه، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن و الكافر، انتهى. قوله وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا معطوف على الاسم الجليل؛ أى: إن كنتم آمنتم باللّه و بما أنزلنا، و يَوْمَ الْفُرْقانِ يوم بدر. لأنه فرق بين أهل الحق، و أهل الباطل و الْجَمْعانِ الفريقان: من المسلمين و الكافرين وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من قدرته العظيمة نصر الفريق الأقلّ على الفريق الأكثر. قوله:

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى قرأ ابن كثير و أبو عمرو و يعقوب بكسر العين فى العدوة، فى الموضعين، و قرأ الباقون بالضم فيهما، و إِذْ بدل من يوم الفرقان، و يجوز أن يكون العامل محذوفا، أى: و اذكروا إذ أنتم. و العدوة: جانب الوادى، و الدنيا: تأنيث الأدنى. و القصوى: تأنيث الأقصى، من: دنا يدنو، و قصا يقصو، و يقال: القصيا، و الأصل الواو، و هى لغة أهل الحجاز، و العدوة الدنيا كانت مما يلى المدينة، و القصوى كانت مما يلى مكة. و المعنى: وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة، و عدوّكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة. و جملة وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ فى محل نصب على الحال، و انتصاب أَسْفَلَ على الظرف، و محله الرفع على الخبرية، أى: و الحال أنّ الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه، و أجاز الأخفش و الكسائى و الفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلا منكم، و الركب:

جمع راكب، و لا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل، و لا يقال لمن كان على فرس و غيرها: ركب، و كذا قال ابن فارس، و حكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة. و المراد بالركب هاهنا: ركب أبى سفيان، و هى: المراد بالعير، فإنهم كانوا فى موضع أسفل منهم، ممّا يلى ساحل البحر. قيل: و فائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها، من كونهم بالعدوة الدنيا، و عدوّهم بالعدوة القصوى، و الركب أسفل منهم الدلالة على قوّة شأن العدوّ و شوكته، و ذلك لأن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء، و كانت أرضا لا بأس بها، و أما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام و لا ماء بها، و كانت العير وراء ظهر العدوّ مع كثرة عددهم، فامتنّ اللّه على المسلمين بنصرتهم عليهم، و الحال هذه. قوله وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ أى: لو تواعدتم أنتم و المشركون من أهل مكة على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال، لخالف بعضكم بعضا، فثبطكم قلتكم و كثرتهم عن الوفاء بالموعد و ثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لكِنْ جمع اللّه بينكم فى هذا الموطن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أى: حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه، و خذلان أعدائه، و إعزاز دينه، و إذلال الكفر، فأخرج المسلمين لأخذ العير و غنيمتها عند أنفسهم، و أخرج الكافرين للمدافعة عنها. و لم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة، و اللام فى

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۳۵۶

لِيَقْضِيَ متعلقة بمحذوف، و التقدير: جمعهم ليقضى. و جملة لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَ بدل من الجملة التى قبلها، أى: ليموت من يموت عن بينة، و يعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على اللّه حجة؛ و قيل: الهلاك و الحياة مستعار للكفر و الإسلام، أى: ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة، و يقين بأنه دين الحق؛ و يصدر كفر من كفر عن وضوح بينة، لا عن مخالجة شبهة. قرأ نافع و خلف و سهل و يعقوب و البزى و أبو بكر من حيى بياءين على الأصل، و قرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام، و هى اختيار أبى عبيد، لأنها كذلك وقعت فى المصحف وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ أى: سميع بكفر الكافرين، عليم به، و سميع بإيمان المؤمنين، عليم به.

و قد أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير قال: ثم وضع مقاسم الفىء، فقال وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ بعد الذى كان مضى من بدر فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ إلى آخر الآية.

و أخرج عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قال: سألت الحسن بن محمد بن علىّ بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول اللّه وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ قال: هذا مفتاح كلام، للّه الدّنيا و الآخرة وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى فاختلفوا بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذين السهمين. قال قائل منهم: سهم ذى القربى لقرابة رسول اللّه، و قال قائل منهم: سهم ذى القربى لقرابة الخليفة، و قال قائل منهم: سهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للخليفة من بعده، و اجتمع رأى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل و العدّة فى سبيل اللّه؛ فكان ذلك فى خلافة أبى بكر و عمر. و أخرج ابن جرير و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إذا بعث سرية فغنموا، خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه، ثم قرأ وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ الآية، قال قوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ مفتاح كلام، للّه ما فى السّموات و ما فى الأرض، فجعل اللّه سهم اللّه و الرسول واحدا وَ لِذِي الْقُرْبى فجعل هذين السّهمين قوة فى الخيل و السلاح، و جعل سهم اليتامى و المساكين و ابن السبيل لا يعطيه غيرهم، و جعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهما و لراكبه سهما و للراجل سهما. و أخرج ابن جرير و أبو المنذر و ابن أبى حاتم عنه قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس: فأربعة منها بين من قاتل عليها، و خمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع للّه و للرسول و لذى القربى، يعنى قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فما كان للّه و للرسول فهو لقرابة النبى

صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يأخذ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الخمس شيئا، و الربع الثانى لليتامى؛ و الربع الثالث للمساكين؛ و الربع الرابع لابن السبيل، و هو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الآية قال: كان يجاء بالغنيمة فتوضع، فيقسمها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على خمسة أسهم، فيعزل سهما منها و يقسم أربعة أسهم بين الناس، يعنى لمن شهد الوقعة، ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله، فما قبض عليه من شىء جعله للكعبة. فهو الذى سمى اللّه، لا تجعلوا للّه نصيبا فأن للّه الدنيا و الآخرة- ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم: سهم للنبى

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۷

صلّى اللّه عليه و سلّم، و سهم لذى القربى و سهم لليتامى، و سهم للمساكين، و سهم لابن السبيل. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يجعل سهم اللّه فى السلاح و الكراع، و فى سبيل اللّه، و فى كسوة الكعبة و طيبها و ما تحتاج إليه الكعبة، و يجعل سهم الرسول فى الكراع و السلاح و نفقة أهله، و سهم ذى القربى لقرابته، يضعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم مع سهمهم مع الناس، و لليتامى و المساكين و ابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول اللّه فيمن شاء حيث شاء، ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثة الأسهم و لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سهم مع سهام الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال: سألت عبد اللّه بن بريدة عن قوله فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ فقال: الذى للّه لنبيه و الذى للرسول لأزواجه. و أخرج الشافعى و عبد الرزاق و ابن أبى شيبة و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر اللّه. فكتب إليه: إنا كنّا نرى أنّا هم فأبى ذلك علينا قومنا. و قالوا: قريش كلّها ذوو قربى. و زيادة قوله: و قالوا قريش كلها، تفرّد بها أبو معشر، و فيه ضعف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس: أنّ نجدة الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذى القربى، و يقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قسمه لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم و أبينا أن نقبله، و كان عرض عليهم أن يعين ناكحهم و أن يقضى عن غارمهم و أن يعطى فقيرهم و أبى أن يزيدهم على ذلك.

و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: رغبت لكم عن غسالة الأيدى، لأنّ لكم فى خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم».

رواه ابن أبى حاتم عن إبراهيم بن مهدى المصيصى حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعا، قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، و إبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم.

و قال: يحيى بن معين يأتى بمناكير. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن الزهرى و عبد اللّه بن أبى بكر عن جبير بن مطعم: أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم و بنى المطلب، قال: فمشيت أنا و عثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول اللّه! هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، أ رأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا؟ فإنما نحن و هم بمنزلة واحدة فى النسب، فقال: «إنهم لم يفارقونا فى الجاهلية و الإسلام». و قد أخرجه مسلم فى صحيحه. و أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علىّ، و آل العباس، و آل جعفر، و آل عقيل.

و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم شىء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم و إما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن علىّ قال: قلت: يا رسول اللّه! أ لا ولّيتنى ما خصّنا اللّه به من الخمس؟ فولانيه. و أخرج الحاكم و صححه عنه قال: ولانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خمس الخمس

فوضعته مواضعه حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر و عمر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: يَوْمَ الْفُرْقانِ قال: هو يوم بدر، و بدر ما بين مكة و المدينة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۸

الدلائل عن ابن عباس فى قوله يَوْمَ الْفُرْقانِ قال: هو يوم بدر، فرق اللّه فيه بين الحق و الباطل. و أخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال: كانت ليلة الفرقان- ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها- ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، و أخرج عنه ابن جرير أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا قال: العدوة الدنيا شاطئ الوادى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ قال: أبو سفيان. و أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: العدوة الدنيا: شفير الوادى الأدنى، و العدوة القصوى: شفير الوادى الأقصى.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۳ الى ۴۴]

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴)

إذ منصوب بفعل مقدّر، أى: اذكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان. و المعنى: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم رآهم فى منامه قليلا، فقصّ ذلك على أصحابه، فكان ذلك سببا لثباتهم، و لو رآهم فى منامه كثيرا لفشلوا، و جبنوا عن قتالهم، و تنازعوا فى الأمر، هل يلاقونهم أم لا؟ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أى: سلمهم و عصمهم من الفشل و التنازع فقللهم فى عين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المنام؛ و قيل: عنى بالمنام: محل النوم، و هو العين، أى: فهو موضع منامك و هو عينك، روى ذلك عن الحسن. قال الزجاج: هذا مذهب حسن و لكنّ الأوّل أسوغ فى العربية لقوله وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ فدلّ بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، و أن تلك رؤية النوم. قوله وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأوّل، أى: و اذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا، حتى قال القائل من المسلمين لآخر: أ تراهم سبعين؟

قال: هم نحو المائة، و قلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم أكلة جزور، و كان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر اللّه المسلمين فى أعين المشركين، كما قال فى آل عمران: يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ و وجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين، هو أنهم إذا رأوهم قليلا- أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون، و تكون الدائرة عليهم، و يحلّ بهم عذاب اللّه، و سوط عقابه، و اللام فى لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا، و إنما كرره لاختلاف المعلل به وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كلها يفعل فيها ما يريد، و يقضى فى شأنها ما يشاء.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا قال: أراه اللّه إياهم فى منامه قليلا، فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ يقول: لجبنتم وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ قال: لاختلفتم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۵۹

أى: أتمّ. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ يقول: سلّم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوّهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله:

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ الآية قال: لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى: تراهم سبعين؟

قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه قال: كنّا ألفا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال: حضض بعضهم على بعض. قال ابن كثير: إسناده صحيح. و أخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير فى قوله: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أى: ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، و الإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ۴۵ الى ۴۹]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹)

قوله: إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً اللقاء: الحرب، و الفئة: الجماعة، أى: إذا حاربتم جماعة من المشركين فَاثْبُتُوا لهم، و لا تجبنوا عنهم، و هذا لا ينافى الرخصة المتقدّمة فى قوله: إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة، و الرخصة هى فى حال الضرورة. و قد لا يحصل الثبات إلا بالتحرّف و التحيز وَ اذْكُرُوا اللَّهَ أى: اذكروا اللّه عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد؛ و قيل المعنى: اثبتوا بقلوبكم، و اذكروا بألسنتكم، فإن القلب قد يسكن عند اللقاء، و يضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب و اللسان، قيل: و ينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ «١». و فى الآية دليل على مشروعية الذّكر فى جميع الأحوال، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب، و تزيغ عندها البصائر، ثم أمرهم بطاعة اللّه فيما يأمرهم به، و طاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، و نهاهم عن التنازع، و هو الاختلاف فى الرأى، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، و هو الجبن فى الحرب. و الفاء جواب النهى، و الفعل منصوب بإضمار أن، و يجوز أن يكون الفعل معطوفا على تنازعوا، مجزوما بجازمه. قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ قرئ بنصب الفعل، و جزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين، و الريح: القوّة و النصر، كما يقال:

الريح لفلان، إذا كان غالبا فى الأمر؛ و قيل: الريح الدولة، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها، و منه قول الشاعر:

---

(١). البقرة: ٢۵٠.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۰ إذا هبّت رياحك فاغتنمهافعقبى كلّ خافقة سكون

و قيل: المراد بالريح: ريح الصبا، لأنّ بها كان ينصر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أمرهم بالصّبر على شدائد الحرب، و أخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه، و يا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب، و لا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات، و إن كانت كثيرة، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا و رئاء النّاس، و هم قريش، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان، و معهم القيان و المعازف، فلما بلغوا الجحفة، بلغهم أن العير قد نجت و سلمت، فلم يرجعوا، بل قالوا:

لا بدّ لهم من الوصول إلى بدر، ليشربوا الخمر، و تغنى لهم القيان، و تسمع العرب بمخرجهم، فكان ذلك منهم بطرا و أشرا و طلبا للثناء من الناس، و للتمدح إليهم، و الفخر عندهم، و هو الرياء؛ قيل: و البطر فى اللغة:

التقوّى بنعم اللّه على معاصيه، و هو مصدر فى موضع الحال، أى: خرجوا بطرين مرائين؛ و قيل: هو مفعول له، و كذا، رياء، أى: خرجوا للبطر و الرياء. و قوله: وَ يَصُدُّونَ معطوف على بطرا، و المعنى كما تقدّم، أى: خرجوا بطرين مرائين صادّين عن سبيل اللّه، أو للصدّ عن سبيل اللّه. و الصدّ: إضلال الناس، و الحيلولة بينهم و بين طرق الهداية. و يجوز أن يكون و يصدّون: معطوفا على يخرجون، و المعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة و الصدّ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها. قوله: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ الظرف متعلق بمحذوف، أى: و اذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم، و التزيين: التحسين، و قد روى: أن الشيطان تمثل لهم و قال لهم تلك المقالة و هى لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ أى: مجير لكم من كل عدوّ، أو من بنى كنانة، و معنى الجار هنا: الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، و كان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، و هو من بنى بكر بن كنانة، و كانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ و قيل المعنى: إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة، و خيل إليهم أنهم لا يغلبون و لا يطاقون فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ أى: فئة المسلمين و المشركين نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ أى: رجع القهقرى، و منه قول الشاعر:

ليس النّكوص على الأعقاب مكرمةإنّ المكارم إقدام على الأسل

و قول الآخر:

و ما ينفع المستأخرين نكوصهمو لا ضرّ أهل السّابقات التّقدّم

و قيل: معنى نكص هاهنا: بطل كيده و ذهب ما خيله وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ أى: تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد اللّه لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ يعنى: الملائكة، ثم علل بعلة أخرى فقال: إِنِّي أَخافُ اللَّهَ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة؛ و قيل إن دعوى الخوف كذب منه، و لكنه رأى أنه لا قوّة له و لا للمشركين فاعتلّ بذلك، و جملة وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، و يحتمل أن تكون كلاما

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٦١

مستأنفا من جهة اللّه سبحانه. قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ الظرف معمول لفعل محذوف هو اذكر، و يجوز أن يتعلق بنكص، أو بزين، أو بشديد العقاب؛ قيل: المنافقون: هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم الشاكون من غير نفاق، بل لكونهم حديثى عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة، أعنى غَرَّ هؤُلاءِ أى: المسلمين دِينُهُمْ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش؛ و قيل الذين فى قلوبهم مرض هم المشركون، و لا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة و ما حولها، و أنهم هم و المنافقون من أهل المدينة قالوا هذا المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر، لما رأوهم فى قلة من العدد و ضعف من العدد، فأجاب اللّه عليهم بقوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغلبه غالب، و لا يذلّ من توكل عليه حَكِيمٌ له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ قال: افترض اللّه ذكره عند أشغل ما يكونون: عند الضّراب بالسيوف. و أخرج الحاكم و صححه عن سهل بن سعد قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثنتان لا يردّان: الدعاء عند النّداء، و عند البأس، حين يلحم بعضهم بعضا».

و أخرج الحاكم و صححه عن أبى موسى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يكره الصوت عند القتال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ يقول: لا تختلفوا فتجبنوا و يذهب نصركم. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ قال: نصركم، و قد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى

قوله: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ الآية، يعنى المشركين الذين قاتلوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر. و أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان و الدّفوف، فأنزل اللّه هذه الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال: أبو جهل و أصحابه يوم بدر. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر خرجوا و لهم بغى و فخر، و قد قيل لهم: ارجعوا فقد انطلقت عيركم و قد ظفرتم، فقالوا: لا و اللّه، حتى يتحدّث أهل الحجاز بمسيرنا و عددنا، و ذكر لنا أن نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال يومئذ: «اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها و خيلائها لتجادل رسولك»، و ذكر لنا أنه قال يومئذ: «جاءت من مكة أفلاذها». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس قال: جاء إبليس فى جند من الشياطين و معه راية فى صورة رجال من بنى مدلج، و الشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان: لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ و أقبل جبريل على إبليس، فلما رآه و كانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده و ولى مدبرا هو و شيعته، فقال الرجال: يا سراقة إنك جار لنا فقال: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ و ذلك حين رأى الملائكة إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ قال: و لما دنا القوم بعضهم من بعض قلّل اللّه المسلمين فى أعين المشركين، و قلّل المشركين فى أعين المسلمين،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٦٢

فقال المشركون: و ما هؤلاء؟ غرّ هؤلاء دينهم، و إنما قالوا ذلك من قلّتهم فى أعينهم و ظنّوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك، فقال اللّه وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ و أخرج الطبرانى و أبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام و هو يظنّ أنه سراقة بن مالك، فوكز فى صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر، و رفع يديه فقال: اللهم إنى أسألك نظرتك إياى. و أخرج الواقدى و ابن مردويه عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ قال: ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فعلم عدوّ اللّه أنه لا يدان له بالملائكة، و قال: إِنِّي أَخافُ اللَّهَ و كذب عدوّ اللّه، ما به مخافة اللّه، و لكن علم أنه لا قوّة له به و لا منعة له. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن معمر قال: ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ قال: و هم يومئذ فى المسلمين. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الكلبى فى قوله: وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قال: هم قوم كانوا أقرّوا بالإسلام و هم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا: غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن الشعبى نحوه.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٠ الى ٥٤]

وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٥٢) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (٥٤)

قوله: وَ لَوْ تَرى الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو لكل من يصلح له، كما تقدّم تحقيقه فى غير موضع، و المعنى: و لو

رأيت، لأن لو تقلب المضارع ماضيا، و إِذْ ظرف لترى، و المفعول محذوف، أى:
و لو ترى الكافرين وقت توفى الملائكـة لهم؛ قيل أراد بالذين كفروا: من لم يقتل يوم بدر؛ و قيل هى فيمن قتل ببدر و جواب لو محذوف، تقديره: لرأيت أمرا عظيما، و جملة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ فى محل نصب على الحال، و المراد بأدبارهم: أستاههم، كنى عنها بالأدبار، و قيل: ظهورهم؛ قيل: هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفّى، و قيل: هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار. قوله: وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ قاله الفراء: المعنى: و يقولون ذوقوا عذاب الحريق، و الجملة معطوفة على يضربون؛ و قيل إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، و الذوق قد يكون محسوسا، و قد يوضع موضع الابتلاء و الاختبار، و أصله من
فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٦٣
الذوق بالفم، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم من الضرب و العذاب و الباء فى بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ سببية، أى: ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى، و اقترفتم من الذنوب، و جملة وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: و الأمر أنه لا يظلمهم، و يجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله: ذلِكَ و هى بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ أى: ذلك العذاب بسبب المعاصى، و بسبب أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله، و أنزل عليهم كتبه، و أوضح لهم السبيل، و هداهم النجدين، كما قال سبحانه: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١» قوله:
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ لما ذكر اللّه سبحانه ما أنزله بأهل بدر، أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين، و الدأب: العادة، و الكاف: فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، أى: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و المعنى: أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية للّه فى تعذيب طوائف الكفر، و جملة قوله: كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ مفسرة لدأب آل فرعون، أى: دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات اللّه، فتسبب عن كفرهم أخذ اللّه سبحانه لهم، و المراد بذنوبهم:
معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء فى بِذُنُوبِهِمْ للملابسة، أى: فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها، و جملة إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها، و الإشارة بقوله:
ذلِكَ إلى العقاب الذى أنزله اللّه بهم، و هو مبتدأ و خبره ما بعده، و الجملة جارية مجرى التعليل لما حلّ بهم من عذاب اللّه. و المعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة اللّه فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ من الأحوال و الأخلاق بكفران نعم اللّه، و غمط إحسانه، و إهمال أوامره و نواهيه، و ذلك كما كان من آل فرعون و من قبلهم، و من قريش و من يماثلهم من المشركين، فإن اللّه فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا، و منّ عليهم بإرسال الرسل و إنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم، كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه، و العمل به من شكرها و قبولها، و جملة وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ معطوفة على بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً داخلة معها فى التعليل، أى: ذلك بسبب أن اللّه لم يك مغيرا إلخ، و بسبب أن اللّه سميع عليم يسمع ما يقولونه و يعلم ما يفعلونه. و قرئ بكسر الهمزة على الاستئناف، ثم كرّر ما تقدّم، فقال كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لقصد التأكيد، مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق؛ و قيل: إن الأوّل باعتبار ما فعله آل فرعون و من شبه بهم، و الثانى باعتبار ما فعل بهم؛ و قيل المراد بالأوّل كفرهم باللّه، و بالثانى تكذيبهم الأنبياء؛ و قيل:
غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف، و الكلام فى فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كالكلام المتقدّم فى: فأخذهم اللّه بذنوبهم وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ معطوف على أهلكناهم، عطف الخاص على العام، لفظاعته و كونه من أشدّ أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون و الذين من قبلهم، و من كفار قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب اللّه من الكفر باللّه و آياته و رسله، و

بالظلم لغيرهم، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم.

---

(۱). النحل: ۱۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۴

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاک فى قوله: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ قال: الـذين قتلهم اللّه ببدر من المشـركين. و أخرج ابن جرير عن الحسن قال: قال رجل: يا رسول اللّه! إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوک، قـال: ذلـک ضـرب الملائکـۀ. و هـذا مرسـل. و أخرج سـعيد بن منصور و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن مجاهـد فى قوله: وَ أَدْبارَهُمْ قال: و أسـتاهم، و لكنّ اللّه كريم يكنى. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن السـدّى فى قوله: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِـهِمْ قال: نعمۀ اللّه: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنعم اللّه به على قريش فكفروا، فنقله اللّه إلى الأنصار.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۵ الى ۶۰]

إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَـدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْـدَهُمْ فِي كُـلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (۵۸) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (۵۹)
وَ أَعِـدُّوا لَهُمْ مَا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۶۰)

قوله: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ أى: شرّ ما يدب على وجه الأرض عِنْدَ اللَّهِ أى: فى حكمه الَّذِينَ كَفَرُوا أى: المصرّون على الكفر المتمادون فى الضـلال، و لهذا قال: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى: إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا، و لا يرجعون عن الغوايۀ أصلا، و جعلهم شرّ الدوابّ، لا شرّ الناس، إيماء إلى انسـلاخهم عن الإنسانيۀ و دخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان، لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم. قوله:
الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ بدل من الذين كفروا، أو عطف بيان، أو فى محل نصب على الذمّ. و المعنى:
أن هؤلاء الكافرين الـذين همّ شـرّ الـدوابّ عنـد اللّه هم هؤلاء الـذين عاهـدت منهم، أى: أخـذت منهم عهـدهم ثُمَ هم يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ الذى عاهدتهم فِي كُلِّ مَرَّةٍ من مرّات المعاهدۀ وَ الحال أن هُمْ لا يَتَّقُونَ النقض و لا يخافون عاقبته و لا يتجنبون أسـبابه؛ و قيـل: إن مـن فى قـوله مِنْهُمْ للتبعيض، و مفعـول عاهـدت محـذوف، أى: الـذين عاهـدتهم، و هم بعض أولئـک الكفرۀ، يعنى: الأشـراف منهم، و عطف المسـتقبل، و هو ثم ينقضون، على الماضـى، و هو عاهدت للدلالۀ على اسـتمرار النقض منهم، و هؤلاء هم قريظـۀ، عاهدهم رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم أن لا يعينوا الكفار، فلم يفوا بذلک، كما سـيأتى، ثم أمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم بالشـدّۀ و الغلظـۀ عليهم، فقـال فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَـرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى: فإما تصادفنّهم فى ثقاف «۱» و تلقاهم فى حالۀ تقدر عليهم فيها، و تتمكن من غلبهم فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى: ففرّق

---

(۱). قال القرطبى: تأسرهم و تجعلهم فى ثقاف أو تلقاهم بحال ضعف.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۶۵

بقتلهم و التنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك، حتى يهابوا جانبك، و يكفوا عن حربك، مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. و الثقاف فى أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها، و منه قول النابغة:

تدعو قعينا و قد عضّ الحديد بهاعضّ الثّقاف على ضمّ الأنابيب

يقال ثقفته: وجدته، و فلان ثقف: سريع الوجود لما يحاوله، و التّشريد: التفريق مع الاضطراب. و قال أبو عبيدة فَشَرِّدْ بِهِمْ سمع بهم. و قال الزجاج: افعل بهم فعلا من القتل تفرّق به من خلفهم، يقال شردت بنى فلان: قلعتهم عن مواضعهم، و طردتهم عنها، حتى فارقوها. قال الشاعر:

أطوّف فى الأباطح كلّ يوممخافة أن يشرّد بى حكيم

و منه شرد البعير: إذا فارق صاحبه، و روى عن ابن مسعود أنه قرأ فشرذ بهم بالذال المعجمة.

قال قطرب: التشريذ بالذال المعجمة: هو التنكيل، و بالمهملة: هو التفريق. و قال المهدوى: الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما. قال: و لا يعرف فشرّذ فى اللغة، و قرئ مَنْ خَلْفَهُمْ بكسر الميم و الفاء. قوله وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً أى غشا و نقضا للعهد من القوم المعاهدين فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أى: فاطرح إليهم العهد الذى بينك و بينهم عَلى سَواءٍ على طريق مستوية. و المعنى:

أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض و لا يناجزهم الحرب بغتة؛ و قيل: معنى: عَلى سَواءٍ على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم و أدناهم، أو تستوى أنت و هم فيه. قال الكسائى: السواء العدل، و قد يكون بمعنى الوسط، و منه قوله فِي سَواءِ الْجَحِيمِ «١»، و منه قول حسان:

يا ويح أنصار النّبىّ و رهطهبعد المغيّب فى سواء الملحد

و من الأوّل قول الشاعر:

فاضرب وجوه الغدّر الأعداءحتّى يجيبوك إلى السّواء

و قيل: معنى: فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ على جهر، لا على سرّ، و الظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه. قال ابن عطية: و الذى يظهر من ألفاظ القرآن، أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله: فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ثم ابتدأ تبارك و تعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ تعليل لما قبلها، يحتمل أن تكون تحذيرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، و يحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة.

قوله و لا تحسبن قرأ ابن عامر و يزيد و حمزة و حفص بالياء التحتية، و قرأ الباقون بالمثناة من فوق. فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا: فاعل الحسبان، و يكون مفعوله الأوّل: محذوفا، أى: لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم، و مفعوله الثانى: سبقوا، و معناه: فاتوا و أفلتوا من أن يظفر بهم. و على القراءة الثانية: يكون الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و مفعوله الأول: الذين كفروا، و الثانى: سبقوا، و قرئ: إنهم سبقوا و قرئ يحسبن بكسر الياء، و جملة إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ تعليل لما قبلها، أى: إنهم لا يفوتون، و لا

---

(١). الصافات: ٥٥.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٦٦

يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم. و قرأ ابن عامر: أنهم، بفتح الهمزة، و الباقون بكسرها، و كلا القراءتين مفيدة لكون الجملة

تعليلية؛ و قيل: المراد بهذه الآية: من أفلت من وقعة بدر من المشركين. و المعنى: أنهم و إن أفلتوا من هذه الوقعة، و نجوا فإنهم لا يعجزون، بل هم واقعون فى عذاب اللّه فى الدنيا أو فى الآخرة.

و قد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ يحسبنّ بالتحتية لحن، لا تحلّ القراءة بها، لأنه لم يأت ليحسبنّ بمفعول، و هو يحتاج إلى مفعولين. قال النحّاس: و هذا تحامل شديد. و معنى هذه القراءة:

و لا يحسبنّ من خلفهم الذين كفروا سبقوا، فيكون الضمير يعود على ما تقدّم إلا أن القراءة بالتاء أبين. و قال المهدوى: يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا، و المفعول الأوّل محذوف. و المعنى و لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسهم سبقوا. قال مكى: و يجوز أن يضمر مع سَبَقُوا أن فتسدّ مسد المفعولين، و التقدير: و لا يحسبنّ الذين كفروا أن سبقوا، فهو مثل أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا «١» فى سدّ أن مسدّ المفعولين، ثم أمر سبحانه بإعداد القوّة للأعداء، و القوّة: كل ما يتقوّى به فى الحرب، و من ذلك السلاح و القسىّ. و قد ثبت فى صحيح مسلم و غيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو على المنبر يقول «و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنّ القوّة الرمى، قالها ثلاث مرات» و قيل: هى الحصون، و المصير إلى التفسير الثابت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم متعين. قوله: وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ قرأ الحسن و عمرو بن دينار و أبو حيوة و من ربط الخيل بضم الراء و الباء، ككتب: جمع كتاب. قال أبو حاتم:

الرباط من الخيل: الخمس فما فوقها، و هى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو، و منه قول الشاعر:

أمر الإله بربطها لعدوّهفى الحرب إنّ اللّه خير موفّق

قال فى الكشاف: و الرباط: اسم للخيل التى تربط فى سبيل اللّه، و يجوز أن يسمّى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة، و يجوز أن يكون جمع ربيط، كفصيل و فصال، انتهى. و من فسر القوّة بكل ما يتقوّى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، و جملة تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ فى محل نصب على الحال، الترهيب: التخويف، و الضمير فى به عائد إلى مَا فى مَا اسْتَطَعْتُمْ أو إلى المصدر المفهوم من وَ أَعِدُّوا و هو الإعداد. و المراد بعدوّ اللّه و عدوّهم: هم المشركون من أهل مكة، و غيرهم من مشركى العرب. قوله وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ معطوف على عدوّ اللّه و عدوّكم، و معنى من دونهم:

من غيرهم؛ قيل: هم اليهود، و قيل فارس و الروم، و قيل: الجن و رجحه ابن جرير. و قيل: المراد بالآخرين من غيرهم، كل من لا تعرف عداوته، قاله السهيلى. و قيل: هم بنو قريظة خاصة، و قيل: غير ذلك، و الأولى: الوقف فى تعيينهم لقوله لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ قوله وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى: فى الجهاد، و إن كان يسيرا حقيرا يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه فى الآخرة. فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قرّرناه سابقا وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل اللّه، أى: من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً «٢» أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ «٣».

---

(١). العنكبوت: ٢.

(٢). النساء: ۴٠.

(٣). آل عمران: ١٩۵.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣۶٧

و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ قال: قريظة

يوم الخندق مالؤوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أعداءه.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ قال: نكّل بهم من بعدهم.

و أخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: نكّل بهم من وراءهم. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى الآية قال: أنذر بهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: عظ بهم من سواهم من الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: أخفهم بهم.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك. و أخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: قد وضعت السلاح، و ما زلنا فى طلب القوم؛ فاخرج، فإن اللّه أذن لك فى قريظة، و أنزل فيهم وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ قال:

لا يفوتونا. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ قال: الرمى و السيوف و السلاح. و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عباد بن عبد اللّه بن الزبير فى قوله وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ قال: أمرهم بإعداد الخيل. و أخرج أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن عكرمة فى الآية قال: القوّة ذكور الخيل، و الرباط الإناث. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال: القوّة الحصون، و مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ قال: الإناث. و أخرج الفريابى و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ قال: تخزون به عدو اللّه و عدوكم. و قد ورد فى استحباب الرمى و ما فيه من الأجر أحاديث كثيرة. و كذلك ورد فى استحباب اتّخاذ الخيل و إعدادها، و كثرة ثواب صاحبها، أحاديث لا يتّسع المقام لبسطها. و قد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

الجنوح: الميل، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه؛ و منه قيل للأضالع: جوانح، لأنها مالت إلى الحنوّة، و جنحت الإبل: إذا مالت أعناقها فى السير، و منه قول ذى الرّمّة:

إذا مات فوق الرّحل أحييت روحه بذكراك و العيس المراسيل جنّح

و مثله قول النابغة:

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٦٨ جوانح قد أيقنّ أنّ قبيله إذا ما التقى الجمعان أوّل غالب

يعنى: الطير، و السلم: الصلح. قرأ الأعمش و أبو بكر و ابن محيصن و المفضل بكسر السين، و قرأ الباقون بفتحها. و قرأ العقيلى فَاجْنَحْ بضم النون، و قرأ الباقون بفتحها. و الأولى: لغة قيس، و الثانية: لغة تميم. قال ابن جنى: و لغة قيس: هى القياس، و السلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هى مؤوّلة بالخصلة، أو الفعلة.

و قد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة؟ فقيل: هى منسوخة بقوله فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ و قيل: ليست بمنسوخة، لأن المراد بها قبول الجزية، و قد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصة بأهل الكتاب؛ و قيل: إن المشركين إن دعوا إلى

الصلح جاز أن يجابوا إليه، و تمسک المانعون من مصالحة المشرکین بقوله تعالی فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ «۱» و قیدوا عدم الجواز بما إذا کان المسلمون فی عزّة و قوّة، لا إذا لم یکونوا کذلک، فهو جائز، کما وقع منه صلّی اللّه علیه و سلّم من مهادنة قریش، و ما زالت الخلفاء و الصحابة علی ذلک، و کلام أهل العلم فی هذه المسألة معروف، مقرّر فی مواطنه وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فی جنوحک للسلم و لا تخف من مکرهم، ف إِنَّهُ سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لما یقولون الْعَلِيمُ بما یفعلون وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ بالصلح، و هم مضمرون الغدر و الخدع فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ أی: کافیک ما تخافه من شرورهم بالنکث و الغدر، و جملة هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ تعلیلیة، أی: لا تخف من خدعهم و مکرهم فإن اللّه الذی قوّاک علیهم بالنصر فیما مضی، و هو یوم بدر، هو الذی سینصرک، و یقوّیک علیهم عند حدوث الخدع و النکث، و المراد بالمؤمنین: المهاجرون و الأنصار، ثم بین کیف کان تأییده بالمؤمنین فقال وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ و ظاهره العموم، و أن ائتلاف قلوب المؤمنین، هو من أسباب النصر التی أید اللّه بها رسوله. و قال جمهور المفسرین: المراد: الأوس، و الخزرج، فقد کان بینهم عصبیة شدیدة، و حروب عظیمة، فألف اللّه بین قلوبهم بالإیمان برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و قیل: أراد التألیف بین المهاجرین و الأنصار، و الحمل علی العموم أولی، فقد کانت العرب قبل البعثة المحمدیة یأکل بعضهم بعضا، و لا یحترم ماله، و لا دمه، حتی جاء الإسلام، فصاروا یدا واحدة، و ذهب ما کان بینهم من العصبیة، و جملة لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مقرّرة لمضمون ما قبلها.

و المعنی: أن ما کان بینهم من العصبیة و العداوة، قد بلغ إلی حدّ لا یمکن دفعه بحال من الأحوال، و لو أنفق الطالب له جمیع ما فی الأرض لم یتم له ما طلبه من التألیف، لأن أمرهم فی ذلک قد تفاقم جدّا وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ بعظیم قدرته و بدیع صنعه إِنَّهُ عَزِيزٌ لا یغالبه مغالب، و لا یستعصی علیه أمر من الأمور حَكِيمٌ فی تدبیره و نفوذ نهیه و أمره.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ قال: قریظة. و أخرج أبو الشیخ عن السدّی فی الآیة قال: نزلت فی بنی قریظة، نسختها فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ إلی

---

(۱). محمد: ۳۵.

آخر الآیة. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: السلم: الطاعة. و أخرج أبو الشیخ عنه فی الآیة قال: إن رضوا فارض. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی فی الآیة قال: إن أرادوا الصّلح فأرده. و أخرج أبو عبید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس فی الآیة قال: نسختها هذه الآیة قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ «۱» إلی قوله: وَ هُمْ صاغِرُونَ*. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و النحاس فی ناسخه و أبو الشیخ عن قتادة قال: ثم نسخ ذلک فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «۲».

و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن مجاهد فی قوله وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ قال: قریظة.

و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی فی قوله: وَ بِالْمُؤْمِنِينَ قال: الأنصار. و أخرج ابن مردویه عن النعمان ابن بشیر نحوه. و أخرج ابن مردویه عن ابن عباس نحوه أیضا و أخرج ابن عساکر عن أبی هریرة قال: مکتوب علی العرش لا إله إلا اللّه، أنا اللّه وحدی لا شریک لی، و محمد عبدی و رسولی أیدته بعلمی. و ذلک قوله هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ و أخرج ابن المبارک و ابن أبی شیبة و ابن أبی الدنیا و النسائی و البزار و ابن جریر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ و الحاکم و صححه و ابن مردویه و البیهقی فی الشعب عن ابن مسعود أن هذه الآیة نزلت فی المتحابین فی اللّه لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآیة. و أخرج أبو

عبيد و ابن المنذر و أبو الشيخ، و البيهقى فى شعب الإيمان، و اللفظ له عن ابن عباس قال: قرابة الرحم تقطع، و منّة المنعم تكفر، و لم نر مثل تقارب القلوب، يقول اللّه: لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآية. و أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و البيهقى عنه نحوه، و ليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول، و لكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى اللّه عنه: إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى اللّه مع أن الواقع قبلها هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ و الواقع بعدها يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و مع كون الضمير فى قوله ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك و لا شبهة، و كذلك الضمير فى قوله وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ فإن هذا يدلّ على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد اللّه بهم رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦۴ الى ٦٦]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦۴) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ليس هذا تكريرا لما قبله، فإن الأوّل مقيد بإرادة الخدع وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هذه كفاية خاصة، و فى قوله: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ كفاية عامة غير مقيّدة، أى: حسبك اللّه فى كل حال، و الواو فى قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَكَ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف. و المعنى: حسبك اللّه و حسبك المؤمنون، أى: كافيك اللّه،

---

(١). التوبة: ٢٩.

(٢). التوبة: ۵.

و كافيك المؤمنون، و يحتمل أن تكون بمعنى مع، كما تقول: حسبك و زيدا درهم، و المعنى: كافيك و كافى المؤمنين اللّه، لأنّ عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع، كما تقرّر فى علم النحو، و أجازه الكوفيون. قال الفرّاء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول حسبك و أخيك، بل المستعمل أن يقال: حسبك و حسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مجرورا، لقيل: حسبك أو حسب من اتبعك. و اختار النصب على المفعول معه النحّاس. و قيل: يجوز أن يكون المعنى: و من اتّبعك من المؤمنين حسبهم اللّه، فحذف الخبر. قوله حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ أى: حثّهم و حضّهم، و التّحريض فى اللغة: المبالغة فى الحثّ، و هو كالتحضيض، مأخوذ من الحرض، و هو أن ينهكه المرض و يتبالغ فيه حتى يشفى على الموت؛ كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به، ثم بشّرهم تثبيتا لقلوبهم و تسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد، بل هى جارية فى كل عدد فقال وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً و فى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال، و قد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك، فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين، بل مثل نصفهم بل مثلهم. و أجيب عن ذلك بأن وجود هذا فى الخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر؛ و قيل:

إن هـذا الخبر و الواقع فى الآيـة فى معنى الأمر، كقوله تعالى: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ «١» وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ «٢» فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهـة اللّه سبحانه بـأن تثبت الجماعـة منهم لعشرة أمثـالهم، ثم لمـا شق ذلـك عليهم و استعظموه، خفف عنهم، و رخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم، فقال: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ إلى آخر الآية، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار.

و قرأ حمزة و حفص عن عاصم ضـعفا بفتح الضاد. قوله بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ متعلق بقوله يَغْلِبُوا أى: إن هذا الغلب بسبب جهلهم و عـدم فقههم، و أنهم يقاتلون على غير بصـيرة؛ و من كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب. و قد قيل فى نكتة التّنصـيص على غلب العشرين للمائتين. و المائة للألف أنّ سراياه التى كان يبعثها صلّى اللّه عليه و سلّم كان لا ينقص عددها عن العشرين، و لا يجاوز المائـة، و قيـل فى التنصيص فيمـا بعـد ذلـك على غلب المائـة للمـائتين و الألف للألفين، على أنه بشارة للمسلمين، بأنّ عساكر الإسـلام سـيجاوز عددها العشرات و المئات إلى الألوف، ثم أخبرهم بأنّ هذا الغلب هو بإذن اللّه و تسهيله و تيسيره لا بقوتهم و جلادتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين، و فيه الترغيب إلى الصبر، و التأكيـد عليهم بلزومه و التوصـية به، و أنه من أعظم أسباب النجاح و الفلاح و النّصر و الظفر؛ لأنّ من كان اللّه معه لم يستقم لأحد أن يغلبه. و قد اختلف أهل العلم، هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ و لا يتعلق بذلك كثير فائدة.

و قد أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما أسـلم عمر قال المشـركون: قد انتصف القوم منّا اليوم، و أنزل اللّه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن

---

(١). البقرة: ٢٣٣.

(٢). البقرة: ٢٢٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٣٧١

ابن عبـاس قال: لما أسـلم مع النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم تسـعة و ثلاثون رجلا و امرأة، ثم إنّ عمر أسـلم صاروا أربعين، فنزل يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و أخرج ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن سـعيد بن جبير قال: لما أسـلم مع النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم ثلاثـة و ثلاثون، و ستّ نسوة، ثم أسـلم عمر نزلت يـا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ و أخرج ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال: نزلت فى الأنصار. و أخرج البخارى فى تاريخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن الشـعبى فى قوله يـا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قـال: حسـبك اللّه و حسب من اتّبعـك. و أخرج البخـارى و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و أبو الشـيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الشـعب عن ابن عبـاس قال: لما نزلت إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ فكتب عليهم أن لا يفرّ واحد من عشـرة، و أن لا يفرّ عشـرون من مائتين، ثم نزلت الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآيـة فكتب أن لا يفرّ مائـة من مائتين، قال سـفيان و قال ابن شبرمة: و أرى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مثل هذا، إن كانا رجلين أمرهما و إن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم. و أخرج البخارى و النحاس فى ناسخه و ابن مردويه و البيهقى فى سـننه عن ابن عباس قال: لما نزلت إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ شق على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ الآية قال: فلما خفّف اللّه عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ما خفّف عنهم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۷) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۶۸) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۹)

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد. و معنى ما كانَ لِنَبِيٍ ما صح له و ما استقام، قرأ أبو عمرو و سهيل و يعقوب و يزيد، و المفضل: أن تكون بالفوقية، و قرأ الباقون بالتحتية، و قرأ أيضا يزيد و المفضل أسارى و قرأ الباقون أَسْرى و الأسرى: جمع أسير، مثل: قتلى و قتيل، و جرحى و جريح. و يقال: فى جمع أسير أيضا: أسارى بضم الهمزة و بفتحها، و هو مأخوذ من الأسر، و هو القدّ، لأنهم كانوا يشدّون به الأسير، فسمّى كل أخيذ و إن لم يشدّ بالقدّ أسيرا. قال الأعشى:

و قيّدنى الشّعر فى بيته كما قيّد الآسرات الحمارا

و قال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى: هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، و الأسارى: هم الموثقون ربطا.

و الإثخان: كثرة القتل، و المبالغة فيه؛ تقول العرب: أثخن فلان فى هذا الأمر: أى بالغ فيه. فالمعنى: ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين، و يستكثر من ذلك، و قيل: معنى الإثخان: التمكن؛ و قيل: هو القوّة. أخبر اللّه سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم، و فدائهم، ثم لما كثر المسلمون رخص اللّه فى ذلك فقال: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً «۱» كما يأتى فى سورة القتال إن شاء اللّه. قوله

---

(۱). محمد: ۴.

تُرِيدُونَ عَرَضَ الحياة الدُّنْيا أى: نفعها و متاعها بما قبضتم من الفداء؛ و سمى عرضا: لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أى: يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل، و قرئ يريد الآخرة بالجر على تقدير مضاف و هو المذكور قبله، أى: و اللّه يريد عرض الآخرة وَ اللَّهُ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى كل أفعاله.

قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو؟

على أقوال: الأوّل: ما سبق فى علم اللّه من أنه سيحلّ لهذه الأمة الغنائم، بعد أن كانت محرّمة على سائر الأمم.

و الثانى: أنه مغفرة اللّه لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم و ما تأخر، كما فى الحديث الصحيح: «إنّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم، كما قال سبحانه: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ القول الرابع: أنه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا. القول الخامس: أنه ما قضاه اللّه من محو الصغائر باجتناب الكبائر. القول السادس:

أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة، و تقديم النهى، و لم يتقدّم نهى عن ذلك. و ذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ، و أنه يعمها لَمَسَّكُمْ أى: لحلّ بكم فِيما أَخَذْتُمْ أى:

لأجل ما أخذتم من الفداء عَذابٌ عَظِيمٌ و الفاء فى فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف، أى: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم، و يجوز أن تكون عاطفة على مقدّر محذوف؛ أى: اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره؛ و قيل: إن ما عبارة عن الفداء، أى: كلوا من الفداء الذى غنمتم، فإنه من جملة الغنائم التى أحلها اللّه لكم و حَلالًا طَيِّباً منتصبان على الحال، أو صفة المصدر المحذوف، أى: أكلا حلالا طيبا وَ اتَّقُوا اللَّهَ فيما يستقبل، فلا تقدموا على شى‏ء لم يأذن اللّه لكم به إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما فرط منكم رَحِيمٌ بكم، فلذلك رخّص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان.

و قد أخرج أحمد عن أنس قال: استشار النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال: «إن اللّه قد أمكنكم منهم».

فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه! أضرب أعناقهم!؟ فأعرض عنه النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم.
ثم عاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «يا أيها الناس إن اللّه قد أمكنكم منهم؛ و إنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول اللّه! أضرب أعناقهم؟ فأعرض عنه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثم عاد، فقال مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول اللّه نرى أن تعفو عنهم، و أن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم، و قبل منهم الفداء، فأنزل اللّه لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن مسعود قال: لمّا كان يوم بدر جيء بالأسارى و فيهم العباس، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبو بكر: يا رسول اللّه! قومك و أهلك فاستبقهم لعلّ اللّه يتوب عليهم؛ و قال عمر:
يا رسول اللّه! كذبوك و أخرجوك و قاتلوك قدّمهم فاضرب أعناقهم، و قال عبد اللّه بن رواحة: يا رسول اللّه انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا، فقال العباس و هو يسمع: قطعت رحمك، فدخل النبى

صلّى اللّه عليه و سلّم عليهم و لم يردّ عليهم شيئا، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، و قال أناس: يأخذ بقول عمر، و قال قوم: يأخذ بقول عبد اللّه بن رواحة، فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «إن اللّه ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، و إن اللّه ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۱» و مثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «۲»، و مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «۳» و مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ «۴»، أنتم عالة، فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء! أو ضرب عنق، فقال عبد اللّه: يا رسول اللّه إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم؛ حتى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل اللّه ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية. و أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن علىّ قال: قال النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فى الأسارى يوم بدر «إن شئتم قتلتموهم، و إن شئتم فاديتم و استمتعتم بالفداء، و استشهد منكم بعدّتهم» فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة. و أخرج عبد الرزاق فى مصنفه و ابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار و قد وعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس. و قد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال له عمر: فآتيهم؟ قال نعم. فأتى عمر الأنصار فقال: أرسلوا العباس، فقالوا: لا و اللّه لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رضا، قالوا: فإن كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رضا فخذه، فأخذه عمر، فلما صار فى يده قال له: يا عباس أسلم، فو اللّه إن تسلم أحبّ إلىّ من أن يسلم الخطاب، و ما ذاك إلا لما رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول اللّه أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتک فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأنزل اللّه، ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ يقول حتى يظهروا على الأرض. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال: الإثخان هو القتل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال: ثم نزلت الرّخصة بعد، إن شئت فمنّ، و إن شئت ففاد.

و أخرج ابن المنذر عن قتادة تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا قال: أراد أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يوم بدر الفداء، ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا قال: الخراج. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ قال: سبق لهم المغفرة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: ما سبق لأهل بدر من السعادة. و أخرج النسائى و ابن مردويه و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: سبقت لهم من اللّه الرحمة

---

(۱). إبراهيم: ۳۶.

(۲). المائدة: ۱۱۸.

(۳). نوح: ۲۶.

(۴). يونس: ۸۸.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۷۴

قبل أن يعملوا بالمعصية. و أخرج أبو حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: سبق أن لا يعذّب أحدا حتى يبيّن له و يتقدّم إليه.

[سورة الأنفال (۸): الآيات ۷۰ الى ۷۱]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۰) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۷۱)

اختلاف القراء فى أسرى و الأسارى هو هنا كما سبق فى الآية التى قبل هذه، خاطب اللّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا:

أى: قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر و أخذتم منهم الفداء إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً من حسن إيمان، و صلاح نية، و خلوص طوية يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء: أى:

يعوّضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه، و أنفع لكم، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذنوبكم وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ شأنه المغفرة لعباده، و الرحمة لهم، و لما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو على ضدّ ذلك منهم فقال وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ بما قالوه لك بألسنتهم، من أنهم قد آمنوا بك و صدّقوك، و لم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة و نية خالصة، بل هو مماكرة و مخادعة، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه، و هو أنّهم خانوا اللّه من قبل أن تظفر بهم، فكفروا به و قاتلوا رسوله فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ بأن نصرك عليهم فى يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت، و أسرت من أسرت وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما فى ضمائرهم حَكِيمٌ فى أفعاله بهم.

و قد أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى سننه، عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى فداء أبى العاص، و بعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رقّ رقّة شديدة و قال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، و قال العباس: إنى كنت مسلما يا رسول اللّه! قال: اللّه أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فاللّه يجزيك، فافد نفسك و ابنى أخويك نوفل بن الحارث و عقيل بن أبى طالب و حليفك عتبة بن عمرو، قال: ما ذاك عندى يا رسول اللّه! قال: فأين المال الذى دفنت أنت و أمّ الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت فهذا المال لبنىّ؟ فقال: و اللّه يا رسول اللّه! إن هذا لشيء ما علمه غيرى و غيرها، فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى، قال: لا أفعل، ففدى نفسه، و ابنى أخويه، و حليفه، و نزلت: قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى الآية، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة اللّه. و أخرج ابن سعد، و الحاكم و صحّحه، عن أبى موسى أن العلاء بن

الحضرمی بعث إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بمال من البحرین ثمانین ألفا، فما أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم مال أکثر منه، فنشر علی حصیر، و جاء الناس فجعل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یعطیهم، و ما کان یومئذ عدد و لا وزن، فجاء العباس فقال: یا رسول اللّه! إنی أعطیت فدائی و فداء عقیل یوم بدر، أعطنی هذا المال. فقال: خذ، فحثا فی خمیصته، ثم ذهب ینصرف، فلم یستطع، فرفع

فتح القدیر، ج۲، ص: ۳۷۵

رأسه و قال: یا رسول اللّه! ارفع علیّ. فتبسم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و ذهب و هو یقول: أما أحد اللذین وعد اللّه فقد أنجزنا و ما ندری ما یصنع فی الأخری قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ الْأَسْری إِنْ یَعْلَمِ اللَّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ فهذا خیر مما أخذ منی، و لا أدری ما یصنع فی المغفرة.

و الروایات فی هذا الباب کثیرة، و أخرج ابن سعد و ابن عساکر عن ابن عباس فی الآیة قال: نزلت فی الأساری یوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب، و نوفل بن الحارث، و عقیل بن أبی طالب. و أخرج ابن المنذر و أبو الشیخ عنه فی قوله: وَ إِنْ یُرِیدُوا خِیانَتَکَ إن کان قولهم کذبا فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فقد کفروا و قاتلوک فَأَمْکَنَ ک اللّه مِنْهُمْ

[سورة الأنفال (۸): الآیات ۷۲ الی ۷۵]

إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهاجِرُوا ما لَکُمْ مِنْ وَلایَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتَّی یُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ فِی الدِّینِ فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۷۲) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَةٌ فِی الْأَرْضِ وَ فَسادٌ کَبِیرٌ (۷۳) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۷۴) وَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولئِکَ مِنْکُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۷۵)

ختم اللّه سبحانه هذه السورة بذکر الموالاة؛ لیعلم کلّ فریق ولیه الذی یستعین به، و سمّی سبحانه المهاجرین إلی المدینة بهذا الاسم، لأنهم هجروا أوطانهم و فارقوها طلبا لما عند اللّه، و إجابة لداعیه وَ الَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا هم الأنصار، و الإشارة بقوله: أُولئِکَ إشارة إلی الموصول الأوّل و الآخر، و هو مبتدأ و خبره الجملة المذکورة بعده، و یجوز أن یکون بَعْضُهُمْ بدلا من اسم الإشارة، و الخبر أَوْلِیاءُ بَعْضٍ أی: بعضهم أولیاء بعض فی النصرة و المعونة، و قیل: المعنی: إن بعضهم أولیاء بعض فی المیراث. و قد کانوا یتوارثون بالهجرة و النصرة، ثم نسخ ذلک بقوله سبحانه: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ قوله:

وَ الَّذِینَ آمَنُوا مبتدأ، و خبره ما لَکُمْ مِنْ وَلایَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ قرأ یحیی بن وثاب و الأعمش و حمزة مِنْ وَلایَتِهِمْ بکسر الواو. و قرأ الباقون بفتحها، أی: ما لکم من نصرتهم و إعانتهم، أو من میراثهم، و لو کانوا من قراباتکم؛ لعدم وقوع الهجرة منهم حَتَّی یُهاجِرُوا فیکون لهم ما کان للطائفة الأولی الجامعین بین الإیمان و الهجرة وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ أی: هؤلاء الذین آمنوا، و لم یهاجروا، إذا طلبوا منکم النصرة لهم علی المشرکین فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ أی: فواجب علیکم النصر إلّا أن یستنصروکم عَلی قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثاقٌ فلا تنصروهم، و لا تنقضوا العهد الذی بینکم و بین أولئک القوم حتی تنقضی مدّته.

قال الزجاج: و یجوز: فعلیکم النصر، بالنصب علی الإغراء. قوله وَ الَّذِینَ کَفَرُوا مبتدأ خبره بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ أی: بعضهم ینصر بعضا، و تولاه فی أموره، أو یرثه إذا مات، و فیه تعریض

فتح القدیر، ج۲، ص: ۳۷۶

للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار و لا يتولونهم. قوله: إِلَّا تَفْعَلُوهُ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا، من موالاة المؤمنين، و مناصرتهم على التفصيل المذكور، و ترك موالاة الكافرين تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ أى: تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك وَ فَسادٌ كَبِيرٌ أى: مفسدة كبيرة فى الدّين و الدّنيا، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل اللّه، و المؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم و نصروهم، و هم الأنصار، فقال: أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا أى الكاملون فى الإيمان، و ليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء، و الأوّل وارد فى إيجاب الموالاة و النصرة، ثم أخبر سبحانه أن لَهُمْ منه مَغْفِرَةٌ لذنوبهم فى الآخرة وَ لهم فى الدنيا رِزْقٌ كَرِيمٌ خالص عن الكدر، طيّب مستلذ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم، و جاهد مع المهاجرين الأوّلين و الأنصار، فهو من جملتهم، أى: من جملة المهاجرين الأوّلين و الأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة، و المناصرة، و كمال الإيمان، و المغفرة، و الرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم، ممن لم يكن بينه و بينهم رحم فى الميراث، و المراد بهم القرابات، فيتناول كل قرابة؛ و قيل: المراد بهم هنا العصبات، قالوا: و منه قول العرب: وصلتك رحم، فإنهم لا يريدون قرابة الأم. قالوا: و منه قول قتيلة:

ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشهللّه أرحام هناك تشقّق

و لا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات، و قد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام، و هم: من ليس بعصبة، و لا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، و الخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه، و قد قيل: إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة و النصرة عند من فسر ما تقدّم من قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ و ما بعده بالتوارث، و أما من فسرها بالنصرة، و المعونة، فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه و تعالى بأن القرابات بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ أى: فى حكمه، أو فى اللوح المحفوظ، أو فى القرآن، و يدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوّليا لوجود سببه، أعنى: القرابة إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شىء من الأشياء كائنا ما كان، و من جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا الآية قال:

إنّ المؤمنين كانوا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على ثلاث منازل، منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه، و فى قوله وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا قال: آووا و نصروا و أعلنوا ما أعلن أهل الهجرة، و شهروا السيوف على من كذب و جحد، فهذان مؤمنان جعل اللّه بعضهم أولياء بعض، و فى قوله وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا قال: كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين، و كان الذى آمن و لم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر و لم ينصر، فبرأ اللّه المؤمنين المهاجرين من ميراثهم، و هى الولاية التى قال ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٧٧

كان حقّا على المؤمنين الذين آووا و نصروا إذا استنصروهم فى الدّين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم و بين النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ميثاق، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدوّ الذى لا ميثاق لهم، ثم أنزل اللّه بعد ذلك أن ألحق كلّ ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا فجعل لكلّ إنسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ الآية، و فى رواية لابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ قال: يعنى فى الميراث، جعل اللّه الميراث للمهاجرين و الأنصار دون الأرحام وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ما لكم من ميراثهم من شىء حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ يعنى: إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين و الأنصار، على عدوّ لهم، فعليهم أن ينصروهم، إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق، فكانوا يعملون على ذلك حتى

أنزل اللّه هذه الآية وَ أَولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فنسخت الآية التى قبلها، و صارت المواريث لذوى الأرحام. و أخرج أبو عبيد و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات قال: كان المهاجر لا يتولى الأعرابى و لا يرثه و هو مؤمن، و لا يرث الأعرابى المهاجر، فنسختها هذه الآية وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عنه أيضا: قال رجل من المسلمين: لنورثن ذوى القربى منا من المشركين، فنزلت وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ. و أخرج أحمد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن جرير بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «المهاجرون بعضهم أولياء بعض فى الدنيا و الآخرة، و الطّلقاء من قريش، و العتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا و الآخرة». و أخرج الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أسامة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لا يتوارث أهل ملّتين، و لا يرث مسلم كافرا، و لا كافر مسلما، ثم قرأ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ الآية». و أخرج ابن سعد و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن الزبير بن العوام قال: أنزل اللّه فينا خاصة معشر قريش وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ و ذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا و لا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم و وارثناهم فآخونا، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، و آخى عمر فلانا، و آخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزّرقى، قال الزبير: و آخيت أنا كعب ابن مالك، و وارثونا و وارثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لى قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما نرى، فو اللّه يا بنىّ لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى، حتى أنزل اللّه هذه الآية فينا معشر قريش و الأنصار فرجعنا إلى مواريثنا. و أخرج أبو داود الطيالسى و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين أصحابه و ورّث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فتركوا ذلك و توارثوا بالنسب.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۳۷۸

سورة التّوبة

اشارة

هى مائة و ثلاثون آية، و قيل: مائة و سبع و عشرون آية، و لها أسماء: منها: سورة التوبة؛ لأنّ فيها التوبة على المؤمنين؛ و تسمّى: الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها: و منهم، و منهم، حتى كادت أن لا تدع أحدا؛ و تسمّى: البحوث، لأنها تبحث عن أسرار المنافقين؛ و تسمّى: المبعثرة، و البعثرة: البحث؛ و تسمّى أيضا بأسماء: كالمقشقشة، لكونها تقشقش من النفاق: أى تبرئ منه؛ و المخزية: لكونها أخزت المنافقين؛ و المثيرة.

لكونها تثير أسرارهم؛ و الحافرة: لكونها تحفر عنها؛ و المنكّلة؛ لما فيها من التنكيل لهم؛ و المدمدمة؛ لأنها تدمدم عليهم.

و هى مدنية. قال القرطبى: باتفاق. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: نزلت براءة بعد فتح مكة.

و أخرج ابن مردويه عنه قال: نزلت سورة التوبة بالمدينة. و أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير نحوه.

و أخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و النسائى و ابن الضريس و ابن المنذر و النّحاس و أبو الشيخ و ابن مردويه عن البراء قال: آخر آية نزلت يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ «۱» و آخر سورة نزلت تامة: براءة.

و قد اختلف العلماء فى سبب سقوط البسملة من أوّلها على أقوال. الأوّل: عن المبرّد و غيره، أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم و بين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا، و لم يكتبوا فيه بسملة «۲»؛ فلما نزلت براءة بنقض العهد الذى كان بين

النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و المشركين، بعث بها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم علىّ بن أبى طالب، فقرأها عليهم، و لم يبسمل فى ذلك على ما جرت به عادة العرب. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت علىّ بن أبى طالب لم لا تكتب فى براءة بسم اللّه الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللّه الرحمن الرحيم أمان. و براءة نزلت بالسيف. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذى و حسنه و النسائى و الحاكم و صححه عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال و هى من المثانى، و إلى براءة و هى من المئين، فقرنتم بينهما و لم تكتبوا بينهما سطر: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و وضعتموها فى السّبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مما يأتى عليه الزمان و هو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول:

ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا و كذا، و كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، و كانت براءة من آخر القرآن نزولا، و كانت قصّتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، و قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

---

(١). النساء: ١٧۶.

(٢). أى: باسمك اللهم.

و لم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر: بسم اللّه الرحمن الرحيم و وضعتها فى السبع الطوال. و أخرج أبو الشيخ عن أبى رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال و براءة أ سورتان أو سورة؟ قال: سورتان. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة قال: يسمون هذه السورة: سورة التوبة، و هى سورة العذاب. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس قال فى هذه السورة:

هى: الفاضحة ما زالت تنزل: و منهم، حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها. و أخرج أبو الشيخ عن عمر نحوه. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلا قال لعبد اللّه بن عمر:

سورة التوبة، فقال ابن عمر: و أيتهنّ سورة التوبة قال: براءة، فقال: و هل فعل بالناس الأفاعيل إلّا هى؟ ما كنا ندعوها إلّا المقشقشة. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: يسمونها سورة التوبة، و إنها لسورة عذاب. و أخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: كانت براءة تسمى فى زمن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و بعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس. و أخرج أبو الشيخ عن عبيد اللّه بن عبيد بن عمير قال: كانت براءة تسمى المنقرة، نقرت عما فى قلوب المشركين. و أخرج أبو عبيد و سعيد بن منصور و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن أبى عطية الهمدانى قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلّموا سورة براءة؛ و علّموا نساءكم سورة النور. و من جملة الأقوال فى حذف البسملة أنها كانت تعدل سورة البقرة، أو قريبا منها، و أنه لما سقط أولها سقطت البسملة، روى هذا عن مالك بن أنس و ابن عجلان. و من جملة الأقوال فى سقوط البسملة أنهم لما كتبوا المصحف فى خلافة عثمان اختلف الصحابة، فقال بعضهم: براءة و الأنفال: سورة واحدة، و قال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، و تركت بسم اللّه الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة، فرضى الفريقان. قاله خارجة و أبو عصمة و غيرهما. و قول من جعلهما سورة واحدة أظهر، لأنهما جميعا فى القتال، و تعدّان جميعا سابعة السبع الطوال.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١ الى ٣]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ

اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (٢) وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣)

قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ برئت من الشىء أبرأ براءة، و أنا منه برىء: إذا أزلته عن نفسك، و قطعت سبب ما بينك و بينه، و براءة: مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، أى: هذه براءة، و يجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة، و الخبر إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ و قرأ عيسى بن عمر بَراءَةٌ بالنصب على تقدير: اسمعوا براءة، أو على تقدير: التزموا براءة، لأن فيها معنى الإغراء، و مِنَ فى قوله مِنَ اللَّهِ لابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وقع صفة، أى: واصلة من اللّه و رسوله إلى الذين عاهدتم. و العهد:

العقد الموثق باليمين. و الخطاب فى عاهدتم للمسلمين، و قد كانوا عاهدوا مشركى مكة و غيرهم بإذن من اللّه

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٨٠

و من الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و المعنى: الإخبار بأن اللّه و رسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب ما وقع من الكفار من النقض، فصار النبذ إليه بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين، و معنى براءة اللّه سبحانه، وقوع الإذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين، لعهد المشركين، بعد وقوع النقض منهم، و فى ذلك من التفخيم لشأن البراءة، و التهويل لها، و التسجيل على المشركين بالذلّ و الهوان ما لا يخفى. قوله: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هذا أمر منه سبحانه بالسّياحة بعد الإخبار بتلك البراءة، و السياحة: السير، يقال: ساح فلان فى الأرض يسيح سياحة و سيوحا و سيحانا، و منه: سيح الماء فى الأرض، و سيح الخيل، و منه قول طرفة بن العبد:

لو خفت هذا منك ما نلتنى حتّى ترى خيلا أمامى تسيح

و معنى الآية: أنّ اللّه سبحانه بعد أن أذن بالنّبذ إلى المشركين بعهدهم، أباح للمشركين الضّرب فى الأرض، و الذهاب إلى حيث يريدون، و الاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر، و ليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها. قال محمد بن إسحاق و غيره: إن المشركين صنفان: صنف كانت مدة عهده أقلّ من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، و الآخر: كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، و هو حرب بعد ذلك للّه و لرسوله و للمؤمنين، يقتل حيث يوجد، و ابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، و انقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر، فأما من لم يكن له عهد، فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم، و ذلك خمسون يوما: عشرون من ذى الحجة و شهر محرم. و قال الكلبى: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد دون أربعة أشهر، و من كان عهده أكثر من ذلك فهو الذى أمر اللّه أن يتمّ له عهده بقوله:

فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و رجح هذا ابن جرير و غيره، و سيأتى فى آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أى: اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز، و لكن لمصلحة، ليتوب من تاب، و فى ذلك ضرب من التهديد، كأنه قيل: افعلوا فى هذه المدّة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات و الأدوات، فإنكم لا تفوتون اللّه و هو مخزيكم، أى: مذلكم و مهينكم فى الدنيا بالقتل و الأسر، و فى الآخرة بالعذاب، و فى وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر، و يجوز أن يكون المراد جنس الكافرين، فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوّليا. قوله وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو على أنه: مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدّم فى ارتفاع براءة، و الجملة هذه معطوفة على جملة بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ و قال الزّجّاج: إن قوله وَ أَذانٌ معطوف على قوله: براءة. و اعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان مخبر عنه بالخبر الأوّل، و هو إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ و ليس ذلك بصحيح، بل الخبر عنه هو إِلَى النَّاسِ و الأذان: بمعنى الإيذان، و هو الإعلام، كما أن الأمان و العطاء بمعنى: الإيمان و الإعطاء، و معنى قوله إِلَى النَّاسِ التّعميم فى هذا، أى: أنه إيذان من اللّه إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب

الإعلام لجميع الناس، و الجملة الأولى متضمّنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۱

خاصة، و يَوْمَ الْحَجِ ظرف لقوله و أذان، و وصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس، أو لكون معظم أفعال الحج فيه.

و قد اختلف العلماء فى تعيين هذا اليوم المذكور فى الآية، فذهب جمع منهم: علىّ بن أبى طالب، و ابن مسعود، و ابن أبى أوفى، و المغيرة بن شعبة، و مجاهد، أنه يوم النحر، و رجحه ابن جرير. و ذهب آخرون منهم: عمر، و ابن عباس، و طاوس، أنه يوم عرفة، و الأوّل أرجح، لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر. قوله: أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ قرئ بفتح أن على تقدير بأنّ اللّه برىء من المشركين، فحذفت الباء تخفيفا. و قرئ بكسرها، لأن فى الإيذان معنى القول، و ارتفاع رسوله على أنه معطوف على موضع اسم أن، أو على الضمير فى برىء، أو على أنه مبتدأ و خبره محذوف، و التقدير: و رسوله برىء منهم. و قرأ الحسن و غيره و رسوله بالنصب عطفا على لفظ اسم أن. و قرئ و رسوله بالجرّ على أن الواو للقسم، روى ذلك عن الحسن، و هى قراءة ضعيفة جدا، إذ لا معنى للقسم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هاهنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير اللّه؛ و قيل إنه مجرور على الجوار.

قوله فَإِنْ تُبْتُمْ أى: من الكفر، و فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: و فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، و الضمير فى قوله فَهُوَ راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم خَيْرٌ لَكُمْ مما أنتم فيه من الكفر وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أى: أعرضتم عن التوبة، و بقيتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أى: غير فائتين عليه، بل هو مدرككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ هذا تهكّم بهم، و فيه من التّهديد ما لا يخفى.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلى أهل العهد خزاعة و مدلج؛ و من كان له عهد قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحبّ أن أحجّ حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر و عليا فطافا فى الناس بذى المجاز، و بأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها، أو بالموسم كله، فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر، و هى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، و آذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا. و أخرج عبد اللّه بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند و أبو الشيخ و ابن مردويه عن علىّ قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعانى فقال لى: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، و رجع أبو بكر و قال: يا رسول اللّه! نزل فىّ شىء؟ قال: لا، و لكن جبريل جاءنى فقال: لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث أنس نحوه. و أخرج ابن مردويه من حديث سعيد بن أبى وقاص نحوه أيضا. و أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: كنت مع علىّ حين بعثه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادى: أنه لا يدخل

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۲

الجنة إلا مؤمن و لا يطوف بالبيت عريان، و من كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد فإن أجله و أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن اللّه برىء من المشركين و رسوله، و لا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحجّة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم علىّ بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن على

فى يوم النحر ببراءة: أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان. و أخرج الترمذى و حسنه و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعث أبا بكر و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه عليا و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجّا، فقام علىّ فى أيام التشريق فنادى: إن اللّه برىء من المشركين و رسوله، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر، و لا يحجنّ بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، و لا يدخل الجنة إلا مؤمن؛ فكان علىّ ينادى، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد، و الترمذى و صحّحه، و ابن المنذر و النحاس، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن زيد بن تبيع قال: سألت عليّا بأىّ شىء بعثت مع أبى بكر فى الحج؟ قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلّا نفس مؤمنة. و لا يطوف بالبيت عريان. و لا يجتمع مؤمن و كافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا. و من كان بينه و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عهد فعهده إلى مدّته، و من لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ الآية قال: حدّ اللّه للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا، و حدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم؛ من يوم النحر إلى انسلاخ المحرّم خمسين ليلة، فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام؛ و نقض ما سمى لهم من العهد و الميثاق، و أذهب الشرط الأوّل: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ يعنى أهل مكة.

و أخرج النحاس عنه نحو هذا، و قال: و لم يعاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد هذا أحد. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و النحاس عن الزهرى فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ قال: نزلت فى شوّال فهى الأربعة أشهر: شوّال، و ذو القعدة، و ذو الحجة و المحرّم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ قال: هو إعلام من اللّه و رسوله. و أخرج الترمذى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن علىّ قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن يوم الحجّ الأكبر فقال: «يوم النّحر». و أخرجه ابن أبى شيبة و الترمذى و أبو الشيخ عنه نحو قوله، و أخرج أبو داود و النسائى و الحاكم و صححه عن عبد اللّه بن قرط قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أعظم الأيام عند اللّه يوم النّحر ثم يوم القرّ «١»». و أخرج البخارى تعليقا و أبو داود و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر:

---

(١). هو أول يوم من أيام التشريق.

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وقف يوم النّحر بين الجمرات فى الحجّة التى حجّ فقال: أىّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: «هذا يوم الحجّ الأكبر». و أخرج البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: أن لا يحجّ بعد العام مشرك، و لا يطوف بالبيت عريان، و يوم الحجّ الأكبر: يوم النّحر، و الحجّ الأكبر: الحجّ؛ و إنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحجّ الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحجّ عام حجّة الوداع التى حجّ فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مشرك، و أنزل اللّه فى العام الذى نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ الآية. و أخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال زمن الفتح: «إن هذا عام الحجّ الأكبر، قال: اجتمع حجّ المسلمين و حجّ المشركين فى ثلاثة أيام متتابعات، و اجتمع النّصارى و اليهود فى ثلاثة أيام متتابعات، فاجتمع حجّ المسلمين و المشركين و النصارى و اليهود فى ستة أيام متتابعات، و لم يجتمع منذ خلق السموات و

الأرض كذلك قبل العام، و لا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة». و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال: ما لكم و للحج الأكبر؟ ذاك عام حجّ فيه أبو بكر استخلفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فحج بالناس، و اجتمع فيه المسلمون و المشركون فلذلك سمى الحج الأكبر، و وافق عيد اليهود و النصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال: الحجّ الأكبر:

اليوم الثانى من يوم النحر، ألم تر أن الإمام يخطب فيه. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن المسور بن مخرمة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يوم عرفة هذا يوم الحجّ الأكبر». و أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: الحج الأكبر يوم عرفة. و أخرج ابن جرير عن أبى الصهباء البكرى قال: سألت عليّ بن أبى طالب عن يوم الحجّ الأكبر فقال: يوم عرفة. و أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إن يوم عرفة يوم الحجّ الأكبر. و أخرج ابن جرير عن الزبير نحوه.

و لا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هى ثابتة فى الصحيحين و غيرهما من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرّحة بأنه يوم عرفة. و أخرج ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه سئل: هذا الحجّ الأكبر، فما الحجّ الأصغر؟ قال: عمرة فى رمضان. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن إسحاق قال: سألت عبد اللّه بن شدّاد عن الحجّ الأكبر فقال: الحجّ الأكبر يوم النحر، و الحجّ الأصغر: العمرة.

و أخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن مسعود قال: سئل سفيان بن عيينة عن البشارة تكون فى المكروه، فقال: أ لم تسمع قوله وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ

[سورة التوبة (۹): الآيات ۴ الى ۶]

إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (۶)

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۴

الاستثناء بقوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ قال الزّجاج: إنه يعود إلى قوله بَراءَةٌ و التقدير: براءة من اللّه و رسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم. و قال فى الكشاف: إنه مستثنى من قوله فَسِيحُوا و التقدير: فقولوا لهم: فسيحوا إلا الذين عاهدتم، ثم لم ينقصوكم، فأتموا إليهم عهدهم. قال: و الاستثناء: بمعنى الاستدراك، كأنه قيل- بعد أن أمروا فى الناكثين-: و لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم و لا تجروهم مجراهم. و قد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى و المستثنى منه، و هو وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ إلخ. و أجيب: بأن ذلك لا يضرّ، لأنه ليس بأجنبى؛ و قيل: إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله، فيكون متصلا و هو ضعيف. قوله: ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً أى: لم يقع منهم أىّ نقص. و إن كان يسيرا، و قرأ عكرمة و عطاء بن يسار ينقضوكم بالضاد المعجمة؛ أى: لم ينقضوا عهدكم، و فيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده، و منهم من ثبت عليه، فأذن اللّه سبحانه لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم بنقض عهد من نقض، و بالوفاء لمن لم ينقض إلى مدّته وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً المظاهرة:

المعاونة، أى: لم يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ أى: أدّوا إليهم عهدهم تاما غير ناقص إِلى مُدَّتِهِمْ التى

عاهدتموهم إليها، و إن كانت أكبر من أربعة أشهر، و لا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضى المدّة المذكورة سابقا، و هى أربعة أشهر أو خمسون يوما على الخلاف السابق.

قوله: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ انسلاخ الشهر: تكامله جزءا فجزءا إلى أن ينقضى، كانسلاخ الجلد عمّا يحويه. شبّه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، و أصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان و جلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسلخه سلخا و سلوخا بمعنى: خرجت منه، و منه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشّهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشّهور و إهلالى

و يقال: سلخت المرأة درعها: نزعته، و فى التنزيل: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ «١».

و اختلف العلماء فى تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا، فقيل: هى الأشهر الحرم المعروفة التى هى ذو القعدة و ذو الحجة، و محرّم، و رجب: ثلاثة سرد، و واحد فرد. و معنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم. و قد وقع النداء و النبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقى من الأشهر الحرم التى هى الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر المحرم فأمرهم اللّه بقتل المشركين حيث يوجدون، و به قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك و الباقر. و روى عن ابن عباس و اختاره ابن جرير؛ و قيل: المراد بها: شهور العهد المشار إليه بقوله فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و سمّيت حرما لأن اللّه سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين، و التعرّض لهم، و إلى هذا ذهب جماعة

---

(١). يس: ٣٧.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٨٥

من أهل العلم منهم مجاهد و ابن إسحاق و ابن زيد و عمرو بن شعيب. و قيل: هى الأشهر المذكورة فى قوله فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. و قد روى ذلك عن ابن عباس و جماعة، و رجحه ابن كثير، و حكاه عن مجاهد و عمرو بن شعيب و محمد بن إسحاق و قتادة و السدّى و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و سيأتى بيان حكم القتال فى الأشهر الحرم الدائرة فى كل سنة فى هذه السورة إن شاء اللّه. و معنى حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

فى أىّ مكان وجدتموهم من حلّ أو حرم. و معنى خُذُوهُمْ الأسر، فإن الأخيذ هو الأسير. و معنى الحصر: منعهم من التصرّف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، و المرصد: الموضع الذى يرقب فيه العدوّ، يقال: رصدت فلانا أرصده، أى: رقبته، أى: اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها. قال عامر بن الطّفيل:

و لقد علمت و ما إخالك عالما أنّ المنيّة للفتى بالمرصد

و قال عدىّ:

أعاذل إنّ الجهل من لذّة الفتى و إنّ المنايا للنفوس بمرصد

و كل فى كُلَّ مَرْصَدٍ منتصب على الظرفية و هو اختيار الزّجّاج، و قيل: هو منتصب بنزع الخافض، أى: فى كل مرصد، و خطّأ أبو علىّ الفارسى الزّجّاج فى جعله ظرفا. و هذه الآية المتضمّنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم؛ عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة، و هو المرأة و الصبىّ و العاجز الذى لا يقاتل، و كذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، و هذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين، و الصبر على أذاهم. و قال الضّحّاك و عطاء و السدّى: هى منسوخة بقوله فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً «١» و أن الأسير لا يقتل صبرا، بل يمن عليه، أو يفادى. و قال مجاهد و قتادة: بل هى ناسخة لقوله فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً و أنه لا يجوز فى الأسارى من المشركين إلا القتل. و

قال ابن زيد: الآيتان محكمتان. قال القرطبى: و هو الصّحيح لأن المنّ و القتل و الفداء لم تزل من حكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيهم من أوّل حرب جاء بهم، و هو يوم بـدر. قوله: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ أى: تابوا عن الشـرک الذى هو سبب القتل، و حقّقوا التوبـة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسـلام، و هو إقامـة الصّـلاة، و هـذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسـها، و اكتفى بالركن الآخر المالى، و هو إيتاء الزّكاة عن كلّ ما يتعلّق بالأموال من العبادات، لأنه أعظمهـا فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أى: اتركوهم و شأنهم، فلا تأسـروهم، و لا تحصـروهم، و لا تقتلوهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لهم رَحِيمٌ بهم. قوله: وَ إِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجارَکَ فَأَجِرْهُ يقال: اسـتجرت فلانا، أى: طلبت أن يكون جارا؛ أى: محاميا و محافظا من أن يظلمنى ظالم، أو يتعرّض لى متعرّض، و أحـد مرتفع بفعل مقـدّر يفسـره المذكور بعده، أى: و إن اسـتجارک أحد اسـتجارک، و كرهوا الجمع بين المفسر و المفسر. و المعنى: و إن استجارک أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم فأجره، أى: كن جارا له مؤمنا

---

(۱). محمد: ۴.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۸۶

محاميا حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ منک و يتـدبره حق تـدبره، و يقف على حقيقة ما تدعو إليه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ أى: إلى الدار التى يأمن فيها بعـد أن يسـمع كلام اللّه، إن لم يسـلم، ثم بعـد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارک و رجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه، و وجوب قتله حيث يوجـد، و الإشارة بقوله ذلِکَ إلى ما تقدّم من الأمر بالإجارة و ما بعده بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ أى: بسـبب فقدانهم للعلم النافع المميز، بين الخير و الشر: فى الحال و المآل.

و قـد أخرج ابن أبى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله إِلَّا الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ قـال: هم قريش. و أخرج أيضـا عن قتادة قال: هم مشـركو قريش الـذين عاهـدهم نبىّ اللّه زمن الحديبيـة، و كان بقى من مدّتهم أربعة أشـهر بعد يوم النّحر، فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدّتهم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن محمد بن عباد بن جعفر فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ قال: هم بنو جذيمـة بن عامر من بنى بكر ابن كنانـة. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهـد فى قوله: فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلى مُـدَّتِهِمْ قال: كان بقى لبنى مذحـج و خزاعـة عهـد، فهو الذى قال اللّه: فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ و أخرج أبو الشـيخ عن السدىّ فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ قال: هؤلاء بنو ضـمرة و بنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى غزوة العشيرة من بطن ينبع ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً قال: لم يظاهروا عدوكم عليكم فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلى مُـدَّتِهِمْ يقول: أجلهم الـذى شـرطتم لهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ يقول: الذين يتقون اللّه فيما حرّم عليهم؛ فيوفون بالعهـد. قال: فلم يعاهـد النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم بعـد هؤلاء الآيات أحدا. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله فَإِذَا انْسَـلَخَ الْأَشْـهُرُ الْحُرُمُ قال: هى الأربعة: عشـرون من ذى الحجّة، و المحرّم، و صفر، و شهر ربيع الأوّل، و عشر من ربيع الآخر. قلت: مراد السدّى أنّ هذه الأشهر تسمّى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال، لا أنها الأشهر الحرم المعروفة. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاک فى الآية قال:

هى عشـر من ذى القعـدة، و ذو الحجّة، و المحرم، سبعون ليلة. و أخرج أبو الشـيخ عن مجاهد قال: هى الأربعة الأشـهر التى قال فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ. و أخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدّى السابق. و أخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله: فَإِذَا انْسَـلَخَ الْأَشْـهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ ثم نسـخ و اسـتثنى. فقال فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ و قال وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْـتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ يقول: من جاءک و استمع ما تقول.

و استمع ما أنزل إليك، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام اللّه حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ قال: إن لم يوافقه ما يقصّ عليه و يخبر به فأبلغه مأمنه، و هـذا ليس بمنسوخ. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ أى كتاب اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة قال: كان الرجل يجىء؛ إذا سمع كلام اللّه و أقرّ به و أسلم

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٨٧

فذاك الذى دعى إليه، و إن أنكر و لم يقرّ به ردّ إلى مأمنه، ثم نسخ ذلك، فقال: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧ الى ١١]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)

قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ الاستفهام هنا للتعجّب المتضمّن للإنكار، و عهد: اسم يكون. و فى خبره ثلاثة أوجه: الأوّل أنه كيف، و قدم الاستفهام؛ و الثانى للمشركين، و عِنْدَ على هذين: ظرف للعهد، أو ليكون، أو صفة للعهد؛ و الثالث: أن الخبر عند اللّه، و فى الآية إضمار. و المعنى: كيف يكون للمشركين عهد عند اللّه يأمنون به من عذابه؛ و قيل: معنى الآية: محال أن يثبت لهؤلاء عهد، و هم أضداد لكم، مضمرون للغدر، فلا يطمعوا فى ذلك، و لا يحدثوا به أنفسهم، ثم استدرك، فقال: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أى: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، و لم ينقضوا، و لم ينكثوا، فلا تقاتلوهم، فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذى بينكم و بينهم فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ قيل: هم بنو بكر، و قيل: بنو كنانة، و بنو ضمرة، و فى «ما» وجهان:

أحدهما: أنها مصدرية زمانية، و الثانى: أنها شرطية، و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إشارة إلى أنّ الوفاء بالعهد و الاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة. قوله: كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أعاد الاستفهام التعجيبى للتأكيد و التقرير، و التقدير: كيف يكون لهم عهد عند اللّه و عند رسوله؟

و الحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم لا يَرْقُبُوا أى: لا يراعوا فيكم إِلًّا أى: عهدا وَ لا ذِمَّةً. قال فى الصحاح: الإلّ العهد و القرابة، و منه قول حسان:

لعمرك أنّ إلّك من قريش كإلّ السّقب من رأل النّعام

قال الزجّاج: الإلّ عندى على ما توجبه اللغة يدور على معنى الحدة، و منه الإلة للحربة، و منه: أذن مؤللة: أى: محددة، و منه: قول طرفة بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة و الانتصاب:

مؤلّلتان يعرف العتق «١» فيهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

---

(١). العتق: الكرم و الجمال و النجابة و الشرف.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٨٨

قال أبو عبيدة: الإلّ العهد، و الذمة و النديم. و قال الأزهرى: هو اسم للّه بالعبرانية، و أصله من الأليل، و هو البريق، يقال: ألّ لونه

يؤلّ ألّا؛ أى صفا و لمع، و الذمة: العهد، و جمعها ذمم، فمن فسر الإلّ بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين. و قال أبو عبيدة: الذمة: التذمم. و قال أبو عبيد: الذمّة: الأمان كما فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «و يسعى بذمّتهم أدناهم». و روى عن أبى عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذمّم به، أى: ما يجتنب فيه الذمّ. قوله: يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ أى: يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة و محاسنة لكم طلبا لمرضاتكم و تطييب قلوبكم، و قلوبهم تأبى ذلك و تخالفه و تودّ ما فيه مساءتكم و مضرتكم، كما يفعله أهل النفاق و ذوو الوجهين؛ ثم حكم عليهم بالفسق، و هو التمرد و التجرّى، و الخروج عن الحق لنقضهم العهود، و عدم مراعاتهم للعقود، ثم وصفهم بقوله: اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى: استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيرا؛ و هو ما آثروه من حطام الدنيا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ أى: فعدلوا و أعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا غيرهم عنه. قوله: لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً قال النحّاس: ليس هذا تكريرا، و لكن الأوّل: لجميع المشركين، و الثانى: لليهود خاصة، و الدليل على هذا اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا يعنى: اليهود، و قيل: هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق، و فى الأوّل المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ أى: المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد، أو البالغون فى الشرّ و التمرد إلى الغاية القصوى فَإِنْ تابُوا عن الشرك و التزموا أحكام الإسلام فَإِخْوانُكُمْ أى: فهم إخوانكم فِي الدِّينِ أى: فى دين الإسلام وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أى: نبيّنها، و نوضحها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بما فيها من الأحكام و يفهمونه، و خص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، و المراد بالآيات: ما مرّ من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم.

و قد أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: قريش. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مقاتل قال:

كان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عاهد أناسا من بنى ضمرة بنى بكر و كنانة خاصة، عاهدهم عند المسجد الحرام و جعل مدتهم أربعة أشهر. و هم الذين ذكر اللّه إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ يقول: ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: هم بنو جذيمة.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قال: هو يوم الحديبية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِلًّا وَ لا ذِمَّةً قال: الإلّ: القرابة، و الذمة: العهد. و أخرج الفريابى و أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: الإلّ: اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن عكرمة مثله.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا قال:

أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه و ترك حلفاء محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَإِنْ تابُوا الآية يقول: إن تركوا اللات و العزّى و شهدوا أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول

اللّه فإخوانكم فى الدّين. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: حرّمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصّلاة.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲ الى ۱۶]

وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۱۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ

يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٦)

قوله: وَ إِنْ نَكَثُوا معطوف على فَإِنْ تابُوا و النكث: النقض، و أصله: نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل فى كلّ نقض، و منه نقض الأيمان و العهود على طريق الاستعارة. و معنى مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ أى: من بعد أن عاهدوكم. و المعنى: أن الكفار إن نكثوا العهود التى عاهدوا بها المسلمين، و وثقوا لهم بها، و ضمّوا إلى ذلك الطعن فى دين الإسلام، و القدح فيه، فقد وجب على المسلمين قتالهم. و أئمة الكفر:

جمع إمام، و المراد صناديد المشركين، و أهل الرئاسة فيهم على العموم، و قرأ حمزة أإمة، و أكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن؛ لأن فيه الجمع بين همزتين فى كلمة واحدة، و قرأ الجمهور بجعل الهمزة الثانية بين بين، أى:

بين مخرج الهمزة و الياء، و قرئ بإخلاص الياء و هو لحن؛ كما قال الزمخشرى، قوله: إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ هذه الجملة تعليل لما قبلها، و الأيمان: جمع يمين فى قراءة الجمهور. و قرأ ابن عامر «لا- إيمان لهم» بكسر الهمزة، و المعنى على قراءة الجمهور: أن أيمان الكافرين، و إن كانت فى الصورة يمينا، فهى فى الحقيقة ليست بيمين، و على القراءة الثانية: أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين فى الدين ليسوا من أهل الإيمان باللّه، حتى يستحقوا العصمة لدمائهم و أموالهم، فقتالهم واجب على المسلمين. قوله: لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أى: عن كفرهم و نكثهم و طعنهم فى دين الإسلام، و المعنى: أن قتالهم يكون إلى الغاية هى: الانتهاء عن ذلك.

و قد استدلّ بهذه الآية على أن الذمىّ إذا طعن فى الدّين، لا يقتل حتى ينكث العهد، كما قال أبو حنيفة، لأن اللّه إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، و الثانى: الطعن فى الدين، و ذهب مالك و الشافعى و غيرهما: إلى أنه إذا طعن فى الدين قتل، لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: و كذلك إذا حصل من الذمىّ مجرد النكث فقط من دون طعن فى الدين فإنه يقتل. قوله: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ الهمزة الداخلة على حرف النفى: للاستفهام التوبيخى مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال، و المبالغة فى تحققه، و المعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد، و إخراج الرسول من مكة، و البداءة بالقتال، فهو حقيق بأن لا يترك قتاله، و أن يوبخ من فرط فى ذلك، ثم زاد فى التوبيخ فقال: أَ تَخْشَوْنَهُمْ فإن هذا

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٠

الاستفهام للتوبيخ و التقريع، أى: تخشون أن ينالكم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه، فقال: فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى: هو أحق بالخشية منكم، فإنه الضارّ النّافع بالحقيقة، و من خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم، ثم زاد فى تأكيد الأمر بالقتال فقال: قاتِلُوهُمْ و رتّب على هذا الأمر فوائد: الأولى: تعذيب اللّه للكفار بأيدى المؤمنين بالقتل و الأسر؛ و الثانية: إخزاؤهم، قيل: بالأسر، و قيل: بما نزل بهم من الذل و الهوان؛ و الثالثة: نصر المسلمين عليهم، و غلبتهم لهم؛ و الرابعة: أن اللّه يشفى بالقتال صدور قوم مؤمنين ممّن لم يشهد القتال و لا حضره؛ و الخامسة: أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين، الذى نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ، و حرج الصدر. فإن قيل: شفاء الصدور، و إذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى، فيكون تكرارا. قيل فى الجواب: إن القلب أخصّ من الصدر، و قيل: إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح، و لا ريب أن الانتظار لإنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر، و أنّ إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، و قد وقعت للمؤمنين و للّه الحمد هذه الأمور كلها، ثم قال: وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ و هو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون، و هو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره، كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح، فإنهم أسلموا، و حسن إسلامهم، و هذا على قراءة الرفع فى يتوب، و هى قراءة الجمهور، و قرئ بنصب يتوب بإضمار أن، و دخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى.

قرأ بذلك ابن أبى إسحاق و عيسى الثقفى و الأعرج، فإن قيل: كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ و أجيب بأن القتال قد يكون سببا لها، إذا كانت من جهة الكفار، و أما إذا كانت من جهة المسلمين؛ فوجهه أن النصر و الظفر من جهة اللّه يكون سببا لخلوص النية، و التوبة عن الذنوب، قوله: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أم هذه هى المنقطعة التى بمعنى بل، و الهمزة و الاستفهام للتوبيخ، و حرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، و المعنى: كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه، و قوله: أَنْ تُتْرَكُوا فى موضع مفعولى الحسبان عند سيبويه، و قال المبرد: إنه حذف الثانى، و التقدير: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن و المنافق الظهور الذى يستحق به الثواب و العقاب، و جملة وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ فى محل نصب على الحال، و المراد من نفى العلم نفى المعلوم، و المعنى كيف تحسبون أنكم تتركون و لما يتبين المخلص منكم فى جهاده من غير المخلص، و جملة وَ لَمْ يَتَّخِذُوا معطوفة على جاهدوا داخلة معه فى حكم النفى، واقعة فى حيز الصلة، و الوليجة من الولوج: و هو الدخول، ولج يلج ولوجا:

إذ دخل، فالوليجة: الدخيلة. قال أبو عبيدة: كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة. قال أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاربين و المعتدين و أهل الرّيب

و قال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين، و المعنى واحد؛ أى: كيف تتّخذون دخيلة، أو بطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم، و تعلمونهم أموركم من دون اللّه وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ أى: بجميع أعمالكم.

فتح القدير، ج۲، ص: ۳۹۱

و قد أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد فى قوله: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ قال: عهدهم. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: يقول اللّه لنبيّه و إن نكثوا العهد الذى بينك و بينهم فقاتلهم إنّهم أئمة الكفر. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله أئمة الكفر قال: أبو سفيان بن حرب، و أميّة بن خلف، و عتبة بن ربيعة، و أبو جهل بن هشام، و سهيل بن عمرو، و هم الذين نكثوا عهد اللّه، و همّوا بإخراج الرسول من مكة. و أخرج ابن عساكر عن مالك ابن أنس مثله. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ قال: رؤوس قريش.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: أبو سفيان بن حرب منهم. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، و أخرج ابن مردويه عن علىّ نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن مردويه عن حذيفة قال: ما بقى من أهل هذه الآية إلا ثلاثة، و لا من المنافقين إلا أربعة، فقال أعرابىّ: إنكم أصحاب محمد تخبروننا بأمور و لا ندرى ما هى فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا و يسرقون أعلاقنا «۱»، قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده، و الأولى أن الآية عامة فى كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معنى أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، و مما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوما مجوفة رؤوسهم، فاضربوا مقاعد الشّيطان منهم بالسيوف، فو اللّه لأن أقتل رجلا منهم أحبّ إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، و ذلك بأن اللّه يقول: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ. و أخرج أبو الشيخ عن حذيفة لا أَيْمانَ لَهُمْ قال: لا عهود لهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عمار مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ قال: قتال قريش حلفاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و همّهم بإخراج الرسول، زعموا أن ذلك عام عمرة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى العام التابع للحديبية «۲»، نكثت قريش العهد، عهد الحديبية، و جعلوا فى أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها؛ فذلك همّهم بإخراجه، فلم تتابعهم خزاعة على

ذلك، فلما خرج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة قالت قريش لخزاعة: عميتمونا عن إخراجه، فقاتلوهم، فقتلوا منهم رجالا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة قال:
نزلت فى خزاعة قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضا، و قد ساق القصة ابن إسحاق فى سيرته، و أورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أوّله:

---

(١). قال فى القاموس: العلق: النفيس من كل شيء.

(٢). أى فى العام السابع للهجرة حيث أدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عمرة القضاء.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٣٩٢ يا ربّ إنّى ناشد محمّداحلف أبينا و أبيه الأتلدا

و أخرج القصة البيهقى فى الدّلائل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال:

الوليجة: البطانة من غير دينهم. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة قال: وليجة: أى خيانة.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٧ الى ٢٢]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)
خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

قرأ الجمهور يَعْمُرُوا بفتح حرف المضارعة و ضم الميم من عمر يعمر، و قرأ ابن السميقع بضم حرف المضارعة من أعمر يعمر، أى: يجعلون لها من يعمرها. و قرأ ابن عباس و سعيد بن جبير و عطاء بن أبى رباح و مجاهد و ابن كثير و أبو عمرو و ابن محيصن و سهم و يعقوب مسجد اللّه بالإفراد، و قرأ الباقون مَساجِدَ بالجمع، و اختارها أبو عبيدة قال النحاس: لأنها أعم، و الخاص يدخل تحت العام، و قد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة، و هذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل و إن لم يركب إلا فرسا قال: و قد أجمعوا على الجمع فى قوله: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ و روى عن الحسن البصرى أنه تعالى إنما قال مَساجِدَ و المراد المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها و إمامها، فعامره كعامر جميع المساجد. قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم: فلان كثير الدرهم و بالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك و لعله لم يجالس إلا ملكا واحدا و المراد بالعمارة: إما المعنى الحقيقى، أو المعنى المجازى، و هو ملازمته، و التعبد فيه، و كلاهما ليس للمشركين، أما الأول فلأنه يستلزم المنّة على المسلمين بعمارة مساجدهم، و أما الثانى فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام، و معنى ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ ما صح لهم و ما استقام أن يفعلوا ذلك، و شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ حال، أى:

ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان، و العبادة لها، و جعلها آلهة، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر، و إن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين: عمارة المسجد التى هى

من شأن المؤمنين، و الشهادة على أنفسهم بالكفر التى ليست من شأن من يتقرّب إلى اللّه بعمارة مساجده. و قيل: المراد بهذه الشهادة قولهم فى طوافهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه و ما ملك؛ و قيل: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: إن اليهودى يقول هو يهودى،

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٣

و النصرانى يقول هو نصرانى، و الصابئ، و المشرك يقول هو مشرك أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ التى يفتخرون بها و يظنون أنها من أعمال الخير، أى: بطلت، و لم يبق لها أثر وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ و فى هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها، ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و فعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة وَ لَمْ يَخْشَ أحدا إِلَّا اللَّهَ فمن كان جامعا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد، لا من كان خاليا منها أو من بعضها، و اقتصر على ذكر الصلاة و الزكاة و الخشية؛ تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه؛ مما افترضه اللّه على عباده، لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، و قد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد، و فى بيان ماهية العمارة، و من جوّز الجمع بين الحقيقة و المجاز؛ حمل العمارة هنا عليهما، و فى قوله: فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم، فإنّ الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوّا فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات؛ و قيل: عسى من اللّه واجبة؛ و قيل: هى بمعنى خليق، أى: فخليق أن يكونوا من المهتدين؛ و قيل: إن الرجاء راجع إلى العباد، و الاستفهام فى أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ للإنكار، و السقاية و العمارة: مصدران كالسعاية و الحماية، و فى الكلام حذف، و التقدير: أ جعلتم أصحاب سقاية الحاج و عمارة المسجد، أو أهلهما كَمَنْ آمَنَ حتى يتفق الموضوع و المحمول، أو يكون التقدير فى الخبر، أى: جعلتم سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام كعمل من آمن، أو كإيمان من آمن، و قرأ ابن أبى وجرة السعدى و ابن الزبير و سعيد بن جبير «أ جعلتم سقاة الحاج و عمرة المسجد الحرام»، جمع ساق و عامر، و على هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف، و المعنى: أن اللّه أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التى صورتها صورة الخير، و إن لم ينتفعوا بها و بين إيمان المؤمنين و جهادهم فى سبيل اللّه، و قد كان المشركون يفتخرون بالسقاية و العمارة و يفضلونهما على عمل المسلمين، فأنكر اللّه عليهم ذلك، ثم صرّح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين و تفاوتهم، و عدم استوائهم فقال: لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ أى:

لا تساوى تلك الطّائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، هذه الطائفة المؤمنة باللّه و اليوم الآخر المجاهدة فى سبيله، و دلّ سبحانه بنفى الاستواء على نفى الفضيلة التى يدّعيها المشركون، أى: إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم و أنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك، لا يستحقون الهداية من اللّه سبحانه، و فى هذا إشارة إلى الفريق المفضول، ثم صرّح بالفريق الفاضل فقال: الَّذِينَ آمَنُوا إلى آخره، أى: الجامعون بين الإيمان و الهجرة، و الجهاد بالأموال و الأنفس أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ و أحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة، و فى قوله: عِنْدَ اللَّهِ تشريف عظيم للمؤمنين، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصفين بالصفات المذكورة هُمُ الْفائِزُونَ أى: المختصون بالفوز عند اللّه، ثم فسر الفوز بقوله:

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ و التنكير فى الرحمة و الرضوان و الجنات

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٤

للتعظيم؛ و المعنى أنها فوق وصف الواصفين، و تصوّر المتصورين. و النعيم المقيم: الدائم المستمر الذى لا يفارق صاحبه، و ذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له، و جملة إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل، أى: أعطاهم اللّه سبحانه هذه

الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، و هو ذو الفضل العظيم.
و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ و قال: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فنفى المشركين من المسجد «١» مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ يقول: من وحد اللّه و آمن بما أنزل اللّه وَ أَقامَ الصَّلاةَ يعنى الصلوات الخمس وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ يقول: لم يعبد إلا اللّه فَعَسى أُولئِكَ يقول: أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «٢» يقول: إن ربك سيبعثك مقاما محمودا، و هى الشّفاعة، و كلّ عسى فى القرآن: فهى واجبة. و أخرج أحمد و عبد بن حميد و الدارمى و الترمذى و حسنه و ابن ماجة و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:
«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» قال اللّه تعالى: إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ. و قد وردت أحاديث كثيرة فى استحباب ملازمة المساجد و عمارتها و التردّد إليها للطاعات. و أخرج مسلم و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن حبّان و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم:
ما أبالى أن لا أعمل للّه عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، و قال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، و قال آخر: بل جهاد فى سبيل اللّه خير مما قلتم، فزجرهم عمر، و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ذلك يوم الجمعة، و لكن إذا صلّيت الجمعة دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ إلى قوله: لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية، و ذلك أنّ المشركين قالوا:
عمارة بيت اللّه و قيام على السّقاية خير ممّن آمن و جاهد، فكانوا يفخرون بالحرم، و يستكبرون به من أجل أنّهم أهله و عمّاره، فذكر اللّه سبحانه استكبارهم و إعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ- مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ «٣» يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، و قال: به سامرا: كانوا به يسمرون و يهجرون بالقرآن و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فخير الإيمان باللّه و الجهاد مع نبىّ اللّه على عمران المشركين البيت و قيامهم على السعاية و لم يكن لينفعهم عند اللّه مع الشرك به و إن كانوا يعمرون بيته و يخدمونه، قال اللّه لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يعنى:
الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئا، و فى إسناده العوفى

---

(١). المقصود: ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد اللّه.

(٢). الإسراء: ٧٩.

(٣). المؤمنون: ٦٦- ٦٧.

فتح القدير، ج٢، ص: ٣٩٥

و هو ضعيف. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجرة و الجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام و نسقى الحاج و نفكّ العانى، فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية: يعنى أن ذلك كان فى الشرك؛ فلا أقبل ما كان فى الشرك.
و أخرج ابن مردويه عنه أيضا فى الآية قال: نزلت فى علىّ بن أبى طالب و العباس. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن

الشعبى قال: تفاخر عليّ و العباس و شيبة فى السقاية و الحجابة فأنزل اللّه أَ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِ الآية، و قد روى معنى هذا من طرق.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۲۴)

الخطاب للمؤمنين كافّة، و هو حكم باق إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين و الكافرين، و قالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت فى الحضّ على الهجرة و رفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكّة و غيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء و الإخوة فيكونون لهم تبعا فى سكنى بلاد الكفر إِنِ اسْتَحَبُّوا: أى أحبوا، كما يقال استجاب بمعنى أجاب، و هو فى الأصل طلب المحبّة، و قد تقدّم تحقيق المقام فى سورة المائدة فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ «۱» ثم حكم على من يتولّى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء و الإخوان بالظلم، فدلّ ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب و أشدّها، ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم: إِنْ كانَ آباؤُكُمْ إلى آخره، و العشيرة: الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد، و عشيرة الرجل قرابته الأدنون، و هم الذين يعاشرونه و هى اسم جمع. و قرأ أبو بكر و حماد: عشيراتكم بالجمع. قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات، و إنما يجمعونها على عشائر. قرأ الحسن عشائركم. و قرأ الباقون عَشِيرَتُكُمْ و الاقتراف: الاكتساب، و أصله اقتطاع الشيء من مكانه، و التركيب يدور على الدنوّ، و الكاسب يدنى الشيء من نفسه و يدخله تحت ملكه، و التجارة: الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها، و الكساد: عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة و مفارقة الأوطان. و من غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال: إن المراد بالتجارة فى هذه الآية: البنات و الأخوات إذا كسدن فى البيت لا يجدن لهنّ خاطبا، و استشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر فى قومهنّو قد زادهنّ مقامى كسادا

و هذا البيت و إن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهنّ، فليس فيه جواز إطلاق اسم التجارة

---

(۱). المائدة: ۵۱.

عليهنّ، و المراد بالمساكن التى يرضونها: المنازل التى تعجبهم و تميل إليها أنفسهم و يرون الإقامة فيها أحبّ إليهم من المهاجرة إلى اللّه و رسوله، و أحبّ خبر كان، أى: كانت هذه الأشياء المذكورة فى الآية أحبّ إليكم من اللّه و رسوله و من الجهاد فى سبيل اللّه فَتَرَبَّصُوا أى: انتظروا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فيكم و ما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم؛ و قيل: المراد بأمر اللّه سبحانه: القتال؛ و قيل: فتح مكة و فيه بعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح. و فى هذا وعيد شديد و يؤكده إبهام الأمر و عدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب و تتردّد بين أنواع العقوبات وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: الخارجين عن طاعته، النّافرين عن امتثال أوامره و نواهيه.

و قد أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: أمروا بالهجرة فقال العباس ابن عبد المطلب: أنا أسقى الحاجّ. و قال طلحة أخو بنى عبد الدار: أنا أحجب الكعبة فلا نهاجر، فأنزلت لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ الآية. و

أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل فى هذه الآية قال: هى الهجرة.

و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة اقْتَرَفْتُمُوها قال: أصبتموها.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ قال: بالفتح، فى أمره بالهجرة، هذا كله قبل فتح مكة. و أخرج البيهقى من حديث عبد اللّه بن شوذب قال: جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، و جعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجرّاح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله، فأنزل اللّه لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ الآية، و هى تؤكّد معنى هذه الآية، و قد تقدّم بيان حكم الهجرة فى سورة النساء.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

المواطن: جمع موطن، و مواطن الحرب: مقاماتها، و المواطن التى نصر اللّه المسلمين فيها: هى يوم بدر و ما بعد، من المواطن التى نصر اللّه المسلمين على الكفار فيها، قبل يوم حنين، وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ معطوف على مواطن بتقدير مضاف، إما فى الأوّل و تقديره فى أيام مواطن، أو فى الثانى و تقديره و موطن يوم حنين، لئلا يعطف الزمان على المكان. و ردّ بأنه لا استبعاد فى عطف الزمان على المكان، فلا يحتاج إلى تقدير؛ و قيل:

إن يوم حنين: منصوب بفعل مقدّر معطوف على نَصَرَكُمُ أى: و نصركم يوم حنين، و رجح هذا صاحب الكشاف. قال: و موجب ذلك أن قوله: إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ بدل من يوم حنين، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح، لأن كثرتهم لم تعجبهم فى جميع تلك المواطن، و لم يكونوا كثيرا فى جميعها، و ردّ بأن العطف

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٩٧

لا يجب فيه تشارك المتعاطفين فى جميع ما ثبت للمعطوف، كما تقول: جاءنى زيد و عمرو مع قومه، أو فى ثيابه، أو على فرسه؛ و قيل: إن إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ليس ببدل من يوم حنين، بل منصوب بفعل مقدّر: أى اذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم، و حنين: واد بين مكة و الطائف، و انصرف على أنه اسم للمكان، و من العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة، و منه قول الشاعر:

نصروا نبيّهم و شدّوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

و إنما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثنى عشر ألفا، و قيل: أحد عشر ألفا، و قيل:

ستة عشر ألفا؛ فقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلّة، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم، بل انهزموا و ثبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ثبت معه طائفة يسيرة منهم: عمه العباس و أبو سفيان بن الحارث، ثم تراجع المسلمون، فكان النصر و الظفر. و الإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة؛ أى: لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم، و لم تفدكم. قوله: بِما رَحُبَتْ الرحب بضم الراء: السّعة، و الرّحب بفتح الراء: المكان الواسع، و الباء بمعنى مع، و ما مصدرية، و محل الجار و المجرور النصب على الحال. و المعنى: أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف؛ ضاقت عليهم بسبب ما حلّ بهم من الخوف و الوجل؛ و قيل: إن الباء بمعنى على، أى: على رحبها ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أى: انهزمتم حال كونكم مدبرين، أى: مولين أدباركم، جاعلين لها إلى جهة عدوّكم. قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أى: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، و المراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا، و قيل: الذين انهزموا، و الظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا

بعد ذلک، و قاتلوا، و انتصروا.

قوله: وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها هم الملائکة.

و قد اختلف فی عددهم علی أقوال: قیل خمسة آلاف، و قیل: ثمانیة آلاف، و قیل: ستة عشر ألفا، و قیل: غیر ذلک، و هذا لا یعرف إلا من طریق النبوّة، و اختلفوا أیضا هل قاتلت الملائکة فی هذا الیوم أم لا؟ و قد تقدم أن الملائکة لم تقاتل إلا یوم بدر، و أنهم إنما حضروا فی غیر یوم بدر، لتقویة قلوب المؤمنین، و إدخال الرعب فی قلوب المشرکین وَ عَذَّبَ الَّذِینَ کَفَرُوا بما وقع علیهم من القتل و الأسر، و أخذ الأموال، و سبی الذریة، و الإشارة بقوله: وَ ذلِکَ إلی التعذیب المفهوم من عذب، و سمی ما حلّ بهم من العذاب فی هذا الیوم جزاء مع أنه غیر کاف؛ بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة فی وصف ما وقع علیهم، و تعظیما له ثُمَّ یَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ عَلی مَنْ یَشاءُ أی: من بعد هذا التعذیب علی من یشاء ممن هداه منهم إلی الإسلام وَ اللَّهُ غَفُورٌ یغفر لمن أذنب فتاب رَحِیمٌ بعباده یتفضل علیهم بالمغفرة لما اقترفوه.

و قد أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن قتادة قال: حنین: ما بین مکة و الطائف، قاتل نبیّ اللّه هوازن و ثقیف، و علی هوازن مالک بن عوف، و علی ثقیف عبد یا لیل بن عمرو الثّقفی. و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مکة و أهل المدینة قالوا: الآن نقاتل حین اجتمعنا، فکره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ما

فتح القدیر، ج‌۲، ص: ۳۹۸

قالوا، و ما أعجبهم من کثرتهم، فالتقوا، فهزموا حتی ما یقوم أحد منهم علی أحد حتی جعل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ینادی أحیاء العرب: إلیّ إلیّ، فو اللّه ما یعرج علیه أحد حتی أعری موضعه، فالتفت إلی الأنصار و هم ناحیة فناداهم: یا أنصار اللّه! و أنصار رسوله، إلیّ عباد اللّه، أنا رسول اللّه، فجثوا یبکون و قالوا:

یا رسول اللّه! و ربّ الکعبة إلیک و اللّه، فنکسوا رؤوسهم یبکون و قدّموا أسیافهم یضربون بین یدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم حتی فتح اللّه علیهم. و أخرج البیهقی فی الدلائل عن الربیع أن رجلا قال یوم حنین: لن نغلب من قلّة، فشقّ ذلک علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فأنزل اللّه وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ قال الرّبیع:

و کانوا اثنی عشر ألفا، منهم ألفان من أهل مکة. و أخرج الطبرانی، و الحاکم و صحّحه، و أبو نعیم، و البیهقی فی الدّلائل، عن ابن مسعود قال: کنت مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یوم حنین، فولّی عنه الناس و بقیت معه فی ثمانین رجلا من المهاجرین و الأنصار، فکنا علی أقدامنا نحوا من ثمانین قدما و لم نولّهم الدّبر، و هم الذین أنزل اللّه علیهم السکینة، و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم علی بغلته البیضاء یمضی قدما، فقال: ناولنی کفّا من تراب، فناولته فضرب به وجوههم، فامتلأت أعینهم ترابا، و ولّی المشرکون أدبارهم، و وقعة حنین مذکورة فی کتب السّیر و الحدیث بطولها و تفاصیلها فلا نطول بذلک. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی فی قوله:

وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها قال: هم الملائکة وَ عَذَّبَ الَّذِینَ کَفَرُوا قال: قتلهم بالسیف. و أخرج ابن أبی حاتم عن سعید بن جبیر قال: فی یوم حنین أمدّ اللّه رسوله بخمسة آلاف من الملائکة مسوّمین، و یومئذ سمّی اللّه الأنصار مؤمنین قال: فأنزل سکینته علی رسوله و علی المؤمنین. و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن مردویه و أبو نعیم و البیهقی عن جبیر بن مطعم قال: رأیت قبل هزیمة القوم و الناس یقتتلون مثل النّجاد الأسود أقبل من السماء حتی سقط بین القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادی، لم أشک أنّها الملائکة، و لم تکن إلا هزیمة القوم.

[سورة التوبة (۹): الآیات ۲۸ الی ۲۹]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (٢٩)

النّجس: مصدر لا- يثّنى و لا- يجمع، يقال رجل نجس، و امرأة نجس، و رجلان نجس، و امرأتان نجس، و رجال نجس، و نساء نجس؛ و يقال: نجس و نجس بكسر الجيم و ضمها؛ و يقال: نجس، بكسر النون و سكون الجيم، و هو تخفيف من المحرك، قيل: لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس، و قيل: ذلك أكثرىّ لا كلّى. و المشركون مبتدأ، و خبره المصدر مبالغة فى وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة، أو على تقدير مضاف: أى ذوو نجس، لأن معهم الشرك و هو بمنزلة النجس. و قال قتادة و معمر و غيرهما: إنهم وصفوا بذلك؛ لأنهم لا يتطهرون، و لا يغتسلون، و لا يتجنّبون النجاسات.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٣٩٩

و قد استدل بالآية من قال: بأن المشرك نجس الذات، كما ذهب إليه بعض الظاهرية و الزيدية. و روى عن الحسن البصرى و هو محكىّ عن ابن عباس. و ذهب الجمهور من السلف و الخلف و منهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات، لأن اللّه سبحانه أحلّ طعامهم، و ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى ذلك من فعله و قوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل فى آنيتهم، و شرب منها، و توضأ فيها، و أنزلهم فى مسجده. قوله:

فَلا- يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ الفاء للتفريع، فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرّع على نجاستهم. و المراد بالمسجد الحرام جميع الحرم، روى ذلك عن عطاء، فيمنعون عنده من جميع الحرم، و ذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم.

و قد اختلف أهل العلم فى دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد؛ فذهب أهل المدينة إلى منع كلّ مشرك عن كل مسجد. و قال الشافعى: الآية عامة فى سائر المشركين خاصة فى المسجد الحرام، فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد. قال ابن العربى: و هذا جمود منه على الظاهر، لأن قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ تنبيه على العلّة بالشرك و النجاسة، و يجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلّى اللّه عليه و سلّم لثمامة بن أثال فى مسجده، و إنزال وفد ثقيف فيه. و روى عن أبى حنيفة مثل قول الشافعى، و زاد أنه يجوز دخول الذمى سائر المساجد من غير حاجة، و قيده الشافعى بالحاجة. و قال قتادة: إنه يجوز ذلك للذمّى دون المشرك.

و روى عن أبى حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم و المسجد الحرام و سائر المساجد، و نهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنوهم من ذلك، فهو من باب قولهم: لا أرينك هاهنا.

قوله: بَعْدَ عامِهِمْ هذا فيه قولان: أحدهما: أنه سنة تسع، و هى التى حج فيها أبو بكر على الموسم.

و الثانى: أنه سنة عشر، قاله قتادة، قال ابن العربى: و هو الصّحيح الذى يعطيه مقتضى اللفظ، و من العجب أن يقال: إنه سنة تسع، و هو العام الذى وقع فى الأذان، و لو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولاه:

لا- تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذى دخل فيه انتهى. و يجاب عنه بأن الذى يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الإشارة بقوله: بَعْدَ عامِهِمْ هذا إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة و هو عام النداء، و هكذا فى المثال الذى ذكره المراد: النهى عن دخولها بعد يوم الدخول الذى وقع فيه الخطاب، و الأمر ظاهر لا- يخفى، و لعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم و لا شك أنه عام عشر، و أما تفسير العام المشار إليه بهذا، فلا شك و لا ريب أنه عام تسع، و على هذا يحمل قول قتادة. و قد استدلّ من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام و غيره من المساجد بهذا القيد، أعنى قوله:

بَعْدَ عامِهِمْ هذا قائلا- إن النهى مختصّ بوقت الحج و العمرة، فهم ممنوعون عن الحج و العمرة فقط لا- عن مطلق الدخول. و يجاب عنه بأن ظاهر النهى عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان فى كل وقت من الأوقات الكائنة بعده، و تخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص. قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ العيلة:

الفقر، يقال: عال الرجل يعيل: إذا افتقر، قال الشاعر:

و ما يدرى الفقير متى غناه و ما يدرى الغنىّ متى يعيل

فتح القدير، ج٢، ص: ۴۰۰

فتح القدير ج٢ ۴۴۹

و قرأ علقمة و غيره من أصحاب ابن مسعود «عايلة» و هو مصدر كالقائلة و العافية و العاقبة؛ و قيل معناه:

خصلة شاقة، يقال عالنى الأمر يعولنى: أى شقّ علىّ و اشتدّ. و حكى ابن جرير الطبرى أنه يقال عال يعول:

إذا افتقر، و كان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم و هم كانوا يجلبون إليه الأطعمة و التجارات، قذف الشيطان فى قلوبهم الخوف من الفقر و قالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم اللّه أن يغنيهم من فضله. قال الضحاك:

ففتح اللّه عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية، و قال عكرمة:

أغناهم بإدرار المطر و النّبات و خصب الأرض، و أسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم اللّه به. و قيل:

أغناهم بالفىء، و فائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك فى كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل، و لئلا يفتروا عن الدعاء و التضرّع إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بأحوالكم حَكِيمٌ فى إعطائه و منعه، ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف. قال أبو الوفاء بن عقيل: إن قوله: قاتِلُوا أمر بالعقوبة، ثم قال: الَّذِينَ لا- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فبين الذنب الذى توجبه العقوبة، ثم قال: وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فأكد الذنب فى جانب الاعتقاد، ثم قال: وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ فيه زيادة للذنب فى مخالفة الأعمال، ثم قال: وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف و المعاندة و الأنفة عن الاستسلام، ثم قال: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل، ثم قال: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فبين الغاية التى تمتد إليها العقوبة. انتهى قوله: مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بيان للموصول مع ما فى حيزه، و هم أهل التوراة و الإنجيل. قوله: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ الجزية، وزنها فعلة من جزى يجزى: إذا كافأ عما أسدى إليه، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن؛ و قيل: سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه، أى: يقضوه، و هى فى الشرع: ما يعطيه المعاهد على عهده، و عَنْ يَدٍ فى محل نصب على الحال. و المعنى: عن يد مواتية، غير ممتنعة، و قيل: معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحدا؛ و قيل: معناه: نقد غير نسيئة؛ و قيل: عن قهر؛ و قيل: معناه؛ عن إنعام منكم عليهم، لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإنعام عليهم؛ و قيل معناه مذمومون. و قد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعى و أحمد و أبو حنيفة و أصحابه الثورى و أبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب. و قال الأوزاعى و مالك: إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان، و يدخل فى أهل الكتاب على القول الأوّل المجوس، قال ابن المنذر: لا أعلم خلافا فى أن الجزية تؤخذ منهم.

و اختلف أهل العلم فى مقدار الجزية، فقال عطاء: لا مقدار لها، و إنما تؤخذ على ما صولحوا عليه، و به قال يحيى بن آدم و أبو عبيد و ابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار و أكثرها لا حدّ له. و قال الشافعى: دينار على الغنىّ و الفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شىء، و به قال أبو ثور. قال الشافعى: و إن صولحوا على أكثر من دينار جاز، و إذا زادوا و طابت بذلك أنفسهم قبل منهم. و قال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، و أربعون درهما على أهل الورق، الغنىّ و الفقير سواء، و لو كان مجوسيا، لا يزيد

و لا ينقص. و قال

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۱

أبو حنيفة و أصحابه و محمد بن الحسن و أحمد بن حنبل: اثنا عشر و أربعة و عشرون و ثمانية و أربعون، و الكلام فى الجزية مقرّر فى مواطنه، و الحق من هذه الأقوال قد قرّرناه فى شرحنا للمنتقى و غيره من مؤلفاتنا، قوله:

وَ هُمْ صاغِرُونَ فى محلّ نصب على الحال، و الصغار: الذلّ. و المعنى: إن الذمىّ يعطى الجزية حال كونه صاغرا، قيل: و هو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب، و يسلمها و هو قائم، و المتسلم قاعد. و بالجملة ينبغى للقابض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه فى قوله:

إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ الآية قال: إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة. و قد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد و خدمكم». قال ابن كثير: تفرد به أحمد مرفوعا. و الموقوف: أصح. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، و يجيئون معهم بالطعام يتجرون به. فلما نهوا عن أن يأتوا البيت. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل اللّه وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ قال: فأنزل اللّه عليهم المطر، و كثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم. و أخرج ابن مردويه عنه قال: فأغناهم اللّه من فضله و أمرهم بقتال أهل الكتاب. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً قال:

الفاقة. و أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قال: بالجزية.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن الضحاك مثله. و أخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ قال: قذر. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال: من صافحهم فليتوضأ. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من صافح مشركا فليتوضّأ أو ليغسل كفّيه». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه عن مجاهد فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ قال: نزلت هذه الآية حين أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أصحابه بغزوة تبوك. و أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: نزلت فى كفار قريش و العرب وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ* و أنزلت فى أهل الكتاب قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية إلى قوله: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ يعنى: الذين لا يصدّقون بتوحيد اللّه وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ يعنى: الخمر و الحرير وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ يعنى: دين الإسلام مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ يعنى مذللون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: عن قهر. و أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: من يده و لا يبعث بها غيره. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى سنان فى قوله: عَنْ يَدٍ قال: عن قدرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ هُمْ صاغِرُونَ قال: يمشون بها

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۲

متلتلين. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: يلكزون. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سلمان فى الآية قال: غير محمودين.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين، و عزيز: مبتدأ، و ابن اللّه: خبره، و قد قرأ عاصم و الكسائى «عزيز» بالتنوين، و قرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة و العلمية فيه. و من قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا؛ و قيل: إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين، و منه قراءة من قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ- اللَّهُ الصَّمَدُ «١». قال أبو علىّ الفارسى: و هو كثير فى الشعر، و أنشد ابن جرير الطبرى:

لتجدنّى بالأمير برّاو بالقناة مدعسا مكرّا

إذا غطيف السّلمىّ فرّا و ظاهر قوله: وَ قالَتِ الْيَهُودُ إن هذه المقالة لجميعهم، و قيل: هو لفظ خرج على العموم، و معناه: الخصوص؛ لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم. و قال النقاش: لم يبق يهودى يقولها؟ بل قد انقرضوا؛ و قيل: إنه قال ذلك للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم، قوله: وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سببا لهذه المقالة، و الأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكونه فى الإنجيل وصفه تارة بابن اللّه، و تارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك فى مواضع متعددة من الإنجيل، و لم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف و التكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: و هذه المقالة إنما هى لبعض النصارى؛ لا لكلهم. قوله: ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. و وجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم، بأن هذا القول لما كان ساذجا ليس فيه بيان، و لا عضده برهان، كان مجرّد دعوى لا معنى تحتها، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتدّ بها؛ و قيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد،

---

(١). الإخلاص: ١- ٢.

كما فى كتبت بيدى، و مشيت برجلى، و منه قوله تعالى: يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ «١». قوله: وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ «٢». و قال بعض أهل العلم: إن اللّه سبحانه لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه، و الألسن إلا و كان قولا زورا كقوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ «٣»، و قوله: كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ «۴»، و قوله: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ «۵». قوله: يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا المضاهاة: المشابهة، قيل: و منه قول العرب: امرأة ضهياء: و هى التى لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو علىّ الفارسى: من قال: يضاهون مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء فقوله خطأ، لأن الهمزة فى ضاهأ أصلية، و فى ضهياء زائدة كحمراء، و أصله: يضاهئون، و امرأة ضهيأء. و معنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأوّل: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم: اللات و العزى و مناة بنات اللّه. القول الثانى: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إنّ الملائكة بنات اللّه، الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن اللّه و أن المسيح ابن اللّه. قوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم

بالهلاك، لأن من قاتله اللّه هلك؛ و قيل: هو تعجب من شناعة قولهم؛ و قيل: معنى قاتلهم اللّه: لعنهم اللّه، و منه قول أبان بن تغلب:

قاتلها اللّه تلحانى و قد علمت أنّى لنفسى إفسادى و إصلاحى

و حكى النقاش أن أصل «قاتل اللّه»: الدعاء، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه على التعجب فى الخير و الشرّ و هم لا يريدون الدعاء، و أنشد الأصمعى:

يا قاتل اللّه ليلى كيف تعجبنى و أخبر النّاس أنّى لا أباليها

أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ الأحبار: جمع حبر، و هو الذى يحسن القول، و منه ثوب محبّر؛ و قيل: جمع حبر بكسر الحاء، قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء. و قال الفراء: الفتح و الكسر لغتان. و قال ابن السكيت:

الحبر بالكسر: المداد، و الحبر بالفتح العالم. و الرهبان: جمع راهب، مأخوذ من الرهبة، و هم علماء النصارى، كما أن الأحبار علماء اليهود. و معنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به و ينهونهم عنه؛ كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب. قوله: وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ معطوف على رهبانهم، أى: اتخذه النصارى ربا معبودا، و فيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزير ربا معبودا. و فى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد عن التقليد فى دين اللّه، و تأثير ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز و السّنّة المطهّرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله و يستنّ بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، و قامت به حجج اللّه و براهينه، و نطقت به كتبه و أنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود و النصارى للأحبار و الرهبان أربابا من دون اللّه، للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، و حرّموا ما حرّموا، و حللوا ما حللوا. و هذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، و هو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة،

---

(۱). البقرة: ۷۹.

(۲). الأنعام: ۳۸.

(۳). آل عمران: ۱۶۷.

(۴). الكهف: ۵.

(۵). الفتح: ۱۱.

و التمرة بالتمرة، و الماء بالماء؛ فيا عباد اللّه! و يا أتباع محمد بن عبد اللّه ما بالكم تركتم الكتاب و السنة جانبا، و عمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد اللّه لهم بهما، و طلبه منهم للعمل بما دلا عليه و أفاده، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، و لم تعضد بعضد الدين و نصوص الكتاب و السنة، تنادى بأبلغ نداء و تصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك و يباينه، فأعرتموهما آذانا صما، و قلوبا غلفا، و أفهاما مريضة، و عقولا مهيضة، و أذهانا كليلة، و خواطر عليلة، و أنشدتم بلسان الحال:

و ما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت و إن ترشد غزيّة أرشد

فدعوا أرشدكم اللّه و إياى كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، و استبدلوا بها كتاب اللّه خالقهم و خالقكم، و متعبدهم و متعبدكم، و معبودهم و معبودكم، و استبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم و ما جاءوكم به من الرأى بأقوال إمامكم و إمامهم و قدوتكم و قدوتهم، و هو الإمام الأوّل محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

دعوا كلّ قول عند قول محمّدفما آمن فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا إلى الحق، و أرشدنا إلى الصواب، و أوضح لنا منهج الهداية. قوله: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى:

اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا، و الحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة اللّه وحده، أو ما أمر الذين اتخذوهم أربابا من الأحبار و الرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابا؟ قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ صفة ثانية لقوله إلها سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: تنزيها له عن الإشراك فى طاعته و عبادته. قوله:

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ هذا كلام يتضمّن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم و بعدهم عن الحق، و هو ما راموه من إبطال الحق بأقاويلهم الباطلة التى هى مجرّد كلمات ساذجة و مجادلات زائفة، و هذا تمثيل لحالهم فى محاولة إبطال دين الحق و نبوّة نبىّ الصدق، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم قد أنارت به الدنيا، و انقشعت به الظلمة؛ ليطفئه و يذهب أضواءه وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ أى: دينه القويم، و قد قيل: كيف دخلت إلا الاستثنائية على يأبى؟ و لا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا. قال الفرّاء: إنما دخلت لأن فى الكلام طرفا من الجحد. و قال الزّجّاج: إن العرب تحذف مع «أبى»، و التقدير: و يأبى اللّه كلّ شىء إلا أن يتم نوره، و قال على بن سليمان: إنما جاز هذا فى «أبى»؛ لأنها منع أو امتناع فضارعت النفى. قال النحاس: و هذا أحسن كما قال الشاعر:

و هل لى أمّ غيرها إن تركتهاأبى اللّه إلا أن أكون لها ابنما

و قال صاحب الكشاف: إن «أبى» قد أجرى مجرى لم يرد؛ أى: و لا يريد إلا أن يتمّ نوره. قوله:

وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ معطوف على جملة قبله مقدرة، أى: أبى اللّه إلا أن يتمّ نوره و لو لم يكره الكافرون ذلك و لو كرهوا، ثم أكد هذا بقوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى أى: بما يهدى به الناس من البراهين و المعجزات و الأحكام التى شرعها اللّه لعباده وَ دِينِ الْحَقِ و هو الإسلام لِيُظْهِرَهُ أى: ليظهر

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٠٥

رسوله، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج و البراهين، و قد وقع ذلك و للّه الحمد وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الكلام فيه كالكلام فى وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ كما قدّمنا ذلك.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سلام بن مشكم، و نعمان بن أوفى، و أبو أنس، و شاس بن قيس، و مالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك و قد تركت قبلتنا و أنت لا تزعم أن عزير ابن اللّه؟ فأنزل اللّه وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عنه قال: كنّ نساء بنى إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين و يعتزلن و يذكرن ما فضل اللّه به بنى إسرائيل و ما أعطاهم، ثم سلّط عليهم شرّ خلقه بختنصر، فحرق التوراة و خرّب بيت المقدس، و عزير يومئذ غلام، فقال عزير: أو كان هذا؟ فلحق بالجبال و الوحش فجعل يتعبّد فيها، و جعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر و هى تبكى. فقال: يا أمه! اتقى اللّه، و احتسبى، و اصبرى، أ ما تعلمين أنّ سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزيز! أ تنهانى أن أبكى و أنت قد خلفت بنى إسرائيل و لحقت بالجبال و الوحش؟ ثم قالت: إنى لست بامرأة و لكنّى الدنيا، و إنه سينبع فى مصلّاك عين و تنبت شجرة، فاشرب من ماء العين، و كل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا؛ فلما كان من الغد نبعت العين و نبتت الشجرة، فشرب من ماء العين و أكل من ثمرة الشجرة، و جاء ملكان و معهما قارورة فيها نور، فأوجراه ما فيها: فألهمه اللّه التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن اللّه، تعالى اللّه عن ذلك. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فذكر قصة

و فيها: أن عزير سأل اللّه بعد ما أنسى بنى إسرائيل التوراة؛ و نسخها من صدورهم؛ أن يردّ الذى نسخ من صدره. فبينما هو يصلى نزل نور من اللّه عزّ و جلّ فدخل جوفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن فى قومه فقال: يا قوم! قد آتانى اللّه التوراة و ردّها إلىّ. و أخرج أبو الشيخ عن كعب قال: دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى فى قلبه، فأنزلها اللّه عليه، فبعد ذلك قالوا: عزير ابن اللّه. و أخرج ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدرى عزير كان نبيا أو لا؟ و لا أدرى ألعن تبع أم لا؟ قال: و نسيت الثالثة. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُضاهِؤُنَ قال: يشبهون. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه فى قوله: قاتَلَهُمُ اللَّهُ قال: لعنهم اللّه، و كلّ شىء فى القرآن قتل فهو: لعن. و أخرج ابن سعد، و عبد بن حميد، و الترمذى و حسّنه، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن عدى بن حاتم قال: أتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقرأ فى سورة براءة: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، و لكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه. و أخرجه أيضا أحمد و ابن جرير. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى فى سننه، عن أبى البحترى قال: سأل رجل حذيفة فقال:

أ رأيت قوله: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ أ كانوا يعبدونهم؟ قال: لا، و لكنهم

كانوا إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه، و إذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الضحّاك قال: أحبارهم: قراؤهم، و رهبانهم: علماؤهم. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال:

الأحبار من اليهود، و الرهبان من النّصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله. و أخرج أيضا عن الفضيل ابن عياض قال: الأحبار: العلماء، و الرهبان: العباد. و أخرج أيضا عن السدّى فى قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ قال: يريدون أن يطفئوا الإسلام بأقوالهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحّاك فى قوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ يقول: يريدون أن يهلك محمد و أصحابه. و أخرج عبد بن حميد، و ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: هم اليهود و النصارى. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى يعنى: بالتوحيد و الإسلام و القرآن.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵)

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار و الرهبان و المتّخذين لهم أربابا؛ ذكر حال المتبوعين فقال:

إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ إلى آخره، و معنى أكلهم لأموال الناس بالباطل: أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة، و أثبت هذا للكثير منهم، لأن فيهم من لم يتلبّس بذلك، بل بقى على ما يوجبه دينه من غير تحريف، و لا تبديل، و لا ميل إلى حطام الدّنيا، و لقد اقتدى بهؤلاء الأحبار و الرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان، فاللّه المستعان. قوله: وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: عن الطريق إليه، و هو دين الإسلام، أو عن ما كان حقا فى شريعتهم قبل نسخها، بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل. قوله:

وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قيل: هم المتقدّم ذكرهم من الأحبار و الرهبان، و إنهم كانوا يصنعون هذا الصنع؛ و قيل: هم

من يفعل ذلک من المسلمين، و الأولى: حمل الآية على عموم اللفظ، فهو أوسع من ذلک، و أصل الكنز فى اللغة: الضمّ و الجمع، و لا يختصّ بالذّهب و الفضّة. قال ابن جرير: الكنز كلّ شيء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها انتهى. و منه ناقة كناز: أى مكتنزة اللحم، و اكتنز الشيء: اجتمع.

و اختلف أهل العلم فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، و قال آخرون:

ليس بكنز. و من القائلين بالقول الأوّل أبو ذرّ. و قيده بما فضل عن الحاجة. و من القائلين بالقول الثانى عمر ابن الخطاب و ابن عمر و ابن عباس و جابر و أبو هريرة و عمر بن عبد العزيز و غيرهم، و هو الحق لما سيأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز. قوله وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ اختلف فى وجه إفراد

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۷

الضمير مع كون المذكور قبله شيئين، هما الذهب و الفضة، فقال ابن الأنبارى: إنه قصد إلى الأعمّ الأغلب و هو الفضة قال: و مثله قوله تعالى وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ «۱» ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، و مثله قوله وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «۲» أعاد الضمير إلى التجارة، لأنها الأهمّ؛ و قيل:

إن الضمير راجع إلى الذهب و الفضة معطوفة عليه، و العرب تؤنث الذهب و تذكره؛ و قيل: إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله يَكْنِزُونَ و قيل: إلى الأموال، و قيل: للزكاة، و قيل: إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى، و هو كثير فى كلام العرب، و أنشد سيبويه:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرأى مختلف

و لم يقل راضون، و مثله قول الآخر:

رمانى بأمر كنت منه و والدىبريئا و من أجل الطّوىّ رمانى

و لم يقل بريئين، و مثله قول حسان:

إنّ شرح الشّباب و الشّعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

و لم يقل يعاصيا. و قيل: إن إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب و الفضة جملة وافية، و عدّة كثيرة، و دنانير و دراهم، فهو كقوله وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا «۳» و إنما خصّ الذهب و الفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمن الأشياء، و غالب ما يكنز، و إن كان غيرهما له حكمهما فى تحريم الكنز. قوله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ هو خبر الموصول، و هو من باب التهكّم بهم، كما فى قوله:

تحّية بينهم ضرب وجيع و قيل: إنّ البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب، سواء كان من الفرح أو من الغمّ.

و معنى يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ أن النار توقد عليها و هى ذات حمى و حرّ شديد، و لو قال يوم تحمى: أى الكنوز، لم يعط هذا المعنى، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذف النار و أسند الفعل إلى الجارّ كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير، و قرأ ابن عامر تحمى بالمثناة الفوقية. و قرأ أبو حيوة فيكوى بالتحتية. و خص الجباه و الجنوب و الظهور، لكون التألم بكيها أشدّ، لما فى داخلها من الأعضاء الشريفة، و قيل: ليكون الكىّ فى الجهات الأربع: من قدّام، و خلف، و عن يمين، و عن يسار؛ و قيل: لأن الجمال فى الوجه، و القوّة فى الظهر و الجنبين، و الإنسان إنما يطلب المال للجمال و القوّة؛ و قيل: غير ذلک، مما لا يخلو عن تكلف. قوله: هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أى:

يقال لهم ما كنزتم لأنفسكم، أى: كنزتموه لتنتفعوا به، فهذا نفعه على طريقة التهكم، و التوبيخ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ما مصدرية أو موصولة؛ أى: ذوقوا وباله، و سوء عاقبته، و قبح مغبّته، و شؤم فائدته.

(۱). البقرة: ۴۵.

(۲). الجمعة: ۱۱.

(۳). الحجرات: ۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۰۸

و قد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ يعنى علماء اليهود و النصارى لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ و الباطل: كتب كتبوها لم ينزلها اللّه فأكلوا بها أموال الناس، و ذلك قول اللّه تعالى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «۱». و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال: هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم، و كلّ مال لا- تؤدى زكاته، كان على ظهر الأرض، أو فى بطنها فهو كنز، و كلّ مال أدّيت زكاته فليس بكنز، كان على ظهر الأرض، أو فى بطنها. و أخرجه عنه ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ من وجه آخر: و أخرج مالك و ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر نحوه. و أخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا. و أخرج ابن عدّى و الخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا. و أخرجه ابن أبى شيبة عنه موقوفا. و أخرج أحمد فى الزهد، و البخارى و ابن ماجة و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عمر فى الآية قال: إنما كان هذا قبل أن تنزل الزّكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها اللّه طهرة للأموال، ثم قال: ما أبالى لو كان عند مثل أحد ذهبا أعلم عدده و أزكيه، و أعمل فيه بطاعات اللّه، و أخرج ابن أبى شيبة و أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال: ليس بكنز ما أدّى زكاته. و أخرج ابن مردويه و البيهقى عن أمّ سلمة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة فى مسنده و أبو داود و أبو يعلى و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ كبر ذلك على المسلمين، و قالوا: ما يستطيع أحد منا لولده مالا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر و اتبعه ثوبان فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا نبى اللّه إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال:

إن اللّه لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، و إنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، فكبر عمر، ثم قال له النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: ألا- أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرّته، و إذا أمرها أطاعته، و إذا غاب عنها حفظته. و قد أخرجه أحمد، و الترمذى و حسّنه، و ابن ماجة عن سالم ابن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان. و حكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال: هم أهل الكتاب، و قال: هى خاصة و عامة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة و ما فوقها كنز. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى عن أبى أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز، ما أحدّثكم إلا ما سمعت.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عراك بن مالك و عمر بن عبد العزيز أنهما قالا- فى قوله: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ إنها نسختها الآية الأخرى خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً الآية. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال «ما من صاحب ذهب و لا فضّة لا يؤدّى زكاتها إلا جعلها يوم القيامة صفائح، ثم أحمى عليها فى نار جهنم، ثم يكوى بها جنباه و جبهته و ظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، إمّا إلى الجنة، و إمّا إلى النار». و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن وهب قال: مررت على أبى ذرّ بالرّبذة فقلت:

(١). البقرة: ٧٩.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٠٩

ما أنزلك بهذه الأرض؟ فقال: كنا بالشام فقرأت وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ الآية، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا فى أهل الكتاب، قلت: إنّها لفينا و فيهم.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٣٧)

قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً هذا كلام مبتدأ يتضمّن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار، و ذلك أنّ اللّه سبحانه لما حكم فى كلّ وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسىء و الكبيسة، فأخبرنا اللّه بما هو حكمه فقال إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ أى: عدد شهور السنة عند اللّه فى حكمه و قضائه و حكمته اثنا عشر شهرا. قوله: فِي كِتابِ اللَّهِ أى: فيما أثبته فى كتابه. قال أبو على الفارسى: لا يجوز أن يتعلّق فى كتاب اللّه بقوله: عدّة الشهور، للفصل بالأجنبى و هو الخبر؛ أعنى اثنا عشر شهرا؛ فقوله:

فى كتاب اللّه، و قوله: يوم خلق، بدل من قوله: عند اللّه، و التقدير: إن عدّة الشهور عند اللّه فى كتاب اللّه يوم خلق السّموات و الأرض. و فائدة الإبدالين: تقرير الكلام فى الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند اللّه فى كتاب اللّه، و ثابت فى علمه فى أوّل ما خلق اللّه العالم. و يجوز أن يكون فى كتاب اللّه:

صفة اثنا عشر: أى: اثنا عشر مثبتة فى كتاب اللّه و هو اللوح المحفوظ. و فى هذه الآية بيان أن اللّه سبحانه وضع هذه الشهور و سمّاها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات و الأرض، و أن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء و نزلت به الكتب، و أنه لا اعتبار بما عند العجم و الروم و القبط من الشهور التى يصطلحون عليها و يجعلون بعضها ثلاثين يوما، و بعضها أكثر، و بعضها أقلّ. قوله مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ هى: ذى القعدة، و ذو الحجة، و المحرم، و رجب، ثلاثة سرد، و واحد فرد، كما ورد بيان ذلك فى السنة المطهرة. قوله: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أى: كون هذه الشهور كذلك، و منها أربعة حرم، هو الدين المستقيم، و الحساب الصحيح، و العدد المستوفى. قوله: فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ أى: فى هذه الأشهر الحرم، بإيقاع القتال فيها، و الهتك لحرمتها؛ و قيل: إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها؛ الحرم و غيرها، و إن اللّه نهى عن الظّلم فيها، و الأوّل أولى. و قد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنّ تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية، و لقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ «١» و لقوله: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الآية.

و قد ذهب جماعة آخرون إلى أنّ تحريم القتال فى الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف. و يجاب عنه بأن الأمر

---

(١). المائدة: ٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤١٠

بقتل المشركين و مقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما فى الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم، كما هى مقيدة بتحريم القتال فى الحرم للأدلة الواردة فى تحريم القتال فيه، و أما ما

استدلوا به من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم حاصر أهل الطائف فى شهر حرام و هو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين و غيرهما، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم فى ذى القعدة بل فى شوّال، و المحرّم إنما هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمامه، و بهذا يحصل الجمع. قوله: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أى:

جميعا، و هو مصدر فى موضع الحال. قال الزجاج: مثل هذا من المصادر: كعامة، و خاصة، لا يثنى و لا يجمع كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً أى: جميعا. و فيه دليل على وجوب قتال المشركين، و أنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ أى: ينصرهم و يثبتهم، و من كان اللّه معه فهو الغالب، و له العاقبة و الغلبة، قوله إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ قرأ نافع فى رواية ورش عنه النسىّ بياء مشدّدة بدون همز. و قرأ الباقون بياء بعدها همزة. قال النّحاس: و لم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده، و هو مشتق من نسأه و أنسأه: إذا أخّره، حكى ذلك الكسائى. قال الجوهرى: النسىء فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشىء فهو منسوء: إذا أخّرته، ثم تحوّل منسوء إلى نسىء كما تحوّل مقتول إلى قتيل. قال ابن جرير: فى النسىء بالهمزة معنى: الزيادة، يقال: نسأ ينسأ: إذا زاد، قال: و لا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ و ردّ على نافع قراءته. و كانت العرب تحرّم القتال فى الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها و حرّموا غيرها، فإذا قاتلوا فى المحرّم حرّموا بدله شهر صفر، و هكذا فى غيره، و كان الذى يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض، و نهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، و يقع بينهم بسبب ذلك القتال. و كانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها و تشتدّ حاجتهم و تعظم فاقتهم، فيحللون بعضها و يحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم، فهذا هو معنى النسىء الذى كانوا يفعلونه. و قد وقع الخلاف فى أوّل من فعل ذلك فقيل هو رجل من بنى كنانة يقال له: حذيفة بن عتيد، و يلقب: القلمس، و إليه يشير الكميت بقوله:

ألسنا النّاسئين على معدّشهور الحلّ نجعلها حراما

و فيه يقول قائلهم:

و منّا ناسئ الشّهر القلمّس و قيل: هو عمرو بن لحىّ، و قيل: هو نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة. و سمّى اللّه سبحانه النسىء زيادة فى الكفر لأنه نوع من أنواع كفرهم، و معصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم باللّه و كتبه و رسله و اليوم الآخر. قوله يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا قرأ أهل الحرمين و أبو عمرو و ابن عامر يضل على البناء للمعلوم. و قرأ الكوفيون على البناء للمجهول، و معنى القراءة الأولى: أن الكفار يضلون بما يفعلونه من النسىء، و معنى القراءة الثانية: أن الذى سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، و قد اختار القراءة

فتح القدير، ج٢، ص: ٤١١

الأولى أبو حاتم، و اختار القراءة الثانية أبو عبيد. و قرأ الحسن و أبو رجاء و يعقوب: يضل بضم الياء و كسر الضاد على أن فاعله الموصول، و مفعوله محذوف، و يجوز أن يكون فاعله هو اللّه سبحانه و مفعوله الموصول. و قرئ بفتح الياء و الضاد من ضلّ يضلّ. و قرئ نضلّ بالنون. قوله يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً الضمير راجع إلى النسىء، أى: يحلون النسىء عاما و يحرّمونه عاما، أو إلى الشهر الذى يؤخرونه و يقاتلون فيه، أى: يحلونه عاما بإبداله بشهر آخر من شهور الحل، و يحرّمونه عاما، أى: يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال، بل يبقونه على حرمته. قوله: لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ أى: لكى يواطئوا، و المواطأة: الموافقة، يقال: تواطأ القوم على كذا: أى: توافقوا عليه و اجتمعوا. و المعنى: إنهم لم يحلوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة. قال قطرب: معناه: عمدوا إلى صفر فزادوه فى الأشهر الحرم و قرنوه بالمحرّم فى التحريم. و كذا قال الطبرى. قوله: فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ أى: من الأشهر الحرم التى أبدلوها بغيرها زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ أى: زيّن لهم الشيطان الأعمال السّيئة التى يعملونها. و من

جملتها النسىء. و قرئ على البناء للفاعل وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ أى: المصرّين على كفرهم، المستمرين عليه، فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب. و أما الهداية بمعنى الدلالة على الحق و الإرشاد إليه فقد نصبها اللّه سبحانه لجميع عباده.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى بكر أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطب فى حجته قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السّموات و الأرض، السّنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرّم، و رجب مضر الذى بين جمادى و شعبان». و أخرج نحوه ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه من حديث ابن عمر. و أخرج نحوه ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه من حديث ابن عباس. و أخرج نحوه أيضا البزار و ابن جرير و ابن مردويه من حديث أبى هريرة.

و أخرجه أحمد و ابن مردويه من حديث أبى حرة الرقاشى عن عمه مرفوعا مطوّلا. و أخرج سعيد بن منصور و ابن مردويه عن ابن عباس مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ قال: المحرّم، و رجب، و ذو القعدة، و ذو الحجة.

و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: إنما سمّين حرما لئلا يكون فيهنّ حرب. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الشّعب، عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ ثم اختصّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهنّ حرما، و عظّم حرماتهنّ. و جعل الدّين فيهنّ أعظم، و العمل الصّالح و الأجر أعظم فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ قال: كلهنّ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً يقول جميعا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مقاتل فى قوله وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً قال: نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كانت العرب يحلون عاما شهرا و عاما شهرين، و لا يصيبون الحجّ إلا فى كلّ عشرين سنة مرة، و هى النسىء الذى ذكره اللّه فى كتابه، فلما كان عام حجّ أبو بكر بالناس وافق ذلك العام، فسمّاه اللّه الحجّ الأكبر، ثم حج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من العام المقبل، و استقبل الناس الأهلة، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

«إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات و الأرض». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر قال: وقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالعقبة فقال: «إنّما النّسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما و يحرّمونه عاما، فكانوا يحرّمون المحرّم عاما و يستحلّون صفر، و يحرّمون صفر عاما و يستحلّون المحرّم، و هى النّسىء». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان جنادة بن عوف الكنانى يوافى الموسم كلّ عام، و كان يكنى أبا ثمامة، فينادى: ألا إن أبا ثمامة لا يحاب و لا يعاب، ألا و إن صفر الأوّل العام حلال فيحلّه للناس، فيحرّم صفر عاما، و يحرّم المحرّم عاما. فذلك قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال: المحرّم كانوا يسمّونه صفر، و صفر يقولون صفران الأوّل و الآخر، يحلّ لهم مرّة الأوّل، و مرّة الآخر. و أخرج ابن مردويه عنه قال: كانت النساة حيا من بنى مالك من كنانة من بنى فقيم، فكان آخرهم رجلا يقال له القلمّس، و هو الذى أنسأ المحرم.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۳۸ الى ۴۲]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (۳۸) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْ‌ءٍ قَدِيرٌ (۳۹) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰) انْفِرُوا

خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۴۲)

قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لما شرح معايب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين فى قتالهم، و الاستفهام فى ما لَكُمْ للإنكار و التوبيخ، أى: أىّ شىء يمنعكم عن ذلك، و لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابا لمن تخلف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة تبوك، و كانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، و النفر:

هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث. قوله: اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أصله تثاقلتم، أدغمت التاء فى الثاء لقربها منها، و جىء بألف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن، و مثله: ادّاركوا، و اطيرتم، و اطيروا، و أنشد الكسائى:

تولى الضّجيع إذا ما استافها خصراعذب المذاق إذا ما اتّابع القبل

و قرأ الأعمش تثاقلتم على الأصل، و معناه تباطأتم، و عدّى بإلى لتضمنه معنى الميل و الإخلاد؛

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۳

و قيل: معناه: ملتم إلى الإقامة بأرضكم، و البقاء فيها، و قرئ آثاقلتم على الاستفهام، و معناه التوبيخ، و العامل فى الظرف ما فى ما لَكُمْ من معنى الفعل، كأنه قيل: ما يمنعكم؟ أو ما تصنعون إذا قيل لكم؟

و إِلَى الْأَرْضِ متعلق باثاقلتم و كما مرّ. قوله أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا أى: بنعيمها بدلا من الآخرة، كقوله تعالى: وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ «۱» أى: بدلا منكم، و مثله قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربةمبرّدة باتت على طهيان

أى: بدلا من ماء زمزم، و الطهيان: عود ينصب فى ناحية الدار للهواء يعلق عليه ليبرد، و معنى فِي الْآخِرَةِ أى: فى جنب الآخرة، و فى مقابلها إِلَّا قَلِيلٌ أى: إلا متاع حقير لا يعبأ به، و يجوز أن يراد بالقليل: العدم، إذ لا نسبة للمتناهى الزائل إلى غير المتناهى الباقى، و الظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعا على التباطؤ و التثاقل، و إنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل، و هو كثير شائع. قوله إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ هذا تهديد شديد، و وعيد مؤكّد لمن ترك النفير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً أى: يهلككم بعذاب شديد مؤلم؛ قيل: فى الدنيا فقط، و قيل: هو أعم من ذلك. قوله وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ أى: يجعل لرسله بدلا منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم.

و اختلف فى هؤلاء القوم من هم. فقيل: أهل اليمن، و قيل: أهل فارس، و لا وجه للتعيين بدون دليل.

قوله: وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً معطوف على يَسْتَبْدِلْ و الضمير قيل: للّه، و قيل: للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى:

و لا تضرّوا اللّه بترك امتثال أمره بالنفير شيئا، أو تضرّوا رسول اللّه بترك نصره، و النفير معه شيئا وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة مقدوراته تعذيبكم، و الاستبدال بكم. قوله: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ أى: إن تركتم نصره فاللّه سيتكفل به، فقد نصره فى مواطن القلة، و أظهره على عدوه بالغلبة و القهر؛ أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه ثانِيَ اثْنَيْنِ أى: أحد اثنين، و هما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه. قرئ بسكون الياء. قال ابن جنى:

حكاها أبو عمرو بن العلاء، و وجهها أن تسكن الياء تشبيها لها بالألف. قال ابن عطية: فهى كقراءة الحسن:

ما بقى من الربا. و كقول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكمماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

قوله: إِذْ هُما فِي الْغارِ بدل من إِذْ أَخْرَجَهُ بدل بعض، و الغار: ثقب فى الجبل المسمى ثورا، و هو المشهور بغار ثور، و هو جبل قريب من مكة، و قصة خروجه صلّى اللّه عليه و سلّم من مكة إلى المدينة هو و أبو بكر و دخولهما الغار مشهورة مذكورة فى كتب السير و الحديث. قوله إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ بدل ثان، أى: وقت قوله لأبى بكر: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا أى: دع الحزن فإن اللّه بنصره و عونه و تأييده معنا، و من كان اللّه معه فلن يغلب، و من لا يغلب فيحق له أن لا يحزن، قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ السكينة: تسكين جأشه و تأمينه حتى ذهب روعه و حصل له الأمن، على أنّ الضمير فى عَلَيْهِ لأبى

---

(١). الزخرف: ۶٠.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۴

بكر؛ و قيل: هو للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و يكون المراد بالسكينة النازلة عليه: عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له، و يؤيد كون الضمير فى عَلَيْهِ للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم الضمير فى وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها فإنه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه المؤيد بهذه الجنود التى هى الملائكة كما كان فى يوم بدر؛ و قيل: إنه لا محذور فى رجوع الضمير من عَلَيْهِ إلى أبى بكر و من وَ أَيَّدَهُ إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن ذلك كثير فى القرآن و فى كلام العرب وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى أى: كلمة الشرك، و هى دعوتهم إليه، و نداؤهم للأصنام وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا قرأ الأعمش و يعقوب بنصب كلمة حملا على جعل، و قرأ الباقون برفعها على الاستئناف.

و قد ضعف قراءة النصب الفراء و أبو حاتم، و فى ضمير الفصل، أعنى: هِيَ تأكيد لفضل كلمته فى العلوّ و أنها المختصة به دون غيرها، و كلمة اللّه: هى كلمة التوحيد، و الدعوة إلى الإسلام وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أى: غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة و صواب، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم، و ضرب له من الأمثال ما ذكره عقبه بالأمر الجزم فقال: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا أى: حال كونكم خفافا و ثقالا، قيل: المراد منفردين أو مجتمعين، و قيل: نشاطا و غير نشاط، و قيل: فقراء و أغنياء، و قيل:

شبابا و شيوخا، و قيل: رجالا و فرسانا، و قيل: من لا عيال له و من له عيال؛ و قيل: من يسبق إلى الحرب كالطلائع، و من يتأخر كالجيش، و قيل غير ذلك. و لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى، لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت. قيل: و هذه الآية منسوخة بقوله تعالى لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى و قيل: الناسخ لها قوله فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ الآية، و قيل: هى محكمة و ليست بمنسوخة، و يكون إخراج الأعمى و الأعرج بقوله لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ* «١» و إخراج الضعيف و المريض بقوله لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى من باب التخصيص، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: خِفافاً وَ ثِقالًا و الظاهر عدم دخولهم تحت العموم.

قوله: وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس و الأموال و إيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، و الأغنياء بأموالهم و أنفسهم. و الجهاد من آكد الفرائض و أعظمها، و هو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدوّ و بدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدوّ إلا جميع المسلمين فى قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين، و الإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى ما تقدّم من الأمر بالنفير و الأمر بالجهاد خَيْرٌ لَكُمْ أى: خير عظيم فى نفسه، و خير من السكون و الدعة إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلك، و تعرفون الأشياء الفاضلة و تميزونها عن المفضولة. قوله: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ قال الزجاج: لو كان المدعو إليه، فحذف لدلالة ما تقدّم عليه، و العرض: ما يعرض من منافع الدنيا. و المعنى: غنيمة قريبة غير بعيدة وَ سَفَراً قاصِداً عطف على ما قبله، أى: سفرا متوسطا بين القرب و البعد، و كل متوسط بين الإفراط و التفريط فهو قاصد وَ لكِنْ

بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ قال أبو عبيدة و غيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه: شقّة شاقة. قال الجوهرى: الشقّة بالضم من الثياب، و الشّقّة أيضا: السفر البعيد، و ربما قالوه بالكسر، و المراد بهذه غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة،

---

(۱). الفتح: ۱۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۱۵

و قرأ عيسى بن عمر بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ بكسر العين و الشين وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أى: المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونهم قائلين لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ أى: لو قدرنا على الخروج و وجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بدّ منه لَخَرَجْنا مَعَكُمْ هذه الجملة سادّة مسدّ جواب القسم و الشرط. قوله:

يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ هو بدل من قوله: سَيَحْلِفُونَ لأن من حلف كاذبا فقد أهلك نفسه، أو يكون حالا: أى مهلكين أنفسهم، موقعين لها موقع الهلاك وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى حلفهم الذى سيحلفون به لكم.

و قد أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا الآية، قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، و حين أمرهم بالنّفير فى الصّيف، و حين خرفت النخل، و طابت الثمار، و اشتهوا الظلال، و شقّ عليهم المخرج، فأنزل اللّه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا و أخرج أبو داود، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: استنفر حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأنزل اللّه هذه الآية فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً و قد كان تخلف عنه أناس فى البدو يفقهون قومهم، فقال المؤمنون: قد بقى ناس فى البوادى، و قالوا هلك أصحاب البوادى، فنزلت: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج أبو داود، و ابن أبى حاتم، و النحاس، و البيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله إِلَّا تَنْفِرُوا الآية قال:

نسختها وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ قال: ذكر ما كان من أوّل شأنه حين بعث، يقول: فأنا فاعل ذلك به، و ناصره كما نصرته إذ ذاك و هو ثانى اثنين. و أخرج أبو نعيم، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن شهاب و عروة: أنهم ركبوا فى كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و بعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم و يجعلون لهم الجعل العظيم، و أتوا على ثور: الجبل الذى فيه الغار، و الذى فيه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، حتى طلعوا فوقه، و سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر و أقبل عليه الهمّ و الخوف، فعند ذلك يقول له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا و دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت عليه السكينة من اللّه فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ الآية. و أخرج ابن شاهين و ابن مردويه و ابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال: قال أبو بكر: يا رسول اللّه! لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا، فقال:

يا أبا بكر لا تحزن إن اللّه معنا. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الزهرى فى قوله: إِذْ هُما فِي الْغارِ قال: هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، و ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ قال:

على أبى بكر لأن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم لم تزل معه السكينة. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: دخل النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أبو

بكر غار ثور، فقال أبو بكر للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى و إياك، فقال صلّى اللّه عليه و سلّم:
«ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما يا أبا بكر؟! إن اللّه أنزل سكينته عليك و أيدنى بجنود لم يروها». و أخرج الخطيب فى تاريخه عن حبيب بن أبى ثابت: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ قال: على أبى بكر، فأما النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقد كانت عليه السكينة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى عن ابن عباس فى قوله: وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى قال: هى الشرك باللّه وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا قال: لا إله إلا اللّه. و أخرج الفريابى و أبو الشيخ عن أبى الضحى قال: أوّل ما أنزل من براءة انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا ثم نزل أوّلها و آخرها.
و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن أبى مالك نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: خِفافاً وَ ثِقالًا قال: نشاطا و غير نشاط. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، عن الحكم فى الآية قال: مشاغيل و غير مشاغيل. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الحسن قال: فى العسر و اليسر.
و أخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال: فتيانا و كهولا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن عكرمة قال:
شبابا و شيوخا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: قالوا إن فينا الثقيل و ذا الحاجة و الضيعة و الشغل فأنزل اللّه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا و أبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا و ثقالا، و على ما كان منهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد، و كان عظيما سمينا، فشكا إليه و سأله أن يأذن له فأبى، فنزلت: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا فلما نزلت هذه الآية اشتدّ على الناس شأنها فنسخها اللّه، فقال: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى الآية. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قيل له: أ لا تغزو بنى الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم؟
فقال رجلان: قد علمت يا رسول اللّه! أن النساء فتنة فلا تفتنا بهنّ فأذن لنا، فأذن لهما، فلما انطلقا قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأوّل آكل، فسار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم ينزل عليه شىء فى ذلك، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه و هو على بعض المياه لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ و نزل عليه:
عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ و نزل عليه: إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و نزل عليه: إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً قال: غنيمة قريبة، وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ قال: المسير. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ قال: لقد كانوا يستطيعون الخروج، و لكن كان تبطئة من عند أنفسهم، و زهادة فى الجهاد.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (۴۳) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵) وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۴۷)
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (۴۸) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۴۹)

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۴۱۷

الاستفهام فی: عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ للإنکار من اللّه تعالی علی رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم حیث وقع منه الإذن لمن استأذنه فی القعود، قبل أن یتبیّن من هو صادق منهم فی عذره الذی أبداه، و من هو کاذب فیه.

و فی ذکر العفو عنه صلّی اللّه علیه و سلّم ما یدل علی أن هذا الإذن الصادر منه کان خلاف الأولی، و فی هذا عتاب لطیف من اللّه سبحانه؛ و قیل: إن هذا عتاب له صلّی اللّه علیه و سلّم فی إذنه للمنافقین بالخروج معه، لا فی إذنه لهم بالقعود عن الخروج. و الأوّل أولی، و قد رخص له سبحانه فی سورة النور بقوله: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «۱» و یمکن أن یجمع بین الآیتین بأن العتاب هنا متوجّه إلی الإذن قبل الاستثبات حتی یتبین الصادق من الکاذب، و الإذن هنالک متوجه إلی الإذن بعد الاستثبات و اللّه أعلم. و قیل: إن قوله عَفَا اللَّهُ عَنْکَ هی افتتاح کلام کما تقول: أصلحک اللّه، و أعزّک، و رحمک، کیف فعلت کذا؟ و کذا حکاه مکّی و النحّاس و المهدوی، و علی هذا التأویل یحسن الوقف علی عفا اللّه عنک، و علی التأویل الأوّل لا یحسن. و لا یخفاک أن التفسیر الأوّل هو المطابق لما یقتضیه اللفظ علی حسب اللغة العربیة، و لا وجه لإخراجه عن معناه العربی.

و فی الآیة دلیل علی جواز الاجتهاد منه صلّی اللّه علیه و سلّم، و المسألة مدوّنة فی الأصول، و فیها أیضا: دلالة علی مشروعیة الاحتراز عن العجلة و الاغترار بظواهر الأمور، و حَتَّی فی حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا للغایة، کأنه قیل: لم سارعت إلی الإذن لهم؟ و هلا تأنیت حتی یتبین لک صدق من هو صادق منهم فی العذر الذی أبداه، و کذب من هو کاذب منهم فی ذلک؟ ثم ذکر سبحانه أنه لیس من عادة المؤمنین أن یستأذنوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی القعود عن الجهاد، بل کان من عادتهم أنه صلّی اللّه علیه و سلّم إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق علیه ذلک.

فقال: لا یَسْتَأْذِنُکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أَنْ یُجاهِدُوا و هذا علی أن معنی الآیة أن لا یجاهدوا، علی حذف حرف النفی؛ و قیل المعنی: لا یستأذنک المؤمنون فی التخلف کراهة الجهاد؛ و قیل: إن معنی الاستئذان فی الشیء الکراهة له، و أما علی ما یقتضیه ظاهر اللفظ فالمعنی: لا یستأذنک المؤمنون فی الجهاد بل دأبهم أن یبادروا إلیه من غیر توقف و لا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منک فضلا عن أن یستأذنوک فی التخلف.

قال الزجاج: أن یجاهدوا فی موضع نصب بإضمار فی: أی فی أن یجاهدوا وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالْمُتَّقِینَ و هم هؤلاء الذین لم یستأذنوا إِنَّما یَسْتَأْذِنُکَ فی القعود عن الجهاد، و التخلف عنه الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ و هم المنافقون، و ذکر الإیمان باللّه أوّلا، ثم بالیوم الآخر ثانیا فی الموضعین، لأنهما الباعثان علی الجهاد فی سبیل اللّه. قوله: وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ عطف علی قوله الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ و جاء بالماضی للدلالة علی تحقق الریب فی قلوبهم، و هو الشک. قوله فَهُمْ فِی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ أی: فی شکهم الذی

____

(۱). النور: ۶۲.

فتح القدیر، ج‏۲، ص: ۴۱۸

حلّ بقلوبهم یتحیرون، و التردّد: التحیر. و المعنی: فهؤلاء الذین یستأذنوک لیسوا بمؤمنین بل مرتابین حائرین لا یهتدون إلی طریق الصواب، و لا یعرفون الحق. قوله وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً أی: لو کانوا صادقین فیما یدّعونه- و یخبرونک به- من أنهم یریدون الجهاد معک، و لکن لم یکن معهم من العدّة للجهاد ما یحتاج إلیه، لما ترکوا إعداد العدّة، و تحصیلها قبل وقت الجهاد کما یستعدّ لذلک المؤمنون، فمعنی هذا الکلام: أنهم لم یریدوا الخروج أصلا، و لا استعدّوا للغزو. و العدّة: ما یحتاج إلیه المجاهد من الزاد و الراحلة، و السلاح. قوله: وَ لکِنْ کَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ أی: و لکن کره اللّه خروجهم، فتثبطوا عن

الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا و لكن تثبطوا، لأن كراهة اللّه انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، و الانبعاث: الخروج، أى: حبسهم اللّه عن الخروج معك و خذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا فى الجلوس أفسدنا و حرّضنا على المؤمنين؛ و قيل المعنى: لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة، و لكن ما أرادوه لكراهة اللّه له؛ قوله: وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليه من الوسوسة، و قيل:

قاله بعضهم لبعض، و قيل: قاله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غضبا عليهم، و قيل: هو عبارة عن الخذلان، أى: أوقع اللّه فى قلوبهم القعود خذلانا لهم. و معنى مَعَ الْقاعِدِينَ أى: مع أولى الضرر من العميان و المرضى، و النساء، و الصبيان، و فيه من الذمّ، و الإزراء عليهم، و التنقص بهم ما لا يخفى. قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا هذه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين عن تخلّف المنافقين، و الخبال: الفساد و النميمة، و إيقاع الاختلاف، و الأراجيف. قيل: هذا الاستثناء منقطع؛ أى ما زادوكم قوة، و لكن طلبوا الخبال؛ و قيل المعنى: لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا، فيكون متصلا؛ و قيل: هو استثناء من أعمّ العام، أى: ما زادوكم شيئا إلا خبالا، فيكون الاستثناء من قسم المتصل، لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء. قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ الإيضاع: سرعة السير، و منه قول ورقة بن نوفل:

يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها و أضع

يقال أوضع البعير: إذا أسرع السير، و قيل الإيضاع: سير الخبب، و الخلل: الفرجة بين الشيئين، و الجمع الخلال؛ أى: الفرج التى تكون بين الصفوف. و المعنى: لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف، و النمائم الموجبة لفساد ذات البين. قوله: يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يقال بغيته كذا: طلبته له، و أبغيته كذا: أعنته على طلبه. و المعنى: يطلبون لكم الفتنة فى ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش و الإفساد؛ و قيل: الفتنة هنا: الشرك. و جملة وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ فى محل نصب على الحال، أى: و الحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم، فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم، و الفساد لإخوانكم وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ و بما يحدث منهم لو خرجوا معكم، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم، و كره انبعاثهم معكم؛ و لا ينافى حالهم هذا لو خرجوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم فى التخلف، لأنه سارع إلى الإذن لهم، و لم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم

يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب صلّى اللّه عليه و سلّم على تسرّعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم فى عذره من الكاذب، و لهذا قال اللّه سبحانه فيما يأتى فى هذه السورة فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً الآية، و قال فى سورة الفتح: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ إلى قوله قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا «۱». قوله: لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ أى: لقد طلبوا الإفساد، و الخبال، و تفريق كلمة المؤمنين، و تشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التى تخلفوا عنك فيها. كما وقع من عبد اللّه ابن أبى و غيره وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ قوله: وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أى:

صرّفوها من أمر إلى أمر، و دبروا لك الحيل و المكائد، و منه قول العرب: «حوّل قلّب» إذا كان دائرا حول المكائد و الحيل يدير الرأى فيها و يتدبره. و قرئ وَ قَلَبُوا بالتخفيف حَتَّى جاءَ الْحَقُّ أى: إلى غاية هى مجيء الحق، و هو النصر لك و التأييد وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ بإعزاز دينه، و إعلاء شرعه، و قهر أعدائه؛ و قيل: الحق: القرآن، وَ هُمْ كارِهُونَ أى: و الحال أنهم كارهون لمجيء الحق، و ظهور أمر اللّه، و لكن كان ذلك على رغم منهم وَ مِنْهُمْ أى: من المنافقين مَنْ يَقُولُ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ائْذَنْ لِي فى التخلف عن الجهاد وَ لا تَفْتِنِّي أى: لا توقعنى فى الفتنة: أى الإثم إذا لم تأذن لى، فتخلفت بغير إذنك؛ و قيل معناه: لا توقعنى فى الهلكة بالخروج أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أى: فى نفس الفتنة سقطوا، و هى فتنة التخلف عن الجهاد، و الاعتذار الباطل. و المعنى:

أنهم ظنّوا: أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون فى الفتنة، و هم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة. و فى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها، وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل، و ذلك أشدّ من مجرّد الدخول فى الفتنة، ثم توعدهم على ذلك فقال: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أى: مشتملة عليهم من جميع الجوانب، لا يجدون عنها مخلصا، و لا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال.

و قد أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: اثنتان فعلهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يؤمر فيهما بشىء: إذنه للمنافقين، و أخذه من الأسارى، فأنزل اللّه عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عون بن عبد اللّه قال: سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فقال: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ الآية، قال: ناس قالوا: استأذنوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن أذن لكم فاقعدوا، و إن لم يأذن لكم فاقعدوا. و أخرج النحاس فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ الثلاث الآيات، قال: نسخها: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «٢». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و النحاس فى ناسخه عنه فى قوله:

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الآية، قال: هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا فى القعود عن الجهاد بغير عذر، و عذر اللّه المؤمنين فقال: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ و أخرج أبو عبيد، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه عنه أيضا فى قوله: لا يَسْتَأْذِنُكَ

---

(١). الفتح: ١٥.

(٢). النور: ٦٢.

الآيتين قال: نسختها الآية التى فى سورة النور إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ إلى إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» فجعل اللّه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأعلى النظرين فى ذلك، من غزا غزا فى فضيلة، و من قعد قعد فى غير حرج إن شاء اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ قال: خروجهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: فَثَبَّطَهُمْ قال: حبسهم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا قال: هؤلاء المنافقون فى غزوة تبوك. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ قال: لأسرعوا بينكم. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ قال: لأوفضوا يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يبطئونكم: عبد اللّه بن نبتل، و عبد اللّه بن أبىّ ابن سلول، و رفاعة بن تابوت، و أوس بن قيظى وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ محدّثون لهم بأحاديثكم غير منافقين، و هم عيون للمنافقين. و أخرج ابن المنذر و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن ابن عباس قال: لما أراد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجدّ بن قيس: يا جدّ بن قيس ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر؟ فقال: يا رسول اللّه! إنى امرؤ صاحب نساء، و متى أرى نساء بنى الأصفر أفتتن، فأذن لى و لا تفتنى، فأنزل اللّه وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ لا تَفْتِنِّي قال: لا تخرجنى أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا يعنى:

فى الخروج. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله وَ لا تَفْتِنِّي قال: لا تؤثمنى أَلا فِي الْفِتْنَةِ قال: ألا فى الإثم، و قصة تبوك مذكورة فى كتب الحديث و السير، فلا نطول بذكرها.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٠ الى ٥٧]

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (٥٣) وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَ هُمْ كُسالى وَ لا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَ هُمْ كارِهُونَ (٥٤)
فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (٥٥) وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

قوله: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ أىّ حسنة كانت، بأىّ سبب اتفق، كما يفيده وقوعها فى حيز الشرط،

---

(١). النور: ٦٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٢١

و كذلك القول فى المصيبة، و تدخل الحسنة و المصيبة الكائنة فى القتال كما يفيده السياق دخولا أوّليا، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة: الغنيمة و الظفر، و من جملة ما تصدق عليه المصيبة: الخيبة و الانهزام، و هذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين و سوء أفعالهم، و الإخبار بعظيم عداوتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، و الفرح بالمصيبة من أعظم ما يدلّ على أنهم فى العداوة قد بلغوا إلى الغاية، و معنى:
يَتَوَلَّوْا يرجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع؛ و مواطن التحدّث؛ حال كونهم فرحين بالمصيبة التى أصابت المؤمنين، و معنى قولهم: قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ أى: احتطنا لأنفسنا، و أخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة، ثم لما قالوا هذا القول؛ أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يجيب عليهم بقوله: لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا أى: فى اللوح المحفوظ، أو فى كتابه المنزّل علينا، و فائدة هذا الجواب: أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره اللّه كائن، و أن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر اللّه و قضائه؛ هانت عليه المصائب، و لم يجد مرارة شماتة الأعداء، و تشفى الحسدة هُوَ مَوْلانا أى:
ناصرنا، و جاعل العاقبة لنا، و مظهر دينه على جميع الأديان، و التوكل على اللّه: تفويض الأمور إليه؛ و المعنى:
أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا باللّه سبحانه، لا يتوكلون على غيره. و قرأ طلحة بن مصرف يصيبنا بتشديد الياء. و قرأ أعين قاضى الرى يصيبنا بنون مشدّدة، و هو لحن لأن الخبر لا يؤكد، و ردّ بمثل قوله تعالى: هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ «١» و قال الزجاج: معناه لا يصيبنا إلّا ما اختصنا اللّه من النصرة عليكم أو الشهادة، و على هذا القول يكون قوله: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ تكريرا لغرض التأكيد، و الأوّل أولى، حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيدا لفائدة غير فائدة الآخر، و التأسيس خير من التأكيد، و معنى: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين؟ إما النصرة أو الشهادة، و كلاهما مما يحسن لدينا، و الحسنى: تأنيث الأحسن، و

معنى الاستفهام التقريع و التوبيخ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ إحدى المساءتين لكم: إما أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أى: قارعة نازلة من السماء فيسحتكم بعذابه، أَوْ بعذاب لكم بِأَيْدِينا أى: بإظهار اللّه لنا عليكم بالقتل و الأسر و النهب و السبى. و الفاء فى: فتربصوا، فصيحة، و الأمر للتهديد كما فى قوله: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «٢» أى: تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا، فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم، فستنظرون عند ذلك ما يسرّنا و يسوءكم. و قرأ البزى و ابن فليح: هَلْ تَرَبَّصُونَ بإظهار اللام و تشديد التاء. و قرأ الكوفيون: بإدغام اللام فى التاء.

و قرأ الباقون: بإظهار اللام و تخفيف التاء. قوله: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ هذا الأمر معناه الشرط و الجزاء، لأن اللّه سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، و التقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم؛ و قيل: هو أمر فى معنى الخبر، أى: أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم، فهو كقوله:

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ و فيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول، و انتصاب طوعا أو كرها:

على الحال، فهما مصدران فى موقع المشتقين، أى: أنفقوا طائعين من غير أمر من اللّه و رسوله أو مكرهين

---

(١). الحج: ١٥.

(٢). الدخان: ۴٩.

بأمر منهما، و سمى الأمر منهما: إكراها لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر، فكانوا بأمرهم الذى لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم، و جملة إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، و الفسق: التمرّد و العتوّ، و قد سبق بيانه لغة و شرعا؛ ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ أى: كفرهم باللّه و برسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور: الأوّل: الكفر؛ الثانى: أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل و التثاقل، لأنهم لا يرجون ثوابا و لا يخافون عقابا؛ فصلاتهم ليست إلا رياء للناس، و تظهرا بالإسلام الذى يبطنون خلافه؛ و الثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا و هم كارهون، و لا ينفقونها طوعا لأنهم يعدّون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة؛ لعدم إيمانهم بما وعد اللّه و رسوله. قوله: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ الإعجاب بالشي‏ء: أن يسرّ به سرورا راض به متعجب من حسنه، قيل:

مع نوع من الافتخار و اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه؛ و المعنى: لا تستحسن ما معهم من الأموال و الأولاد إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بما يحصل معهم من الغمّ و الحزن عند أن يغنمها المسلمون و يأخذوها قسرا من أيديهم؛ مع كونها زينة حياتهم و قرّة أعينهم، و كذا فى الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ذلك، و ترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، و التّصدّق بما يحقّ التّصدق به، و قيل فى الكلام تقديم و تأخير، و المعنى: فلا تعجبك أموالهم و لا أولادهم فى الحياة الدنيا، إنما يريد اللّه ليعذبهم بها فى الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون. قوله: وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ الزّهوق: الخروج بصعوبة، و المعنى: أن اللّه يريد أن تزهق أنفسهم، و تخرج أرواحهم حال كفرهم، لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء، و أرسلت به الرسل، و تصميمهم على الكفر و تماديهم فى الضلالة، ثم ذكر اللّه سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ أى: من جملتكم فى دين الإسلام و الانقياد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكتاب اللّه سبحانه وَ ما هُمْ مِنْكُمْ فى ذلك إلا بمجرّد ظواهرهم دون بواطنهم وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ أى: يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل و السبى، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم، لا عن حقيقة لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يلتجئون إليه، و

يحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره أَوْ مَغاراتٍ جمع مغارة، من غار يغير. قال الأخفش: و يجوز أن يكون من: أغار يغير، و المغارات: الغيران و السراديب، و هى المواضع التى يستتر فيها، و منه غار الماء و غارت العين؛ و المعنى: لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هربا منكم أَوْ مُدَّخَلًا من الدخول، أى: مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات. قال النحاس: الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالا، و قيل:

أصله مدتخل. و قرأ أبىّ متدخلا و روى عنه أنه مندخلا بالنون. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و ابن محيصن: أو مدخلا بفتح الميم و إسكان الدال. قال الزجاج: و يقرأ أو مدخلا بضم الميم و إسكان الدال. و قرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم لَوَلَّوْا إِلَيْهِ أى: لالتجئوا إليه و أدخلوا أنفسهم فيه وَ الحال أن هُمْ يَجْمَحُونَ أى: يسرعون إسراعا لا يردّهم شىء، من جمع الفرس: إذا لم

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۳

يردّه اللجام، و منه قول الشاعر:

سبوحا جموحا و إحضارها كمعمعة السّعف الموقد

و المعنى: لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال: جعل المنافقون الذين تخلّفوا بالمدينة يخبرون عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أخبار السوء، يقولون: إن محمدا و أصحابه قد جهدوا فى سفرهم و هلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم و عافية النبىّ و أصحابه، فساءهم ذلك فأنزل اللّه إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ الآية. و أخرج سنيد و ابن جرير عن ابن عباس إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ يقول: إن يصبك فى سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسؤهم قال: الجدّ و أصحابه، يعنى الجدّ بن قيس. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا قال: إلا ما قضى اللّه لنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ قال: فتح أو شهادة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله أَوْ بِأَيْدِينا قال: القتل بالسيوف. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قال الجدّ بن قيس:

إنى إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، و لكن أعينك بمالى، قال: ففيه نزلت قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً الآية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ قال: هذه من تقاديم الكلام، يقول: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ فى الحياة الدنيا إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فى الآخرة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: إنما يريد اللّه ليعذبهم بها فى الآخرة.

و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ قال: تزهق أنفسهم فى الحياة الدنيا وَ هُمْ كافِرُونَ قال: هذه آية فيها تقديم و تأخير. و أخرج أبو حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله فَلا تُعْجِبْكَ يقول: لا يغررك وَ تَزْهَقَ قال: تخرج أنفسهم، قال فى الدنيا و هم كافرون.

و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً الآية قال: الملجأ: الحرز فى الجبال، و المغارات: الغيران، و المدّخل: السرب. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى وَ هُمْ يَجْمَحُونَ قال: يسرعون.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (۵۹) إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰)

قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُکَ هذا ذکر نوع آخر من قبائحهم، يقال: لمزه يلمزه؛ إذا عابه. قال الجوهرى: اللمز العيب، و أصله الإشارة بالعين و نحوها، و قد لمزه يلمزه و يلمزه، و رجل لمّاز، و لمزة:

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۴

أى عيّاب. قال الزّجّاج: لمزت الرجل ألمزه و ألمزه، بكسر الميم و ضمها: إذا عبته، و كذا همزته. و معنى الآية: و من المنافقين من يعيبك فى الصدقات؛ أى: فى تفريقها و قسمتها. و روى عن مجاهد أنه قال: معنى يَلْمِزُکَ يرزؤك و يسألك، و القول عند أهل اللغة هو الأوّل كما قال النحاس. و قرئ يلمزك بضم الميم، و يلمزك بكسرها مع التشديد. و قرأ الجمهور بكسرها مخففة، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها أى: من الصّدقات بقدر ما يريدون رَضُوا بما وقع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يعيبوه، و ذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، و ليسوا من الدين فى شىء وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها أى: من الصدقات ما يريدونه و يطلبونه إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ أى: و إن لم يعطوا فاجؤوا السخط، و فائدة إذا الفجائية أن الشرط مفاجىء للجزاء و هاجم عليه. و قد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أى: ما فرضه اللّه لهم، و ما أعطاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الصدقات، و جواب لو محذوف، أى: لكان خيرا لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل و الآجل وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ أى: قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ما هو لهم، أى: كفانا اللّه، سيعطينا من فضله، و يعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه و نؤمله إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ فى أن يعطينا من فضله ما نرجوه. قوله: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ لما لمز المنافقون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قسمة الصدقات بين اللّه لهم مصرفها دفعا لطعنهم و قطعا لشغبهم، و إِنَّمَا من صيغ القصر، و تعريف الصدقات للجنس، أى: جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا تجاوزها، بل هى لهم لا لغيرهم.

و قد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأوّل الشافعى و جماعة من أهل العلم، و ذهب إلى الثانى مالك و أبو حنيفة، و به قال عمر و حذيفة و ابن عباس و أبو العالية و سعيد بن جبير و ميمون ابن مهران. قال ابن جرير و هو قول عامة أهل العلم: احتج الأوّلون بما فى الآية من القصر و بحديث زياد ابن الحرث الصدائى عند أبى داود و الدارقطنى قال: أتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطنى من الصدقة، فقاله له: إن اللّه لم يرض بحكم نبىّ و لا غيره من الصدقات حتى حكم فيها هو؛ فجزّأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك. و أجاب الآخرون: بأن ما فى الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف و المصرف، لا لوجوب استيعاب الأصناف، و بأن فى إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى و هو ضعيف. و مما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ «۱» و الصّدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة. و صح عنه صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «أمرت أن آخذ الصّدقة من أغنيائكم و أردّها فى فقرائكم». و قد ادّعى مالك الإجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البرّ: يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفا منهم. قوله: لِلْفُقَراءِ قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدّة فاقتهم و حاجتهم.

و قد اختلف أهل العلم فى الفرق بين الفقير و المسكين على أقوال؛ فقال يعقوب بن السّكّيت و القتبى و يونس

---

(۱). البقرة: ۲۷۱.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۵

ابن حبيب: إن الفقير أحسن حالا من المسكين، قالوا: لأنّ الفقير هو الذى له بعض ما يكفيه و يقيمه، و المسكين الذى لا شىء

له، و ذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة. و قال آخرون بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالا- من الفقير، و احتجوا بقوله تعالى أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ «۱» فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر، و ربما ساوت جملة من المال، و يؤيده تعوّذ النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم من الفقر مع قوله: «اللهم أحينى مسكينا و أمتنى مسكينا» و إلى هذا ذهب الأصمعى و غيره من أهل اللغة، و حكاه الطّحاوى عن الكوفيين، و هو أحد قولى الشافعى و أكثر أصحابه. و قال قوم: إن الفقير و المسكين سواء لا فرق بينهما و هو أحد قولى الشافعى، و إليه ذهب ابن القاسم و سائر أصحاب مالك، و به قال أبو يوسف. و قال قوم: الفقير: المحتاج المتعفف، و المسكين: السائل. قاله الأزهرى، و اختاره ابن شعبان، و هو مرويّ عن ابن عباس. و قد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتى الاستكثار منه بفائدة يعتدّ بها. و الأولى فى بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عند البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذى يطوف على الناس فتردّه اللقمة و اللقمتان و التمرة و التمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول اللّه؟

قال: الذى لا يجد غنى يغنيه، و لا يفطن له فيتصدّق عليه. و لا يسأل الناس شيئا». قوله: وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها أى: السّعاة و الجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة، فإنهم يستحقون منها قسطا.

و قد اختلف فى القدر الذى يأخذونه منها، فقيل: الثمن، روى ذلک عن مجاهد و الشافعى. و قيل:

على قدر أعمالهم من الأجرة، روى ذلک عن أبى حنيفة و أصحابه. و قيل: يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روى ذلک عن مالک، و لا- وجه لهذا، فإن اللّه قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة، فكيف يمنعون منها، و يعطون من غيرها؟ و اختلفوا: هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا؟ فمنعه قوم، و أجازه آخرون. قالوا:

و يعطى من غير الصدقة. قوله: وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ هم قوم كانوا فى صدر الإسلام، فقيل: هم الكفار الذين كان النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم يتألفهم ليسلموا، كانوا لا يدخلون فى الإسلام بالقهر و السيف، بل بالعطاء، و قيل:

هم قوم أسلموا فى الظاهر، و لم يحسن إسلامهم، فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتألفهم بالعطاء؛ و قيل: هم من أسلم من اليهود، و النصارى؛ و قيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع، أعطاهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليتألّفوا أتباعهم على الإسلام. و قد أعطى النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبى سفيان بن حرب و الحارث بن هشام و سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلک، و أعطى آخرين دونهم.

و قد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا؟ فقال عمر و الحسن و الشعبى:

قد انقطع هذا الصنف بعزّة الإسلام و ظهوره، و هذا مشهور من مذهب مالک و أصحاب الرأى. و قد ادّعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلک. و قال جماعة من العلماء: سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام، و إنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين. قال يونس: سألت الزهرى عنهم فقال:

لا أعلم نسخ ذلک، و على القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف. قوله: وَ فِي الرِّقابِ أى: فى

---

(۱). الكهف: ۷۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۶

فك الرقاب بأن يشترى رقابا ثم يعتقها. روى ذلک عن ابن عباس و ابن عمر، و به قال مالک و أحمد بن حنبل و إسحاق و أبو عبيد. و قال الحسن البصرى و مقاتل بن حيان و عمر بن عبد العزيز و سعيد بن جبير و النّخعى و الزّهرى و ابن زيد: إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة، و هو قول الشافعى و أصحاب الرأى و رواية عن مالک، و الأولى حمل ما فى

الآيـة على القولين جميعا، لصـدق الرقاب على شـراء العبـد و إعتاقه، و على إعانة المكاتب على مال الكتابة. قوله: وَ الْغارِمِينَ هم الذين ركبتهم الدّيون و لا وفاء عندهم بها، و لا خلاف فى ذلك إلّا من لزمه دين فى سفاهة فإنه لا يعطى منها و لا من غيرها إلا أن يتوب. و قـد أعان النبيّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم من الصدقة من تحمل حمالة، و أرشد إلى إعانته منها. قوله وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هم الغزاة و المرابطون يعطون من الصدقـة مـا ينفقون فى غزوهم و مرابطتهم، و إن كـانوا أغنيـاء، و هـذا قول أكثر العلماء. و قال ابن عمر: هم الحجـاج و العمـار، و روى عن أحمـد و إسـحاق أنهمـا جعلا الحـج من سبيل اللّه. و قال أبو حنيفـة و صاحباه: لا يعطى الغازى إلا إذا كان فقيرا منقطعا به. قوله وَ ابْنِ السَّبِيلِ هو المسافر، و السبيل:

الطريق، و نسب إليها المسافر لملازمته إياها، و المراد: الذى انقطعت به الأسـباب فى سـفره عن بلده، و مستقرّه، فإنه يعطى منها و إن كان غنيا فى بلده، و إن وجد من يسلفه. و قال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى.

قوله فَرِيضَـةً مِنَ اللَّهِ مصـدر مؤكـد، لأن قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ معناه: فرض اللّه الصدقات لهم. و المعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هـذه الأصـناف هو حكم لازم، فرضه اللّه على عبـاده، و نهـاهم عن مجـاوزته وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بـأحوال عباده حَكِيمٌ فى أفعاله؛ و قيل: إن فَرِيضَـةً منتصبـة بفعل مقـدّر، أى: فرض اللّه ذلك فريضة. قال فى الكشاف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى فِي فى الأربعة الآخرة؟ قلت: للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصدّق عليهم ممن سبق ذكره؛ و قيل: النكتة فى العدول:

أن الأصـناف الأربعـة الأـول يصـرف المـال إليهم حتى يتصـرفوا به كما شاؤوا، و فى الأربعـة الأخيرة لا يصـرف المال إليهم، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة فى الصفات التى لأجلها استحقّوا سهم الزكاة، كذا قيل.

و قـد أخرج البخارى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ و ابن مردويه عن أبى سـعيد الخدرى قال: «بينما رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التيمى فقال: اعدل يا رسول اللّه، فقال: ويحك، و من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: دعه؛ فإن له أصحابا يحقر أحدكم صـلاته مع صـلاتهم، و صـيامه مع صـيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السّهم من الرمية». الحديث، حتى قال: و فيهم نزلت وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ و أخرج ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن مجاهد فى قوله وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ قال:

يرزؤك، يسألك. و أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: يطعن عليك. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال:

لما قسم النبيّ صـلّى اللّه عليه و سلّم غنائم حنين سمعت رجلا يقول: إن هذه لقسمة ما أريد بها اللّه، فأتيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و ذكرت ذلك له، فقال «رحمـة اللّه على موسـى قـد أوذى بأكثر من هذا فصبر، و نزل وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ . و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخت هذه آية كل صدقة فى القرآن

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۲۷

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ الآيـة. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن جرير و أبو الشـيخ عن حذيفة فى قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ الآيـة قال: إن شـئت جعلتها فى صـنف واحـد من الأصـناف الثّمانيـة التى سـمى اللّه أو صـنفين أو ثلاثة. و أخرج ابن أبى شـيبة عن أبى العالية و الحسن و عطاء و إبراهيم و سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن المنذر و النحاس عن ابن عباس قال: الفقراء: فقراء المسلمين، و المساكين: الطّوّافون. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و النحاس و أبو الشيخ عن قتادة قال:

الفقير: الـذى به زمانـة، و المسـكين: المحتاج الذى ليس به زمانة. و أخرج ابن أبى شـيبة عن عمر فى قوله إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ قال: هم زمنى أهل الكتاب. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها قال: السعاة أصحاب الصدقة. و أخرج

ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس فی قوله وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ قال: هم قوم كانوا يأتون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أسلموا، و كان يرضخ لهم من الصّدقات، فإذا أعطاهم من الصّدقة فأصابوا منها خيرا قالوا: هذا دين صالح، و إن كان غير ذلك؛ عابوه و تركوه. و أخرج البخاری و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن أبی سعيد قال: بعث علیّ بن أبی طالب من اليمن إلی النبیّ صلّى اللّه عليه و سلّم بذهيبة فيها تربتها «۱»، فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلی، و علقمة بن علاثة العامری، و عيينة بن بدر الفزاری، و زيد الخيل الطائی؛ فقالت قريش و الأنصار: يقسم بين صناديد أهل نجد و يدعنا؟ فقال النبی صلّى اللّه عليه و سلّم: «إنما أتألّفهم». و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن الزهری أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال: من أسلم من يهودی أو نصرانیّ، قلت:

و إن كان موسرا؟ قال: و إن كان موسرا. و أخرج هؤلاء عن أبی جعفر قال: ليس اليوم مؤلفة قلوبهم.

و أخرج هؤلاء أيضا عن الشعبی مثله. و أخرج ابن أبی حاتم عن مقاتل فی قوله: وَ فِی الرِّقابِ قال:

هم المكاتبون. و أخرج ابن المنذر عن النخعی نحوه. و أخرج أيضا عن عمر بن عبد اللّه قال: سهم الرقاب نصفان: نصف لكل مكاتب ممن يدّعی الإسلام، و النصف الآخر يشتری به رقاب ممّن صلّى و صام و قدم إسلامه من ذكر و أنثى يعتقون للّه. و أخرج ابن أبی شيبة و أبو عبيد و ابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطی الرجل من زكاته فی الحجّ و أن يعتق منها رقبة. و أخرج ابن أبی شيبة عن الزهری أنه سئل عن الغارمين قال: أصحاب الدين. و أخرج ابن أبی شيبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشيخ عن أبی جعفر فی قوله وَ الْغارِمِينَ قال: هو الذی يسأل فی دم أو جائحة تصيبه وَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ قال: هم المجاهدون وَ ابْنِ السَّبِيلِ قال: المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه. و أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال:

ابن السبيل هو الضيف الفقير الذی ينزل بالمسلمين. و أخرج ابن أبی شيبة و أبو داود و ابن ماجة و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبی سعيد الخدری قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «لا تحلّ الصّدقة لغنیّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو الرجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز فی سبيل اللّه، أو مسكين تصدّق عليه فأهدى منها

---

(۱). يعنی أنها غير مسبوكة، لم تخلص من ترابها.

فتح القدير، ج‌۲، ص: ۴۲۸

لغنیّ». و أخرج ابن أبی شيبة و أبو داود و الترمذی عن عبد اللّه بن عمر عن النبی صلّى اللّه عليه و سلّم قال «لا تحلّ الصدقة لغنیّ و لا لذی مرّة سویّ». و أخرج أحمد عن رجل من بنی هلال قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر مثله.

و أخرج ابن أبی شيبة و أبو داود و النسائی عن عبيد اللّه بن عدی بن الخيار قال: أخبرنی رجلان أنهما أتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فی حجّة الوداع و هو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع فينا البصر و خفضه فرآنا جلدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، و لا حظّ فيها لغنیّ و لا لقویّ مكتسب».

[سورة التوبة (۹): الآيات ۶۱ الى ۶۶]

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۱) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (۶۳) يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِی قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ

وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (۶۵)
لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶)
قوله: وَ مِنْهُمُ هذا نوع آخر مما حكاه اللّه من فضائح المنافقين و قبائحهم، و ذلك أنهم كانوا يقولون للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم على وجه الطعن و الذم: هُوَ أُذُنٌ قال الجوهرى: يقال: رجل أذن: إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوى فيه الواحد و الجمع و مرادهم، أقمأهم اللّه، أنهم إذا آذوا النبىّ و بسطوا فيه ألسنتهم، و بلغه ذلك اعتذروا له، و قبل ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدّقه، و إنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدّقه أنه أذن، مبالغة، لأنهم سموه بالجارحة التى هى آلة السماع، حتى كأن جملته أذن سامعة، و نظيره قولهم للربيئة: عين، و إيذاؤهم له هو قوله: هُوَ أُذُنٌ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدّق كل ما يقال له، و لا يفرق بين الصحيح و الباطل، اغترارا منهم بحلمه عنهم، و صفحه عن جناياتهم كرما و حلما و تغاضيا، ثم أجاب اللّه عن قولهم هذا، فقال: قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ بالإضافة على قراءة الجمهور. و قرأ الحسن بالتنوين، و كذا قرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه، كأنه قيل: نعم هو أذن، و لكن نعم الأذن هو، لكونه:
أذن خير لكم، و ليس بأذن فى غير ذلك، كقولهم: رجل صدق، يريدون الجودة و الصلاح. و المعنى: أنه يسمع الخير و لا يسمع الشرّ. و قرئ أُذْنٌ بسكون الذال و ضمها، ثم فسر كونه أذن خير بقوله:
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أى: يصدّق باللّه، و يصدّق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان، فتكون اللام فى لِلْمُؤْمِنِينَ للتقوية، كما قال الكوفيون، أو متعلقة بمصدر محذوف، كما قال المبرد. و قرأ الجمهور وَ رَحْمَةٌ بالرفع عطف على أذن. و قرأ حمزة بالخفض عطفا على خير. و المعنى على القراءة الأولى: هو أنه أذن خير، و أنه هو رحمة للمؤمنين، و على القراءة الثانية: أنه أذن خير، و أذن رحمة. قال النحاس: و هذا عند أهل العربية بعيد، يعنى قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين، و هذا يقبح فى المخفوض. و المعنى: أن
فتح القدير، ج۲، ص: ۴۲۹
النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أذن خير للمنافقين وَ رَحْمَةٌ لهم، حيث لم يكشف أسرارهم، و لا فضحهم، فكأنه قال:
هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم، لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسّره بما هو مدح له، و ثناء عليه، و إن كانوا قصدوا به المذمة، و التقصير بفطنته، و معنى لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أى: الذين أظهروا الإيمان؛ و إن لم يكونوا مؤمنين حقيقة وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللّه عليه و سلّم بما تقدّم من قولهم: هو أذن، و نحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: شديد الألم. و قرأ ابن أبى عبلة: وَ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف؛ أى: و رحمة لكم يأذن لكم. ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة، فقال: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ و الخطاب للمؤمنين. و ذلك أنّ المنافقين كانوا فى خلواتهم يطعنون على المؤمنين، و على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا بلغ ذلك إلى رسول اللّه؛ و إلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول اللّه و من معه من المؤمنين، فنعى اللّه ذلك عليهم، و قال: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ أى: هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا اللّه؛ و آمنوا به؛ و تركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم، و إفراد الضمير فى يرضوه: إما للتعظيم للجناب الإلهىّ بإفراده بالذكر؛ أو لكونه لا فرق بين إرضاء اللّه، و إرضاء رسوله، فإرضاء اللّه إرضاء لرسوله؛ أو المراد: اللّه أحق أن يرضوه و رسوله كذلك، كما قال سيبويه، و رجحه النحاس؛ أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحد و المتعدّد؛ أو الضمير راجع إلى المذكور، و هو يصدق عليهما. و قال الفراء: المعنى و رسوله أحق أن يرضوه، وَ اللَّهُ افتتاح كلام كما تقول: ما شاء اللّه و شئت، و هذه الجملة أعنى وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ فى محل نصب

على الحال، و جواب إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ محذوف، أى: إن كانوا مؤمنين فليرضوا اللّه و رسوله. قوله أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الحسن و ابن هرم أ لم تعلموا بالفوقية. و قرأ الباقون بالتحتية، و المحاددة: وقوع هذا فى حدّ، و ذلك فى حد كالمشاققة: يقال: حادّ فلان فلانا: أى: صار فى حدّ غير حده فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: فحق أن له نار جهنم. و قال الخليل و سيبويه: إن «أن» الثانية مبدلة من الأولى، و زعم المبرد أن هذا القول مردود، و أن الصحيح ما قال الجرمى: أن الثانية مكرّرة للتوكيد لما طال الكلام. و قال الأخفش:

المعنى فوجوب النار له، و أنكره المبرد و قال: هذا خطأ من أجل أن «أن» المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بها و يضمر الخبر. و قرئ بكسر الهمزة. قال سيبويه: و هى قراءة جيدة، و أنشد:

و أنّى إذا ملّت ركابى مناخهافإنّى على حظّى من الأمر جامح

و انتصاب خالدا على الحال، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما ذكر من العذاب، و هو مبتدأ، و خبره الْخِزْيُ الْعَظِيمُ أى: الخزى البالغ إلى الغاية التى لا يبلغ إليها غيره، و هو الذلّ و الهوان. قوله: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ قيل: هو خبر، و ليس بأمر. و قال الزّجّاج: معناه: ليحذر. فالمعنى على القول الأوّل: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم، و على الثانى: الأمر لهم بأن يحذروا ذلك،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٣٠

و أَنْ تُنَزَّلَ فى موضع نصب، أى: من أن تنزل، و يجوز على قول سيبويه أن يكون فى موضع خفض على تقدير من و إعمالها، و يجوز أن يكون النصب على المفعولية، و قد أجاز سيبويه: حذرت زيدا، و أنشد:

حذر أمورا لا تضير و آمنما ليس منجيه من الأقدار

و منع من النصب على المفعولية المبرّد. و معنى: عَلَيْهِمْ أى: على المؤمنين فى شأن المنافقين، على أن الضمير للمؤمنين، و الأولى أن يكون الضمير للمنافقين، أى: فى شأنهم تُنَبِّئُهُمْ أى: المنافقين بِما فِي قُلُوبِهِمْ مما يسرّونه فضلا عما يظهرونه، و هم و إن كانوا عالمين بما فى قلوبهم؛ فالمراد من إنباء السورة لهم: اطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم، ثم أمر اللّه رسوله بأن يجيب عليهم، فقال: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ هو أمر تهديد، أى: افعلوا الاستهزاء إن اللّه مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون، إما بإنزال سورة؛ أو بإخبار رسوله بذلك، أو نحو ذلك. قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ أى: و لئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين، و ثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك، و يطلعك اللّه عليه ليقولنّ: إنما كنا نخوض و نلعب، و لم نكن فى شيء من أمرك و لا أمر المؤمنين، ثم أمره اللّه أن يجيب عنهم فقال: قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، و أثبت وقوع ذلك منهم و لم يعبأ بإنكارهم، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به، و الباء لحرف النفى، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء و ثبوته، ثم قال: لا تَعْتَذِرُوا نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة، فإن ذلك غير مقبول منهم. و قد نقل الواحدى عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار: محو أثر الذنب و قطعه، من قولهم: اعتذر المنزل، إذا درس، و اعتذرت المياه، إذا انقطعت قَدْ كَفَرْتُمْ أى: أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور بَعْدَ إِيمانِكُمْ أى: بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ و هم: من أخلص الإيمان و ترك النفاق و تاب عنه. قال الزجاج: الطائفة فى اللغة الجماعة. قال ابن الأنبارى: و يطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب نُعَذِّبْ طائِفَةً سبب بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ مصرّين على النفاق لم يتوبوا منه، قرئ نعذب بالنون، و بالتاء الفوقية على البناء للمفعول و بالتحتية على البناء للفاعل، و هو اللّه سبحانه.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و

سلّم فيجلس إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، و هو الذى قال لهم: إنما محمد أذن.
من حدثه بشىء صدقه، فأنزل اللّه فيه: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاس بن سويد بن صامت، و مخشى بن حمير و وديعة بن ثابت، فأرادوا أن يقعوا فى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، فنهى بعضهم بعضا، و قالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم، فقال بعضهم: إنما محمد أذن؛ نحلف له فيصدّقنا، فنزل: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: هُوَ أُذُنٌ

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۳۱

يعنى: أنه يسمع من كل أحد. قال اللّه تعالى: أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ يعنى:
يصدق باللّه و يصدّق المؤمنين. و أخرج الطبرانى و ابن عساكر و ابن مردويه عن عمر بن سعد قال: فىّ أنزلت هذه الآية وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ و ذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة، فيأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فيسارّه، حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد، و كرهوا مجالسته، و قالوا: هُوَ أُذُنٌ فأنزلت فيه.
و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال: و اللّه إنّ هؤلاء لخيارنا و أشرافنا، و لئن كان ما يقول محمد حقّا لهم شرّ من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: و اللّه إن ما يقول محمد لحق، و لأنت شرّ من الحمار، فسعى بها الرجل إلى نبىّ اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذى قلت؟ فجعل يلتعن، و يحلف باللّه ما قال ذلك، و جعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق، و كذب الكاذب، فأنزل اللّه فى ذلك: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى مثله، و سمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يقول: يعادى اللّه و رسوله. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ الآية قال:
يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون عسى اللّه أن لا يفشى علينا هذا. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن شريح ابن عبيد أن رجلا قال لأبى الدرداء: يا معشر القراء! ما بالكم أجبن منا و أبخل إذا سئلتم، و أعظم لقما إذا أكلتم؟ فأعرض عنه أبو الدرداء، و لم يردّ عليه بشىء، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، فانطلق عمر إلى الرّجل الذى قال ذلك، فأخذه بثوبه و خنقه و قاده إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فقال الرجل: إنّما كنّا نخوض و نلعب، فأوحى اللّه إلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عبد اللّه ابن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما:
ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، و لا أكذب ألسنة، و لا أجبن عند اللقاء، فقال رجل فى المجلس: كذبت؛ و لكنك منافق، لأخبرنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نزل القرآن.
قال عبد اللّه: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الحجارة تنكبه و هو يقول: يا رسول اللّه! إنما كنا نخوض و نلعب، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و أخرجه ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و العقيلى فى الضعفاء، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و الخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر، فقال: رأيت عبد اللّه بن أبىّ و هو يشتد قدّام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و الأحجار تنكبه و هو يقول: يا محمد! إنما كنا نخوض و نلعب، و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى غزوة إلى تبوك؛ و بين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أ يرجو هذا الرجل أن تفتح له

قصور الشام و حصونها؟ هيهات هيهات، فأطلع اللّه نبيه على ذلك، فقال نبى اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: احبسوا علىّ هؤلاء الركب، فأتاهم فقال: قلتم: كذا، قالوا:

يا نبىّ اللّه إنّما كنّا نخوض و نلعب، فأنزل اللّه فيهم ما تسمعون. و قد روى نحو هذا من طرق عن جماعة

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۳۲

من الصّحابة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ قال: الطائفة: الرّجل و النّفر.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۶۷ الى ۷۰]

الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰)

قوله: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ذكر هاهنا جملة أحوال المنافقين، و أن ذكورهم فى ذلك كإناثهم، و أنهم متناهون فى النفاق و البعد عن الإيمان، و فيه إشارة إلى نفى أن يكونوا من المؤمنين، و ردّ لقولهم: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادّة حالهم لحال المنافقين فقال:

يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ و هو كل قبيح عقلا أو شرعا وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ و هو كل حسن عقلا أو شرعا، قال الزجاج: هذا متصل بقوله وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ أى: ليسوا من المؤمنين، و لكن بعضهم من بعض، أى: متشابهون فى الأمر بالمنكر و النّهى عن المعروف وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أى:

يشحّون فيما ينبغى إخراجه من المال فى الصّدقة و الصّلة و الجهاد، فالقبض كناية عن الشحّ، كما أن البسط كناية عن الكرم، و النسيان: الترك؛ أى: تركوا ما أمرهم به، فتركهم من رحمته و فضله، لأنّ النّسيان الحقيقى لا يصحّ إطلاقه على اللّه سبحانه، و إنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة فى علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق، أى: الخروج عن طاعة اللّه إلى معاصيه، و هذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون فى الفسق. ثم بين مآل حال أهل النفاق و الكفر بأنه: نارَ جَهَنَّمَ و خالِدِينَ فِيها حال مقدّرة، أى:

مقدّرين الخلود؛ و فى هذه الآية دليل على أن: وعد، يقال فى الشر، كما يقال فى الخير هِيَ حَسْبُهُمْ أى: كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، وَ مع ذلك فقد لَعَنَهُمُ اللَّهُ أى: طردهم و أبعدهم من رحمته وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ أى: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم. قوله: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم، ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب، و الكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف، أى: أنتم مثل الذين من قبلكم، أو محلها نصب، أى: فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم. و قال الزّجّاج: التقدير: وعد اللّه الكفار نار جهنّم وعدا كما وعد الذين من قبلكم؛

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۳۳

و قيل المعنى: فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فى ترك الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر، فحذف المضاف.

ثم وصف حال أولئك الكفّار الذين من قبلهم، و بين وجه تشبيههم بهم، و تمثيل حالهم بحالهم، بأنهم كانوا أشدّ من هؤلاء

المنافقين و الكفار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا أى: تمتعوا بِخَلاقِهِمْ أى: نصيبهم الذى قدّره اللّه لهم من ملاذ الدنيا فَاسْتَمْتَعْتُمْ أنتم بِخَلاقِكُمْ أى:

نصيبكم الذى قدّره اللّه لكم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ أى: انتفعتم به كما انتفعوا به، و الغرض من هذا التمثيل ذمّ هؤلاء المنافقين و الكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار فى الاستمتاع بما رزقهم اللّه.

و قد قيل: ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حقّ الأولين مرّة، ثم فى حقّ المنافقين ثانيا، ثم تكريره فى حقّ الأوّلين ثالثا؟ و أجيب بأنه تعالى ذمّ الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، و حرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم فى تلك الحظوظ، فلما قرّر تعالى هذا؛ عاد فشبه حال المنافقين بحالهم؛ فيكون ذلك نهاية فى المبالغة. قوله وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا معطوف على ما قبله، أى: كالفوج الذى خاضوا، أو كالخوض الذى خاضوا؛ و قيل: أصله كالذين، فحذفت النون، و الأولى أن يقال: إن الذى: اسم موصول مثل: من و ما، يعبر به عن الواحد و الجمع. يقال: خضت الماء أخوضه خوضا و خياضا، و الموضع: مخاضة، و هو ما جاز الناس فيه مشاة و ركبانا، و جمعها: المخاض و المخاوض؛ و يقال منه: خاض القوم فى الحديث، و تخاوضوا فيه، أى: تفاوضوا فيه، و المعنى: خضتم فى أسباب الدنيا و اللهو و اللعب؛ و قيل: فى أمر محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بالتكذيب، أى: دخلتم فى ذلك، و الإشارة بقوله: أُولئِكَ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين، و المشبه بهم حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ أى: بطلت، و المراد بالأعمال: ما عملوه مما هو فى صورة طاعة، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصى؛ و معنى: فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ أنها باطلة على كل حال، أما بطلانها فى الدنيا: فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم، بل يصير ما يرجونه من الغنى فقرا، و من العزّ ذلا، و من القوّة ضعفا؛ و أما فى الآخرة: فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار، و لا ينتفعون بشىء مما عملوه من الأعمال التى يظنونها طاعة و قربة وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أى: المتمكنون فى الخسران الكاملون فيه فى الدنيا و الآخرة أَ لَمْ يَأْتِهِمْ أى: المنافقين نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: خبرهم الذى له شأن، و هو ما فعلوه و ما فعل بهم، و لما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال فى المشبه بهم ذكر منهم هاهنا ست طوائف، قد سمع العرب أخبارهم، لأن بلادهم و هى الشام قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام للتقرير، و أوّلهم: قوم نوح و قد أهلكوا بالإغراق، و ثانيهم: قوم عاد و قد أهلكوا بالريح العقيم، و ثالثهم:

قوم ثمود و قد أخذوا بالصيحة، و رابعهم: قوم إبراهيم و قد سلط اللّه عليهم البعوض، و خامسهم: أصحاب مدين، و هم قوم شعيب و قد أخذتهم الرجفة. و سادسهم: أصحاب المؤتفكات، و هى قرى قوم لوط، و قد أهلكهم اللّه بما أمطر عليهم من الحجارة؛ و سميت مؤتفكات: لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، و الائتفاك: الانقلاب أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: رسل هذه الطوائف الست؛ و قيل: رسل أصحاب المؤتفكات؛ لأن رسولهم لوط؛ و قد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا، و الفاء فى فَما كانَ اللَّهُ

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۳۴

لِيَظْلِمَهُمْ للعطف على مقدّر يدل عليه الكلام، أى: فكذبوهم، فأهلكهم اللّه، فما ظلمهم بذلك، لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم، و حذروهم وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بسبب ما فعلوه من الكفر باللّه، و عدم الانقياد لأنبيائه، و هذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ قال: هو التّكذيب، قال:

و هو أنكر المنكر وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ شهادة أن لا إله إلا اللّه، و الإقرار بما أنزل اللّه، و هو أعظم المعروف. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ قال: لا يبسطونها بنفقة فى حق. و أخرج

ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ قال: تركوا اللّه فتركهم من كرامته و ثوابه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قال: صنيع الكفار كالكفار. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً إلى قوله: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا هؤلاء بنو إسرائيل: أشبهناهم، و الذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه فى قوله: بِخَلاقِهِمْ قال: بدينهم. و أخرجا أيضا عن أبى هريرة قال الخلاق: الدين. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ قال:

بنصيبهم فى الدنيا. و أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة فى قوله: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا قال:

لعبتم كالذى لعبوا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

وَ الْمُؤْتَفِكاتِ قال: قوم لوط، ائتفك بهم أرضهم، فجعل عاليها سافلها.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: قلوبهم متحدة فى التّوادد، و التّحابب، و التّعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين، و ضمهم من الإيمان باللّه، ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين، فقال: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أى: بما هو معروف فى الشرع غير منكر، و من ذلك توحيد اللّه سبحانه، و ترك عبادة غيره وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أى: عما هو معروف فى الشرع غير منكر، و خصص إقامة الصلاة؛ و إيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان و الأموال، و قد تقدّم معنى هذا. وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ فى صنع ما أمرهم بفعله؛ أو نهاهم عن تركه، و الإشارة ب أُولئِكَ إلى المؤمنين و المؤمنات؛ المتصفين بهذه الأوصاف، و السين فى سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ للمبالغة

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٣٥

فى إنجاز الوعد إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لا يغالب حَكِيمٌ فى أقواله و أفعاله، ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرّحمة إجمالا، باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة، فقال: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و الإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير؛ و معنى: جرى الأنهار من تحت الجنات، أنها تجرى تحت أشجارها و غرفها، و قد تقدّم تحقيقه فى البقرة وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً أى: منازل يسكنون فيها من الدرّ و الياقوت، و جَنَّاتِ عَدْنٍ يقال: عدن بالمكان: إذا أقام به، و منه المعدن؛ و قيل: هى أعلى الجنة، و قيل: أوسطها، و قيل: قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبىّ، أو صدّيق، أو شهيد. وصف الجنة بأوصاف:

الأوّل: جرى الأنهار من تحتها، و الثانى: أنهم فيها خالدون، و الثالث: طيب مساكنها، و الرابع: أنها دار عدن، أى: إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة؛ و قيل: هو علم، و التنكير فى رضوان:

للتحقير، أى: وَ رِضْوانٌ حقير يسير مِنْ رضوان اللَّهِ أَكْبَرُ من ذلك كله الذى أعطاهم اللّه إياه، و فيه دليل على أنه لا شىء من النعم و إن جلت و عظمت يماثل رضوان اللّه سبحانه؛ و أن أدنى رضوان منه لا يساويه شىء من اللذات الجسمانية، و إن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهمّ ارض عنا رضا لا يشوبه سخط، و لا يكدّره نكد، يا من بيده الخير كله دقه و جله، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما تقدّم مما وعد اللّه به المؤمنين و المؤمنات هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ دون كل فوز مما يعدّه الناس فوزا.

و قد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ قال: يدعون إلى الإيمان باللّه و رسوله، و النفقات فى سبيل اللّه، و ما كان من طاعة اللّه وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عن الشرك و الكفر قال:

الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضة من فرائض اللّه، كتبها اللّه على المؤمنين. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ قال: إخاؤهم فى اللّه، يتحابون بجلال اللّه و الولاية للّه، و قد ثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين و أبا هريرة عن تفسير قوله تعالى:

وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ قالا: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «قصر من لؤلؤة فى الجنة، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء، فى كل دار سبعون بيتا من زمرّدة خضراء، فى كل بيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، فى كل بيت سبعون مائدة، فى كل مائدة سبعون لونا من كل طعام، فى كل بيت سبعون و صيفا و وصيفة فيعطى المؤمن من القوة فى كل غداة ما يأتى على ذلك كله». و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله:

جَنَّاتِ عَدْنٍ قال: معدن الرجل: الذى يكون فيه: و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: معدنهم فيها أبدا.

و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ يعنى: إذا أخبروا أن اللّه عنهم راض، فهو أكبر عندهم من التّحف و التّسنيم. و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما من حديث أبى سعيد قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا و سعديك و الخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا و ما لنا لا نرضى و قد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك،

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٣٦

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربنا و أىّ شىء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٧٤)

الأمر للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده، و جهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، و جهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه و يؤمنوا باللّه. و قال الحسن: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، و اختاره قتادة. قيل فى توجيهه: إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود. قال ابن العربى: إن هذه دعوى لا برهان عليها، و ليس العاصى بمنافق، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق دائما؛ لا بما تتلبس به الجوارح ظاهرا، و أخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين. قوله: وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ الغلظ: نقيض الرأفة، و هو شدّة القلب و خشونة الجانب؛ قيل: و هذه الآية نسخت كل شىء من العفو و الصلح و الصفح، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، فقال: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا.

و قد اختلف أئمة التّفسير فى سبب نزول هذه الآية، فقيل: نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصّامت، و وديعة بن ثابت، و ذلك

أنه لما كثر نزول القرآن فى غزوة تبوك فى شأن المنافقين و ذمّهم، قالا: لئن كان محمد صادقا على إخواننا الذين هم ساداتنا و خيارنا لنحن شرّ من الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل و اللّه إن محمدا لصادق مصدّق، و إنّك لشرّ من الحمار؛ و أخبر عامر بذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و جاء الجلاس فحلف باللّه أن عامرا لكاذب، و حلف عامر: لقد قال، و قال: اللهم أنزل على نبيك شيئا فنزلت. و قيل: إن الذى سمع ذلك عاصم بن عدىّ، و قيل: حذيفة، و قيل: بل سمعه ولد امرأته، أى: امرأة الجلاس، و اسمه: عمير ابن سعد، فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره. و قيل: إن هذه الآية نزلت فى عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين لما قال: ما مثلنا و مثل محمد إلا كما قال القائل «سمن كلبك يأكلك»، و لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «١» فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك، فجاء عبد اللّه بن أبىّ فحلف: أنه لم يقله. و قيل: إنه قول جميع المنافقين، و أن الآية نزلت فيهم، و على تقدير أن القائل واحد أو اثنان؛ فنسبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل و لم يحلف من المنافقين لمن قد قال و حلف. ثم ردّ اللّه على المنافقين و كذبهم و بين أنهم حلفوا كذبا، فقال: وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ و هى ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ أى: كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام و إن كانوا كفارا فى الباطن. و المعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم. قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قيل:

---

(١). المنافقون: ٨.

هو همهم بقتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة فى غزوة تبوك، و قيل: هموا بعقد التاج على رأس عبد اللّه بن أبىّ؛ و قيل: هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قوله: وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ أى: و ما عابوا و أنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح و الثناء، و هو إغناء اللّه لهم من فضله، و الاستثناء مفرّغ من أعمّ العامّ، و هو من باب قول النابغة:

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهمبهنّ فلول من قراع الكتائب

و من باب قول الشاعر:

ما نقموا من بنى أميّة إلّاأنّهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم. و قد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش، فلما قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة اتسعت معيشتهم و كثرت أموالهم. قوله: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ أى: فإن تحصل منهم التوبة و الرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين و الدنيا. و قد تاب الجلاس بن سويد، و حسن إسلامه. و فى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق و الكافر.

و قد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق، فمنع من قبولها مالك و أتباعه، لأنه لا يعلم صحة توبته، إذ هو فى كل حين يظهر التوبة و الإسلام وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا أى: يعرضوا عن التوبة و الإيمان يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا بالقتل و الأسر و نهب الأموال وَ فى الْآخِرَةِ بعذاب النار وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍ يواليهم وَ لا نَصِيرٍ ينصرهم.

و قد أخرج ابن إسحاق، و ابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال: لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس: و اللّه لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شرّ من الحمير، فسمعها عمير بن سعد، فقال: و اللّه يا جلاس إنك لأحبّ الناس إلىّ، و أحسنهم عندى أثرا، و أعزّهم أن يدخل عليه شي‏ء يكرهه، و قد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك، و لئن سكت عنها لتهلكنى، و لإحداهما أشدّ علىّ من الأخرى، فمشى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر له ما قال الجلاس، فحلف باللّه ما قال: و لكن كذب علىّ

عمير، فأنزل اللّه:
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال: سمع زيد بن أرقم رجلا من المنافقين يقول و النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب: إن كان هذا صادقا لنحن شرّ من الحمير؛ قال زيد: هو و اللّه صادق و أنت شرّ من الحمار، فرفع ذلك إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم فجحد القائل، فأنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية.

و أخرج ابن جرير، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم جالسا فى ظلّ شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان، فإذا جاءكم فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: علام تشتمنى أنت و أصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا باللّه ما قالوا حتى تجاوز عنهم، و أنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا الآية. و أخرج

فتح القدير، ج‏2، ص: 438

ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جهينة و الآخر من غفار، و كانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفارى على الجهنى، فقال عبد اللّه بن أبىّ للأوس:
انصروا أخاكم، و اللّه ما مثلنا و مثل محمد إلا كما قال القائل: «سمّن كلبك يأكلك» و اللّه لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «1» فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف باللّه ما قاله، فأنزل اللّه: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ الآية، و فى الباب أحاديث مختلفة فى سبب نزول هذه الآية، و فيما ذكرناه كفاية. و أخرج ابن أبى حاتم، و الطبرانى، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قال: همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا قال: أرادوا أن يتوّجوا عبد اللّه ابن أبىّ بتاج. و أخرج ابن ماجة، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و البيهقى فى سننه، عن ابن عباس قال: قتل رجل على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجعل ديته اثنى عشر ألفا، و ذلك قوله:
وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ قال: بأخذهم الدّية.

[سورة التوبة (9): الآيات 75 الى 79]

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79)
اللام الأولى و هى لَئِنْ آتانا اللّه مِنْ فَضْلِهِ لام القسم، و اللام الثانية، و هى لَنَصَّدَّقَنَ لام الجواب للقسم و الشرط. و معنى: لَنَصَّدَّقَنَ لنخرج الصدقة، و هى أعمّ من المفروضة و غيرها وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ أى: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين، القائمين بواجبات الدّين، التاركين لمحرماته فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ أى: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به، أى: بما آتاهم من فضله، فلم يتصدّقوا بشى‏ء منه كما حلفوا به وَ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عن طاعة اللّه، و إخراج صدقات ما أعطاهم اللّه من فضله، وَ الحال أن هُمْ مُعْرِضُونَ فى جميع الأوقات، قبل أن يعطيهم اللّه ما أعطاهم من الرزق و بعده. قوله:
فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ الفاعل:

هو اللّه سبحانه، أى: فأعقبهم اللّه بسبب البخل الذى وقع منهم و الإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم، متمكّنا منها، مستمرا فيها إِلى يَوْمِ يلقون اللّه عزّ و جلّ، و قيل: إن الضمير يرجع إلى البخل، أى: فأعقبهم البخل بما عاهدوا اللّه عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم، أى: جزاء بخلهم. و معنى فَأَعْقَبَهُمْ أن اللّه سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، و الباء فى بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ للسببية، أى: بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدّق و الصلاح، و كذلك الباء

---

(١). المنافقون: ٨.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٣٩

فى وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ أى: بسبب تكذيبهم بما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أنكر عليهم فقال: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أى: المنافقون، و قرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ أى: جميع ما يسرونه من النفاق، و جميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و على أصحابه، و على دين الإسلام وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فلا يخفى عليه شى‏ء من الأشياء المغيبة كائنا ما كان، و من جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين. قوله: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ الموصول: محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلا من الضمير فى سرّهم و نجواهم، و معنى يَلْمِزُونَ يعيبون. و قد تقدّم تحقيقه، و المطّوّعين:

أى المتطوّعين، و التطوّع: التبرّع. و المعنى: أنّ المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشى‏ء من أموالهم، و أخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى اللّه عن هذا، و يقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، و لم يكن للّه خالصا، و فِي الصَّدَقاتِ متعلق بيلمزون، أى: يعيبونهم فى شأنها. قوله وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ معطوف على المطوّعين، أى: يلمزون المتطوّعين، و يلمزون الذى لا يجدون إلا جهدهم؛ و قيل:

معطوف على المؤمنين، أى: يلمزون المتطوّعين من المؤمنين، و من الذين لا يجدون إلا جهدهم، و قرئ جُهْدَهُمْ بفتح الجيم، و الجهد بالضم: الطاقة، و بالفتح: المشقة، و قيل: هما لغتان، و معناهما واحد، و قد تقدّم بيان ذلك. و المعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدّقون بما فضل عن كفايتهم. قوله فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ معطوف على يلمزون، أى: يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة، مع كون ذلك جهد المقلّ، و غاية ما يقدر عليه، و يتمكن منه. قوله: سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أى:

جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر اللّه منهم بأن أهانهم و أذلهم و عذبهم، و التعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره، و قيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر اللّه بهم كما سخروا بالمسلمين وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: ثابت مستمر شديد الألم.

و قد أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و العسكرى فى الأمثال، و الطبرانى و ابن مندة و الماوردى و أبو نعيم و ابن مردويه و البيهقى و ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه! ادع اللّه أن يرزقنى مالا، قال: ويلك يا ثعلبة! قليل تؤدّى شكره، خير من كثير لا تطيقه، قال: يا رسول اللّه! ادع اللّه أن يرزقنى مالا، قال: ويحك يا ثعلبة؛ أما تحبّ أن تكون مثلى؟

فلو شئت أن يسير ربى هذه الجبال معى ذهبا لسارت، فقال: يا رسول اللّه! ادع اللّه أن يرزقنى مالا، فو الذى بعثك بالحق إن آتانى اللّه مالا لأعطين كل ذى حق حقه، قال: ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره، خير من كثير لا تطيقه، قال: يا رسول اللّه! ادع اللّه تعالى، فقال يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اللهمّ ارزقه مالا؛ قال: فاتخذ غنما فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها

المدينة، فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا يشهدها بالليل، ثم نمت كما تنمو الدود، فتنحى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل و لا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة و لا جنازة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فجعل يتلقى الركبان و يسألهم عن الأخبار، و فقده

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۴۰

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسأل عنه. فأخبروه أنه اشترى غنما، و أن المدينة ضاقت به و أخبروه خبره، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ويح ثعلبة بن حاطب، ويح ثعلبة بن حاطب، ثم إن اللّه تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات، و أنزل خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً الآية، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم رجلين، رجلا من جهينة، و رجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات، و كتب لهما أسنان الإبل و الغنم كيف يأخذانها على وجوهها، و أمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب، و برجل من بنى سليم، فخرجا فمرّا بثعلبة فسألا الصّدقة، فقال: أريانى كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية، انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا إليّ، فانطلقا، و سمع بهما السّلمى فاستقبلهما بخيار إبله، فقالا: إنما عليك دون هذا، فقال: ما كنت أتقرّب إلى اللّه إلّا بخير مالى، فقبلا، فلما فرغا مرّا بثعلبة، فقال: أريانى كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلّا جزية، انطلقا حتى أرى رأيى، فانطلقا حتى قدما المدينة، فلما رآهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال قبل أن يكلمهما: ويح ثعلبة بن حاطب، و دعا للسلميّ بالبركة، و أنزل اللّه وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ الثلاث الآيات، قال: فسمع بعض أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة! أنزل فيك: كذا و كذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال:

يا رسول اللّه! خذ صدقة مالى، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن اللّه قد منعنى أن أقبل منك، فجعل يبكى و يحثى التراب على رأسه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعنى، فلم يقبل منه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى مضى؛ ثم أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر! اقبل منى صدقتى فقد عرفت منزلتى من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر؛ ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه فقال: يا أبا حفص! يا أمير المؤمنين! اقبل منى صدقتى، قال: و يثقل عليه بالمهاجرين و الأنصار و أزواج النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال عمر: لم يقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أبو بكر أقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها؛ ثم ولى عثمان فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أبو بكر و لا عمر و أنا أقبلها منك؟

فلم يقبلها منه، فهلك فى خلافة عثمان، و فيه نزلت الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ قال: و ذلك فى الصّدقة، و هذا الحديث هو مرويّ من حديث معاذ بن رفاعة عن عليّ بن زيد عن أبى عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد اللّه بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن ابن عباس فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ الآية، و ذلك أن رجلا كان يقال له: ثعلبة، من الأنصار أتى مجلسا، فأشهدهم فقال: لئن آتانى اللّه من فضله آتيت كل ذى حقّ حقه، و تصدّقت منه، و جعلت منه للقرابة؛ فابتلاه اللّه فآتاه من فضله فأخلف ما وعده، فأغضب اللّه بما أخلفه ما وعده، فقص اللّه شأنه فى القرآن. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذى قال هذا، فمات ابن عمّ له فورث منه مالا فبخل به و لم يف بما عاهد اللّه عليه، فأعقبه بذلك نفاقا فى قلبه إلى أن يلقاه. قال ذلك بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ و أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير، فقالوا: مراء؛ و جاء أبو عقيل بنصف صاع، فقال المنافقون: إن اللّه لغنيّ عن

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۴۱

صدقة هذا، فنزلت: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ الآية، و فى الباب روايات كثيرة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ أى: يطعنون على المطوّعين.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (٨٣)

أخبر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأنّ صدور الاستغفار منه للمنافقين و عدمه سواء، و ذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا للمغفرة من اللّه سبحانه لهم، فهو كقوله تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ثم قال: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ و فيه بيان لعدم المغفرة من اللّه سبحانه للمنافقين و إن أكثر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الاستغفار لهم، و ليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولا كما فى سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا: المبالغة فى عدم القبول. فقد كانت العرب تجرى ذلك مجرى المثل فى كلامها عند إرادة التكثير، و المعنى: أنه لن يغفر اللّه لهم؛ و إن استغفرت لهم استغفارا بالغا فى الكثرة غاية المبالغ. و قد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، و يدل لذلك ما سيأتى عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: لأزيدنّ على السبعين. و ذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجها فقال: إنّ السبعة عدد شريف، لأنّها عدد السموات، و الأرضين، و البحار، و الأقاليم، و النجوم السيارة، و الأعضاء، و أيام الأسبوع، فصير كلّ واحد من السبعة إلى عشرة؛ لأنّ الحسنة بعشر أمثالها. و قيل: خصّت السبعون بالذكر لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم كبّر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة، فكأنه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة. و انتصاب سبعين على المصدر كقولهم: ضربته عشرين ضربة. ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى: ذلك الامتناع بسبب كفرهم باللّه و رسوله وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ أى: المتمرّدين، الخارجين عن الطاعة، المتجاوزين لحدودها، و المراد هنا الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التى بمعنى الدلالة و إراءة الطريق. ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال:

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ المخلفون: المتروكون، و هم الذين استأذنوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من المنافقين، فأذن لهم، و خلفهم بالمدينة فى غزوة تبوك، أو الذين خلفهم اللّه و ثبطهم، أو الشيطان، أو كسلهم، أو المؤمنون، و معنى بِمَقْعَدِهِمْ أى: بقعودهم، يقال: قعد قعودا و مقعدا؛ أى: جلس، و أقعده غيره، ذكر معناه الجوهرى فهو متعلق بفرح، أى: فرح المخلفون بقعودهم، و خلاف رسول اللّه:

منتصب على أنه ظرف لمقعدهم. قال الأخفش و يونس: الخلاف بمعنى الخلف، أى: بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذلك أن جهة الإمام التى يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف، و قال قطرب و الزجاج: معنى خلاف رسول اللّه: مخالفة الرسول حين سار و أقاموا، فانتصابه على مفعول له، أى: قعدوا لأجل المخالفة، أو على الحال مثل: و أرسلها العراك، أى: مخالفين له، و يؤيد ما قاله الأخفش و يونس قراءة أبى حيوة: خلف رسول اللّه.

قوله: وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سبب ذلك الشحّ بالأموال و الأنفس، و عدم وجود باعث الإيمان و داعى الإخلاص وجود الصارف عن ذلك، و هو ما هم فيه من النفاق، و فيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه لوجود الداعى معهم، و انتفاء الصارف عنهم وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ أى: قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطا لهم، و كسرا لنشاطهم: و تواصيا بينهم بالمخالفة لأمر اللّه و رسوله، ثم أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم: نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ و المعنى:

إنكم أيها المنافقون! كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير، و نار جهنم التى ستدخلونها خالدين فيها أبدا أشدّ حرّا مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حرّ يسير فى زمن قصير، و وقعتم فى حرّ كثير فى زمن كبير، بل غير متناه أبد الآبدين و دهر الداهرين.

فكنت كالسّاعى إلى مثعب موائلا من سبل الرّاعد

و جواب لو فى لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ مقدّر، أى: لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا.

قوله: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً هذان الأمران معناهما الخبر، و المعنى: فسيضحكون قليلا و يبكون كثيرا، و إنما جيء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، و قليلا و كثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية، أى: ضحكا قليلا و بكاء كثيرا، أو زمانا قليلا و زمانا كثيرا جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أى: جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى، و انتصاب جزاء على المصدرية، أى:

يجزون جزاء فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ الرجع متعدّ كالردّ، و الرجوع لازم، و الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها و إنما قال: إِلى طائِفَةٍ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذارا صحيحة، و فيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و تاب اللّه عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، و سيأتى بيان ذلك. و قيل إنما قال: إلى طائفة، لأن منهم من تاب عن النفاق، و ندم على التخلف فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه فَقُلْ لهم لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا أى: قل لهم ذلك عقوبة لهم، و لما فى استصحابهم من المفاسد كما تقدم فى قوله: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا. و قرئ بفتح الياء من معى فى الموضعين.

و قرئ بسكونها فيهما، و جملة إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ للتعليل، أى: لن تخرجوا معى و لن تقاتلوا لأنكم رضيتم بالقعود و التخلف أوّل مرّة، و هى غزوة تبوك، و الفاء فى فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، و الخالفين: جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، و المراد بهم: من تخلف عن الخروج.

و قيل المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم، من قولك خلف

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۴۳

اللبن، أى: فسد بطول المكث فى السقاء. ذكر معناه الأصمعى. و قرئ: فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ و قال الفراء: معناه المخالفين.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن عروة أن عبد اللّه بن أبىّ قال: لو لا أنكم تنفقون على محمد و أصحابه لانفضوا من حوله، و هو القائل: لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ «۱» فأنزل اللّه اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: لأزيدنّ على السبعين، فأنزل اللّه سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

و أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و ابن ماجة و ابن أبى حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفى عبد اللّه بن أبىّ دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للصلاة عليه فقام عليه، فلما وقف قلت: أعلى عدوّ اللّه عبد اللّه بن أبىّ القائل كذا و كذا، و القائل كذا و كذا؟

أعدد أيامه، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يتبسم حتى إذا أكثرت قال: يا عمر أخر عنى، إنى قد خيرت، قد قيل لى: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، ثم صلى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و مشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبت لى و لجرأتى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و اللّه و رسوله أعلم، فو اللّه ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ فما صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على منافق بعد حتى قبضه اللّه عزّ و جلّ. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ الآية قال: عن غزوة تبوك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمر الناس أن ينبعثوا معه، و ذلك فى الصيف، فقال رجل: يا رسول اللّه! الحر شديد و لا نستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحر، فقال اللّه: قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ فأمره بالخروج. و أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً قال: هم المنافقون و الكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا و لعبا، يقول اللّه: فليضحكوا قليلا فى الدنيا: و ليبكوا كثيرا فى الآخرة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ قال: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين و فيهم قيل ما قيل. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ قال: هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٤ الى ٨٩]

وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (٨٤) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (٨٥) وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

---

(١). المنافقون: ٨.

قوله: ماتَ صفة لأحد، و أَبَداً ظرف لتأبيد النفى. قال الزجاج: معنى قوله: وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان إذا دفن الميت وقف على قبره و دعا له؛ فمنع هاهنا منه؛ و قيل معناه: لا تقم بمهمات إصلاح قبره، و جملة إِنَّهُمْ كَفَرُوا تعليل للنهى، و إنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر؛ لأنّ الكافر قد يكون عدلا فى دينه، و الكذب و النّفاق و الخداع و الجبن و الخبث مستقبحة فى كلّ دين. ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم و أولادهم، و هو تكرير لما سبق فى هذه السورة و تقرير لمضمونه؛ و قيل: إن الآية المتقدّمة فى قوم، و هذه فى آخرين، و قيل: هذه فى اليهود، و الأولى: فى المنافقين؛ و قيل:

غير ذلك. و قد تقدّم فى الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه فى تفسير هذه الآية، ثم عاد اللّه سبحانه إلى توبيخ المنافقين، فقال: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أى: من القرآن، و يجوز أن يراد بعض السورة، و أن يراد: تمامها؛ و قيل: هى هذه السورة، أى: سورة براءة و «أن» فى أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ مفسرة لما فى الإنزال من معنى القول؛ أو مصدرية حذف منها الجارّ، أى: بأن آمنوا، و إنما قدّم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلّا بعد الإيمان اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ أى: ذوو الفضل و السعة، من طال عليه طولا،

كـذا قال ابن العباس و الحسن، و قال الأصمّ: الرؤساء، و الكبراء المنظور إليهم، و خصـهم بالـذكر لأن الـذم لهم ألزم، إذ لا عذر لهـم فى القعـود وَ قـالُوا ذَرْنـا أى: اتركنـا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ أى: المتخلفيـن عـن الغزو من المعـذورين؛ كالضـعفاء و الزمنى، و الخوالف: النساء اللاتى يخلفن الرجال فى القعود فى البيوت، جمع خالفة، و جوّز بعضهم أن يكون جمع خالف، و هو من لا خير فيه وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ هو كقوله:

خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ و قد مرّ تفسيره فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ شيئا مما فيه نفعهم و ضرهم، بل هم كالأنعام.

و قد أخرج البخارى و مسلم و غيرهما عن ابن عمر قال: لما توفى عبد اللّه بن أبىّ بن سلول أتى ابنه عبد اللّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول اللّه! أ تصلى عليه و قد نهاك اللّه أن تصلى على المنافقين؟

فقال: «إنّ ربى خيرنى و قال: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ و سأزيد على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلّى عليه فأنزل اللّه: وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً الآية فترك الصلاة عليهم». و أخرج ابن ماجة و البزار و ابن جرير و ابن مردويه عن جـابر قال: مات رأس المنافقين بالمدينـة فأوصـى أن يصـلى عليه النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلّم و أن يكفنه فى قميصه، فجاء ابنه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إن أبى أوصى أن يكفن فى قميصك، فصلى عليه و ألبسه قميصه و قـام على قبره، فـأنزل اللّه وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ و أخرج ابن جرير و ابن المنـذر و ابن أبى حـاتم و ابن مردويه عن ابن عبـاس فى قوله: أُولُوا الطَّوْلِ قـال: أهـل الغنى. و أخرج هؤلاء عن ابن عباس فى قوله: رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ قال: مع النساء. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: الخوالف: النساء.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۴۵

المقصود من الاستدراك بقوله: لكِنِ الرَّسُولُ إلى آخره؛ الإشـعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم، و أخلص نيـة كمـا فى قوله: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهـا هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنـا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ «۱». و قـد تقدّم بيان الجهاد بالأموال، و الأنفس، ثم ذكر منافع الجهاد فقال:

وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ و هى: جمع خير، فيشـمل منافع الـدنيا و الدين؛ و قيل المراد به: النساء الحسان كقوله تعالى: فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ «۲» و مفردة خيرة بالتشديـد، ثم خففت مثل هينـة و هينـة. و قـد تقدّم معنى الفلاح، و المراد به هنا: الفائزون بالمطلوب، و تكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم، و تعظيم أمرهم، و الجنات: البساتين. و قـد تقـدم بيان جرى الأنهار من تحتها، و بيان الخلود و الفوز، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ إلى ما تقـدّم من الخيرات و الفلاح، و إعـداد الجنّات الموصوفـة بتلك الصـفة؛ و وصف الفوز بكونه عظيما؛ يدلّ على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز.

و قد أخرج القرطبى فى تفسيره عن الحسن أنه قال الخيرات: هنّ النّساء الحسان.

[سورة التوبة (۹): آية ۹۰]

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۹۰)

قرأ الأعرج و الضّحّاك: الْمُعَذِّرُونَ بالتّخفيف، من أعذر، و رواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم، و رواها أصحاب القراءات عن ابن عبـاس. قـال فى الصـحاح: و كـان ابن عباس يقرأ وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مخففـة من أعـذر. و يقول: و اللّه هكـذا أنزلت. قال

النحاس: إلا أن مدارها على الكلبى، و هى من أعذر: إذا بالغ فى العذر، و منه «من أنذر فقد أعذر» أى: بالغ فى العذر. و قرأ الجمهور الْمُعَذِّرُونَ بالتشديد ففيه وجهان، أحدهما أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء فى الذال، و هم الذين لهم عذر، و منه قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السّلام عليكماو من يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا: هم المحقّون فى اعتذارهم. و قد روى هذا عن الفرّاء، و الزّجّاج، و ابن الأنبارى؛ و قيل: هو من عذّر، و هو الذى يعتذر و لا عذر له، يقال: عذر فى الأمر: إذا قصر و اعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهرى، و صاحب الكشاف؛ فالمعذرون على هذا: هم المبطلون، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها. و روى عن الأخفش، و الفراء، و أبى حاتم، و أبى عبيد، أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين و ضمها للاتباع. و المعنى: أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالتخلف عن الغزو، و طائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر،

---

(١). الأنعام: ٨٩.

(٢). الرحمن: ٧٠.

فتح القدير، ج٢، ص: ۴۴۶

و هم منافقو الأعراب الذين كذبوا اللّه و رسوله، و لم يؤمنوا، و لا صدّقوا، ثم توعدهم اللّه سبحانه، فقال:

سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أى: من الأعراب، و هم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، و الذين لم يعتذروا، بل كذبوا باللّه و رسوله عَذابٌ أَلِيمٌ أى: كثير الألم؛ فيصدق على عذاب الدنيا و عذاب الآخرة.

و قد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ أى: أهل العذر منهم. و روى ابن أبى حاتم عنه نحو ذلك. و أخرج ابن الأنبارى فى كتاب الأضداد عنه أيضا أنه كان يقول:

«لعن اللّه المعذرين» و يقرأ بالتشديد، كأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد: هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن إسحاق فى قوله: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ قال: ذكر لى أنهم نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء، و قيل:

هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا و مواشينا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩١ الى ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)

لما ذكر سبحانه «المعذّرون»؛ ذكر بعدهم أهل الأعذار الصّحيحة المسقطة للغزو، و بدأ بالعذر فى أصل الخلقة، فقال: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ و هم أرباب الزمانة، و الهرم، و العمى، و العرج، و نحو ذلك، ثم ذكر العذر العارض فقال: وَ لا عَلَى الْمَرْضى و المراد بالمرض: كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا؛ و قيل: إنه يدخل فى المرض: الأعمى، و الأعرج، و نحوهما. ثم ذكر

العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال: وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ أى: ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج؛ و أبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم، غير واجب عليهم، مقيدا بقوله: إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ و أصل النصح: إخلاص العمل من الغش، و منه التوبة النصوح. قال نفطويه: نصح الشيء: إذا خلص، و نصح له القول: أى: أخلصه له، و النصح للّه:

الإيمان به و العمل بشريعته، و ترك ما يخالفها كائنا ما كان، و يدخل تحته دخولا أوّليا نصح عباده، و محبة المجاهدين فى سبيله، و بذل النصيحة لهم فى أمر الجهاد، و ترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه؛ و نصيحة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم: التصديق بنبوته، و بما جاء به، و طاعته فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه، و موالاة من والاه، و معاداة من عاداه، و محبته، و تعظيم سنته، و إحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة. و قد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «الدّين النّصيحة- ثلاثا-، قالوا: لمن؟ قال: للّه، و لكتابه،

و لرسوله، و لأئمة المسلمين، و عامتهم»، و جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ مقرّرة لمضمون ما سبق، أى: ليس على المعذورين الناصحين من سبيل، أى: طريق عقاب و مؤاخذة، و من: مزيدة للتأكيد، و على هذا فيكون لفظ الْمُحْسِنِينَ موضوعا فى موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا، أو يكون المراد:

ما على جنس المحسنين من سبيل، و هؤلاء المذكورين سابقا من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية، و جملة وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تذييلية، و فى معنى هذه الآية قوله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها، و قوله:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ «١»، و إسقاط التّكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم؛ الذى عذرهم اللّه عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه، و منه حديث أنس عند أبى داود و أحمد، و أصله فى الصحيحين: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لقد تركتم بعدكم قوما؛ ما سرتم من مسير؛ و لا أنفقتم من نفقة؛ و لا قطعتم واديا؛ إلا و هم معكم فيه»، قالوا:

يا رسول اللّه! و كيف يكونون معنا و هم بالمدينة؟ فقال: حبسهم العذر». و أخرجه أحمد و مسلم من حديث جابر، ثم ذكر اللّه سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ و العطف على جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ أى: و لا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل، و يجوز أن تكون عطفا على الضعفاء، أى: و لا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره حرج.

و المعنى: أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه فى الغزو؛ فلم تجد ذلك الذى طلبوه منك. قيل: و جملة لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ فى محل نصب على الحال من الكاف فى أتوك بإضمار قد، أى: إذا ما أتوك قائلا لا أجد؛ و قيل: هى بدل من أتوك؛ و قيل: جملة معترضة بين الشرط و الجزاء، و الأوّل أولى. و قوله: تَوَلَّوْا جواب إذا، و جملة وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ فى محل نصب على الحال، أى: تولوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه حال كونهم باكين، و حَزَناً منصوب على المصدرية، أو على العلية، أو الحالية، و أَلَّا يَجِدُوا مفعول له، و ناصبه حَزَناً، و قال الفرّاء: أن لا بمعنى ليس؛ أى حزنا أن ليس يجدوا؛ و قيل المعنى: حزنا على أن لا يجدوا؛ و قيل المعنى:

حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون لا عند أنفسهم و لا عندك. ثم ذكر اللّه سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال: إِنَّمَا السَّبِيلُ أى: طريق العقوبة و المؤاخذة عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ فى التخلف عن الغزو، وَ الحال أن هُمْ أَغْنِياءُ أى: يجدون ما يحملهم و ما يتجهزون به، و جملة رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ مستأنفة، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا و هم أغنياء؟ و قد تقدّم تفسير الخوالف

قريبا. و جملة وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ معطوفة على رَضُوا أى: سبب الاستئذان مع الغنى أمران: أحدهما: الرضا بالصفقة الخاسرة، و هى أن يكونوا مع الخوالف و الثانى: الطبع من اللّه على قلوبهم فَهُمْ بسبب هذا الطبع لا يَعْلَمُونَ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و الدار قطنى فى الإفراد و ابن مردويه عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت براءة، فكنت أكتب ما أنزل عليه، فإنى لواضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال، فجعل

---

(١). النور: ٦١.

فتح القدير، ج٢، ص: ۴۴٨

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بى يا رسول اللّه و أنا أعمى؟ فنزلت لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية فى عابد بن عمر المزنى. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: نزل من عند قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ إلى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فى المنافقين. و أخرج أبو الشيخ عن الضّحّاك فى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ قال: ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا اللّه و رسوله، و لم يطيقوا الجهاد، فعذرهم اللّه، و جعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين، أ لم تسمع أن اللّه يقول: لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ «١» فجعل اللّه للذين عذر من الضعفاء، و أولى الضرر، و الذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ قال: وَ اللَّهُ لأهل الإساءة غَفُورٌ رَحِيمٌ و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ الآية، قال: أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد اللّه بن مغفل المزنى، فقالوا: يا رسول اللّه! احملنا، فقال: و اللّه ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا و لهم بكاء، و عزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، و لا يجدون نفقة، و لا محملا، فأنزل اللّه عذرهم وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ الآية. و أخرج ابن سعد و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن عبد اللّه بن مغفل قال: إنى لا أجد الرّهط الذين ذكر اللّه وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير عن محمد ابن كعب قال: هم سبعة نفر: من بنى عمر بن عوف: سالم بن عمير، و من بنى واقف: حرمىّ بن عمرو، و من بنى مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، و من بنى المعلى: سلمان بن صخر، و من بنى حارثة: عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة، و من بنى سلمة:

عمرو بن غنمة، و عبد اللّه بن عمرو المزنى. و قد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة. و اختلفوا فى البعض، و لا يأتى التطويل فى ذلك بكثير فائدة، و أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الزهرى و يزيد بن رومان و عبد اللّه بن أبى بكر و عاصم بن عمر بن قتادة و غيرهم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هم البكّاؤون، و هم سبعة نفر من الأنصار و غيرهم، ثم ذكروا أسماءهم، و فيه: فاستحملوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كانوا أهل حاجة. قال لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن الحسن قال: كان معقل بن يسار من البكّائين الذين قال اللّه: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية.

و أخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك فى قوله: لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ قال: الماء و الزاد. و أخرج ابن المنذر عن علىّ بن صالح قال: حدّثنى مشيخة من جهينة، قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الحملان، فقالوا: ما سألناه إلا الحملان على النّعال. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن إبراهيم ابن أدهم عمن حدّثه فى قوله: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ

لِتَحْمِلَهُمْ قال: ما سألوه الدوابّ، ما سألوه إلا النّعال. و أخرج ابن أبی حاتم عن الحسن بن صالح فی الآیة قال: استحملوه النّعال. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ قال: هی و ما بعدها إلی

---

(۱). النساء: ۹۵.

قوله: فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ فی المنافقین.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۹۴ الى ۹۹]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۹۶) الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۹۸)

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۹)

قوله: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إخبار من اللّه سبحانه عن المنافقین المعتذرین بالباطل بأنهم یعتذرون إلی المؤمنین إذا رجعوا من الغزو، و هذا کلام مستأنف، و إنما قال: إِلَيْهِمْ أی: إلی المعتذرین بالباطل، و لم یقل: إلی المدینة، لأنّ مدار الاعتذار هو الرجوع إلیهم لا الرجوع إلی المدینة، و ربما یقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إلیها، ثم أخبر اللّه سبحانه رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم بما یجیب به علیهم، فقال: قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ فنهاهم أوّلا عن الاعتذار بالباطل، ثم علله بقوله لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أی: لن نصدّقکم، کأنهم ادّعوا أنهم صادقون فی اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن یصدّق فیما یعتذر به، فإذا عرف أنه لا یصدّق ترک الاعتذار، و جملة قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ تعلیلیة للتی قبلها، أی: لا یقع منا تصدیق لکم لأن اللّه قد أعلمنا بالوحی ما هو مناف لصدق اعتذارکم، و إنما خصّ الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم بالجواب علیهم، فقال: قُلْ لا تَعْتَذِرُوا مع أن الاعتذار منهم کائن إلی جمیع المؤمنین، لأنه صلّی اللّه علیه و سلّم رأسهم، و المتولی لما یرد علیهم من جهة الغیر، و یحتمل أن یکون المراد بالضمیر فی قوله: إِلَيْكُمْ هو الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم علی التأویل المشهور فی مثل هذا. قوله: وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ أی: ما ستفعلونه من الأعمال فیما بعد، هل تقلعون عما أنتم علیه الآن من الشرّ، أم تبقون علیه؟. قوله: وَ رَسُولُهُ معطوف علی الاسم الشریف، و وسط مفعول الرؤیة إیذانا بأن رؤیة اللّه سبحانه لما سیفعلونه من خیر أو شرّ هی التی یدور علیها الإثابة أو العقوبة، و فی جملة:

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ إلی آخرها: تخویف شدید، لما هی مشتملة علیه من التهدید، و لا سیما ما اشتملت علیه من وضع الظاهر موضع المضمر، لإشعار ذلک بإحاطته بکل شیء یقع منهم مما یکتمونه و یتظاهرون به، و إخباره لهم به و مجازاتهم علیه، ثم ذکر أن هؤلاء المعتذرین بالباطل سیؤکدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة؛ بالحلف عند رجوع المؤمنین إلیهم من الغزو، و غرضهم من هذا التأکید: هو أن یعرض المؤمنون عنهم فلا یوبخونهم، و لا یؤاخذونهم بالتخلف، و یظهرون الرضا عنهم، کما یفیده ذکر الرضا من بعد،

و حذف المحلوف عليه: لكون الكلام يدلّ عليه، و هو اعتذارهم الباطل، و أمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد: به تركهم و المهاجرة لهم، لا الرضا عنهم و الصفح عن ذنوبهم، كما تفيده جملة إِنَّهُمْ رِجْسٌ الواقعة علّة للأمر بالإعراض. و المعنى: أنهم فى أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، فكأنها قد صيّرت ذواتهم رجسا، أو أنهم ذوو رجس، أى: ذوو أعمال قبيحة، و مثله إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ و هؤلاء لما كانوا هكذا؛ كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، و التحذير من الشرّ، فليس لهم إلا الترك، و قوله وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ من تمام التعليل؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدى فيه الدعاء إلى الخير، و المأوى:
كل مكان يأوى إليه الشيء ليلا أو نهارا. و قد أوى فلان إلى منزله يأوى أويا و إيواء، و جَزاءً منصوب على المصدرية، أو على العلية، و الباء فى بِما كانُوا يَكْسِبُونَ للسببية، و جملة يَحْلِفُونَ لَكُمْ بدل مما تقدّم. و حذف هنا المحلوف به لكونه معلوما مما سبق، و المحلوف عليه لمثل ما تقدّم، و بين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ و إذا كان هذا هو ما يريده اللّه سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغى لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم، على أنّ رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتدّ به، و لا مفيد لهم، و المقصود من إخبار اللّه سبحانه بعدم رضاه عنهم: نهى المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى اللّه عليه مما لا يفعله مؤمن. قوله: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً لما ذكر اللّه سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة؛ ذكر حال من كان خارجا عنها من الأعراب؛ و بيّن أن كفرهم و نفاقهم أشدّ من كفر غيرهم، و من نفاق غيرهم، لأنهم أقسى قلبا، و أغلظ طبعا، و أجفى قولا، و أبعد عن سماع كتب اللّه، و ما جاءت به رسله. و الأعراب: هم من سكن البوادى بخلاف العرب، فإنه عام لهذا النوع من بنى آدم، سواء سكنوا البوادى أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، و لهذا قال سيبويه: إن الأعراب صيغة جمع، و ليست بصيغة جمع العرب. قال النيسابورى: قال أهل اللغة: رجل عربى إذا كان نسبه إلى العرب ثابتا، و جمعه عرب كالمجوسىّ و المجوس. و اليهودىّ و اليهود؛ فالأعرابى إذا قيل له يا عربى فرح، و إذا قيل للعربى يا أعرابى غضب، و ذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربى، و من نزل البادية فهو أعرابى، و لهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين و الأنصار أعراب، و إنما هم عرب، قال: قيل إنما سمى العرب عربا لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشئوا بالعرب، و هى من تهامة فنسبوا إلى بلدهم، و كل من يسكن جزيرة العرب و ينطق بلسانهم فهو منهم؛ و قيل: لأن ألسنتهم معربة عما فى ضمائرهم، و لما فى لسانهم من الفصاحة، و البلاغة، انتهى.
وَ أَجْدَرُ معطوف على أشد، و معناه: أخلق، يقال: فلان جدير بكذا، أى: خليق به، و أنت جدير أن تفعل كذا، و الجمع: جدر، أو جديرون. و أصله من جدر الحائط، و هو رفعه بالبناء. و المعنى: أنهم أحق و أخلق ب أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ من الشرائع، و الأحكام، لبعدهم عن مواطن الأنبياء، و ديار التنزيل وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بأحوال مخلوقاته على العموم، و هؤلاء منهم حَكِيمٌ فيما يجازيهم به من

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٥١
خير و شرّ، قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً هذا تنويع لجنس إلى نوعين، الأوّل: هؤلاء و الثانى: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ و المغرم: الغرامة و الخسران، و هو ثان مفعولى يتّخذ، لأنه بمعنى الجعل، و المعنى: اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل اللّه غرامة و خسران، و أصل الغرم و الغرامة: ما ينفقه الرجل، و ليس بلازم له فى اعتقاده، و لكنه ينفقه للرياء و التقية؛ و قيل: أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس. و الدَّوائِرَ جمع دائرة، و هى الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية، و أصلها ما يحيط بالشيء، و دوائر الزمان: نوبه و تصاريفه و دولة، و كأنها لا تستعمل إلا فى المكروه، ثم دعا سبحانه عليهم

بقوله عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ و جعل ما دعا به عليهم مماثلا لما أرادوه بالمسلمين، و السوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق. و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بضم السين، و هو المكروه. قال الأخفش: أى عليهم دائرة الهزيمة و الشرّ. و قال الفرّاء عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ العذاب و البلاء. قال: و السوء بالفتح مصدر سؤته سوءا و مساءة، و بالضم اسم لا مصدر، و هو كقولك: دائرة البلاء، و المكروه وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عَلِيمٌ بما يضمرونه. قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ هذا النوع الثانى من أنواع الأعراب كما تقدّم، أى: يصدّق بهما وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ أى: يجعل ما ينفقه فى سبيل اللّه قُرُباتٍ و هى جمع قربة، و هى ما يتقرّب به إلى اللّه سبحانه، تقول منه: قرّبت للّه قربانا، و الجمع قرب و قربات. و المعنى: أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول القربات عِنْدَ اللَّهِ وَ سببا ل صَلَواتِ الرَّسُولِ أى لدعوات الرسول لهم، لأنه صلّى اللّه عليه و سلّم كان يدعو للمتصدقين، و منه قوله: وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ و منه قوله «اللهمّ صلّ على آل أبى أوفى» ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقرّبا إلى اللّه مقبول واقع على الوجه الذى أرادوه فقال: أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ فأخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الجملة، و حرفى التنبيه و التحقيق، و فى هذا من التطييب لخواطرهم، و التطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره؛ مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما، و التوبيخ له بأبلغ وجه، و الضمير فى إنها راجع إلى «ما» فى ما ينفق، و تأنيثه باعتبار الخبر. و قرأ نافع، فى رواية عنه قُرُبَةٌ بضم الراء، و قرأ الباقون بسكونها تخفيفا، ثم فسر سبحانه القربة بقوله: سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ و السين لتحقيق الوعد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ قال: أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالا، و فى قوله: فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ قال: لما رجع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال للمؤمنين لا تكلموهم، و لا تجالسوهم، فأعرضوا عنهم كما أمر اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله: لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ قال: لتجاوزوا عنهم. و أخرج أبو الشيخ عنه فى قوله: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً قال: من منافقى المدينة وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ يعنى: الفرائض و ما أمر به من الجهاد. و أخرج أبو الشيخ عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أسد و غطفان. و أخرج أحمد، و أبو داود، و الترمذى، و النسائى، و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من سكن

البادية جفا، و من اتّبع الصيد غفل، و من أتى السّلطان افتتن». و إسناد أحمد هكذا: حدّثنا عبد الرحمن ابن مهدى، حدّثنا سفيان، عن أبى موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكره.

قال فى التقريب: و أبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، و وهم من قال إنه إسرائيل بن موسى، و قال الترمذى بعد إخراجه: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى. و أخرج أبو داود، و البيهقى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «من بدا جفا، و من اتبع الصّيد غفل، و من أتى أبواب السلطان افتتن، و ما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من اللّه بعدا». و أخرج أبو الشيخ عن الضحّاك فى قوله: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً قال: يعنى بالمغرم: أنه لا يرجو له ثوابا عند اللّه و لا مجازاة، و إنما يعطى ما يعطى من الصدقات كرها وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ الهلكات. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتّقاء على أن يغزوا، و يحاربوا، و يقاتلوا، و يرون نفقاتهم مغرما. و أخرج ابن أبى جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ قال: هم بنو مقرن من مزينة، و هم الذين قال اللّه:

وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ الآية. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الآية. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس فى

قوله: وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ يعنى استغفار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٠ الى ١٠٦]

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين و الأنصار، و بين أن منهم السابقين إلى الهجرة، و أن منهم التابعين لهم. و روى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قرأ: وَ الْأَنْصارِ بالرفع عطفا على وَ السَّابِقُونَ و قرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجرّ. قال الأخفش: الخفض فى الأنصار الوجه،

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٤٥٣

لأن السابقين منهم يدخلون فى قوله وَ السَّابِقُونَ و فى الآية تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين و الأنصار، و هم الذين صلّوا القبلتين فى قول سعيد بن المسيب و طائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان، و هى بيعة الحديبية فى قول الشعبى، أو أهل بدر فى قول محمد بن كعب و عطاء بن يسار، و لا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها، قال أبو منصور البغدادى: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية. قوله وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ قرأ عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ محذوف الواو، وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار، فراجعه فى ذلك زيد بن ثابت، فسأل أبيّ بن كعب؛ فصدّق زيدا؛ فرجع عمر عن القراءة المذكورة، كما رواه أبو عبيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه، و معنى الذين اتبعوهم بإحسان:

الذين اتّبعوا السابقين الأوّلين من المهاجرين و الأنصار، و هم المتأخرون عنهم من الصّحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة، و ليس المراد بهم: التابعين اصطلاحا، و هم كلّ من أدرك الصحابة و لم يدرك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية، فتكون «من» فى قوله مِنَ الْمُهاجِرِينَ على هذا للتّبعيض، و قيل:

إنها للبيان، فيتناول المدح جميع الصحابة، و يكون المراد بالتابعين: من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة. و قوله:

بِإِحْسانٍ قيد للتابعين، أى: و الذين اتبعوهم متلبسين بإحسان فى الأفعال و الأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأوّلين. قوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خبر للمتبدأ و ما عطف عليه، و معنى رضاه سبحانه عنهم: أنه قبل طاعاتهم، و تجاوز عنهم، و لم يسخط عليهم وَ رَضُوا عَنْهُ بما أعطاهم من فضله، و مع رضاه عنهم فقد أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ فى الدار الآخرة. و قرأ ابن كثير: تجرى من تحتها الأنهار بزيادة من. و قرأ الباقون بحذفها و النصب على الظرفية، و قد تقدّم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات، و تفسير الخلود و الفوز. قوله: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة و من يقرب منها من الأعراب، و ممّن حولكم: خبر مقدّم، و من الأعراب: بيان، و هو فى محل نصب على الحال، و منافقون هو المبتدأ؛ قيل: و

هؤلاء الـذين هم حول المدينـة من المنافقين هم جهينـة و مزينـة و أشـجع و غفار، و جملـة وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ معطوفـة على الجملـة الأولى؛ عطف جملـة على جملـة. و قيـل: إن من أهل المدينـة: عطف على الخبر فى الجملـة الأولى، فعلى الأول: يكـون المبتـدأ مقـدّرا، أى: و من أهـل المدينـة قوم مردوا على النفـاق، و على الثـانى يكون التقـدير: و ممن حولكم من الأعراب و من أهـل المدينـة منـافقون مردوا، و لكون جملـة مردوا على النفاق مسـتأنفة لا محل لها، و أصل مرد و تمرّد: اللين و الملاسة و التجرّد، فكأنهم تجرّدوا للنفاق، و منه غصن أمرد: لا ورق عليه، و فرس أمرد: لا شعر فيه، و غلام أمرد:

لا شعر بوجهه، و أرض مرداء: لا نبات فيها، و صـرح ممرّد: مجرّد؛ فالمعنى: أنهم أقاموا على النفاق و ثبتوا عليه و لم ينثنوا عنه. قـال ابن زيـد: معنـاه لجوا فيه و أبوا غيره، و جملـة لا تَعْلَمُهُمْ مبينـة للجملـة الأولى، و هى مردوا على النفاق، أى: ثبتوا عليه ثبوتا شديدا، و مهروا فيه، حتى خفى أمرهم على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم فكيف سائر المؤمنين؟ و المراد عدم علمه صلّى اللّه عليه و سلّم بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإنّ للنفاق دلائل لا تخفى

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۴

عليه صـلّى اللّه عليه و سـلّم، و جملة نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ مقرّرة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم فى النفاق و رسوخهم فيه على وجه يخفى على البشـر، و لا يظهر لغير اللّه سـبحانه لعلمه بما يخفى و ما تجنه الضمائر و تنطوى عليه السرائر، ثم توعدهم سبحانه فقال: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قيل: المراد بالمرّتين: عـذاب الـدنيا بالقتل و السبى، و عذاب الآخرة، و قيل: الفضيحة بانكشاف نفاقهم، و العـذاب فى الآخرة؛ و قيل: المصائب فى أموالهم و أولادهم، و عـذاب القبر؛ و قيل غير ذلك، مما يطول ذكره مع عـدم الـدليل على أنه المراد بعينه. و الظاهر أنّ هـذا العذاب المكرّر هو فى الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب، و أنهم يعذبون مرّة بعد مرّة، ثم يردون بعـد ذلـك إلى عـذاب الآخرة، و هو المراد بقوله: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ و من قال إن العـذاب فى المرة الثانيـة هو عـذاب الآخرة قال: معنى قوله: ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ أنهم يردّون بعـد عذابهم فى النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسـفل منها؛ أو أنهم يعـذبون فى النار عـذابا خاصا بهم دون سائر الكفار، ثم يردون بعـد ذلك إلى العـذاب الشامل لهم و لسائر الكفار. ثم ذكر سـبحانه حـال طائفـة من المسـلمين و هم المخلطون فى دينهم فقـال: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ و هو معطوف على قوله منافقون؛ أى: و ممن حولكم من الأعراب و من أهل المدينـة قوم آخرون. و يجوز أن يكون آخرون: مبتـدأ، و اعترفوا بـذنوبهم: صفته، و خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا: خبره، و المعنى: أن هؤلاء الجماعة تخلّفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف، ثم ندموا على ذلك، و لم يعتـذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا و اعترفوا بالذنب، و رجوا أن يتوب اللّه عليهم. و المراد بالعمل الصالح: ما تقدّم من إسـلامهم و قيامهم بشـرائع الإسلام و خروجهم إلى الجهاد فى سائر المواطن. و المراد بالعمل السيئ: هو تخلّفهم عن هـذه الغزوة، و قـد أتبعوا هذا العمل السـيئ عملا صالحا، و هو الاعتراف به و التوبة عنه. و أصل الاعتراف الإقرار بالشـىء، و مجرد الإقرار لا يكون توبـة إلا إذا اقترن به النـدم على الماضـى، و العزم على تركه فى الحال و الاسـتقبال، و قـد وقع منهم ما يفيد هذا، كما سيأتى بيانه إن شاء اللّه. و معنى الخلط: أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر، كقولك: خلطت الماء باللبن و اللبن بالمـاء؛ و يجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولك بعت الشاة شاة و درهما: أى بـدرهم، و فى قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ دليـل على أنه قـد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيـد التوبـة، أو أن مقدّمـة التوبـة و هى الاعتراف قامت مقام التوبـة، و حرف الترجى و هو عسـى؛ هو فى كلام اللّه سـبحانه يفيـد تحقق الوقوع، لأن الإطماع من اللّه سـبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: يغفر الذنوب و يتفضل على عباده.

قوله خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً اختلف أهل العلم فى هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل: هى صدقة الفرض، و قيل: هى مخصوصة بهذه الطائفـة المعترفـة بذنوبها، لأنهم بعد التوبة عليهم؛ عرضوا أموالهم على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم؛ فنزلت هذه الآية، و مِنْ

للتبعيض على التفسيرين، و الآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة، و الصدقة: مأخوذة من الصدق، إذ هى دليل على صدق مخرجها فى إيمانه. قوله: تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها الضمير فى الفعلين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: تطهركم و تزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم. و قيل: الضمير فى تطهرهم: للصدقة؛ أى: تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم، و الضمير فى تزكيهم: للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى:

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۵۵

تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة، و الأوّل أولى لما فى الثانى من الاختلاف فى الضميرين فى الفعلين المتعاطفين؛ و على الأوّل: فالفعلان منتصبان على الحال، و على الثانى فالفعل الأوّل صفة لصدقة، و الثانى حال منه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و معنى التطهير: إذهاب ما يتعلّق بهم من أثر الذنوب، و معنى التّزكية: المبالغة فى التطهير. قال الزجّاج:

و الأجود أن تكون المخاطبة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ أى: فإنك يا محمد تطهرهم و تزكيهم بها، على القطع و الاستئناف، و يجوز الجزم على جواب الأمر. و المعنى: أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم. و قد قرأ الحسن بجزم تطهرهم.

و على هذه القراءة فيكون وَ تُزَكِّيهِمْ على تقدير مبتدأ؛ أى: و أنت تزكيهم بها. قوله: وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ أى: ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم. قال النحّاس: و حكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصّلاة فى كلام العرب: الدعاء، ثم علّل سبحانه أمره لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بالصّلاة على من يأخذ من الصدقة فقال إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ قرأ حفص و حمزة و الكسائى «صلاتك» بالتوحيد. و قرأ الباقون بالجمع، و السكن ما تسكن إليه النفس و تطمئن به. قوله: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ لما تاب اللّه سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا. قال اللّه: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أى غير التّائبين، أو التّائبون قبل أن يتوب اللّه عليهم و يقبل صدقاتهم أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ لاستغنائه عن طاعة المطيعين، و عدم مبالاته بمعصية العاصين. و قرئ: أ لم تعلموا بالفوقية، و هو إما خطاب للتائبين، أو لجماعة من المؤمنين، و معنى وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ أى: يتقبلها منهم، و فى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة و لمن فعلها. و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ معطوف على قوله: أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه، أى:

أن هذا شأنه سبحانه. و فى صيغة المبالغة فى التواب و فى الرحيم مع توسيط ضمير الفصل. و التأكيد من التبشير لعباده، و الترغيب لهم، ما لا يخفى. قوله: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فيه تخويف و تهديد؛ أى: إنّ عملكم لا يخفى على اللّه و لا على رسوله و لا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، و أخلصوا أعمالكم للّه عزّ و جلّ، و فيه أيضا ترغيب و تنشيط، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيرا أو شرّا رغب إلى أعمال الخير، و تجنب أعمال الشرّ، و ما أحسن قول زهير:

و مهما تكن عند امرئ من خليقةو إن خالها تخفى على النّاس تعلم

و المراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى: و ستردون بعد الموت إلى اللّه سبحانه الذى يعلم ما تسرّونه، و ما تعلنونه، و ما تخفونه و ما تبدونه، و فى تقديم الغيب على الشهادة؛ إشعار بسعة علمه عزّ و جلّ، و أنه لا يخفى عليه شىء، و يستوى عنده كل معلوم. ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردّهم إليه فقال فَيُنَبِّئُكُمْ أى: يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا، فيجازى المحسن بإحسانه، و المسىء بإساءته، و يتفضل على من يشاء من عباده.

قوله: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين: الأوّل: المنافقون الذين مردوا على النفاق، و الثانى: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال، و هم

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۵۶

المرجون لأمر اللّه، من أرجيته و أرجأته: إذا أخرته، قرأ حمزة و الكسائى و نافع و حفص: مُرْجَوْنَ بالواو من غير همز. و قرأ الباقون: بالهمزة المضمومة بعد الجيم. و المعنى: أنهم مؤخرون فى تلك الحال؛ لا يقطع لهم بالتوبة و لا بعدمها، بل هم على ما يتبين من أمر اللّه سبحانه فى شأنهم إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ إن بقوا على ما هم عليه، و لم يتوبوا وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ إن تابوا توبة صحيحة، و أخلصوا إخلاصا تاما، و الجملة:

فى محل نصب على الحال، و التقدير: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ حال كونهم: إما معذّبين، و إما متوبا عليهم وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بأحوالهم حَكِيمٌ فيما يفعله بهم من خير أو شرّ.

و قد أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و أبو نعيم فى المعرفة عن أبى موسى أنه سئل عن قوله:

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ فقال: هم الذين صلّوا القبلتين جميعا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله. و أخرج ابن المنذر و أبو نعيم عن الحسن و محمد بن سيرين مثله أيضا و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: هم أبو بكر و عمر و علىّ و سلمان و عمار بن ياسر.

و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى المعرفة عن الشعبى قال:

هم من أدرك بيعة الرضوان. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ قال:

التابعون. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة. و أخرج أبو الشيخ و ابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظى: أخبرنى عن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما أريد الفتن، قال: إن اللّه قد غفر لجميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم و مسيئهم، قلت له: و فى أىّ موضع أوجب اللّه لهم الجنة فى كتابه؟ قال: ألا تقرؤون قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الآية أوجب لجميع أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الجنة و الرضوان، و شرط على التابعين شرطا لم يشرطه فيهم قلت: و ما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتّبعوهم بإحسان. يقول:

يقتدون بهم فى أعمالهم الحسنة، و لا يقتدون بهم فى غير ذلك. قال أبو صخر: فو اللّه لكأنى لم أقرأها قبل ذلك، و ما عرفت تفسيرها حتى قرأها علىّ ابن كعب. و أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى قال: حدّثنى يحيى بن أبى كثير و القاسم و مكحول و عبدة بن أبى لبابة و حسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقولون لما أنزلت هذه الآية: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ إلى قوله: وَ رَضُوا عَنْهُ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «هذا لأمتى كلّهم، و ليس بعد الرّضا سخط». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الأوسط و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ الآية، قال:

قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوم جمعة خطيبا، فقال: «قم يا فلان؛ فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان؛ فإنك منافق، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم»، و لم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له، فلقيهم عمر و هم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة، و ظن الناس قد انصرفوا، و اختبئوا هم من عمر، و ظنّوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا، فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح اللّه المنافقين اليوم، فهو العذاب الأوّل، و العذاب الثانى: عذاب القبر.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۵۷

و أخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ قال: جهينة و مزينة و أشجع و أسلم و غفار. و أخرج ابن أبى

حـاتم عن ابن زيـد فى قوله: مَرَدُوا عَلَى النِّفـاقِ قال: أقاموا عليه و لم يتوبوا كما تاب آخرون. و أخرج ابن المنـذر عن ابن جريج فى الآيـة قال: ماتوا عليه: عبد اللّه بن أبىّ، و أبو عامر الراهب، و الجدّ ابن قيس. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهـد فى قوله سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قال: بالجوع و القتل. و أخرج ابن المنـذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن أبى مالک قال: بالجوع و عذاب القبر. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عن قتادة قال: عذاب فى القبر، و عذاب فى النار.

و قد روى عن جماعة من السـلف نحو هذا فى تعيين العذابين، و الظاهر ما قدّمنا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الـدلائل عن ابن عباس فى قوله: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً قال: كانوا عشـرة رهط تخلفوا عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى غزوة تبوک، فلما حضر رجوع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أوثق سبعة منهم أنفسـهم بسوارى المسـجد، و كان ممرّ النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم إذا رجع عليهم فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة و أصحاب له تخلفوا عنک يا رسول اللّه حتى تطلقهم و تعذرهم، قال: و أنا أقسم باللّه لا أطلقهم و لا أعذرهم حتى يكون اللّه هو الذى يطلقهم، رغبوا عنى و تخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلک قالوا: و نحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون اللّه هو الذى يطلقنا، فنزلت: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ و عسى من اللّه: واجب، فلما نزلت أرسل إليهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فأطلقهم و عذرهم، فجاءوا بأموالهم فقالوا: يا رسول اللّه! هذه أموالنا، فتصدق بها عنا، و استغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ أموالكم، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ يقول: اسـتغفر لهم إِنَّ صَلاتَکَ سَكَنٌ لَهُمْ يقول: رحمة لهم، فأخذ منهم الصدقة و اسـتغفر لهم، و كانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسـهم بالسوارى فأرجئوا سـنة لا يدرون أ يعذبون أو يتاب عليهم؟

فأنزل اللّه عزّ و جلّ: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِ إلى قوله وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا إلى قوله ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يعنى: إن اسـتقاموا. و أخرج أبو الشـيخ عن الضّـحّاک مثله سواء. و أخرج ابن أبى شـيبة و ابن المنـذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الـدلائل، عن مجاهـد فى قوله اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ قال: هو أبو لبابـة إذ قال لقريظـة ما قال، و أشار إلى حلقه بأن محمـدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه، و القصة مذكورة فى كتب السير. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً قال: غزوهم مع رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم وَ آخَرَ سَيِّئاً قال: تخلفهم عنه. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ قال: اسـتغفر لهم من ذنوبهم التى كانوا أصابوها إِنَّ صَلاتَکَ سَكَنٌ لَهُمْ قال: رحمة لهم. و أخرج البخارى و مسـلم و غيرهما عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال: كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم إذا أتى بصدقة قال: «اللهم صلّ على آل فلان، فأتاه أبى بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبى أوفى». و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ قال: هذا وعيد من اللّه عزّ و جلّ. و أخرج أحمد و أبو يعلى و ابن حبّان و الحاكم، و البيهقى

فى الشعب، و ابن أبى الدنيا، و الضياء فى المختارة، عن أبى سعيد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «لو أنّ أحدكم يعمل فى صـخرة صـمّاء ليس لها بـاب و لا كوّة، لأخـرج اللّه عمله للنـاس كائنا ما كان». و أخرج ابن المنـذر عن عكرمـة فى قوله: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ قال: هم الثلاثـة الـذى خلّفوا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشـيخ عن مجاهد فى الآية قال: هم هلال بن أميـة و مرارة بن الربيع و كعب بن مالک من الأوس و الخزرج. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السـدّى فى قوله: إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ يقول: يميتهم على معصية وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ فأرجأ أمرهم، ثم نسخها فقال: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۰]

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرٰاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصٰاداً لِمَنْ حٰارَبَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاَّ الْحُسْنىٰ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (١٠٧) لاٰ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجٰالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ تَقْوىٰ مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوٰانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيٰانَهُ عَلىٰ شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ فَانْهٰارَ بِهِ فِي نٰارِ جَهَنَّمَ وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ (١٠٩) لاٰ يَزٰالُ بُنْيٰانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاّٰ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

لما ذكر اللّه أصناف المنافقين و بيّن طرائقهم المختلفة عطف على ما سبق هذه الطّائفة منهم، و هم الذين اتّخذوا مسجدا ضرارا، فيكون التقدير: و منهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ، و خبره منهم محذوف، و الجملة معطوفة على ما تقدّمها، و يجوز أن يكون الموصول فى محل نصب على الذمّ. و قرأ المدنيون و ابن عامر: الَّذِينَ اتَّخَذُوا بغير واو، فتكون قصة مستقلة، الموصول مبتدأ، و خبره لاٰ تَقُمْ قاله الكسائى. و قال النحاس: إن الخبر هو لاٰ يَزٰالُ بُنْيٰانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا و قيل: الخبر محذوف، و التقدير: يعذبون، و سيأتى بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار، و ضِرٰاراً منصوب على المصدرية، أو على العلية وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصٰاداً معطوفة على ضِرٰاراً. فقد أخبر اللّه سبحانه: أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة: الأوّل: الضّرار لغيرهم، و هو المضاررة. الثانى: الكفر باللّه و المباهاة لأهل الإسلام، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التّفريق بين المؤمنين، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء، فتقلّ جماعة المسلمين، و فى ذلك من اختلاف الكلمة و بطلان الألفة ما لا يخفى. الرابع: الإرصاد لمن حارب اللّه و رسوله، أى: الإعداد لأجل من حارب اللّه و رسوله. قال الزّجّاج: الإرصاد: الانتظار. و قال ابن قتيبة: الإرصاد الانتظار مع العداوة. و قال الأكثرون: هو الإعداد، و المعنى متقارب؛ يقال: أرصدت لكذا: إذا أعددته مرتقبا له به. و قال أبو زيد: يقال: رصدته و أرصدته فى الخير، و أرصدت له فى الشرّ.

و قال ابن الأعرابى: لا يقال إلا أرصدت، و معناه: ارتقبت، و المراد بمن حارب اللّه و رسوله: المنافقون، و منهم أبو عامر الراهب، أى: أعدّوه لهؤلاء، و ارتقبوا به وصولهم، و انتظروهم ليصلوا فيه، حتى يباهوا بهم المؤمنين، و قوله: مِنْ قَبْلُ متعلق باتخذوا، أى: اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء و يبنوا مسجد

فتح القدير، ج٢، ص: ۴۵۹

الضرار، أو متعلق بحارب، أى: لمن وقع منه الحرب للّه و لرسوله من قبل بناء مسجد الضرار. قوله:

وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاَّ الْحُسْنىٰ أى: ما أردنا إلّا الخصلة الحسنى، و هى الرفق بالمسلمين، فردّ اللّه عليهم بقوله: وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ فيما حلفوا عليه، ثم نهى اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم عن الصلاة فى مسجد الضرار، فقال: لاٰ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً أى: فى وقت من الأوقات، و النهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه. و قد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال: فلان يقوم الليل، أى: يصلى، و منه الحديث الصحيح:

«من قام رمضان إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه». ثم ذكر اللّه سبحانه علّة النهى عن القيام فيه بقوله: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ و اللام فى: لَمَسْجِدٌ لام القسم، و قيل: لام الابتداء، و فى ذلك تأكيد لمضمون الجملة، و تأسيس البناء: تثبيته و رفعه. و معنى تأسيسه على التقوى: تأسيسه على الخصال التى تتقى بها العقوبة.

و اختلف العلماء فى المسجد الذى أسّس على التقوى، فقالت طائفة: هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس و الضّحّاك و الحسن و الشعبى و غيرهم. و ذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و الأول أرجح لما سيأتى قريبا إن شاء اللّه، و مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ متعلق بأسس، أى: أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه، قال بعض النحاة: إن مِنْ هنا بمعنى منذ، أى: منذ أوّل يوم ابتدئ ببنائه، و قوله أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ خبر المبتدأ. و المعنى: لو كان القيام فى غيره جائزا لكان هذا أولى

بقيامك فيه للصلاة و لذكر اللّه، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم، و لكون فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا و هذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلّى اللّه عليه و سلّم فيه، أى: كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحالّ فيه، و يجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا، و يجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد. و معنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه و يحرصون عليه عند عروض موجبه؛ و قيل:

معناه: يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة و الاستغفار. و الأوّل أولى. و قيل: يحبّون أن يتطهّروا بالحمّى المطهرة من الذنوب فحمّوا جميعا، و هذا ضعيف جدّا. و معنى محبة اللّه لهم: الرضا عنهم، و الإحسان إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه. ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيدا، فقال: أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ و الهمزة للإنكار التقريرى، و البنيان: مصدر كالعمران، و أريد به: المبنىّ، و الجملة مستأنفة. و المعنى: أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة، و هى تقوى اللّه و رضوانه؛ خير ممن أسس دينه على ضد ذلك، و هو الباطل و النفاق، و الموصول: مبتدأ، و خبره: خير، و قرئ: أَسَّسَ بُنْيانَهُ على بناء الفعل للفاعل، و نصب بنيانه، و اختار هذه القراءة أبو عبيدة، و قرئ: على البناء للمجهول، و قرئ: أساس بنيانه بإضافة أساس إلى بنيانه؛ و قرئ: أسّ بنيانه و المراد: أصول البناء. و حكى أبو حاتم قراءة أخرى، و هى آساس بنيانه على الجمع، و منه:

أصبح الملك ثابت الآساسبالبهاليل من بنى العبّاس

و الشّفا: الشفير، و الجرف: ما يتجرّف بالسيول، و هى الجوانب التى تنجرف بالماء، و الاجتراف:

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۰

اقتلاع الشىء من أصله، و قرئ: بضم الراء من جرف، و بإسكانها. و الهار: السّاقط، يقال هار البناء:

إذا سقط، و أصله هائر، كما قالوا: شاك السلاح و شائك، كذا قال الزجّاج. و قال أبو حاتم: إن أصله هاور.

قال فى شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله، و أشرف أعلاه، فإن انصدع أعلاه فهو الهار اه. جعل اللّه سبحانه هذا مثلا لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحلّ بسرعة، ثم قال: فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ و فاعل فانهار ضمير يعود إلى الجرف، أى: فانهار الجرف بالبنيان فى النار، و يجوز أن يكون الضمير فى بِهِ يعود إلى من، و هو البانى. و المعنى: أنه طاح الباطل بالبناء، أو البانى فى نار جهنم، و جاء بالانهيار الذى هو للجرف ترشيحا للمجاز، و سبحان اللّه ما أبلغ هذا الكلام، و أقوى تراكيبه، و أوقع معناه، و أفصح مبناه.

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم، و استمرار تردّدهم، و شكهم، فقال: لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ أى: شكا فى قلوبهم و نفاقا، و منه قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةو ليس وراء اللّه للمرء مذهب

و قيل معنى الريبة: الحسرة و الندامة، لأنهم ندموا على بنيانه. و قال المبرد: أى حزازة و غيظا. و قد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين فى دينهم، و لكنهم ازدادوا بهدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم له نفاقا و تصميما على الكفر، و مقتا للإسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد و الغضب العظيم بهدمه، ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على استمرار هذه الريبة و دوامها، و هو قوله: إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ أى: لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعا، و تتفرّق أجزاء، إما بالموت أو بالسيف، و المقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، و يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة. و قيل: معناه: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما و أسفا على تفريطهم. و قرأ ابن عامر و حمزة و حفص و يعقوب و أبو جعفر بفتح حرف المضارعة. و قرأ الجمهور بضمها. و روى عن يعقوب أنه قرأ تقطع بالتخفيف، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم. و قرأ أصحاب عبد اللّه بن مسعود و لو تقطعت قلوبهم. و قرأ الحسن و يعقوب و أبو حاتم إلى أن تقطع على الغاية. أى: لا يزالون

كذلك إلى أن يموتوا.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله:

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً قال: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر الراهب: ابنوا مسجدكم، و استمدوا بما استطعتم من قوّة و سلاح؛ فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتى بجند من الروم، فأخرج محمدا و أصحابه؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلى فيه و تدعو بالبركة، فأنزل اللّه لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عنه قال: لما بنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد اللّه بن حنيف و وديعة بن حزام و مجمع بن جارية الأنصارى فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لبجدح: ويلك يا بجدح ما أردت إلى ما أرى؟!، فقال: يا رسول اللّه و اللّه ما أردت إلا الحسنى- و هو كاذب- فصدّقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أراد أن يعذره، فأنزل اللّه تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً

وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يعنى: رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كان قد انطلق إلى هرقل، و كانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلّى فيه، و كان قد خرج من المدينة محاربا للّه و لرسوله. و أخرج ابن إسحاق و ابن مردويه عنه أيضا قال: دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مالك بن الدخشم، فقال مالك لعاصم: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد و فيه أهله فحرقوه و هدموه، و خرج أهله فتفرّقوا عنه، فأنزل اللّه هذه الآية. و لعل فى هذه الرواية حذفا بين قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: دعا رسول اللّه مالك بن الدخشم و بين قوله فقال مالك لعاصم، و يبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق و ابن مردويه عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى، و كان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال: أقبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى نزل بذى أوان:

بلد بينه و بين المدينة ساعة من نهار، و كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه و هو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول اللّه! إنا بنينا مسجدا لذى العلة و الحاجة و الليلة الشاتية و الليلة المطيرة، و إنا نحبّ أن تأتينا فتصلى لنا فيه؛ قال: إنى على جناح سفر، و لو قدمنا إن شاء اللّه أتيناكم فصلينا لكم فيه؛ فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مالك بن الدخشم- أخا بنى سالم بن عوف- و معن ابن عدىّ، و أخاه عاصم بن عدىّ أحد بنى العجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدماه و حرّقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف، و هم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن:

أنظرنى حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشتدان، و فيه أهله فحرقاه و هدماه و تفرقوا عنه، و نزل فيهم من القرآن ما نزل: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً إلى آخر القصّة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم إنّ الذين بنوا مسجد الضّرار كانوا اثنى عشر رجلا، و ذكرا أسماءهم. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و مسلم و الترمذى و النسائى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن خزيمة و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، عن أبى سعيد الخدرى قال: اختلف رجلان: رجل من بنى خدرة، و فى لفظ: تماريت أنا و رجل من بنى عمرو ابن عوف فى المسجد الذى أسّس على التقوى، فقال الخدرى: هو مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال العمرى: هو مسجد قباء، فأتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال: «فى ذلك خير كثير» يعنى مسجد قباء. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و عبد بن حميد و الزبير بن بكار فى أخبار

المدينة، و أبو يعلى و ابن حبّان و الطبراني، و الحاكم في الكنى، و ابن مردويه عن سهل بن سعد السّاعدى نحوه. و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و الخطيب و الضياء فى المختارة عن أبىّ بن كعب قال: «سألت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن المسجد الذى أسس على التقوى قال:

هو مسجدى هذا». و أخرج الطبرانى، و الضياء المقدسى فى المختارة، عن زيد بن ثابت مرفوعا مثله. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه و الطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال: المسجد الذى أسّس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. قال عروة: مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خير منه، إنما أنزلت فى مسجد

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۲

قباء. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن مردويه عن ابن عمر قال: المسجد الذى أسّس على التقوى: مسجد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج المذكوران عن أبى سعيد الخدرى مثله. و قد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى الدّلائل، عن ابن عباس: أنه مسجد قباء. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله. و لا يخفاك أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد عين هذا المسجد الذى أسّس على التقوى، و جزم بأنه مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم كما قدّمنا من الأحاديث الصّحيحة، فلا يقاوم ذلک قول فرد من الصحابة و لا جماعة منهم و لا غيرهم و لا يصحّ لإيراده فى مقابلة ما قد صحّ عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا فائدة فى إيراد ما ورد فى فضل الصّلاة فى مسجد قباء، فإن ذلک لا يستلزم كونه المسجد الذى أسس على التقوى، على أن ما ورد فى فضائل مسجده صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر مما ورد فى فضل مسجد قباء بلا شک و لا شبهة تعمّ. و أخرج أبو داود و الترمذى و ابن ماجة و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: نزلت هذه الآية فى أهل قباء فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قال: و كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية، و فى إسناده يونس بن الحارث، و هو ضعيف. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية:

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى عويم بن ساعدة فقال: ما هذا الطهور الذى أثنى اللّه عليكم؟ فقالوا: يا رسول اللّه! ما خرج من رجل و لا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال:

مقعدته، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «هو هذا». و أخرج أحمد و ابن خزيمة و الطبرانى و الحاكم و ابن مردويه عن عويم ابن ساعدة الأنصارى أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أتاهم فى مسجد قباء فقال: «إن اللّه قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تتطهّرون به؟ قالوا: و اللّه يا رسول اللّه ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا»، رواه أحمد عن حسن ابن محمد. حدّثنا أبو أويس حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره. و قد أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه.

و أخرج ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم، و ابن الجارود فى المنتقى، و الدارقطنى و الحاكم و ابن مردويه و ابن عساكر عن طلحة بن نافع قال: حدّثنى أبو أيوب و جابر بن عبد اللّه و أنس بن مالک أن هذه الآية لما نزلت فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يا معشر الأنصار إن اللّه قد أثنى عليكم خيرا فى الطهور، فما طهوركم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصّلاة و نغتسل من الجنابة، قال: فهل مع ذلک غيره؟

قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجى بالماء، قال: هو ذاک فعليكموه». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد، و البخارى فى تاريخه، و ابن جرير، و البغوى فى معجمه، و الطبرانى و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن محمد بن عبد اللّه بن سلام عن أبيه قال: لما أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المسجد الذى أسّس على التقوى مسجد قباء فقال: «إن اللّه قد

أثنی علیکم فی الطهور خیرا أ فلا تخبرونی؟ یعنی قوله تعالی: فِیهِ رِجالٌ یُحِبُّونَ أَنْ یَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُطَّهِّرِینَ فقالوا: یا رسول اللّه! إنا لنجده مکتوبا علینا فی التوراة الاستنجاء بالماء، و نحن نفعله الیوم». و إسناد أحمد فی هذا الحدیث هکذا: حدّثنا یحیی بن آدم حدّثنی مالک یعنی ابن مغول سمعت سیارا أبا الحکم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد اللّه بن سلام. و قد روی عن

جماعة من التابعین فی ذکر سبب نزول الآیة نحو هذا. و لا یخفاک أنّ بعض هذه الأحادیث لیس فیه تعیین مسجد قباء و أهله، و بعضها ضعیف، و بعضها لا تصریح فیه بأن المسجد الذی أسس علی التقوی هو مسجد قباء، و علی کل حال لا تقاوم تلک الأحادیث المصرحة بأن المسجد الذی أسس علی التقوی هو مسجد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی صحتها و صراحتها. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله فَانْهارَ بِهِ فِی نارِ جَهَنَّمَ قال: یعنی قواعده فی نار جهنّم. و أخرج مسدد فی مسنده و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم، و الحاکم و صحّحه، و ابن مردویه عن جابر بن عبد اللّه قال: لقد رأیت الدخان یخرج من مسجد الضرار، حیث انهار علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرج ابن المنذر، و البیهقی فی الدّلائل، عن ابن عباس فی قوله: لا یَزالُ بُنْیانُهُمُ الَّذِی بَنَوْا رِیبَةً فِی قُلُوبِهِمْ قال: یعنی: الشک إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ یعنی: الموت.

و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن حبیب بن أبی ثابت. فی قوله رِیبَةً فِی قُلُوبِهِمْ قال: غیظا فی قلوبهم إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قال: إلی أن یموتوا. و أخرج ابن أبی حاتم عن سفیان فی قوله إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قال: إلا أن یتوبوا.

[سورة التوبة (۹): الآیات ۱۱۱ الی ۱۱۲]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَیَقْتُلُونَ وَ یُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَیْهِ حَقًّا فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفی بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَیْعِکُمُ الَّذِی بایَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱۱۱) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاکِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ (۱۱۲)

لما شرح فضائح المنافقین و قبائحهم بسبب تخلّفهم عن غزوة تبوک، و ذکر أقسامهم، و فرّع علی کلّ قسم منها ما هو لائق به عاد علی بیان فضیلة الجهاد و الترغیب فیه، و ذکر الشراء تمثیل کما فی قوله: أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدی «۱» مثل سبحانه إثابة المجاهدین بالجنة علی بذلهم أنفسهم و أموالهم فی سبیل اللّه بالشراء، و أصل الشراء بین العباد: هو إخراج الشیء عن الملک بشیء آخر، مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من اللّه بالجنة التی أعدها للمؤمنین، أی: بأن یکونوا من جملة أهل الجنة، و ممن یسکنها، فقد جادوا بأنفسهم، و هی أنفس الأعلاق «۲»، و الجود بها غایة الجود:

یجود بالنفس إن ضنّ الجبان بها‌و الجود بالنفس أقصی غایة الجود

و جاد اللّه علیهم بالجنة، و هی أعظم ما یطلبه العباد، و یتوسلون إلیه بالأعمال؛ و المراد بالأنفس هنا:

أنفس المجاهدین، و بالأموال: ما ینفقونه فی الجهاد. قوله: یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ بیان للبیع یقتضیه

---

(۱). البقرة: ۱۶.

(۲). قال فی القاموس: العلق: النفیس من کل شیء، ج أعلاق، و علوق.

الاشتراء المذکور، کأنه قیل کیف یبیعون أنفسهم و أموالهم بالجنة؟ فقیل: یقاتلون فی سبیل اللّه، ثم بین هذه المقاتلة فی سبیل

اللّه بقوله: فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ و المراد: أنهم يقدمون على قتل الكفار فى الحرب، و يبذلون أنفسهم فى ذلك، فإن فعلوا فقد استحقّوا الجنة، و إن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء فى الجهاد و التعرّض للموت بالإقدام على الكفار. قرأ الأعمش و النّخعى و حمزة و الكسائى و خلف: بتقديم المبنىّ للمفعول على المبنىّ للفاعل. و قرأ الباقون بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول. و قوله: وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ إخبار من اللّه سبحانه: أن فريضة الجهاد استحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من اللّه فى التوراة و الإنجيل، كما وقع فى القرآن، و انتصاب وعدا و حقا: على المصدرية، أو الثانى نعت للأوّل، و فى التوراة: متعلّق بمحذوف؛ أى: وعدا ثابتا فيها. قوله: وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فى هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين فى الجهاد، و التنشيط لهم على بذل الأنفس و الأموال ما لا يخفى، فإنه أوّلا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنة، و جاء بهذه العبارة الفخيمة، و هى كون الجنة قد صارت ملكا لهم، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك فى كتبه المنزّلة، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بدّ من حصول الموعود به، فإنه لا أحد أوفى بعهده من اللّه سبحانه، و هو صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، ثم زادهم سرورا و حبورا، فقال: فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ أى: أظهروا السرور بذلك، و البشارة: هى إظهار السّرور، و ظهوره يكون فى بشرة الوجه، و لذا يقال: أسارير الوجه، أى: التى يظهر فيها السّرور. و قد تقدّم إيضاح هذا، و الفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله. و المعنى: أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به اللّه عزّ و جلّ فقد ربحتم فيها ربحا لم يربحه أحد من الناس، إلا من فعل مثل فعلكم. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى الجنة، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة، و وصف الفوز و هو: الظفر بالمطلوب، بالعظم: يدل على أنه فوز لا فوز مثله. قوله: التَّائِبُونَ خبر مبتدأ محذوف، أى: هم التائبون، يعنى: المؤمنون، و التائب:

الراجع، أى: هم الراجعون إلى طاعة اللّه عن الحالة المخالفة للطاعة. و قال الزجاج: الذى عندى أن قوله:

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ رفع بالابتداء، و خبره مضمر، أى: التائبون و من بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا و إن لم يجاهدوا. قال: و هذا أحسن، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله: اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لكان الوعد خاصّا بمجاهدين. و قد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج: من أن هذا الكلام منفصل عما قبله، طائفة من المفسرين، و ذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى.

و أنها على جهة الشرط، أى: لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف. و فى مصحف عبد اللّه بن مسعود: «التّائبين العابدين إلى آخرها» و فيه وجهان: أحدهما: أنها أوصاف للمؤمنين. الثانى: أن النصب على المدح. و قيل: إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون، و جوز صاحب الكشاف: أن يكون التائبون مبتدأ، و خبره العابدون، و ما بعده أخبار كذلك، أى: التائبون من الكفر على الحقيقة، الجامعون لهذه الخصال. و فيه من البعد ما لا يخفى، و العابدون: القائمون بما أمروا به من عبادة اللّه مع الإخلاص، و الْحامِدُونَ الذين يحمدون اللّه سبحانه على السراء و الضراء،

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۶۵

و السَّائِحُونَ قيل: هم الصائمون، و إليه ذهب جمهور المفسرين، و منه قوله تعالى: عابِداتٍ سائِحاتٍ و إنما قيل للصائم: سائح، لأنه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض، و منه قول أبى طالب ابن عبد المطلب:

و بالسّائحين لا يذوقون قطرةلربّهم و الذاكرات العوامل

و قال آخر:

برّا يصلّى ليله و نهارهيظلّ كثير الذّكر للّه سائحا

قال الزّجّاج: و مذهب الحسن: أنّ السّائحين هاهنا هم الذين يصومون الفرض؛ و قيل: إنهم الذين يديمون الصيام، و قال عطاء:

السّائحون: المجاهدون. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: السائحون المهاجرون. و قال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث و العلم. و قيل: هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم، و ملكوته، و ما خلق من العبر، و السّياحة فى اللغة أصلها: الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء، و هى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق، و لما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه، و الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ معناه: المصلون، و الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ: القائمون بالإنكار على من فعل منكرا، أى:

شيئا ينكره الشرع وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه و على لسان رسله، و إنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين، و هما: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ إلخ، لأن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه؛ و قيل: إن العطف فى الصفات يجىء بالواو و بغيرها كقوله: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ «۱»؛ و قيل: إن الواو زائدة؛ و قيل: هى واو الثمانية المعروفة عند النحاة، كما فى قوله تعالى: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً «۲»، و قوله:

وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها «۳»، و قوله: سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ «۴»، و قد أنكر: و الثمانية، أبو على الفارسى، و ناظره فى ذلك ابن خالويه وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الموصوفين بالصّفات السابقة.

و قد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى و غيره قالوا: «قال عبد اللّه بن رواحة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: اشترط لربك و لنفسك ما شئت، قال: أشترط لربى أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا، و أشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم و أموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قال:

ربح البيع لا نقيل و لا نستقيل، فنزلت إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ الآية. و أخرج ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه قال: «أنزلت هذه الآية على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو فى المسجد:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ فكبّر الناس فى المسجد، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال: يا رسول اللّه! أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصارى: بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل». و قد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم اشترط فى بيعة العقبة على من بايعه

---

(۱). غافر: ۳.

(۲). التحريم: ۵.

(۳). الزمر: ۷۳.

(۴). الكهف: ۲۲.

من الأنصار: «أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه و أنه رسول اللّه، و يقيموا الصلاة، و يؤتوا الزكاة، و السّمع و الطّاعة، و لا ينازعوا فى الأمر أهله، و يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم و أهليهم، قالوا: نعم؛ قال قائل الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول اللّه! فما لنا؟ قال: الجنة». و أخرج ابن سعد أيضا من وجه آخر ليس فى قصّة العقبة ما يدلّ على أنها سبب نزول الآية. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر عن ابن عباس قال:

من مات على هذه التسع فهو فى سبيل اللّه التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ إلى آخر الآية. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن المنذر عن ابن عباس قال: الشّهيد من كان فيه التّسع الخصال المذكورة فى هذه الآية. و أخرج أبو الشيخ عنه قال: العابدون الذين يقيمون

الصّلاة. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عنه أيضا قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أول من يدعى إلى الجنّة الحمّادون؛ الذين يحمدون اللّه على السرّاء و الضراء». و أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال: سئل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن السائحين فقال: «هم الصّائمون». و أخرج الفريابى و ابن جرير، و البيهقى فى شعب الإيمان، من طريق عبيد بن عمير عن أبى هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن النجار من طريق أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله. و قد روى عن أبى هريرة موقوفا، و هو أصحّ من المرفوع من طريقه، و حديث عبيد بن عمير مرسل، و قد أسنده من طريق أبى هريرة فى الرواية الثانية. و قد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا: منهم عائشة عند ابن جرير و ابن المنذر، و منهم ابن عباس عند ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى و أبى الشيخ، و منهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله.

و روى نحو ذلك عن جماعة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و الحاكم، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى أمامة أنّ رجلا استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى السياحة فقال «إنّ سياحة أمّتى الجهاد فى سبيل اللّه» و صحّحه عبد الحق. و أخرج أبو الشيخ عن الربيع فى هذه الآية قال: هذه أعمال قال فيها أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: إن اللّه قضى على نفسه فى التّوراة و الإنجيل و القرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند اللّه شهيدا، و من مات منهم عليها فقد وجب أجره على اللّه. و أخرج ابن المنذر عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: الشّهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة. قال: و قال ابن عباس: من مات و فيه تسع فهو شهيد. و قرأ هذه الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ يعنى بالجنّة، ثم قال: التَّائِبُونَ إلى قوله: وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ يعنى: القائمين على طاعة اللّه، و هو شرط اشترطه اللّه على أهل الجهاد، و إذا وفوا للّه بشرطه؛ وفى لهم بشرطهم.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٦٧

لما بيّن سبحانه فى أول السورة و ما بعده: أنّ البراءة من المشركين و المنافقين واجبة، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيدا، و صرّح بأنّ ذلك متحتّم، و لو كانوا أولى قربى، و أنّ القرابة فى مثل هذا الحكم لا تأثير لها. و قد ذكر أهل التفسير: أن ما كانَ* فى القرآن، يأتى على وجهين: الأوّل: على النفى نحو: ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «١». و الآخر: على معنى النهى، نحو: ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ «٢» و ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ و هذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار، و تحريم الاستغفار لهم، و الدعاء بما لا يجوز لمن كان كافرا، و لا ينافى هذا ما ثبت عنه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته و شجّوا وجهه: «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون»، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين، و على فرض أنه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول، فإنه قبل يوم أحد بمدّة طويلة، و سيأتى. فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء، كما فى صحيح مسلم عن عبد اللّه، قال: كأنى أنظر إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه و هو يمسح الدم عن وجهه و يقول: «ربّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». و فى البخارى أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم ذكر نبيا قبله شجه قومه، فجعل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يخبر عنه بأنه قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». قوله: مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ

هـذه الجملة تتضـمن التعليل للنهى عن الاسـتغفار، و المعنى أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، و عدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشـرك، و قد قال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ «٣» فطلب المغفرة لهم فى حكم المخالفة لوعد اللّه و وعيـده. قوله: وَ مـا كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ الآيـة: ذكر اللّه سـبحانه السّبب فى استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقـدّم من إبراهيم لأبيه بالاسـتغفار له، و لكنه ترك ذلك و تبرّأ منه لما تبيّن له أنه عدوّ للّه، و أنه غير مسـتحقّ للاسـتغفار، و هذا يـدلّ على أنـه إنمـا وعـده قبـل أن يتـبيّن له أنه من أهـل النـار، و من أعـداء اللّه، فلاـ حاجـة إلى السـؤال الـذى يـورده كـثير من المفسـرين: أنه كيف خفى ذلـك على إبراهيم؟ فإنه لم يخف عليه تحريم الاسـتغفار لمن أصـرّ على الكفر و مات عليه، و هو لم يعلم ذلك إلا بإخبار اللّه سـبحانه له بأنه عدوّ اللّه، فإن ثبوت هذه العداوة تدلّ على الكفر، و كذلك لم يعلم نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره اللّه بهذه الآية، و هذا حكم إنما يثبت بالسـمع لا بالعقل. و قيل: المراد من استغفار إبراهيم لأبيه: دعاؤه إلى الإسـلام. و هو ضـعيف جـدّا. و قيل: المراد بالاسـتغفار فى هـذه الآية: النهى عن الصـلاة على جنائز الكفار، فهو كقوله: وَ لاـ تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً «۴» و لاـ حاجـة إلى تفسـير الاسـتغفار بالصـلاة و لاـ ملجئ إلى ذلك، ثم ختم اللّه سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم، فقال: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ و هو كثير التأوّه، كما تدلّ على ذلك صيغة المبالغة.

و قد اختلف أهل العلم فى معنى الأوّاه، فقال ابن مسعود و عبيد بن عمير: إنه الذى يكثر الدعاء. و قال الحسن و قتادة: إنه الرّحيم بعباد اللّه. و روى عن ابن عباس: أنه المؤمن بلغة الحبشة. و قال الكلبى: إنه الذى يذكر اللّه فى الأرض القفر. و روى مثله عن ابن المسيب، و قيل: الذى يكثر الذكر للّه من غير تقييد، روى

---

(۱). آل عمران: ۱۴۵.

(۲). الأحزاب: ۵۳.

(۳). النساء: ۴۸.

(۴). التوبة: ۸۴.

ذلـك عن عقبـة بن عـامر. و قيل: هو الـذى يكثر التلاوة، حكى ذلك عن ابن عباس. و قيل: إنه الفقيه، قاله مجاهـد و النخعى، و قيل: المتضـرّع الخاضع، روى ذلك عن عبـد اللّه بن شدّاد بن الهاد. و قيل: هو الذى إذا ذكر خطاياه اسـتغفر لها، روى ذلك عن أبى أيوب. و قيل: هو الشفيق، قاله عبد العزيز بن يحيى.

و قيل: إنه المعلم للخير. و قيل: إنه الرّاجع عن كلّ ما يكرهه اللّه، قاله عطاء. و المطابق لمعنى الأوّاه لغـة، أن يقال: إنه الـذى يكثر التـأوّه من ذنوبه، فيقول مثلاـ: آه من ذنوبى، آه ممـا أعـاقب به بسـببها، و نحو ذلـك، و به قال الفرّاء، و هو مروىّ عن أبى ذرّ، و معنى التأوّه: هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء.

قال فى الصحاح: و قد أوّه الرجل تأويها، و تأوّه تأوّها إذا قال أوّه، و الاسم منه: آهة بالمدّ، قال:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرّجل الحزين

و الحليم الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة، و هو: الذى يصفح عن الذنوب، و يصبر على الأذى؛ و قيل: الذى لا يعاقب أحدا قطّ إلا للّه.

و قد أخرج البخارى و مسـلم و غيرهما عن سـعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عنده أبو جهل و عبد بن أمية، فقال النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم: «أى عم! قل: لا إله إلا اللّه أحاج بها عند اللّه، فقال أبو

جهل و عبد اللّه بن أمية: يا أبا طالب: أ ترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعرضها عليه، و أبو جهل و عبد اللّه يعاندانه بتلك المقالة، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، و أبى أن يقول لا إله إلا اللّه، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «لأستغفر لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية، و أنزل اللّه فى أبى طالب: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ «١». و أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و النسائى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صححه، و ابن مردويه، و البيهقى فى شعب الإيمان، و الضياء فى المختارة عن علىّ قال:

سمعت رجلا يستغفر لأبويه و هما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك و هما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم فنزلت: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن علىّ قال: أخبرت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بموت أبى طالب، فبكى، فقال: اذهب فغسله و كفنه و واره غفر اللّه له و رحمه، ففعلت، و جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يستغفر له أياما، و لا يخرج من بيته حتى نزل عليه: ما كانَ لِلنَّبِيِ الآية. و قد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأبى طالب من طرق كثيرة، منها: عن محمد بن كعب عند ابن أبى حاتم و أبى الشيخ و هو مرسل. و منها: عن عمرو بن دينار عند ابن جرير و هو مرسل أيضا. و منها: عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير، و هو مرسل أيضا. و منها: عن عمر ابن الخطاب عند ابن سعد و أبى الشيخ و ابن عساكر. و منها: عن الحسن البصرى عند ابن عساكر و هو مرسل.

و روى أنها نزلت بسبب زيارة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لقبر أمه، و استغفاره لها، من طريق ابن عباس عند الطبرانى و ابن مردويه و من طريق ابن مسعود عند ابن أبى حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل، و عن بريدة عند

---

(١). القصص: ٥٦.

ابن مردويه، و ما فى الصحيحين مقدّم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح. فكيف و هو ضعيف غالبه؟

و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ إلى قوله: كَما رَبَّيانِي صَغِيراً «١» قال: ثم استثنى فقال: ما كانَ لِلنَّبِيِ إلى قوله: إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ قال: تبين له حين مات و علم أنّ التّوبة قد انقطعت منه. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و أبو بكر الشافعى فى فوائده، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبيّن له أنه عدوّ للّه فتبرأ منه. و أخرج ابن مردويه عن جابر: أن رجلا كان يرفع صوته بالذّكر، فقال رجل: لو أنّ هذا خفض صوته، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «دعه فإنه أوّاه». و أخرج الطبرانى و ابن مردويه عن عقبة بن عامر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال لرجل يقال له ذو النجادين: «إنه أوّاه»، و ذلك أنه كان يكثر ذكر اللّه بالقرآن و الدعاء. و أخرجه أيضا أحمد قال: حدّثنا موسى بن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علىّ بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد اللّه بن شدّاد بن الهاد قال: قال رجل: يا رسول اللّه! ما الأواه؟ قال: «الخاشع المتضرّع بالدّعاء». و هذا إن ثبت وجب المصير إليه و تقديمه على ما ذكره أهل اللغة فى معنى الأوّاه، و إسناده عند ابن جرير هكذا: حدّثنى المثنى، حدثنى الحجاج بن منهال، حدّثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد اللّه بن شداد فذكره. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ قال: كان من حلمه أنه كان إذا آذاه الرجل من قومه قال له: هداك اللّه.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٥ الى ١١٩]

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

لما نزلت الآية المتقدّمة فى النّهى عن الاستغفار للمشركين، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من اللّه بسبب ذلك الاستغفار، فأنزل اللّه سبحانه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً إلخ، أى: أن اللّه سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، و لا يسمّيهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام، و القيام بشرائعه ما لم يقدموا على شىء من المحرّمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم، و أما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم و لا يؤاخذون به، و معنى حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرّمات الشرع إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ مما يحلّ لعباده و يحرم عليهم، و من سائر الأشياء التى خلقها، ثم بيّن لهم أن له سبحانه ملك السّموات

---

(١). الإسراء: ٢۴.

و الأرض لا يشاركه فى ذلك مشارك، و لا ينازعه منازع، يتصرّف فى ملكه بما شاء من التصرفات التى من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه، و يميت من قضت مشيئته بإماتته، و ما لعباده من دونه من ولىّ يواليهم و نصير ينصرهم، فلا يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئا و لا تؤثر أثرا، بل التصرف فى جميع الأشياء للّه وحده. قوله: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِ فيما وقع منه صلّى اللّه عليه و سلّم من الإذن فى التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين. و ليس من لازم التوبة أن يسبق الذّنب ممّن وقعت منه أوله؛ لأنّ كلّ العباد محتاج إلى التوبة و الاستغفار. و قد تكون التوبة منه تعالى على النبى من باب أنه ترك ما هو الأولى و الأليق كما فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ «١». و يجوز أن يكون ذكر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لأجل التّعريض للمذنبين، بأن يتجنّبوا الذّنوب و يتوبوا عما قد لابسوه منها، و كذلك تاب اللّه سبحانه على المهاجرين و الأنصار فيما قد اقترفوه من الذّنوب. و من هذا القبيل ما صحّ عنه صلّى اللّه عليه و سلّم من قوله: «إنّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ثم وصف سبحانه المهاجرين و الأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فلم يتخلّفوا عنه، و ساعة العسرة هى غزوة تبوك، فإنهم كانوا فى عسرة شديدة، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة، و لم يرد ساعة بعينها، و العسرة صعوبة الأمر. قوله: مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فى كاد ضمير الشأن، و قلوب مرفوع بتزيغ عند سيبويه؛ و قيل: هى مرفوعة بكاد، و يكون التقدير: من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ. و قرأ الأعمش و حمزة و حفص: يَزِيغُ بالتحتية. قال أبو حاتم: من قرأ بالياء التحتية، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد. قال النحاس: و الذى لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع، و معنى: تزيغ تتلف بالجهد و المشقة و الشدّة، و قيل: معناه:

تميل عن الحقّ و تترك المناصرة و الممانعة؛ و قيل: معناه: تهمّ بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدّة العظيمة.

و فى قراءة ابن مسعود: من بعد ما زاغت و هم المتخلفون على هذه القراءة، و فى تكرير التوبة عليهم بقوله: ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا

تأكيد ظاهر، و اعتناء بشأنها، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدّم ذكر التوبة عنهم، و إن كان الضمير إلى الفريق؛ فلا تكرار.
قوله: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا أى:
و تاب على الثلاثة الذين خلفوا، أى: أخروا، و لم تقبل توبتهم فى الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم. قال ابن جرير: معنى: خلفوا تركوا، يقال خلفت فلانا فارقته. و قرأ عكرمة بن خالد:
خلفوا بالتخفيف، أى: أقاموا بعد نهوض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و المؤمنين إلى الغزو. و قرأ جعفر بن محمد:
خالفوا و هؤلاء الثلاثة: هم كعب بن مالك، و مرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامرى، و هلال بن أمية الواقفى، و كلهم من الأنصار، لم يقبل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم توبتهم حتى نزل القرآن بأن اللّه قد تاب عليهم؛ و قيل:
معنى خلفوا: فسدوا، مأخوذ من خلوف الفم. قوله: حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ معناه: أنهم أخّروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية؛ و هى وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، و ما:
مصدرية، أى: برحبها، لإعراض الناس عنهم، و عدم مكالمتهم من كل أحد، لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نهى الناس أن يكلموهم، و الرحب: الواسع، يقال: منزل رحب و رحيب و رحاب. و فى هذه الآية دليل على جواز

---

(١). التوبة: ٤٣.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٧١
هجران أهل المعاصى تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصى. و معنى ضيق أنفسهم عليهم: أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة، و بما حصل لهم من الجفوة، و عبر بالظن فى قوله: وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ عن العلم، أى: علموا أن لا ملجأ يلجئون إليه قط إلا إلى اللّه سبحانه بالتوبة و الاستغفار. قوله:
ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا أى: رجع عليهم بالقبول و الرحمة، و أنزل فى القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان؛ إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها؛ و يرجعوا إلى اللّه فيها، و يندموا على ما وقع منهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ أى: الكثير القبول لتوبة التائبين، الرَّحِيمُ أى: الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده. قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة اللّه، و ظاهر الآية الأمر للعباد على العموم.
و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ قال:
نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى. قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم، و لكن ما كان اللّه ليعذب قوما بذنب أذنبوه حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ قال: حتى ينهاهم قبل ذلك.
و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال: بيان اللّه للمؤمنين فى الاستغفار للمشركين خاصّة، و فى بيانه طاعته و معصيته عامة ما فعلوا أو تركوا. و أخرج ابن جرير، و ابن خزيمة، و ابن حبّان، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و البيهقى، و الضياء فى المختارة، عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب: حدّثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول اللّه إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أنّ رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه و يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول اللّه! إن اللّه قد عوّدك فى الدعاء خيرا فادع لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء؛ فأهطلت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. و قد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هى غزوة تبوك. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن مندة، و أبو الشيخ، و ابن مردويه، و ابن عساكر عن جابر ابن عبد اللّه فى قوله وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا قال: كعب بن مالك، و

هلال بن أمية، و مرارة بن الربيع، و كلّهم من الأنصار. و أخرج ابن منده، و ابن عساكر عن ابن عباس مثله. و أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن كعب بن مالك قال: لم أتخلّف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر و لم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يريد عير قريش حتى جمع اللّه بينهم و بين عدوّهم على غير ميعاد، و لقد شهدت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام و ما أحبّ أن لي بها مشهد بدر، و إن كانت بدر أذكر منها في الناس و أشهر، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة في كتب الحديث و السير، و هي معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها. و أخرج ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ عن الضحاك في قوله: وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا قال: يعني خلفوا عن التوبة لم يتب عليهم حين تاب اللّه على أبي لبابة و أصحابه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۷۲

و ابن عساكر عن عكرمة نحوه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن نافع في قوله وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: نزلت في الثّلاثة الذين خلفوا، قيل لهم: كونوا مع محمد و أصحابه. و أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ قال: مع أبي بكر و عمر. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عساكر عن الضحاك في الآية قال: مع أبي بكر و عمر و أصحابهما. و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: مع علي بن أبي طالب. و أخرج ابن عساكر عن أبي جعفر قال: مع الثلاثة الذين خلّفوا.

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۱]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۲۰) وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۱)

في قول: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ إلخ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تحريم التخلف عنه، أي: ما صح و ما استقام لأهل المدينة وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ كمزينة و جهينة و أشجع و أسلم و غفار أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللّه عليه و سلّم في غزوة تبوك، و إنما خصّهم اللّه سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا، بخلاف غيرهم من العرب، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم، و جوارهم أحق بالنصرة و المتابعة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ أي: و ما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحّون بها و يصونونها، و لا يشحّون بنفس رسول اللّه و يصونونها كما شحّوا بأنفسهم و صانوها، يقال:

رغبت عن كذا؛ أي: ترفعت عنه، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاقّ، و يجاهدوا بين يديه أهل الشّقاق، و يبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ و في هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصّيغة من التّوبيخ لهم، و التّقريع الشّديد، و التّهييج لهم، و الإزراء عليهم. و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أي: ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب، و أصناف الشّدائد. و الظّمأ: العطش، و النّصب: التعب، و المخمصة: المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن. و قرأ عبيد بن عمير ظَمَاً بالمدّ. و قرأ غيره بالقصر، و هما لغتان مثل خطأ و خطاء، و لا في هذه المواضع زائدة للتأكيد. و معنى: فِي سَبِيلِ اللَّهِ في طاعة اللّه. قوله: وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ أي: لا

يـدوسون مكانـا من أمكنـة الكفـار بأقـدامهم، أو بحوافر خيولهم، أو بأخفـاف رواحلهم، فيحصـل بسـبب ذلـك الغيظ للكفار. و الموطئ: اسم مكـان، و يجوز أن يكون مصـدرا وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا أى: يصـيبون من عـدوّهم قتلا، أو أسـرا، أو هزيمـة، أو غنيمة، و أصله من نلت الشيء أنال: أى أصيب. قال الكسائى: هو من قولهم: أمر منيل منه، و ليس هو من التناول، إنما التناول

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٣

من نلته بالعطية. قال غيره: نلت أنول من العطية، و نلته أناله: أدركته، و الضمير فى (به) يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة، و العمل الصالـح: الحسـنة المقبولة، أى: إلا كتبه اللّه لهم حسـنة مقبولة يجازيهم بها، و جملة إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ فى حكم التّعليل لما سبق مع كونه يشـمل كل محسن، و يصـدق على المـذكورين هنا صـدقا أوّليا. قوله: وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً معطوف على مـا قبله، أى: و لا يقع منهم الإنفاق فى الحرب، و إن كان شـيئا صـغيرا يسـيرا وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً و هو فى الأصل كل منفرج بين جبـال، و آكام يكون منفـذا للسـيل، و العرب تقول: واد و أوديـة على غير قياس. قال النحاس: و لا يعرف فيما علمت فاعل و أفعلة إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ أى: كتب لهم ذلـك الـذى عملوه من النفقـة و السـفر فى الجهاد لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ به أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: أحسن جزاء مـا كـانوا يعملون من الأعمـال، و يجوز أن يكون فى قوله: إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ضـمير يرجع إلى عمـل صالـح. و قـد ذهب جماعـة إلى أن هـذه الآيـة منسوخـة بالآيـة المـذكورة بعـدها، و هى قوله: وَ مـا كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فإنها تـدلّ على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض، و سيأتى.

و قـد أخرج ابن أبى حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصـحابة قال: لما نزلت: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ الآية، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم «و الذى بعثنى بالحقّ لو لا ضـعفاء الناس ما كانت سـرية إلا كنت فيها». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيـد فى قوله: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ قال هـذا حين كان الإسـلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم، فلما كثر الإسلام، و فشا قال اللّه: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. و أخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى و عبد اللّه بن المبارك و إبراهيم بن محمـد الفزارى و عيسـى بن يونس السّبيعى أنهم قالوا فى قوله تعالى: وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا قالوا: هـذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

وَ مـا كـانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الـدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

اختلف المفسـرون فى معنى: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد، لأنه سـبحانه لما بالغ فى الأمر بالجهاد، و الانتداب إلى الغزو كان المسـلمون إذا بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سرية من الكفار ينفرون جميعا، و يتركون المدينة خالية، فأخبرهم اللّه سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك؛ أى:

ما صـحّ لهم، و لا اسـتقام أن ينفروا جميعا، بل ينفر من كل فرقـة منهم طائفة من تلك الفرقة، و يبقى من عدا هذه الطائفة النافرة. قالوا: و يكون الضـمير فى قوله: لِيَتَفَقَّهُوا عائـدا إلى الفرقة الباقية. و المعنى: أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو، و من بقى من الفرقـة يقفون لطلب العلم، و يعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو، أو يـذهبون فى طلبه إلى المكان الـذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين،

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٤

و ينذروا قومهم؛ وقت رجوعهم إليهم؛ و ذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، و هى:

حكم مستقلّ بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم، و التفقه فى الدين، جعله اللّه سبحانه متّصلا بما دلّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد، فيكون السفر نوعين: الأوّل: سفر الجهاد، و الثانى: السّفر لطلب العلم.

و لا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم؛ إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر.

و الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية، و بما يتوصّل به إلى العلم بها؛ من لغة، و نحو، و صرف، و بيان، و أصول. و معنى: فَلَوْ لا نَفَرَ فهلّا نفر، و الطائفة فى اللغة: الجماعة. و قد جعل اللّه سبحانه الغرض من هذا: هو التفقه فى الدين، و إنذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين، و المطلبين الصحيحين، و هما تعلم العلم، و تعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوى، لا لغرض دينىّ، فهو كما قلت:

و طالب الدنيا بعلم الدّين أىّ بائس كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

و معنى: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ الترجّى لوقوع الحذر منهم عن التّفريط فيما يجب فعله: فيترك، أو فيما يجب تركه: فيفعل، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا فى مقاتلة من يليهم من الكفار، و أن يأخذوا فى حربهم بالغلظة. و الشدّة و الجهاد واجب لكل الكفار، و إن كان الابتداء بمن يلى المجاهدين منهم أهمّ و أقدم، ثم الأقرب فالأقرب، ثم أخبرهم اللّه بما يقوّى عزائمهم، و يثبت أقدامهم، فقال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ أى:

بالنّصرة له و تأييدهم على عدوّهم، و من كان اللّه معه لم يقم له شىء.

و قد أخرج أبو داود فى ناسخه، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نسخ هؤلاء الآيات انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا «۱» و إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ «۲» قوله: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً يقول: لتنفر طائفة و تمكث طائفة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فالماكثون مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هم الذين يتفقهون فى الدين، و ينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، و لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء اللّه فى كتابه و حدوده. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و البيهقى عنه نحوه من طريق أخرى بسياق أتمّ. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآية قال: ليست هذه الآية فى الجهاد، و لكن لما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على مضر بالسّنين أجدبت بلادهم، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد و يقبلوا بالإسلام و هم كاذبون، فضيقوا على أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و أجهدوهم، فأنزل اللّه يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين، فردّهم إلى عشائرهم، و حذر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ و فى الباب روايات عن جماعة من التابعين، و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ قال:

الأدنى، فالأدنى. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ قال: «الروم».

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً قال: شدّة.

---

(۱). التوبة: ۴۱.

(۲). التوبة: ۳۹.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۷۵

[سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۴ الى ۱۲۹]

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (١٢٥) أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

قوله: وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين، أى: إذا ما أنزل اللّه على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم سورة من كتابه العزيز فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ لإخوانه منهم أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة النازلة إِيماناً يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، و يجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام و تزهيدهم فيه، و أيكم: مرفوع بالابتداء و خبره: زادته. و قد تقدّم بيان معنى السورة. ثم حكى اللّه سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيمانا إلى إيمانهم، و الحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحى و ما يشتمل عليه من المنافع الدينية و الدنيوية وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و هم المنافقون فَزادَتْهُمْ السورة المنزلة رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ أى: خبثا إلى خبثهم الذى هم عليه هم من الكفر و فساد الاعتقاد، و إظهار غير ما يضمرونه و ثبتوا على ذلك و استمروا عليه إلى أن ماتوا كفارا منافقين، و المراد بالمرض هنا: الشك و النفاق؛ و قيل: المعنى: زادتهم إثما إلى إثمهم. قوله: أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ قرأ الجمهور يَرَوْنَ بالتحتية. و قرأ حمزة و يعقوب بالفوقية، خطابا للمؤمنين. و قرأ الأعمش «أو لم يروا» و قرأ طلحة بن مصرف/ أ و لا ترى خطابا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هى قراءة ابن مسعود. و معنى: يُفْتَنُونَ يختبرون، قاله ابن جرير و غيره أو يبتليهم اللّه سبحانه بالقحط و الشدّة، قاله مجاهد. و قال ابن عطية: بالأمراض و الأوجاع. قال قتادة و الحسن: بالغزو و الجهاد مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و يرون ما وعد اللّه من النصر ثُمَّ لا يَتُوبُونَ بسبب ذلك وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ و ثم لعطف ما بعدها على يرون، و الهمزة فى: أو لا يرون، للإنكار و التوبيخ، و الواو للعطف على مقدّر، أى: لا ينظرون و لا يرون، و هذا تعجيب من اللّه سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين، و تصلبهم فى النفاق، و إهمالهم للنظر و الاعتبار، ثم ذكر اللّه سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه، فقال وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ أى: نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين: هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحى، فإنه لا صبر لنا على استماعه، و لنتكلم بما نريد من الطعن و السخرية و الضحك؛ و قيل: المعنى: و إذا أنزلت سورة ذكر اللّه فيها فضائح المنافقين و مخازيهم قال بعض من يحضر مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للبعض الآخر منهم: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم. و حكى

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۷۶

ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال: نَظَرَ فى هذه الآية موضوع موضع قال، أى: قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد. قوله: ثُمَّ انْصَرَفُوا أى: عن ذلك المجلس إلى منازلهم، أو عن ما يقتضى الهداية و الإيمان إلى ما يقتضى الكفر و النفاق، ثم دعا اللّه سبحانه عليهم، فقال: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ أى: صرفها عن الخير و ما فيه الرشد لهم و الهداية، و هو سبحانه مصرّف القلوب و مقلّبها؛ و قيل: المعنى:

أنه خذلهم عن قبول الهداية؛ و قيل: هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم: قاتله اللّه. ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية، أو السبب الذى لأجله استحقوا الدّعاء عليهم بقوله:

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فقال: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ما يسمعونه لعدم تدبرهم و إنصافهم، ثم ختم اللّه سبحانه هذه السورة بما يهوّن عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة، فقال: لَقَدْ جاءَكُمْ يا معشر العرب رَسُولٌ أرسله اللّه إليكم له شأن عظيم مِنْ

أَنْفُسِكُمْ من جنسكم، فى كونه عربيا، و إلى كون هذه الآية خطابا للعرب ذهب جمهور المفسرين. و قال الزجاج: هى خطاب لجميع العالم.
و المعنى: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ جنسكم فى البشرية عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ما مصدرية. و المعنى:
شاق عليه عنتكم، لكونه من جنسكم و مبعوثا لهدايتكم، و العنت: التعب لهم و المشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف و نحوه، أو بعذاب الآخرة بالنار، أو بمجموعهما حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أى: شحيح عليكم بأن تدخلوا النّار، أو حريص على إيمانكم. و الأوّل أولى، و به قال الفرّاء. و الرؤوف و الرحيم، قد تقدّم بيان معناهما؛ أى: هذا الرسول بِالْمُؤْمِنِينَ منكم أيها العرب أو الناس رَؤُفٌ رَحِيمٌ ثم قال مخاطبا لرسوله، و مسليا له، و مرشدا له إلى ما يقوله عند أن يعصى: فَإِنْ تَوَلَّوْا أى: أعرضوا عنك، و لم يعملوا بما جئت به، و لا قبلوه فَقُلْ يا محمد: حَسْبِيَ اللَّهُ أى: كافى اللّه سبحانه المنفرد بالألوهية عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ أى: فوّضت جميع أمورى وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وصفه بالعظم، لأنه أعظم المخلوقات. و قد قرأ الجمهور بالجرّ على أنه صفة لعرش. و قرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب. و قد رويت هذه القراءة عن ابن كثير.
و قد أخرج ابن جرير و ابن حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم اللّه إيمانا و تصديقا و كانوا بها يستبشرون. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ قال: شكا إلى شكهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ قال: يقتلون. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد نحوه و قال: بالسنة و الجوع. و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: بالعدوّ.
و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: بالغزو فى سبيل اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن بكار ابن مالك قال: يمرضون فى كلّ عام مرّة أو مرّتين. و أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال: كانت لهم فى كلّ عام كذبة أو كذبتان. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة قال: كنا نسمع فى كلّ عام كذبة أو كذبتين، فيضلّ بها فئة من الناس كثير. و أخرج ابن جرير و ابن أبى

فتح القدير، ج‏2، ص: 477

حاتم عن ابن عباس فى قوله نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قال: هم المنافقون. و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: لا تقولوا: انصرفنا من الصّلاة، فإن قوما انصرفوا صرف اللّه قلوبهم، و لكن قولوا: قضينا الصلاة. و أخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر نحوه. و أقول: الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشرّ، و ليس فى إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك؛ و إلا لزم أن كل لفظ يستعمل فى لغة العرب فى الأمور المتعدّدة إذا استعمل فى القرآن فى حكاية ما وقع من الكفار، لا يجوز استعماله فى حكاية ما وقع عن أهل الخير، كالرجوع و الذهاب، و الدخول، و الخروج، و القيام، و القعود. و اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله، و وجه الملازمة ظاهر لا يخفى. و أخرج عبد بن حميد و الحارث بن أبى أسامة فى مسنده و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم فى دلائل النبوّة و ابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال:
ليس من العرب قبيلة إلا و قد ولدت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مضريها و ربيعها و يمانيها. و أخرج ابن سعد عنه فى قوله مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال: قد ولدتموه يا معشر العرب. و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و البيهقى فى سننه، و أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قال: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خرجت من نكاح، و لم أخرج من سفاح». و هذا فيه انقطاع، و لكنه قد وصله الحافظ

الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى و الواعى، فقال: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال:

أشهد على أبى يحدثنى عن أبيه عن جدّه عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «خرجت من نكاح و لم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى و أمى». و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فقال علىّ بن أبى طالب: يا رسول اللّه ما معنى من أنفسكم؟ قال: «نسبا و صهرا و حسبا، ليس فىّ و لا فى آبائى من لدن آدم سفاح، كلّنا نكاح». و أخرج الحاكم عن ابن عباس «أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قرأ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعنى من أعظمكم قدرا». و أخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول. و أخرج الطبرانى عنه أيضا نحوه. و أخرج ابن سعد و ابن عساكر عن عائشة نحوه. و فى الباب أحاديث بمعناه، و يؤيد ما فى صحيح مسلم و غيره من حديث واثلة ابن الأسقع قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «إنّ اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، و اصطفى من بنى كنانة قريشا، و اصطفى من قريش بنى هاشم، و اصطفانى من بنى هشام».

و أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه حين خلق الخلق جعلنى من خير خلقه، ثم حين فرّقهم جعلنى فى خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة، و حين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتا و خيرهم نفسا» و فى الباب أحاديث. و أخرج ابن أبى شيبة و إسحاق ابن راهويه و ابن منيع و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، من طريق يوسف

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٨

ابن مهران عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال: آخر آية أنزلت على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى لفظ: آخر ما أنزل من القرآن: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إلى آخر الآية، و روى عنه نحوه من طريق أخرى أخرجها عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن الضريس فى فضائله، و ابن أبى داود فى المصاحف، و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه، و البيهقى فى الدّلائل، و الخطيب فى تلخيص المتشابه، و الضياء فى المختارة. و أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال: لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم المدينة جاءته جهينة فقالوا له: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك و تأمنا قال: و لم سألتم هذا؟ قالوا: نطلب الأمن، فأنزل اللّه هذه الآية لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ يعنى: الكفار تولّوا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: إنّما سمّى العرش عرشا لارتفاعه، و قد رويت أحاديث كثيرة فى صفة العرش و ماهيته و قدره.

و إلى هنا انتهى الثلث الأوّل من التفسير المسمى «فتح القدير» الجامع بين فنى الرواية و الدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه: محمد بن على الشوكانى، غفر اللّه لهما. و كان تمام هذا الثلث فى نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرّم سنة ١٢٢٧ ه.

و الحمد للّه ربّ العالمين، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و آله و صحبه أجمعين.

الحمد له: انتهى سماعا على مؤلفه. أطال اللّه مدّته فى جمادى الأولى من عام سنة ١٢٣٥ ه.

يحيى بن على الشوكانى غفر اللّه لهما آمين

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٧٩

سورة يونس

اشارة

هى مكيـة إلاـ ثلاث آيات من قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ إلى آخرهنّ، و هكـذا روى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس. و حكى عن مقاتل أنها مكيـة إلا آيتين، و هى قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ فإنها نزلت فى المدينـة. و حكى عن الكلبى أنها مكيـة إلا قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ فإنها نزلت بالمدينة.

و حكى عن الحسن، و عكرمـة، و عطاء، و جابر: أنها مكيـة من غير اسـتثناء. و أخرج النّحّاس، و أبو الشـيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة يونس بمكة. و أخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال: كانت سورة يونس بعد السابعة. و أخرج ابن مردويه عن أنس قال: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه أعطانى الرائيات إلى الطّواسين مكان الإنجيل» «۱». و أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن الأحنف قال: صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس و هود و غيرهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۱ الى ۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (۱) أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (۲) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۴)

قوله: الر قـد تقـدّم الكلام مستوفى على هـذه الحروف الواقعـة فى أوائل السور فى أوّل سورة البقرة، فلا نعيده، ففيه ما يغنى عن الإعادة. و قـد قرأ بالإمالـة أبو عمرو، و حمزة، و خلف، و غيرهم. و قرأ جماعة من غير إمالة؛ و قد قيل: إن معنى: الر أنا اللّه أرى. قال النحاس: و رأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول، لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، و أنشد:

بالخير خيرات و إن شرّا فا «۲» ...

---

(۱). الرائيات: هى السور المبدوءة ب «الر» و الطواسين: هى السور المبدوءة ب «طسم» أو «طس».

(۲). و عجزه: و لا أريد الشرّ إلا أن تا.

أى: و إن شـرّا فشرّ. و قال الحسن و عكرمة: الر قسم، و قال سعيد عن قتادة: الر اسم للسورة، و قيل غير ذلك مما فيه تكلّف لعلم مـا اسـتأثر اللّه بعلمه، و قـد اتفق القراء: على أن الر ليس بآيـة، و على أن: طه، آيـة، و فى مقنع أبى عمرو الـدانى: أن العادّين لطه آية، هم الكوفيون فقط، قيل:

و لعل الفرق أن الر لا يشاكل مقاطع الآى التى بعـده، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى ما تضـمنته السورة من الآيات، و التبعيد للتعظيم، و اسم الإشارة مبتـدأ و خبره ما بعده. و قال مجاهد و قتادة: أراد التوراة، و الإنجيل، و سائر الكتب المتقدمة؛ فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث؛ و قيل: تِلْكَ بمعنى هذه، أى:

هـذه آيـات الكتاب الحكيم، و هو القرآن، و يؤيـد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمـة ذكر، و أن الحكيم من صفـات القرآن لاـ من صـفات غيره، و الْحَكِيم المحكم بالحلال، و الحرام، و الحـدود، و الأحكام، قاله أبو عبيـدة و غيره؛ و قيل: الحكيم معنـاه: الحـاكم، فهو فعيـل بمعنى فاعل كقوله: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ «۱»؛ و قيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، فهو فعيـل بمعنى مفعول، أى: حكم اللّه فيه بالعـدل و الإحسان، قاله الحسن و غيره؛ و قيل: الحكيم: ذو الحكمة، لاشتماله عليها، و الاستفهام فى قوله: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع و التوبيخ، و اسم كان أَنْ أَوْحَيْنا و خبرها عَجَباً أى: أ كان إيحاؤنا عجبا للناس. و قرأ ابن مسعود:

عجب على أنه اسم كـان «۲»، على أن كان تامـة «۳»، و أَنْ أَوْحَيْنا بـدل من عجب. و قرئ بإسكان الجيم من رَجُلٍ فى قوله: إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أى: من جنسـهم و ليس فى هـذا الإيحاء إلى رجل من جنسـهم ما يقتضـى العجب فإنه لا يلابس الجنس و يرشـده و يخبره عن اللّه سـبحانه إلا من كان من جنسه، و لو كان من غير جنسـهم لكان من الملائكـة أو من الجنّ و يتعذر المقصود حينئذ من الإرسال، لأنهم لا يأنسون إليه و لا يشاهدونه، و لو فرضـنا تشكّله لهم و ظهوره، فإمّا أن يظهر فى غير شكل النوع الإنسانى، و ذلك أوحش لقلوبهم و أبعد من أنسـهم، أو فى الشـكل الإنسانى، فلا بدّ من إنكارهم لكونه فى الأصل غير إنسان، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسـهم، و إن كان لكونه يتيما أو فقيرا، فـذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعا من خصال الخير و الشـرف ما لا يجمعه غيره، و بالغا فى كمال الصفات إلى حدّ يقصّر عنه من كان غنيا، أو كان غير يتيم، و قد كان لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قبل أن يصـطفيه اللّه بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس و أظهر من النهار، حتى كانوا يسـمونه الأمين. قوله: أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ فى موضع نصب بنزع الخافض، أى: بأن أنذر الناس، و قيل: هى المفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول، و قيل: هى المخففـة من الثقيلة. قوله قَدَمَ صِدْقٍ أى: منزل صدق، و قال الزجاج: درجة عالية. و منه قول ذى الرمة:

---

(۱). البقرة: ۲۱۳.

(۲). أى: و خبرها: أَنْ أَوْحَيْنا.

(۳). جاء فى الكشاف [۲/ ۲۲۴] و الأجود أن تكون كان تامة.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۸۱ لكم قدم لا ينكر النّاس أنّهامع الحسب العالى طمّت على البحر

و قال ابن الأعرابى: القدم: المتقدّم فى الشـرف، و قال أبو عبيدة و الكسائى: كل سابق من خير أو شـر فهو عند العرب قدم؛ يقال: لفلان قدم فى الإسلام، و له عندى قدم صدق، و قدم خير، و قدم شرّ؛ و منه قول العجاج:

زلّ بنو العوّام عند آل الحكمو تركوا الملك لملك ذى قدم

و قال ثعلب: القـدم: كلّ ما قـدمت من خير، و قال ابن الأنبارى: القـدم: كنايـة عن العمل الذى لا يقع فيه تأخير و لا إبطاء، و قال قتادة: سلف صدق، و قال الربيع: ثواب صدق، و قال الحسن: هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال الحكيم التّرمذى: قدمه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المقام المحمود، و قال مقاتل: أعمالا قدّموها، و اختاره ابن جرير، و منه قول ابن الوضّاح:

صلّ لذى العرش و اتّخذ قدماينجك يوم الخصام و الزّلل

و قيل: غير ما تقدّم، مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده. قوله: قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ

قرأ ابن كثير و عـاصم و حمزة و الكسائى و خلف و الأعمش و ابن محيصن: لَساحِرٌ على أنهم أرادوا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم باسم الإشارة. و قرأ الباقون: لسحر على أنهم أرادوا القرآن، و قد تقدّم معنى السحر فى البقرة، و جملة قالَ الْكافِرُونَ مستأنفة

كأنه قيل: ما ذا صنعوا بعد التعجب؛ و قال القفال: فيه إضمار، و التقدير: فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك. ثم إن اللّه سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذى حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم، فقال: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ «١» أى: من كان له هذا الاقتدار العظيم؛ الذى تضيق العقول عن تصوّره؛ كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلّا للتعجب؛ مع كون الكفار يعترفون بذلك، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول، و قد تقدّم تفسير هذه الآية فى الأعراف فى قوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ فلا نعيده هنا، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته و عظيم شأنه فقال: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِیعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ و ترك العاطف، لأن جملة يدبر كالتفسير و التفصيل لما قبلها؛ و قيل: هى فى محل نصب على الحال من ضمير استوى؛ و قيل: مستأنفة؛ جواب سؤال مقدّر، و أصل التّدبير النّظر فى أدبار الأمور و عواقبها لتقع على الوجه المقبول. و قال مجاهد: يقضيه و يقدّره وحده، و قيل: يبعث الأمر، و قيل: ينزل الأمر، و قيل: يأمر به و يمضيه، و المعنى متقارب، و اشتقاقه من الدبر، و الأمر: الشأن، و هو أحوال ملكوت السموات و الأرض و العرش و سائر الخلق. قال الزّجّاج: إنّ الكفّار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند اللّه، فردّ اللّه عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه فى شىء إلا بعد إذنه، لأنه أعلم بموضع الحكمة و الصواب. و قد تقدّم معنى الشفاعة فى البقرة، و فى هذه بيان لاستبداده بالأمور فى كل شىء سبحانه و تعالى، و الإشارة بقوله: ذلِكُمُ إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق و التدبير، أى:

---

(١). الأعراف: ٥٤.

الذى فعل هذه الأشياء العظيمة اللَّهُ رَبُّكُمْ و اسم الإشارة: مبتدأ، و خبره: الاسم الشريف، و ربكم بدل منه، أو بيان له، أو خبر ثان، و فى هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه و عظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التى لا تسمع و لا تبصر و لا تنفع و لا تضر؟ و الاستفهام فى قوله: أَ فَلا تَذَكَّرُونَ للإنكار و التوبيخ و التقريع، لأن من له أدنى تذكر و أقلّ اعتبار يعلم بهذا و لا يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا، فقال إِلَیْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِیعاً و فى هذا من التهديد و التخويف ما لا يخفى، و انتصاب وَعْدَ اللَّهِ على المصدر، لأن فى قوله: إِلَیْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِیعاً معنى الوعد، أو هو منصوب بفعل مقدر، و المراد بالمرجع: الرجوع إليه سبحانه إما بالموت، أو بالبعث، أو كل واحد منهما، ثم أكد ذلك الوعد بقوله: حَقًّا فهو تأكيد لتأكيد، فيكون فى الكلام من الوكادة ما هو الغاية فى ذلك. و قرأ ابن أبى عبلة: وعد الله حق على الاستئناف، ثم علّل سبحانه ما تقدّم بقوله: إِنَّهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ أى: إن هذا شأنه يبتدئ خلقه من التّراب ثم يعيده إلى التّراب، أو معنى الإعادة: الجزاء يوم القيامة. قال مجاهد: ينشئه ثم يميته، ثم يحييه للبعث؛ و قيل: ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال. و قرأ يزيد بن القعقاع: أنه يبدأ الخلق، بفتح الهمزة، فتكون الجملة فى موضع نصب بما نصب به وعد اللّه، أى: وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، و يجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق، و أجاز الفراء أن تكون أن فى موضع رفع، فتكون اسما. قال أحمد بن يحيى بن ثعلب: يكون التقدير: حقا إبداؤه الخلق، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال: لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ أى: بالعدل الذى لا جور فيه وَ الَّذِینَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذابٌ أَلِیمٌ بِما كانُوا یَكْفُرُونَ يحتمل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأوّل، أى: ليجزى الذين آمنوا، و يجزى الذين كفروا، و تكون جملة لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِیمٍ فى محل نصب على الحال هى و ما عطف عليها، أى: و عذاب أليم، و يكون التقدير هكذا: و يجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب و هذا

العذاب، و لكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب و هذا العذاب الأليم هما من الجزاء، و يمكن أن يقال: إن الموصول في وَ الَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ و ما بعده خبره، فلا يكون معطوفا على الموصول الأوّل، و الباء في بِما كانُوا يَكْفُرُونَ للسّببية، أي: بسبب كفرهم، و الحميم:

الماء الحار، و كلّ مسخّن عند العرب فهو حميم.

و قد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: الر قال: فواتح أسماء من أسماء اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقي في الأسماء و الصفات، و ابن النجار في تاريخه عنه قال: في قوله: الر أنا اللّه أرى. و أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله. و أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك مثله أيضا. و أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال:

يعني هذه. و أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ قال: الكتب التي خلت قبل القرآن. و أخرج ابن جرير، و ابن أبي حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما بعث

فتح القدير، ج‏2، ص: 483

اللّه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد، فأنزل اللّه: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ الآية وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ* «1» الآية، فلما كرر اللّه سبحانه عليهم الحجج قالوا: و إذا كان بشرا، فغير محمد كان أحق بالرسالة، ف لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «2» يقول: أشرف من محمد، يعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، و مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل اللّه ردّا عليهم:

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ «3» الآية. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عنه في قوله:

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأوّل. و أخرج ابن جرير عنه أيضا قال: أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم. و أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: القدم هو العمل الذي قدموا. قال اللّه سبحانه نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ و الآثار ممشاهم.

قال: مشى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب. و أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري في قوله: قَدَمَ صِدْقٍ قال: محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يشفع لهم. و أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب مثله. و أخرج الحاكم و صححه عن أبي بن كعب قال: سلف صدق. و الروايات عن التابعين و غيرهم في هذه كثيرة، و قد قدّمنا أكثرها. و أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد في قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ قال: يقضيه وحده، و في قوله إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه.

[سورة يونس (10): الآيات 5 الى 6]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

ذكر هاهنا بعض نعمه على المكلّفين، و هي ممّا يستدل به على وجوده، و وحدته، و قدرته، و علمه، و حكمته بإتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدّوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسّماوات و الأرض، و استواءه على العرش و غير ذلك. و الضياء قيل: جمع ضوء كالسياط و الحياض. و قرأ قنبل عن ابن كثير ضئاء بجعل الياء همزة مع الهمزة، و لا وجه له لأن ياءه

كانت واوا مفتوحة، و أصله ضواء فقلبت ياء لكسر ما قبلها. قال المهدوى: و من قرأ ضئاء بالهمزة فهو مقلوب، قدّمت الهمزة التى بعد الألف، فصارت قبل الألف، ثم قلبت الياء همزة، و الأولى أن يكون ضياء مصدرا لا جمعا، مثل قام يقوم قياما، و صام يصوم صياما، و لا بدّ من تقدير مضاف، أى: جعل الشمس ذات ضياء و القمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة، و كأنهما جعلا نفس الضياء و النور. قيل: الضياء أقوى من النور، و قيل: الضياء هو ما كان بالذات، و النور ما كان بالعرض، و من هنا قال الحكماء: إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. قوله: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ أى: قدر مسيره فى منازل، أو قدره ذا منازل، و الضمير راجع إلى القمر، و منازل القمر: هى المسافة التى

---

(١). الأنبياء: ٧.

(٢). الزخرف: ٣١.

(٣). الزخرف: ٣٢.

يقطعها فى يوم و ليلة بحركته الخاصة به و جملتها ثمانية و عشرون و هى معروفة، ينزل القمر فى كل ليلة منها منزلا لا يتخطاه، فيبدو صغيرا فى أول منازله، ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا، و إذا كان فى أواخر منازله رقّ و استقوس، ثم يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملا، أو ليلة إذا كان ناقصا، و الكلام فى هذا يطول و قد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أورده علينا بعض الأعلام. و قيل: إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس و القمر، كما قيل فى قوله تعالى: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها «١»، و فى قول الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بماعندك راض و الرأى مختلف

و قد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التّفسير، و الأولى: رجوع الضمير إلى القمر وحده، كما فى قوله تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ «٢»، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير، فقال: لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ فإن فى العلم بعدد السّنين من المصالح الدينية و الدنيوية ما لا يحصى، و فى العلم بحساب الأشهر و الأيام و الليالى من ذلك ما لا يخفى، و لولا هذا التقدير الذى قدّره اللّه سبحانه لم يعلم الناس بذلك و لا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم. و السّنة تتحصل من اثنى عشر شهرا، و الشّهر يتحصّل من ثلاثين يوما إن كان كاملا، و اليوم يتحصّل من ساعات معلومة هى أربع و عشرون ساعة لليل و النهار قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة فى أيام الاستواء، و يزيد أحدهما على الآخر فى أيام الزيادة و أيام النقصان، و الاختلاف بين السنة الشمسية و القمرية معروف؛ ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس و القمر و اختلاف تلك الأحوال إلا بالحق و الصواب دون الباطل و العبث، فالإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المذكور قبله، و الاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال، و معنى تفصيل الآيات تبيينها، و المراد بالآيات: التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما، و تدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوّليا فى ذلك. قرأ ابن كثير و أبو عمرو و حفص و يعقوب يُفَصِّلُ بالتحتية. و قرأ ابن السّميقع تفصل بالفوقية على البناء للمفعول، و قرأ الباقون بالنون.

و اختار أبو عبيد و أبو حاتم القراءة الأولى، و لعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ و بعده وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل و النهار و ما خلق فى السموات و الأرض من تلك المخلوقات، فقال إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ أى: الذين يتقون اللّه سبحانه و يجتنبون معاصيه و خصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر و التفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه حذرا منهم

عن الوقوع فی شیء مما یخالف مراد اللّه سبحانه، و نظرا لعاقبهٔ أمرهم، و ما یصلحهم فی معادهم. قال القفال: من تدبر فی هذه الأحوال علم أن الدنیا مخلوقهٔ لبقاء الناس فیها، و أن خالقها و خالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل، و إذا کان کذلک فلا بدّ من أمر و نهی.

و قد أخرج ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن السدّی فی قوله تعالی: جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً قال: لم یجعل الشمس کهیئهٔ القمر لکی یعرف اللیل من النهار، و هو قوله فَمَحَوْنا آیَهَ اللَّیْلِ «۳» الآیهٔ.

و أخرج أبو الشیخ، و ابن مردویه عن ابن عباس فی الآیهٔ قال: وجوههما إلی السّموات، و أقفیتهما إلی الأرض.

---

(۱). الجمعهٔ: ۱۱.

(۲). یس: ۳۹.

(۳). الإسراء: ۱۲.

فتح القدیر، ج۲، ص: ۴۸۵

و أخرج ابن مردویه عن عبد اللّه بن عمرو مثله. و أخرج أبو الشیخ عن خلیفهٔ العبدی قال: لو أن اللّه تبارک و تعالی لم یعبد إلا عن رؤیهٔ ما عبده أحد، و لکن المؤمنون تفکّروا فی مجیء هذا اللیل إذا جاء اللیل جاء فملأ کل شیء و غطّی کلّ شیء، و فی مجیء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان اللیل، و فی السحاب المسخّر بین السماء و الأرض، و فی النجوم، و فی الشتاء و الصیف، فو اللّه ما زال المؤمنون یتفکّرون فیما خلق ربهم تبارک و تعالی حتی أیقنت قلوبهم بربهم.

[سورهٔ یونس (۱۰): الآیات ۷ الی ۱۰]

إِنَّ الَّذِینَ لا یَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَیاهِ الدُّنْیا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ (۷) أُولئِکَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُمْ بِإِیمانِهِمْ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ (۹) دَعْواهُمْ فِیها سُبْحانَکَ اللَّهُمَّ وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۰)

شرع اللّه سبحانه فی شرح أحوال من لا یؤمن بالمعاد، و من یؤمن به، و قدّم الطائفهٔ التی لم تؤمن، لأنّ الکلام فی هذه السورهٔ مع الکفّار الذین یعجبون مما لا عجب فیه، و یهملون النّظر و التّفکّر فیما لا ینبغی إهماله مما هو مشاهد لکل حیّ طول حیاته، فیتسبب عن إهمال النظر، و التفکر الصادق: عدم الإیمان بالمعاد. و معنی الرجاء هنا الخوف، و منه قول الشاعر:

إذا لسعته النّحل لم یرج لسعهاو خالفها فی بیت نوب عواسل

و قیل: یرجون: یطمعون، و منه قول الشاعر:

أ ترجو بنی مروان سمعی و طاعتیو قومی تمیم و الفلاهٔ و رائیا

فالمعنی علی الأوّل: لا یخافون عقابا، و علی الثانی: لا یطمعون فی ثواب إذا لم یکن المراد باللقاء حقیقته؛ فإن کان المراد به حقیقته کان المعنی: لا یخافون رؤیتنا، أو لا یطمعون فی رؤیتنا؛ و قیل المراد بالرجاء هنا:

التوقع فیدخل تحته الخوف و الطمع، فیکون المعنی: لا یَرْجُونَ لِقاءَنا لا یتوقعون لقاءنا فهم لا یخافونه و لا یطمعون فیه وَ رَضُوا بِالْحَیاهِ الدُّنْیا أی: رضوا بها عوضا عن الآخرهٔ، فعملوا لها وَ اطْمَأَنُّوا بِها أی سکنت أنفسهم إلیها و فرحوا بها وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیاتِنا غافِلُونَ لا یعتبرون بها و لا یتفکرون فیها أُولئِکَ مَأْواهُمُ أی: مثواهم و مکان إقامتهم النار، و الإشارهٔ إلی المتصفین بالصفات السابقهٔ من عدم الرجاء، و حصول الرضا، و الاطمئنان، و الغفلهٔ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ أی: بسبب ما کانوا یکسبون من الکفر و

التكـذيب بالمعاد، فهـذا حال الـذين لا يؤمنون بالمعاد، و أما حال الـذين يؤمنون به فقـد بينه سـبحانه بقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أى: فعلوا الإيمـان الـذى طلبه اللّه منهم بسـبب مـا وقع منهم من التفكر و الاعتبار فيما تقـدّم ذكره من الآيات وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ التى يقتضـيها الإيمان، و هى ما شرعه اللّه لعباده المؤمنين يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ أى: يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك

فتح القدير، ج٢، ص: ۴٨۶

إلى الجنـة، و جملـة تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهـارُ مستأنفة، أو خبر ثـان، أو فى محل نصب على الحال. و معنى من تحتهم: من تحت بساتينهم، أو من بين أيديهم، لأنهم على سـرر مرفوعة. و قوله: فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ متعلق بتجرى أو بيهديهم أو خبر آخر أو حال من الأنهار. قوله: دَعْواهُمْ أى: دعاؤهم و نـداؤهم، و قيل: الدعاء العبادة، كقوله تعالى: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» و قيل معنى دعواهم هنا:

الادّعاء الكائن بين المتخاصـمين. و المعنى: أن أهل الجنـة يـدعون فى الـدنيا و الآخرة تنزيه اللّه سـبحانه من المعايب و الإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصـله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصـمه إلى من يحكم بينهما، و قيل معناه: طريقتهم و سيرتهم، و ذلك أن المـدّعى للشـىء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن الملازمة و إن لم يكن فى قوله سُبْحانَكَ اللَّهُمَ دعوى و لا دعاء؛ و قيل معناه: تمنيهم كقوله: وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ «٢» و كأن تمنيهم فى الجنة ليس إلا تسبيح اللّه و تقديسه، و هو مبتدأ و خبره سبحانك اللهم، و فِيها أى:

فى الجنة. و المعنى على القول الأوّل: أن دعاءهم الذى يدعون به فى الجنة هو تسبيح اللّه و تقديسه. و المعنى:

نسـبحك يا اللّه تسبيحا، قوله: وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَـلامٌ أى: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل، أو تحية اللّه، أو الملائكـة لهم، فيكون من إضافـة المصدر إلى المفعول. و قد مضـى تفسـير هذا فى سورة النساء، قوله: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أى: و خاتمـة دعائهم الـذى هو التسبيح أن يقولوا: الحمد للّه رب العالمين. قال النّحّاس: مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة. و المعنى:

أنه الحمـد للّه، و قـال محمـد بن يزيـد المـبرّد: و يجوز أن تعملهـا خفيفـة عملهـا ثقيلـة. و الرفع أقيس، و لم يحـک أبو عبيـد إلا التخفيف. و قرأ ابن محيصن: بتشديد أنّ و نصب الحمد.

و قـد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حـاتم عن مجاهـد فى قوله: وَ رَضُوا بِالْحَيـاةِ الـدُّنْيا قال: مثل قوله مَنْ كانَ يُرِيـدُ الْحَياةَ الـدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها «٣» الآية. و أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن مجاهد أيضا فى قوله: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ قال: يكون لهم نور يمشون به. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله:

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ قال: حدّثنا الحسن قال: بلغنا أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسـنة و ريـح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فو اللّه إنّى لأراک عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون نورا و قائـدا إلى الجنـة؛ و أمـا الكـافر فـإذا خرج من قـبره صوّر له عمله فى صورة سـيئة و ريـح منتنـة، فيقول له: مـا أنت؟ فو اللّه إنى لأراک عين امرئ سوء، فيقول له:

أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار». و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن جرير نحوه.

و أخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قـال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم: «إذا قالوا سـبحانک اللهم أتاهم ما اشـتهوا من الجنّة من ربّهم». و قـد روى نحو هـذا عن جماعـة من التابعين. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ عن أبى الهذيل قال: الحمد

أوّل الكلام و آخر الكلام، ثم تلا: وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

(۱). مريم: ۴۸.

(۲). يس: ۵۷.

(۳). هود: ۱۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۴۸۷

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۱ الى ۱۶]

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۱۳) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۴) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵)

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶)

لما ذكر اللّه سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد، ذكر أنّ هذا العذاب من حقّه أن يتأخّر عن هذه الحياة الدنيا. قال القفّال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبين اللّه سبحانه أنه لا مصلحة في إيصال الشرّ إليهم، فلعلهم يتوبون و يخرج من أصلابهم من يؤمن، قيل معنى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لو عجل اللّه للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب و الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي: ماتوا؛ و قيل المعنى: لو فعل اللّه مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم؛ و قيل: الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث، و ما يترتب عليه. قال في الكشاف: وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته و إسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل له، و المراد أهل مكة، و قوله: فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ «۱» الآية. قيل: و التقدير: و لو يعجّل اللّه لهم الشرّ عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به، فحذف ما حذف لدلالة الباقي عليه. قال أبو عليّ الفارسي: في الكلام حذف، و التقدير:

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيلا مثل اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ، ثم حذف تعجيلا و أقام صفته مقامه، ثم حذف صفته و أقام المضاف إليه مقامه قال: هذا مذهب الخليل و سيبويه، و هو قول الأخفش و الفرّاء، قالوا: و أصله كاستعجالهم، ثم حذف الكاف و نصب. قال الفراء: كما تقول ضربت زيدا ضربك: أي كضربك، و معنى: لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لأهلكوا، و لكنه سبحانه لم يعجل لهم الشرّ فأمهلوا، و قيل معناه: أميتوا، و قرأ ابن عامر: لقضى على البناء للفاعل، و هي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ قوله: فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ الفاء للعطف على مقدّر يدلّ عليه الكلام، لأن قوله: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ يتضمن نفي التعجيل، فكأنه قيل: لكن لا يعجل لهم الشرّ، و لا يقضي إليهم أجلهم، فنذرهم إلخ؛ أي: فنتركهم و نمهلهم، و الطغيان: التطاول، و هو العلوّ و الارتفاع، و معنى يَعْمَهُونَ يتحيرون؛ أي: نتركهم يتحيرون في تطاولهم، و تكبرهم، و عدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه و خذلانا؛ ثم بين اللّه سبحانه أنهم كاذبون في استعجال الشرّ و لو أصابهم ما طلبوه

(١). الأنفال: ٣٢.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٨٨

لأظهروا العجز و الجزع فقال: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ أى: هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به دَعانا لِجَنْبِهِ اللام للوقت كقوله جئته لشهر كذا، أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه، و تكون اللام بمعنى على، أى: دعانا مضطجعا أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً و كأنه قال:

دعانا فى جميع الأحوال المذكورة و غيرها، و خصّ المذكورة بالذكر لأنها الغالب على الإنسان، و ما عداها نادر كالركوع و السجود، و يجوز أن يراد أنه يدعو اللّه حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، و قاعدا غير قادر على القيام، و قائما غير قادر على المشى، و الأوّل أولى. قال الزجاج: إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرّة، لأنه إذا كان داعيا على الدوام، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب. قوله: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ أى: فلما كشفنا عنه ضرّه الذى مسه كما تفيده الفاء مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضرّ، و نسى حالة الجهد و البلاء، أو مضى عن موقف الدعاء و التضرّع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضرّ إلى كشف ذلك الضرّ الذى مسه. و قيل:

معنى مَرَّ استمرّ على كفره و لم يشكر و لم يتعظ. قال الأخفش: «أن» فى كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا هى المخففة من الثقيلة، و المعنى: كأنه. انتهى. و الجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال. و هذه الحال التى ذكرها اللّه سبحانه للداعى لا تختصّ بأهل الكفر، بل تتّفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء، و قلوبهم بالخشوع و التذلّل عند نزول ما يكرهون بهم. فإذا كشفه اللّه عنهم غفلوا عن الدّعاء و التضرّع، و ذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم اللّه بها عليهم من إجابة دعائهم، و رفع ما نزل بهم من الضرّ، و دفع ما أصابهم من المكروه. و هذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم و الكافر كما يشعر به لفظ الناس، و لفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك، و ذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء، حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه و لا نقدر على غيره، و ما أغناك عنه و أحوجنا إليه و لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ «١» و الإشارة بقوله: كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلى مصدر الفعل المذكور بعد كما مرّ غير مرة أى:

مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم. و المسرف فى اللغة: هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، و محل كذلك النصب على المصدرية. و التزيين هو إما من جهة اللّه تعالى على طريقة التحلية و عدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. و المعنى: أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء، و الغفلة عن الشكر، و الاشتغال بالشهوات. ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع و الزجر عما صنعه هؤلاء فقال: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا يعنى الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى: أهلكناهم من قبل زمانكم؛ و قيل: الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة فى الزجر، و لَمَّا ظرف لأهلكنا، أى: أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب، و التجارى «٢» على الرسل، و التطاول فى المعاصى من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم، و الواو فى

(١). إبراهيم: ٧.

(٢). قال فى القاموس: و الجراية بالياء نادر: الشجاعة.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٤٨٩

وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ للحال بإضمار قد، أى: و قد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات، أى: الآيات البينات

الواضحات الدلالة على صدق الرسل؛ و قيل: الواو للعطف على ظَلَمُوا و الأول أولى؛ و قيل: المراد بالظلم هنا هو الشرك، و الواو فى وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا للعطف على ظلموا، أو الجملة اعتراضية، و اللام لتأكيد النفى، أى و ما صح لهم و ما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك و سلب الألطاف عنهم كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أى: مثل ذلك الجزاء نجزى القوم المجرمين، و هو الاستئصال الكلى لكل مجرم، و هذا وعيد شديد لمن كان فى عصره من الكفار. أو لكفار مكة على الخصوص، ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ أى: استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها، و تنظرون آثارها، و الخلائف جمع خليفة، و قد تقدّم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام، و اللام فى لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لام كى، أى: لكى ننظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشرّ، و كَيْفَ فى محل نصب بالفعل الذى بعده، أى: لننظر أى عمل تعملونه، أو فى محل نصب على الحالية، أى: على أىّ حالة تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف، ثم حكى اللّه سبحانه نوعا ثالثا من تعنّتهم و تلاعبهم بآيات اللّه فقال: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ و فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم، و المراد بالآيات: الآيات التى فى الكتاب العزيز، أى: و إذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد، و إبطال الشرك حال كونها بينات، أى: واضحات الدلالة على المطلوب قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا و هم المنكرون للمعاد، و قد تقدّم تفسيره قريبا، أى: قالوا لمن يتلوها عليهم و هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ طلبوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذمّ عبادة الأوثان، و الوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله، و إما تبديل هذا القرآن بنسخ آياته، أو كلها و وضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم، و يلائم غرضهم، فأمره اللّه أن يقول فى جوابهم: ما يَكُونُ لِي أى: ما ينبغى لى، و لا يحلّ لى أن أبدّله من تلقاء نفسى؛ فنفى عن نفسه أحد القسمين، و هو التبديل لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا، بخلاف القسم الآخر و هو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس فى وسعه، و لا يقدر عليه، و قيل: إنه صلّى اللّه عليه و سلّم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نفى أصعبهما بالطريق الأولى، و هذا منه صلّى اللّه عليه و سلّم من باب مجاراة السفهاء، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره اللّه سبحانه بذلك. و هو أعلم بمصالح عباده، و بما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة، و السؤالات الباردة، و تِلْقاءِ مصدر استعمل ظرفا، من قبل نفسى، قال الزجاج:

سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث و النشور؛ و قيل: سألوه أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم و تسفيه أحلامهم؛ و قيل: سألوه أن يحوّل الوعد وعيدا، و الحرام حلالا، و الحلال حراما، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له و لا استقام أن يبدّله من تلقاء نفسه بقوله: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ أى: ما أتبع شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلىّ من عند اللّه سبحانه من غير تبديل، و لا تحويل، و لا تحريف، و لا تصحيف، فقصر حاله صلّى اللّه عليه و سلّم على اتباع ما يوحى إليه، و ربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم بأن

القرآن كلامه، و أنه يقدر على الإتيان بغيره، و التبديل له، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدّمه من الجواب قبلها، و اليوم العظيم هو يوم القيامة، أى: إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند اللّه، و أنه صلّى اللّه عليه و سلّم إنما يبلغ إليهم منه ما أمره اللّه بتبليغه لا يقدر على غير ذلك، فقال: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ أى: إن هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة اللّه و إرادته و لو شاء اللّه أن لا أتلوه عليكم، و لا أبلغكم إياه ما تلوته، فالأمر كله منوط بمشيئة اللّه ليس لى فى ذلك شىء، قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ معطوف على ما تلوته، و لو شاء ما أدراكم بالقرآن: أى ما أعلمكم به

على لسانى يقال: دريت الشيء و أدرانى اللّه به. هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه:
أعلمه يعلمه. و قرأ ابن كثير: و لأدراكم به بغير ألف بين اللام و الهمزة و المعنى: و لو شاء اللّه لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم، فتكون اللام لام التأكيد دخلت على ألف أفعل. و قد قرئ أدرؤكم بالهمزة فقيل هى منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد، و يحتمل أن يكون من درأته: إذا دفعته، و أدرأته: إذا جعلته داريا. و المعنى: لأجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤوننى بالجدال و تكذبوننى. و قرأ ابن عباس و الحسن و لا أدراتكم به قال أبو حاتم: أصله و لا أدريتكم به، فأبدل من الياء ألفا. قال النحّاس: و هذا غلط.
و الرواية عن الحسن و لا أدرأتكم بالهمزة. قوله: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ تعليل لكون ذلك بمشيئة اللّه و لم يكن من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلا التبليغ؛ أى قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله، أى: زمانا طويلا و هو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفوننى بالصدق و الأمانة، لست ممن يقرأ، و لا ممن يكتب أَ فَلا تَعْقِلُونَ الهمزة: للتقريع و التّوبيخ؛ أى: أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدّة الطويلة بالصدّق و الأمانة، و عدم قراءتى للكتب المنزلة على الرّسل، و تعلّمى لما عند أهلها من العلم، و لا طلبى لشىء من هذا الشأن و لا حرصى عليه، ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بسورة منه، و قصرتم عن معارضته و أنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم؟
و قد أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:
وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الآية، قال: هو قول الإنسان لولده و ماله إذا غضب عليهم: اللهم لا تبارك فيه و العنه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ قال: لأهلك من دعا عليه و أماته. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد ابن جبير فى الآية قال: قول الرجل للرجل: اللهم العنه، اللهم اخزه، و هو يحبّ أن يستجاب له. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: هو دعاء الرجل على نفسه و ماله بما يكره أن يستجاب له. و حكى القرطبى فى تفسيره عن ابن إسحاق و مقاتل فى الآية قالا: هو قول النّضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فلو عجّل لهم هذا لهلكوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: دَعانا لِجَنْبِهِ قال: مضطجعا. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة
فتح القدير، ج‏2، ص: 491
فى قوله: دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً قال: على كل حال. و أخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال:
ادع اللّه يوم سرّائك يستجاب لك يوم ضرّائك.
و أقول أنا: أكثر من شكر اللّه على السرّاء يدفع عنك الضرّاء، فإنّ وعده للشّاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم، لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم و سلب النقم، فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان فى كل زمان، و نحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان فى كل زمان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ الآية، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال: صدق ربنا، ما جعلنا خلائف فى الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا اللّه خير أعمالكم بالليل و النهار و السرّ و العلانية. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن جريج قال: خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قال: هذا قول مشركى أهل مكة للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ أعلمكم به. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ و لا أشعركم به. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير عن ابن عباس أنه

كان يقرأ و لا- أنذرتكم به. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ قال: لم أتل عليكم و لم أذكر. و أخرجا عنه قال: لبث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه، و رأى الرؤيا سنتين، و أوحى اللّه إليه عشر سنين بمكة، و عشرا بالمدينة، و توفى و هو ابن اثنتين و ستين سنة.

و أخرج ابن أبى شيبة و البخارى و الترمذى عن ابن عباس قال: بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، و مات و هو ابن ثلاث و ستين سنة.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٧ الى ١٩]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ ما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ استفهام فيه معنى الجحد، أى: لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الكذب، و زيادة كَذِباً مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على اللّه هو كذب فى نفسه. فربما يكون الافتراء كذبا فى الإسناد فقط، كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو، ذكر معنى هذا أبو السعود فى تفسيره، قيل: و هذا من جملة رده صلّى اللّه عليه و سلّم على المشركين لما طلبوا منه أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن، أو يبدله، فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على اللّه، و لا ظلم يماثل ذلك، و قيل: المفترى على اللّه

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٩٢

الكذب: هم المشركون، و المكذب بآيات اللّه: هم أهل الكتاب إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على اللّه كذبا أو كذب بآياته، أى: لا- يظفرون بمطلوب، و لا- يفوزون بخير، و الضمير فى إِنَّهُ للشأن: أى: إن الشأن هذا. ثم نعى اللّه سبحانه عليهم عبادة الأصنام، و بين أنها لا تنفع من عبدها و لا تضرّ من لم يعبدها فقال: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى: متجاوزين اللّه سبحانه إلى عبادة غيره، لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ أى: ما ليس من شأنه الضرّر و لا النفع، و من حق المعبود أن يكون مثيبا لمن أطاعه، معاقبا لمن عصاه، و الواو لعطف هذه الجملة على جملة وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا و ما فى ما لا يَضُرُّهُمْ موصولة أو موصوفة، و الواو فى وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ للعطف على وَ يَعْبُدُونَ زعموا: أنهم يشفعون لهم عند اللّه فلا يعذبهم بذنوبهم، و هذا غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة فى المآل ممن لا يوجد منه نفع و لا ضرّ فى الحال؛ و قيل:

أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يجيب عنهم فقال: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ قرأ أبو السّمّال العدوىّ: تُنَبِّئُونَ بالتخفيف من أنبأ ينبئ. و قرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبئ. و المعنى: أ تخبرون اللّه أن له شركاء فى ملكه يعبدون كما يعبد، أو أ تخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه، و اللّه سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا و لا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم فى سماواته و فى أرضه؟ و هذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلا، و فى هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزّه اللّه سبحانه نفسه عن إشراكهم، و هو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل فى الكلام الذى أمر اللّه سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم، و يحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم جوابا عليهم. قرأ حمزة و الكسائى: عما يشركون بالتحتية. و قرأ الباقون:

بالفوقية، و اختار القراءة الأولى أبو عبيد. قوله: وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قد تقدّم تفسيره فى البقرة. و المعنى: أن

الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحّدة للّه سبحانه مؤمنة به، فصار البعض كافرا و بقى البعض الآخر مؤمنا، فخالف بعضهم بعضا. و قال الزّجّاج: هم العرب كانوا على الشّرك. و قال:

كلّ مولود يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ. و الأوّل أظهر. و ليس المراد: أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للأخرى، بل المراد: كفر البعض و بقى البعض على التوحيد كما قدّمنا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ و هى أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلّا يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فى الدنيا فِيما هم فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التى لا تتخلف، و قيل معنى: لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بإقامة الساعة عليهم، و قيل: لفرغ من هلاكهم، و قيل: الكلمة إن اللّه أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب فى الدنيا؛ و قيل: الكلمة: أنه لا يأخذ أحدا إلّا بحجة، و هى إرسال الرسل كما قال تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»؛ و قيل: الكلمة: قوله: «سبقت رحمتى غضبى». و قرأ عيسى بن عمر لَقُضِيَ بالبناء للفاعل. و قرأ من عداه: بالبناء للمفعول.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قال النّضر: إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات و العزّى،

---

(١). الإسراء: ١٥.

فتح القدير، ج٢، ص: ٤٩٣

فأنزل اللّه: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ، وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ الآية. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قال ابن مسعود: كانوا على هدى. و روى أنه قرأ هكذا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً قال: آدم وحده فَاخْتَلَفُوا قال: حين قتل أحد ابنى آدم أخاه. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى الآية قال: كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا، فلولا أن ربّك أجّلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

قوله: وَ يَقُولُونَ ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم، و هو معطوف على قوله:

وَ يَعْبُدُونَ و جاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه. قيل: و القائلون هم أهل مكة، كأنهم لم يعتدّوا بما قد نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الآيات الباهرة، و المعجزات القاهرة التى لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلا بينا، و مصدّقا قاطعا؛ أى: هلّا أنزلت عليه آية من الآيات التى نقترحها عليه، و نطلبها منه كإحياء الأموات، و جعل الجبال ذهبا، و نحو ذلك؟ ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عنهم فقال: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أى: إن نزول الآية غيب، و اللّه هو المختص بعلمه، المستأثر به، لا علم لى، و لا لكم، و لا لسائر مخلوقاته فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه من الآيات إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لنزولها، و قيل:

المعنى: انتظروا قضاء اللّه بينى و بينكم بإظهار الحق على الباطل. قوله وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ

فِي آياتِنا لما بيّن سبحانه فی الآیة المتقدّمة أنّهم طلبوا آیة عنادا، و مکرا، و لجاجا، و أکد ذلک بما ذکره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء؛ فعلوا مقابل هذه النعمة العظیمة المکر منهم فی آیات اللّه؛ و المراد بإذاقتهم رحمته سبحانه: أنه وسع علیهم فی الأرزاق، و أدرّ علیهم النعم بالمطر و صلاح الثمار بعد أن مستهم الضرّاء بالجدب و ضیق المعایش، فما شکروا نعمته، و لا قدروها حق قدرها، بل أضافوها إلی أصنامهم التی لا تنفع و لا تضرّ، و طعنوا فی آیات اللّه، و احتالوا فی دفعها بکل حیلة، و هو معنی المکر فیها. و إذا الأولی: شرطیة، و جوابها: إذا لهم مکر، و هی: فجائیة، ذکر معنی ذلک الخلیل

و سیبویه. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن یجیب عنهم فقال قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَکْراً أی: أعجل عقوبة، و قد دلّ أفعل التفضیل علی أن مکرهم کان سریعا، و لکن مکر اللّه أسرع منه. و إذا الفجائیة: یستفاد منها السرعة، لأن المعنی أنهم فاجؤوا المکر، أی: أوقعوه علی جهة الفجاءة و السرعة، و تسمیة عقوبة اللّه سبحانه: مکرا، من باب المشاکلة کما قرر فی مواطن من عبارات الکتاب العزیز إِنَّ رُسُلَنا یَکْتُبُونَ ما تَمْکُرُونَ قرأ یعقوب فی روایة، و أبو عمرو فی روایة: یمکرون بالتحتیة، و قرأ الباقون: بالفوقیة. و المعنی: أن رسل اللّه و هم الملائکة یکتبون مکر الکفار لا یخفی ذلک علی الملائکة الذین هم الحفظة، فکیف یخفی علی العلیم الخبیر؟

و فی هذا وعید لهم شدید، و هذه الجملة تعلیلیة للجملة التی قبلها، فإن مکرهم إذا کان ظاهرا لا یخفی، فعقوبة اللّه کائنة لا محالة، و معنی هذه الآیة قریب من معنی الآیة المتقدّمة و هی: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ «۱» و فی هذه زیادة، و هی أنهم لا یقتصرون علی مجرد الإعراض، بل یطلبون الغوائل لآیات اللّه بما یدبرونه من المکر هُوَ الَّذِی یُسَیِّرُکُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتی ینکشف المراد انکشافا تاما، و معنی تسییرهم فی البر أنهم یمشون علی أقدامهم التی خلقها لهم لینتفعوا بها و یرکبون ما خلقه اللّه لرکوبهم من الدواب، و معنی تسییرهم فی البحر: أنه ألهمهم لعمل السفائن التی یرکبون فیها فی لجج البحر، و یسر ذلک لهم، و دفع عنهم أسباب الهلاک. و قد قرأ ابن عامر و هو الذی ینشرکم فی البحر بالنون و الشین المعجمة من النشر کما فی قوله فَانْتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ «۲» أی: ینشرهم سبحانه فی البحر فینجی من یشاء، و یغرق من یشاء حَتَّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ الفلک: یقع علی الواحد و الجمع، و یذکر و یؤنث، و قد تقدّم تحقیقه وَ جَرَیْنَ أی: السفن بهم؛ أی: بالراکبین علیها، و حتی: لانتهاء الغایة، و الغایة:

مضمون الجملة الشرطیة بکمالها، فالقیود المعتبرة فی الشرط ثلاثة: أوّلها: الکون فی الفلک، و الثانی: جریها بهم بالریح الطیبة التی لیست بعاصفة، و ثالثها: فرحهم. و القیود المعتبرة فی الجزاء ثلاثة: الأوّل:

جاءَتْها أی: جاءت الفلک ریح عاصف، أو جاءت الریح الطیبة، أی: تلقتها ریح عاصف، و العصوف: شدّة هبوب الریح؛ و الثانی: وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ أی: من جمیع الجوانب للفلک، و المراد: جاء الراکبین فیها، و الموج: ما ارتفع من الماء فوق البحر؛ و الثالث: ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِیطَ بِهِمْ أی: غلب علی ظنونهم الهلاک، و أصله من إحاطة العدوّ بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلا فی الهلاک، و إن کان بغیر العدو کما هنا، و جواب إذا فی قوله إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ قوله جاءَتْها إلی آخره، و یکون قوله: دَعَوُا اللَّهَ بدلا من ظنوا، لکون هذا الدعاء الواقع منهم إنما کان عند ظنّ الهلاک، و هو الباعث علیه، فکان بدلا منه بدل اشتمال لاشتماله علیه، و یمکن أن یکون جملة دعوا: مستأنفة، کأنه قیل: ماذا صنعوا؟ فقیل: دعوا اللّه، و فی قوله: وَ جَرَیْنَ بِهِمْ التفات من الخطاب إلی الغیبة، جعل الفائدة فیه صاحب الکشاف: المبالغة. و قال الرازی: الانتقال من مقام الخطاب إلی مقام الغیبة فی هذا المقام دلیل المقت، و التبعید، کما أن عکس ذلک فی قوله: إِیَّاکَ نَعْبُدُ «۳» دلیل الرّضا و التّقریب، و انتصاب مخلصین علی الحال؛ أی: لم یشوبوا دعاءهم بشیء من الشوائب، کما جرت عادتهم فی غیر هذا الموطن أنهم یشرکون

(۱). یونس: ۱۲.

(۲). الجمعة: ۱۰.

(۳). الفاتحة: ۵.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۹۵

أصنامهم فى الدعاء، و ليس هذا لأجل الإيمان باللّه وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى اللّه سبحانه. و فى هذا دليل على أنّ الخلق جبلوا على الرجوع إلى اللّه فى الشدائد، و أن المضطرّ يجاب دعاؤه و إن كان كافرا. و فى هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم فى هذه الحالة، و ما يشابهها، فيا عجبا! لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات؟ فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، و لم يخلصوا الدعاء للّه كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع، فانظر هداك اللّه ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، و أين وصل بها أهلها، و إلى أين رمى بهم الشيطان، و كيف اقتادهم و تسلط عليهم؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله و لا فى بعضه من عباد الأوثان، فإنا للّه و إنا إليه راجعون، و اللام فى: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ هى اللام الموطئة للقسم، أى: قائلين ذلك، و الإشارة بقوله: مِنْ هذِهِ إلى ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك فى البحر، و اللام فى لَنَكُونَنَ جواب القسم، أى: لنكونن فى كل حال ممن يشكر نعمك التى أنعمت بها علينا، منها هذه النعمة التى نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا، و تنجينا منها؛ و قيل: إن هذه الجملة مفعول دعوا فَلَمَّا أَنْجاهُمْ اللّه من هذه المحنة التى وقعوا فيها، و أجاب دعاءهم لم يفعلوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، و جعلوا البغى فى الأرض بغير الحق مكان الشكر. و إذا فى: إِذا هُمْ يَبْغُونَ هى: الفجائية؛ أى: فاجؤوا البغى فى الأرض بغير الحق، و البغى: هو الفساد، من قولهم بغى الجرح:

إذا ترامى فى الفساد، و زيادة: فى الأرض، للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، و البغى و إن كان ينافى أن يكون بحق، بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة: بغير الحق، إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم، بل تمرّدا، و عنادا، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة. قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا لما ذكر سبحانه أنّ هؤلاء المتقدّم ذكرهم يبغون فى الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغى، و سوء مغبّته. قرأ ابن إسحاق و حفص و المفضّل بنصب متاع، و قرأ الباقون بالرفع. فمن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة، أى: بغيكم وبال على أنفسكم، فيكون بغيكم: مبتدأ، و على أنفسكم: خبره، و يكون: متاع، فى موضع المصدر المؤكد، كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، و يكون المصدر مع الفعل المقدّر: استئنافا؛ و قيل: إن متاع على قراءة النصب: ظرف زمان، نحو مقدم الحاج، أى: زمن متاع الحياة الدنيا؛ و قيل: هو مفعول له، أى: لأجل متاع الحياة الدنيا؛ و قيل: منصوب بنزع الخافض، أى: كمتاع؛ و قيل: على الحال، على أنه مصدر بمعنى المفعول، أى: ممتعين، و قد نوقش غالب هذه الأقوال فى توجيه النصب. و أما من قرأ: برفع متاع، فجعله خبر المبتدأ، أى: بغيكم متاع الحياة الدنيا، و يكون: على أنفسكم، متعلق بالمصدر، و التقدير: إنما بغيكم على أمثالكم، و الذين جنسهم جنسكم. متاع الحياة الدنيا و منفعتها التى لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسهم على هذا الوجه: أبناء جنسهم، و عبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة، و قيل: ارتفاع متاع: على أنه خبر ثان؛ و قيل:

على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أى: هو متاع. قال النحاس: على قراءة الرفع يكون بغيكم مرتفعا بالابتداء،

فتح القدير، ج ۲، ص: ۴۹۶

و خبره: متاع الحياة الدنيا، و على أنفسكم: مفعول البغى، و يجوز أن يكون خبره: على أنفسكم، و يضمر مبتدأ، أى: ذلك متاع الحياة الدنيا، أو هو متاع الحياة الدنيا. انتهى. و قد نوقش أيضا بعض هذه الوجوه المذكورة فى توجيه الرفع بما يطول به البحث

فی غیر طائل. و الحاصل: أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم، فالمعنى، أن ما يقع من البغى على الغير هو بغى على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، و إن جعل الخبر: متاع، فالمراد أن بغى هذا الجنس الإنسانى على بعضه بعضا هو سريع الزوال قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا، فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة و لا عظيم جدوى. ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغى من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال:

ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ و تقديم الخبر للدلالة على القصر، و المعنى: أنكم بعد هذه الحياة الدنيا، و متاعها ترجعون إلى اللّه فيجازى المسيئ بإساءته، و المحسن بإحسانه فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا، أى:

فنخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير و شرّ، و المراد بذلك: المجازاة، كما تقول لمن أساء: سأخبرك بما صنعت، و فيه أشد وعيد، و أفظع تهديد.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله: فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ قال: خوّفهم عذابه و عقوبته. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِی آیاتِنا قال: استهزاء و تكذيب.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ قال: هلكوا. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو داود، و النسائى و ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص ما حاصله: أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لما أهدر يوم الفتح دم جماعة، منهم عكرمة بن أبى جهل، هرب من مكة و ركب البحر فأصابهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا، فقال عكرمة: لئن لم ينجنى فى البحر الإخلاص ما ينجينى فى البرّ غيره، اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوّا كريما، فجاء فأسلم. و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه، و أبو نعيم، و الخطيب فى تاريخه، و الديلمى فى مسند الفردوس، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ثلاث هنّ رواجع على أهلها: المكر، و النكث، و البغى، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «١» فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ «٢»». و أخرج الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن أبى بكرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لا تبغ و لا تكن باغيا، فإن اللّه يقول: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ . و أخرج أبو الشيخ عن مكحول قال: ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه: المكر، و البغى، و النكث، قال اللّه سبحانه: إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ

أقول أنا: و ينبغى أن يلحق بهذه الثلاث التى دلّ القرآن على أنها تعود على فاعلها: الخدع، فإن اللّه يقول:

يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ «٣» و أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغى منهما». و أخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله.

---

(١). فاطر: ٤٣.

(٢). الفتح: ١٠.

(٣). البقرة: ٩.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٤٩٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٤ الى ٣٠]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ

ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٦) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (٢٨)

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (٢٩) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

لما ذكر اللّه سبحانه ما تقدّم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها و سرعة تقضيها، و أنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، و تجتلب النفوس ببهجتها. و تحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا، و يهتكوا حرمهم حبا لها و عشقا لجمالها الظاهرى، و تكالبا على التمتع بها، و تهافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ إلى آخر الآية.

و المعنى: أن مثلها فى سرعة الذهاب و الاتصاف بوصف يضادّ ما كانت عليه و يباينه، مثل ما على الأرض ما أنواع النبات فى زوال رونقه و ذهاب بهجته و سرعة تقضيه، بعد أن كان غضّا مخضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة، و زهت أوراقه المتصافحة، و تلألأت أنوار نوره، و حاكت الزهر أنواع زهره، و ليس المشبه به هو ما دخله الكاف فى قوله: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ بل ما يفهم من الكلام، و الباء فى: فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ للسببية؛ أى فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن اشتبک بعضه ببعض حتى بلغ إلى حدّ الكمال، و يحتمل أن يراد: أن النبات كان فى أوّل بروزه و مبدأ حدوثه غير مهتز و لا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز و ربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ من الحبوب و الثمار و الكلأ و التبن، و أخذت الأرض زخرفها. قال فى الصحاح: الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموّه مزوّر، انتهى. و المعنى:

أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، و بعضه للون الفضة، و بعضه للون الياقوت، و بعضه للون الزمرّد. و أصل ازينت: تزينت: أدغمت التاء فى الزاى و جىء بألف الوصل لأن الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن، و الساكن لا يمكن الابتداء به. و قرأ ابن مسعود و أبيّ بن كعب: و تزينت على الأصل. و قرأ الحسن و الأعرج و أبو العالية: و ازينت على وزن أفعلت؛ أى: ازينت بالزينة التى عليها، شبّهها بالعروس التى تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألوانا كثيرة. و قال عوف بن أبى جميلة: قرأ أشياخنا و ازيانت على وزن اسوادّت، و فى رواية المقدمى: و ازاينت و الأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت. و قرأ الشعبى، و قتادة ازينت، و معنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا.

فتح القدير، ج ٢، ص: ۴۹۸

وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أى: غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها و الانتفاع بها، و الضمير فى: عليها للأرض، و المراد: النبات الذى هو عليها أَتاها أَمْرُنا جواب إذا، أى: جاءها أمرنا بإهلاكها و استئصالها و ضربها ببعض العاهات فَجَعَلْناها حَصِيداً أى: جعلنا زرعها شبيها بالمحصود فى قطعة من أصوله. قال أبو عبيدة: الحصيد: المستأصل كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ أى: كأن لم يكن زرعها موجودا فيها بالأمس مخضرّا طريا، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به، و المراد بالأمس: الوقت القريب، و المغانى فى اللغة: المنازل. و قال قتادة: كأن لم تنعم، قال لبيد:

و غنيت سبتا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللّجوج خلود

و قرأ قتادة: كأن لم يغن بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف. و قرأ من عداه: تَغْنَ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض كَذلِكَ

أی: مثل ذلک التفصیل البدیع نُفَصِّلُ الْآیاتِ القرآنیة التی من جملتها هذه الآیة لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ فیما اشتملت علیه، و یجوز أن یراد: الآیات التکوینیة. قوله:

وَ اللَّهُ یَدْعُوا إِلی دارِ السَّلامِ لما نفر عباده عن المیل إلی الدنیا بما ضربه لهم من المثل السابق؛ رغبهم فی الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عزّ و جلّ إلی دار السلام، قال الحسن و قتادة: السلام: هو اللّه تعالی، و داره: الجنة. و قال الزجاج: المعنی: و اللّه یدعو إلی دار السلامة: و معنی السلام و السلامة: واحد؛ کالرضاع و الرضاعة، و منه قول الشاعر:

تحیی بالسّلامة أمّ بکرو هل لک بعد قومک من سلام

و قیل: أراد دار السلام الذی هو التحیة، لأن أهلها ینالون من اللّه السلام بمعنی التحیة کما فی قوله:

تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ و قیل: السلام اسم لأحد الجنان السبع؛ أحدها: دار السلام، و الثانیة: دار الجلال، و الثالثة: جنة عدن، و الرابعة: جنة المأوی، و الخامسة: جنة الخلد، و السادسة: جنة الفردوس، و السابعة: جنة النعیم. و قیل: المراد دار السلام الواقع من المؤمنین بعضهم علی بعض فی الجنة، و قد اتفقوا علی أن دار السلام هی الجنة، و إنما اختلفوا فی سبب التسمیة بدار السلام وَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ جعل سبحانه الدعوة إلی دار السلام عامة، و الهدایة خاصة بمن یشاء أن یهدیه تکمیلا للحجة، و إظهارا للاستغناء عن خلقه، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلی قسمین، و بین حال کل طائفة فقال: لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنی وَ زِیادَةٌ أی: الذین أحسنوا بالقیام بما أوجبه اللّه علیهم من الأعمال، و الکفّ عما نهاهم عنه من المعاصی، و المراد بالحسنی: المثوبة الحسنی. قال ابن الأنباری: العرب توقع هذه اللفظة علی الخصلة المحبوبة المرغوب فیها، و لذلک ترک موصوفها؛ و قیل: المراد بالحسنی الجنة، و أما الزیادة فقیل: المراد بها ما یزید علی المثوبة من التفضل کقوله: لِیُوَفِّیَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «۱» و قیل: الزیادة: النظر إلی وجهه الکریم؛ و قیل: الزیادة هی مضاعفة الحسنة إلی عشر أمثالها؛ و قیل: الزیادة غرفة من لؤلؤ، و قیل: الزیادة مغفرة من اللّه و رضوان؛ و قیل: هی أنه سبحانه یعطیهم فی الدنیا من فضله ما لا یحاسبهم علیه؛ و قیل

(۱). فاطر: ۳۰.

غیر ذلک مما لا فائدة فی ذکره، و سیأتی بیان ما هو الحق فی آخر البحث وَ لا یَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ معنی یرهق: یلحق، و منه قیل: غلام مراهق إذا لحق بالرجال، و قیل: یعلو، و قیل: یغشی، و المعنی متقارب؛ و القتر: الغبار، و منه قول الفرزدق:

متوّج برداء الملک یتبعهموج تری فوقه الرایات و القترا

و قرأ الحسن: قتر بإسکان المثناة، و المعنی واحد، قاله النّحاس، و واحد القتر: قترة، و الذلّة:

ما یظهر علی الوجه من الخضوع، و الانکسار و الهوان، و المعنی: أنه لا یعلو وجوههم غبرة، و لا یظهر فیها هوان؛ و قیل: القتر: الکآبة، و قیل: سواد الوجوه، و قیل: هو دخان النار أُولئِکَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِیها خالِدُونَ الإشارة إلی المتّصفین بالصفات السابقة، هم أصحاب الجنة الخالدون فیها، المتنعمون بأنواع نعیمها وَ الَّذِینَ کَسَبُوا السَّیِّئاتِ جَزاءُ سَیِّئَةٍ بِمِثْلِها هذا الفریق الثانی من أهل الدعوة، و هو معطوف علی لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا کأنه قیل: و للذین کسبوا السیئات جزاء سیئة بمثلها، أو یقدر: و جزاء الذین کسبوا السیئات جزاء سیئة بمثلها، أی: یجازی سیئة واحدة بسیئة واحدة لا یزاد علیها، و هذا أولی من الأوّل لکونه من باب العطف علی معمولی عاملین مختلفین؛ و المراد بالسیئة: إما الشرک، أو المعاصی التی لیست بشرک، و هی ما یتلبس به العصاة من المعاصی، قال ابن کیسان: الباء زائدة، و المعنی: جزاء سیئة مثلها؛ و قیل:

الباء ما بعدها الخبر، و هی متعلقة بمحذوف قامت مقامه، و المعنی: جزاء سیئة کائن بمثلها، کقولک: إنما أنا بک، و یجوز أن

يتعلق بجزاء، و التقدير: جزاء بمثلها كائن، فحذف خبر المبتدأ، و يجوز أن يكون جَزاءُ مرفوعا على تقدير: فلهم جزاء سيئة، فيكون مثل قوله: فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ* أى: فعليه عدّة، و الباء على هذا التقدير: متعلّقة بمحذوف كأنه قال لهم: جزاء سيئة ثابت بمثلها، أو تكون مؤكدة، أو زائدة. قوله: تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أى: يغشاهم هوان، و خزى. و قرئ: يرهقهم بالتحتية، ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أى: لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط اللّه و عذابه، أو ما لهم من جهة اللّه و من عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين، و الأوّل أولى، و الجملة: فى محل نصب على الحالية، أو مستأنفة. كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً قطعا: جمع قطعة، و على هذا يكون مظلما: منتصبا على الحال من الليل، أى: أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته. و قد قرأ بالجمع جمهور القراء. و قرأ الكسائى و ابن كثير قِطَعاً بإسكان الطاء، فيكون مظلما على هذا صفة لقطعا، و يجوز أن يكون حالا من الليل. قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل أُولئِكَ أى: الموصوفون بهذه الصفات الذميمة أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ و إطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين. قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الحشر: الجمع، و جميعا: منتصب على الحال وَ يَوْمَ منصوب بمضمر، أى: أنذرهم يوم نحشرهم، و الجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة.

و المعنى: أن اللّه سبحانه يحشر العابد و المعبود لسؤالهم ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا فى حالة الحشر، و وقت الجمع تقريعا لهم على رؤوس الأشهاد، و توبيخا لهم مع حضور من يشاركهم فى العبادة، و حضور معبوداتهم

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۰

فتح القدير ج۲ ۵۴۹

مَكانَكُمْ أى: الزموا مكانكم، و اثبتوا فيه، وقفوا فى موضعكم أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسدّه مسدّ الزموا، و شركاؤكم: معطوف عليه. و قرئ بنصب شركاؤكم على أن الواو واو مع. قوله: فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ أى فرّقنا و قطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا. يقال زيلته فتزيل: أى: فرقته فتفرق، و المزايلة: المفارقة، يقال زايله مزايلة و زيالا- إذا فارقه، و التزايل: التباين قال الفراء: و قرأ بعضهم فزايلنا و المراد بالشركاء هنا: الملائكة، و قيل: الشياطين، و قيل: الأصنام، و إن اللّه سبحانه ينطقها فى هذا الوقت. و قيل: المسيح، و عزير، و الظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان، و جملة وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ فى محل نصب على الحال بتقدير قد، و المعنى:

و قد قال شركاؤهم الذين عبدوهم و جعلوهم شركاء للّه سبحانه: ما كنتم إيانا تعبدون، و إنما عبدتم هواكم و ضلالكم و شياطينكم الذين أغووكم، و إنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء للّه سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم، فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية، و قيل: لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب، و هذا الجحد من الشركاء و إن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم بالعبادة فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إن كنا أمرنا بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ إن هى المخففة من الثقيلة، و اللام هى الفارقة بينها و بين النافية، و القائل لهذا الكلام: هم المعبودون. قالوا لمن عبدهم من المشركين: إنا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين، و المراد بالغفلة هنا: عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم، و فى هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم، و يمكن أن يكونوا من الشياطين، و يحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، و لا أكرهوهم عليها. هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أى: فى ذلك المكان، و فى ذلك الموقف، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان، تذوق كل نفس و تختبر جزاء ما أسلفت من العمل، فمعنى تَبْلُوا تذوق و تختبر، و قيل: تعلم، و قيل: تتبع، و هذا على قراءة من قرأ تَبْلُوا بالمثناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس؛ و أما على قراءة من قرأ نبلو بالنون، فالمعنى: أن اللّه يبتلى كل نفس و يختبرها، و يكون ما أسلفت بدلا من كل نفس. و المعنى: أنه يعاملها معاملة من يختبرها، و يتفقد

أحوالها. قوله: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ معطوف على فَزَيَّلْنا، و الضمير فى ردّوا عائد إلى الذين أشركوا، أى: ردّوا إلى جزائه، و ما أعدّ لهم من عقابه، و مولاهم: ربهم، و الحق صفة له، أى:
الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، و قرئ: الحق بالنصب على المدح، كقولهم:
الحمد للّه أهل الحمد وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: ضاع و بطل ما كانوا يفترون، من أن الآلهة التى لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى اللّه و تقرّبهم إليه. و الحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون فى ذلك المقام إلى الحقّ، و يعترفون به، و يقرّون ببطلان ما كانوا يعبدونه و يجعلونه إلها، و لكن حين لا ينفعهم ذلك.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ كالحنطة، و الشعير، و سائر حبوب الأرض، و البقول، و الثمار،

و ما تأكله الأنعام، و البهائم من الحشيش و المراعى. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ ازَّيَّنَتْ قال: أنبتت و حسنت، و فى قوله: كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ قال: كأن لم تعش، كأن لم تنعم. و أخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب و ابن عباس و مروان ابن الحكم أنهم كانوا يقرءون بعد قوله: وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها و ما كان اللّه ليهلكها إلّا بذنوب أهلها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ: و ما أهلكناها إلّا بذنوب أهلها كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن أبى مجلز قال: كان مكتوب فى سورة يونس إلى حيث هذه الآية حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها إلى يَتَفَكَّرُونَ و لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، و لا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب، و يتوب اللّه على من تاب. فمحيت.
و أخرج أبو نعيم و الدمياطى فى معجمه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ يقول: يدعو إلى عمل الجنة. و اللّه: السلام، و الجنة: داره. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله:
وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ قال: يهديهم للمخرج من الشبهات، و الفتن، و الضلالات. و أخرج أحمد، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «ما من يوم طلعت شمسه إلا و كل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلّهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمّوا إلى ربكم فما قلّ و كفى خير ممّا كثر و ألهى، و لا آبت شمسه إلا و كل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلهم غير الثقلين: اللهم أعط منفقا خلفا، و أعط ممسكا تلفا [فأنزل اللّه فى ذلك كله قرآنا، فى قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ و أنزل فى قولهما: اللهم أعط منفقا خلفا ...] «۱» وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى إلى قوله لِلْعُسْرى «۲». و أخرج ابن جرير، و الحاكم، و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الدلائل، عن سعيد بن أبى هلال سمعت أبا جعفر محمد بن على يتلو وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فقال: حدّثنى جابر قال: «خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يوما فقال: «إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى، و ميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال:
اسمع سمعت أذنك، و اعقل عقل قلبك، إنما مثلك و مثل أمتك مثل ملك اتخذ دارا، ثم بنى فيها بيتا، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، و منهم من تركه؛ فاللّه هو الملك، و الدار الإسلام، و البيت الجنة، و أنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الإسلام، و من دخل الإسلام دخل الجنة، و من دخل الجنة أكل منها». و قد

روى معنى هـذا من طرق. و أخرج أحمـد فى الزهـد، و ابن جرير و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ قال: ذكر لنا

---

(١). ما بين حاصرتين استدرک من الدر المنثور [۴/ ۳۵۵].

(٢). الليل: ١- ١٠.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۲

أن فى التوراة مكتوبا: يـا باغى الخير هلمّ، و يا باغى الشـر اتقه. و أخرج أبو الشـيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ قـال: لبيـک ربّنـا و سـعديک. و أخرج أحمـد، و مسـلم، و الترمـذى، و ابن ماجـة، و ابن خزيمـة، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ و غيرهم عن صـهيب: «أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم تلا هذه الآية: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيـادَةٌ قـال: إذا دخـل أهل الجنـة الجنـة، و أهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنـة إن لكم عنـد اللّه موعـدا يريـد أن ينجزكموه، فيقولون: و مـا هو؟ أ لم يثقـل موازيننـا، و يبيض وجوهنـا، و يـدخلنا الجنـة، و يزحزحنـا عن النـار؛ قال: فيكشف لهم الحجـاب فينظرون إليه، فو اللّه مـا أعطـاهم اللّه شـيئا أحب إليهم من النظر إليه، و لاـ أقر لأـعينهم». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و الدار قطنى فى الرؤية و ابن مردويه عن أبى موسى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسـمعه أوّلهم و آخرهم: إن اللّه وعـدكم الحسـنى و زيادة». فالحسـنى: الجنة، و الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن. و أخرج ابن جرير، و ابن مردويه، و البيهقى فى الرؤية عن كعب بن عجرة عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ قال: «الزيادة: النظر إلى وجه الرحمن».

و أخرج هؤلاء، و الدارقطنى، و ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ قال: «الذين أحسنوا: أهل التوحيد، و الحسنى: الجنة، و الزيادة: النّظر إلى وجه اللّه». و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشـيخ، و الـدارقطنى، و ابن مردويه، و الخطيب، و ابن النجار عن أنس مرفوعا نحوه. و أخرج أبو الشـيخ عن أبى هريرة نحـوه. و أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن جرير، و ابن خزيمـة، و ابن المنـذر، و أبو الشـيخ، و الـدارقطنى و ابن مردويه و البيهقى عن أبى بكر الصدّيق فى الآية قال: الحسنى: الجنة، و الزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه. و أخرج ابن مردويه من طريق الحـارث عن علىّ بن أبى طالب فى الآيـة مثله. و أخرج ابن أبى شـيبة، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و أبو الشيخ، و الـدارقطنى، و البيهقى عن حذيفـة فى الآيـة قال: الزيادة: النظر إلى وجه اللّه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشـيخ، و الـدارقطنى، و الـبيهقى عن أبى موسـى نحـوه. و أخرج ابن مردويه، و الـبيهقى فى الأسـماء و الصـفات من طريق عكرمـة عن ابن عبـاس نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و اللالكائى عن ابن مسـعود نحوه. و أخرج سـعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حـاتم، و أبو الشـيخ، و البيهقى عن علىّ قال: الزيادة: غرفـة من لؤلؤة واحـدة، لها أربعـة أبواب، غرفها و أبوابها من لؤلؤة واحـدة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ زِيادَةٌ قال: هو مثل قوله: وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ «١» يقول: يجزيهم بعملهم، و يزيدهم من فضـله. و قال: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها «٢» و قـد روى عن التابعين و من بعدهم روايات فى تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه اللّه سبحانه. و قـد ثبت التفسير بـذلک من قول رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فلم يبق حينئذ لقائل مقال، و لا التفات إلى المجادلات الواقعـة بين المتمذهبـة الذين لا يعرفون من السـنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلک لكفّوا عن كثير من هذيانهم، و اللّه المسـتعان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قال: لا يغشاهم

(۱). ق: ۳۵.

(۲). الأنعام: ۱۶۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۳

قَتَرٌ قال: سواد الوجوه. و أخرج أبو الشيخ عن عطاء فى الآيـة قال: القتر: سواد الوجه. و أخرج ابن أبى حاتم عن مجاهـد فى الآيـة قال: خزى. و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه عن صهيب عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم:

وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ قال: «بعد نظرهم إليه عزّ و جلّ». و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ قال: الذين عملوا الكبائر جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها قال: النار كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً القطع: السواد نسختها الآيـة فى البقرة: بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً «۱» الآيـة. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ قال: تغشاهم ذلـة و شدّة. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه فى قوله: ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ يقول: من مانع.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ قال:

الحشر الموت. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ قال: فرّقنا بينهم.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهـد قال: تنصب الآلهـة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، فيقول: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون اللّه؟ فيقولون نعم، هؤلاء الذين كنا نعبد، فتقول لهم الآلهة: و اللّه ما كنا نسمع و لا نبصر و لا نعقل و لا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون:

بلى و اللّه لإيـاكم كنـا نعبـد، فتقول لهم الآلهـة: فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبـدون من دون اللّه، فيتبعونهم حتى يؤدّوهم النار، ثم تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ . و أخرج أبو الشيخ عن السدّى: هُنالِكَ تَبْلُوا يقول: تتبع. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنـذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهـد قال: تَبْلُوا تختبر. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيـد تَبْلُوا قـال: تعـاين كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ ما عملت وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ ما كانوا يـدعون معه من الأنداد. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ قال: نسخها قوله: اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ «۲».

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۱ الى ۴۱]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵)

وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)
وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

---

(١). البقرة: ٨١.

(٢). محمد: ١١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٠٤

لما بيّن فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدّامغة من أحوال الرّزق، و الحواس، و الموت، و الحياة، و الابتداء، و الإعادة، و الإرشاد، و الهدى، و بنى سبحانه الحجج على الاستفهام و تفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ فى إلزام الحجة، و أوقع فى النفوس، فقال: قُلْ يا محمد للمشركين احتجاجا لحقية التوحيد، و بطلان ما هم عليه من الشرك مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ من السماء بالمطر، و من الأرض بالنبات و المعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، و إن لم يعترفوا: فلا بدّ أن يعترفوا بأن اللّه هو الذى خلقهما أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ أم: هى المنقطعة، و فى هذا انتقال من سؤال إلى سؤال، و خصّ السّمع؛ و البصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة، و القدرة الباهرة العظيمة، أى: من يستطيع ملكهما و تسويتهما على هذه الصفة العجيبة، و الخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، و يحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين؟ ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ الإنسان من النطفة، و الطير من البيضة، و النبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ أى: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، و المراد من هذا الاستفهام: عمن يحيى و يميت، ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ أى: يقدّره و يقضيه، و هذا من عطف العام على الخاص لأنه قد عمّ ما تقدّم و غيره فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ أى: سيكون قولهم فى جواب هذه الاستفهامات: إن الفاعل لهذه الأمور هو اللّه سبحانه؛ إن أنصفوا و عملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح، و العقل السليم، و ارتفاع الاسم الشريف: على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أى: اللّه يفعل ذلك، ثم أمره اللّه سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول لهم: أَ فَلا تَتَّقُونَ و الاستفهام للإنكار، و الفاء للعطف على مقدّر، أى: تعلمون ذلك أفلا تتقون و تفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى اللّه الذى يفعل هذه الأفعال؟ فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ أى: فذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق، لا ما جعلتموهم شركاء له، و الاستفهام فى قوله: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ

للتقريع و التوبيخ إن كانت ما استفهامية، لا إن كانت نافية كما يحتمله الكلام، و المعنى: أىّ شىء بعد الحق إلا الضلال؟ فإن ثبوت ربوبية الربّ سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا فى ذاته و صفاته فَأَنَّى تُصْرَفُونَ أى: كيف تستجيزون العدول عن الحقّ الظاهر، و تقعون فى الضلال إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطّى أحدهما وقع فى الآخر، و الاستفهام للإنكار، و الاستبعاد، و التعجب كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أى: كما حقّ و ثبت أن الحقّ بعده الضّلال، أو كما حقّ أنهم مصروفون عن الحقّ، كذلك حقّت كلمة ربك؛ أى: حكمه و قضاؤه على

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٠٥

الذين فسقوا، أى: خرجوا من الحقّ إلى الباطل، و تمرّدوا فى كفرهم عنادا و مكابرة، و جملة أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بدل من الكلمة. قاله الزّجّاج؛ أى: حقّت عليهم هذه الكلمة، و هى عدم إيمانهم، و يجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام، أى: لأنهم لا يؤمنون. و قال الفرّاء: إنه يجوز إنهم لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف، و قد قرأ نافع و ابن عامر كلمات ربك بالجمع. و قرأ الباقون بالإفراد. قوله قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أورد سبحانه فى هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه

صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقولها لهم، و هم و إن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا، و قد أقام الأدلة عليه فى هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف، و لم يكابر كان كالمسلّم عندهم الذى لا جحد له و لا إنكار فيه، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى هو الذى يفعل ذلك لا غيره، و هذا القول الذى قاله النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن أمر اللّه سبحانه له هو نيابة عن المشركين فى الجواب، إما: على طريق التلقين لهم، و تعريفهم كيف يجيبون، و إرشادهم إلى ما يقولون، و إما: لكون هذا المعنى قد بلغ فى الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، و معرفة ما لديه، و إما: لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصّواب فى هذا الجواب فرارا منهم عن أن تلزمهم الحجّة، أو أن يسجل عليهم بالعناد و المكابرة إن حادوا عن الحقّ، و معنى: فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تؤفكون؟ أى: تصرفون عن الحق و تنقلبون منه إلى غيره.

ثم أمره اللّه سبحانه أن يورد عليهم حجّة سادسة فقال: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ و الاستفهام هاهنا كالاستفهامات السابقة، و الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا فى القرآن كقوله: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ «۱» و قوله: الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى «۲» و قوله: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى- وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى «۳» و فعل الهداية يجىء متعديا باللام و إلى، و هما: بمعنى واحد. روى ذلك عن الزّجّاج. و المعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، و يدعو الناس إلى الحق؟

فإذا قالوا لا، فقل لهم: اللّه يهدى للحق دون غيره، و دليل ذلك ما تقدّم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، و هداية اللّه سبحانه لعباده إلى الحقّ هى: بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات، و إرساله للرسل، و إنزاله للكتب، و خلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول و الأفهام و الأسماع و الأبصار، و الاستفهام فى قوله: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى للتقرير، و إلزام الحجّة.

و قد اختلف القراء فى لا يَهِدِّي فقرأ أهل المدينة إلا نافعا يهدى بفتح الياء و إسكان الهاء و تشديد الدال فجمعوا فى قراءتهم هذه بين ساكنين. قال النحّاس: و الجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به.

قال محمد بن يزيد: لا بدّ لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر، و سيبويه يسمى هذا اختلاسا.

و قرأ أبو عمرو و قالون فى رواية بين الفتح و الإسكان. و قرأ ابن عامر و ابن كثير و ورش و ابن محيصن بفتح الياء و الهاء و تشديد الدال. قال النحاس: هذه القراءة بينة فى العربية، و الأصل فيها يهتدى، أدغمت التاء فى الدال و قلبت حركتها إلى الهاء. و قرأ حفص و يعقوب و الأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء، قالوا: لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين. و قرأ أبو بكر عن عاصم يهدى بكسر الياء و الهاء

---

(۱). الشعراء: ۷۸.

(۲). طه: ۵۰.

(۳). الأعلى: ۲ و ۳.

و تشديد الدال و ذلك للاتباع. و قرأ حمزة و الكسائى و خلف و يحيى بن وثاب يهدى بفتح الياء و إسكان الهاء و تخفيف الدال من هدى يهدى. قال النحاس: و هذه القراءة لها وجهان فى العربية، و إن كانت بعيدة:

الأوّل: أن الكسائى و الفراء قالا: إن يهدى بمعنى يهتدى. الثانى: أن أبا العباس قال: إن التقدير أم من لا يهدى غيره، ثم تمّ

الكلام، و قال بعد ذلك إِلَّا أَنْ يُهْدى أى لكنه يحتاج أن يهدى، فهو استثناء منقطع، كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أى: لكنه يحتاج أن يسمع. و المعنى على القراءات المتقدّمة:

أ فمن يهدى الناس إلى الحق، و هو اللّه سبحانه أحق أن يتبع و يقتدى به، أم الأحق بأن يتبع و يقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره؟ و الاستثناء على هذا استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال.

قوله: فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين: أى: أىّ شىء لكم؟

كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء للّه؟ و كلا الاستفهامين للتقريع و التوبيخ، و كيف فى محل نصب بتحكمون، ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه فى أمر دينهم، و على أىّ شىء بنوه، و بأىّ شىء اتبعوا هذا الدين الباطل، و هو الشرك فقال: وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و هذا كلام مبتدأ غير داخل فى الأوامر السابقة. و المعنى: ما يتبع هؤلاء المشركون فى إشراكهم باللّه و جعلهم له أندادا إلا مجرّد الظن و التّخمين و الحدس، و لم يكن ذلك عن بصيرة، بل ظنّ من ظنّ من سلفهم أن هذه المعبودات تقرّبهم إلى اللّه، و أنها تشفع لهم، و لم يكن ظنه هذا لمستند قط، بل مجرد خيال مختل، و حدس باطل، و لعل تنكير الظّنّ هنا للتحقير؛ أى: إلا ظنّا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظّنون. و قيل: المراد بالآية إنه ما يتبع أكثرهم فى الإيمان باللّه، و الإقرار به إلا ظنا، و الأوّل أولى. ثم أخبرنا اللّه سبحانه بأن مجرّد الظّنّ لا يغنى من الحق شيئا، لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم، و به يتضح الحق من الباطل، و الظن لا يقوم مقام العلم، و لا يدرك به الحق، و لا يغنى عن الحق فى شىء من الأشياء، و يجوز انتصاب شيئا على المصدرية، أو على أنه مفعول به، و من الحق حال منه، و الجملة مستأنفة لبيان شأن الظن، و بطلانه إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ من الأفعال القبيحة الصادرة لا عن برهان. قوله وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ لما فرغ سبحانه من دلائل التّوحيد و حججه شرع فى تثبيت أمر النبوّة؛ أى: و ما صح و ما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة، و البراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون اللّه، و إنما هو من عند اللّه عزّ و جلّ، و كيف يصحّ أن يكون مفترى، و قد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا و أدقهم أذهانا وَ لكِنْ كان هذا القرآن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المنزلة على الأنبياء، و نفس هذا التّصديق معجزة مستقلة، لأنّ أقاصيصه موافقة لما فى الكتب المتقدمة؛ مع أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يطلع على ذلك و لا تعلمه و لا سأل عنه و لا اتصل بمن له علم بذلك، و انتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقدرة بعد لكن، و يجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف؛ أى: لكن أنزله اللّه تصديق الذين بين يديه. قال الفراء:

و معنى الآية، و ما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى كقوله: وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ «١» وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً «٢». و قيل: إن «أن» بمعنى اللام، أى: و ما كان هذا القرآن ليفترى؛ و قيل: بمعنى لا، أى:

---

(١). آل عمران: ١٦١.

(٢). التوبة: ١٢٢.

لا يفترى. قال الكسائى و الفراء: إن التقدير فى قوله: وَ لكِنْ تَصْدِيقَ و لكن كان تصديق، و يجوز عندهما الرفع، أى: و لكن هو تصديق؛ و قيل المعنى: و لكن القرآن تصديق الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب، أى: أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدّقا لها؛ و قيل المعنى: و لكن تصديق النبىّ الذى بين يدى القرآن، و هو محمد صلّى اللّه عليه و سلّم لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن. قوله وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ عطف على قوله وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ فجىء فيه الرفع و النصب على الوجهين المذكورين فى

تصـديق، و التّفصـيل: التبيين؛ أى: يبين ما فى كتب اللّه المتقدّمة، و الكتاب: للجنس؛ و قيل: أراد ما بين فى القرآن من الأحكام، فيكون المراد بالكتاب: القرآن. قوله: لا رَيْبَ فِيهِ الضـمير عائد إلى القرآن، و هو داخل فى حكم الاستدراك خبر ثالث، و يجوز أن تكون هـذه الجملة فى محل نصب على الحال من الكتاب، و يجوز أن تكون الجملة استئنافية لا محل لها، و مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ خبر رابع، أى: كـائن من ربّ العـالمين، و يجوز أن يكون حالاـ من الكتاب، أو من ضـمير القرآن فى قوله: لا رَيْبَ فِيهِ أى: كائنا من ربّ العـالمين، و يجوز أن يكون متعلقـا بتصـديق و تفصـيل، و جملة لاـ رَيْبَ فِيهِ معترضـة. قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ الاسـتفهام للإنكـار عليهم مع تقرير ثبوت الحجّـة، و أم: هى المنقطعـة التى بمعنى بـل و الهمزة، أى: بـل أ يقولون افتراه و اختلقه. و قال أبو عبيدة: أم بمعنى الواو، أى: و يقولون افتراه؛ و قيل: الميم زائدة، و التقدير:

أ يقولون افتراه، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يتحدّاهم حتى يظهر عجزهم و يتبين ضعفهم فقال: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أى: إن كـان الأـمر كمـا تزعمون من أن محمـدا افتراه، فـأتوا أنتم على جهـة الاـفتراء بسورة مثله فى البلاغـة، و جودة الصـناعة، فأنتم مثله فى معرفة لغة العرب، و فصاحة الألسن، و بلاغة الكلام وَ ادْعُوا بمظاهريكم و معاونيكم مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه و الاستعانة به من قبائل العرب، و من آلهتكم التى تجعلونهم شركاء للّه. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بادعوا، أى: ادعوا من سوى اللّه من خلقه إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

و سـبحان اللّه العظيم ما أقوى هـذه الحجّـة و أوضـحها و أظهرها للعقول، فإنهم لما نسـبوا الافتراء إلى واحـد منهم فى البشـرية و العربيـة، قال لهم: هـذا الـذى نسـبتموه إلىّ و أنا واحـد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا و أنتم الجمع الجمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره، و اسـتعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم و تباين مساكنهم، أو من غيرهم من بنى آدم، أو من الجنّ، أو من الأصـنام، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا و التى فأنتم صادقون فيما نسـبتموه إلىّ و ألصـقتموه بى. فلم يأتوا عند سـماع هذا الكلام المنصف و التنزّل البـالغ بكلمـة، و لاـ نطقوا ببنت شـفة، بل كاعوا عن الجواب، و تشـبثوا بأذيال العناد البارد، و المكابرة المجردة عن الحجّـة، و ذلك مما لا يعجز عنه مبطل، و لهذا قال سـبحانه عقب هذا التحدّى البالغ: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ فأضـرب عن الكلام الأوّل، و انتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكـذيب القرآن قبل أن يتـدبروه و يفهموا معانيه و ما اشـتمل عليه، و هكذا صنع من تصـلّب فى التقليـد و لم يبـال لمـا جـاء به من دعا إلى الحق و تمسك بـذيول الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، و لا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، و يعلم مبناه،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٠٨

كما تراه عيانا، و تعلمه وجـدانا. و الحاصل أن من كـذب بالحجّـة النّيرة و البرهان الواضـح قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسّـك بشـىء فى هـذا التكـذيب إلا مجرد كونه جاهلا لما كـذب به غير عالم به، فكان بهـذا التكـذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، و مسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، و ليس على الحجة و لا على من جاء بها من تكذيبه شىء:

ما يبلغ الأعداء من جاهلما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله: وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ معطوف على: لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ أى: بل كـذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و بما لم يأتهم تأويله، أو هـذه الجملة فى محل نصب على الحال، أى: كـذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كـذبوا به، و لا بلغته عقولهم. و المعنى: أنّ التّكـذيب منهم وقع قبـل الإحاطـة بعلمه، و قبـل أن يعرفوا مـا يؤول إليه من صـدق مـا اشـتمل عليه من حكايـة مـا سلف من أخبار الرسـل المتقـدّمين و الأـمم السابقين، و من حكايات ما سـيحدث من الأمور المسـتقبلة التى أخبر عنها قبل كونها، أو قبل أن يفهموه حق الفهم و تتعقله عقولهم، فإنهم لو تـدبروه كليـة التـدبر لفهموه كما ينبغى، و عرفوا ما اشـتمل عليه من الأمور الدالة أبلغ دلالة على أنه كلام اللّه؛ و على هـذا: فمعنى: تأويله، ما يؤول إليه لمن تدبره من المعانى الرشـيقة و اللطائف الأنيقة، و كلمة التوقع أظهر فى

المعنى الأوّل كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى: مثل ذلك التّكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج اللّه و براهينه، فإنهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه، و قبل أن يأتيهم تأويله فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف، و المسخ، و نحو ذلك من العقوبات التى حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم، و اشتملت عليه كتب اللّه المنزّلة عليهم. قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أى: و من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به فى نفسه، و يعلم أنه صدق و حق، و لكنه كذب به مكابرة و عنادا، و قيل: المراد: و منهم من يؤمن به فى المستقبل و إن كذب به فى الحال، و الموصول مبتدأ، و خبره منهم وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ و لا يصدّقه فى نفسه، بل كذب به جهلا كما مرّ تحقيقه، أو لا يؤمن به فى المستقبل، بل يبقى على جحوده و إصراره؛ و قيل: الضمير فى الموضعين، للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم. و قد قيل: إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة، و قيل عام فى جميع الكفار وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ فيجازيهم بأعمالهم، و المراد بهم: المصرّون المعاندون، أو بكلا الطائفتين، و هم الذين يؤمنون به فى أنفسهم و يكذبون به فى الظاهر، و الذين يكذبون به جهلا، أو الذين يؤمنون به فى المستقبل، و الذين لا يؤمنون به. ثم أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بأن يقول لهم إن أصرّوا على تكذيبه و استمرّوا عليه:

لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أى: لى جزاء عملى، و لكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه، و ليس علىّ غير ذلك، ثم أكد هذا بقوله: أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أى: لا تؤاخذون بعملى، و لا أؤاخذ بعملكم. و قد قيل: إن هذا منسوخ بآية السيف، كما ذهب إليه جماعة من المفسرين.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۰۹

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ يقول:

سبقت كلمة ربك. و أخرج أبو الشيخ عن الضّحّاك قال: صدقت. و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى قال:

الأوثان. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخه، فأمره بجهادهم.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۲ الى ۴۹]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (۴۶)

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۴۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹)

قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلخ، بين اللّه سبحانه فى هذا أن فى أولئك الكفار من بلغت حاله فى النّفرة و العداوة إلى هذا الحدّ، و هى: أنهم يستمعون إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم إذا قرأ القرآن و علم الشرائع فى الظاهر، و لكنهم لا يسمعون فى الحقيقة لعدم حصول أثر السماع، و هو: حصول القبول و العمل بما يسمعونه و لهذا قال أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَ يعنى: أن هؤلاء و إن استمعوا فى الظّاهر فهم صمّ، و الصمم مانع من سماعهم، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع؟ و هو الصمم، فكيف إذا انضمّ إلى

ذلك أنهم لا يعقلون؟ فإن من كان أصمّ غير عاقل لا يفهم شيئا و لا يسمع ما يقال له. و جمع الضمير فى يستمعون حملا على معنى من، و أفرده فى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ حملا على لفظه. قيل: و النكتة: كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة، و انتفاء الحائل، و انفصال الشعاع، و النور الموافق لنور البصر، و التقدير فى قوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ: و منهم ناس يستمعون، و منهم بعض ينظر، و الهمزتان فى أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ أَ فَأَنْتَ تَهْدِى للإنكار، و الفاء فى الموضعين للعطف على مقدّر، كأنه قيل: أ يستمعون إليك فأنت تسمعهم؟ أ ينظرون إليك فأنت تهديهم؟ و الكلام فى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ كالكلام فى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلخ. لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه فى النظر؟ و قد انضمّ إلى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به فى بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، و كذلك الأصمّ العاقل قد يتحدّس تحدّسا يفيده بعض فائدة، بخلاف من جمع له بين عمى البصر و البصيرة فقد تعذر عليه الإدراك. و كذا من جمع له بين الصمم و ذهاب العقل؛ فقد انسدّ عليه باب الهدى، و جواب لو فى الموضعين: محذوف دلّ عليهما ما قبلهما، و المقصود من هذا الكلام: تسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥١٠

فإنّ الطبيب إذا رأى مريضا لا يقبل العلاج أصلا أعرض عنه و استراح من الاشتغال به. قوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ذكر هذا عقب ما تقدّم من عدم الاهتداء بالأسماع و الأبصار، لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه اللّه لهم من السّمع و العقل و البصر و البصيرة، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب و المكابرة للحق، و المجادلة بالباطل، و الإصرار على الكفر، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك، و لم يظلمهم اللّه شيئا من الأشياء، بل خلقهم، و جعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، و ركّب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، و وفّر مصالحهم الدنيوية عليهم، و خلّى بينهم و بين مصالحهم الدينية، فعلى نفسها براقش تجنى. و قرأ حمزة و الكسائى: وَ لكِنَّ النَّاسَ بتخفيف النون و رفع الناس، و قرأ الباقون: بتشديدها و نصب الناس. قال النحاس: زعم جماعة من النحويين منهم الفراء: أن العرب إذا قالت: وَ لكِنَ بالواو شدّدوا النون، و إذا حذفوا الواو خففوها. قيل: و النكتة فى وضع الظاهر موضع المضمر: زيادة التعيين و التقرير، و تقديم المفعول على الفعل: لإفادة القصر، أو بمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة. قوله: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ الظرف منصوب بمضمر، أى: و اذكر يوم نحشرهم كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا أى: كأنهم لم يلبثوا، و الجملة فى محلّ نصب على الحال، أى: مشبهين من لم يلبث إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ أى: شيئا قليلا منه، و المراد باللبث هو اللبث فى الدنيا، و قيل: فى القبور، استقلوا المدّة الطويلة إما: لأنهم ضيعوا أعمارهم فى الدنيا، فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش و الحيرة، أو: لطول وقوفهم فى المحشر، أو: لشدّة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا و كأنها لم تكن، و مثل هذا قولهم: لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ «١» و جملة: يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ فى محل نصب على الحال، أو مستأنفة. و المعنى: يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا، و ذلك عند خروجهم من القبور، ثم تنقطع التعاريف بينهم؛ لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام. و قيل: إن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ و التقريع، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتنى و أغويتنى، لا تعارف شفقة و رأفة كما قال تعالى: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً «٢» و قوله: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ «٣» فيجمع: بأن المراد بالتعارف: هو تعارف التوبيخ؛ و عليه يحمل قوله: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ «٤»، و قد جمع بين الآيات المختلفة فى مثل هذا و غيره: بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون فى بعض المواقف ما لا يكون فى الآخر قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما

كانُوا مُهْتَدِينَ هذا تسجيل من اللّه سبحانه عليهم بالخسران، و الجملة فى محل النصب على الحال، و المراد بلقاء اللّه يوم القيامة: عند الحساب و الجزاء، و نفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم و عدم طلبهم لما ينجيهم و ينفعهم. قوله: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أصله: إن نرک، و ما مزيدة لتأكيد معنى الشرط و زيدت نون التأكيد، و المعنى: إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذى وعدناهم: من إظهار دينك فى حياتك بقتلهم و أسرهم، و جواب الشرط محذوف، و التقدير فتراه، أو فذاك، و جملة: أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ معطوفة على ما قبلها، و المعنى: أو لا نرينك ذلك فى حياتك، بل نتوفينك قبل ذلك فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ

---

(١). الكهف: ١٩.

(٢). المعارج: ١٠.

(٣). المؤمنون: ١٠١.

(۴). سبأ: ٣١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥١١

فعند ذلك نعذبهم فى الآخرة فنريك عذابهم فيها، و جواب أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ محذوف أيضا، و التقدير:

أو نتوفينك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك فى الآخرة؛ و قيل: إن جواب أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ هو قوله: فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تعذيبهم فى الآخرة، و قيل: العدول إلى صيغة المستقبل فى الموضعين لاستحضار الصورة، و الأصل: أريناك أو توفيناك، و فيه نظر، فإن إراءته صلّى اللّه عليه و سلّم لبعض ما وعد اللّه المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة. و حاصل معنى هذه الآية: إن لم ننتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا. و قد أراه اللّه سبحانه قتلهم، و أسرهم، و ذلهم، و ذهاب عزّهم، و انكسار سورة كبرهم بما أصابهم به فى يوم بدر و ما بعده من المواطن، فلله الحمد. قوله: ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ جاء بثم الدالة على التبعيد مع كون اللّه سبحانه شهيدا على ما يفعلونه فى الدارين: للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء، أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة اللّه عليهم، كما ذكره النيسابورى وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الخالية فى وقت من الأوقات رَسُولٌ يرسله اللّه إليهم، و يبين لهم ما شرعه اللّه لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ إليهم، و بلغهم ما أرسله اللّه به، فكذبوه جميعا قُضِیَ بَيْنَهُمْ أى: بين الأمة و رسولها بِالْقِسْطِ أى: العدل، فنجا الرسول، و هلك المكذبون له، كما قال سبحانه: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا و يجوز أن يراد بالضمير فى: بينهم، الأمة على تقدير أنه كذبه بعضهم و صدقه البعض الآخر، فيهلك المكذبون، و ينجو المصدقون وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فى ذلک القضاء، فلا يعذبون بغير ذنب، و لا يؤاخذون بغير حجّة، و منه قوله تعالى: وَ جِیءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِیَ بَيْنَهُمْ «١» و قوله: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ «٢» و المراد: المبالغة فى إظهار العدل و النّصفة بين العباد، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار، و ذلك أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ و الاستفهام منهم للإنكار، و الاستبعاد، و للقدح فى النبوّة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ خطابا منهم للنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و للمؤمنين، و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه ما قبله، و يحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة: جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين أرسلهم اللّه إليهم، ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادّة الشبهة، و يقطع اللجاج، فقال:

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِی ضَرًّا وَ لا نَفْعاً أى: لا أقدر على جلب نفع لها و لا دفع ضرّ عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيرى، و

قدّم الضرّ، لأن السياق: لإظهار العجز عن حضور الوعد الذى استعجلوه و استبعدوه، و الاستثناء فى قوله: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ منقطع، كما ذكره أئمة التفسير، أى: و لكن ما شاء اللّه من ذلك كان، فكيف أقدر على أن أملك لنفسى ضرا أو نفعا. و فى هذه أعظم واعظ، و أبلغ زاجر لمن صار ديدنه و هجيراه المناداة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و الاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا اللّه سبحانه، و كذلك من صار يطلب من الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم ما لا يقدر على تحصيله إلا اللّه سبحانه. فإن هذا مقام ربّ العالمين؛ الذى خلق الأنبياء، و الصالحين، و جميع المخلوقين، و رزقهم، و أحياهم، و يميتهم، فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه، غير قادر عليه،

---

(١). الزمر: ٦٩.

(٢). النساء: ٤١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥١٢

و يترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كل شىء، الخالق، الرزاق، المعطى، المانع؟ و حسبك بما فى هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، و خاتم الرسل، يأمره اللّه بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسى ضرّا و لا نفعا، فكيف يملكه لغيره، و كيف يملكه غيره- من رتبته دون رتبته و منزلته لا تبلغ إلى منزلته- لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره، فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثّرى، و يطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ و جلّ؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، و لا يتنبهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلّا اللّه، و مدلول: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ؟ و أعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء و لا ينكرون عليهم، و لا يحولون بينهم و بين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشدّ منها، فإن أولئك يعترفون بأن اللّه سبحانه هو الخالق، الرازق، المحيى، المميت، الضارّ، النافع، و إنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند اللّه و مقرّبين لهم إليه، و هؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضرّ و النفع، و ينادونهم تارة على الاستقلال، و تارة مع ذى الجلال. و كفاك من شرّ سماعه، و اللّه ناصر دينه و مطهر شريعته من أوضار الشرك و أدناس الكفر، و لقد توسّل الشيطان، أخزاه اللّه، بهذه الذريعة إلى ما تقرّ به عينه و ينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «١» إنا للّه و إنا إليه راجعون- ثم بين سبحانه: أن لكل طائفة حدّا محدودا لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده، و جازى كلا بما يستحقه، و المعنى: أن لكلّ أمة ممن قضى بينهم و بين رسولهم، أو بين بعضهم البعض، أجلا معينا و وقتا خاصا يحلّ بهم ما يريده اللّه سبحانه لهم عند حلوله إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أى: ذلك الوقت المعيّن، و الضمير راجع إلى كل أمة فَلا يَسْتَأْخِرُونَ عن ذلك الأجل المعين ساعَةً أى: شيئا قليلا من الزمان وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ عليه، و جملة لا يستقدمون: معطوفة على جملة: لا يستأخرون، و مثله قوله تعالى: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ «٢» و الكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدّم فى تفسير الآية التى فى أوّل الأعراف فلا نعيده.

و قد أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قال: يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ الآية، قال: سوء العذاب فى حياتك أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ و فى قوله:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قال: يوم القيامة.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٠ الى ٥٨]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۵۴)

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۵۸)

---

(۱). الكهف: ۱۰۴.

(۲). الحجر: ۵.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۱۳

قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار فى استعجال العذاب بعد التّزييف الأوّل، أى: أخبرونى إن أتاكم عذاب اللّه بَياتاً أى: وقت بيات، و المراد به: الوقت الذى يبيتون فيه، و ينامون و يغفلون عن التّحرّز، و البيات: بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، و هو منصب على الظرفية، و كذلك: نهارا، أى: وقت الاشتغال بطلب المعاش و الكسب، و الضمير فى: منه، راجع إلى العذاب؛ و قيل: راجع إلى اللّه، و الاستفهام فى ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ للإنكار المتضمن للنهى، كما فى قوله: أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ «۱» و وجه الإنكار عليهم فى استعجالهم: أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب، و تأباه الطبائع، فما المقتضى لاستعجالهم له؟ و الجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط، بحذف الفاء؛ و قيل: إن الجواب محذوف، و المعنى: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ منكم فيه؛ و قيل: إن الجواب قوله: أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ و تكون جملة: ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ اعتراضا، و المعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. و الأوّل أولى. و إنما قال: يستعجل منه المجرمون، و لم يقل يستعجلون منه، للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال، و هو الإجرام، لأن من حقّ المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه، فكيف يستعجله؟ كما يقال لمن يستوهم أمرا إذا طلبه: ما ذا تجنى على نفسك؟ و حكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى مِنْهُ إن عاد إلى العذاب كان لك فى ما ذا تقديران: أحدهما أن تكون ما فى موضع رفع بالابتداء، و ذا بمعنى الذى، و هو خبر ما، و العائد محذوف.

و التقدير الآخر: أن يكون ما ذا اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء، و الخبر: ما بعده، و إن جعل الضمير فى مِنْهُ عائدا إلى اللّه تعالى كان ما ذا شيئا واحدا فى موضع نصب بيستعجل، و المعنى:

أىّ شىء يستعجل منه المجرمون، أى: من اللّه عزّ و جلّ، و دخول الهمزة الاستفهامية فى أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ على ثم كدخولها على الواو و الفاء، و هى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان و ذلك بعد نزول العذاب، و هو يتضمّن معنى التهويل عليهم، و تفظيع ما فعلوه فى غير وقته، مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النّفع و الدّفع، و هذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، و جىء بكلمة ثم التى للتراخى: دلالة على الاستبعاد، و جىء بإذا مع زيادة ما للتأكيد: دلالة على تحقق وقوع الإيمان منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استجهال لهم، و المعنى: أبعد ما وقع عذاب اللّه عليكم، و حلّ بكم سخطه و انتقامه، آمنتم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئا؟ و لا يدفع عنكم ضرّا؛ و قيل: إن هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به، و إنها من قول الملائكة: استهزاء بهم، و إزراء عليهم. و الأول أولى. و قيل: إن ثم هاهنا هى بفتح الثاء فتكون ظرفية بمعنى هناك. و

الأوّل أولى. قوله: آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ قيل: هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذى أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، أى: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به و قد كنتم به تستعجلون؟ أى: بالعذاب، تكذيبا منكم و استهزاء، لأن استعجالهم كان على جهة التّكذيب

---

(١). النحل: ١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥١۴

و الاستهزاء، و يكون المقصود بأمره صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم هذا القول: التوبيخ لهم و الاستهزاء بهم و الإزراء عليهم، و جملة: وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ فى محل نصب على الحال، و قرئ الآن بحذف الهمزة التى بعد اللام و إلقاء حركتها على اللام. قوله: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ معطوف على الفعل المقدّر، قيل: الآن، و المراد منه: التقريع و التوبيخ لهم؛ أى: قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر و عدم الإيمان:

إنّ هذا الذى تطلبونه ضرر محض، عار عن النفع من كل وجه، و العاقل لا يطلب ذلك، و يقال لهم على سبيل الإهانة لهم: ذوقوا عذاب الخلد، أى: العذاب الدائم الذى لا ينقطع، و القائل لهم هذه المقالة، و التى قبلها قيل: هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم، و لا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص، أو المؤمنون على العموم هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ فى الحياة من الكفر و المعاصى، و الاستفهام:

للتقرير، و كأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب و حلول النقمة. ثم حكى اللّه سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة، و الجوابات عن أقوالهم الباطلة. أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب، فقال وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ أى: يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم و الإنكار: أحق ما تعدنا به من العذاب فى العاجل و الآجل، و هذا السؤال منهم جهل محض. و ظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدّم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم فى هذا التّكرير صنيع من لا يعقل ما يقول و لا ما يقال له؛ و قيل: المراد بهذا الاستخبار منهم: هو عن حقية القرآن، و ارتفاع حق: على أنه خبر مقدّم، و المبتدأ: هو الضمير الذى بعده، و تقديم الخبر للاهتمام، أو هو مبتدأ، و الضمير مرتفع به سادّ مسدّ الخبر، و الجملة فى موضع نصب بيستنبؤنك، و قرئ الْحَقِّ هُوَ على أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ قوله: قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ أمر اللّه سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم هذه المقالة جوابا عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، أى: قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء: إى و ربّى إنه لحق؛ أى نعم و ربى إن ما أعدكم به من العذاب لحقّ ثابت كائن لا محالة. و فى هذا الجواب تأكيد من وجوه. الأوّل: القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم؛ الثانى: دخول إن المؤكدة؛ الثالث: اللام فى لحق؛ الرابع: اسمية الجملة، و ذلك يدلّ: على أنهم قد بلغوا فى الإنكار و التمرّد إلى الغاية التى ليس وراءها غاية، ثم توعدهم بأشدّ توعد، و رهبهم بأعظم ترهيب، فقال: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أى: فائتين العذاب بالهرب و التحيل الذى لا ينفع، و المكابرة التى لا تدفع من قضاء اللّه شيئا، و هذه الجملة: إما معطوفة على جملة جواب القسم، أو: مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب اللّه بوجه من الوجوه؛ ثم زاد فى التأكيد، فقال: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ أى: و لو أن لكل نفس من الأنفس المتّصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر باللّه؛ و عدم الإيمان به؛ ما فى الأرض من كل شىء من الأشياء التى تشتمل عليها من الأموال النفيسة و الذخائر الفائقة لافتدت به، أى: جعلته فدية لها من العذاب، و مثله قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ «١» و قد تقدّم قوله: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ الضمير راجع إلى الكفار الذين سياق الكلام معهم، و قيل: راجع إلى الأنفس المدلول

(١). آل عمران: ٩١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥١٥

عليها بكل نفس. و معنى أسروا: أخفوا، أى: لم يظهروا الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه فى ذلك الموطن مما سلب عقولهم، و ذهب بتجلدهم، و يمكن أنه بقى فيهم- و هم على تلك الحالة- عرق ينزعهم إلى العصبية التى كانوا عليها فى الدنيا، فأسرّوا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون؛ و قيل أسرّها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم: خوفا من توبيخهم لهم، لكونهم هم الذين أضلوهم، و حالوا بينهم و بين الإسلام، و وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب، و أما بعد الدخول فيه فهم الذين قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا «١» و قيل:

معنى أسروا: أظهروا، و قيل: وجدوا ألم الحسرة فى قلوبهم، لأن الندامة لا يمكن إظهارها، و منه قول كثير:

فأسررت النّدامة يوم نادى‌بردّ جمال غاضرة المنادى

و ذكر المبرّد فى ذلك وجهين: الأوّل: أنها بدت فى وجوههم أسرة الندامة، و هى الانكسار، واحدها سرار، و جمعها أسارير، و الثانى: ما تقدّم؛ و قيل: معنى: أَسَرُّوا النَّدامَةَ أخلصوها، لأن إخفاءها إخلاصها، و لَمَّا فى قوله لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ظرف بمعنى: حين، منصوب بأسرّوا؛ أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى: قضى اللّه بين المؤمنين و بين الكافرين، أو بين الرؤساء و الأتباع، أو بين الظالمين من الكفار و المظلومين؛ و قيل: معنى: القضاء بينهم: إنزال العقوبة عليهم، و القسط: العدل، و جملة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فى محل نصب على الحال، أى: لا يظلمهم اللّه فيما فعله بهم من العذاب الذى حلّ بهم فإنه بسبب ما كسبوا، و جملة أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مسوقة لتقرير كمال قدرته، لأنّ من ملك ما فى السموات و الأرض تصرّف به كيف يشاء، و غلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات، قيل: لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك؛ بين أن الأشياء كلها للّه، و ليس لهم شى‌ء يتمكنون من الافتداء به؛ و قيل: لما أقسم على حقية ما جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين: بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه، يتصرف به كيف يشاء، و فى تصدير الجملة بحرف التنبيه: تنبيه للغافلين، و إيقاظ للذاهلين، ثم أكد ما سبق بقوله: أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أى: كائن لا محالة، و هو عامّ يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجا أوّليا، و تصدير الجملة بحرف التنبيه: كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أى: الكفار لا يَعْلَمُونَ ما فيه صلاحهم فيعملون به، و ما فيه فسادهم فيجتنبونه هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ يهب الحياة و يسلبها وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه، و يتفضل على من يشاء من عباده.

قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى: القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه و عرف معناه، و الوعظ فى الأصل: هو التذكير بالعواقب، سواء كان بالترغيب أو الترهيب، و الواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضرّه، و من فى مِنْ رَبِّكُمْ متعلقة بالفعل، و هو جاءتكم، فتكون ابتدائية، أو متعلقة بمحذوف، فتكون تبعيضية وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ من الشّكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقّة، و اشتماله على تزييف العقائد الباطلة، و الهدى: الإرشاد لمن اتبع القرآن، و تفكر فيه، و تدبّر معانيه إلى الطّريق الموصلة إلى الجنّة، و الرّحمة: هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأمور

(١). المؤمنون: ١٠٦.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥١٦

التى يرحم اللّه بها عباده، فيطلبها من أراد ذلک حتى ينالها، فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور، ثم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و جعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم، فقال: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْيَفْرَحُوا المراد بالفضل من اللّه سبحانه: هو تفضله على عباده فى الآجل و العاجل بما لا يحيط به الحصر، و الرحمة: رحمته لهم. و روى عن ابن عباس أنه قال: فضل اللّه: القرآن، و رحمته: الإسلام، و روى عن الحسن، و الضحاك، و مجاهد، و قتادة أن فضل اللّه: الإيمان، و رحمته: القرآن. و الأولى: حمل الفضل و الرحمة على العموم، و يدخل فى ذلک ما فى القرآن منهما دخولا أوّليا، و أصل الكلام: قل: بفضل اللّه و برحمته فليفرحوا، ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثانى فى قوله: فَبِذلِکَ فَلْيَفْرَحُوا عليه، قيل: و الفاء فى هذا الفعل المحذوف داخلة فى جواب شرط مقدّر كأنه قيل: إن فرحوا بشىء فليخصوا فضل اللّه و رحمته بالفرح.

و تكرير الباء فى: برحمته، للدلالة على أن كل واحد من الفضل و الرحمة سبب مستقلّ فى الفرح، و الفرح:

هو اللذة فى القلب بسبب إدراک المطلوب، و قد ذمّ اللّه سبحانه الفرح فى مواطن، كقوله: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «١» و جوّزه فى قوله: فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ «٢» و كما فى هذه الآية، و يجوز أن تتعلق الباء فى بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ بقوله: جاءَتْكُمْ و التقدير: جاءتكم موعظة بفضل اللّه و برحمته فبذلک، أى: فبمجيئها فليفرحوا، و قرأ يزيد بن القعقاع، و يعقوب: فلتفرحوا بالفوقية، و قرأ الجمهور بالتحتية؛ و الضمير فى هُوَ خَيْرٌ راجع إلى المذكور من الفضل و الرحمة، أو: إلى المجىء على الوجه الثانى، أو إلى اسم الإشارة فى قوله فَبِذلِکَ و المعنى: أن هذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا. و قد قرئ بالتاء الفوقية فى يَجْمَعُونَ مطابقة للقراءة بها فى فلتفرحوا. و قد تقرّر فى العربية: أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا فى لغة قليلة جاءت هذه القراءة عليها، و قرأ الجمهور: بالمثناة التحتية فى يجمعون، كما قرءوا فى: فليفرحوا. و روى عن ابن عامر أنه قرأ: بالفوقية فى: يجمعون، و التحتية:

فى: فلتفرحوا.

و قد أخرج الطبرانى، و أبو الشيخ عن أبى الأحوص قال: جاء رجل إلى عبد اللّه بن مسعود فقال: إن أخى يشتكى بطنه؛ فوصف له الخمر، فقال: سبحان اللّه! ما جعل اللّه فى رجس شفاء، إنما الشفاء فى شىء من القرآن و العسل، فهما شفاء لما فى الصّدور و شفاء للناس. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال:

«إن اللّه جعل القرآن شفاء لما فى الصدور، و لم يجعله شفاء لأمراضكم». و أخرج ابن المنذر، و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: «جاء رجل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إنى أشتكى صدرى، فقال: اقرأ القرآن، يقول اللّه: شفاء لما فى الصدور». و أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم وجع حلقه قال: «عليک بقراءة القرآن و العسل، فالقرآن شفاء لما فى الصدور، و العسل شفاء من كل داء». و أخرج أبو داود، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه عن أبى قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بالتاء، يعنى: الفوقية، و قد روى نحو هذا من غير هذه الطريق. و أخرج أبو الشيخ، و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ قال: بفضل اللّه: القرآن، و برحمته: أن

---

(١). القصص: ٧٦.

(٢). آل عمران: ١٧٠.

جعلكم من أهله». و أخرج الطبرانى فى الأوسط عن البراء مثله من قوله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن أبى شيبة، و ابن جرير،

و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى فى الشعب، عن أبى سعيد الخدرى مثله. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن المنذر، و البيهقى عن ابن عباس فى الآية قال: بكتاب اللّه و بالإسلام.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه قال: فضله: الإسلام، و رحمته: القرآن.

و أخرج ابن أبى شيبة، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و البيهقى عنه أيضا قال: بفضل اللّه: القرآن، و برحمته: حين جعلهم من أهله. و قد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدّمة.

و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس: هو خير مما يجمعون من الأموال و الحرث و الأنعام.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۹ الى ۶۴]

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۶۰) وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶۱) أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۶۳)

لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴)

أشار سبحانه بقوله قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إلخ، إلى طريق أخرى غير ما تقدّم من إثبات النبوّة، و تقرير ذلك ما حاصله: أنكم تحكمون بتحليل البعض و تحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهى و الهوى:

فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم و كافرهم، و إن كان لاعتقادكم أنه حكم اللّه فيكم و فيما رزقكم: فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى اللّه، و لا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم اللّه إلى عباده، و معنى أرأيتم: أخبرونى، و ما فى محل نصب بأرأيتم المتضمن لمعنى أخبرونى و قيل:

إن ما فى محل الرفع بالابتداء، و خبرها: آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ و قُلْ فى قوله: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ تكرير للتأكيد و الرابط محذوف، و مجموع المبتدأ و الخبر فى محل نصب بأرأيتم، و المعنى: أخبرونى الذى أنزل اللّه إليكم من رزق، فجعلتم منه حراما و حلالا، آللّه أذن لكم فى تحليله و تحريمه؟ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ و على الوجهين: فمن فى: منه حراما، للتبعيض، و التقدير: فجعلتم بعضه حراما و جعلتم بعضه حلالا و ذلك كما كانوا يفعلونه فى الأنعام حسبما سبق ذلك عنهم فى الكتاب العزيز؛ و معنى إنزال الرزق:

كون المطر ينزل من جهة العلوّ، و كذلك يقضى الأمر فى أرزاق العباد فى السماء على ما قد ثبت فى اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه و تعالى لكل شىء فيه. و روى عن الزجاج أن ما فى موضع نصب بأنزل، و أنزل بمعنى: خلق، كما قال: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «۱» وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ «۲»

---

(۱). الزمر: ۶.

(۲). الحديد: ۲۵.

و على هذا القول و القول الأوّل يكون قوله: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ مستأنفا، قيل: و يجوز أن تكون الهمزة فى: آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ للإنكار،

و أم منقطعة بمعنى: بل أ تفترون على اللّه، و إظهار الاسم الشريف و تقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء. و فى هذه الآية الشريفة ما يصكّ مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد اللّه فى شريعته، بالتحليل و التحريم و الجواز و عدمه، مع كونهم من المقلّدين الذين لا يعقلون حجج اللّه، و لا يفهمونها، و لا يدرون ما هى، و مبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه فى دينهم، و جعلوه شارعا مستقلا، ما عمل به من الكتاب و السّنّة فهو المعمول به عندهم، و ما لم يبلغه أو بلغه و لم يفهمه حق فهمه؛ أو فهمه و أخطأ الصواب فى اجتهاده و ترجيحه؛ فهو فى حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلّدوه متعبّدا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها و محكوما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها، و قد اجتهد رأيه و أدّى ما عليه، و فاز بأجرين مع الإصابة و أجر مع الخطأ؛ إنّما الشّأن فى جعلهم لرأيه الذى أخطأ فيه شريعة مستقلة، و دليلا معمولا به، و قد أخطئوا فى هذا خطأ بينا، و غلطوا غلطا فاحشا، فإنّ التّرخيص للمجتهد فى اجتهاد رأيه يخصه وحده، و لا قائل من أهل الإسلام المعتدّ بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له و اقتداء به. و ما جاء به المقلدة فى تقوّل هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل، اللهمّ كما رزقتنا من العلم ما تميز به بين الحق و الباطل، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير. ثم قال: وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: أىّ شىء ظنّهم فى هذا اليوم؟

و ما يصنع بهم فيه؟ و هذه الجملة الاستفهامية المتضمّنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذى أمر اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقوله لهم، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحلّ بهم من عذاب اللّه، و يَوْمَ الْقِيامَةِ:

منصوب بالظنّ، و ذكر الكذب بعد الافتراء، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد. و قرأ عيسى ابن عمر: وَ ما ظَنُ على أنه فعل إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بأنواع النعم فى الدنيا و الآخرة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ اللّه على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه فى كل وقت من الأوقات، و طرفة من الطرفات. قوله: وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما نافية، و الشأن:

الأمر، بمعنى: القصد، و أصله الهمز، و جمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنت شأنه: أى ما عملت عمله وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ قال الفرّاء و الزّجّاج: الضمير فى منه يعود على الشّأن، و الجار و المجرور صفة لمصدر محذوف؛ أى: تلاوة كائنة منه، إذ التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و المعنى:

أنه يتلو- من أجل الشأن الذى حدث- القرآن فيعلم كيف حكمه، أو يتلو القرآن الذى فى ذلك الشأن.

و قال ابن جرير الطبرى: الضمير عائد فى منه إلى الكتاب،: أى: ما يكون من كتاب اللّه من قرآن، و أعاده تفخيما له كقوله: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ «1»، و الخطاب فى: وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ لرسول اللّه و للأمة؛ و قيل:

الخطاب لكفار قريش إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال للمخاطبين، أى: شهودا عليكم بعمله منكم، و الضمير فى: فيه، من قوله: تُفِيضُونَ فِيهِ عائد على العمل، يقال: أفاض فلان فى الحديث و العمل: إذا اندفع فيه. و قال الضحاك: الضمير فى فيه عائد على القرآن؛ و المعنى: إذ تشيعون

---

(1). طه: 14.

فى القرآن الكذب. قوله: وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ قرأ الكسائى:

يعزب بكسر الزاى، و قرأ الباقون: بالضم، و هما لغتان فصيحتان، و معنى يعزب: يغيب، و قيل:

يبعد. و قال ابن كيسان: يذهب، و هذه المعانى متقاربة، و من: فى مِنْ مِثْقالِ زائدة للتأكيد، أى:

و ما يغيب عن ربك وزن ذرة، أى: نملة حمراء، و عبر بالأرض و السماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شىء لا فيهما و لا فيما هو خارج عنهما، لأن الناس لا يشاهدون سواهما و سوى ما فيهما من المخلوقات، و قدّم الأرض على السماء: لأنها محل استقرار العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب، و الواو فى وَ لاـ أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لاـ أَكْبَرَ للعطف على لفظ مثقال، و انتصبا لكونهما ممتنعين، و يجوز أن يكون العطف على ذرّة، و قيل:

انتصابهما بلا التى لنفى الجنس، و الواو للاستئناف، و ليس من متعلقات و ما يعزب، و خبر لا: إِلَّا فِي كِتابٍ و المعنى: و لا أصغر من مثقال الذرّة و لا أكبر منه إلا و هو فى كتاب مبين فكيف يغيب عنه؟ و قرأ يعقوب و حمزة: برفع أصغر و أكبر، و وجه ذلك: أنه معطوف على محل من مثقال، و محله الرفع، و قد أورد على توجيه النصب و الرفع على العطف على لفظ مثقال و محله؛ أو على لفظ ذرّة إشكال، و هو أنه يصير تقدير الآية: لا يعزب عنه شىء فى الأرض و لا فى السماء إلا فى كتاب، و يلزم منه أن يكون ذلك الشىء الذى فى الكتاب خارجا عن علم اللّه و هو محال. و قد أجيب عن هذا الإشكال: بأن الأشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده اللّه ابتداء من غير واسطة، كخلق الملائكة و السموات و الأرض؛ و قسم آخر أوجده بواسطة القسم الأوّل من حوادث عالم الكون و الفساد، و لا شك أن هذا القسم الثانى متباعد فى سلسلة العلية عن مرتبة الأوّل، فالمراد من الآية: أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شىء فى الأرض و لاـ فى السماء إلاـ و هو فى كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، و الغرض: الردّ على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات. و أجيب أيضا: بأن الاستثناء منقطع، أى: و لكن هو فى كتاب مبين. و ذكر أبو على الجرجانى: أن إلا بمعنى الواو، على أن الكلام قد تمّ عند قوله وَ لا أَكْبَرَ ثم وقع الابتداء بقوله: إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أى: و هو أيضا فى كتاب مبين. و العرب قد تضع إلاـ موضع الواو، و منه قوله تعالى: إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ- إِلَّا مَنْ ظَلَمَ «١» يعنى: و من ظلم، و قوله لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا «٢» أى: و الذين ظلموا، و قدّر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما فى قوله: وَ قُولُوا حِطَّةٌ* «٣» أى: هى حطة، و مثله:

وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ «۴» وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ «۵». و قال الزّجّاج: إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ بالرفع، و خبره: إِلَّا فِي كِتابٍ و اختاره صاحب الكشاف، و اختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور: أنهما منصوبان بلا التى لنفى الجنس، و استشكل العطف بنحو ما قدّمنا. ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء، و كان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين، و كسر لقلوب العاصين، ذكر حال المطيعين، فقال: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ الولىّ فى اللغة: القريب. و المراد بأولياء اللّه: خلّص المؤمنين، كأنهم قربوا من اللّه سبحانه بطاعته و اجتناب معصيته. و قد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ أى:

---

(١). النحل: ١٠ و ١١.

(٢). البقرة: ١۵٠.

(٣). البقرة: ۵٨.

(۴). النساء: ١٧١.

(۵). الأنعام: ۵٩.

فتح القدير، ج‏٢، ص: ۵٢٠

يؤمنون بما يجب الإيمان به، و يتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى اللّه سبحانه، و المراد بنفى الخوف عنهم:

أنهم لاـ يخافون أبدا كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب اللّه عليهم، و انتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها، فهم على

ثقة من أنفسهم و حسن ظنّ بربهم، و كذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء اللّه و قدره فيسلمون للقضاء و القدر، و يريحون قلوبهم عن الهمّ و الكدر، فصدورهم منشرحة، و جوارحهم نشطة، و قلوبهم مسرورة؛ و محل الموصول: النصب، على أنه بدل من أولياء، أو الرفع: على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ: و خبره: لهم البشرى، فيكون غير متصل بما قبله، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء. قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ تفسير لمعنى كونهم أولياء اللّه، أى: لهم البشرى من اللّه ما داموا فى الحياة بما يوحيه إلى أنبيائه، و ينزله فى كتبه، من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة و رضوانه عنهم، كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم، و كذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة، و ما يتفضل اللّه به عليهم من إجابة دعائهم، و ما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم: لا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنة؛ و أما البشرى فى الآخرة: فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم و السلامة من العذاب. و البشرى: مصدر أريد به المبشر به، و الظرفان فى محل نصب على الحال، أى: حال كونهم فى الدنيا و حال كونهم فى الآخرة، و معنى:

لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ لا تغيير لأقواله على العموم، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولا أوّليا، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذى لا يقادر قدره و لا يماثله غيره، و الجملتان: أعنى: لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ و ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوّزه، و فائدتهما: تحقيق المبشر به و تعظيم شأنه، أو الأولى:

اعتراضية، و الثانية: تذييلية.

و قد أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ قال: هم أهل الشرك كانوا يحلّون من الأنعام و الحرث ما شاؤوا، و يحرّمون ما شاؤوا. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ قال:

إذ تفعلون. و أخرج الفريابى و ابن جرير عن مجاهد مثله. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ قال: لا يغيب عنه وزن ذرة. وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ قال: هو الكتاب الذى عند اللّه. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ قيل: من هم يا ربّ؟ قال: هم الذين آمنوا و كانوا يتّقون. و أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: هم الذين إذا رأوا ذكر اللّه. و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس مرفوعا و موقوفا قال: هم الذين إذا رأوا يذكر اللّه لرؤيتهم. و أخرج عنه ابن المبارك، و الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، و البزار و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه مرفوعا مثله. و أخرجه ابن المبارك و ابن أبى شيبة و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا، و هو مرسل. و روى

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٢١

نحوه من طرق أخرى مرفوعا و موقوفا. و أخرج أحمد و الحكيم الترمذى عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «لا يحقّ العبد حقّ صريح الإيمان حتى يحبّ للّه و يبغض للّه، فإذا أحبّ للّه و أبغض للّه فقد استحقّ الولاء من اللّه، و إن أوليائى من عبادى و أحبّائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى و أذكر بذكرهم».

و أخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: «خيار عباد اللّه الذين إذا رأوا ذكر اللّه، و شرار عباده المشّاءون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون البرآء العنت». و أخرج الحكيم الترمذى عن عبد اللّه ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «خياركم من ذكركم اللّه رؤيته، و زاد فى علمكم منطقه، و رغبكم فى الآخرة عمله». و

أخرج الحكيم الترمذى عن ابن عباس مرفوعا نحوه. و أخرج الحاكم و صحّحه عن ابن عمر مرفوعا: «إن للّه عبادا ليسوا بالأنبياء و لا شهداء، يغبطهم النبيون و الشهداء يوم القيامة بقربهم و مجلسهم منه، فجثا أعرابى على ركبتيه فقال: يا رسول اللّه! صفهم لنا، و حلهم لنا؟ قال: قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل، تصافوا فى اللّه و تحابّوا فى اللّه، يضع اللّه لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم، يخاف الناس و لا يخافون، هم أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون». و أخرج أبو داود و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه، و أبو نعيم فى الحلية، و البيهقى فى شعب الإيمان، عن عمر بن الخطاب قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر نحوه، قال ابن كثير: و إسناده جيد. و أخرج ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج أحمد و ابن أبى الدنيا و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال:

«سئل النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن قول اللّه: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ الآية فقال: الذين يتحابّون فى اللّه». و أخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا مثله. و قد ورد فى فضل المتحابين فى اللّه أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية.

و أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه و الحكيم فى نوادر الأصول و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا فقال: ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: «ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت علىّ: «هى الرّؤيا الصّالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهى: بشراه فى الحياة الدّنيا .. و بشراه فى الآخرة: الجنة». و فى إسناده هذا الرجل المجهول. و أخرج أبو داود الطيالسى و أحمد و الدارمى و الترمذى و ابن ماجة و الحكيم الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه و البيهقى عن عبادة بن الصامت قال:

«سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا قال: هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له». و أخرج أحمد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى عن عبد اللّه بن عمرو عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: لَهُمُ الْبُشْرى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا قال: «الرؤيا الصّالحة يبشّر بها المؤمن جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوّة، فمن رأى ذلك فليخبر بها». الحديث. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى الآية قال: «هى فى الدّنيا الرّؤيا الصّالحة يراها العبد الصّالح أو ترى له،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۲۲

و فى الآخرة: الجنة». و أخرج ابن أبى الدنيا و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن مندة من طريق أبى جعفر عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسّر البشرى فى الحياة الدنيا بالرؤيا الحبيبة، و فى الآخرة ببشارة المؤمن عند الموت:

إن اللّه قد غفر لك و لمن حملك إلى قبرك. و أخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأوّل من حديث جابر. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير عن ابن عباس مثله. و قد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصّالحة من المبشّرات، و أنها جزء من أجزاء النبوّة، و لكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية. و قد روى أن المراد بالبشرى فى الآية هى قوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً «۱» أخرج ذلك ابن جرير و ابن المنذر من طريق علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس. و أخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم: أنها قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا* «۲». و أخرج ابن جرير و الحاكم و البيهقى عن نافع قال: خطب الحجاج فقال: إن ابن الزبير بدّل كتاب اللّه، فقال ابن عمر: لا تستطيع ذلك أنت و لا ابن الزبير، لا تبديل لكلمات اللّه.

[سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷) قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۶۹)
مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

قوله: وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ نهى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الحزن من قول الكفار المتضمّن للطعن عليه، و تكذيبه، و القدح فى دينه، و المقصود: التسلية له و التبشير. ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم معلّلا لما ذكره من النهى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أى: الغلبة و القهر له فى مملكته و سلطانه ليست لأحد من عباده، و إذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة و هم لا يملكون من الغلبة شيئا؟ و قرئ: يحزنك من أحزنه، و قرئ: إِنَّ الْعِزَّةَ بفتح الهمزة على معنى: لأن العزّة للّه، و لا ينافى ما فى هذه الآية من جعل العزّة جميعها للّه تعالى قوله سبحانه: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ «۳» لأن كل عزّة باللّه فهى كلها للّه، و منه قوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۴» إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا «۵». أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و من جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و إذا كانوا فى ملكه يتصرّف فيهم كيف يشاء، فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بما لا يأذن اللّه به؟ و غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف. و فى الآية نعى على عبّاد البشر و الملائكة و الجمادات،

---

(۱). الأحزاب: ۴۷.

(۲). فصلت: ۳۰.

(۳). المنافقون: ۸.

(۴). المجادلة: ۲۱.

(۵). غافر: ۵۱.

لأنهم عبدوا المملوك و تركوا المالك، و ذلك مخالف لما يوجبه العقل، و لهذا عقبه بقوله: وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ و المعنى: أنهم و إن سموا معبوداتهم: شركاء للّه، فليست شركاء له على الحقيقة، لأن ذلك محال لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «۱» و ما: فى: و ما يتبع: نافية، و شركاء: مفعول يتبع، و على هذا يكون مفعول يدعون محذوفا، و الأصل: و ما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء فى الحقيقة، إنما هى أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، و يجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون، و حذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، و يجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أىّ شىء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء؟ و يكون على هذا الوجه شركاء: منصوبا بيدعون، و الكلام خارج مخرج التوبيخ لهم و الإزراء عليهم. و يجوز أن تكون ما: موصولة معطوفة على من فى السّموات؛ أى للّه من فى السموات و من فى الأرض و ما يتبع الذين من دون اللّه شركاء؛ و المعنى: أنّ اللّه مالك لمعبوداتهم؛ لكونها من جملة من فى السّموات و من فى الأرض. ثم زاد سبحانه فى تأكيد الردّ عليهم؛ و الدفع لأقوالهم فقال: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ أى:

ما يتبعون يقينا إنما يتبعون ظنا، و الظن لا يغنى من الحق شيئا إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أى: يقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا و كذبا بحتا، و قد تقدّمت هذه الآية فى الأنعام. ثم ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً أى:

جعل لعباده الزمان منقسما إلى قسمين؛ أحدهما مظلم، و هو الليل، لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة و التّعب، و يريحون أنفسهم عن الكدّ و الكسب؛ و الآخر مبصر، لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم و توفير معايشهم، و يحصلون ما يحتاجون إليه فى وقت مضىء منير، لا يخفى عليهم فيه كبير و لا حقير، و جعله سبحانه للنهار مبصرا: مجاز. و المعنى: أنه مبصر صاحبه، كقولهم: نهاره صائم، و الإشارة بقوله إِنَّ فِي ذلِكَ إلى الجعل المذكور لَآياتٍ عجيبة كثيرة لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أى: يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المتبهة على الآيات التكوينية مما ذكره سبحانه هاهنا منها و من غيرها مما لم يذكره، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون و يعتبرون، فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان. قوله: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التى كانوا يتكلمون بها، و هو زعمهم بأن اللّه سبحانه اتخذ ولدا، فردّ ذلك عليهم بقوله سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ فنزّه جل و علا نفسه عما نسبوه إليه من هذا الباطل البيّن، و بين أنه غنىّ عن ذلك، و أن الولد إنما يطلب للحاجة، و الغنىّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، و إذا انتفت الحاجة انتفى الولد، و أيضا إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، و الأزلىّ القديم لا يفتقر إلى ذلك. و قد تقدّم تفسير الآية فى البقرة. ثم بالغ فى الردّ عليهم بما هو كالبرهان، فقال: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و إذا كان الكل له؛ و فى ملكه؛ فلا يصح أن يكون شىء مما فيهما ولدا له؛ للمنافاة بين الملك و البنوة و الأبوّة. ثم زيف دعواهم الباطلة، و بين أنها بلا دليل، فقال: إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أى ما عندكم من حجة و برهان بهذا القول الذى تقولونه، و مِنْ فى: مِنْ سُلْطانٍ زائدة للتأكيد، و الجار و المجرور فى بِهذا متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة

---

(١). الأنبياء: ٢٢.

و البرهان، أو متعلق ب: ما عندكم، لما فيه من معنى الاستقرار. ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء، فقال: أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ و يستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم فى شىء، بل من الجهل المحض، ثم أمر رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم أن يقول لهم قولا يدلّ على أن ما قالوه كذب، و أن من كذب على اللّه لا يفلح، فقال: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ أى: كل مفتر هذا شأنه، و يدخل فيه هؤلاء دخولا أوّليا. و ذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد، كما سبق فى مواضع من الكتاب العزيز. و المعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب. ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء؛ و إن فاز صاحبه بشىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل فى الدنيا، ثم يتعقبه الموت و الرجوع إلى اللّه، فيعذب المفترى عذابا مؤبدا. فيكون متاع: خبر مبتدأ محذوف، و الجملة:

مستأنفة، لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة يعتدّ بها، بل هو متاع يسير فى الدنيا يتعقّبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها: الكذب على اللّه. و قال الأخفش: إنّ التقدير: لهم متاع فى الدنيا، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر. و قال الكسائى: التقدير: ذلك متاع، أو هو متاع، فيكون المحذوف على هذا: هو المبتدأ.

و قد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى: وَ لا يَحْزُنْكَ لما لم ينتفعوا بما جاءهم من اللّه: و أقاموا على كفرهم، كبر ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فجاءه من اللّه فيما يعاتبه: وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ يسمع ما يقولون و يعلمه، فلو شاء بعزّته لانتصر منهم. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: وَ النَّهارَ مُبْصِراً قال: منيرا. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله:
إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا يقول: ما عندكم سلطان بهذا.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

لما بالغ سبحانه فى تقرير البراهين الواضحة و دفع الشبهة المنهارة؛ شرع فى ذكر قصص الأنبياء لما فى ذلك من التسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ أى: على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة نَبَأَ نُوحٍ أى: خبره، و النبأ: هو الخبر الذى له خطر و شأن، و المراد: ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش و أمثالهم إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أى: وقت قال لقومه، و الظرف: منصوب بنبإ، أو بدل منه بدل اشتمال، و اللام فى: لِقَوْمِهِ لام التبليغ يا قَوْمِ إِنْ كانَ

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٢٥

كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي أى: عظم و ثقل، و المقام بفتح الميم: الموضع الذى يقام فيه، و بالضم: الإقامة. و قد اتفق القراء على الفتح، و كنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان، أى: لأجله، و منه: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ «١» أى: خاف ربّه، و يجوز أن يراد بالمقام المكث، أى: شقّ عليكم مكثى بين أظهركم، و يجوز أن يراد بالمقام: القيام؛ لأنّ الواعظ يقوم حال وعظه؛ و المعنى: إن كان كبر عليكم قيامى بالوعظ فى مواطن اجتماعكم، و كبر عليكم تذكيرى لكم بِآياتِ اللَّهِ التكوينية و التنزيلية فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ هذه الجملة جواب الشرط، و المعنى: إنى لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على اللّه، فإن ذلك دأبى الذى أنا عليه قديما و حديثا. و يجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل، و يجوز أن يكون جواب الشرط فَأَجْمِعُوا و جملة فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ اعتراض، كقولك: إن كنت أنكرت علىّ شيئا فاللّه حسبى.

و معنى: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ اعتزموا عليه، من أجمع الأمر: إذا نواه و عزم عليه، قاله الفراء. و روى عن الفراء أنه قال: أجمع الشيء: أعدّه. و قال مؤرج السدوسى: أجمع الأمر: أفصح من أجمع عليه، و أنشد:

يا ليت شعرى و المنى لا تنفع هل أغدون يوما و أمرى مجمع

و قال أبو الهيثم: أجمع أمره: جعله جميعا بعد ما كان متفرّقا، و تفرّقه أن تقول مرّة: أفعل كذا، و مرّة:

أفعل كذا، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه، أى: جعله جميعا، فهذا هو الأصل فى الإجماع، ثم صار بمعنى العزم. و قد اتفق جمهور القراء على نصب شُرَكاءَكُمْ و قطع الهمزة من أجمعوا. و قرأ يعقوب و عاصم الجحدرى بهمزة وصل فى اجمعوا على أنه من جمع يجمع جمعا. و قرأ الحسن و ابن أبى إسحاق و يعقوب:

و شركاؤكم بالرفع. قال النحّاس: و فى نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه: الأوّل بمعنى و ادعوا شركاءكم، قاله الكسائى و الفرّاء، أى: ادعوهم لنصرتكم، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر.

و قال محمد بن يزيد المبرّد: هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك فى الوغى متقلّدا سيفا و رمحا

و الرمح لا يتقلّد به، لكنه محمول كالسيف. و قال الزجّاج: المعنى مع شركائكم، فالواو على هذا، واو مع. و أما على قراءة اجمعوا بهمزة وصل فالعطف ظاهر؛ أى: اجمعوا أمركم و اجمعوا شركاءكم. و أما توجيه قراءة الرفع، فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع فى اجمعوا، و حسّن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر فى ذلك أن الكلام قد طال. قال النحّاس و غيره: و هذه القراءة بعيدة لأنه لو كان شركاءكم مرفوعا لرسم فى المصحف بالواو، و ليس ذلك موجودا فيه. قال المهدوى: و يجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء، و الخبر محذوف، أى: و شركاؤكم ليجمعوا أمرهم، و نسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل: لقصد التوبيخ، و التقريع لمن عبدها. و روى عن أبىّ أنه قرأ: و ادعوا شركاءكم بإظهار الفعل. قوله ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً الغمة: التغطية من قولهم، غمّ الهلال: إذا استتر؛ أى: ليكن أمركم ظاهرا منكشفا. قال طرفه:

---

(١). الرحمن: ۴۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ۵۲۶ لعمرك ما أمرى علىّ بغمّة نهارى و لا ليلى علىّ بسرمد

هكذا قال الزّجاج. و قال الهيثم: معناه لا يكن أمركم عليكم مبهما. و قيل: إن الغمّة: ضيق الأمر، كذا روى عن أبى عبيدة. و المعنى: لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتى و المجاملة لى ضيقا شديدا، بل ادفعوا هذا الضيق و الشدّة بما شئتم و قدرتم عليه، و على الوجهين الأوّلين يكون المراد بالأمر الثانى هو الأمر الأول، و على الثالث يكون المراد به غيره. قوله: ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ أى: ذلك الأمر الذى تريدونه بى.

و أصل اقضوا من القضاء، و هو الإحكام. و المعنى: أحكموا ذلك الأمر. قال الأخفش و الكسائى: هو مثل وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ «١» أى: أنهيناه إليه و أبلغناه إياه، ثم لا تنظرون: أى لا تمهلون، بل عجلوا أمركم و اصنعوا ما بدا لكم. و قيل معناه: ثم امضوا إلىّ و لا تؤخرون. قال النحاس: هذا قول صحيح فى اللغة، و منه قضى الميت: مضى. و حكى الفراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم أفضوا بالفاء و قطع الهمزة، أى:

توجهوا، و فى هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدلّ على وثوقه بنصر ربه، و عدم مبالاته بما يتوعده به قومه.

ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار و الإنذار و تبليغ الشريعة عن اللّه ليس هو لطمع دنيوىّ، و لا لغرض خسيس، فقال: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أى: إن أعرضتم عن العمل بنصحى لكم و تذكيرى إياكم، فما سألتكم فى مقابلة ذلك من أجر تؤدّونه إلىّ حتى تتهمونى فيما جئت به، و الفاء فى فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و الفاء فى فَما سَأَلْتُكُمْ جزائية إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ أى: ما ثوابى فى النصح و التذكير إلا عليه سبحانه، فهو يثيبنى آمنتم أو توليتم. قرأ أهل المدينة و أبو عمر و ابن عامر و حفص بتحريك الياء من أجرى، و قرأ الباقون بالسكون. وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين لحكم اللّه الذين يجعلون أعمالهم خالصة للّه سبحانه لا يأخذون عليها أجرا فى عاجل. قوله: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ أى: استمروا على تكذيبه و أصرّوا على ذلك، و ليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن، و المراد معه من قد أجابه و صار على دينه، و الخلائف جمع خليفة، و المعنى: أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التى كانت للمهلكين بالغرق، و يخلفونهم فيها وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم اللّه بالطوفان فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ فيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تهديد للمشركين و تهويل عليهم ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ أى: من بعد نوح رُسُلًا كهود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى: بالمعجزات و بما أرسلهم اللّه به من الشرائع التى شرعها اللّه

لقوم كل نبىّ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أى: فما أحدثوا الإيمان بل استمرّوا على الكفر و أصرّوا عليه. و المعنى: أنه ما صح و لا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل اللّه إليهم رسله أن يؤمنوا فى وقت من الأوقات بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ أى: من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجىء الرسل إليهم. و المعنى:

أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل اللّه إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، و لو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا، و هذا مبنىّ على أن الضمير فى: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا و فى بِما كَذَّبُوا راجع إلى القوم المذكورين فى

(١). الحجر: ۶۶.

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۲۷

قوله: إِلى قَوْمِهِمْ و قيل: ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح، أى: فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتى هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ و قيل:

إن الباء فى بما كذبوا به من قبل للسّببية؛ أى: فما كانوا ليؤمنوا عند مجىء الرّسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم، و فيه نظر. و قيل المعنى: بما كذبوا به من قبل: أى فى عالم الذرّ فإن فيهم من كذب بقلبه، و إن آمنوا ظاهرا. قال النحاس: و من أحسن ما قيل: إنه لقوم بأعيانهم كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ أى: مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدّ المعهود فى الكفر. و قد تقدّم تفسير هذا فى غير موضع.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن الأعرج فى قوله: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ يقول: فأحكموا أمركم و ادعوا شركاءكم. و أخرج أيضا عن الحسن فى الآية. أى: فليجمعوا أمرهم معكم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً قال: لا يكبر عليكم أمركم ثُمَّ اقْضُوا ما أنتم قاضون. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله:

ثُمَّ اقْضُوا قال: انهضوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ يقول: و لا تؤخرون.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٨٧]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩)

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ معطوف على قوله: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا و الضمير فى: من بعدهم، راجع إلى الرسل المتقدّم ذكرهم، و

خصّ موسى و هارون بالذّكر مع دخولهما تحت الرسل: لمزيد شرفهما و خطر شأن ما جرى بينهما و بين فرعون، و المراد بالملإ: الأشراف، و المراد بالآيات: المعجزات، و هى التّسع المذكورة فى الكتاب العزيز فَاسْتَكْبَرُوا عن قبولها، و لم يتواضعوا لها، و يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ أى: كانوا ذوى إجرام عظام و آثام

كبيرة، فبسبب ذلك اجترءوا على ردّها، لأن الذنوب تحول بين صاحبها و بين إدراك الحق و إبصار الصواب، قيل: و هذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها. قوله: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ أى: فلما جاء فرعون و ملأه الحقّ من عند اللّه و هو المعجزات، لم يؤمنوا بها، بل حملوها على السحر مكابرة منهم، فردّ عليهم موسى قائلا: أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا قيل فى الكلام حذف، و التقدير: أ تقولون للحقّ: سحر، فلا تقولوا ذلك، ثم استأنف إنكارا آخر من جهة نفسه فقال:

أَ سِحْرٌ هذا فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثانى، و الملجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكى ما قالوه بقوله: أَ سِحْرٌ هذا بل هم قاطعون بأنه سحر، لأنهم قالوا: إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ فحينئذ لا يكون قوله: أَ سِحْرٌ هذا من قولهم، و قال الأخفش: هو من قولهم، و فيه نظر لما قدّمنا؛ و قيل: معنى: أَ تَقُولُونَ أ تعيبون الحقّ و تطعنون فيه و كان عليكم أن تذعنوا له، ثم قال: أسحر هذا؟

منكرا لما قالوه؛ و قيل: إن مفعول أَ تَقُولُونَ محذوف، و هو ما دلّ عليه قولهم: إِنَّ هذا لَسِحْرٌ و التقدير: أ تقولون ما تقولون، يعنى: قولهم: إن هذا لسحر مبين، ثم قيل: أسحر هذا؟ و على هذا التقدير و التقدير الأوّل فتكون جملة أَ سِحْرٌ هذا مستأنفة من جهة موسى عليه السلام، و الاستفهام للتقريع و التوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: ماذا قال لهم موسى لما قالوا:

إن هذا لسحر مبين؟ فقيل: قال أ تقولون للحق لما جاءكم؟ على طريقة الاستفهام الإنكارى، و المعنى: أ تقولون للحق لما جاءكم إنّ هذا لسحر مبين؟ و هو أبعد شىء من السحر. ثم أنكر عليهم و قرّعهم و وبخهم فقال:

أَ سِحْرٌ هذا فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار، و توبيخ بعد توبيخ، و تجهيل بعد تجهيل، و جملة لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ فى محل نصب على الحال، أى: أ تقولون للحق إنه سحر، و الحال أنه لا يفلح الساحرون، فلا يظفرون بمطلوب و لا يفوزون بخير، و لا ينجون من مكروه، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند اللّه، و قد أيده بالمعجزات و البراهين الواضحة؟ و جملة قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال؟ و فى هذا ما يدلّ على أنهم انقطعوا عن الدليل و عجزوا عن إبراز الحجّة، و لم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل و البلادة، و هو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، و ضموا إلى ذلك ما هو غرضهم، و غاية مطلبهم، و سبب مكابرتهم للحق، و جحودهم للآيات البينة، و هو الرياسة الدنيوية التى خافوا عليها و ظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا، و كم بقى على الباطل، و هو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر و لا حقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، و منهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة، و إلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت. يقال: لفته لفتا: إذا صرفه عن الشىء و لواه عنه، و منه قول الشاعر:

تلفّت نحو الحىّ حتّى رأيتنى و جعت من الإصغاء ليتا و أخدعا

أى: تريد أن تصرفنا عن الشىء الذى وجدنا عليه آباءنا، و هو عبادة الأصنام. و المراد بالكبرياء:

الملك. قال الزجاج: سمى الملك: كبرياء، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا؛ و قيل: سمى بذلك: لأن الملك يتكبر.

و الحاصل: أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسّك بالتقليد للآباء، و الحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبى و صدّقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه و لم يبق للملك رئاسة تامة، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات و العادات، ثم قالوا: وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ تصريحا منهم بالتكذيب، و قطعا للطمع فى إيمانهم، و قد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم: أ جئتنا لتلفتنا، ثم جمعوا بينه و بين هارون فى الخطاب فى قولهم: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِى الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ و وجه ذلك:

أنهم أسندوا المجىء و الصرف عن طريق آبائهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن اللّه ما شرعه لهم، و جمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين، لأنّ الكبرياء شامل لهما فى زعمهم، و لكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون، و قد مرّت القصة فى الأعراف. قوله: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ قال هكذا لما رأى اليد البيضاء و العصا، لأنه اعتقد أنهما من السحر، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم، هكذا قرأ حمزة و الكسائى و ابن وثاب و الأعمش: سحار. و قرأ الباقون: ساحِرٍ و قد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف. و السحار: صيغة مبالغة؛ أى: كثير السحر، كثير العلم بعمله و أنواعه فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ فى الكلام حذف، و التقدير هكذا: و قال فرعون ائتونى بكل سحار عليم فأتوا بهم إليه، فلما جاء السحرة، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف. قوله: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ أى: قال لهم هذه المقالة بعد أن قالوا له: إما أن تلقى، و إما أن نكون نحن الملقون، أى: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم و عصيكم فَلَمَّا أَلْقَوْا ما ألقوه من ذلك قالَ لهم مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ أى: الذى جئتم به السحر، على أن ما موصولة مبتدأ، و الخبر: السحر؛ و المعنى: أنه سحر، لا أنه آية من آيات اللّه. و أجاز الفرّاء نصب السحر بجئتم، و تكون ما شرطية، و الشرط جئتم، و الجزاء:

إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ على تقدير الفاء؛ فإن اللّه سيبطله؛ و قيل: إن السحر منتصب على المصدر؛ أى: ما جئتم به سحرا، ثم دخلت الألف و اللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء، و اختاره النحّاس. و قال: حذف الفاء فى المجازاة لا يجيزه كثير من النحويين إلا فى ضرورة الشعر. و قرأ أبو عمرو، و أبو جعفر: السحر على أن الهمزة للاستفهام، و التقدير: أهو السحر؟ فتكون ما على هذه القراء استفهامية. و قرأ أبىّ: ما أتيتم به سحر إنّ اللّه سيبطله أى: سيمحقه، فيصير باطلا بما يظهره على يدىّ من الآيات المعجزة إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ أى: عمل هذا الجنس، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، و يدخل فيه السحر و السحرة دخولا أوّليا، و الواو فى: وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَ للعطف على سيبطله، أى: يبينه و يوضحه بِكَلِماتِهِ التى أنزلها فى كتبه على. أنبيائه لاشتمالها على الحجج و البراهين وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ من آل فرعون، أو المجرمون على العموم، و يدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوليا، و الإجرام: الآثام. قوله فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ الضمير يرجع إلى موسى، أى: من قوم موسى، و هم طائفة من ذرارى

بنى إسرائيل؛ و قيل: المراد طائفة من ذرارى فرعون، فيكون الضمير عائدا على فرعون، قيل: و منهم مؤمن آل فرعون و امرأته و ماشطة ابنته و امرأة خازنه؛ و قيل: هم قوم آباؤهم من القبط و أمهاتهم من بنى إسرائيل، روى هذا عن الفراء. عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ الضمير لفرعون، و جمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له؛ و قيل: إن قوم فرعون سموا: بفرعون، مثل ثمود، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار، و قيل: إنه عائد على مضاف محذوف، و التقدير: على خوف من آل فرعون، و روى هذا عن الفراء. و منع ذلك الخليل و سيبويه، فلا يجوز عندهما: قامت هند، و أنت تريد غلامها، و روى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية، و قوّاه النحاس: أَنْ يَفْتِنَهُمْ أى: يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم، و هو بدل اشتمال. و يجوز أن يكون فى موضع نصب بالمصدر. وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِى الْأَرْضِ أى: عات متكبر متغلب على أرض مصر وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

المجاوزين للحد فى الكفر و ما يفعله من القتل و الصلب و تنويع العقوبات. قوله: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ قيل:

إن هذا من باب التكرير للشرط، فشرط فى التوكل على اللّه الإيمان به، و الإسلام: أى الاستسلام لقضائه و قدره؛ و قيل: إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين، بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل، و المشروط بالإسلام وجوده؛ و المعنى: أن يسلموا أنفسهم للّه، أى: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها، لأن التوكل لا يكون مع التخليط. قال فى الكشاف: و نظيره فى الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوّة فَقالُوا أى: قوم موسى مجيبين له عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا ثم دعوا اللّه مخلصين فقالوا: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً أى: موضع فتنة لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و المعنى: لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، و لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا، فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم و عذبناهم، و على المعنى الأوّل تكون الفتنة بمعنى المفتون. و لما قدّموا التضرّع إلى اللّه سبحانه فى أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و فى هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم. قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً أن هى المفسرة، فى الإيحاء معنى: القول: أن تبوّأ: أى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا؛ يقال: بوّأت زيدا مكانا، و بوّأت لزيد مكانا، و المبوأ: المنزل الملزوم، و منه: بوّأه اللّه منزلا: أى ألزمه إياه و أسكنه فيه، و منه: الحديث: «من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار» و منه قول الراجز:

نحن بنو عدنان ليس شكتبوّأ المجد بنا و الملك

قيل: و مصر فى هذه الآية هى الإسكندرية، و قيل: هى مصر المعروفة لا الإسكندرية وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً أى: متوجهة إلى جهة القبلة، قيل: و المراد بالبيوت هنا المساجد، و إليه ذهب جماعة من السلف؛ و قيل: المراد بالبيوت التى يسكنون فيها، أمروا بأن يجعلوها متقابلة، و المراد بالقبلة على القول الأوّل هى جهة بيت المقدس، و هو قبلة اليهود إلى اليوم؛ و قيل: جهة الكعبة، و أنها كانت قبلة موسى و من معه؛ و قيل:

المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرّا لئلا يصيبهم من الكفار معرّة بسبب الصلاة، و مما

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٣١

يؤيد هذا قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ أى: التى أمركم اللّه بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هى: قبلة الصلاة إما فى المساجد، أو فى البيوت لا جعل البيوت متقابلة، و إنما جعل الخطاب فى أوّل الكلام مع موسى و هارون، ثم جعله لهما و لقومهما فى قوله: وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لأنّ اختيار المكان مفوّض إلى الأنبياء، ثم جعل عاما فى استقبال القبلة، و إقامة الصلاة، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصا بموسى لأنه الأصل فى الرسالة و هارون تابع له، فكان ذلك تعظيما للبشارة و للمبشر بها؛ و قيل: إن الخطاب فى وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لنبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم على طريقة الالتفات و الاعتراض، و الأوّل أولى.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: لِتَلْفِتَنا قال: لتلوينا.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى قال: لتصدّنا عن آلهتنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ قال: العظمة و الملك و السلطان. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ قال: الذرية: القليل. و أخرج هؤلاء عنه فى قوله: ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ قال: من بنى إسرائيل. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان و مات آباؤهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى

إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون و خازن فرعون و امرأة خازنه. و أخرج عبد الرزاق و سعيد بن منصور و نعيم بن حماد فى الفتن و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ قال: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه قال فى تفسير الآية: لا تعذّبنا بأيدى قوم فرعون و لا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحقّ ما عذبوا و لا سلّطنا عليهم فيفتنون بنا. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و أبو الشيخ عن أبى قلابة فى الآية قال: سأل ربه أن لا يظهر علينا عدوّنا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى مجلز نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ الآية، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم و أن يوجهوها نحو القبلة. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ قال: مصر الإسكندرية. و أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: كانوا لا يصلون إلا فى البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلّوا فى بيوتهم. و أخرج الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال: أمروا أن يتّخذوا فى بيوتهم مساجد. و أخرج أبو الشيخ عن أبى سنان قال: القبلة الكعبة، و ذكر أن آدم فمن بعده كانوا يصلّون قبل الكعبة. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً قال:

يقابل بعضها بعضا.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٣٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٨ الى ٩٢]

وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (٩٢)

لما بالغ موسى عليه السلام فى إظهار المعجزات و إقامة الحجج البينات، و لم يكن لذلك تأثير فى من أرسل إليهم دعا عليهم بعد أن بيّن سبب إصرارهم على الكفر، و تمسكهم بالجحود و العناد، فقال مبينا للسبب أوّلا:

رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا قد تقدّم أن الملأ هم الأشراف، و الزينة:

اسم لكل ما يتزين به: من ملبوس و مركوب و حلية و فراش و سلاح، و غير ذلك، ثم كرّر النداء للتأكيد فقال: رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

و قد اختلف فى هذه اللام الداخلة على الفعل، فقال الخليل و سيبويه: إنه لام العاقبة و الصّيرورة. و المعنى:

أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم من النعم ليضلوا، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت؛ و قيل: إنها لام كى؛ أى: أعطيتهم لكى يضلّوا. و قال قوم: إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلّوا، فحذفت لا كما قال سبحانه يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا «١». قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن، فموّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، و قيل: اللام للدعاء عليهم. و المعنى: ابتلهم بالهلاك عن سبيلك، و استدلّ هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا: اطمس و اشدد. و قد أطال صاحب الكشاف فى تقرير هذا بما لا طائل تحته، و القول الأوّل هو الأولى. و قرأ

الكوفيـون لِيُضِـلُّوا بضم حرف المضارعـة؛ أى: يوقعوا الإضـلال على غيرهم. و قرأ البـاقون بالفتـح، أى: يضـلون فى أنفسـهم رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ قال الزّجّاج: طمس الشيء:

إذهابه عن صورته؛ و المعنى: الـدعاء عليهم بأن يمحق اللّه أموالهم و يهلكها، و قرئ: بضم الميم من اطمس وَ اشْـدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ أى: اجعلهـا قاسـية مطبوعـة لا تقبل الحق، و لا تنشـرح للإيمان، قوله فَلا يُؤْمِنُوا قال المبرد و الزجاج: هو معطوف على ليضـلوا، و المعنى: آتيتهم النعم ليضـلوا و لا يؤمنوا، و يكون مـا بين المعطوف عليه اعتراضـا. و قال الفراء و الكسائى و أبو عبيـدة: هو دعاء بلفظ النهى، و التقدير: اللهمّ فلا يؤمنوا، و منه قول الأعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوىو لا تلقنى إلا و أنفك راغم

و قال الأخفش: إنه جواب الأمر، أى: اطمس و اشدد فلا يؤمنوا، فيكون منصوبا. و روى هذا عن الفرّاء أيضا، و منه:

---

(١). النساء: ١٧۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ۵٣٣ يا ناق سيرى عنقا فسيحاإلى سليمان فنستريحا

حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أى: لا يحصـل منهم الإيمـان إلّا مع المعاينـة لمـا يعـذبهم اللّه به، و عنـد ذلـك لا ينفع إيمانهم. و قد استشـكل بعض أهل العلم ما فى هـذه الآيـة من الدعاء على هؤلاء، و قال: إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم و إيمانهم. و أجيب بأنه لا يجوز لنبىّ أن يدعو على قومه إلا بإذن اللّه سبحانه، و إنما يأذن اللّه بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، و لهذا لما أعلم اللّه نوحا عليه السـلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قـد آمن، قال: رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسـى و هارون، و فيما تقدّم أضافها إلى موسـى وحده، فقيل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسـى، فسـمى هاهنا داعيا، و إن كان الـداعى موسـى وحده، ففى أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسـى لكونه الداعى، و هاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعى، و يجوز أن يكونا جميعا داعيين، و لكن أضاف الدعاء إلى موسـى فى أوّل الكلام لأصالته فى الرسالة. قال النحاس: سمعت علىّ بن سليمان يقول:

الـدليل على أن الـدعاء لهمـا قـول موسـى ربنـا و لـم يقـل رب. و قرأ علىّ و السّـلمى دعواتكمـا و قرأ ابن السـميقع: دعواكمـا و الاسـتقامة: الثبـات على ما هما عليه من الـدعاء إلى اللّه. قال الفرّاء و غيره: أمرا بالاسـتقامة على أمرهما، و الثبات عليه، على دعاء فرعون و قومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سـنة ثم أهلكوا؛ و قيل معنى الاسـتقامة: ترك الاسـتعجال و لزوم السـكينة و الرضا و التسـليم لما يقضـى به اللّه سـبحانه. قوله: وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ بتشديـد النون للتأكيـد، و حرّكت بالكسـر لكونه الأصـل، و لكونهـا أشـبهت نون التثنيـة. و قرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفى لا على النهى. و قرئ بتخفيف الفوقيـة الثانية من تتبعان. و المعنى: النهى لهما عن سـلوك طريقة من لا يعلم بعادة اللّه سـبحانه فى إجراء الأمور على ما تقتضـيه المصالح تعجيلا و تأجيلا. قوله: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ هو من جاوز المكان:

إذا خلفه و تخطاه، و الباء للتعدية، أى: جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن اللّه سـبحانه جعل البحر يبسا فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البرّ. و قد تقدّم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه: وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ «٢» و قرأ الحسن: و جوّزنا و هما لغتـان فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ يقـال: تبع و أتبع بمعنى واحـد: إذا لحقه. و قـال الأصـمعى: يقـال أتبعه بقطع الألـف: إذا لحقه و أدركه، و اتّبعه بوصل الألف:

إذا اتبع أثره أدركه، أو لم يـدركه. و كـذا قال أبو زيـد. و قال أبو عمرو: إنّ اتبعه بالوصل: اقتدى به، و انتصاب بغيا و عدوا على الحال، و البغى: الظلم، و العـدو: الاعتـداء، و يجوز أن يكون انتصابهما على العلة، أى: للبغى و العدو. و قرأ الحسن و عدوا بضـم

العين و الدال و تشديد الواو مثل: علا يعلو علوّا؛ و قيل:

إن البغى: طلب الاستعلاء فى القول بغير حق، و العدو فى الفعل حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أى: ناله و وصله و ألجمه. و ذلك أن موسى خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق اللّه البحر لموسى و بنى إسرائيل، فمشوا فيها حتى خرجوا من الجانب الآخر، و تبعهم فرعون و البحر باق على الحالة التى كان عليها عند مضىّ موسى و من معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون و كادوا أن يخرجوا

---

(۱). نوح: ۲۶.

(۲). البقرة: ۵۰.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۳۴

من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى اللّه سبحانه ذلك قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ أى: صدّقت أنه، بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه، فحذفت الباء، و الضمير للشأن. و قرئ بكسر إنّ على الاستئناف، و زعم أبو حاتم أن القول محذوف، أى: آمنت، فقلت إنه و لم ينفعه هذا الإيمان لأنه وقع منه بعد إدراك الغرق، كله كما تقدّم فى النساء، و لم يقل اللعين: آمنت باللّه أو بربّ العالمين، بل قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى: المستسلمين لأمر اللّه، المنقادين له الذين يوحدونه، و ينفون ما سواه، و هذه الجملة إما فى محل نصب على الحال، أو معطوفة على آمنت. قوله: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ هو مقول قول مقدّر معطوف على قال آمنت، أى: فقيل له: أ تؤمن الآن؟

و قد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هى من قول اللّه سبحانه، و قيل: من قول جبريل، و قيل: من قول ميكائيل، و قيل: من قول فرعون، قال ذلك فى نفسه لنفسه. و جملة و قد عصيت قبل فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدّر بعد القول المقدر، و هو أ تؤمن الآن؛ و المعنى: إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، و الحال أنه قد عصى اللّه من قبل، و المقصود: التقريع و التوبيخ له. و جملة و كنت من المفسدين: معطوفة على عصيت داخلة فى الحال، أى: كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق، و إضلالك لغيرك. قوله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ قرئ نُنَجِّيكَ بالتخفيف، و الجمهور على التثقيل. و قرأ اليزيدى: ننحيك بالحاء المهملة من التنحية، و حكاها علقمة عن ابن مسعود؛ و معنى ننجيك بالجيم: نلقيك على نجوة من الأرض، و ذلك أن بنى إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غرق، و قالوا:

هو أعظم شأنا من ذاك، فألقاه اللّه على نجوة من الأرض، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه؛ و قيل المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر، و نجعلك طافيا ليشاهدوك ميتا بالغرق، و معنى ننحيك بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض. و روى عن ابن مسعود أنه قرأ: بأبدانك.

و قد اختلف المفسرون فى معنى ببدنك، فقيل معناه: بجسدك بعد سلب الروح منه؛ و قيل معناه:

بدرعك، و الدرع يسمى بدنا، و منه قول كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال و اليلب الحصينا «۱»

أراد بالأبدان الدروع، و قال عمرو بن معدى كرب:

و مضى نساؤهم بكلّ مفاضة جدلاء سابغة و بالأبدان

أى: بدروع سابغة و دروع قصيرة؛ و هى التى يقال لها: أبدان، كما قال أبو عبيدة. و قال الأخفش:

و أما قول من قال: بدرعك، فليس بشيء، و رجح أنّ البدن المراد به هنا: الجسد. قوله: لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً

---

(١). اليلب: الدروع اليمانية.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٣٥

هـذا تعليل لتنجيته ببدنه، و فى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، و المراد بالآية: العلامة، أى: لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك، و أنك لست كما تدّعى، و يندفع عنهم الشك: فى كونك قد صرت ميتا بالغرق؛ و قيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات اللّه، يعتبر بها الناس، أو يعتبر بها من سيأتى من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر و التجبر و التمرّد على اللّه سبحانه، فإن هذا الذى بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية و استمرّ على ذلك دهرا طويلا كانت له هذه العاقبة القبيحة. و قرئ: لِمَنْ خَلْفَكَ على صيغة الفعل الماضى، أى: لمن يأتى بعدك من القرون، أو من خلفك فى الرياسة، أو فى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا التى توجب الاعتبار و التفكر و توقظ من سنة الغفلة لَغافِلُونَ عما توجبه الآيات، و هذه الجملة تذييلية.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ يقول: دمر على أموالهم و أهلكها وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ قال: اطبع فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ و هو الغرق، و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال:

سألنى عمر بن عبد العزيز عن قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ فأخبرته أن اللّه طمس على أموال فرعون و آل فرعون حتى صارت حجارة، فقال عمر: كما أنت حتّى آتيك، فدعا بكيس مختوم ففكه، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة، و الدّنانير و الدّراهم و أشباه ذلك من الأموال حجارة كلها. و قد روى أن أموالهم تحوّلت حجارة من طريق جماعة من السلف. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: قد أجيبت دعوتكما، قال: فاستجاب له و حال بين فرعون و بين الإيمان. و أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال:

كان موسى إذا دعا أمّن هارون على دعائه يقول: آمين. قال أبو هريرة: و هو اسم من أسماء اللّه، فذلك قوله: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما. و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و أبو الشيخ عن عكرمة نحوه. و أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظى نحوه أيضا. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. و أخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله. و أخرج الحكيم الترمذى عن مجاهد نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس:

فاستقيما: فامضيا لأمرى، و هى الاستقامة. و أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: العدو و العتوّ و العلوّ فى كتاب اللّه: التجبّر. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما خرج آخر أصحاب موسى و دخل آخر أصحاب فرعون أوحى اللّه إلى البحر أن انطبق عليهم، فخرجت إصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: فعرفت أن الربّ رحيم و خفت أن تدركه الرحمة، فرمسته بجناحى و قلت:

آلان و قد عصيت قبل؟ فلما خرج موسى و أصحابه قال من تخلف من قوم فرعون: ما غرق فرعون و لا أصحابه، و لكنهم فى جزائر البحر يتصيدون، فأوحى اللّه إلى البحر أن الفظ فرعون عريانا، فلفظه عريانا أصلع أخينس قصيرا فهو قوله فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً لمن قال: إن فرعون لم

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٣٦

يغرق، و كانت نجاة عبرة لم تكن نجاة عافية؛ ثم أوحى اللّه إلى البحر أن الفظ ما فيك، فلفظهم على الساحل، و كان البحر لا يلفظ غريقا في بطنه حتى يأكله السمك، فليس يقبل البحر غريقا إلى يوم القيامة. و أخرج أحمد و الترمذي و حسنه و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و الطبراني، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أغرق اللّه فرعون فقال: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ قال لي جبريل: يا محمد! لو رأيتني و أنا آخذ من حال «١» البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة» و قد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه، و قال حسن صحيح غريب، و صححه أيضا الحاكم. و روى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى. و أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

«قال لي جبريل: ما كان على الأرض شيء أبغض إلي من فرعون، فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة و أنا أغطه خشية أن تدركه الرّحمة». و أخرج ابن جرير، و البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا نحوه. و أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا نحوه أيضا. و أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعا نحوه أيضا، و في إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول، و باقي رجاله ثقات. و العجب كل العجب ممن لا علم له بفنّ الرواية من المفسرين، و لا يكاد يميز بين أصحّ الصّحيح من الحديث و أكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الحكم ببطلان ما صح منها، و يرسل لسانه و قلمه بالجهل البحت، و القصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث، فيا مسكين مالك و لهذا الشأن الذي لست منه في شيء؟ ألا تستر نفسك و تربع على ضلعك، و تعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، و تشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه، و حاصلك الذي ليس لك غيره، و هو علم اللغة و توابعه من العلوم الآلية، و لقد صار صاحب الكشاف رحمه اللّه بسبب ما يتعرّض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد و لا صدر سخرة للسّاخرين و عبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات و هو لا يدري أنها موضوعات، و تارة يتعرض لردّ ما صح، و يجزم بأنه من الكذب على رسول اللّه و البهت عليه، و قد يكون في الصحيحين و غيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج، و أدنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه و لا يدري به أقلّ دراية، و إن كان ذلك العلم من علوم الإصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، و يصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسيم كتاب اللّه، و قائله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و راويه عنه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، و كل حرف من حروفه و كلمة من كلماته يثبت بها شرع عامّ لجميع أهل الإسلام. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ قال: أنجى اللّه فرعون لبني إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعد ما غرق. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبي حاتم، و ابن الأنباري، و أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال: بجسدك، قال: كذب بعض بني إسرائيل بموت فرعون، فألقي على ساحل البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور. و أخرج ابن الأنباري عن محمد بن كعب في قوله: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

---

(١). قال في القاموس: الحال: الطين الأسود.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥٣٧

قال: بدرعك، و كان درعه من لؤلؤة يلاقي فيها الحروب.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٣ الى ١٠٠]

وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا هذا من جملة ما عدّده اللّه سبحانه من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، و معنى بوّأنا: أسكنا، يقال بوّأت زيدا منزلا: أسكنته فيه، و المبوأ: اسم مكان أو مصدر، و إضافته إلى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب، فإنهم كانوا إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق، و المراد به هنا: المنزل المحمود المختار، قيل: هو أرض مصر، و قيل: الأردن و فلسطين، و قيل: الشام وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: المستلذات من الرزق فَمَا اخْتَلَفُوا فى أمر دينهم و تشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ أى: لم يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة و علمهم بأحكامها، و ما اشتملت عليه من الأخبار بنبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم- و قيل المعنى: أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم، و هو: القرآن النازل على نبينا صلّى اللّه عليه و سلّم، فاختلفوا فى نعته و صفته، و آمن به من آمن منهم، و كفر به من كفر. فيكون المراد بالمختلفين على القول الأوّل: هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة و علموا بها، و على القول الثانى: هم اليهود المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته، و المحقّ بعمله بالحق، و المبطل بعمله بالباطل فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الشّكّ فى أصل اللغة: ضم الشيء بعضه إلى بعض، و منه شك الجوهر فى العقد، و الشاك كأنه يضم إلى ما يتوهمه شيئا آخر خلافه فيتردّد و يتحير، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و المراد غيره، كما ورد فى القرآن فى غير موضع. قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعت الإمامين ثعلبا و المبرد يقولان: معنى فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ أى: قل يا محمد للكافر: فإن كنت فى شك: فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ يعنى: مسلمى أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و أمثاله، و قد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم و يقرّون بأنهم أعلم منهم، فأمر اللّه سبحانه نبيه أن يرشد الشّاكّين فيما أنزله اللّه إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا، فإنهم سيخبرونهم بأنه كتاب اللّه حقا، و أن هذا رسوله،

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٣٨

و أنّ التوراة شاهدة بذلك ناطقة به، و فى هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر. و قال القتبىّ: المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لا بتصديقه، بل كان فى شك. و قيل: المراد بالخطاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا غيره. و المعنى: لو كنت ممن يلحقه الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك. و قيل: الشك هو ضيق الصدر، أى: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر و اسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم. و قيل: معنى الآية: الفرض و التقدير، كأنه قال له: فإن وقع لك شك مثلا، و خيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا، فاسأل الذين يقرءون الكتاب، فإنهم سيخبرونك عن نبوّتك و ما نزل عليك، و يعترفون بذلك لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم، و قد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عندهم. قوله: لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فى هذا بيان ما يقلع الشك من أصله، و يذهب به بجملته، و هو شهادة اللّه سبحانه بأن هذا الذى وقع الشك فيه على اختلاف

التفاسير فى الشاك هو الحق الذى لا يخالطه باطل، و لا تشوبه شبهة، ثم عقبه بالنهى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن الامتراء فيما أنزل اللّه عليه، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين و انتفاء الشك. و يمكن أن يكون هذا النهى له تعريضا لغيره كما فى مواطن من الكتاب العزيز، و هكذا القول فى نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن التكذيب بآيات اللّه، فإن الظاهر فيه التعريض و لا سيما بعد تعقيبه بقوله: فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ و فى هذا التعريض من الزجر للممترين و المكذبين ما هو أبلغ و أوقع من النهى لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك. قوله: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ قد تقدّم مثله فى هذه السورة، و المعنى: أنه حق عليهم قضاء اللّه و قدره: بأنهم يصرّون على الكفر، و يموتون عليه، لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال، و إن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان، كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو فى حكم العدم وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات التكوينية و التنزيلية، فإن ذلك لا ينفعهم؛ لأن اللّه سبحانه قد طبع على قلوبهم و حق منه القول عليهم حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان و ليس بإيمان، و لا يترتب عليه شىء من أحكامه. قوله: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها لولا هذه: هى التحضيضية التى بمعنى هلا، كما قال الأخفش و الكسائى و غيرهما، و يدل على ذلك ما فى مصحف أبيّ و ابن مسعود فهلا قرية و المعنى: فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها آمنت إيمانا معتدّا به، و ذلك بأن يكون خالصا للّه قبل معاينة عذابه، و لم يؤخره كما أخره فرعون، و الاستثناء بقوله: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ منقطع، و هو استثناء من القرى لأن المراد أهلها: و المعنى: لكن قوم يونس لَمَّا آمَنُوا إيمانا معتدّا به قبل معاينة العذاب أو عند أوّل المعاينة قبل حلوله بهم كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ و قد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة، منهم الكسائى و الأخفش و الفراء؛ و قيل:

يجوز أن يكون متصلا، و الجملة فى معنى النفى، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، و انتصابه على أصل الاستثناء. و قرئ بالرفع على البدل. و قال الزّجّاج فى توجيه الرفع: يكون المعنى غير قوم يونس. و لكن حملت «إلا» عليها و تعذر جعل الإعراب عليها، فأعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير،

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۳۹

قال ابن جرير: خصّ قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، و حكى ذلك عن جماعة من المفسرين. و قال الزجّاج: إنه لم يقع العذاب، و إنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، و لو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان، و هذا أولى من قول ابن جرير. و المراد بعذاب الخزى: الذى كشفه اللّه عنهم، و هو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم و لم يروه، أو الذى قد رأوا علاماته دون عينه وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أى: بعد كشف العذاب عنهم متعهم اللّه فى الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم. ثم بين سبحانه: أن الإيمان و ضده كلاهما بمشيئة اللّه و تقديره، فقال: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ بحيث لا يخرج عنهم أحد جَمِيعاً مجتمعين على الإيمان لا يتفرّقون فيه و يختلفون، و لكنه لم يشأ ذلك، لكونه مخالفا للمصلحة التى أرادها اللّه سبحانه، و انتصاب «جَمِيعاً» على الحال كما قال سيبويه. قال الأخفش: جاء بقوله: جميعا، بعد كلهم للتأكيد، كقوله: لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ «۱» و لما كان النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم حريصا على إيمان جميع الناس أخبره اللّه بأن ذلك لا يكون، لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة و المصالح الراجحة لا تقتضى ذلك، فقال: أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فإن ذلك ليس فى وسعك يا محمد! و لا داخل تحت قدرتك، و فى هذا تسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم، و دفع لما يضيق به صدره من طلب صلاح الكل، الذى لو كان، لم يكن صلاحا محققا بل يكون إلى الفساد أقرب، و للّه الحكمة البالغة. ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أى: ما صح و ما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن باللّه إلا بإذنه، أى: بتسهيله و تيسيره و مشيئته لذلك، فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ

أى: العذاب، أو الكفر، أو الخذلان الذى هو سبب العذاب. و قرأ الحسن و أبو بكر و المفضل وَ نَجْعَلُ* بالنون. و فى الرجس لغتان: ضم الراء، و كسرها، و المراد بالذين لا يعقلون:

هم الكفار الذى لا يتعقلون حجج اللّه، و لا يتفكرون فى آياته، و لا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن قتادة فى قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ قال: بوّأهم اللّه الشام و بيت المقدس. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الضحاك قال: منازل صدق: مصر و الشام. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ قال: العلم كتاب اللّه الذى أنزله، و أمره الذى أمرهم به. و قد ورد فى الحديث أن اليهود اختلفوا على إحدى و سبعين فرقة، و أن النصارى اختلفوا على اثنتين و سبعين فرقة، و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة، و هو فى السنن و المسانيد، و الكلام فيه يطول.

و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و الضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ الآية، قال: لم يشك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يسأل. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتادة قال:

ذكر لنا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: لا أشك و لا أسأل. و هو مرسل. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ قال: التوراة و الإنجيل، الذين أدركوا محمدا من أهل الكتاب و آمنوا به، يقول: سلهم إن كنت فى شكّ بأنك مكتوب عندهم. و أخرج عبد

---

(١). النحل: ٥١.

الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ قال: حق عليهم سخط اللّه بما عصوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله:

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ يقول: فما كانت قرية آمنت. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، فاستثنى اللّه قوم يونس. قال: و ذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم قذف اللّه فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح و أخرجوا المواشى و فرّقوا بين كل بهيمة و ولدها، فعجّوا إلى اللّه أربعين صباحا، فلما عرف اللّه الصدق من قلوبهم و التوبة و الندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم لم يكن بينهم و بين العذاب إلا ميل. و أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: إن يونس دعا قومه، فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب، فقال:

إنه يأتيكم يوم كذا و كذا، ثم خرج عنهم، و كانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة و ولدها، و بين السخلة و ولدها «١»، و خرجوا يعجون إلى اللّه، و علم اللّه منهم الصدق فتاب عليهم و صرف عنهم العذاب، و قعد يونس فى الطريق يسأل عن الخبر، فمرّ به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحدّثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم، و انطلق مغاضبا:

يعنى مراغما. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه. و مطرت السماء دما. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير عن ابن عباس أنّ العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم و بينه إلّا قدر ثلثى ميل، فلما دعوا كشفه اللّه عنهم. و أخرج أحمد فى الزهد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن أبى الجلد قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم،

فقالوا له: ما ترى؟ قال:

قولوا يا حىّ حين لا حىّ، و يا حىّ محيى الموتى، و يا حىّ لا إله إلّا أنت، فقالوا؛ فكشف عنهم العذاب.

و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ قال: السّخط. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: الرّجس: الشيطان، و الرّجس: العذاب.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٩]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)

وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظّالِمِينَ (١٠٦) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (١٠٩)

---

(١). هكذا وردت العبارة. و الأولى أن يقول: بين السخلة و والدتها.

فتح القدير، ج‌٢، ص: ٥٤١

قوله: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لما بيّن سبحانه أنّ الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة اللّه، أمر بالنظر و الاستدلال بالدلائل السّماوية و الأرضية، و المراد بالنظر: التفكّر و الاعتبار؛ أى: قل يا محمد للكفار تفكروا و اعتبروا بما فى السموات و الأرض من المصنوعات الدالة على الصانع، و وحدته، و كمال قدرته.

و ما ذا مبتدأ، و خبره فى السّموات و الأرض. أو: المبتدأ ما، و ذا: بمعنى الذى، و فى السموات و الأرض: صلته، و الموصول و صلته: خبر المبتدأ، أى: أىّ شي‌ء الذى فى السموات و الأرض، و على التقديرين فالجملة فى محل نصب بالفعل الذى قبلها. ثم ذكر سبحانه أن التفكر و التدبر فى هذه الدلائل لا ينفع فى حق من استحكمت شقاوته فقال: وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ أى: ما تنفع، على أن ما نافية، و يجوز أن تكون استفهامية، أى: أىّ شي‌ء ينفع؟ و الآيات هى التى عبر عنها بقوله: ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و النذر جمع نذير، و هم الرسل أو جمع إنذار و هو المصدر عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ فى علم اللّه سبحانه؛ و المعنى:

أن من كان هكذا لا يجدى فيه شي‌ء، و لا يدفعه عن الكفر دافع، قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلّا مِثْلَ أَيّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أى: فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم إلا مثل وقائع اللّه سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء؟ فقد كان الأنبياء المتقدّمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب، و هم يكذبونهم و يصممون على الكفر حتى ينزل اللّه عليهم عذابه و يحلّ بهم انتقامه، ثم قال: قُلْ يا محمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك فَانْتَظِرُوا أى: تربصوا لوعد ربكم إنى معكم من المتربصين لوعد ربى، و فى هذا تهديد شديد، و وعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك، و ثم فى قوله: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا للعطف على مقدّر يدلّ عليه ما قبله، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلين إليهم. و قرأ يعقوب

ثم نُنَجِّی مخففا. و قرأ کذلک أیضا فی: حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ و روی کذلک عن الکسائی و حفص فی الثانیة. و قرأ الباقون بالتشدید، و هما لغتان فصیحتان، أنجی، ینجی، إنجاء، و نجی، ینجی، تنجیة بمعنی واحد وَ الَّذِینَ آمَنُوا معطوف علی رسلنا، أی: نجیناهم و نجینا الذین آمنوا، و التعبیر بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضیة تهویلا لأمرها کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا أی: حقّ ذلک علینا حقا، أو إنجاء مثل ذلک الإنجاء حقا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ من عذابنا للکفار، و المراد بالمؤمنین: الجنس، فیدخل فی ذلک الرسل و أتباعهم، أو یکون خاصا بالمؤمنین، و هم أتباع الرسل، لأن الرسل داخلون فی ذلک بالأولی. قوله قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی أمر سبحانه رسوله بأن یظهر التباین بین طریقته و طریقة المشرکین مخاطبا لجمیع الناس، أو للکفار منهم، أو لأهل مکة علی الخصوص بقوله: إن کنتم فی شک من دینی الذی أنا علیه، و هو عبادة اللّه وحده لا شریک له، و لم تعلموا بحقیقته و لا عرفتم صحته، و أنه الدین

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۴۲

الحق الذی لا دین غیره، فأعلموا أنی بریء من أدیانکم التی أنتم علیها فَلا أَعْبُدُ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فی حال من الأحوال وَ لکِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ أی: خصّه بالعبادة لا أعبد غیره من معبوداتکم من الأصنام و غیرها، و خصّ صفة المتوفّی من بین الصّفات: لما فی ذلک من التّهدید لهم؛ أی: أعبد اللّه الذی یتوفاکم فیفعل بکم ما یفعل من العذاب الشدید، و لکونه یدل علی الخلق: أوّلا، و علی الإعادة: ثانیا، و لکونه أشدّ الأحوال مهابة فی القلوب، و لکونه قد تقدّم ذکر الإهلاک و الوقائع النازلة بالکفار من الأمم السابقة، فکأنه قال: أعبد اللّه الذی وعدنی بإهلاککم. و لما ذکر أنه لا یعبد إلا اللّه بین أنه مأمور بالإیمان فقال:

وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ أی: بأن أکون من جنس من آمن باللّه و أخلص له الدین، و جملة: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ معطوفة علی جملة أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ و لا یمنع من ذلک کون المعطوف بصیغة الأمر لأن المقصود من إنْ الدلالة علی المصدر، و ذلک لا یختلف بالخبریة و الإنشائیة، أو یکون المعطوف علیه فی معنی الإنشاء؛ کأنه قیل: کن مؤمنا ثم أقم؛ و المعنی: أن اللّه سبحانه أمره بالاستقامة فی الدین و الثبات فیه، و عدم التزلزل عنه بحال من الأحوال. و خص الوجه: لأنه أشرف الأعضاء، أو أمره باستقبال القبلة فی الصلاة، و عدم التحوّل عنها. و حنیفا: حال من الدین، أو من الوجه، أی: مائلا عن کل دین من الأدیان إلی دین الإسلام. ثم أکد الأمر المتقدّم للنهی عن ضدّه فقال: وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ و هو معطوف علی أقم، و هو من باب التعریض لغیره صلّی اللّه علیه و سلّم. قوله: وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَنْفَعُکَ وَ لا یَضُرُّکَ معطوف علی قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ غیر داخل تحت الأمر، و قیل: معطوف علی: وَ لا تَکُونَنَ أی:

لا تدع من دون اللّه علی حال من الأحوال ما لا ینفعک و لا یضرّک بشیء من النفع و الضرّ إن دعوته، و دعاء من کان هکذا لا یجلب نفعا، و لا یقدر علی ضرّ، ضائع لا یفعله عاقل علی تقدیر أنه لا یوجد من یقدر علی النفع و الضرّ غیره؛ فکیف إذا کان موجودا؟ فإن العدول عن دعاء القادر إلی دعاء غیر القادر أقبح و أقبح فَإِنْ فَعَلْتَ أی: فإن دعوت، و لکنه کنی عن القول بالفعل فَإِنَّکَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِینَ هذا جزاء الشرط؛ أی: فإن دعوت من دون اللّه ما لا ینفعک و لا یضرّک فإنک فی عداد الظالمین لأنفسهم، و المقصود من هذا الخطاب التعریض بغیره صلّی اللّه علیه و سلّم، و جملة وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ إلی آخرها مقرّرة لمضمون ما قبلها. و المعنی أن اللّه سبحانه هو الضار النافع، فإن أنزل بعبده ضرا لم یستطع أحد أن یکشفه کائنا من کان، بل هو المختص بکشفه کما اختصّ بإنزاله وَ إِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ أیّ خیر کان، لم یستطع أحد أن یدفعه عنک، و یحول بینک و بنیه کائنا من کان، و عبر بالفضل مکان الخیر للإرشاد إلی أنه یتفضل علی عباده بما لا یستحقون بأعمالهم. قال الواحدی: إن قوله وَ إِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ هو من القلب، و أصله و إن یرد بک الخیر، و لکن لما تعلق کل واحد منهما بالآخر جاز أن یکون کل واحد منهما

مكان الآخر. قال النيسابورى: و فى تخصيص الإرادة بجانب الخير، و المسّ بجانب الشرّ دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، و الشرّ بالعرض.

قلت: و فى هذا نظر فإن المسّ هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها، و الضمير فى يصيب به راجع إلى فضله، أى: يصيب بفضله من يشاء من عباده، و جملة: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تذييلية. ثم ختم هذه السورة

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۳

بما يستدل به على قضائه و قدره، فقال: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أى: القرآن فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أى: منفعة اهتدائه مختصة به، و ضرر كفره مقصور عليه لا يتعدّاه، و ليس للّه حاجة فى شىء من ذلك، و لا غرض يعود إليه وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى:

بحفيظ يحفظ أموركم و توكل إليه، إنما أنا بشير و نذير. ثم أمره اللّه سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر و النواهى التى يشرعها اللّه له و لأمته ثم أمره بالصبر على أذى الكفار، و ما يلاقيه من مشاقّ التبليغ، و ما يعانيه من تلوّن أخلاق المشركين و تعجرفهم، و جعل ذلك الصبر ممتدا إلى غاية هى قوله: حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ أى: يحكم اللّه بينه و بينهم فى الدنيا بالنصر له عليهم، و فى الآخرة بعذابهم بالنار و هم يشاهدونه صلّى اللّه عليه و سلّم، هو و أمته، و المتبعون له، المؤمنون به، و العاملون بما يأمرهم به، المنتهون عما ينهاهم عنه، يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا ينفد، و لا يمكن وصفه، و لا يوقف على أدنى مزاياه.

و قد أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ يقول: عند قوم لا يُؤْمِنُونَ نسخت قوله: حكمة بالغة فما تغنى النّذر «۱». و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قال: وقائع اللّه فى الذين خلوا من قبلهم قوم نوح و عاد و ثمود. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال: خوّفهم عذابه و نقمته و عقوبته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر نجى اللّه رسله و الذين آمنوا، فقال ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآية. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ يقول: بعافية. و أخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال: ثلاث آيات فى كتاب اللّه اكتفيت بهنّ عن جميع الخلائق: أولهنّ:

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ و الثانية: ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ «۲»، و الثالثة: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها «۳». و أخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ قال: هو الحق المذكور فى قوله: قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم فى قوله: وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ قال: هذا منسوخ، أمره بجهادهم و الغلظة عليهم.

---

(۱). القمر: ۵.

(۲). فاطر: ۲.

(۳). هود: ۶.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۴

سورة هود

اشارة

هی مکیة فی قول الحسن، و عکرمة، و عطاء، و جابر. قال ابن عباس و قتادة: إلا آیة، و هی قوله:

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَیِ النَّهارِ و أخرج النحاس فی ناسخه، و أبو الشیخ، و ابن مردویه من طرق عن ابن عباس قال: نزلت سورة هود بمکة. و أخرج ابن مردویه عن عبد اللّه بن الزبیر مثله. و أخرج الدارمی، و أبو داود فی مراسیله، و أبو الشیخ، و ابن مردویه، و ابن عساکر، و البیهقی فی الشعب عن کعب قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «اقرءوا هود یوم الجمعة». و أخرج ابن المنذر، و الطبرانی، و أبو الشیخ، و ابن مردویه، و ابن عساکر من طریق مسروق عن أبی بکر الصدیق قال: «قلت: یا رسول اللّه! لقد أسرع إلیک الشّیب، فقال: شیّبتنی هود، و الواقعة، و المرسلات، و عمّ یتساءلون، و إذا الشمس کوّرت». و أخرجه البزار، و ابن مردویه من طریق أنس عنه مرفوعا بلفظ «قلت: یا رسول اللّه عجل إلیک الشّیب، قال: شیّبتنی هود و أخواتها، و الواقعة، و الحاقة، و عم یتساءلون، و هل أتاک حدیث الغاشیة». و أخرج سعید بن منصور، و ابن مردویه عن أنس قال: قال أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «لقد عجل إلیک الشّیب، فقال:

شیّبتنی هود و أخواتها من المفصل». و أخرج الترمذی، و حسنه، و ابن المنذر، و الحاکم، و صححه، و ابن مردویه، و البیهقی فی البعث و النشور من طریق عکرمة عن ابن عباس قال: «قال أبو بکر: یا رسول اللّه! قد شبت، قال: شیّبتنی هود، و الواقعة، و المرسلات، و عمّ یتساءلون، و إذا الشّمس کوّرت».

و أخرج ابن عساکر من طریق عطاء عنه أن الصحابة قالوا: یا رسول اللّه! لقد أسرع إلیک الشّیب، قال:

أجل شیّبتنی هود و أخواتها». قال عطاء: و أخواتها: اقتربت الساعة، و المرسلات، و إذا الشّمس کوّرت. و أخرج البیهقی فی الدلائل عن أبی سعید الخدری قال: «قال عمر بن الخطاب: یا رسول اللّه! أسرع إلیک الشیب، قال: شیبتنی هود و أخواتها: الواقعة، و عمّ یتساءلون، و إذا الشمس کوّرت».

و أخرج الطبرانی و ابن مردویه عن سهل بن سعد الساعدی قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «شیّبتنی هود و أخواتها: الواقعة، و الحاقة، و إذا الشّمس کوّرت». و أخرجا أیضا عن ابن مسعود: «أن أبا بکر قال:

یا رسول اللّه! ما شیبک؟ قال: هود و الواقعة». و فی إسناده عمرو بن ثابت و هو متروک. و أخرج الطبرانی، و ابن مردویه بسند صحیح عن عقبة بن عامر «أن رجلا قال: یا رسول اللّه! قد شبت، قال:

شیّبتنی هود، و إذا الشّمس کوّرت و أخواتها». و أخرج الحکیم الترمذی فی نوادر الأصول، و عبد اللّه بن أحمد فی زوائد الزهد، و أبو یعلی، و الطبرانی، و أبو الشیخ، و ابن مردویه، و ابن عساکر عن أبی جحیفة قال:

«قالوا: یا رسول اللّه! نراک قد شبت، قال: شیّبتنی هود و أخواتها». و أخرج ابن مردویه و ابن عساکر عن عمران بن حصین: «أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال له أصحابه: قد أسرع إلیک الشّیب، قال: شیّبتنی هود و أخواتها من المفصّل». و أخرج ابن عساکر عن جعفر بن محمد عن أبیه أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال:

فتح القدیر، ج ۲، ص: ۵۴۵

«شیّبتنی هود و أخواتها و ما فعل بالأمم قبل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

[سورة هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الر کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (۱) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)
أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۵) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨)

قوله: الر إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما فى سائر فواتح السور فلا محل له، و إن كان اسما للسورة فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، و كِتابٌ يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف، أى: هذا كتاب: و كذا على تقدير أن الر لا محل له، و يجوز أن يكون الر فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر، أو اقرأ، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف، و الإشارة فى المبتدأ المقدّر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، و معنى: أُحْكِمَتْ آياتُهُ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها و لا نقض لها كالبناء المحكم، و قيل معناه: إنها لم تنسخ بخلاف التوراة و الإنجيل، و على هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب، و هو المحكم الذى لم ينسخ؛ و قيل معناه:
أحكمت آياته بالأمر و النهى، ثم فصلت بالوعد و الوعيد و الثواب و العقاب؛ و قيل: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بالحلال و الحرام؛ و قيل: أحكمت جملته، ثم فصلت آياته؛ و قيل: جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى؛ و قيل: أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند اللّه؛ و قيل: معنى إحكامها: أن لا فساد فيها، أخذا من قولهم أحكمت الدابة: إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح، و ثُمَّ فُصِّلَتْ معطوف على أحكمت، و معناه ما تقدّم، و التراخى المستفاد من ثم إما زمانى إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، و إما رتبىّ إن فسر بغيره مما تقدّم، و الجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب، أو خبر للمبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، و فى قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف و نشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم و فصلها خبر عالم بمواقع الأمور. قوله: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ مفعول له حذف منه اللام، كذا: فى الكشاف، و فيه: أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل، و قيل: أن، هى المفسرة لما فى التّفصيل من معنى القول؛ و قيل:
هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله، محكيا على لسان النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. قال الكسائى و الفرّاء: التقدير أحكمت بأن
فتح القدير، ج٢، ص: ۵۴۶
لا تعبدوا إلا اللّه. و قال الزجّاج: أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا اللّه، ثم أخبرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بأنه نذير و بشير فقال: إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ أى: ينذرهم و يخوفهم من عذابه لمن عصاه، و يبشرهم بالجنة و الرضوان لمن أطاعه، و الضمير فى: منه، راجع إلى اللّه سبحانه، أى: إننى لكم نذير و بشير من جهة اللّه سبحانه؛ و قيل: هو من كلام اللّه سبحانه كقوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ*. قوله: وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ معطوف على ألا تعبدوا، و الكلام فى: أن، هذه كالكلام فى التى قبلها. و قوله: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ معطوف على استغفروا، و قدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة: لكونه وسيلة إليها؛ و قيل: إن التوبة من متممات الاستغفار؛ و قيل: معنى استغفروا: توبوا، و معنى توبوا: أخلصوا التوبة و استقيموا عليها؛ و قيل:
استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها؛ و قيل: استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفراء: ثم: هاهنا بمعنى الواو، أى: و توبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة، و التوبة هى الاستغفار؛ و قيل:
إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب، و التوبة هى السبب إليها، و ما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى

الطلب؛ و قيل: استغفروا فى الصغائر و توبوا إليه فى الكبائر؛ ثم رتب على ما تقدّم أمرين الأول:

يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً أصل الإمتاع: الإطالة، و منه أمتع اللّه بك؛ فمعنى الآية: بطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق و رغد العيش إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى وقت مقدّر عند اللّه و هو الموت؛ و قيل: القيامة؛ و قيل: دخول الجنة؛ و الأوّل أولى. و الأمر الثانى: قوله: وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أى: يعط كل ذى فضل فى الطاعة و العمل فضله: أى: جزاء فضله، إما فى الدنيا، أو فى الآخرة، أو فيهما جميعا، و الضمير فى فضله راجع إلى كل ذى فضل؛ و قيل: راجع إلى اللّه سبحانه على معنى: أن اللّه يعطى كل من فضلت حسناته فضله الذى يتفضل به على عباده. ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال: وَ إِنْ تَوَلَّوْا أى: تتولوا و تعرضوا عن الإخلاص فى العبادة و الاستغفار و التوبة فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ و هو يوم القيامة، و وصفه بالكبر لما فيه من الأهوال؛ و قيل: اليوم الكبير: يوم بدر. ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أى: رجوعكم إليه بالموت، ثم البعث، ثم الجزاء، لا إلى غيره وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من جملة ذلك: عذابكم على عدم الامتثال، و هذه الجملة مقرّرة لما قبلها.

ثم أخبر اللّه سبحانه بأن هذا الإنذار، و التحذير، و التوعد لم ينجع فيهم، و لا لانت له قلوبهم، بل هم مصرّون على العناد، مصممون على الكفر، فقال مصدرا لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم، و أنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء و يفهموه: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يقال: ثنى صدره عن الشىء:

إذا ازورّ عنه و انحرف منه، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض؛ لأنّ من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره و طوى عنه كشحه؛ و قيل معناه: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر و الإعراض عن الحق، فيكون فى الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين. و الوجه الثانى أولى، و يؤيده قوله:

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أى: ليستخفوا من اللّه فلا يطلع عليه رسوله و المؤمنين، أو: ليستخفوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ

أى: يستخفون فى وقت استغشاء الثياب، و هو التغطى بها، و قد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابنا، و استغشينا ثيابنا و ثنينا صدورنا على عداوة محمد، فمن يعلم بنا؟ و قيل معنى: حين يستغشون: حين يأوون إلى فراشهم و يتدثرون بثيابهم؛ و قيل: إنه حقيقة، و ذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثنى صدره، و ولى ظهره، و استغشى ثيابه، لئلا يسمع كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و جملة يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ مستأنفة، لبيان أنه لا فائدة لهم فى الاستخفاء، لأن اللّه سبحانه يعلم ما يسرّونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم، و ما يظهرونه، فالظاهر و الباطن عنده سواء، و السرّ و الجهر سيان، و جملة: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ تعليل لما قبلها و تقرير له، و ذات الصدور: هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور؛ و قيل: هى القلوب، و المعنى: إنه عليم بجميع الضمائر، أو عليم بالقلوب و أحوالها فى الإسرار و الإظهار، فلا يخفى عليه شىء من ذلك؛ ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان، و نهاية الإحسان، فقال: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها أى: الرزق الذى تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه، تفضلا منه و إحسانا، و إنما جىء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة عَلَى اعتبارا بسبق الوعد به منه، و «مِنْ» زائدة للتأكيد، و وجه اتصال هذا الكلام بما قبله، أن اللّه سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله، و أقواله، و أفعاله! و الدابة: كل حيوان يدب وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها أى: محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الأصلاب وَ مُسْتَوْدَعَها موضعها فى الأرحام، و ما يجرى مجراها كالبيضة و نحوها. و قال الفراء: مستقرها: حيث تأوى إليه ليلا و نهارا، و مستودعها موضعها الذى تموت فيه، و قد مرّ تمام

الأقوال فى سورة الأنعام، و وجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر. و أما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة. و المعنى: و ما من دابة فى الأرض إلا يرزقها اللّه حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة و قبل كونها دابة، و ذلك حيث تكون فى الرحم و نحوه؛ ثم ختم الآية بقوله: كُلٌّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ أى: كل من ما تقدّم ذكره من الدواب، و مستقرّها، و مستودعها، و رزقها فى كتاب مبين، و هو اللوح المحفوظ، أى: مثبت فيه. ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات و الأرض، و كيف كان الحال قبل خلقها فقال:

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف، قيل: و المراد بالأيام الأوقات، أى: فى ستة أوقات كما فى قوله: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ «۱» و قيل: مقدار ستة أيام، و لا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا: الأيام المعروفة، و هى المقابلة للّيالى، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض و لا سماء، و ليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض، و كان خلق السموات فى يومين، و الأرضين فى يومين، و ما عليهما من أنواع الحيوان و النبات و الجماد فى يومين، كما سيأتى فى حم السجدة. قوله: وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ أى: كان قبل خلقهما عرشه على الماء، و فيه بيان تقدّم خلق العرش و الماء على السموات و الأرضين.

قوله: لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا اللام متعلقة بخلق، أى: خلق هذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار، و التفكر، و الاستدلال على كمال قدرته، و على البعث و الجزاء، أيهم أحسن عملا فيما أمر به و نهى عنه، فيجازى

---

(۱). الأنفال: ۱۶.

المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته، و يوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره، و يدخل فى العمل الاعتقاد، لأنه من أعمال القلب، و قيل: المراد بالأحسن عملا: الأتمّ عقلا، و قيل: الأزهد فى الدنيا، و قيل: الأكثر شكرا، و قيل: الأتقى للّه. قوله: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ثم لما كان الابتلاء يتضمّن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، و المعنى: لئن قلت لهم يا محمد على ما توجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه و المسيئ بإساءته، ليقولن الذين كفروا من الناس: إن هذا الذى تقوله يا محمد: إلا باطل كبطلان السحر و خدع كخدعه. و يجوز أن تكون الإشارة بهذا: إلى القرآن، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث. و قرأ حمزة، و الكسائى: إن هذا إلا ساحر يعنون النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و كسرت إنّ من قوله: إِنَّكُمْ لأنها بعد القول. و حكى سيبويه: الفتح، على تضمين: قلت، معنى ذكرت، أو على أن بمعنى علّ: أى و لئن قلت لعلكم مبعوثون، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين، أى: توقعوا ذلك و لا تبتوا القول بإنكاره وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ أى: الذى تقدّم ذكره فى قوله: عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ و قيل: عذاب يوم القيامة و ما بعده، و قيل: يوم بدر إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ أى: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العدّ قليل، و الأمة اشتقاقها من الأم: و هو القصد، و أراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب؛ و قيل: هى فى الأصل: الجماعة من الناس، و قد يسمى الحين: باسم ما يحصل فيه، كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر، أى: فى ذلك الحين، فالمراد على هذا إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أى: أىّ شيء يمنعه من النزول؟ استعجالا له على جهة الاستهزاء و التكذيب، فأجابهم اللّه بقوله: أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ أى: ليس محبوسا عنهم، بل واقع بهم لا محالة، و يوم: منصوب بمصروفا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، و وضع يستهزئون مكان يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، و عبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه، فكأنه قد حاق بهم.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قرأ: الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ قال: هى كلها محكمة يعنى سورة هود ثُمَّ فُصِّلَتْ قال: ثم ذكر محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم فحكم فيها بينه و بين من خالفه، و قرأ: مثل الفريقين الآية كلها، ثم ذكر قوم نوح ثم هود، فكان هذا تفصيل ذلك، و كان أوّله محكما قال: و كان أبى يقول ذلك، يعنى زيد بن أسلم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن فى قوله:

كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ قال: أحكمت بالأمر و النهى، و فصلت بالوعد و الوعيد. و أخرج هؤلاء عن مجاهد فُصِّلَتْ قال: فسرت. و أخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال: أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بعلمه، فبين حلاله و حرامه و طاعته و معصيته، و فى قوله: مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ يعنى من عند حكيم، و فى قوله: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً قال: فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة اللّه و معرفة حقه، فإن اللّه منعم يحبّ الشاكرين و أهل الشكر فى مزيد من اللّه، و ذلك قضاؤه الذى قضاه؛ و فى قوله: إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى يعنى الموت، و فى قوله: يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ أى: فى الآخرة. و أخرج هؤلاء

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۴۹

أيضا عن مجاهد فى قوله: يؤت كل ذى فضل فضله، أى: فى الآخرة. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال:

يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة. و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله:

وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، و من عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات، و إن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة و بقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده أعشاره «۱».

و أخرج البخارى و غيره عن ابن عباس فى قوله: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، و أن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم. قال البخارى:

و عن ابن عباس يَسْتَغْشُونَ يغطون رؤوسهم. و روى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية، يعنى به: الشك فى اللّه و عمل السيئات. و كذا روى عن مجاهد و الحسن و غيرهما؛ أى: أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ من القول وَ ما يُعْلِنُونَ و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد فى قوله:

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ قال: كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم ثنى صدره و تغشى ثوبه لكيلا يراه، فنزلت.

و أخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ قال: فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية قال: كان أحدهم يحنى ظهره و يستغشى بثوبه. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال:

كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه. قال تعالى: أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ و ذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره و استغشى بثوبه و أضمر همه فى نفسه، فإن اللّه لا يخفى عليه ذلك. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى الآية: يكتمون ما فى قلوبهم أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما عملوا بالليل و النهار. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ الآية قال: يعنى كل دابّة. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ الآية قال: يعنى ما جاءها من رزق فمن اللّه، و ربما لم يرزقها حتى تموت جوعا، و لكن ما كان لها من رزق فمن اللّه. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله:

وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها قال: حيث تأوى، وَ مُسْتَوْدَعَها قال: حيث تموت. و أخرج ابن أبى حاتم عنه وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها قال: يأتيها رزقها حيث كانت. و أخرج ابن أبى شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه عن ابن مسعود قال: مستقرّها فى الأرحام و مستودعها حيث تموت. و يؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر

---

(١). الصواب: عشراته.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٥٠

فتح القدير ج٢ ٥٩٩

الأصول، و الحاكم و صحّحه، و ابن مردويه، و البيهقى فى الشعب، عن ابن مسعود عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتنى».
و أخرج عبد الرزاق فى المصنف، و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ، و الحاكم و صحّحه، و البيهقى فى الأسماء و الصفات، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله:
وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ على أىّ شىء كان الماء؟ قال: على متن الريح. و قد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش و فى كيفية خلق السموات و الأرض ليس هذا موضع ذكرها. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم فى التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآية لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فقال: ما معنى ذلك يا رسول اللّه؟ قال: ليبلوكم أيّكم أحسن عقلا، ثم قال: و أحسنكم عقلا أورعكم عن محارم اللّه و أعملكم بطاعة اللّه». و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: أيكم أتمّ عقلا. و أخرج أيضا عن سفيان قال: أزهدكم فى الدنيا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن قتادة قال: لما نزلت اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ قال ناس: إن الساعة قد اقتربت فتناهوا، فتناهى القوم قليلا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء، فأنزل اللّه أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ «١» فقال ناس من أهل الضلال: هذا أمر اللّه قد أتى، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل اللّه هذه الآية وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و صححه عن ابن عباس فى قوله:
إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ قال: إلى أجل معدود. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ يعنى: أهل النفاق. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ يقول: وقع بهم العذاب الذى استهزءوا به.

[سورة هود (١١): الآيات ٩ الى ١٧]

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٣)
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)

(١). النحل: ١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٥١

اللام فى وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ هى الموطّئة للقسم، و الإنسان الجنس، فيشمل المؤمن و الكافر، و يدلّ على ذلك الاستثناء بقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا و قيل: المراد جنس الكفار، و يؤيده أن اليأس و الكفران و الفرح و الفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام فى الغالب؛ و قيل: المراد بالإنسان: الوليد بن المغيرة، و قيل: عبد اللّه بن أمية المخزومى: و المراد بالرحمة هنا: النعمة من توفير الرزق و الصحة و السلامة من المحن ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أن سلبناه إياها إِنَّهُ لَيَؤُسٌ أى: آيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها و أمثالها، و الكفور: عظيم الكفران، و هو الجحود بها، قاله ابن الأعرابى؛ و فى إيراد صيغتى المبالغة فى لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، و كثير الجحد عند أن يسلبه اللّه بعض نعمه فلا يرجو عودها، و لا يشكر ما قد سلف له منها. و فى التعبير بالذوق ما يدلّ على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم اللّه بها عليه، لأن الإذاقة و الذوق أقلّ ما يوجد به الطعم، و النعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، و الضرّاء:

ظهور أثر الإضرار على من أصيب به. و المعنى: أنه إن أذاق اللّه سبحانه العبد نعماءه من الصّحّة، و السّلامة، و الغنى، بعد أن كان فى ضرّ من فقر أو مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر للّه سبحانه، بل يقول: ذهب السيئات، أى: المصائب التى ساءته من الضرّ و الفقر و الخوف و المرض عنه، و زال أثرها غير شاكر للّه، و لا مثن عليه بنعمه إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ أى: كثير الفرح بطرا و أشرا، كثير الفخر على الناس و التطاول عليهم بما يتفضل اللّه به عليه من النعم، و فى التعبير عن ملابسة الضرّ له: مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة، فإن كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة، كما تقدّم إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، و الشكر عند حصول المنن. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأوّل، أى:

و لكن الذين صبروا و عملوا الصالحات فى حالتى النعمة و المحنة. و قال الفراء: هو استثناء من لئن أذقناه، أى:

من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، و الناس يشمل الكافر و المؤمن، فهو استثناء متصل، و الإشارة بقوله:

أُولئِكَ إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالصبر و عمل الصالحات لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم وَ أَجْرٌ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة كَبِيرٌ متناه فى الكبر. ثم سلا اللّه سبحانه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال:

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ أى: فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر و التكذيب، و اقتراح الآيات التى يقترحونها على حسب هواهم و تعنّتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله اللّه عليك و أمرك بتبليغه، مما يشقّ عليهم سماعه أو يستشقون العمل به، كسبّ آلهتهم، و أمرهم بالإيمان باللّه وحده. قيل: و هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام، أى: هل أنت تارك؟ و قيل: هو فى معنى النفى مع الاستبعاد؛ أى: لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم جميع ما أنزل اللّه عليك، أحبوا ذلك أم كرهوه، شاؤوا أم أبوا وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ معطوف على تارك، و الضّمير فى: به، راجع إلى: ما، أو: إلى بعض، و عبر بضائق دون ضيق: لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث و العروض، و الصفة المشبهة فيها معنى اللزوم أَنْ يَقُولُوا أى: كراهة أن يقولوا، أو مخافة أن يقولوا، أو لئلا يقولوا: لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أى: هلّا أنزل عليه كنز؛ أى: مال مكنوز مخزون ينتفع به أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يصدّقه و يبين لنا صحّة رسالته؛ ثم بيّن سبحانه: أن حاله صلّى اللّه عليه و سلّم مقصور

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٥٢

على النذارة، فقال: إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، و ليس عليك حصول مطلوبهم، و إيجاد مقترحاتهم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يحفظ ما يقولون و هو فاعل بهم ما يجب أن يفعل.

قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أم: هی المنقطعهٔ التی بمعنی بل و الهمزهٔ، و أضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحی، و عدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرهٔ، و شرع فی ذکر ارتکابهم لما هو أشدّ من ذلک، و هو افتراؤهم علیه بأنه افتراه، و الاستفهام للتوبیخ و التقریع، و الضمیر المستتر فی افتراه: للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و البارز: إلی ما یوحی. ثم أمره اللّه سبحانه أن یجیب علیهم بما یقطعهم، و یبین کذبهم، و یظهر به عجزهم، فقال: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ أی: مماثلهٔ له فی البلاغهٔ، و حسن النظم، و جزالهٔ اللفظ، و فخامهٔ المعانی، و وصف السور بما یوصف به المفرد، فقال: مثله، و لم یقل: أمثاله، لأن المراد مماثلهٔ کل واحد من السور، أو لقصد الإیماء إلی وجه الشبه، و مداره المماثلهٔ فی شیء واحد، و هو البلاغهٔ البالغهٔ إلی حدّ الإعجاز، و هذا إنما هو علی القول بأن المطابقهٔ فی الجمع و التثنیهٔ و الإفراد شرط، ثم وصف السور بصفهٔ أخری، فقال: مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا للاستظهار علی المعارضهٔ بالعشر السور مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دعاءه و قدرتم علی الاستعانهٔ به من هذا النوع الإنسانی، و ممن تعبدونه و تجعلونه شریکا للّه سبحانه. و قوله: مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلّق بادعوا؛ أی: ادعوا من استطعتم متجاوزین اللّه تعالی: إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ فیما تزعمون من افترائی له فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ أی: فإن لم یفعلوا ما طلبته منهم و تحدّیتهم به من الإتیان بعشر سور مثله، و لا استجابوا إلی المعارضهٔ المطلوبهٔ منهم، و یکون الضمیر فی لکم لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و للمؤمنین، أو للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم وحده، و جمع تعظیما و تفخیما فَاعْلَمُوا أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و للمؤمنین، أو للرسول وحده، علی التأویل الذی سلف قریبا. و معنی أمرهم بالعلم: أمرهم بالثبات علیه، لأنهم عالمون بذلک من قبل عجز الکفار عن الإتیان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم: الأمر بالازدیاد منه إلی حدّ لا یشوبه شک، و لا تخالطه شبههٔ، و هو علم الیقین، و الأوّل أولی. و معنی أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أنه أنزل متلبّسا بعلم اللّه المختص به، الذی لا تطلع علی کنهه العقول، و لا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل علیه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أی: و اعلموا أن اللّه هو المتفرد بالألوهیهٔ لا شریک له، و لا یقدر غیره علی ما یقدر علیه. ثم ختم الآیهٔ بقوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أی: ثابتون علی الإسلام، مخلصون له، مزادون من الطاعات، لأنه قد حصل لکم بعجز الکفار عن الإتیان بمثل عشر سور من هذا الکتاب طمأنینهٔ فوق ما کنتم علیه و بصیرهٔ زائدهٔ، و إن کنتم مسلمین من قبل هذا، فإن الثبوت علیه و زیادهٔ البصیرهٔ فیه و الطمأنینهٔ به مطلوب منکم. و قیل: إن الضمیر فی فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا للموصول فی من استطعتم، و ضمیر لکم: للکفار الذین تحدّاهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و کذلک ضمیر: فاعلموا، و المعنی: فإن لم یستجب لکم من دعوتموهم للمعاضدهٔ و المناصرهٔ علی الإتیان بعشر سور من سائر الکفار و من یعبدونهم، و یزعمون: أنهم یضرّون و ینفعون، فاعلموا أن هذا القرآن الذی أنزله اللّه علی هذا الرسول خارج عن قدرهٔ غیره سبحانه و تعالی، لما اشتمل علیه من الإعجاز الذی تتقاصر دونه قوّهٔ المخلوقین، و أنه أنزل بعلم اللّه الذی لا تحیط به العقول و لا

تبلغه الأفهام، و اعلموا أنه المنفرد بالألوهیهٔ لا شریک له، فهل أنتم بعد هذا مسلمون؟ أی داخلون فی الإسلام، متّبعون لأحکامه، مقتدون بشرائعه. و هذا الوجه أقوی من الوجه الأوّل من جههٔ، و أضعف منه من جههٔ، فأما جههٔ قوّته: فلا تساق الضمائر و تناسبها و عدم احتیاج بعضها إلی تأویل، و أما ضعفه: فلما فی ترتیب الأمر بالعلم علی عدم الاستجابهٔ ممن دعوهم و استعانوا بهم من الخفاء و احتیاجه إلی تکلف، و هو أن یقال:

إن عدم استجابهٔ من دعوهم و استعانوا بهم من الکفار و الآلههٔ مع حرصهم علی نصرهم و معاضدتهم و مبالغتهم فی عدم إیمانهم و استمرارهم علی الکفر یفید حصول العلم لهؤلاء الکفار بأنّ هذا القرآن من عند اللّه، و أن اللّه سبحانه هو الإله وحده لا شریک له، و ذلک یوجب دخولهم فی الإسلام. و اعلم أنه قد اختلف التحدّی للکفار بمعارضهٔ القرآن، فتارهٔ وقع بمجموع القرآن کقوله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و بعشر سور کما فی هذه الآیهٔ، و

ذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود، و بسورة منه كما تقدّم و ذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه، ثم إن اللّه سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا، لا يطلب غيرها، و لا يريد سواها، فقال: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها «۱» قال الفرّاء: إن: كان هذه، زائدة، و لهذا جزم الجواب. و قال الزّجّاج: مَنْ كانَ فى موضع جزم بالشرط، و جوابه نوفّ إليهم؛ أى من يكن يريد.

و اختلف أهل التفسير فى هذه الآية، فقال الضحاك: نزلت فى الكفار و اختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ؛ و قيل: الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم و مسلمهم. و المعنى أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك، و المراد بزينتها: ما يزينها و يحسنها من الصحّة و الأمن و السّعة فى الرزق و ارتفاع الحظّ و نفاذ القول و نحو ذلك. و إدخال كانَ فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة، و لهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا، و لم يعملوا للآخرة. و ظاهر قوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى و لا محالة، و لكن الواقع فى الخارج يخالف ذلك، فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته، و إن عمل لها و أرادها، فلا بدّ من تقييد ذلك بمشيئة اللّه سبحانه.

قال القرطبى: ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، و كذلك الآية التى فى الشورى: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «۲»، و كذلك وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها «۳» قيدتها و فسرتها التى فى سبحان: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ «۴» قوله: وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أى: و هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها: أى فى الدنيا لا يبخسون؛ أى: لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، و ذلك فى الغالب و ليس بمطرد، بل إن قضت به مشيئته سبحانه، و رجحته حكمته البالغة.

و قال القاضى: معنى الآية: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا و زينتها نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة، من غير بخس فى الدنيا، و هو ما ينالون من الصحة و الكفاف و سائر اللذات و المنافع، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره، و هو حاصل لكل عامل للدنيا و لو كان قليلا يسيرا. قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ

---

(۱). الإسراء: ۸۸.

(۲). الشورى: ۲۰.

(۳). آل عمران: ۱۴۵.

(۴). الإسراء: ۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵۴

الإشارة إلى المريدين المذكورين، و لا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشىء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدّم وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا أى: ظهر فى الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروى، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم، و عدم الخلوص، و إرادة ما عند اللّه فى دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا و زينتها؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى: أنه كان عملهم فى نفسه باطلا غير معتدّ به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء، و يترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح. قوله: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ بيّن سبحانه أنّ بين من كان طالبا للدنيا فقط، و من كان طالبا للآخرة، تفاوتا عظيما، و تباينا بعيدا؛ المعنى: أ فمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيمان باللّه كغيره ممن يريد

الحياة الدنيا و زينتها؛ و قيل: المراد بمن كان على بينة من ربه: النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أى:
أ فمن كان معه بيان من اللّه و معجزة كالقرآن و معه شاهد كجبريل، و قد بشّرت به الكتب السالفة، كمن كان يريد الحياة الدنيا و زينتها. و معنى البينة: البرهان الذى يدلّ على الحق، و الضمير فى قوله: وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان، و الضمير فى منه: راجع إلى القرآن، لأنه قد تقدّم ذكره فى قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أو راجع إلى اللّه تعالى. و المعنى: و يتلو البرهان الذى هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن، أو من اللّه سبحانه. و الشّاهد: هو الإعجاز الكائن فى القرآن، أو المعجزات التى ظهرت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فإن ذلك من الشّواهد التّابعة للقرآن. و قال الفرّاء: قال بعضهم: و يتلوه شاهد منه:
الإنجيل، و إن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق، و الهاء فى منه: للّه عزّ و جلّ؛ و قيل: المراد بمن كان على بيّنة من ربه: هم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام و أضرابه. قوله: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى معطوف على شاهد، و التقدير: و يتلو الشّاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى، فهو و إن كان متقدّما فى النزول فهو يتلو الشّاهد فى الشّهادة، و إنما قدّم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق، فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى. و معنى شهادة موسى، و هو التوراة أنه بشر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أخبر بأنه رسول من اللّه. قال الزّجّاج: و المعنى و يتلوه من قبله كتاب موسى؛ لأن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم موصوف فى كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل. و حكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى بالنصب. و حكاه المهدوى عن الكلبى فيكون معطوفا على الهاء فى يتلوه.
و المعنى: و يتلو كتاب موسى جبريل، و انتصاب إماما و رحمة على الحال. و الإمام: هو الذى يؤتمّ به فى الدين و يقتدى به، و الرحمة: النعمة العظيمة التى أنعم اللّه بها على من أنزله عليهم و على من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن، و الإشارة بقوله أُولئِكَ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة، و هو الكون على البينة من اللّه، و اسم الإشارة مبتدأ و خبره يُؤْمِنُونَ بِهِ أى: يصدّقون بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أو بالقرآن وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ أى: بالنبىّ أو بالقرآن. و الأحزاب: المتحزّبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أهل مكة و غيرهم، أو: المتحزّبون من أهل الأديان كلها فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ أى: هو من أهل النار لا

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۵۵

محالة، و فى جعل النار موعدا إشعار بإن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب، و مثله قول حسان:
أوردتموها حياض الموت ضاحيةفالنّار موعدها و الموت لاقيها
فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أى: لا تك فى شكّ من القرآن، و فيه تعريض بغيره صلّى اللّه عليه و سلّم لأنه معصوم عن الشك فى القرآن، أو من الموعد إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ بذلك مع وجوب الإيمان به، و ظهور الدّلائل الموجبة له، و لكنّهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا.
و قد أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ قال: لأصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن أنس فى قوله: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها قال: نزلت فى اليهود و النصارى. و أخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن معبد قال: قام رجل إلى علىّ فقال: أخبرنا عن هذه الآية: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا إلى قوله: وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ قال: ويحك، ذاك من كان يريد الدّنيا لا يريد الآخرة. و أخرج النحاس عن ابن عباس:
مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا أى: ثوابها وَ زِينَتَها مالها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نوفر لهم بالصحة و السرور فى الأهل و المال و الولد وَ هُمْ فِيها لا

يُبْخَسُونَ لا- ينقصون، ثم نسخها: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ «۱» الآية. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال: من عمل صالحا التماس الدّنيا: صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدّنيا، يقول اللّه: أو فيه الذى التمس فى الدّنيا و حبط عمله الذى كان يعمل، و هو فى الآخرة من الخاسرين.

و أخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية فى أهل الشرك. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله: نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ قال: طيباتهم. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها قال: حبط ما عملوا من خير، و بطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال: هم أهل الرياء. و أخرج ابن أبى حاتم، و ابن مردويه، و أبو نعيم فى المعرفة، عن علىّ بن أبى طالب قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بينة من ربه و أنا شاهد منه. و أخرج ابن عساكر و ابن مردويه من وجه آخر عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أنا، و يتلوه شاهد منه «علىّ».

و أخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ قال: ذاك محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و الطبرانى فى الأوسط، و أبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال: قلت لأبى: إن الناس يزعمون فى قول اللّه سبحانه وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ أنك أنت التالى، قال: وددت أنى أنا هو، و لكنه لسان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس أن الشاهد جبريل و وافقه سعيد بن جبير. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى

---

(۱). الإسراء: ۱۸.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵۶

حاتم، و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: جبريل، فهو شاهد من اللّه بالذى يتلوه من كتاب اللّه الذى أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قال: و من قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عساكر عن الحسن بن علىّ فى قوله: وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ قال: محمد هو الشاهد من اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن إبراهيم: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى قال: و من قبله جاء الكتاب إلى موسى. و أخرج عبد الرزاق و أبو الشيخ عن قتادة: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ قال: الكفّار أحزاب كلّهم على الكفر.

و أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ قال: من اليهود و النّصارى.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۱۸ الى ۲۴]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۸) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۱۹) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۲۲)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ

الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

قوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أى: لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على اللّه كذبا بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه، و قولهم: الملائكة بنات اللّه، و أضافوا كلامه سبحانه إلى غيره، و اللفظ و إن كان لا يقتضى إلا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكارى، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظّلم. فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم فى الظلم، فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم، و الإشارة بقوله: أولئك، إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ، و هو: مبتدأ، و خبره: يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم، أو المراد بعرضهم: عرض أعمالهم وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ الأشهاد: هم الملائكة الحفظة، و قيل: المرسلون، و قيل: الملائكة و المرسلون و العلماء الذى بلغوا ما أمرهم اللّه بإبلاغه، و قيل: جميع الخلائق. و المعنى: أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض: هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه، و لم يصرّحوا بما كذبوا به كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف. قوله: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ هذا من تمام كلام الأشهاد، أى: يقولون:

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، و يقولون: ألا لعنة اللّه على الظّالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، و يجوز أن يكون من كلام اللّه سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. و الأشهاد: جمع شهيد، و رجحه أبو علىّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله: وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «۱». فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً؛ و قيل: هو جمع شاهد، كأصحاب و صاحب،

---

(۱). البقرة: ۱۴۳.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵۷

و الفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة: المبالغة فى فضيحة الكفار، و التّقريع لهم على رؤوس الأشهاد، ثم وصف هؤلاء الظّالمين الذين لعنوا: بأنهم الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى: يمنعون من قدروا على منعه عن دين اللّه و الدخول فيه وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أى: يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها، أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال: بغيتك شرّا؛ أى طلبته لك وَ الحال أن هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أى: يصفونها بالعوج، و الحال أنهم بالآخرة غير مصدّقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق و هم على الباطل البحت؟ و تكرير الضمير: لتأكيد كفرهم و اختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم أُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أى: ما كانوا يعجزون اللّه فى الدنيا إن أراد عقوبتهم وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يدفعون عنهم ما يريده اللّه سبحانه من عقوبتهم و إنزال بأسه بهم، و جملة: يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ مستأنفة، لبيان أن تأخير العذاب و التراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا. و قرأ ابن كثير، و ابن عامر، و يزيد، و يعقوب يضعف مشدّدا ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ أى أفرطوا فى إعراضهم عن الحق و بغضهم له، حتى كأنهم لا يقدرون على السمع، و لا يقدرون على الإبصار لفرط تعاميهم عن الصواب.

و يجوز أن يراد بقوله: وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ: أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون اللّه و لا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع و ما كانوا يبصرون، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا؟ و يجوز أن تكون ما هى المدية «۱». و المعنى: أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع و البصر. قال الفرّاء: ما كانوا يستطيعون السّمع لأن اللّه أضلهم فى اللوح المحفوظ. و قال الزجّاج: لبغضهم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و عداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه و لا يفهموا عنه. قال النحاس: هذا معروف فى كلام العرب، يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان: إذا كان ثقيلا عليه أُولئِكَ

المتصفون بتلك الصفات الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بعبادة غير اللّه. و المعنى: اشتروا عبادة الآلهة بعبادة اللّه فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى: ذهب و ضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم، و لم يبق بأيديهم إلا الخسران، قوله: لا جَرَمَ قال الخليل و سيبويه:

لا جَرَمَ بمعنى: حق، فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة، و به قال الفرّاء. و روى عن الخليل و الفرّاء:

أنها بمنزلة قولك لا بدّ و لا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا. و قال الزجّاج: إن جرم بمعنى:

كسب، أى: كسب ذلك الفعل لهم الخسران، و فاعل كسب مضمر، و أنّ منصوبة بجرم. قال الأزهرى:

و هذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة. و قال الكسائى: معنى لا جرم: لا صدّ، و لا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون. و قال جماعة من النحويين: إن معنى لا- جرم لا- قطعه قاطع أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ قالوا: و الجرم، القطع، و قد جرم النخل و اجترمه: أى: قطعه، و فى هذه الآية بيان أنهم

---

(١). أى: ما: المصدرية الظرفية.

فتح القدير، ج ٢، ص: ٥٥٨

فى الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم و لا يبلغ إليه، و هذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها، و بين من كان على بينة من ربه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أى: صدقوا بكل ما يجب التّصديق به، من كون القرآن من عند اللّه و غير ذلك من خصال الإيمان وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أى: أنابوا إليه، و قيل: خشعوا، و قيل: خضعوا، قيل: و أصل الإخبات الاستواء فى الخبت:

و هو الأرض المستوية الواسعة، فيناسب معنى الخشوع و الاطمئنان. قال الفراء: إلى ربهم، و لربهم واحد أُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ قوله: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ ضرب للفريقين مثلا- و هو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى و الأصمّ، و تشبيه فريق المؤمنين بالبصير و السميع، على أن كل فريق شبه بشيئين، أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى و الصمم، و المؤمن شبه بمن جمع بين السمع و البصر، و على هذا تكون الواو فى وَ الْأَصَمِ و فى وَ السَّمِيعِ بعطف الصفة على الصفة، كما فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم و ابن الهمام ...

و الاستفهام فى قوله هَلْ يَسْتَوِيانِ للإنكار: يعنى الفريقين، و هذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله:

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ و انتصاب مثلا على التميز من فاعل يستويان، أى: هل يستويان حالا و صفة أَ فَلا تَذَكَّرُونَ فى عدم استوائهما و فيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لا يخفى على من له تذكّر، و عنده تفكّر و تأمّل، و الهمزة لإنكار عدم التّذكّر و استبعاد صدوره عن المخاطبين.

و قد أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله وَ مَنْ أَظْلَمُ قال: الكافر و المنافق أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ فيسألهم عن أعمالهم وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ شهدوا به عليهم يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن مجاهد قال:

الأشهاد: الملائكة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه، و فى الصحيحين و غيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إن اللّه يدنى المؤمن حتى يضع عليه كنفه و يستره من الناس و يقرّره بذنوبه، و يقول له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: ربّ أعرف، حتى إذا قرّره بذنوبه و رأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فإنى سترتها عليك فى الدنيا، و أنا

أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. و أمّا الكافر و المنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة اللّه على الظالمين». و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قال: هو محمد، يعنى: سبيل اللّه، صدّت قريش عنه الناس. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: وَ يَبْغُونَها عِوَجاً يعنى يرجون بمكة غير الإسلام دينا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ الآية قال: أخبر اللّه سبحانه أنه حال بين أهل الشّرك و بين طاعته فى الدنيا و الآخرة، أما فى الدنيا فإنه قال: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ و أما فى الآخرة فإنه قال:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۵۹

فَلا يَسْتَطِيعُونَ- خاشِعَةً «۱». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ قال: ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به، و لا يبصروا خيرا فيأخذوا به. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله أَخْبَتُوا قال: خافوا. و أخرج ابن جرير عنه قال: الإخبات: الإنابة. و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و أبو الشيخ قال: الإخبات: الخشوع و التّواضع. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد قال: اطمأنوا. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ قال: الكافر وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ قال: المؤمن.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۲۵ الى ۳۴]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹)

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴)

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام، و نقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر و الحجة أبين، و القبول أتمّ، فقال: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ قرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر؛ أى: أرسلناه بأنى؛ أى: أرسلناه متلبّسا بذلك الكلام، و هو أنى لكم نذير مبين. و قرأ الباقون بالكسر على إرادة القول: أى قائلا إنى لكم، و الواو فى و لقد: للابتداء، و اللام هى الموطّئة للقسم، و اقتصر على النّذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به، و جملة: أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ بدل من إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أى: أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا اللّه، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا، أو بنذير، أو بمبين، و جملة: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ تعليلية. و المعنى: نهيتكم عن عبادة غير اللّه لأنى أخاف عليكم، و فيها تحقيق لمعنى الإنذار، و اليوم الأليم: هو يوم القيامة، أو يوم الطوفان؛ و وصفه بالأليم من باب الإسناد المجازى مبالغة. ثم ذكر ما أجاب

(۱). سورة القلم [الآية ۴۲- ۴۳].

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۰

به قومه عليه و هذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوّته من ثلاث جهات فقال: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ و الملأ: الأشراف، كما تقدم غير مرة، و وصفهم بالكفر: ذما لهم، و فيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوّته، أى: نحن و أنت مشتركون فى البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا، و الجهة الثانية: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا و لم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك، و الأراذل: جمع أرذل، و أرذل: جمع رذل، مثل: أكالب و أكلب و كلب؛ و قيل: الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود، و هم السفلة. قال النحّاس: الأراذل: الفقراء و الذين لا حسب لهم، و الحسب الصناعات. قال الزجّاج: نسبوهم إلى الحياكة، و لم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الدّيانة. و قال ثعلب عن ابن الأعرابى: السّفلة هو الذى يصلح الدّنيا بدينه، قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه. و الظاهر من كلام أهل اللغة أنّ السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية. و الرؤية فى الموضعين إن كانت القلبية، فبشرا فى الأوّل: و اتبعك فى الثانى هما المفعول الثانى، و إن كانت البصرية: فهما منتصبان على الحال، و انتصاب بادى الرأى على الظرفية و العامل فيه اتبعك. و المعنى: فى ظاهر الرأى من غير تعمق، يقال بدا يبدو: إذا ظهر. قال الأزهرى: معناه فيما يبدو لنا من الرأى. و الوجه الثالث: من جهات قدحهم فى نبوّته: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا و فى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه، أى: ما نرى لك و لمن اتبعك من الأرذال علينا من فضل تتميزون به و تستحقون ما تدّعونه، ثم أضربوا على الثلاثة المطاعن، و انتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية و الحسد، و استبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، فقالوا: بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ فيما تدّعونه، و يجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم، و الأوّل أولى، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له. ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم، فقال: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی أى: أخبرونى إن كنت على برهان من ربى فى النبوّة يدل على صحتها يوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة، فإن المساواة فى صفة البشرية لا تمنع المفارقة فى صفة النبوّة، و اتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة، فإنهم مثلكم فى البشرية و العقل و الفهم، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم، و يجوز أن يريد بالبينة: المعجزة وَ آتانِی رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ هى: النبوّة، و قيل: الرحمة: المعجزة، و البينة: النبوّة.

قيل: و يجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها، و الأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة، و الإفراد فى فَعُمِّيَتْ على إرادة كل واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنها هى التى تظهر لمن تفكّر و تخفى على من لم يتفكّر، و معنى عميت: خفيت؛ و قيل: الرحمة: هى على الخلق، و قيل: هى الهداية إلى معرفة البرهان، و قيل: الإيمان، يقال عميت عن كذا، و عمى علىّ كذا: إذا لم أفهمه. قيل: و هو من باب القلب، لأنّ البينة أو الرحمة لا تعمى، و إنما يعمى عنها فهو كقولهم: أدخلت القلنسوة رأسى. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص فَعُمِّيَتْ بضم العين و تشديد الميم على البناء للمفعول، أى: فعماها اللّه عليكم، و فى

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۱

قراءة أبىّ، فعماها عليكم. و الاستفهام فى: أَ نُلْزِمُكُمُوها للإنكار، أى: لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها، و الحال أنكم لها كارهون؛ و المعنى: أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى إلا أنها خافية عليكم، أ يمكننا أن نضطركم إلى العلم بها؟ و الحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ و جلّ. و حكى الكسائى و الفراء

إسكان الميم الأولى فى أ نلزمكموها تخفيفا كما فى قول الشاعر:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من اللّه و لا واغل «١»

فإن إسكان الباء فى أشرب للتخفيف. و قد قرأ عمرو كذلك. قوله: وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فيه التّصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة، و يكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادّعى طلبا للدنيا، و الضمير فى عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا. و قوله: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا كالجواب عما يفهم من قولهم: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه؛ و قيل: إنهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا، ثم علل ذلك بقوله: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ أى: لا أطردهم، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم، فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، و كأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، و يحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم؛ ثم بيّن لهم ما هم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه، و العلل التى اعتلوا بها عن إجابته فقال: وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ كل ما ينبغى أن يعلم، و من ذلك استرذالهم للذين اتبعوه و سؤالهم له أن يطردهم. ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله: وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أى: من يمنعنى من عذاب اللّه و انتقامه إن طردتهم؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان، و الإجابة إلى الدعوة التى أرسل اللّه رسوله لأجلها ظلم عظيم، لا يقع من أنبياء اللّه المؤيدين بالعصمة، و لو وقع ذلك منهم فرضا و تقديرا لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس. و قوله:

أَ فَلا تَذَكَّرُونَ معطوف على مقدّر؛ كأنه قيل: أ تستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر أ فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغى تذكره و تتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، و ما هم عليه من الصواب؟

قوله: وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدّعى أن عنده خزائن اللّه حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ و المراد بخزائن اللّه: خزائن رزقه وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ أى: و لا أدّعى أنى أعلم بغيب اللّه، بل لم أقل لكم: إلا أنى نذير مبين، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم وَ لا أَقُولُ لكم إِنِّي مَلَكٌ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرا مثلنا. و قد استدلّ بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء، و الأدلة فى هذه المسألة مختلفة، و ليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة، فليست مما كلفنا اللّه بعلمه وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ

---

(١). احتقب الإثم: ارتكبه. و البيت لامرئ القيس.

أى: تحتقر، و الازدراء مأخوذ من أزرى عليه: إذا عابه، و زرى عليه: إذا احتقره، و أنشد الفرّاء:

يباعده الصّديق و تزدريه حليلته و ينهره الصّغير

و المعنى: إنى لا أقول لهؤلاء المتّبعين لى، المؤمنين باللّه، الذين تعيبونهم و تحتقرونهم لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به و اتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة، و رافعهم فى الدنيا إلى أعلى محل، و لا يضرّهم احتقاركم لهم شيئا اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ من الإيمان به، و الإخلاص له، فمجازيهم على ذلك، ليس لى و لا لكم من أمرهم شىء إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ لهم؛ إن فعلت ما تريدونه بهم، أو من الظالمين لأنفسهم، إن فعلت ذلك بهم، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم و كلامه عجزا عن القيام بالحجة، و قصورا عن رتبة المناظرة، و انقطاعا عن المباراة، بقولهم: يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا أى: خاصمتنا بأنواع الخصام، و دفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام، و لم يبق لنا فى هذا الباب مجال، فقد ضاقت علينا المسالك، و انسدّت أبواب الحيل فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب الذى تخوّفنا منه و تخافه علينا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فيما تقوله لنا، فأجاب بأن ذلك ليس إليه و إنما هو بمشيئة اللّه و إرادته، و قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ فإن قضت مشيئته و حكمته بتعجيله عجله لكم، و إن قضت مشيئته و حكمته بتأخيره أخره وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين عما أراده اللّه بكم بهرب أو مدافعة وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي الذى أبذله لكم، و أستكثر منه قياما منى بحق النصيحة للّه بإبلاغ رسالته، و لكم بإيضاح الحق و بيان بطلان ما أنتم عليه إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ و جواب هذا الشرط محذوف، و التقدير: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى، كما يدل عليه ما قبله إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ أى: إن كان اللّه يريد إغواءكم فلا ينفعكم النّصح منّى، فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأوّل، و تقديره ما ذكرنا، و هذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط، و أما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأوّل: و لا ينفعكم نصحى، و جزاء الشرط الثانى الجملة الظرفية الأولى و جزاؤها. قال ابن جرير: معنى يغويكم: يهلككم بعذابه، و ظاهر لغة العرب أن الإغواء: الإضلال؛ فمعنى الآية: لا ينفعكم نصحى إن كان اللّه يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد و يخذلكم عن طريق الحق. و حكى عن طيّ: أصبح فلان غاويا: أى مريضا، و ليس هذا المعنى هو المراد فى الآية. و قد ورد الإغواء بمعنى: الإهلاك، و منه:

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا «١» و هو غير ما فى هذه الآية هُوَ رَبُّكُمْ فإليه الإغواء و إليه الهداية وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير، و إن شرّا فشرّ.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ قال: فيما ظهر لنا. و أخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي قال: قد عرفتها و عرفت بها أمره، و أنه لا إله إلا هو، وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ قال: الإسلام و الهدى و الإيمان و الحكم و النبوّة. و أخرج ابن جرير،

---

(١). مريم: ٥٩.

و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: أَ نُلْزِمُكُمُوها قال: أما و اللّه لو استطاع نبىّ اللّه لألزمها قومه، و لكنه لم يستطع ذلك و لم يمكنه. و أخرج سعيد بن منصور، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «أ نلزمكموها من شطر أنفسنا و أنتم لها كارهون» و أخرج ابن جرير عن أبى العالية قال فى قراءة أبىّ: «أ نلزمكموها من شطر أنفسنا و أنتم لها كارهون». و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ «أ نلزمكموها من شطر قلوبنا». و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا، قال: قالوا له: يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، إلا فلن نرضى أن نكون نحن و هم فى الأرض سواء، و فى قوله: إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ قال: فيسألهم عن أعمالهم. وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ التى لا يفنيها شىء، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها، لأعطيكم منها بملكى لى عليها وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ لا أقول: اتبعونى على علمى بالغيب وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلّا بشر مثلكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ قال: حقرتموهم. و أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً قال: يعنى إيمانا. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا قال: تكذيبا بالعذاب و أنه باطل.

[سورة هود (١١): الآيات ٣٥ الى ٤٤]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۹)

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (۴۲) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳) وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴)

قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ أنكر سبحانه عليهم قولهم: إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ثم أمره أن يجيب بكلام منصف، فقال: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي بكسر الهمزة على قراءة الجمهور، مصدر أجرم، أى: فعل ما يوجب الإثم، و جرم و أجرم بمعنى، قاله النحاس، و المعنى:

فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى. و من قرأ بفتح الهمزة، قال: هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا وَ أَنَا بَرِيءٌ

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۴

مِمَّا تُجْرِمُونَ أى: من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلىّ من الافتراء، قيل: و فى الكلام حذف، و التقدير:

لكن ما افتريته، فالإجرام و عقابه ليس إلا عليكم و أنا برىء منه.

و قد اختلف المفسرون فى هذه الآية فقيل: إنها حكاية عن نوح و ما قاله لقومه، و قيل: هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و كفار مكة. و الأوّل أولى، لأن الكلام قبلها و بعدها مع نوح عليه السلام.

قوله: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ أنه لن يؤمن: فى محل رفع على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ. و يجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء، أى: بأنه، و فى الكلام تأييس له من إيمانهم، و أنهم مستمرّون على كفرهم، مصممون عليه، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ البؤس: الحزن، أى: فلا تحزن، و البائس: المستكين، فنهاه اللّه سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن فى استكانة. و منه قول الشاعر:

و كم من خليل أو حميم رزئتهفلم أبتئس و الرّزء فيه جليل

ثم إنّ اللّه سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم، و ألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه و خلاص من آمن معه، فقال: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا أى: اعمل السفينة متلبسا بأعيننا؛ أى:

بمرأى منا، و المراد: بحراستنا لك، و حفظنا لك، و عبّر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية، و الرؤية هى التى تكون بها الحراسة و الحفظ فى الغالب، و جمع الأعين للتعظيم لا للتكثير؛ و قيل المعنى: بِأَعْيُنِنا أى:

بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك؛ و قيل: بِأَعْيُنِنا بعلمنا؛ و قيل: بأمرنا. و معنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أى: لا تطلب إمهالهم، فقد حان وقت الانتقام منهم، و جملة إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ للتعليل، أى: لا تطلب منا إمهالهم، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق و قد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه و لا تأخيره؛ و قيل: المعنى و لا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم فإنهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك، لا يتأخر إغراقهم عنه؛ و قيل: المراد بالذين ظلموا: امرأته و ابنه وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ أى: و طفق يصنع الفلك، أو و أخذ يصنع الفلك؛ و قيل: هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة، و جملة: وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ فى محل نصب على الحال؛ أى: استهزءوا به لعمله السفينة. قال الأخفش و

الكسائى: يقال سخرت به و منه. و فى وجه سخريتهم منه قولان: أحدهما أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة، فيقولون: يا نوح! صرت بعد النبوّة نجارا. و الثانى: أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة، و كانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله، و سخروا به. ثم أجاب عليهم بقوله: إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ و هذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل: فماذا قال لهم؟ و المعنى: إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم نسخر منكم غدا عند الغرق. و معنى السخرية هنا: الاستجهال، أى: إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون، و استجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم و مشافهتهم، و إلا فهم عنده جهال قبل هذا و بعده، و التشبيه فى قوله كَما تَسْخَرُونَ لمجرد التحقق و الوقوع، أو التجدّد و التكرّر، فتح القدير، ج ٢، ص: ۵۶۵

و المعنى: إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة، كما تسخرون منا كذلك، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك، و قيل معناه: نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق، و فيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم فى شغل شاغل عنها، ثم هدّدهم بقوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ و هو عذاب الغرق فى الدنيا وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ و هو عذاب النار الدائم، و معنى يحلّ: يجعل المؤجل حالا، مأخوذ من حلول الدين المؤجل، و من موصولة فى محل نصب، و يجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع، أى: أينا يأتيه عذاب يخزيه؛ و قيل: فى موضع رفع بالابتداء، و يأتيه الخبر، و يخزيه صفة لعذاب، قال الكسائى: إنّ ناسا من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون؛ قال: و من قال ستعلمون أسقط الواو و الفاء جميعا، و جوّز الكوفيون «سوف تعلمون» و منعه البصريون، و المراد بعذاب الخزى:

العذاب الذى يخزى صاحبه و يحل عليه العار. قوله حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ حتى هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية و جعلت غاية لقوله: و اصنع الفلك بأعيننا.

و التنور اختلف فى تفسيرها على أقوال: الأوّل: أنها وجه الأرض، و العرب تسمى وجه الأرض تنورا، روى ذلك عن ابن عباس و عكرمة و الزهرى و ابن عيينة. الثانى: أنه تنور الخبز الذى يخبزون فيه، و به قال مجاهد و عطية و الحسن، و روى عن ابن عباس أيضا. الثالث: أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة، روى عن الحسن. الرابع: أنه طلوع الفجر، من قولهم تنوّر الفجر، روى عن علىّ بن أبى طالب. الخامس: أنه مسجد الكوفة، روى عن علىّ أيضا و مجاهد؛ قال مجاهد: كان ناحية التنوّر بالكوفة. السادس: أنه أعالى الأرض و المواضع المرتفعة، قاله قتادة. السابع: أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة، روى ذلك عن عكرمة.

الثامن أنه موضع بالهند؛ قال ابن عباس: كان تنور آدم بالهند. قال النحاس: و هذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنّ اللّه سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء و الأرض، قال: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ- وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً «۱» فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة، هكذا قال، و فيه نظر، فإن القول الرابع ينافى هذا الجمع، و لا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء. إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا.

و قد ذكر أهل اللغة أن الفور: الغليان، و التنور: اسم عجمى عرّبته العرب؛ و قيل معنى فار التنور: التمثيل بحضور العذاب، كقولهم: حمى الوطيس؛ إذا اشتدّ الحرب، و منه قول الشاعر:

تركتم قدركم لا شيء فيهاو قدر القوم حامية تفور

يريد الحرب.

قوله: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى: قلنا يا نوح احمل فى السفينة من كل زوجين مما فى الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا و أنثى. و قرأ حفص: مِنْ كُلٍّ بتنوين كل أى من كل شيء زوجين؛ و الزوجان: للاثنين الذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر، و يطلق على كل واحد منهما زوج، كما يقال للرجل:

زوج و للمرأة زوج، و يطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد، و يطلق الزوج على الضرب و الصنف،

---

(١). القمر: ١١- ١٢.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٦٦

و مثله قوله تعالى: وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ «١» و مثله قول الأعشى:

و كلّ ضرب من الدّيباج يلبسهأبو قدامة محبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج وَ أَهْلَكَ عطف على زوجين، أو على اثنين على قراءة حفص، و على محل كل زوجين، فإنه فى محلّ نصب باحمل، أو على اثنين على قراءة الجمهور، و المراد: امرأته و بنوه و نساؤهم إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أى من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى قوله: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ على الاختلاف السابق فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله و غيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ و من قال: المراد بهم: ولده كنعان و امرأته واعلة أمّ كنعان، جعل الاستثناء من أهلك، و يكون متصلا إن أريد بالأهل ما هو أعمّ من المسلم و الكافر منهم، و منقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط. قوله: وَ مَنْ آمَنَ معطوف على أهلك، أى:

و احمل فى السفينة من آمن من قومك، و أفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم على القول الآخر.

ثم وصف اللّه سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال: وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ قيل:

هم ثمانون إنسانا؛ منهم: ثلاثة من بنيه، و هم سام، و حام، و يافث، و زوجاتهم، و لما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها: قرية الثمانين، و هى موجودة بناحية الموصل؛ و قيل: كانوا عشرة، و قيل: سبعة، و قيل:

كانوا اثنين و سبعين، و قيل غير ذلك. قوله: وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها القائل نوح، و قيل: اللّه سبحانه.

و الأوّل أولى، لقوله: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و الركوب: العلوّ على ظهر الشيء حقيقة، نحو ركب الدابة، أو مجازا، نحو ركبه الدين، و فى الكلام حذف، أى: اركبوا الماء فى السفينة فلا يرد: أن ركب يتعدّى بنفسه؛ و قيل: إن الفائدة فى زيادة فى أنه أمرهم بأن يكونوا فى جوف السفينة لا على ظهرها؛ و قيل: إنها زيدت لرعاية جانب المحلية فى السفينة، كما فى قوله: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ «٢»، و قوله: حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ «٣» قيل: و لعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج، كأنه قيل:

فحمل الأزواج و أدخلها فى الفلك و قال للمؤمنين. و يمكن أن يقال: إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج و الأهل و المؤمنين، و لا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب. قوله: بِسْمِ اللَّهِ متعلّق باركبوا، أو حال من فاعله، أى: مسمّين اللّه، أو قائلين: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها قرأ أهل الحرمين و أهل البصرة: بضمّ الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان، و هما فى موضع نصب على الظرفية، أى: وقت مجراها و مرساها، و يجوز أن يكونا مصدرين، أى: وقت إجرائها و إرسائها. و قرأ الأعمش و حمزة و الكسائى و حفص: مَجْراها بفتح الميم، و مرساها بضمها، و قرأ يحيى بن وثاب: بفتحها فيهما. و قرأ مجاهد، و سليمان بن جندب، و عاصم الجحدرى، و أبو رجاء العطاردى: مجريها و مرسيها على أنهما وصفان للّه، و يجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ: أى هو مجراها و مرسيها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ للذّنوب رَحِيمٌ بعباده، و من رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى، و عدم استئصاله بالغرق. قوله: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ

---

(۱). الحجر: ۵.

(۲). العنكبوت: ۶۵.

(۳). الكهف: ۷۱.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۶۷

هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، و التقدير: فركبوا مسمين و هى تجرى بهم، و الموج: جمع موجة، و هى: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، و شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض. قوله: وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ هو كنعان، قيل: و كان كافرا، و استبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «۱»؛ و أجيب بأنه كان منافقا فظنّ نوح أنه مؤمن؛ و قيل: حملته شفقة الأبوّة على ذلك؛ و قيل: إنه كان ابن امرأته و لم يكن بابنه، و يؤيده ما روى أن عليا قرأ: و نادى نوح ابنها؛ و قيل: إنه كان لغير رشدة، و ولد على فراش نوح. و ردّ بأن قوله: وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ و قوله: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ أى: فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه و قرابته بحيث لم يبلغه قول نوح: ارْكَبُوا فِيها، و قيل: فى معزل من دين أبيه، و قيل: من السفينة، قيل: و كان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان فى أوّل فور التنور. قوله: يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا قرأ عاصم بفتح الياء، و الباقون بكسرها، فأما الكسر: فلجعله بدلا من ياء الإضافة، لأن الأصل يا بنيّ، و أما الفتح: فلقلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف و بقيت الفتحة لتدلّ عليه. قال النحّاس: و قراءة عاصم مشكلة. و قال أبو حاتم: أصله يا بنياه ثم تحذف، و قد جعل الزجاج للفتح وجهين، و للكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل: ما ذكرناه، و الوجه الثاني: أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين. و أما الكسر فالوجه الأوّل: ما ذكرناه، و الثاني: أن تحذف لالتقاء الساكنين، كذا حكى عنه النحاس. و قرأ أبو عمرو، و الكسائى، و حفص: ارْكَبْ مَعَنا بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج. و قرأ الباقون بعد الإدغام وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ نهاه عن الكون مع الكافرين، أى: خارج السفينة، و يمكن أن يراد بالكون معهم: الكون على دينهم، ثم حكى اللّه سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال: قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ أى: يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلىّ، فأجاب عنه نوح بقوله: لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أى: لا مانع فإنه يوم قد حقّ فيه العذاب و جفّ القلم بما هو كائن فيه، نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوّليا، و عبر عن الماء أو عن الغرق بأمر اللّه سبحانه: تفخيما لشأنه و تهويلا لأمره. و الاستثناء: قال الزجاج: هو منقطع، أى: لكن من رحمه اللّه فهو يعصمه، فيكون مَنْ رَحِمَ فى موضع نصب، و يجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم، أى: لا معصوم اليوم من أمر اللّه إلّا من رحمه اللّه:

مثل ماءٍ دافِقٍ «۲»- و عِيشَةٍ راضِيَةٍ* «۳» و منه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتهاو اقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسى

أى: المطعم المكسوّ، و اختار هذا الوجه ابن جرير؛ و قيل: العاصم بمعنى ذى العصمة، كلابن و تامر، و التقدير: لا عاصم قط إلا مكان من رحم اللّه، و هو: السفينة، و حينئذ فلا يرد ما يقال: إن معنى من رحم، من رحمه اللّه، و من رحمه اللّه: هو معصوم، فكيف يصحّ استثناؤه عن العاصم؟ لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال. و قرئ: إلا من رحم على البناء للمفعول وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

---

(۱). نوح: ۲۶.

(۲). الطارق: ۶.

(٣). الحاقة: ٢١.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٦٨

أى: حال بين نوح و ابنه فتعذر خلاصه من الغرق؛ و قيل: بين ابن نوح، و بين الجبل، و الأوّل أولى، لأن تفرّع فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ عليه يدل على الأوّل لا على الثانى، لأن الجبل ليس بعاصم. قوله: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ يقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع، و بلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى و الفراء: و البلع: الشرب، و منه البالوعة، و هى الموضع الذى يشرب الماء، و الازدراد، يقال: بلع ما فى فمه من الطعام إذا ازدرده، و استعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي الإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر، إذا انقطع.

و المعنى: أمر السماء بإمساك الماء عن الإرسال، و قدّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها وَ غِيضَ الْماءُ: أى نقص، يقال غاض الماء و غضته أنا وَ قُضِيَ الْأَمْرُ أى: احكم و فرغ منه، يعنى:

أهلك اللّه قوم نوح على تمام و إحكام وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ أى: استقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجودى، و هو جبل بقرب الموصل؛ و قيل: إن الجودى اسم لكل جبل، و منه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

سبحانه ثم سبحانا يعود له‌و قبلنا سبّح الجوديّ و الجمد

و يقال: إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ القائل: هو اللّه سبحانه ليناسب صدر الآية؛ و قيل: هو نوح و أصحابه. و المعنى: و قيل هلاكا للقوم الظالمين، و هو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء، و وصفهم بالظلم: للإشعار بأنه علة الهلاك، و للإيماء إلى قوله: وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا. و قد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة و البلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، و تضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام فى علم البيان، الراسخين فى علم اللغة، المطلعين على ما هو مدوّن من خطب مصاقع خطباء العرب، و أشعار بواقع شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية و أسرارها. و قد تعرّض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا و أطابوا، رحمنا اللّه و إياهم برحمته الواسعة.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: فَعَلَيَّ إِجْرامِي قال: عملى وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ أى: مما تعملون، و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ و ذلك حين دعا عليهم نوح قال: لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١».

و أخرج أحمد فى الزهد و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الحسن قال: إن نوحا لم يدع على قومه حتّى نزلت الآية هذه، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم. و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: فَلا تَبْتَئِسْ قال: فلا تحزن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى عنه فى قوله: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا قال: بعين اللّه و وحيه. و أخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت و ذهبت كلّ مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة يمرّون فيسألونه فيقول

---

(١). نوح: ٢٦.

فتح القدير، ج٢، ص: ٥٦٩

أعملها سفينة فيسخرون منه و يقولون يعمل سفينة فى البرّ، و كيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها و فار التنور و كثر

الماء فی السکک خشیته أمّ الصبی علیه، و کانت تحبّه حبّا شدیدا، فخرجت إلی الجبل حتی بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتی استوت علی الجبل، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بین یدیها حتی ذهب بها الماء، فلو رحم اللّه منهم أحدا لرحم أمّ الصبیّ». و قد ضعّفه الذهبی فی مستدرکه علی مستدرک الحاکم. و قد روی فی صفة السفینة و قدرها أحادیث و آثار لیس فی ذکرها هنا کثیر فائدة. و أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله مَنْ یَأْتِیهِ عَذابٌ یُخْزِیهِ قال: هو الغرق وَ یَحِلُّ عَلَیْهِ عَذابٌ مُقِیمٌ قال: هو الخلود فی النار. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ، و الحاکم و صحّحه عنه قال: کان بین دعوة نوح و بین هلاک قومه ثلاثمائة سنة، و کان فار التنور بالهند و طافت سفینة نوح بالبیت أسبوعا. و أخرج ابن أبی حاتم عنه أیضا قال: التنور: العین التی بالجزیرة عین الوردة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن علیّ بن أبی طالب قال: فار التنور من مسجد الکوفة من قبل أبواب کندة.

و قد روی عنه نحو هذا من طرق. و أخرج سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس قال: التنور: وجه الأرض، قیل له: إذا رأیت الماء علی وجه الأرض فارکب أنت و من معک. و العرب تسمی وجه الأرض تنور الأرض. و أخرج ابن جریر و ابن المنذر عن علیّ وَ فارَ التَّنُّورُ قال: طلع الفجر قیل له: إذا طلع الفجر فارکب أنت و أصحابک. و قد روی فی تفسیر التنور غیر هذا، و قد قدّمنا الإشارة إلی ذلک. و روی فی صفة القصة و ما حمله نوح فی السفینة، و کیف کان الغرق، و کم بقیت السفینة علی ظهر الماء روایات کثیرة لا مدخل لها فی تفسیر کلام اللّه سبحانه. و أخرج ابن جریر عن مجاهد فی قوله بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها قال: حین یرکبون و یجرون و یرسون. و أخرج ابن جریر عن الضحاک قال: کان إذا أراد أن ترسی قال بسم اللّه فأرست، و إذا أراد أن تجری قال بسم اللّه فجرت.

و أخرج أبو یعلی و الطبرانی و ابن السنی و ابن عدی و أبو الشیخ و ابن مردویه عن الحسن بن علیّ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: «أمان لأمتی من الغرق إذا رکبوا الفلک أن یقولوا: بسم اللّه الملک الرحمن. بسم اللّه مجراها و مرساها. إنّ ربّی لغفور رحیم. و ما قدروا اللّه حق قدره إلی آخر الآیة». و أخرجه ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن ابن عباس عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم. و أخرجه أیضا أبو الشیخ عنه مرفوعا من طریق أخری. و أخرج ابن أبی حاتم عن قتادة قال: کان اسم ابن نوح الذی غرق کنعان. و أخرج عبد الرزاق و سعید بن منصور و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن ابن عباس قال: هو ابنه غیر أنه خالفه فی النیة و العمل.

و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن عکرمة فی قوله لا عاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ قال:

لا ناج إلا أهل السفینة. و أخرج ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن القاسم بن أبی برّة فی قوله وَ حالَ بَیْنَهُمَا الْمَوْجُ قال: بین ابن نوح و الجبل. و أخرج ابن المنذر عن عکرمة فی قوله یا أَرْضُ ابْلَعِی قال:

هو بالحبشیة. و أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و أبو الشیخ عن وهب بن منبه فی ابلعی قال بالحبشیة: أی ازدردیه. و أخرج أبو الشیخ عن جعفر بن محمد عن أبیه قال: معناه: اشربی، بلغة الهند. و أخرج ابن جریر

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۷۰

و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس مثله. أقول: و ثبوت لفظ البلع و ما یشتق منه فی لغة العرب ظاهر مکشوف، فما لنا و للحبشة و الهند؟!.

[سورة هود (۱۱): الآیات ۴۵ الی ۴۹]

وَ نادی نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ (۴۵) قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ إِنَّهُ

عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ (۴۶) قالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِی وَ تَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخاسِرِینَ (۴۷) قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَکاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلی أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ (۴۸) تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِینَ (۴۹)

و معنی: وَ نادی نُوحٌ رَبَّهُ دعاه، و المراد: أراد دعاءه، بدلیل الفاء فی: فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی و عطف الشیء علی نفسه غیر سائغ، فلا بدّ من التقدیر المذکور، و معنی قوله: إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی أنه من الأهل الذین وعدتنی بتنجیتهم بقولک: و أهلک. فإن قیل: کیف طلب نوح علیه السلام إنجاز ما وعده اللّه بقوله: وَ أَهْلَکَ و هو المستثنی منه، و ترک ما یفیده الاستثناء، و هو إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ فیجاب: بأنه لم یعلم إذ ذاک أنه ممن سبق علیه القول، فإنه کان یظنه من المؤمنین وَ إِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ الذی لا خلف فیه، و هذا منه وَ أَنْتَ أَحْکَمُ الْحاکِمِینَ أی: أتقن المتقنین لما یکون به الحکم، فلا یتطرق إلی حکمک نقض، و قیل: أراد بأحکم الحاکمین، أعلمهم و أعدلهم، أی: أنت أکثر علما و عدلا من ذوی الحکم؛ و قیل: إن الحاکم بمعنی: ذی الحکمة کدارع، ثم أجاب اللّه سبحانه عن نوح ببیان أن ابنه غیر داخل فی عموم الأهل، و أنه خارج بقید الاستثناء ف قالَ یا نُوحُ إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهْلِکَ الذین آمنوا بک و تابعوک، و إن کان من أهلک باعتبار القرابة؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبینة له، بأن المراد بالقرابة: قرابة الدین لا قرابة النسب وحده، فقال: إِنَّهُ عَمَلٌ غَیْرُ صالِحٍ قرأ الجمهور: عمل، علی لفظ المصدر. و قرأ ابن عباس، و عکرمة، و الکسائی، و یعقوب: عمل، علی لفظ الفعل؛ و معنی القراءة الأولی المبالغة فی ذمه کأنه جعل نفس العمل، و أصله ذو عمل غیر صالح ثم حذف المضاف و جعل نفس العمل، کذا قال الزجاج و غیره. و معنی القراءة الثانیة ظاهر، أی: إنه عمل عملا غیر صالح، و هو کفره و ترکه لمتابعة أبیه، ثم نهاه عن مثل هذا السؤال، فقال: فَلا تَسْئَلْنِ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ لما بین له بطلان ما اعتقده من کونه من أهله فرّع علی ذلک النهی عن السؤال، و هو و إن کان نهیا عاما بحیث یشمل کل سؤال لا یعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب، فهو یدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوّلیا، و فیه عدم جواز الدعاء بما لا یعلم الإنسان مطابقته للشرع، و سمی دعاءه سؤالا لتضمنه معنی السؤال إِنِّی أَعِظُکَ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْجاهِلِینَ أی: أحذّرک أن تکون من الجاهلین، کقوله: یَعِظُکُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً «۱» و قیل: المعنی: أرفعک أن تکون من الجاهلین. قال ابن العربی: و هذه زیادة من اللّه

---

(۱). النور: ۱۷.

فتح القدیر، ج‌۲، ص: ۵۷۱

و موعظة یرفع بها نوحا عن مقام الجاهلین، و یعلیه بها إلی مقام العلماء العاملین. ثم لمّا علم نوح بأن سؤاله لم یطابق الواقع، و أن دعاءه ناشئ عن وهم کان یتوهمه بادر إلی الاعتراف بالخطإ و طلب المغفرة و الرحمة، ف قالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْئَلَکَ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ أی: أعوذ بک أن أطلب منک ما لا علم لی بصحته و جوازه، وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِی ذنب ما دعوت به علی غیر علم منی وَ تَرْحَمْنِی برحمتک التی وسعت کل شیء فتقبل توبتی أَکُنْ مِنَ الْخاسِرِینَ فی أعمالی فلا أربح فیها. القائل هو اللّه، أو الملائکة:

قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ أی: أنزل من السفینة إلی الأرض، أو من الجبل إلی المنخفض من الأرض، فقد بلعت الأرض ماءها و جفت بِسَلامٍ مِنَّا أی: بسلامة و أمن، و قیل: بتحیة وَ بَرَکاتٍ أی: نعم ثابتة، مشتق من بروک الجمل، و هو ثبوته، و منه البرکة لثبوت الماء فیها، و فی هذا الخطاب له دلیل علی قبول توبته و مغفرة زلته وَ عَلی أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ أی: ناشئة ممن معک، و هم

المتشعبون من ذرية من كان معه فى السفينة؛ و قيل: أراد من فى السفينة، فإنهم أمم مختلفة و أنواع من الحيوانات متباينة. قيل: أراد اللّه سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم، و أراد بقوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ من صار كافرا من ذريتهم إلى يوم القيامة، و ارتفاع أمم فى قوله: وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ على أنه خبر مبتدأ محذوف: أى: و منهم أمم؛ و قيل: على تقدير: و يكون أمم. و قال الأخفش: هو كما تقول: كلمت زيدا و عمرو جالس، و أجاز الفراء فى غير القراءة: و أمما سنمتعهم: أى و نمتع أمما؛ و معنى الآية: و أمم سنمتعهم فى الدنيا بما فيها من المتاع، و نعطيهم منها ما يعيشون به، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب أليم؛ و قيل: يمسهم إما فى الدنيا أو فى الآخرة، و الإشارة بقوله: تِلْكَ إلى قصة نوح، و هى مبتدأ، و الجمل بعده أخبار مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ من جنس أنباء الغيب، و الأنباء: جمع نبأ و هو الخبر، أى: من أخبار الغيب التى مرّت بك فى هذه السورة، و الضمير فى: نُوحِيها إِلَيْكَ راجع إلى القصة، و المجىء بالمضارع لاستحضار الصورة ما كُنْتَ يا محمد تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا يعلمها قَوْمُكَ بل هى مجهولة عندكم من قبل الوحى، أو من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ على ما تلاقيه من كفار زمانك، و الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها إِنَّ الْعاقِبَةَ المحمودة فى الدنيا و الآخرة لِلْمُتَّقِينَ للّه، المؤمنين بما جاءت به رسله، و فى هذا تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الأمر، و لا اعتبار بمباديه.

و قد أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الحسن قال: نادى نوح ربّه فقال: ربّ إن ابنى من أهلى، و إنك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى، و إن ابنى من أهلى. و أخرج عبد الرزاق، و الفريابى، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن عساكر عن ابن عباس قال: «ما بغت امرأة نبىّ قط»، و قوله إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ يقول: ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه قال: إن نساء الأنبياء لا يزنين، و كان يقرؤها إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ يقول: مسألتك إياى يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ قال: بين اللّه لنوح أنه ليس بابنه. و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: يا نُوحُ اهْبِطْ

فتح القدير، ج ۲، ص: ۵۷۲

بِسَلامٍ مِنَّا قال: اهبطوا و اللّه عنهم راض. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال: دخل فى ذلك السلام و البركات كل مؤمن و مؤمنة إلى يوم القيامة، و دخل فى ذلك العذاب الأليم كل كافر و كافرة إلى يوم القيامة. و أخرج ابن جرير عن الضحاك: وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ يعنى ممن لم يولد، أوجب اللّه لهم البركات لما سبق لهم فى علم اللّه من السعادة وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ يعنى: متاع الحياة الدنيا ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ لما سبق لهم فى علم اللّه من الشقاوة. و أخرج أبو الشيخ قال: ثم رجع إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ يعنى العرب مِنْ قَبْلِ هذا القرآن.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۶۰]

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (۵۰) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴)
مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ

شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)

وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

قوله: وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً معطوف على و أرسلنا نوحا؛ أى: و أرسلنا إلى عاد أخاهم؛ أى:

واحدا منهم، و هودا عطف بيان، و قوم عاد كانوا عبدة أوثان، و قد تقدّم مثل هذا فى الأعراف. و قيل:

هم عاد الأولى و عاد الأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى، و عاد الأخرى: هم شداد و لقمان و قومهما المذكورون فى قوله: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ «١»، و أصل عاد: اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم و بكر و نحوهما: ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قرئ غيره بالجرّ على اللفظ، و بالرفع على محل من إله، و قرئ بالنصب على الاستثناء:

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ أى: ما أنتم باتخاذ إله غير اللّه إلا كاذبون على اللّه عزّ و جلّ، ثم خاطبهم فقال:

يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً أى: لا أطلب منكم أجرا على ما أبلغه إليكم، و أنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة اللّه وحده، و أنه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. و قد تقدّم معنى هذا فى قصة نوح إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أى:

ما أجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى، أى:

خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك أَ فَلا تَعْقِلُونَ أنّ أجر الناصحين إنما هو من ربّ العالمين، قيل: إنما

---

(١). الفجر: ٧.

قال فيما تقدّم فى قصة نوح: مالا، و هنا قال: أجرا: لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح، و لفظ المال بها أليق، ثم أرشدهم إلى الاستغفار و التوبة. و المعنى: اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم، ثم توسلوا إليه بالتوبة.

و قد تقدّم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح، ثم رغبهم فى الإيمان بالخير العاجل، فقال يُرْسِلِ السَّماءَ أى: المطر عَلَيْكُمْ مِدْراراً أى: كثير الدّرور، و هو منصوب على الحال، درّت السماء تدرّ و تدرّ فهى مدرار، و كان قوم هود أهل بساتين و زرع و عمارة، و كانت مساكنهم الرمال التى بين الشام و اليمن وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ معطوف على يرسل، أى: شدّة مضافة إلى شدّتكم، أو: خصبا إلى خصبكم، أو:

عزّا إلى عزّكم. قال الزجاج: المعنى يزدكم قوّة فى النعم وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ أى: لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، و تقيموا على الكفر مصرّين عليه، و الإجرام: الآثام كما تقدّم، ثم أجابه قومه بما يدلّ على فرط جهالتهم، و عظيم غباوتهم، ف قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ أى: بحجة واضحة نعمل عليها، و نؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج اللّه و براهينه عنادا و بعدا عن الحق وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا التى نعبدها من دون اللّه. و معنى عَنْ قَوْلِكَ صادرين عن قولك، فالظرف فى محل نصب على الحال وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ أى: بمصدّقين فى شىء مما جئت به إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ أى: ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها و تسفّه رأينا فى عبادتها بسوء: بجنون، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا و تكرره علينا من التنفير عنها، يقال عراه الأمر و اعتراه: إذا ألمّ به، فأجابهم بما يدلّ على عدم مبالاته بهم و على وثوقه بربه و توكله عليه، و أنهم لا يقدرون على شىء مما يرده الكفار به، بل اللّه سبحانه هو الضار النافع ف قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أنتم أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ به مِنْ دُونِهِ أى: من إشراككم من دون اللّه من غير أن ينزل به سلطانا فَكِيدُونِي جَمِيعاً أنتم و آلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بى و أنها اعترتنى بسوء ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ أى: لا تمهلونى، بل عاجلونى و اصنعوا ما بدا لكم؛ و

فى هـذا من إظهار عـدم المبالاة بهم و بأصـنامهم التى يعبدونها ما يصكّ مسامعهم، و يوضح عجزهم و عدم قدرتهم على شـىء إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَ رَبِّكُمْ فهو يعصـمنى من كيـدكم، و إن بلغتم فى تطلب وجوه الإضـرار بى كل مبلغ، فمن توكل على اللّه كفـاه. ثم لمـا بين لهم توكله على اللّه، و ثقته بحفظه و كلاءته؛ وصـفه بما يوجب التوكل عليه، و التفويض إليه من اشـتمال ربوبيته عليه و عليهم، و أنه مالك للجميع، و أن ناصـية كل دابـة من دوابّ الأرض بيـده، و فى قبضـته و تحت قهره، و هو تمثيل لغاية التسـخير و نهاية التذليل، و كانوا إذا أسـروا الأسير و أرادوا إطلاقه، و المنّ عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره. قال الفراء: معنى آخـذ بناصـيتها: مالكهـا و القادر عليها، و قال القتبى: قاهرها لأن من أخـذت بناصـيته فقـد قهرته، و الناصـية قصاص الشـعر من مقـدّم الرأس، ثم علل ما تقدّم بقوله: إِنَّ رَبِّى عَلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ أى: هو على الحق و العدل فلا يكاد يسـلطكم علىّ فَإِنْ تَوَلَّوْا أى: تتولوا فحـذفت إحـدى التاءين، و المعنى فإن تسـتمروا على الإعراض عن الإجابة، و التصـميم على ما أنتم عليه من الكفر فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مـا أُرْسِـلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ليس علىّ إلا ذلك، و قـد لزمتكم الحجة وَ يَسْـتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ جملـة مسـتأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك، أى:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۷۴

يستخلف فى ديـاركم و أموالكم قومـا آخرين، و يجوز أن يكون عطفـا على: فقـد أبلغتكم. و روى حفص عن عـاصم أنه قرأ وَ يَسْـتَخْلِفُ بالجزم حملا على موضع فقد أبلغتكم وَ لا تَضُـرُّونَهُ شَـيْئاً أى: بتوليكم، و لا تقدرون على كثير من الضرر و لا حقير إِنَّ رَبِّى عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيـظٌ أى: رقيب مهيمن عليه بحفظه من كـل شـىء، قيـل: و على بمعنى اللام، فيكون المعنى: لكل شـىء حفيظ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا أى: عـذابنا الذى هو إهلاك عاد نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ من قومه بِرَحْمَـةٍ مِنَّا أى: برحمـة عظيمـة كائنـة منا لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة اللّه، و قيل: هى الإيمان مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ أى: شديد، قيل: و هو السـموم التى كانت تـدخل أنوفهم وَ تِلْكَ عادٌ مبتـدأ و خبر، و أنث الإشارة اعتبارا بالقبيلة. قال الكسائى: إن من العرب من لا يصـرف عـاد و يجعله اسـما للقبيلـة جَحَـدُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ أى: كفروا بها و كـذبوها و أنكروا المعجزات وَ عَصَوْا رُسُـلَهُ أى: هودا وحـده، لأنه لم يكن فى عصـره رسول سواه، و إنما جمع هنا لأنّ من كـذب رسولا فقـد كـذب جميع الرسل؛ و قيل: إنهم عصوا هودا و من كـان قبله من الرسـل، أو كانوا بحيث لو بعث اللّه إليهم رسـلا متعـدّدين لكـذبوهم وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيـدٍ الجبار المتكبر، و العنيـد: الطاغى الـذى لا يقبل الحق و لا يـذعن له. قال أبو عبيـدة: العنيـد و العنود و العانـد و المعانـد، و هو المعارض بالخلاف منه، و منه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم عاند. قال الراجز:

إنّى كبير لا أطيق العنّدا وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أى: ألحقوها، و هى الإبعاد من الرحمة، و الطرد من الخير، و المعنى:

أنها لازمـة لهم لا تفارقهم ما داموا فى الـدنيا وَ أتبعوها يَوْمَ الْقِيامَـةِ فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أى: بربهم. و قـال الفراء: كفروا نعمـة ربهم، يقال: كفرته، و كفرت به: مثل: شـكرته و شـكرت له أَلا بُعْـداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ أى: لا زالوا مبعدين من رحمة اللّه، و البعد:

الهلاك، و البعد: التباعد من الخير، يقال: بعد يبعد بعدا: إذا تأخر و تباعد، و بعد يبعد بعدا: إذا هلك، و منه قول الشاعر:

لا يبعدن قومى الّذين همسمّ العداة و آفة الجزر

و قال النابغة:

فلا تبعدن إنّ المنيّة منهلو كلّ امرئ يوما به الحال زائل

و منه قول الشاعر:

ما كان ينفعنى مقال نسائهمو قتلت دون رجالهم لا تبعد

و قد تقدّم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: إِلَّا عَلَى الَّذِی فَطَرَنِی

أى: خلقنى. و أخرج ابن عساكر عن الضحاك قال: أمسك اللّه عن عاد القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً فأبوا إلا تماديا. و أخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله: يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً قال: المطر. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ قال: شدّة إلى شدّتكم.

و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن عكرمة فى قوله: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ قال: ولد الولد.

و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قال: أصابتك بالجنون. و أخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن سعيد قال: ما من أحد يخاف لصا عاديا، أو سبعا ضاريا؛ أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه اللّه عنه. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد: إِنَّ رَبِّی عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ قال: الحق. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: عَذابٍ غَلِيظٍ قال:

شديد. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ قال: المشرك. و أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال: العنيد: المشاقّ. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى فى قوله:

وَ أُتْبِعُوا فِی هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً قال: لم يبعث نبىّ بعد عاد إلا لعنت على لسانه. و أخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال: تتابعت عليهم لعنتان من اللّه: لعنة فى الدنيا، و لعنة فى الآخرة.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۶۱ الى ۶۸]

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّی قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِی شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی وَ آتانِی مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِی مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِی غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِی أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِی دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

قوله: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً معطوف على ما تقدّم، و التقدير: و أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، و الكلام فيه و فى قوله: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ كما تقدّم فى قصة هود. و قرأ الحسن و يحيى بن وثّاب: و إلى ثمود بالتنوين فى جميع المواضع. و اختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع و لم يصرفوه فى موضع. فالصرف باعتبار التأويل بالحىّ، و المنع باعتبار التأويل بالقبيلة، و هكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، و أنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة:

غلب المساميح الوليد سماحةو كفى قريش المعضلات و سادها

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أى: ابتدأ خلقكم من الأرض، لأن كل بنى آدم من صلب آدم، و هو مخلوق من الأرض وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها

أى: جعلكم عمارها و سكانها، من قولهم: أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى، فيكون استفعل بمعنى أفعل، مثل: استجاب بمعنى أجاب. و قال الضحاك: معناه: أطال أعماركم، و كانت أعمارهم من ثلاثمائة إلى ألف؛ و قيل: معناه: أمركم بعمارتها من بناء المساكن و غرس الأشجار فَاسْتَغْفِرُوهُ أى: سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ أى: ارجعوا إلى عبادته إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ أى: قريب الإجابة لمن دعا، و قد تقدّم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى: فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ «۱» قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أى: كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيک، و نسعد بسيادتک قبل هذا الذى أظهرته، من ادّعائک النبوّة، و دعوتک إلى التوحيد؛ و قيل: كان صالح يعيب آلهتهم و كانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى اللّه قالوا: انقطع رجاؤنا منک، و الاستفهام فى قوله: أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا للإنكار، أنكروا عليه هذا النهى، و أن نعبد: فى محل نصب بحذف الجار، أى: بأن نعبد، و معنى: ما يعبد آباؤنا: ما كان يعبد آباؤنا، فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة وَ إِنَّنا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ من أربته فأنا أريبه:

إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة، و هى: قلق النفس و انتفاء الطمأنينة، أو من أراب الرجل: إذا كان ذا ريبة، و المعنى: إننا لفى شک مما تدعونا إليه من عبادة اللّه وحده و ترک عبادة الأوثان موقع فى الريب قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى أى: حجّة ظاهرة، و برهان صحيح وَ آتانِى مِنْهُ أى: من جهته رَحْمَةً أى: نبوّة، و هذه الأمور و إن كانت متحققة الوقوع، لكنها صدّرت بكلمة الشک اعتبارا بحال المخاطبين، لأنهم فى شک من ذلک، كما وصفوه عن أنفسهم فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ استفهام معناه النفى، أى: لا ناصر لى يمنعنى من عذاب اللّه إِنْ عَصَيْتُهُ فى تبليغ الرسالة، و راقبتكم، و فترت عما يجب علىّ من البلاغ فَما تَزِيدُونَنِى بتثبيطكم إياى غَيْرَ تَخْسِيرٍ بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى، و التعرّض لعقوبة اللّه لى. قال الفراء: أى: تضليل و إبعاد من الخير؛ و قيل المعنى: فما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم. قوله: وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً قد مرّ تفسير هذه الآية فى الأعراف، و معنى لكم آية: معجزة ظاهرة، و هى منتصبة على الحال، و لكم فى محل نصب على الحال من آية مقدّمة عليها، و لو تأخرت لكانت صفة لها؛ و قيل: إن ناقة: اللّه بدل من هذه، و الخبر لكم، و الأوّل أولى؛ و إنما قال: ناقَةُ اللَّهِ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم؛ و قيل: من صخرة صماء فَذَرُوها تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ أى: دعوها تأكل فى أرض اللّه مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات.

قال أبو إسحاق الزجّاج: و يجوز رفع تأكل على الحال و الاستئناف، و لعله يعنى فى الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا فى الآية، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ قال الفراء: بعقر، و الظاهر أن النهى عما هو أعمّ من ذلک فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ جواب النهى، أى: قريب من عقرها، و ذلک ثلاثة أيام فَعَقَرُوها أى: فلم يمتثلوا الأمر من صالح و لا النهى، بل خالفوا كل ذلک فوقع منهم

---

(۱). البقرة: ۱۸۶.

العقر لها فَقالَ لهم صالح: تَمَتَّعُوا فِى دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ أى: تمتعوا بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام، فإنّ العقاب نازل عليكم بعدها؛ قيل: إنهم عقروها يوم الأربعاء، فأقاموا الخميس و الجمعة و السبت و أتاهم العذاب يوم الأحد، و الإشارة بقوله: ذلِكَ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ أى: غير مكذوب فيه، فحذف الجارّ اتساعا، أو من باب المجاز كأن الوعد إذا و فى به، صدق و لم يكذب، و يجوز أن يكون مصدرا، أى: وعد غير كذب فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا أى: عذابنا، أو أمرنا بوقوع العذاب نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا قد تقدّم تفسير هذا فى قصة هود وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ أى: و نجيناهم من خزى يومئذ و

هو هلاكهم بالصيحة، و الخزى: الذل و المهانة؛ و قيل: من عذاب يوم القيامة، و الأوّل أولى. و قرأ نافع و الكسائى: بفتح يوم، على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه. و قرأ الباقون: بالكسر إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ أى: فى اليوم الرابع من عقر الناقة، صيح بهم فماتوا، و ذكر الفعل لأن الصيحة و الصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى؛ قيل: صيحة جبريل، و قيل: صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم و ماتوا، و تقدّم فى الأعراف: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ «١» قيل: و لعلها وقعت عقب الصيحة فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ أى: ساقطين على وجوههم، موتى قد لصقوا بالتراب، كالطير إذا جثمت كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أى: كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم، و الجملة فى محل نصب على الحال، و التقدير: مماثلين لمن لم يوجد و لم يقم فى مقام قط أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان، و صرح بكفرهم مع كونه معلوما: تعليلا للدعاء عليهم بقوله: أَلا بُعْداً لِثَمُودَ و قرأ الكسائى: بالتنوين. و قد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما فى إحدى القصّتين من الفوائد إلى الأخرى.

و قد أخرج أبو الشيخ عن السدى هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قال: خلقكم من الأرض. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها قال: أعمركم فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها قال: استخلفكم فيها. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خسارا. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله: فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ قال: ميتين. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها قال: كأن لم يعيشوا فيها.

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عنه، قال: كأن لم يعمروا فيها. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال: كأن لم ينعموا فيها.

[سورة هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦]

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

---

(١). الأعراف: ٧٨.

هذه قصّة لوط عليه السلام و قومه، و هو ابن عمّ إبراهيم عليه السلام، و كانت قرى لوط بنواحى الشام، و إبراهيم ببلاد فلسطين. فلما أنزل اللّه الملائكة بعذاب قوم لوط مرّوا بإبراهيم و نزلوا عنده، و كان كلّ من نزل عنده يحسن قراه، و كان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة، فظنهم أضيافا، و هم جبريل و ميكائيل و إسرافيل. و قيل: كانوا تسعة، و قيل: أحد عشر، و البشرى التى بشروه بها: هى بشارته بالولد؛ و قيل: بإهلاك قوم لوط، و الأولى أولى قالُوا سَلاماً منصوب بفعل مقدر، أى: سلمنا عليك سلاما قالَ سَلامٌ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: أمركم سلام، أو مرتفع على أنه مبتدأ، و الخبر محذوف، و التقدير: عليكم سلام فَما لَبِثَ أى: إبراهيم أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ قال أكثر النحويين أَنْ هنا بمعنى حتى، أى: فما لبث حتى جاء؛ و

قيل: إنها فى محل نصب بسقوط حرف الجر، و التقدير فما لبث عن أن جاء، أى: ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، و ما: نافية قاله سيبويه. و قال الفراء فما لبث مجيئه أى: ما أبطأ مجيئه، و قيل: إن ما موصولة و هى مبتدأ، و الخبر: أن جاء بعجل حنيذ و التقدير: فالذى لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ، و الحنيذ: المشوىّ مطلقا، و قيل: المشوىّ بحرّ الحجارة من غير أن تمسّه النار، يقال: حنذ الشاة يحنذها: جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ؛ و قيل معنى حنيذ: سمين؛ و قيل: الحنيذ هو السّميط؛ و قيل: النّضيج، و هو فعيل بمعنى مفعول، و إنما جاءهم بعجل، لأن البقر كانت أكثر أمواله فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ أى: لا يمدونها إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل نَكِرَهُمْ يقال: نكرته و أنكرته و استنكرته: إذا وجدته على غير ما تعهد، و منه قول الشاعر:

فأنكرتنى و ما كان الذى نكرتمن الحوادث إلا الشّيب و الصّلعا

فجمع بين اللغتين، و مما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتهاخرجت مع البازىّ علىّ سواد

و قيل يقال: أنكرت لما تراه بعينك، و نكرت لما تراه بقلبك، قيل: و إنما استنكر منهم ذلك، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم و لم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشرّ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ أى: أحسّ فى نفسه منهم خِيفَةً أى: خوفا و فزعا؛ و قيل معنى أوجس: أضمر فى نفسه خيفة، و الأول ألصق بالمعنى اللغوى، و منه قول الشاعر:

جاء البريد بقرطاس يخبّ بهفأوجس القلب من قرطاسه جزعا

و كأنه ظنّ أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره، لتعذيب قومه قالُوا لا تَخَفْ قالوا له هذه المقالة مع كونه

لم يتكلم بما يدل على الخوف، بل أوجس ذلك فى نفسه، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه، أو قالوه له بعد ما قال- عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة-: قولا يدلّ على الخوف كما فى قوله فى سورة الحجر: قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ «1»، و لم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هناك، ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم: إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ أى: أرسلنا إليهم خاصة، و يمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه، قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ- قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ و جملة وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فى محل نصب على الحال، قيل: كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر، و قيل: كانت قائمة تخدم الملائكة و هو جالس، و الضحك هنا: هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور. و قال مجاهد و عكرمة: إنه الحيض، و منه قول الشاعر:

و إنّى لآتى العرس عند طهورهاو أهجرها يوما إذا تك ضاحكا

و قال الآخر:

و ضحك الأرانب فوق الصّفاكمثل دم الجوف يوم اللقا

و العرب تقول ضحكت الأرانب: إذا حاضت. و قد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك. و قال الفراء: فيه تقديم و تأخير. و المعنى: فبشرناها فضحكت سرورا بالولد. و قرأ محمد بن زياد من قراء مكة: فضحكت بفتح الحاء، و أنكره المهدوى وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قرأ حمزة و ابن عامر و حفص: بنصب يعقوب، على أنه مفعول فعل دل عليه فبشرناها، كأنه قال: و وهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب. و أجاز الكسائى و الأخفش و أبو حاتم أن يكون يعقوب فى موضع جرّ. و قال الفرّاء: لا يجوز الجرّ إلا بإعادة حرفه. قال سيبويه: و لو قلت مررت بزيد أوّل من أمس، و أمس عمر، كان قبيحا خبيثا، لأنك فرقت بين المجرور و ما يشركه كما يفرق بين الجار و

المجرور. و قرأ الباقون برفع يعقوب على أنه مبتدأ و خبره الظرف الذى قبله، و قيل:
الرفع بتقدير فعل محذوف، أى: و يحدث لها، أو و ثبت لها. و قد وقع التبشير هنا لها، و وقع لإبراهيم فى قوله تعالى فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ «٢»- وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ «٣»، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، و جملة قالَتْ يا وَيْلَتى مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل: فماذا قالت؟ قال الزجاج:
أصلها يا ويلتى، فأبدل من الياء ألف لأنها أخفّ من الياء و الكسرة، و هى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، و لكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه، و أصل الويل: الخزى، ثم شاع فى كل أمر فظيع، و الاستفهام فى قولها: أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ للتعجب، أى: كيف ألد و أنا شيخة قد طعنت فى السنّ، يقال: عجزت تعجز مخففا و مثقلا- عجزا و تعجيزا، أى: طعنت فى السنّ، و يقال عجوز و عجوزة، و أما عجزت بكسر الجيم: فمعناه عظمت عجيزتها، قيل: كانت بنت تسع و تسعين، و قيل:
بنت تسعين وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً أى: و هذا زوجى إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء، و شيخا: منتصب

---

(١). الحجر: ٥٢.

(٢). الصافات: ١٠١.

(٣). الذاريات: ٢٨.

على الحال، و العامل فيه معنى الإشارة. قال النحاس: و فى قراءة أبيّ و ابن مسعود شيخ: بالرفع على أنه خبر المبتدأ، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف؛ و على الأول يكون بَعْلِي بدلا من اسم الإشارة؛ قيل:
كان إبراهيم ابن مائة و عشرين سنة؛ و قيل: ابن مائة، و هذه المبشرة هى: سارة امرأة إبراهيم. و قد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل، فتمنت سارة أن يكون لها ابن و أيست منه لكبر سنها، فبشرها اللّه به على لسان ملائكته إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ أى: ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد- مع كونها فى هذه السنّ العالية التى لا يولد لمثلها- شى‏ء يقضى منه العجب، و جملة قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، و الاستفهام فيها للإنكار، أى: كيف تعجبين من قضاء اللّه و قدره، و هو لا يستحيل عليه شى‏ء، و إنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوّة، و لا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، و لهذا قالوا: رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أى:
الرحمة التى وسعت كل شى‏ء و البركات و هى النموّ و الزيادة و قيل الرحمة: النبوّة، و البركات: الأسباط من بنى إسرائيل لما فيهم من الأنبياء، و انتصاب: أهل البيت، على المدح أو الاختصاص، و صرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم إِنَّهُ حَمِيدٌ أى: يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة مَجِيدٌ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات، و الجملة تعليل لقوله: رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ قوله: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ أى: الخيفة التى أوجسها فى نفسه، يقال ارتاع من كذا: إذا خاف، و منه قول النابغة:
فارتاع من صوت كلّاب فبات له طوع الشّوامت من خوف و من صرد
وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى أى: بالولد، أو بقولهم: لا- تخف. قوله: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ. قال الأخفش و الكسائى: إن يجادلنا فى موضع جادلنا، فيكون هو جواب: لما، لما تقرّر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل. قال النحّاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط؛ و قيل: إن الجواب محذوف، و يجادلنا فى موضع نصب على الحال، قاله الفراء، و

تقدیره: فلما ذهب عنه الروع و جاءته البشری اجترأ علی خطابنا حال کونه یجادلنا، أی: یجادل رسلنا؛ و قیل: إن المعنی: أخذ یجادلنا، و مجادلته لهم قیل:

إنه لما سمع قولهم: إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ قال: أ رأیتم إن کان فیهم خمسون من المسلمین أ تهلکونهم؟

قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، ثم قال: فعشرة، فخمسة؟ قالوا لا. قال: فواحد؟ قالوا: لا، قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ الآیة، فهذا معنی مجادلته فی قوم لوط: أی: فی شأنهم و أمرهم. ثم أثنوا علی إبراهیم، أو أثنی اللّه علیه فقال إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أی لیس بعجول فی الأمور، و لا بموقع لها علی غیر ما ینبغی. و الأوّاه: کثیر التأوّه، و المنیب: الراجع إلی اللّه. و قد تقدّم فی براءة الکلام علی الأوّاه. قوله: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا هذا قول الملائکة له، أی: أعرض عن هذا الجدال فی أمر قد فرغ منه، و جفّ به القلم، و حق به القضاء إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ الضمیر للشأن، و معنی مجیء أمر اللّه: مجیء عذابه الذی قدّره علیهم، و سبق به قضاؤه وَ إِنَّهُمْ

فتح القدیر، ج۲، ص: ۵۸۱

آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ أی: لا یردّه دعاء و لا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة، و نازل بهم علی کل حال، لیس بمصروف و لا مدفوع.

و قد أخرج ابن أبی حاتم عن عثمان بن محصن فی ضیف إبراهیم قال: کانوا أربعة: جبریل، و میکائیل، و إسرافیل، و رافائیل. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر عن ابن عباس فی قوله: بِعِجْلٍ حَنِيذٍ قال:

نضیج. و أخرج ابن أبی حاتم عنه قال: مشویّ. و أخرج أبو الشیخ عنه أیضا قال: سمیط. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن الضحاک قال: الحنیذ الذی أنضج بالحجارة. و أخرج ابن أبی حاتم عن یزید ابن أبی یزید البصری فی قوله: فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ قال: لم یر لهم أیدیا فنکرهم. و أخرج عبد الرزاق، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن قتادة فی قوله: نَكِرَهُمْ قال: کانوا إذا نزل بهم ضیف فلم یأکل من طعامهم ظنّوا أنه لم یأت بخیر، و أنه یحدّث نفسه بشرّ، ثم حدّثوه عند ذلک بما جاءوا فیه، فضحکت امرأته. و أخرج ابن المنذر عن المغیرة قال: فی مصحف ابن مسعود و امرأته قائمة و هو جالس. و أخرج ابن أبی حاتم عن مجاهد: وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ قال: فی خدمة أضیاف إبراهیم.

و أخرج عبد الرزاق، و ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن قتادة قال: لما أوجس إبراهیم فی نفسه خیفة حدّثوه عند ذلک بما جاءوا فیه، فضحکت امرأته تعجبا مما فیه قوم لوط من الغفلة، و مما أتاهم من العذاب. و أخرج عبد بن حمید، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشیخ عن ابن عباس:

فَضَحِكَتْ قال: فحاضت و هی بنت ثمان و تسعین سنة. و أخرج ابن جریر عن مجاهد فی قوله:

فَضَحِكَتْ قال: حاضت و کانت ابنة بضع و تسعین سنة، و کان إبراهیم ابن مائة سنة. و أخرج أبو الشیخ عن عکرمة قال: حاضت. و أخرج أبو الشیخ عن ابن عمر مثله. و أخرج ابن جریر، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن ابن عباس فی قوله: وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قال: هو ولد الولد. و أخرج ابن الأنباری فی کتاب الوقف و الابتداء عن حسان بن أبجر قال: کنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذیل، فقال له ابن عباس: ما فعل فلان؟ قال: مات و ترک أربعة من الولد و ثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس:

فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قال: ولد الولد. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و الحاکم، و أبو الشیخ، و البیهقی فی الشعب، من طرق عن ابن عباس: أنه کان ینهی عن أن یزاد فی جواب التحیة علی قولهم: علیکم السلام و رحمة اللّه و برکاته، و یتلو هذه الآیة رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ و أخرج البیهقی عن ابن عمر نحوه. و أخرج ابن جریر، و ابن

المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ قال: الفرق. يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ قال: يخاصمنا. و أخرج عبد الرزاق، و أبو الشيخ عن قتادهٔ فى تفسير المجادلهٔ قال: إنه قال لهم يومئذ: أ رأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم، قال: أربعون؟ قالوا: و أربعون، قال: ثلاثون؟ قالوا: و ثلاثون، حتى بلغوا عشرهٔ، قالوا: إن كان فيهم عشرهٔ لم نعذبهم، قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرهٔ فيهم خير؟ قال قتادهٔ: إنه كان فى قريهٔ لوط أربعهٔ آلاف ألف إنسان، أو ما

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۲

شاء اللّه من ذلک. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: لما جاءت الملائکهٔ إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم: إن كان فيها خمسهٔ يصلّون رفع عنهم العذاب. و أخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال: الأوّاه:
الرحيم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المنيب: المقبل إلى طاعهٔ اللّه. و أخرج ابن أبى حاتم عن قتادهٔ قال: المنيب: المخلص.

[سورهٔ هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (٧٩) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)
فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

لما خرجت الملائکهٔ من عند إبراهيم، و كان بين إبراهيم و قريهٔ لوط أربعهٔ فراسخ، جاءوا إلى لوط، فلما رآهم لوط، و كانوا فى صورهٔ غلمان حسان مرد سِيءَ بِهِمْ أى: ساءه مجيئهم، يقال: ساءه يسوءه، و أصل سيئ بهم: سوئ بهم، نقلت حركهٔ الواو إلى السين فقلبت الواو ياء، و لما خففت الهمزهٔ ألقيت حركتها على الياء. و قرأ نافع، و ابن عامر، و الكسائى، و أبو عمرو بإشمام السين الضم وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً قال الأزهرى: الذرع يوضع موضع الطاقهٔ، و أصله أن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعهٔ خطوه: أى:
يبسطها، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلک، فجعل ضيق الذرع كنايهٔ عن قلهٔ الوسع و الطاقهٔ و شدّهٔ الأمر؛ و قيل: هو من: ذرعه القيء: إذا غلب و ضاق عن حبسه. و المعنى: أنه ضاق صدره لما رأى الملائکهٔ فى تلک الصورهٔ خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم و ارتكابهم لفاحشهٔ اللواط وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ أى: شديد. قال الشاعر:
و إنّک إلّا ترض بكر بن وائل يكن لک يوم بالعراق عصيب
يقال: عصيب و عصبصب و عصوصب على التكثير: أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر، و منه قيل عصبهٔ و عصابهٔ: أى مجتمعو الكلمهٔ، و رجل معصوب: أى مجتمع الخلق وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ أى:
جاءوا لوطا، الجملهٔ فى محل نصب على الحال. و معنى يهرعون إليه: يسرعون إليه. قال الكسائى و الفراء و غيرهما من أهل اللغهٔ:
لا يكون الإهراع إلا إسراع مع رعدهٔ، يقال أهرع الرجل إهراعا: أى أسرع فى رعدهٔ من برد أو غضب أو حمى، قال مهلهل:

فجاؤوا يهرعون و هم أسارى‌نقودهم على رغم الأنوف

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۳

و قيل يهرعون: يهرولون، و قيل: هو مشى بين الهرولة و العدو. و المعنى: أنّ قوم لوط لما بلغهم مجىء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أى: و من قبل مجىء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات؛ و قيل: و من قبل لوط كانوا يعملون السيئات، أى: كانت عادتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط، و قصدوا أضيافه لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعا و قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أى: تزوّجوهنّ، و دعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافى، و قد كان له ثلاث بنات، و قيل: اثنتان، و كانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهنّ فيمتنع لخبثهم، و كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه؛ و قيل: أراد بقوله: هؤُلاءِ بَناتِي النساء جملة، لأن نبىّ القوم أب لهم، و قالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة و لم يرد الحقيقة.

و معنى: هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ أى: أحلّ و أنزه؛ و التطهر: التنزه عما لا يحلّ، و ليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هى مثل «اللّه أكبر». و قرأ الحسن و عيسى بن عمر بنصب أطهر، و قرأ الباقون بالرفع؛ و وجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ و خبره بناتى، و هنّ ضمير فصل، و أطهر حال. و قد منع الخليل و سيبويه و الأخفش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عمادا إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتمّ الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أى: اتقوا اللّه بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، و لا تذلونى و تجلبوا علىّ العار فى ضيفى، و الضيف: يطلق على الواحد و الاثنين و الجماعة، لأنه فى الأصل مصدر، و منه قول الشاعر:

لا تعدمى الدّهر شفار الجازرللضّيف و الضّيف أحقّ زائر

و يجوز فيه التثنية و الجمع، و الأوّل أكثر. يقال: خزى الرجل خزاية: أى استحيا أو ذلّ أو هان، و خزى خزيا: إذا افتضح، و معنى فى ضيفى: فى حق ضيفى، فخزى الضيف خزى للمضيف، ثم وبخهم فقال:

أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح. و يمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به، و أرشدهم إليه بقولهم: ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ أى ما لنا فيهم من شهوة و لا حاجة، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق. و معنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور و شدّة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء؛ و يمكن أن يريدوا:

أنه لا حق لنا فى نكاحهنّ، لأنه لا ينكحهنّ و يتزوج بهن إلا مؤمن و نحن لا نؤمن أبدا، و قيل: إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردّهم، و كان من سنتهم أن من خطب فردّ فلا تحل المخطوبة أبدا وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة و أنهم لا يتركون ما قد طلبوه قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً و جواب لو محذوف، و التقدير: لدافعتكم عنهم و منعتكم منهم، و هذا منه عليه السلام على طريق التمنى: أى: لو وجدت معينا و ناصرا، فسمى ما يتقوّى به قوّة أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ عطف على ما بعد لو لما فيه من معنى الفعل، و التقدير: لو قويت على دفعكم أو آويت إلى ركن شديد.

و قرئ أَوْ آوِي بالنصب عطفا على قوّة كأنه قال: لو أن لى بكم قوّة أو إيواء إلى ركن شديد؛ و مراده

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۴

بالركن الشديد: العشيرة، و ما يمتنع به عنهم هو و من معه؛ و قيل: أراد بالقوّة الولد، و بالركن الشديد:

من ينصره من غير ولده؛ و قيل أراد بالقوة: قوته فى نفسه. و لما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة، و وجدوا قومه قد غلبوه و عجز عن مدافعتهم قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ أخبروه أوّلا أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم: لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ و

هذه الجملة موضّحة لما قبلها، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند اللّه إليه لم يصل عدوّه إليه و لم يقدروا عليه؛ ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ قرأ نافع و ابن كثير بالوصل، و قرأ غيرهما بالقطع، و هما لغتان فصيحتان. قال اللّه تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ و قال سُبْحانَ الَّذِی أَسْرى و قد جمع الشاعر بين اللغتين فقال:

حىّ النّضيرة ربّة الخدرأسرت إليك و لم تكن تسرى

و قيل: إن أسرى للمسير من أول الليل، و سرى للمسير من آخره، و القطع من الليل: الطائفة منه.

قال ابن الأعرابى: بقطع من الليل: بساعة منه، و قال الأخفش: بجنح من الليل، و قيل: بظلمة من الليل، و قيل: بعد هدوّ من الليل.

قيل: إن السرى لا يكون إلا فى الليل، فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل:

لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون فى أوّله قبل اجتماع الظلمة، و ليس ذلك بمراد وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أى: لا ينظر إلى ما وراءه، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره. قيل: وجه النهى عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم، و هول ما نزل بهم فيرحموهم و يرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات، فإنه لا بدّ للملتفت من فترة فى سيره إِلَّا امْرَأَتَكَ بالنصب على قراءة الجمهور، و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بالرفع على البدل، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ أى: أسر بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها، ف إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ من العذاب، و هو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة؛ و أنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد و قال: لا يصحّ ذلك إلا برفع يلتفت و يكون نعتا، لأن المعنى يصير إذا أبدلت و جزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات و ليس المعنى كذلك. قال النحاس:

و هذا العمل من أبى عبيد و غيره على مثل أبى عمرو مع جلالته و محله من العربية لا يجب أن يكون، و الرفع على البدل له معنى صحيح، و هو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات؛ أى: لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت و تهلك؛ و قيل: إن الرفع على البدل من أحد، و يكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف، فكأنه قال: و لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك، فإنها تتخلف، و الملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين، و الضمير فى: إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ للشأن؛ و الجملة خبر إنّ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ هذه الجملة تقليل لما تقدّم من الأمر بالإسراء و النهى عن الالتفات، و المعنى: أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، و الاستفهام فى أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ للإنكار التقريرى، و الجملة تأكيد للتعليل. و قرأ عيسى بن عمر أَ لَيْسَ الصُّبُحُ بضم الباء و هى لغة، و لعلّ جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن و الناس فيه مجتمعون لم يتفرّقوا إلى أعمالهم فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا أى: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر: نفس العذاب جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها أى: عالى قرى لوط سافلها،

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۵

و المعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، و هى كون عاليها صار سافلها و سافلها صار عاليها، و ذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ قيل: إنه يقال أمطرنا فى العذاب و مطرنا فى الرحمة؛ و قيل: هما لغتان، يقال مطرت السماء و أمطرت، حكى ذلك الهروى، و السّجّيل: الطين المتحجّر بطبخ أو غيره؛ و قيل: هو الشديد الصلب من الحجارة؛ و قيل:

السّجّيل: الكثير؛ و قيل: إنّ السجيل لفظة غير عربية، أصله سج و جيل، و هما بالفارسية حجر و طين عرّبتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا؛ و قيل: هو من لغة العرب. و ذكر الهروى: أن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية: و هذا ضعيف يردّه وصفه بمنضود؛ و قيل هو بحر معلق فى الهواء بين السماء و الأرض؛ و قيل هى جبال فى السماء. و قال الزجاج: هو من التسجيل لهم: أى ما كتب لهم من العذاب فهو فى معنى سجين، و منه قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما

سِجِّينٌ- كِتابٌ مَرْقُومٌ «۱» و قيل: هو من أسجلته إذا أعطيته، فكأنه عذاب أعطوه، و منه قول الشاعر:

من يساجلنى يساجل ما جدايملأ الدّلو إلى عقد الكرب

و معنى: مَنْضُودٍ أنه نضد بعضه فوق بعض، و قيل: بعضه فى أثر بعض، يقال: نضدت المتاع:

إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود و نضيد، و المسوّمة: المعلمة، أى: التى لها علامة، قيل: كان عليها أمثال الخواتيم؛ و قيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمى به. و قال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة و سواد فى بياض. فذلك تسويمها؛ و معنى: عِنْدَ رَبِّكَ فى خزائنه وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ أى: و ما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين و هم قوم لوط ببعيد، أو ما هى من كل ظالم من الظلمة و منهم كفار قريش و من عاضدهم على الكفر بمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها. و قيل: وَ ما هِيَ أى: قرى مِنَ الظَّالِمِينَ من كفر بالنبىّ بِبَعِيدٍ فإنها بين الشام و المدينة. و فى إمطار الحجارة قولان: أحدهما: أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل. و الثانى: أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها و كان خارجا عنها. و تذكير البعيد: على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف مذكر، أى:

شىء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرا، كالزّفير و الصّهيل، و المصادر يستوى فى الوصف بها المذكر و المؤنث.

و قد أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً قال: ساء ظنا بقومه، و ضاق ذرعا بأضيافه وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ يقول: شديد. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه فى قوله: يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ قال: يسرعون وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قال: يأتون الرجال. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عنه أيضا قال: يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ يستمعون إليه. و أخرج أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله: هؤُلاءِ بَناتِي قال: ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحا و لا نكاحا، إنما قال هؤلاء نساؤكم، لأن النبىّ إذا كان بين ظهرانى قوم فهو أبوهم، قال اللّه تعالى فى القرآن: «و أزواجه أمّهاتهم و هو أبوهم» فى قراءة أبىّ. و أخرج ابن جرير، و ابن

---

(۱). المطففين: ۸- ۹.

أبى حاتم عن مجاهد قال: لم تكن بناته و لكن كن من أمّته، و كل نبىّ أبو أمّته. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه. و أخرج ابن أبى الدنيا، و ابن عساكر عن السدّى نحوه. قال: و فى قراءة عبد اللّه «النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و هو أب لهم و أزواجه أمهاتهم». و أخرج ابن أبى حاتم عن حذيفة ابن اليمان قال: عرض عليهم بناته تزويجا، و أراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله: وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي قال: لا تفضحونى. و أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قال: رجل يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر. و أخرج أبو الشيخ و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن ابن عباس أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قال: واحد يقول: لا إله إلا اللّه. و أخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدّى وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ قال: إنما نريد الرجال قالَ لوط لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ يقول: إلى جند شديد لمقاتلتكم. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس: أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ قال: عشيرة. و قد ثبت فى البخارى و غيره من حديث أبى هريرة أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يغفر اللّه للوط إن «۱» كان ليأوى إلى ركن شديد».

و هو مروىّ فى غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عباس: بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ قال: جوف الليل. و أخرجا عنه قال: بسواد الليل. و أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال: بطائفة من الليل. و أخرج ابن أبى حاتم

عن ابن عباس فی قوله: وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ قال: لا يتخلف. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم عن مجاهد فی قوله: وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ قال: لا ينظر وراءه أحد إِلَّا امْرَأَتَكَ و أخرج أبو عبيد و ابن جرير عن هارون قال:
فی حرف ابن مسعود «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك». و أخرج ابن جرير عن مجاهد فی قوله:
فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها قال: لما أصبحوا عدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافی جناحه بما فيها ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أوّل ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قوما ما أصابهم، ثم إن اللّه طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، و أمطر عليهم حجارة من سجيل و قد ذكر المفسرون روايات و قصصا فی كيفية هلاک قوم لوط طويلة متخالفة، و ليس فی ذكرها فائدة، لا سيما و بين من قال بشیء من ذلک و بين هلاک قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فی مثله إسناد صحيح، و غالب ذلک مأخوذ عن أهل الكتاب، و حالهم فی الرواية معروف.
و قد أمرنا بأنا لا نصدّقهم و لا نكذبهم، فاعرف هذا، فهو الوجه فی حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة فی قصص الأنبياء و قومهم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبی حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فی قوله:
وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ قال: يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم. و أخرج ابن أبی حاتم عن السدّی فی الآية قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ، و ابن أبی حاتم عن قتادة قال: من ظالمی هذه الأمة.

---

(١). إن: مخففة من الثقيلة و المعنى: إنه كان يأوی إلى ركن شديد و هو اللّه تعالى، كما ورد فی آثار أخرى.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۷

[سورة هود (11): الآيات ۸۴ الى ۹۵]

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸)
وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (۹۱) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳)
وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

أی: و أرسلنا إلى مدين- و هم قوم شعيب- أخاهم فی النّسب شعيبا، و سمّوا مدين: باسم أبيهم، و هو مدين بن إبراهيم؛ و قيل:

باسم مدينتهم. قال النحاس: لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة، و قد تقدّم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا، و قد تقدّم تفسير: قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ فى أوّل السورة، و هذه الجملة مستأنفة؛ كأنه قيل: ماذا قال لهم شعيب لما أرسله اللّه إليهم؟ و قد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه، أمرهم أوّلا بعبادة اللّه سبحانه الذى هو الإله وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال و الميزان، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد و كذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، و إذا باعوا باعوا بكيل ناقص و وزن ناقص؛ و جملة: إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ تعليل للنهى، أى: لا تنقصوا المكيال و الميزان لأنى أراكم بخير، أى: بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة اللّه عليكم بمعصيته و الإضرار بعباده، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها، ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى، فقال: وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا؛ و وصف اليوم بالإحاطة و المراد: العذاب، لأن العذاب واقع فى اليوم؛ و معنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يشذ منهم أحد عنه و لا يجدون منه ملجأ و لا مهربا، و اليوم هو يوم القيامة، و قيل: هو يوم

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۸

الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة؛ ثم أكد النهى عن نقص الكيل و الوزن بقوله: وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ و الإيفاء: هو الإتمام، و القسط: العدل، و هو عدم الزيادة و النقص و إن كان الزيادة على الإيفاء فضل و خير، و لكنها فوق ما يفيده اسم العدل، و النهى عن النقص و إن كان يستلزم الإيفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة و تأكيد حسن، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ قد مرّ تفسير هذا فى الأعراف، و فيه النهى عن البخس على العموم، و الأشياء أعمّ مما يكال و يوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل و الوزن فى هذا دخولا أوّليا؛ و قيل: البخس المكس خاصة، ثم قال: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قد مرّ أيضا تفسيره فى البقرة، و العثى فى الأرض: يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس، فيدخل فيه ما فى السياق من نقص المكيال و الميزان؛ و قيده بالحال و هو قوله: مُفْسِدِينَ ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض، و المقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ أى:

ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا و بركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف و البخس و الفساد فى الأرض، ذكر معناه ابن جرير و غيره من المفسرين. و قال مجاهد: بقية اللّه: طاعته. و قال الربيع:

وصيته. و قال الفراء: مراقبته، و إنما قيد ذلك بقوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، أو المراد بالمؤمنين هنا: المصدّقون لشعيب وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف و البخس و غيرهما، أو أحفظ عليكم أعمالكم و أحاسبكم بها و أجازيكم عليها، و جملة:

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل:

فماذا قالوا لشعيب؟ و قرئ أَ صَلاتُكَ من غير جمع، و أن نترك فى موضع نصب. و قال الكسائى:

موضعها خفض على إضمار الباء، و مرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان، و الاستفهام للإنكار عليه و الاستهزاء به، لأنّ الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه؛ و تذليل صعوبته؛ كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب: أصدقتك أمرتك بهذا؛ و قيل: المراد بالصلاة هنا القراءة، و قيل: المراد بها الدين، و قيل: المراد بالصلوات أتباعه، و منه المصلى الذى يتلو السابق؛ و هذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة اللّه وحده، و قولهم: أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل و الوزن، و نهيهم عن نقصهما و عن بخس الناس و عن العثى فى الأرض، و هذه الجملة معطوفة على ما فى ما يَعْبُدُ آباؤُنا. و المعنى: أ صلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، و تأمرك أن

نترک أن نفعل فی أموالنا ما نشاء من الأخذ و الإعطاء و الزيادة و النقص. و قرئ تفعل ما تشاء بالفوقية فيهما. قال النحاس: فتکون أو: على هذه القراءة للعطف على: أن، الأولى، و التقدير: أ صلواتک تأمرک أن تفعل فی أموالنا ما تشاء. و قرئ نَفْعَلَ بالنون و ما تشاء بالفوقية، و معناه: أ صلواتک تأمرک أن نفعل نحن فی أموالنا ما تشاؤه أنت و ندع ما نشاؤه نحن و ما يجرى به التّراضى بيننا؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا: إِنَّکَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ على طريقة التهکم به، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما، أو يريدون إنک لأنت الحليم الرشيد عند نفسک و فی اعتقادک، و معناهم: أن هذا الذى نهيتنا عنه و أمرتنا به يخالف ما

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۸۹

تعتقده فی نفسک من الحلم و الرشد؛ و قيل: إنهم قالوا ذلک لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم کذلک، و أنکروا عليه الأمر و النهى منه لهم بما يخالف الحلم و الرشد فی اعتقادهم. و قد تقدّم تفسير الحلم و الرشد، و جملة: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّی مستأنفة کالجمل التى قبلها؛ و المعنى: أخبرونى إن کنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتکم به و نهيتکم عنه وَ رَزَقَنِی مِنْهُ أى: من فضله و خزائن ملکه رِزْقاً حَسَناً أى: کثيرا واسعا حلالا طيبا، و قد کان عليه السلام کثير المال؛ و قيل: أراد بالرزق النبوّة، و قيل: الحکمة، و قيل: العلم، و قيل: التوفيق، و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الکلام، تقديره: أترک أمرکم و نهيکم، أو أ تقولون فی شأنى: ما تقولون مما تريدون به السّخرية و الاستهزاء وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَکُمْ إِلى ما أَنْهاکُمْ عَنْهُ أى: و ما أريد بنهيى لکم عن التطفيف و البخس أن أخالفکم إلى ما نهيتکم عنه فأفعله دونکم، يقال: خالفه إلى کذا: إذا قصده و هو مولّ عنه، و خالفته عن کذا: فی عکس ذلک إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ أى: ما أريد بالأمر و النهى إلا الإصلاح لکم و دفع الفساد فی دينکم و معاملاتکم مَا اسْتَطَعْتُ ما بلغت إليه استطاعتى، و تمکنت منه طاقتى وَ ما تَوْفِيقِی إِلَّا بِاللَّهِ أى: ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد اللّه سبحانه و إقدارى عليه و منحى إياه عَلَيْهِ تَوَکَّلْتُ فی جميع أمورى التى منها أمرکم و نهيکم وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أى: أرجع فی کل ما نابنى من الأمور و أفوّض جميع أمورى إلى ما يختاره لى من قضائه و قدره، و قيل معناه: و إليه أرجع فی الآخرة؛ و قيل: إن الإنابة: الدعاء، و معناه: و له أدعو. قوله: وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّکُمْ شِقاقِی قال الزجاج: معناه لا يکسبنکم شقاقى إصابة العذاب إياکم کما أصاب من کان قبلکم؛ و قيل معناه: لا يحملنکم شقاقى، و الشقاق: العداوة، و منه قول الأخطل:

ألا من مبلغ عنّى رسولافکيف وجدتم طعم الشّقاق

و أَنْ يُصِيبَکُمْ فی محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنکم مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ من الريح أَوْ قَوْمَ صالِحٍ من الصيحة، و قد تقدّم تفسير: يجرمنکم، و تفسير: الشقاق وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْکُمْ بِبَعِيدٍ يحتمل أن يريد: ليس مکانهم ببعيد من مکانکم، أو ليس زمانهم ببعيد من زمانکم، أو ليسوا ببعيد منکم فی السبب الموجب لعقوبتهم، و هو مطلق الکفر، و أفرد لفظ بعيد لمثل ما سبق فی وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار و التوبة فقال: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّی رَحِيمٌ وَدُودٌ و قد تقدّم تفسير: الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فی أوّل السورة، و تقدّم تفسير: الرحيم، و المراد هنا: أنه عظيم الرحمة للتائبين. و الودود: المحبّ. قال فی الصّحاح: وددت الرجل أودّه ودّا: إذا أحببته، و الودود: المحب، و الودّ و الودّ و الودّ: المحبة؛ و المعنى هنا: أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به، و سوق الخير إليه، و دفع الشرّ عنه. و فی هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار و التوبة. و جملة: قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ کَثِيراً مِمَّا تَقُولُ مستأنفة کالجمل السّابقة، و المعنى: أنک تأتينا بما لا عهد لنا به: من الإخبار بالأمور الغيبية کالبعث و النشور، و لا نفقه ذلک: أى: نفهمه کما نفهم الأمور

الحاضرة المشاهدة. فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازا؛

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۰

و قيل: قالوا ذلک إعراضا عن سماعه؛ و احتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم، فلا يكون نفى الفقه حقيقة، بل مجازا. يقال فقه يفقه: إذا فهم، فقها و فقها، و حكى الكسائى فقهانا، و يقال فقه فقها: إذا صار فقيها وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً أى: لا قوّة لک تقدر بها على أن تمنع نفسک منا، و تتمكن بها من مخالفتنا؛ و قيل: المراد أنه ضعيف فى بدنه، قاله علىّ بن عيسى؛ و قيل: إنه كان مصابا ببصره. قال النحاس: و حكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى: ضعيف، أى: قد ضعف بذهاب بصره، كما يقال له:

ضرير، أى: قد ضرّ بذهاب بصره؛ و قيل: الضعيف: المهين، و هو قريب من القول الأوّل وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ رهط الرجل: عشيرته الذين يستند إليهم و يتقوّى بهم، و منه: الراهط: لجحر اليربوع، لأنه يتوثق به و يخبأ فيه ولده، و الرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، و إنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به، مع كونهم فى قلة، و الكفار ألوف مؤلفة، لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ حتى نكفّ عنک لأجل عزتک عندنا، بل تركنا رجمک لعزة رهطک علينا، و معنى لرجمناک: لقتلناک بالرجم و كانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، و قيل: معنى لرجمناک: لشتمناک، و منه قول الجعدى:

تراجمنا بمرّ القول حتّى نصير كأنّنا فرسا رهان

و يطلق الرجم على اللعن، و منه الشيطان الرجيم، و جملة: قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ مستأنفة، و إنما قال: أعزّ عليكم من اللّه، و لم يقل: أعزّ عليكم منى، لأن نفى العزّة و إثباتها لقومه، كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى، استهانة به، و الاستهانة بأنبياء اللّه استهانة باللّه عزّ و جلّ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليهم من اللّه، فاستنكر ذلک عليهم، و تعجب منه، و ألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، و لا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، و فى هذا من قوّة المحاجّة؛ و وضوح المجادلة؛ و إلقام الخصم الحجر؛ ما لا يخفى، و لأمر ما سمّى شعيب: خطيب الأنبياء، و الضمير فى وَ اتَّخَذْتُمُوهُ راجع إلى اللّه سبحانه.

و المعنى: و اتخذتم اللّه عزّ و جلّ بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله إليكم وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أى: منبوذا وراء الظهر لا تبالون به؛ و قيل: المعنى: و اتّخذتم أمر اللّه الذى أمرنى بإبلاغه إليكم، و هو ما جئتكم به، وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا قصرت فيه، و ظهريا، منسوب إلى الظهر، و الكسر لتغيير النسب إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم و أفعالكم وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ لما رأى إصرارهم على الكفر و تصميمهم على دين آبائهم، و عدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم و نهاية استطاعتهم، يقال: مكن مكانة: إذا تمكن أبلغ تمكن، و أخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه و يقدّر اللّه له؛ ثم بالغ فى التهديد و الوعيد بقوله: سَوْفَ تَعْلَمُونَ أى: عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير اللّه و الإضرار بعباده، و قد تقدّم مثله فى الأنعام مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ من: فى محل نصب بتعلمون، أى: سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذلّ و الفضيحة و العار وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ معطوف على: من يأتيه؛ و المعنى: ستعلمون من هو المعذب و من

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۱

هو الكاذب؟ و فيه تعريض بكذبهم فى قولهم: لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ؛ و قيل:

إن: من، مبتدأ، و ما بعدها صلتها، و الخبر محذوف، و التقدير: من هو كاذب فسيعلم كذبه و يذوق وبال أمره. قال الفراء: إنما جاء ب: هو فى مَنْ هُوَ كاذِبٌ لأنهم لا يقولون من قائم: إنما يقولون من قام، و من يقوم، و من القائم، فزادوا هو ليكون جملة

تقوم مقام فعل و يفعل. قال النحاس: و يدل على خلاف هذا قول الشاعر:

من رسولى إلى الثريّا بأنّى ضقت ذرعا بهجرها و الكتاب

وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ أى: انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به اللّه بيننا وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أى: لما جاء عذابنا، أو أمرنا بعذابهم؛ نجينا شعيبا و أتباعه الذين آمنوا به بِرَحْمَةٍ مِنَّا لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم، و هى: هدايتهم للإيمان وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه و ظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر الصَّيْحَةُ التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، و فى الأعراف: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ و كذا فى العنكبوت. و قد قدّمنا أن الرجفة: الزلزلة، و أنها تكون تابعة للصيحة لتموّج الهواء المفضى إليها فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ أى: ميتين. و قد تقدّم تفسيره و تفسير: كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها قريبا، و كذا تفسير: أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ و حكى الكسائى: أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ: كما بعدت ثمود بضم العين. قال المهدوى: من ضم العين من بعدت فهى لغة يستعمل فى الخير و الشرّ، و بعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل فى الشرّ خاصة، و هى هنا بمعنى اللعنة.

و قد أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ قال: رخص السعر وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ قال: غلاء السعر. و أخرج ابن جرير عنه بَقِيَّتُ اللَّهِ قال:

رزق اللّه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ يقول: حظّكم من ربّكم خير لكم. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد قال: طاعة اللّه. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله:

أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ قال: أ قراءتك. و أخرج ابن عساكر عن الأحنف: أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله: أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا قال:

نهاهم عن قطع هذه الدنانير و الدراهم فقالوا: إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء، إن شئنا قطعناها، و إن شئنا أحرقناها، و إن شئنا طرحناها. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه. و أخرجنا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا. و أخرج عبد الرزاق، و ابن سعد، و ابن المنذر، و أبو الشيخ، و عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قال: يقولون إنك لست بحليم و لا رشيد. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة قال: استهزاء به. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً قال: الحلال.

فتح القدير، ج‏2، ص: 592

و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة فى قوله: وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ قال:

يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر و أركبه. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله:

وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ قال: إليه أرجع. و أخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ قال: «قلت: يا رسول اللّه أوصنى، قال: قل اللّه ربى ثم استقم، قلت: ربى اللّه و ما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب، قال: ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شربا و نهلته نهلا، و فى إسناده محمد بن يوسف الكديمى. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن قتادة: لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي لا يحملنكم فراقى. و أخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: شقاقى عداوتى. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى قال: لا تحملنكم عداوتى. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير عن قتادة فى قوله: وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ قال: إنما كانوا حديثى عهد قريب بعد نوح و ثمود. و أخرج أبو الشيخ و ابن عساكر عن سعيد بن جبير: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان أعمى، و إنما عمى من بكائه من حبّ اللّه عزّ و جلّ. و أخرج الواحدى، و ابن عساكر، عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم

«بكى شعيب عليه السلام من حبّ اللّه حتى عمى». و أخرج ابن أبى حاتم، و الحاكم، و صححه، و الخطيب، و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان ضرير البصر. و أخرج أبو الشيخ عن أبى صالح مثله. و أخرج أبو الشيخ عن سفيان فى قوله: وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان أعمى، و كان يقال له خطيب الأنبياء.

و أخرج أبو الشيخ عن السدّى قال: معناه إنما أنت واحد. و أخرج أبو الشيخ عن علىّ بن أبى طالب: أنه خطب فتلا هذه الآية فى شعيب وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً قال: كان مكفوفا، فنسبوه إلى الضعف وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ قال علىّ: فو اللّه الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا قال: نبذتم أمره.

و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن قتادة قال فى الآية: لا تخافونه. و أخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال: تهاونتم به.

[سورة هود (11): الآيات 96 الى 108]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (100)

وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (105)

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)

فتح القدير، ج‌2، ص: 593

المراد بالآيات: التوراة، و السّلطان المبين: المعجزات؛ و قيل: المراد بالآيات: هى التسع المذكورة فى غير هذا الموضع، و السّلطان المبين: العصا، و هى و إن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر؛ و قيل: المراد بالآيات: ما يفيد الظنّ، و السلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى؛ و قيل: هما جميعا عبارة عن شى‌ء واحد، أى: أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية؛ و كونه سلطانا مبينا؛ و قيل: إن السلطان المبين: ما أورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أى: أرسلناه بذلك إلى هؤلاء.

و قد تقدّم أن الملأ أشراف القوم، و إنما خصّهم بالذكر دون سائر القوم، لأنهم أتباع لهم فى الإصدار و الإيراد، و خصّ هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ أى: أمره لهم بالكفر، لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح، إذ كفر قومه من الأشراف و غيرهم إنما هو مستند إلى كفره، و يجوز أن يراد بأمر فرعون:

شأنه و طريقته، فيعمّ الكفر و غيره وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أى: ليس فيه رشد قط، بل هو غىّ و ضلال، و الرشيد بمعنى: المرشد، و الإسناد مجازى، أو بمعنى ذى رشد، و فيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ من قدمه بمعنى تقدّمه، أى:

يصير متقدما لهم يوم القيامة سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدّمهم فى الدنيا فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ أى: إنه لا يزال متقدّما لهم و هم يتبعونه حتى يوردهم النار؛ و عبر بالماضى: تنبيها على تحقق وقوعه، ثم ذمّ الورد الذى أوردهم إليه، فقال: وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ لأن الوارد إلى الماء الذى يقال له: الورد، إنما يرده ليطفىء حرّ العطش، و يذهب ظمأه، و النار على ضدّ ذلك، ثم ذمهم بعد ذمّ المكان الذى يردونه، فقال: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً أى: أتبع قوم فرعون مطلقا، أو الملأ خاصة، أو هم و فرعون فى هذه الدنيا لعنة عظيمة، أى: طردا و إبعادا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: و أتبعوا لعنة يوم القيامة، يلعنهم أهل المحشر جميعا، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم، على طريقة التهكم، فقال: بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ. قال الكسائى و أبو عبيدة: رفدته، أرفده، رفدا: أمنته و أعطيته، و اسم العطية: الرفد، أى: بئس العطاء و الإعانة ما أعطوهم إياه، و أعانوهم به، و المخصوص بالذمّ محذوف، أى: رفدهم، و هو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا و الآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمدّ الأخرى الأولى و تؤبدها. و ذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أنّ الرّفد بالفتح: القدح، و بالكسر: ما فيه من الشراب فكأنه ذمّ ما يستقونه فى النار، و هذا أنسب بالمقام، و قيل: إن الرفد: الزيادة، أى: بئس ما يرفدون به بعد الغرق، و هو الزيادة، قاله الكلبى؛ و الإشارة بقوله: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ أى: ما قصه اللّه سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة و ما فعلوه مع أنبيائهم، أى: هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، و قد تقدّم تحقيق معنى القصص، و الضمير فى: منها، عائد إلى القرى، أى: من القرى قائم، و منها حصيد، و القائم: ما كان قائما على عروشه، و الحصيد: ما لا أثر له؛ و قيل: القائم: العامر، و الحصيد: الخراب؛ و قيل: القائم: القرى الخاوية على عروشها، و الحصيد: المستأصل بمعنى محصود، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه و المقطوع، قال الشاعر:

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۴ و النّاس فى قسم المنيّة بينهم كالزّرع منه قائم و حصيد

وَ ما ظَلَمْناهُمْ بما فعلنا بهم من العذاب وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر و المعاصى فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ أى: فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون اللّه شيئا من العذاب لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ أى: لما جاء عذابه وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ الهلاك و الخسران، أى: ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا و خسرانا، و قد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ قرأ الجحدرى و طلحة بن مصرف أخذ على أنه فعل و قرأ غيرهما أَخْذُ على المصدر إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ أى: أهلها و هم ظالمون إِنَّ أَخْذَهُ أى: عقوبته للكافرين أَلِيمٌ شَدِيدٌ أى: موجع غليظ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أى: فى أخذ اللّه سبحانه لأهل القرى، أو فى القصص الذى قصّه على رسوله؛ لعبرة و موعظة لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر، و يتعظون بالمواعظ، و الإشارة بقوله:

ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة، أى: يجمع فيه الناس للمحاسبة و المجازاة وَ ذلِكَ أى: يوم القيامة يَوْمٌ مَشْهُودٌ أى: يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيه الخلائق، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ أى: و ما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عين اللّه سبحانه وقوع الجزاء بعده يَوْمَ يَأْتِ قرأ أهل المدينة و أبو عمرو و الكسائى بإثبات الياء فى الدرج، و حذفها فى الوقف. و قرأ أبيّ و ابن مسعود بإثباتها وصلا و وقفا.

و قرأ الأعمش بحذفها فيهما، و وجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائى أن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم، فحذفت الياء كما تحذف الضمة. و وجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك.

و حكى الخليل و سيبويه أن العرب تقول لا أدر، فتحذف الياء و تجتزئ بالكسر. و أنشد الفراء فى حذف الياء:

كفّاك كفّ ما تليق درهماجودا و أخرى تعط بالسّيف الدّما

قال الزجّاج: و الأجود فى النحو إثبات الياء، و المعنى: حين يأتى يوم القيامة لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ أى:

لا تتكلّم، حذفت إحدى التاءين تخفيفا، أى: لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام؛ و قيل: لا تكلم بحجة و لا شفاعة إِلَّا

بِإِذْنِهِ سبحانه- لها فى التكلم بـذلك، و قـد جمع بين هذا و بين قوله هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ- وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ «١» باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامـة. و قـد تكرّر مثل هـذا الجمع فى مواضع فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ أى: من الأنفس شقىّ، و منهم سعيد؛ فالشقىّ من كتبت عليه الشقاوة، و السعيد من كتبت له السعادة، و تقديم الشقىّ على السعيد لأن المقام مقام تحذير فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ أى: فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرّون فى النار لهم فيها زفير و شهيق. قال الزجّاج: الزّفير من شدّة الأنين، و هو المرتفع جدّا، قال: و زعم أهل اللغة من البصريين و الكوفيين أن الزفير: بمنزلة ابتداء صوت الحمير. و الشهيق: بمنزلة آخره؛ و قيل الزفير: الصوت الشديد، و الشهيق: الصوت الضعيف؛ و قيل: الزفير: إخراج النفس، و الشهيق: ردّ النفس؛ و قيل: الزفير من

(١). المرسلات: ٣٥- ٣٦.

الصدر، و الشهيق من الحلق، و قيل: الزفير: ترديد النفس من شدّة الخوف، و الشهيق: النفس الطويل الممتد، و الجملة إما مستأنفة كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ أو فى محل نصب على الحال خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أى: مدّة دوامهما.

و قد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التّوقيت، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار فى النار، و عدم انقطاعه عنهم، و ثبت أيضا أن السموات و الأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا، فقالت طائفة: إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشىء، قالوا: هو دائم ما دامت السموات و الأرض، و منه قولهم: لا آتيك ما جنّ ليل، و ما اختلف الليل و النهار، و ما ناح الحمام و نحو ذلك. فيكون معنى الآية أنهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلك و لا انتهاء له؛ و قيل: إن المراد سموات الآخرة و أرضها، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات و أرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا، و هى دائمة بدوام دار الآخرة، و أيضا لا بدّ لهم من موضع يقلهم، و آخر يظلهم، و هما أرض و سماء. قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال: الأوّل أنه من قوله: فَفِي النَّارِ كأنه قال: إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك. روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى. الثانى: فى الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، و أنهم يخرجون بعد مدة من النار، و على هذا يكون قوله سبحانه: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا عاما فى الكفرة و العصاة، و يكون الاستثناء من خالدين، و تكون ما بمعنى من، و بهذا قال قتادة و الضحاك و أبو سنان و غيرهم. و قد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصا لكلّ عموم. الثالث: أن الاستثناء من الزفير و الشهيق، أى: لهم فيها زفير و شهيق إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ من أنواع العذاب غير الزّفير و الشّهيق، قاله ابن الأنبارى. الرابع: أن معنى الاستثناء: أنهم خالدون فيها ما دامت السموات و الأرض لا يموتون إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدّد اللّه خلقهم؛ روى ذلك عن ابن مسعود. الخامس: أن إلا بمعنى سوى. و المعنى ما دامت السموات و الأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود، كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له حكاه الزجاج. السادس: ما روى عن الفراء و ابن الأنبارى و ابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك: و اللّه لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، و نوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء اللّه، فالمشيئة قد حصلت جزما، و قد حكى هذا القول الزجاج أيضا. السابع:

أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات و الأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم فى قبورهم و للحساب، حكاه الزجاج أيضا. الثامن: أن المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم، و زيادة العذاب لأهل الجحيم؛ حكاه أيضا الزجاج، و اختاره الحكيم الترمذى. التاسع أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء، و المعنى و ما شاء ربك من الزيادة، قال مكى: و هذا

القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو.
العاشر: أن إلا بمعنى الكاف. و التقدير: كما شاء ربك، و منه قوله تعالى: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «۱» أى كما قد سلف، الحادى عشر: أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء

---

(۱). النساء: ۲۲.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۶
الذى ندب إليه الشارع فى كل كلام فهو على حدّ قوله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ «۱» روى نحو هذا عن أبى عبيد، و هذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم. و قد نوقش بعضها بمناقشات، و دفعت بدفوعات، و قد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ قرأ الأعمش و حفص و حمزة و الكسائى سُعِدُوا بضم السين، و قرأ الباقون بفتح السين، و اختار هذه القراءة أبو عبيد و أبو حاتم. قال سيبويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقى فلان لكونه مما لا يتعدى قال النحاس: و رأيت علىّ ابن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية، و هذا لحن لا يجوز، و معنى الآية كما مرّ فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا. قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قد عرف من الأقوال المتقدّمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أى يعطيهم اللّه عطاء غير مجذوذ، و المجذوذ: المقطوع، من جذه يجذه إذا قطعه، و المعنى: أنه ممتد إلى غير نهاية.
و قد أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقول: أضلّهم فأوردهم النار. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و أبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال:
فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار. و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ قال: الورود: الدخول. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ قال: لعنة الدنيا و الآخرة. و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عنه: مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ يعنى قرى عامرة، و قرى خامدة. و أخرج أبو الشيخ عن قتادة:
منها قائم يرى مكانه، و حصيد لا يرى له أثر. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج: منها قائم خاو على عروشه، و حصيد ملصق بالأرض. و أخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم: فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ قال: ما نفعت. و أخرج ابن جرير، و ابن المنذر، و أبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله: وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ أى: هلكة.
و أخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال: تخسير. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة معناه. و أخرج البخارى، و مسلم، و غيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه سبحانه و تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ. و أخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ يقول:
إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم. و أخرج ابن أبى شيبة، و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ قال: يوم القيامة. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ عن مجاهد مثله. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله: يَوْمَ يَأْتِ قال:
ذلك اليوم. و أخرجه الترمذى، و حسنه، و أبو يعلى، و ابن جرير، و ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: «لما نزلت فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ قلت: يا رسول اللّه! فعلام نعمل على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم

يفرغ منه؟ قال: بل على شىء قد فرغ منه و جرت

(۱). الفتح: ۲۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۷

به الأقلام يا عمر، و لكن كلّ ميسر لما خلق له». و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن ابن عباس قال: هاتان من المخبئات قول اللّه: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ و يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا أما قوله: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة، يعذبهم اللّه بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن فى الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون، فيخرجهم من النار، فيدخلهم الجنة، فسماهم: أشقياء حين عذبهم فى النار فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ- خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ حين أذن فى الشفاعة لهم و أخرجهم من النار و أدخلهم الجنة و هم هم وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا يعنى: بعد الشقاء الذى كانوا فيه فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ يعنى: الذين كانوا فى النار. و أخرج ابن جرير، و أبو الشيخ، و ابن مردويه عن قتادة: أنه تلا هذه الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فقال: حدّثنا أنس:

أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يخرج قوم من النار، و لا نقول كما قال أهل حروراء: إن من دخلها بقى فيها».

و أخرج ابن مردويه عن جابر قال: «قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا إلى قوله إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: إن شاء اللّه أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل». و أخرج ابن جرير، و ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: إنها فى التوحيد من أهل القبلة. و أخرج عبد الرزاق، و ابن الضريس، و ابن جرير، و ابن المنذر، و الطبرانى، و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن أبى نضرة، عن جابر بن عبد اللّه، أو عن أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله، يقول:

حيث كان فى القرآن خالدين فيها: تأتى عليه. و أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ، و البيهقى عن أبى نضرة قال: ينتهى القرآن كله إلى هذه الآية: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ قال: لكل جنة سماء و أرض. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن السدّى نحوه. و أخرج ابن أبى حاتم، و أبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا. و أخرج البيهقى فى البعث و النشور عن ابن عباس فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار، و أن يخلد هؤلاء فى الجنة. و أخرج ابن جرير عنه فى قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: استثنى اللّه من النار أن تأكلهم. و أخرج أبو الشيخ عن السدّى فى الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة اللّه ما نسخها، فأنزل بالمدينة: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إلى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها، و أوجب لهم خلود الأبد. و قوله: وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا الآية: قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة اللّه ما نسخها، فأنزل بالمدينة: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ إلى قوله: ظِلًّا ظَلِيلًا «۱» فأوجب لهم خلود الأبد. و أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: قال عمر: لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه. و أخرج إسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال: «سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، و قرأ

(۱). النساء: ۵۷.

فتح القدير، ج۲، ص: ۵۹۸

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا الآية». و أخرج ابن المنذر، و أبو الشيخ عن إبراهيم: «ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: و قال ابن مسعود «ليأتينّ عليها زمان تخفق أبوابها». و أخرج ابن جرير عن الشعبي قال: «جهنم أسرع الدارين عمرانا و أسرعها خرابا». و أخرج عبد الرزاق، و ابن جرير، و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ قال: اللّه أعلم بتثنيته على ما وقعت؟ و قد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر، و أبو هريرة، و ابن مسعود كابن عباس و عبد اللّه بن عمر و جابر و أبي سعيد من الصحابة، و عن أبي مجلز، و عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، و غيرهما من التابعين. و ورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى ابن عجلان الباهلي. و إسناده ضعيف. و لقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة، و في السكوت عنه غنى، فقال: و لا يخدعنك قول المجبرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم و يسجل بافترائهم، و ما ظنك بقوم نبذوا كتاب اللّه لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، ثم قال: و أقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه و مقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. انتهى.

و أقول: أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار، فالقائل بذلك- يا مسكين- رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما صحّ عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السّنّة المطهّرة، و كما صحّ عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر؛ فمالك و الطعن على قوم عرفوا ما جهلته و عملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة؛ و أيّ مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلّة الصّحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك و قال به جمهور العلماء من السلف و الخلف؛ و أما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم و يسجل بافترائهم فلا مناداة و لا مخالفة، و أيّ مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة. فالاستثناء الأوّل يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار، و الاستثناء الثاني يحمل على معنى: إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، و ذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدّة التي لبثوا فيها في النار؛ و قد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره. و به قال ابن عباس حبر الأمة. و أما الطعن على صاحب رسول اللّه و حافظ سنته و عابد الصحابة عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنه، فإلى أين يا محمود، أ تدري ما صنعت، و في أي واد وقعت، و على أي جنب سقطت؟ و من أنت حتى تصعد إلى هذا المكان و تتناول نجوم السماء بيدك القصيرة و رجلك العرجاء، أما كان لك في مكسري طلبتك من أهل النحو و اللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف و التكلم بما لا تدري، فيا للّه العجب ما يفعل القصور في علم الرواية و البعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه و لا أوقفها حيث أوقفها اللّه سبحانه.

[سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۵]

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۲) وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۱۱۳)
وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٥٩٩

لما فرغ اللّه سبحانه من أقاصيص الكفرة و بيان حال السّعداء و الأشقياء، سلى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى له عن الامتراء فى أن ما يعبدونه غير نافع و لا ضار و لا تأثير له فى شى‏ء. و حذف النون فى فَلا تَكُ لكثرة الاستعمال، و المرية: الشك، و الإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلّى اللّه عليه و سلم، و قيل المعنى: لا تك فى شك من بطلان ما يعبد هؤلاء؛ و قيل: لا تك فى شك من سوء عاقبتهم. و لا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى، و هذا النهى له صلّى اللّه عليه و سلّم هو تعريض لغيره ممن يداخله شى‏ء من الشك، فإنه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يشك فى ذلك أبدا. ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل، و فى هذا استثناء تعليل للنهى عن الشك. و المعنى: أنهم سواء فى الشرك باللّه و عبادة غيره، فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، و جاء بالمضارع فى: كما يعبد آباؤهم، لاستحضار الصورة. ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ من العذاب كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شى‏ء. و انتصاب غير: على الحال، و التوفية لا تستلزم عدم النقص، فقد يجوز أن يوفى و هو ناقص كما يجوز أن يوفى و هو كامل؛ و قيل: المراد نصيبهم من الرزق، و قيل: ما هو أعمّ من الخير و الشرّ وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ أى: التوراة فَاخْتُلِفَ فِيهِ أى: فى شأنه و تفاصيل أحكامه، فآمن به قوم و كفر به آخرون، و عمل بأحكامه قوم، و ترك العمل ببعضها آخرون، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى: لولا أن اللّه سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم: أى بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأثيب المحقّ و عذب المبطل، أو الكلمة هى أنّ رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم و لم يعاجلهم لذلك؛ و قيل: إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، و هذا من جملة التسلية له صلّى اللّه عليه و سلّم ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أى:

من القرآن إن حمل على قوم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام، و المريب: الموقع فى الريبة. ثم جمع الأوّلين و الآخرين فى حكم توفية العذاب لهم، أو هو و الثواب فقال: وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ قرأ نافع و ابن كثير و أبو بكر و إن بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة و عملت فى «كُلًّا»، النصب، و قد جوّز عملها الخليل و سيبويه، و قد جوّز البصريون تخفيف إن مع إعمالها، و أنكر ذلك الكسائى و قال: ما أدرى على أىّ شى‏ء قرئ وَ إِنَّ كُلًّا؟ و زعم الفراء أن انتصاب كُلًّا بقوله ليوفينهم، و التقدير و إن ليوفينهم كلا، و أنكر ذلك عليه جميع النحويين، و قرأ الباقون بتشديد إِنَ و نصبوا بها كلا. و على كلا القراءتين: فالتنوين فى كلا عوض عن المضاف إليه، أى: و إن كل المختلفين. و قرأ عاصم و حمزة و ابن عامر لَمَّا بالتشديد، و خففها الباقون. قال الزجاج: لام لما لام إن، و ما: زائدة مؤكدة،

فتح القدير، ج‏٢، ص: ٦٠٠

فتح القدير ج‏٣ ٤

و قال الفراء: ما بمعنى: من، كقوله: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَ «١» أى: و إن كلا لمن ليوفينهم؛ و قيل:

ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد، و التقدير: و إن كلا لمن خلق. قيل: و هى مركبة، و أصلها: لمن ما، فقلبت النون ميما و اجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى، حكى ذلك النحاس عن النحويين. و زيف الزجاج هذا و قال: من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون. و ذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا، و منه قوله تعالى: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ «٢» و قال المازنى: الأصل لما المخففة ثم ثقلت. قال الزجّاج: و هذا خطأ، إنما يخفف المثقل و لا يثقل المخفف. و قال

أبو عبيد القاسم بن سلام:

يجوز أن يكون التشديد من قولهم لممت الشىء ألمه: إذا جمعته، ثم بنى منه فعلى كما قرئ ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا «٣» و أحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية. و قد روى ذلك عن الخليل و سيبويه و جميع البصريين و رجّحه الزجّاج و يؤيده أن فى حرف أبىّ و إن كلّا إلا ليوفينهم كما حكاه أبو حاتم عنه. و قرئ بالتنوين:

أى جميعا. و قرأ الأعمش وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا بتخفيف إن و رفع كل و تشديد لما، و تكون: إن على هذه القراءة نافية إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ أيها المختلفون خَبِيرٌ لا يخفى عليه منه شىء، و الجملة تعليل لما قبلها، ثم أمر سبحانه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ أى: كما أمرك اللّه، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به و جميع ما نهاه عنه، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، و أمته أسوته فى ذلك، و لهذا قال: وَ مَنْ تابَ مَعَكَ أى: رجع من الكفر إلى الإسلام و شاركك فى الإيمان، و هو معطوف على الضمير فى فاستقم، لأن الفصل بين المعطوف و الضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد، أى: و ليستقم من تاب معك و ما أعظم موقع هذه الآية و أشدّ أمرها، فإن الاستقامة- كما أمر اللّه- لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة و الذوات المقدسة، و لهذا يقول المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم «شيّبتنى هود» كما تقدّم وَ لا تَطْغَوْا الطغيان مجاوزة الحد، لما أمر اللّه سبحانه بالاستقامة المذكورة؛ بين أن الغلوّ فى العبادة؛ و الإفراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذى حدّه؛ و المقدار الذى قدّره ممنوع منه منهىّ عنه، و ذلك كمن يصوم و لا يفطر، و يقوم الليل و لا ينام، و يترك الحلال الذى أذن اللّه به، و رغب فيه، و لهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه «أما أنا فأصوم و أفطر؛ و أقوم و أنام، و أنكح النساء؛ فمن رغب عن سنّتى فليس منى»، و الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لأمته تغليبا لحالهم على حاله، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يجازيكم على حسب ما تستحقون، و الجملة تعليل لما قبلها. قوله وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا. قرأ الجمهور بفتح الكاف، و قرأ طلحة بن مصرّف و قتادة و غيرهما تَرْكُنُوا بضم الكاف. قال الفرّاء: و هى لغة تميم و قيس، قال أبو عمرو: و قراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز، قال: و لغة تميم بكسر التاء و فتح الكاف، و هم يكسرون حرف المضارعة فى كل ما كان من باب علم يعلم. و قرأ ابن أبى عبلة بضم التاء و فتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه. قال فى الصحاح: ركن إليه يركن بالضم. و حكى أبو زيد ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما، أى: مال إليه و سكن. قال اللّه تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا و أما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع

---

(١). النساء: ٧٢.

(٢). الطارق: ۴.

(٣). المؤمنون: ۴۴.

بين اللغتين انتهى. و قال فى شمس العلوم: الركون السكون يقال ركن إليه ركونا، قال اللّه تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا انتهى. و قال فى القاموس: ركن إليه كنصر و علم و منع ركونا: مال و سكن انتهى، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل و السكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير، و هكذا فسره المفسرون بمطلق الميل و السكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف؛ و من المفسرين من ذكر فى تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبى فى تفسيره: الركون حقيقته الاستناد و الاعتماد و السّكون إلى الشىء و الرضا به. و من أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخصّ من معناه اللغوى. فروى عن قتادة و عكرمة فى تفسير الآية أن

معناها: لا تودوهم و لا تطيعوهم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية: الركون هنا الإدهان، و ذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم، و قال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم.

و قد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل خاصة، و إن معنى الآية النهى عن الركون إلى المشركين، و أنهم المرادون بالذين ظلموا، و قد روى ذلك عن ابن عباس؛ و قيل: إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر و مسلم، و هذا هو الظاهر من الآية: و لو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: و قد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة و السلاطين و الأمراء حتى ورد فى بعض ألفاظ الصحيح: «أطيعوا السّلطان و إن كان عبدا حبشيا رأسه كالزّبيبة». و ورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة، و ما لم يظهر منهم الكفر البواح، و ما لم يأمروا بمعصية اللّه. و ظاهر ذلك أنهم و إن بلغوا فى الظلم إلى أعلى مراتبه، و فعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية اللّه؛ و من جملة ما يأمرون به تولى الأعمال لهم، و الدّخول فى المناصب الدّينية التى ليس الدخول فيها من معصية اللّه؛ و من جملة ما يأمرون به الجهاد، و أخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، و إقامة الشّريعة بين المتخاصمين منهم، و إقامة الحدود على من وجبت عليه؛ و بالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم و نهيهم فى كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية اللّه، و لا بدّ فى مثل ذلك من المخالطة لهم و الدخول عليهم، و نحو ذلك مما لا بدّ منه، و لا محيص عن هذا الذى ذكرناه، من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة، لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ «١» بل ورد: أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة، و إن منعوا ما هو عليهم للرعايا، كما فى بعض الأحاديث الصحيحة «أعطوهم الذى لهم، و اسألوا اللّه الذى لكم» بل ورد الأمر بطاعة السلطان، و بالغ فى ذلك النبى صلّى اللّه عليه و سلّم حتى قال: «و إن أخذ مالك و ضرب ظهرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل و السكون فمجرّد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة، هى ميل و سكون؛ و إن اعتبرنا الميل و السكون ظاهرا و باطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة، أو للتقية و مخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة،

---

(١). النساء: ٥٩.

إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن و لا محبة و لا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية اللّه، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدّمنا الإشارة إليها، و لا شك فى هذا و لا ريب، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل فى شيء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصية اللّه كالمناصب الدينية و نحوها، إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه، فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال: جائز له، و أما ما ورد من النهى عن الدخول فى الإمارة: فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة و السلاطين و الأمراء، جمعا بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الإمارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة، و أما مخالطتهم و الدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم و عدم ميل النفس إليهم و محبتها لهم، و كراهة المواصلة لهم لو لا جلب تلك المصلحة، أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا، فهو مخصّص بالأدلة على مشروعية جلب المصالح و دفع المفاسد، و الأعمال بالنيات، و إنّما لكلّ امرئ

ما نوى، و لا تخفى على اللّه خافية؛ و بالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله و أفعاله و ما يأتى و ما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك «فعلى نفسها براقش تجنى» و من قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له و الأليق به.

يا مالك يوم الدين، إياك نعبد و إياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين لا يخافون فيك لومة لائم، و قوّنا على ذلك و يسّره لنا، و أعنّا عليه. قال القرطبى فى تفسيره:

و صحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار. انتهى. و قال النيسابورى فى تفسيره: قال المحققون: الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة، أو تحسين الطريقة و تزيينها عند غيرهم، و مشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لرفع ضرر و اجتلاب منفعة عاجلة، فغير داخلة فى الركون. قال:

و أقول هذا من طريق المعاش و الرخصة، و مقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ «١» انتهى.

قوله: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بسبب الركون إليهم، و فيه إشارة إلى أن الظّلمة أهل النار، أو كالنار، و مصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، و جملة: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ فى محل نصب على الحال من قوله: فتمسكم النار. و المعنى: أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم و ينقذكم منها ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ من جهة اللّه سبحانه، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا و تمرّدا. قوله: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ لما ذكر اللّه سبحانه الاستقامة خصّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان، و انتصاب: طرفى النهار، على الظرفية، و المراد: صلاة الغداة و العشىّ، و هما:

الفجر و العصر، و قيل: الظهر موضع العصر، و قيل: الطرفان الصبح و المغرب، و قيل: هما الظهر و العصر.

و رجّح ابن جرير أنهما الصبح و المغرب، قال: و الدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ أى: فى زلف من الليل، و الزلف: الساعات القريبة

---

(١). الزمر: ٣۶.

فتح القدير، ج٢، ص: ۶٠٣

بعضها من بعض، و منه سميت المزدلفة: لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة. و قرأ ابن القعقاع و أبو إسحاق و غيرهما: زُلُفاً بضم اللام: جمع زليف، و يجوز أن يكون واحدة زلفة. و قرأ ابن محيصن: بإسكان اللام. و قرأ مجاهد: زلفى مثل فعلى. و قرأ الباقون: زُلَفاً بفتح اللام كغرفة و غرف. قال ابن الأعرابى: الزلف: الساعات، واحدتها زلفة. و قال قوم: الزلفة أوّل ساعة من الليل بعد مغيب الشمس.

قال الأخفش: معنى زلفا من الليل: صلاة الليل. إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ أى: إن الحسنات على العموم، و من جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم؛ و قيل: المراد بالسيئات: الصغائر، و معنى يذهبن السيئات: يكفرونها حتى كأنها لم تكن، و الإشارة بقوله: ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ إلى قوله: فَاسْتَقِمْ و ما بعده. و قيل: إلى القرآن. ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ أى: موعظة للمتّعظين وَ اصْبِرْ على ما أمرت به من الاستقامة و عدم الطغيان و الركون إلى الذين ظلموا، و قيل: إن المراد الصبر:

على ما أمر به دون ما نهى عنه، لأنه لا مشقة فى اجتنابه، و فيه نظر، فإن المشقة فى اجتناب المنهىّ عنه كائنة، و على فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر، فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ أى: يوفيهم أجورهم، و لا يضيع منها شيئا، فلا يهمله، و لا يبخسه بنقص.

و قد أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ

مَنْقُوصٍ قال: ما قدّر لهم من خير أو شرّ. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن زيد فى الآيهٔ قال: من العذاب. و أخرجا عن أبى العاليهٔ. قال: من الرزق. و أخرجا أيضا عن قتادهٔ فى قوله: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال: أمر اللّه نبيه أن يستقيم على أمره، و لا يطغى فى نعمته. و أخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآيهٔ قال: استقم على القرآن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال:

لما نزلت هذه الآيهٔ فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ قال: شمروا، شمروا، فما رؤى ضاحكا. و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وَ مَنْ تابَ مَعَكَ قال: آمن. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن العلاء بن عبد اللّه ابن بدر فى قوله: وَ لا تَطْغَوْا قال: لم يرد أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إنما عنى: الذين يجيئون من بعدهم.

و أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس وَ لا تَطْغَوْا يقول: لا تظلموا. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: الطغيان: خلاف أمره، و ارتكاب معصيته. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله:

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا قال: يعنى الركون إلى الشرك. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر عنه وَ لا تَرْكَنُوا قال: لا تميلوا. و أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه أيضا قال: وَ لا تَرْكَنُوا لا تدهنوا.

و أخرج أبو الشيخ عن عكرمهٔ فى الآيهٔ قال: أن تطيعوهم أو تودّوهم أو تصطنعوهم. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ قال: صلاهٔ المغرب و الغداهٔ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: صلاهٔ العتمهٔ. و أخرجا عن الحسن قال: الفجر و العصر وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: هما زلفتان: صلاهٔ المغرب و صلاهٔ العشاء. قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «هما زلفتا الليل». و أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال: صلاهٔ الفجر، و صلاتى العشىّ:

فتح القدير، ج‏۲، ص: ۶۰۴

يعنى الظهر و العصر وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: المغرب و العشاء. و أخرج ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ قال: ساعهٔ بعد ساعهٔ، يعنى صلاهٔ العشاء الآخرهٔ. و أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء، و يقرأ: زلفا من الليل. و أخرج ابن جرير و محمد بن نصر و ابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ قال: الصلوات الخمس. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبهٔ و محمد ابن نصر و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ قال: الصلوات الخمس، و الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. و أخرج البخارى و مسلم و أهل السنن و غيرهم عن ابن مسعود: أن رجلا أصاب من امرأهٔ قبلهٔ، فأتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ فقال الرجل: يا رسول اللّه ألى هذه؟ قال: «هى لمن عمل بها من أمتى». و أخرج أحمد و مسلم و أبو داود و غيرهم عن أبى أمامهٔ. أن رجلا أتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فقال: يا رسول اللّه أ قمّ فىّ حدّ اللّه مرّهٔ أو مرّتين، فأعرض عنه، ثم أقيمت الصلاهٔ، فلما فرغ قال: أين الرجل؟ قال: أنا ذا، قال: أتممت الوضوء و صليت معنا آنفا؟ قال: نعم. قال: فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد، و أنزل اللّه حينئذ على رسوله:

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ». و فى الباب أحاديث كثيرهٔ بألفاظ مختلفهٔ، و وردت أحاديث أيضا «إن الصّلوات الخمس كفارات لما بينهنّ». و أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ قال: هم الذين يذكرون اللّه فى السرّاء و الضرّاء، و الشدّهٔ و الرخاء، و العافيهٔ و البلاء.

و أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لما نزع الذى قبّل المرأهٔ تذكر فذلك قوله ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ

[سورة هود (11): الآيات 116 الى 123]

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (١١٧) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)

وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (١٢١) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

هـذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم: أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد و يأمر بالرشاد، فقال: فَلَوْ لا أي: فهلّا كانَ مِنَ الْقُرُونِ الكائنة مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ من الرأى و العقل و الدين يَنْهَوْنَ قومهم عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ و يمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع اللّه له بين جودة العقل، و قوّة الدين، و فى هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، و البقية فى الأصل

فتح القدير، ج٢، ص: ٦٠٥

لما يستبقيه الرجل مما يخرجه، و هو لا يستبقى إلا أجوده و أفضله، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة، و الاستثناء فى: إِلَّا قَلِيلًا منقطع؛ أي: لكن قليلا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ ينهون عن الفساد فى الأرض، و قيل:

هو متصل، لأن فى حرف التحضيض معنى النفى، فكأنه قال: ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم، و من فى ممن أنجينا، بيانية لأنه لم ينج إلا الناهون؛ قيل: هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ و قيل: هم أتباع الأنبياء و أهل الحق من الأمم على العموم وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ معطوف على مقدّر الكلام، تقديره: إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد؛ و المعنى: أنه اتبع الذين ظلموا- بسبب مباشرتهم الفساد و تركهم للنهى عنه- ما أترفوا فيه.

و المترف: الذى أبطرته النعمة، يقال صبىّ مترف: منعم البدن، أي: صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش و رفاهية الحال و سعة الرزق، و آثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة و استغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية؛ و قيل: المراد بالذين ظلموا تاركو النهى. و ردّ بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا و هم أشدّ ظلما ممن لم يباشر، و كان ذنبه ترك النهى. و قرأ أبو عمرو فى رواية عنه وَ اتُّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا على البناء للمفعول، و معناه: اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، و جملة: وَ كانُوا مُجْرِمِينَ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، و هى معطوفة على أترفوا، أي: و كان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، و الإجرام: الآثام. و المعنى: أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات بها عن الأمور التى يحق الاشتغال بها، و يجوز أن تكون جملة: وَ كانُوا مُجْرِمِينَ معطوفة على و اتبع الذين ظلموا؛ أي: اتبعوا شهواتهم و كانوا بذلك الاتباع مجرمين وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ أي: ما صحّ و لا استقام أن يهلك اللّه سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به و هو الشرك، و الحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لا يظلمون الناس شيئا، و المعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضمّ إليه الفساد فى الأرض، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال و الميزان و بخس الناس أشياءهم، و أهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء؛ و قيل: إن قوله: بِظُلْمٍ حال من الفاعل. و المعنى: و ما كان اللّه ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض. و يكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه و تعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه على

تصوير ذلـك بصورة ما يستحيل منه، و إلّا فكل أفعاله كائنـة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيـد. قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى: و ما كان ربك ليهلك أحدا و هو يظلمه، و إن كان على نهاية الصـلاح لأن تصـرفه فى ملكه، دليله قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً «١» و قيل المعنى: و ما كان ليهلكهم بذنوبهم و هم مصلحون: أى مخلصون فى الإيمان، فالظلم المعاصـى على هـذا. وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِـدَةً أى: أهل دين واحـد، إما أهل ضـلالة، أو أهل هـدى؛ و قيل معناه: جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه، أو مجتمعين على دين الإسـلام دون سـائر الأديـان و لكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، و لهـذا قـال وَ لا ـ يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ فى ذات بينهم على أديان شتى، أو لا يزالون مختلفين فى الحق أو دين الإسـلام، و قيل: مختلفين فى الرزق: فهذا غنىّ، و هذا فقير.

---

(١). يونس: ۴۴.

فتح القدير، ج ٢، ص: ۶٠۶

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ بالهدايـة إلى الـدين الحق، فـإنهم لم يختلفوا، أو إلا ـ من رحم ربك من المختلفين فى الحق أو دين الإسـلام، بهـدايته إلى الصواب الـذى هو حكم اللّه، و هو الحق الـذى لا ـ حق غيره، أو إلا من رحم ربك بالقناعـة. و الأولى تفسـير: لجعل الناس أمة واحدة، بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ واضحا غير محتاج إلى تكلف وَ لِذلِكَ أى: لما ذكر من الاختلاف خَلَقَهُمْ أو لرحمته خلقهم، و صـحّ تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى، و الضـمير فى خلقهم راجع إلى النـاس، أو إلى: من فى: من رحم ربك؛ و قيل: الإشارة بـذلك إلى مجموع الاختلاف و الرحمـة، و لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ «١» وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا «٢» فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا «٣». قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ معنى تمت ثبتت كما قـدّره فى أزله، و إذا تمت امتنعت من التغيير و التبـديل و قيـل الكلمـة: هى قـوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ أى: ممن يستحقّها من الطائفتين، و التنوين فى وَ كُلًّا للتعويض عن المضاف إليه، و هو منصوب بنقص. و المعنى: و كل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقصّ عليك: أى نخبرك به. و قال الأخفش كُلًّا حال مقدّمة كقولك:

كلا ـ ضـربت القوم، و الأنبـاء: الأخبـار مـا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ أى: مـا نجعـل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصـناه عليك و وفور طمأنينته، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب و أرسخ فى النفس و أقوى للعلم، و جملة ما نُثَبِّتُ بدل من أنباء الرسل، و هو بيان لكلا، و يجوز أن يكون ما نُثَبِّتُ مفعولا لنقصّ، و يكون كلا مفعولا مطلقا، و التقدير: كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقصّ عليك ما نثبت به فؤادك وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ أى: جاءك فى هذه السورة، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صـحة المبدأ و المعـاد وَ مَوْعِظَةٌ يتعظ بهـا الواقـف عليهـا من المـؤمنين وَ ذِكْرى يتـذكر بهـا من تفكر فيهـا منهم، و خصّ المـؤمنين لكـونهم المتأهلين للاتعاظ و التذكر؛ و قيل المعنى: و جاءك فى هذه الدنيا الحق، و هو النبوّة؛ و على التفسـير الأوّل يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيهـا مع كونه قـد جـاء فى غيرها من السور لقصـد بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بهـذا الحق و لا يتعظون و لا يتذكرون اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ على تمكنكم و حالكم و جهتكم، و قد تقـدّم تحقيقه إِنَّا عامِلُونَ على مكانتنا و حالنا و جهتنا من الإيمان بالحق و الاتعاظ و التـذكر، و فى هـذا تشديـد للوعيد و التهديد لهم، و كـذلك قوله: وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ فيه من الوعيـد و التهديد ما لا يخفى. و المعنى: انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم و مـا يحـلّ بكم من عـذاب اللّه و عقوبته وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى علم جميع مـا هو غـائب عن العبـاد فيهما؛ و خصّ الغيب من كونه يعلم بمـا هو مشـهود، كمـا يعلم بمـا هو مغيب، لكونه من العلم الـذى لا يشاركه فيه غيره، و قيل: إن غيب السـموات و الأرض: نزول العذاب من السـماء، و طلوعه من الأرض، و الأوّل أولى، و به قال أبو علىّ الفارسـى و غيره، و أضاف

الغيب إلى المفعول توسعا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ أى: يوم القيامة فيجازى كلاـ بعمله. و قرأ نافع و حفص يُرْجَعُ على البناء للمفعول.

و قرأ الباقون على البناء للفاعل فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ فإنه كافيك كل ما تكره، و معطيك كل ما تحبّ،

---

(١). البقرة: ٦٨.

(٢). الإسراء: ١١٠.

(٣). يونس: ٥٨.

و الفاء لترتيب الأمر بالعبادة، و التوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى اللّه سبحانه وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ بل عالم بجميع ذلك و مجاز عليه إن خيرا فخير، و إن شرّا فشر. و قرأ أهل المدينة، و الشام و حفص تَعْمَلُونَ بالفوقية على الخطاب. و قرأ الباقون بالتحتية.

و قد أخرج ابن أبى حاتم عن مالك فى قوله فَلَوْ قال: فهلّا. و أخرج ابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال: أقرأنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: فلو لاـ كان من القرون من قبلكم أولو بقية و أحلام ينهون عن الفساد فى الأرض. و أخرج أبو الشيخ عن ابن جريج إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ يستقلهم اللّه من كل قوم. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ قال: فى ملكهم و تجبرهم و تركهم الحق. و أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ من طريق ابن جريج قال: قال ابن عباس: أترفوا فيه أبطروا فيه، و أخرج الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمى عن جرير قال:

«سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسأل عن تفسير هذه الآية وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «و أهلها ينصف بعضهم بعضا». و أخرجه ابن أبى حاتم و الخرائطى فى مساوئ الأخلاق موقوفا على جرير. و أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً قال: أهل دين واحد، أهل ضلالة، أو أهل هدى. و أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ قال: أهل الحق و أهل الباطل إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قال: أهل الحق وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال: للرحمة. و أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عنه إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قال: إلاـ أهل رحمته فإنهم لا يختلفون. و أخرج ابن أبى حاتم عنه قال: لا يزالون مختلفين فى الأهواء. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ أى: اليهود و النصارى و المجوس و الحنيفية، و هم الذين رحم ربك الحنيفية. و أخرج هؤلاء عن الحسن فى الآية قال: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال: للاختلاف. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن مجاهد وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ قال: أهل الباطل إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قال: أهل الحق وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ قال: للرحمة. و أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن عكرمة نحوه. و أخرجا عن الحسن قال: لا يزالون مختلفين فى الرزق. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عباس و لذلك خلقهم قال: خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف، و فريقا لا يرحم يختلف، فذلك قوله فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ. و أخرج جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ لتعلم يا محمد ما لقيت الرّسل قبلك من أممهم. و أخرج عبد الرزاق و الفريابى و سعيد ابن منصور و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ قال: فى هذه السورة. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى مثله. و أخرج ابن جرير و

أبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله أيضا. و أخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن قتادة قال: فى هذه الدنيا. و أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

فتح القدير، ج۲، ص: ۶۰۸

عن قتادة اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أى: منازلكم. و أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريج وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ قال: يقول انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزيّن لكم، و فى قوله وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ قال: فيقضى بينهم بحكم العدل. و أخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد المسند، و ابن الضريس فى فضائل القرآن، و ابن جرير و أبو الشيخ عن كعب قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، و خاتمة التوراة خاتمة هود وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إلى آخر الآية.

بحمد اللّه تعالى تمّ طبع الجزء الثانى، و يليه الجزء الثالث و أوّله: تفسير سورة يوسف عليه السلام

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بنُ موسَى الرِّضا – علـَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فى تلخيص بحـار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشـَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثـَّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابِذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علـَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنـَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسة و طريقة لم يَنطفِئ مِصباحُها، بل تـُتـَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنـَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع مِن خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتـَّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثـَّقـَلـَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـَّباب و عموم الناس إلى التـَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطـُّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنـّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثـَّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالـَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...
د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ
ه) إنتاج المُنتجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة
و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS
ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...
ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة
ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنة
المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد"/ ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی"/بناية"القائميّة"
تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجرية القمريّة)
رقم التسجيل: ٢٣٧٣
الهويّة الوطنيّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)
الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)
مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)
التِجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩
امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥(٠٣١١)
ملاحَظة هامّة:
الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنَّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلک، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.